دكتور السعيد السيد عبادة

أبو العلاء الناقد الأدبي

دار المعارف

إهــــــداء 2005

أ.د./ السعيد السيد عبادة

القاهرة

بسم الله

أهدى هذه النسخة إلى مكتبة الإسكندرية
لعلها تنفع وتفيد والله ولي التوفيق

دكتور السعيد السيد عبادة

أبو العلاء الناقد الأدبي

892.78
3409
A3165 أ

مِنَ النَّاسِ مَنْ لَفْظُهُ لُؤْلُؤٌ ... يُبَادِرُهُ اللَّقْطُ إِذْ يُلْفَظُ
وَبَعْضُهُمُ قَوْلُهُ كَالْحَصَى ... يُقَالُ، فَيُلْغَى، وَلَا يُحْفَظُ

أبو العلاء المعري

الطبعة الأولى

١٩٨٧

١٥٣٩٤

دار المعارف

الناشر : دار المعارف ١١١٩ كورنيش النيل ـ القاهرة ـ ج ٠ م ٠ ع

بسم الله الرحمن الرحيم

المقـــــدمة

أحمدك اللهم على ما هديت ، وأشكرك على ما أنعمت به وأوليت ، وأصلى وأسلم على خاتم أنبيائك ، صلاة وسلاما دائمين ، وأحتسب ما بذلت فى هذا العمل خالصا لوجهك فتقبله منى • وبعد :

فليس هذا البحث دراسة لجانب بأكمله من جوانب أبى العلاء ، بل هو – على التحقيق – دراسة لشطر من جـانب الناقد فيـه ، ذلك الجانب الذى ينتظم – مع نقده للأدب – نقده لغيره من أقوال المجتمع وعقائده ومعارفه وأفعاله •

أى ان الناقد الأدبى فى أبى العلاء – على هذا – ليس الا جزءا من جانب من جوانب شخصيته الضخمة •••

واذا كان الجزء الخاص بنقده للمجتمع قد حظى بغير قليل من عناية الباحثين ودراستهم الى حد أن توفر عليه بعضهم (١) ، فان نقده للأدب لم يحظ بغير التناول الجزئى المحدود لبعض قضاياه ••• وبقيت جملته بعد ذلك لم يدرسها أحد • ومن ثم كان اختيارى له واقبالى عليه ، أى من أجل جدته التى يمكن أن يجليها البحث ، ويضيف بها لبنة جديدة الى هيكل الشخصية العام •

---

(١) الدكتور زكى المحاسنى فى « أبو العلاء ناقد المجتمع » •

لكن تجلية هذه الجدة لم تكن بالأمر السهل ، بل كانت معاناة متصلة ، لأننى لم أكد أمضى فى البحث حتى تتابعت على مشكلات كان لابد من حلها ، وفاء بأمانة البحث واستيفاء لأبعاده . وأخص ما أذكر منها :

زيف بعض المصادر ، وعدم اطراد النقد فى جملتها ، وغموضه أحيانا .

أما الزيف فقد كان فيما نسب الى أبى العلاء من مؤلفات ليست له فى الحقيقة ، على الرغم من ان له كتبا بأسمائها فى فهرست كتبه . أعنى « شرح المشكل من ديوان الحماسة » و « معجز أحمد أو اللامع العزيزى فى شرح شعر المتنبى » .

ولئن كان هذا الزيف واضحا فى الأول ، لقد كان غامضا مبهما فى الثانى ، اذ لم يكلفنا اكتشافه فى نسخة الأول الموجودة بدار الكتب المصرية غير قراءة مقدمته التى تعنى أنه ألف بعد أبى العلاء ، وفى القرن السابع خاصة كما بينا فى الفصل الثانى .

على حين كان سبق بعض الدارسين الى الثقة بالثانى – مع تعدد نسخه التى بلغت اثنتى عشرة نسخة موزعة فى مكتبات العالم – كما شرحت فى الفصل الثانى أيضا =

كان ذلك كله داعيا الى مزيد من النظر والبحث والموازنة قبل الحكم ، وهو ما اضطلعت به على مشقته ، وانتهيت منه الى نفى نسبة الكتاب الى أبى العلاء ، أولا : لاستشهاد صاحبه فى غير موضع بآراء المعرى وأشعاره . وثانيا : لعدم موافقة مافيه لما وجدت من نصوص « المعجز واللامع » الحقيقيين ، عند من نقلوا منهما مباشرة ، كالتبريزى – تلميذ أبى العلاء – الذى ضمن كتابه « الموضح » معظم نصوص « اللامع » ان لم تكن كلها ، وابن معقل الأزدى الذى نقد « اللامع » كله فى كتابه « المآخذ » على

شراح ديوان المتنبى » ، **وابن أبى الاصبع** المصرى الذى نقل ـ دون غيره ـ نصا من « معجز أحمد » فى كتابه « بديع القرآن » .

ولئن أدى هذا التحقيق الى انتفاء المزيف من « اللامع والمعجز » لقد وصلنى ـ وأفاد البحث ـ بالموثق من نصوصهما فى هذه المصادر ، خصوصا «المآخذ والموضح» ، اللذين تكلفت تصويرهما لهذا الغرض ، الأول من نسخته المصورة بمعهد المخطوطات ، والثانى من نسخته الفريدة بالمكتبة الأهلية بباريس .

وعلى قدر هذا الاهتمام بتوثيق المصادر كان الاهتمام أيضا باستقصائها ، وهو الاستقصاء الذى وصلنى بثلاثة مخطوطات لأبى العلاء لم تنلها يد الدارسين بعد ، وكانت صورها التى حصلت عليها من أهم مصادر البحث وأجداها وهى :

خمس رسائل : بدار الكتب المصرية .

رسالة الاغريض وشرحها : بمعهد المخطوطات .

ضوء السقط : بالمكتبة الأهلية بباريس .

وأما عدم اطراد نقد المعرى فى جملة مصادره حتى لم تكد تخلص له أو تخلو منه = فهو من خصائصه التى عنتنا من وجهين :

أولهما : ضرورة قراءة ما بقى ـ وصحت نسبته اليه ـ قراءة دقيقة شاملة ، لتتبع نقده **المبثوث فى أثنائها** .

وثانيهما : ضرورة البحث عما لعله بقى من كتبه الضائعة عند من نقلوا عنها ، **كالتبريزى وابن معقل وغيرهما** ...

وأما ما لقيت من غموض هذا النقد فله سببان :

أحدهما : أن أكثر مصادره لم يحقق حتى الآن تحقيقا علميا ينقيه من التصحيف والتحريف ، فكان لابد فى تناوله من الدقة والتروى ، بل كان لابد من ذلك فيما حقق أيضا ، بدليل ما وجدت فى « رسالة الغفران » التى حققتها الدكتورة بنت الشاطىء ، فقول المعرى مثلا ـ على لسان ابن القارح لعدى بن زيد :

(وما كنت أختار لك أن تقول :

ياليتَ شعْرِى وَانَ ذو عَجَّةٍ

لأنك لا تخلو من أحد أمرين :

اما أن تكون وصلت همزة القطع ، وذلك ردىء ...

واما أن تكون حقّقَت الهمزة فجعلتها بَيْن بين ، ثم اجترت على تصييرها ألفا خالصة ، وحسبك بهذا نقضا للعادة ...) (٢) .

هذا القول قد أثبتت فيه «حققت» فى جميع الطبعات حتى الخامسة الآن بالقاف ، (٢) وهو مالا يجوز فيما يبدو ، لأن جعل الهمزة بين بين، ثم تصييرها ألفا خالصة انما يكون مع التخفيف لامع التحقيق (٣) .

والآخر : أن بعض هذا النقد من أدب المعرى الذى تصنع فى صياغته ما وسعه التصنع بالغريب والبديع والمصطلحات ، حتى اقتضى من أجل هذا التصنع جهدا آخر لتفهم صياغته واستبطان ما وراءها .

---

(٢) انظر : رسالة الغفران ـ تحقيق : بنت الشاطىء ـ
ص ٧٤ ط ١ دار المعارف ١٩٥٠ .
ص ١٨٢ ط ٢ دار المعارف ١٩٥٧ .
ص ١٩٠ ط ٣ دار المعارف ١٩٦٣ .
ص ١٩٠ ط ٤ دار المعارف ١٩٦٨ .
ص ١٩٠ ط ٥ دار المعارف ١٩٦٩ .

(٣) انظر : كتاب سيبويه ١٦٣/٢ (طبعة بولاق) .

على أن ما عانيته فى حل هذه المشكلات لم يثمر فقط فى تذليلها ، بل أثمر أيضا فى انضاج خطة البحث ومنهجه ، حتى جاء فى أمثل وأحكم ما تصورت من خططه ومناهجه ٠

فهو ـ كما ترى بعد هذه المقدمة ـ ينتظم خمسة فصول وخاتمة :

الفصل الأول : عوامل تكوين الناقد الأدبى فى أبى العلاء = من وراثته وزمانه ومكانه وقدراته ومزاجه ٠٠

الفصل الثانى : مصادر نقده = من الرواية عنه وتصانيفه ٠٠٠

الفصل الثالث : اتجاهات نقده وخصائصه ٠٠

الفصل الرابع : أصداء نقده فى أدبه = من حيث ابداعه ولغته ومعانيه وصنعته وموسيقاه وبناؤه الفنى وغايته ٠٠٠

الفصل الخامس : نقده فى آثار الدارسين = قدامى ومحدثين ، ممن تأثروا به أو نقدوه ٠

الخاتمة : وهى خلاصة مركزة للنتائج العامة التى انتهى اليها البحث ٠٠

وانما بدأت بعوامل التكوين ـ دون ما عرف وساد فى دراسة الشخصيات من وصف الحياة والعصر ـ لأنها هى التى تقفنا ـ من أول الأمر ـ على مدى أهلية المعرى للنقد ، وقدرته عليه ، وطبيعة ذوقه فيه ٠٠٠ بينما يقصر عن ذلك وصف الحياة والعصر ، لأنه باطاره المعروف لا يستوعب المؤثرات ولا يتعمقها ٠

ثم ثنيت بمصادر نقده ليس لمجرد توثيقها ، بل أيضا لاستيضاح مدى نشاطه النقدى فيها من جهة ، والمجال الزمانى والمكانى والأدبى لهذا النشاط من جهة أخرى ٠

ولم أختر فى عرض نقده مجرد وصفه فى كل مصدر على حدة كما يفعل بعض الدارسين ، فيمزق الوحدة القائمة ، ويقصر فى تحديد المذهب الخاص ، بل اخترت تصنيفه الى اتجاهاته التى تضمنها ، ثم عرض كل منها بأقصى ما يمكن من التحليل والتفصيل والتعليل ، لأن هذا الاطار - فضلا عن جمعه بين الأشباه فى المصادر المختلفة - كان أعون على تحديد خصائصه ومزاياه .

وقصدت بالرابع - بعد الثالث - الى تحديد مدى العلاقة بين ذوق الناقد وطبع الأديب فى أبى العلاء ، من حيث اتحادهما فى الغاية - وهى نشدان الجمال - بالتعبير فى أحدهما ، والتذوق فى الآخر .

أما الخامس فكان حقه التقديم على الثالث من حيث دلالته على مدى تعريف السابقين لى بنقد أبى العلاء ، لكن زيادة هذه الدلالة بالتصور لنقده ولاتجاهاته ولأصدائه جعلت من الأنسب تأخيره الى هذا الموضع .

هذا عن الشكل العام المنهج ، أما ما توخيته فى كل فصل فهو أن أعرض مادته فى حدود الموضوعات التى ينتظمها ، مع الاعتماد فى هذا العرض على النصوص ، ومع التحليل والموازنة والحكم كلما اقتضى الأمر .

كذلك توخيت فى عرض نقد أبى العلاء أن أدل على ما سبق فى مجاله ان كان ، وأن أنوه بجدته ان كانت ، وأن أشير الى امتداد أثره فى حياتنا النقدية ان كان له هذا الامتداد .

وعلى الرغم من أن البحث - كما قدمت - عن جزء محدود فى الشخصية ، لم يكن بد فى دراسته من رؤية شاملة لجوانبها كلها ، كما يبدو من الحديث عن تكوينه الذوقى فى الفصل الأول ، ومن تحليل نقده فى الفصل الثالث ...

ولا غرابة فى هذا ، لأن الحديث عن جانب وثيق الصلة بالجوانب الاخرى فى شخصية معقدة التكوين كما سنرى .

ولما كانت الحقيقة ـ دون غيرها ـ رائدى وغايتى فى هذا البحث ، حاولت ، جهدى أن أتجنب ما أخذت على الآخرين من ظلم واعتساف ، فلم أتعصب للمعرى أو عليه ، ولم أتعقب السابقين بغير الحق ، ولم أعتسف النصوص لغاية مقدرة ، ولم أفرط فى البعد عما يعرضنى لكلمة نقد من متعقب ...

لكننى ـ مع ذلك ـ لا أدعى الكمال ، ولا أبرىء نفسى ، لأننى ما نظرت فيما كتبت الا وجدت أنه لو زيد كذا لكان أحسن ، ولو حذف كذا لكان يستحسن ..

ولله الحمد أولا وآخرا ، انه هو حسبى ونعم الوكيل .

منشية البكرى فى ١١ من صفر سنة ١٣٩٣هـ

١٦ من مارس سنة ١٩٧٣ م

الفصل الأول

عوامل تكوين الناقد الأدبى فى أبى العلاء

(أ) عوامل عـامة : الوراثة ، الزمان والمكـــان .

(ب) عوامل خاصة : فقده لبصره ، استعداده الذوقى ، ذكاؤه ، ثقافتـه ، اتجـــاهه الفلسفى ، اعتقـــاده ، خلقـــه ، ســـخريته ، قدرته الابداعية ، قدرته التعليمية ، استشراف الشعراء لرأيه فيهم .

العوامل العـامة

١ ـ **الوراثة** : لاشك انها أول المؤثرات فى تكوين الشخص جنينا وناشئا ، وأن الالتفات اليها فى التعريف به من دواعى فهمه وتقويمه . لهذا نبدأ بها ، فنرى أن أبا العلاء من حيث النسب عربى صميم ، لا خلاف بين مؤرخيه جميعا فى ذلك ، وان اختلفوا في بعض حلقات هذا النسب وفى نهايته ...

فهو : أبو العلاء أحمد بن عبد الله بن سليمان بن محمد بن سليمان ابن أحمد بن سليمان : سليل الساطع ، الذى ينتهى نسـبه الى تيم الله ـ مجتمع تَنُوخ ـ ثم الى قُضاعة ، ثم الى قَحطان (١) .

أما خصائص هذا النسب ومزاياه فلا زال فى وعى التاريخ من أخبارها الكثير ، كان الفضل فى بقائه وحفظه لاثنين من مؤرخيه ، هما ابن العديم فى كتابه الفريد عن أبى العلاء (الانصاف والتحرى) ، ومعاصره ياقوت فى موسوعته الضخمة (معجم الادباء) ، كلاهما سجل ما وجده من هذه الأخبار ، لكن ابن العديم ـ ربما لطبيعة كتابه المتخصصة ـ كان أبعد شأوا من صاحبه ، لأنه فصل أخبار النسب من القبيلة الى الأسرة ؛ على حين اختصر ياقوت أخبار الأسرة اختصارا يعوزه كثير من التحقيق ، مما جعلنا أكثر اعتمادا على الأول وثقة به ..

وعلى الرغم من هذا التفاوت الواضح بينهما ، لا يمثل ما سجلاه فى جملته الا عراقة فى العز والفضل ونباهة فى العلم والأدب .

---

(١) تعريف القدماء بأبى العلاء ص

فتنوخ ـ قبيلته التى ينسبه اليها مؤرخوه ـ : « كانت من أكثر العرب مناقب وحسبا ، ومن أعظمها مفاخر وأدبا ، وفيهم الخطباء والفصحاء والبلغاء والشعراء » .

وبنو الساطع ـ أعز بطون تنوخ الذين منهم بيوت المعرة ـ : « هم المشهورون بالشرف والسؤدد ، والرياسة والشجاعة ، والجود والفضل » .

وبنو سليمان ـ سليل الساطع ـ الذين هم أسرة أبى العلاء : « أكثر قضاة المعرة وفضلائها وعلمائها وشعرائها وادبائها منهم » .

فمن نابهى بنى سليمان فى سلسلة نسب أبى العلاء :

جد جده : أبو الحسن سليمان بن أحمد ، أول من تولى منهم قضاء المعرة سنة ٢٩٠ هـ

جـد أبيه : ـ ابن السابق ـ أبو بكر محمد بن سليمان بن أحمد ، ولى قضاء المعرة بعد موت أبيه ، وكان فاضلا أديبا ممدوحا ، وفيه يقول الصنوبرى :

بِأبِى يابنَ سُلَيْمَا نَ لقد سُدت تَنُوخَا
وهمُ السَّادةُ شُبَّا نًا لعَمْرِى وشُيُوخا
أدرك البُغْيَةَ مَنْ أَضـحَى بنَادِيك مُنِيخَـا

وفى الشمعة يقول هو :

وَصفْرَاء كالتِّبْر مَقْدُودَة تَسُرُّ وتُؤْنِسُ جُلَّاسَهَا
تموتُ إذا أهمَلُوا أمْرَهَا وتَحْيَا إذَا قَطَعُوا رأْسَهَا
وَيَفْنَى الدُّجَى بسَنَى نُورها إذا شَهدَ القَيْضُ أنْفَاسَهَا(٢)

---

(٢) المرجع السابق ص ٤٨٩ ، ٤٩٠ .

جده : أبو الحسن سليمان بن محمد ، الذى تولى قضاء المعرة بعد موت أبيه ، ثم حمص . كان أيضا فاضلا فصيحا شاعرا محدثا ... روى عنه ابنه أبو محمد عبد الله ، وحفيده الشيخ أبو العلاء أحمد بن عبد الله ، ومن شعره قوله فى الناعورة :

وباكيةٍ على النهـــر تَئِنُّ وَدَمْعُهَا يَجْرى
تُذكِّرنى بأَحبابي وَحَالى ليلةَ النَّفْـــر
وأُذْرى مثلَ ماتُذْرى وأُسْعِدُهَا وَمَـا تَدْرى (٣)

أبوه : أبو محمد عبد الله بن سليمان ... القاضى ، الذى ولد سنة ثلاثين وثلاثمائة ، وتوفى بمعرة النعمان سنة خمس وتسعين وثلاثمائة . روى عن افاضل شيوخ الشام فى حلب والمعرة ، وعلى رأسهم أبوه سليمان وابن خالويه .. وروى عنه ابنه أبو العلاء . وكا نفاضلا أديبا لغويا شاعرا (٤) .

أما فضله : فقد صوره ابنه أبو العلاء فى أبيات من مرثيته فيه حيث يقول :

مَضى طَاهِرَ الجُثْمَانِ والنفس والكَرَى
وسُهْدِ المُنَى والجَيْبِ والذَّيْلِ والرُّدْنِ
فيَالَيْتَ شِعْرى هلْ يَخِفّ وقـــارُه
إذا صَارَ أُحْدٌ فى القيامَةِ كالعِهْنِ (٥)

---

(٣) المرجع السابق ص ٤٩١ ، النفر : التفرق . وأذرى : أصب . وأسعدها : أعينها .

(٤) المرجع السابق ص ٤٩٢ .

(٥) شروح السقط ٢/٩٠٩ — ٩١١ .
الكرى : النوم ، السهد : ضده . والردن : الكم . العهن : الصوف المصبوغ .

وأما أدبه ولغويته : فحسبك منهما أنه كان المعلم الأول لابنه أبى العلاء ، وأن مما قرأه عليه كتاب (الجمهرة) لابن دريد (٦) .

وأما شاعريته : فتدل مقطوعات له فى (الانصاف) و (معجم الأدباء) على قوة عاطفته وبراعة تفننه ، ومنها قوله فى رثاء أبيه :

إنْ كان أصبحَ مَنْ أهْواهُ مُطَّرَحًا
ببابِ حِمْصَ فما حُزنى بمُطَّرَحِ
لو بَانَ أيْسَرُ ما أُخْفِيهِ مِنْ جَزَعٍ
لَمَاتَ أكثرُ أعدائى مِنَ الفَرَحِ (٧)

كما يدل قول أبى العلاء عنه فى مرثيته :

أمَوْلَى القوافى كمْ أراكَ انقيادُها
لكَ الفصحاءَ العُرْبُ كالْعَجَمِ اللُّكْنِ

على أنه تلقى عنه ميراثه الشعرى (٨) .

أخواه : أبو المجد محمد ـ أكبر الاخوة الذى اتصل عقبه ـ : كان فاضلا أديبا شاعرا وله ديوان شعر مجموع ... كما كان ممن روى عنهم أبو العلاء (٩) . ومن شعره فى الزهد :

كرمُ المُهَيْمِنِ مُنْتَهَى أمَلِى ... لا نِيَّتِى أرجُو ولا عَمَلِى
يامُفْضِلاً جَلَّتْ فَوَاضِلُهُ ... عن بُغْيَتِى حتى انتهَى أجَلِى
إنْ لم يكن لى ماأَلُوذُ بهِ ... يومَ الحساب فإنَّ عَفْوَكَ لِى (١٠)

---

(٦) بغية الطلب ٢٠٣/١ أ .
(٧) تعريف القدماء ص ٦٩ .
(٨) أبو العلاء المعرى ص ٢٠ .
(٩) تعريف القدماء ص ٤٥٩ .
(١٠) المرجع السابق ص ٦٩ .

= وأبو الهيثم عبد الواحد ـ وهو أصغر من أبى العلاء ـ : كان شاعر مجيدا ، روى عنه أبوالعلاء شيئا من شعره ، وجمعشعره لولده زيد (١١) .

وبعد أن عد ابن العديم ثلاثة وعشرين من النابهين فى عقبهما عقب بقوله : « وكانت الفتاوى فى بيتهم ـ يعنى بنى سليمان ـ على مذهب الشافعى ـ رحمه الله ـ فى أكثر من مائتى سنة بالمعرة » (١٢) .

فاذا تجاوزنا أسرة أبيه الى أسرة أمه التى أغفلها التاريخ أو كاد ، وجدنا ـ من صفاتها فى آثاره ـ أنها لم تكن أقل شأنا .

فأمه ـ بنت محمد بن سبيكة من أهل حلب (١٣) ـ : يدل حديثه عنها فى شعره ورسائله على عمق عاطفته نحوها ، واتصال ذكره لها (١٤) .

وخالاه ـ أبو القاسم على وأبو طـــاهر المشرف ـ : ينبىء حديثه عنهما ، ورسائله اليهما ، عن عظيم اعترافه بفضلهما ، وتقديره لمكانتهما العلمية والأدبية (١٥) .

وبعد : فهذا الذى وعاه تاريخ أبى العلاء وآثاره من خصائص أسرته وأسلافه ـ فى العز والفضل والعلم والأدب ـ هو ما تحمله جنينا ، ثم تلقاه ناشئا من أبيه وذويه ، فكان الأســاس الأول لاستعداداته الخلقية والعلمية والفنية ، تلك التى نلحظها فى اعتزازه وابائه ، وفى طموحه الزائد للعلم والمجد ، وفى نبوغه المبكر فى الابداع والتذوق . وقد كانت ثلاثتها ـ كما سيأتى ـ من أهم ما تأثر به وصدر عنه فى نقده .

---

(١١) المرجع السابق ص ٤٦٣ .

(١٢) المرجع السابق ٥١١ .

(١٣) المرجع السابق ٥١١ .

(١٤) شروح السقط ١٤١٣/٤ ، ١٦٨٥ ، ورسائل أبى العلاء ٢٨ ، ٢٩ .

(١٥) شروح السقط ٧٧٠/٢ ، والرسائل ٢٨ ، ٣٦ ، ٤٠ ، ٤٢ ، ٤٤ ، ٤٨ ، ٩٢ .

٢ ـ **الزمان والمكان** : من المحقق أن أبا العــلاء عاش حياته بين عامى ـ ٣٦٣ و٤٤٩هـ ـ بمعرة النعمان ، احدى بلاد الشام التابعة لحلب آنذاك • وأن الفترة التى أظلته ـ من منتصف القرن الرابع الهجرى الى منتصف الخامس ـ قد تميزت ـ بين فترات العصر العباسى ـ بأمرين لم يجتمعا فى سواها ، هما انحطاط الحياة السياسية والاجتماعية ، ونهوض الحياة العلمية والأدبية ، على نحو رأى فيه مؤرخو الآداب عصرها الذهبى ، ومؤرخو السياسة والاجتماع عصر فسادهما وانحلالهما •

فانقسام الدولة العباسية ـ بضعف الخلفاء وقوة الطامعين ـ الى دول ودويلات لا ترتبط ببغداد أصلا كالفاطمية فى المغرب ، ثم فى مصر والشام ، أو ترتبط بها اســما كالحمدانية فى حلب والموصل ، والبويهية فى العراق وفارس • ولا ترتبط فيما بينها الا برباط العداء غالبا =

هذا الانقســام قد بلغ غايته فى عهــد أبى العلاء ـ من تمزيق الوحدة ، وضياع القوة ، وتخريب العمران ، وطمع الروم فى الثغور ـ حتى غدت رقعة الدولة بسببه مسرحا لفتن ومؤامرات وحروب لا تكاد تنقطع ، بين حكام هذه الدول والدويلات ، أو بينهم وبين الخارجين عليهم من أهليهم وذويهــم ، أوبينهم وبين الروم فى الشــام والجزيرة • مما آل بتلك الــدول منذ منتصــف القرن الرابع الى التحلل والانهيار • بعد ما ذهب الذين أسسوها بقوتهم ، وأظفروها بما ظفرت به من النهوض والاستقلال الذاتى •

وحسبك شاهدا على ذلك ما صارت اليه دولة حلب ، مسقط رأس أبى العلاء ، فقبل مولده بسنوات قضى منشئها ، وباعث نهضــتها ، ومجاهد الروم وغازيهم بها ، سيف الدولة الحمدانى ســنة ٣٥٦ هـ ، طاويا بموته أروع صفحات مجدها = وبعدما تحقق لها فى عهده ماتحقق من الاســتقلال الذاتى أصــبحت يتجــاذب ولاءهــا والســيطرة

عليهـــا قـــوى الروم فى الشـــمال ، والفاطميين فى الجنـــوب ، والعباسيين فى الشرق ، والأعراب فيما حولها ، فضلا عن القوى المتصارعة فى داخلها ، فلا تخلص لواحد حتى ينتزعها منه آخر أو ينغصها عليه هى اليوم للفاطميين ... وغدا لمواليهم ... وبعده للفاطميين ... ثم للمرداسيين ... فالفاطميين ثالثـــة ... ثم للمرداسيين ثانية ... فالفاطميين رابعة .. حتى بلغ من تعاقبوا عليها من الحكام والولاة فى تلك الفترة عشرين ، ومن الوزراء والقضاة أكثر ...

وليس الا أن تتصور ما أدى اليه ذلك :

بالنسبة الى الحكام ومن ينتمون اليهم : من مكر وخـــداع ، وفتن ومؤامرات وتواثب وتنافس ، واغـــارات وحروب ، وتســـلط وظـــلم واستحواذ على المال وانتهاز للفرصة قبل فواتها ...

وبالنسبة الى المحكومين : من قلق واضطراب ، وخراب ودمار ، وفقدان للأمن والولاء والانتماء ، فضلا عما كانوا يتعرضون له دائمـــا من ألوان الضرائب والجبايات ، وأحيانا من المصادرات والادعاءات .

وبالنسبة الى الدين والأخلاق : من ضعف لسلطانهما على النفوس . ليس فقط فى كثرة الظلم والاستبداد ، وغلبة التدابر والتقاطع ، والكذب والنفاق والغش ، بل أيضا فى موالاة البعض لأعـــداء الدين من الروم ، واستعدائه اياهم على اخوانه من المسلمين ، وهو ما جنح اليه غير واحد من حكام حلب المختلفين ، الى حد أن بعضهم سلم لهم المدينة فى بعض المـــرات .

ليس الا أن تتصور ذلك وغيره مما سجله ابن العديم (١٦) ثم تصغى الى أبى العلاء وهو يقول :

---

(١٦) زبدة الحلب ١/ ١٧٠ ـ ٢٧٥ .

مَلَّ المُقامُ فكمْ أعاشِرُ أمَّــةً   أمَرَتْ بغَيْرِ صَلاَحِهَا أُمَرَاؤُهَــا
ظَلَمُوا الرَّعيَّة واستجازُوا كَيْدَها   فَعَدَوا مَصَالحَهَا وَهُمْ أُجَرَاؤُهَا
فِرَقًا شعَرتُ بأنَّها لا تقتنى   خيرا وأن شرارها شعراؤها[17]

لترى أن فساد الحياة فى كثير من جوانبها كان مروعا وشائعا ، وأن موقفه من ذلك لم يكن الا التبرم والسخط ، والاعتزال والرفض ، والانكار والنقد ٠

فان قلت : كيف كان نهوض الحياة العلمية والأدبية اذن مع هــذا الفســـاد ؟

قلت : ليس العجب من هذا فقط ! بل من أن بعض دوافع الفساد هنا كانت فى الواقع من دوافع النهوض والازدهار هناك ـ نعنى انقسام الدولة الى دول ودويلات مستقلة أو شبه مستقلة ـ اذ كان من دواعى الاستقلال وتأكيد الذات أن يكون للدولة الناشئة ما كان للدولة الأم من صفات الجلال والسلطان ، وعلى رأسها اجتذاب الصفوة من العلمــاء والأدباء والشعراء ، والاغداق عليهم ، ليكون منهم اعوانها ودعاتهـــا والشادون بذكرها ٠ فاتسع بذلك المجال أمام العلم والأدب ٠٠ وتعددت مراكزهما ، وصار الباحث عنهما لايجد نفسه أمام بغداد فقط كما كان الحال من قبل ، بل هو واجد ـ مع بغداد ـ القاهرة وقرطبة والقيروان وحلب والموصل ، والرى وأصبهان وشيراز وجرجان ونيسابور وبخارى وسمرقند وبلخ ٠٠٠ وواجد فى هذه وفى غيرها من ذوى الفكر والفن والطبع والذوق مئات بل ألوفا ٠٠٠ لاسيما فى حلب ، كما يبـدو من تاريخ رجالها ـ «بغية الطلب» ـ لابن العديم ، وقد بقى منه ستة مجلدات مصورة بمعهد المخطوطات بالجامعة العربية ٠

---

(١٧) لزوم ما لا يلزم ١/٤٤ ٠

على أن هذا النهوض ـ فى الواقع ـ لم يكن ثمرة التنافس والتشجيع فقط ، بل هو مدين فى الجانب الأكبر من أصالته وعمقه لحركة الترجمة العلمية الضخمة ، التى بدأها المنصور ، ونماها الرشيد والمأمون ، وجنى ثمارها الطيبة الناضجة عصر أبى العلاء ·

لكنه فى كل من العلم والأدب والنقد ذو طوابع خاصة ، لعل أبرزها فى **العلم** ما نلحظه من السعة والتخصص والاستقلال · وفى **الأدب** ـ مع اتساع أغراضه ـ كلف عام بالبديع والتصوير والمبالغة ، واقبـال على التكسـب من كثيرين ، ونقد له وللفساد من البعض لاسيما أبو العلاء · وفى **النقد** : بلوغه فى هذا العصر قمة نضجه واكتماله ، وعمقه واستقلاله ، حتى كان بحق أزهى عصوره ، ومجنى ثمـاره ، ففيه انجلت معارك النقد حول أبى تمام والبحترى من جهة ، وحول المتنبى من جهة أخرى = عن كتاب (الموازنة بين الطائيين) للآمدى ، وكتاب (الوساطة بين المتنبى وخصومه) للجرجانى ، وهما ما هما فيما تضمناه من مسائل النقد وقضاياه فضلا عما اضطلعا به وألفا من أجله · فاذا أضفنا اليهما : مقدمة المرزوقى لشرح الحماسة ، وسر الفصاحة للخفاجى ، وأسرار البلاغة ودلائل الاعجاز لعبد القاهر ، والعمدة لابن رشيق ، والتوابع والزوابع لابن شهيد = رأينا أن عصر المعرى كان غاية ما وصل اليه النقد الأدبى فى القـديم ·

واذا كانت تلك صفة زمانه بخيره وشره فاعلم أنها أيضا صفة مكانه الذى عاش فيه ، لم تختلف فى كثير ـ أعنى معرة النعمان ـ تلك البلدة الواقعة بين حلب وحماة فى سورية ـ على بعد ثمانين كيلو مترا من الأولى الى الجنوب ، وثمانية وخمسين من الثانية الى الشمال (١٨) ـ : والتى يمتد تاريخها فى القديم الى ما قبل الاسلام · فقد كانت رغم ما

---

(١٨) الجامع فى أخبار أبى العلاء ١/٤٢ .

تحيفها وتعرضت له من ألوان الاضطراب أحد المراكز العلمية والأدبية فى الشام لعهد أبى العلاء ٠ وليس أدل على مكانتها العلمية والأدبية مما ذكره ابن العديم من أعلام رجالها فى كل فن لاسيما أسرة أبى العلاء (١٩) ٠ ولا على اضـــطراب أحوالها ممـــا ذكره أيضـــا فى حوادث سنة ٣٦٤ ، ٣٨٦ ، ٤٠٢ ، ٤١٦ ، ٤١٧ ، ٤٣٣ ، ٤٣٩هـ من فتن داخلية بهـــا ، وغزوات خارجية لها ، طالما أقلقت أمنها ، وعكرت صفوها (٢٠) ٠

أما أثر ذلك كله من فساد وازدهار فى تكوين المعرى الناقد فيتجلى فيما يلى :

أولا : اتاحة النضج والنشاط الثقافيين له منهلا تزود منه ومن رقى النقد فيه ما نما به فكره وذوقه ، واعتمد عليه كثيرا فى نقده ٠

ثانيا : اثارة الفساد السياسى والاجتماعى لذوقه ضد الحكام الظالمين ، والمثقفين المنحرفين ، والأدباء المتكسبين ، على مايبدو فى (اللزوميات) وغيرها ٠

ثالثا : رغبة كثير من الأمراء اليه تلمذة أو تشرفا أو استيضاحا = أن يشرح لهم بعض الدواوين أو يحققها ، مما أثاره فى أثناء ذلك لابداء كثير من الآراء النقدية الهامة التى لم تكن لولا هذه الاثارة ٠

---

(١٩) تعريف القدماء بأبى العلاء ٤٨٩ — ٥٠١ ٠

(٢٠) زبدة الحلب ١٧١/١ ، ١٩٢ ، ٢٠٠ ، ٢٣٣ ، ٢٣٤ ، ٢٥٩ ، ٢٦٧ ٠

(ب) العوامل الخاصة

١ ـ فقده لبصره : لم يختلفوا فى أنه كان من اصابته بالجدرى فى صغره ، وانما اختلفوا فى تاريخ ذلك ، فقيل : جدر فى الثالثة ، وقيل : فى الرابعة ، وقيل : وهو ابن أربع أو سبع ، وقيل : عمى فى صباه ، وقيل فى نهاية الحال (٢١) .

ولا اعتبار بهذا الخلاف مادام أبو العلاء قد حسمه بقوله فى رسالته الى داعى الدعاة الفاطمى : « قضى على وأنا ابن أربع ، لا أفرق بين البازل والربع » (٢٢) ، ومادام الثابت فى تاريخ أسرته الذى نقل منه ابن العديم أنه « اعتل علة الجدرى التى ذهب بصره منها فى جمادى الأولى سنة سبع وستين وثلاثمائة » (٢٣) ، حيث كان عمره أربع سنوات وشهرا .

فهو اذن قد عمى فى تلك السن المبكرة ، ولما يَنضُ ثوب الصبا ، أو يميز بين الأشياء تمييزا دقيقا ، حتى ليقول فى بعض ماروى عنه : « لا أعرف من الألوان الا الأحمر ، فاننى ألبست فى مرض الجدرى ثوبا مصبوغا بالعصفره ، فأنا لا أعقل غير ذلك » (٢٤) .

وكانت بهذا العمى أولى مصائبه ، أو قل مصيبة حياته التى لم تؤثر فى صورته فقط ، بل فى مزاجه وادراكه أيضا :

---

(٢١) تعريف القدماء ٣٠ ، ١٤٤ ، ٣٠١ ، ٧ ؛ ٤٦٦ .

(٢٢) المرجع السابق ١٢٢ .

والبازل من الابل : الذى طلع نابه وذلك فى التاسعة . والربع : الفصيل ينتج فى الربيع .

(٢٣) المرجع السابق ص ٥١٣ .

(٢٤) المرجع السابق ص ٢٦٥ .

أما صورته : فحسبك من تشوهها بما أصابه أنه كان ـ كما وصفوه في صباه وفى شيخوخته ـ دميم الخلقة ، مجدور الوجه ، قد غشى يمنى عينيه بياض فندرت ، وذهبت اليسرى جملة فغارت . (٢٥)

وأما مزاجه : فالظاهر أنه لم يختلف بذلك عن البصراء فى مطلع حياته ، اذ وجدناه يعد العمى من النعم المحمودة ، فيقول ـ فيما سمع منه أبو الحسن المصيصى الشاعر قبل اعتزاله ـ « أنا أحمد الله على العمى كما يحمده غيرى على البصر ، فقد صنع لى وأحسن بى اذ كفانى رؤية الثقلاء البغضاء » (٢٦) .

كما وجدناه يتعالى على محنته ، ويطمح الى مالم يسبق اليه بمثل هذا التحدى :

وإنِّى وإنْ كنْتُ الأَخيرَ زَمَانُهُ ... لآت بما لم تستطعهُ الأَوائلُ(٢٧)

لكنه لم يلبث أن ضاق بآفته لما أحس بعقم تحديه ، وأن لامكان له بها بين البصراء ، فاعتزل الدنيا والناس الى محبسه العتيد ، ومن هناك فاضت أقواله أسى وشجا ، لما ابتلى به وماصار اليه ، على هذا النحو :

مالى غَدَوْتُ كَقَافِ رُؤْبَةَ قُيِّدَتْ ... فى الدهرِ لم يُقْدَرْ لها إجْرَاؤُهَا

أُعْلِلتُ عِلَّةَ قَالَ وَهْى قديمةٌ ... أَعْيَا الأَطِبَّةَ كُلَّهُم إبْراؤُهَا(٢٨)

* * *

---

(٢٥) المرجع السابق ص ٥١٤ وندرت : ظهرت أو خرجت .
(٢٦) المرجع السابق ص ٤ .
(٢٧) شروح السقط ٥٢٥/٢ .
(٢٨) لزوم مالا يلزم ٤٤/١ وقاف رؤبة : ارجوزته المقيدة التى على القاف . قيدت : سكن رويها . واجراؤها : أن يكون لها مجرى ، وهو حركة حرف الروى . وعلة «قال» : أنه فعل أجوف لا سبيل الى تحريك عينه.

الحَقُّ لى ولأَهل الأَرض كلِّهمُ   أَنْ لايرانىَ أُخرىَ الدّهر أَصحابى
وَشِقْوَةٌ غَشِيَتْ وجهى بِنَضْرتِهِ   أَبرَّنى منْ نَعيمٍ جَرَّ إِشْحَابى (٢٩)

* * *

أَرانى فى الثلاثةِ من سُجُونِى
فلا تسأَلْ عن الخَبَرِ النَّبيثِ
لِفَقْدِى نَاظرى ولُزُوم بيتى
وكون النفس فى الجَسَدِ الخَبيث (٣٠)

وأما ادراكه فلا شك أنه فقد ـ بفقد بصره ـ وسيلة من أهم وسائله ان لم تكن أهمها ، لأن وظيفة البصر ليست فى مجرد التعرف على الألوان والأشكال والأحجام بخصائصها المرئية ، بل أيضا فى توجيه بقية الحواس .

ولا شك أنه تبعا لذلك قد اعتمد على الحواس الأخرى فيما حصل من صور وأفكار ، كانت فى الواقع أساسا لنمو خياله من جهة ، ومادة لهذا الخيال فى التأليف والابداع من جهة أخرى .

لكن الى أى مدى كان تأثر هذا الادراك بما فقد من وسائل واستغناؤه بما بقى منها ؟

لا أظننا نتصور هذا المدى على وجهه الا اذا أحطنا بما يلى :

أولا : أن أبا العلاء عمى بعد الرابعة ، أى بعد أن فتح عينيه على المرئيات مدة من عمره ، أمكنه فى نهايتها أن يعقل بعض الألوان التى ارتبطت بمأساة حياته ، وهو اللون الأحمر .

---

(٢٩) المرجع السابق ١/١٢٣ .
(٣٠) المرجع السابق ١/١٨٨ والنبيث : المستخرج المظهر .

فاذا كان من المقرر فى علم النفس الآن أن بذور التكوين النفسى والادراكى تتخلق وتتكيف فى السنوات الأربع أو الخمس الأولى (٣١) ، صح أن نفترض اذخار الطفل أبى العلاء فى تلك الفترة لكثير من خطوط الألوان والأشكال والأحجام على نحو لا يكون بالطبع لمن ولد أعمى • ومع أنه ـ كما قال ـ لم يعقل منها الا اللون الأحمر يمكن أن تكون أساسا لاشعوريا عنده لربط لاحق يتم بينها وبين مايحصله من تفاصيلها ومعالمها •

وثانيا : أنه ـ فيما يبدو ـ قد سلمت له حواسه الأخرى ، لم يصبها خلل أو اضطراب ، بل كانت ـ كما فى تاريخه ـ أحد وأرهف ماتكون ، ربما لشعوره بالنقص ، وربما لزيادة اعتماده عليها ومرانه لها • وناهيك بسمعه الذى بلغ من حدته أن يميز بين أنواع الانشاد وأنغام التلاوة • وأن يستدل من كليهما على أناس لم يعرفهم (٣٢) ، فضلا عن دقه حسه بموسيقى الشعر والغناء عموما كما سنرى •••

ان سلامة هذه الحواس فى حدة ورهافة لا تعنى فقط مجرد تفوقها فى أداء وظائفها ، بل تعنى أيضا امكان تعويضها لوظيفة البصر ، بما تمت به الخيال من مفاهيم الصور المرئية ، تلك المفاهيم التى يزداد نمو ادراكه البصرى بزيادتها •

فان قيل : ان مجاله الحركى كان ضيقا جدا تبعا لفقره ، ومركزه الاجتماعى المحدود ، وسلبيته وانطوائه بسبب العمى ، فلم يستطع أن يمنح الادراك البصرى عنده كثيرا من الانطباعات والصور الخيالية عن طريق حواسه الأخرى (٣٣) •

---

(٣١) الشخصية فى سوائها وانحرافها ص ٩ ، ١٠ •
(٣٢) تعريف القدماء ص ٥٦٤ ، ٥٦٤ •
(٣٣) أثر كف البصر على الصورة عند أبى العلاء ص ٢٠ ، ٣٩ •

قلت : ان صح أن هذا المجال كان ضيقا فى عزلته فليس بصحيح أنه كان كذلك قبلها ، اذ لم يثبت أنه كان فقيرا أو خاملا أو منطويا فى الشطر الأول من حياته ، بل الثابت أنه عاش فى كنف أبيه وسعته حتى الثانية والثلاثين (٣٤) ، رفيعا بمواهبه ومكانة أسرته ، متحركا الى غاياته فى كل اتجاه ، مرة بطلب العلم فى المعرة وحلب فى صباه ، وأخرى بمشاركته الناس فى كل فن بشعره وظرفه كما يقول المصيصى (٣٥) ، وثالثة برحلته الى بغداد فى كهولته ، واتصاله فيها بكل ألوان الحياة والنشاط على مدى سنة وسبعة أشهر كما سيأتى . وهو ان اعتزل أو افتقر بعد ذلك ـ لم ينقطع عن الناس أو ينقطعوا عنه ، بل سعوا اليه من أنحاء الدنيا ، فسمع منهم ما وعوه من أخبار ، ووصفوه من مرئيات ، الى الحد الذى جعله يقول فى صدق :

مَا كانَ فى هذه الدنْيا بَنو زَمن إلاّ وَعِنْدِى مِنْ أَخْبارِهِمْ طُرَفُ (٣٦)

وثالثا : أنه ـ عن طريق السمع ـ كان ـ كما سنرى ـ ذا ثقافة واسعة ، لم يساوه فيها أحد من معاصريه ، وناهيك باللغة من حيث ألفاظها وأدبها ، اذ كان على وعى بها أو بأكثرها ، وعى من كان يحفظ الشىء فلا ينساه كما يبدو من قوله : « ماسمعت شيئا الا وحفظته ، وماحفظت شيئا فنسيته » (٣٧) ، ومن قول التبريزى أيضا « ما أعرف أن العرب نطقت بكلمة ولم يعرفها المعرى » (٣٨) .

فاذا كان واضحا أن اللغة هى وسيلة التفاهم والتعبير فماذا يكون حظ من وعى ألفاظها ، وصور تعبيرها الأدبية من المدلولات الحسية

---

(٣٤) تعريف القدماء ص ٤٩٣ .
(٣٥) المرجع السابق ص ٤ .
(٣٦) اللزوميات ٢/١٠٠ .
(٣٧) تعريف القدماء ص ٥٥١ .
(٣٨) المرجع السابق ص ٥٦٩ .

والمعنوية ، وهى مدلولات صاغها وأداها المبصرون فى الغالب ؟

لا ريب أن وعيه لها على هذا النحو جدير أن يفى له بدقائق المرئيات ، لأنه لا يراها حينئذ بعينين فقط ، بل بكافة عيون من رأوها ووصفوها .

على أن وعيه لذلك لم يكن وعى حفاظ اللغة والأدب ، ممن كانت غاية حفظهم أن يؤدوا ماوعوا ويرووه كما حفظوه أو سمعوه ، بل وعى أديب عميق الفهم ، وشاعر قوى الشعور والاستبطان والتعاطف . وشتان ما بين من يعى كأنه القائل ، ومن يعى لمجرد الترديد ، شتان ما بينهما فى مقدار مايزيد به ادراك كل منهما وتخيله بما حفظ ووعى .

واذ قد أحطنا بهذه المؤثرات فى تكوين ادراكه وخياله يلوح لنا أنهما لم يتأثرا كثيرا بفقده لبصره ، اذ قد أتيح لهما ماعوضهما عنه أو كاد ، وآية هذا التعويض فيما نحن بصدده أمران :

أحدهما : تلك الصور الحسية عموما والبصرية خصوصا فى شعره ونثره ، مما وفق فى كثير منها الى مالم يوفق اليه غيره من المبصرين ، وسوف يرد علينا العديد منها فى ثنايا البحث .

والآخر : تذوقه ونقده لتلك الصور عنده وعند غيره من الشعراء والأدباء على نحو بلغ من دقة الفهم والملاحظة والاحاطة بجوانب الصورة ماتفوق فى بعضه ، وصحح خطأ سابقيه فى آخر ، ولم يخطئه التوفيق الا فى القليل كما سنرى فى نقده التطبيقى للتشبيه والاستعارة ...

واذا كان هذا حظه من الصور الحسية ـ مع فقده لبصره ـ فلا شك أن حظه من المعنوية بهذا الفقد كان أكثر ، لما أداه اليه من التأمل العميق والاستغراق الطويل مع زيادة محصوله من الأفكار والمعانى خاصة ، وقد كان لذلك بالطبع أثره الأكبر فى أدبه ونقده كما سيأتى ..

٢ - استعداده الذوقى : ليس مجرد عامل من العوامل المؤثرة فى التكوين ، بل هو على التحقيق أساسه المتين ، اذ لولاه لم يكن لنا من أبى العلاء ما نبحث عنه هنا ، كما هو الشأن فى جميع النقاد ، والأقوال فى ذلك مستفيضة (٣٩) .

على أن حظه من هذا الاستعداد لم يكن أقل - ان لم يكن أعظم - من حظ غيره وآية ذلك من وجوه :

أولها : وراثته الأدبية الضخمة ، اذ كان - كما أسلفنا - سليل أجيال من آبائه وأجداده أدباء وشعراء ونَبْتَ بيئة تجاوبت أرجاؤها برقيق الأدب وروائع الشعر عن أصالة واعتداد ، وتلميذا - أول ما تتلمذ - لمربيه وراعيه الى أن تفتحت مواهبه ، وهو أبوه الذى عرّفه التاريخ أديبا فاضلا ، ولغويا شاعرا ، وعرّفه هو بأخص تلك الصفات وأهمها هنا بقوله فى رثائه له :

أمَوْلى القَوافى كمْ أرَاكَ انقيادُهَا
لك الفُصَحَاء العُرْبَ كَالْعَجم اللُّكْن

وثانيها : اجماعهم على أنه قال الشعر فى الحادية عشرة أو الثانية عشرة (٤٠) ، ولا يكون ذلك فى الحقيقة الا وقد صار له ذوق فنى مميز ، لأن الذوق - كما سيأتى - أحد عناصر الشاعرية .

---

(٣٩) أنظر على سبيل المثال : الموازنة ٣٨٩/١ ، والوساطة ٢٥ ، وأسرار البلاغة ٣٨٤ ، ودلائل الاعجاز ٤١٩ فى القديم ، والغربال ١٧ : ومناهج تجديد ٣٢٥ فى الحديث .

(٤٠) تعريف القدماء ص ١٧ ، ١٨ ، ٥٥١ .

وثالثها : ما نقله ـ وانفرد به ـ ابن العديم فى (الانصاف والتحرى)، من أن ابن سعد النحوى ، راوية المتنبى ، كان يروى فى قصيدة المتنبى التى مطلعها :

أَزَائِرٌ يَاخَيَالُ أَمْ عائِدْ

ـ ولم تكن مما قرأه عليه ....

أَو مَوْضِعاً فِى فِناءِ ناحِيَةٍ يحْملُ فِى التَّاجِ هَامَةَ العاقِدْ

فرده عليه أبو االعلاء ـ وقد اجتمع معه بحلب وهو صبى ـ

أَوْ مُوضِعاً فِى فِتَانِ نَاحِيَةٍ . . . .

ولم يقبل ذلك ابن سعد ، ومضى الى نسخة عراقية ... فوجد القول ما قاله أبو العلاء (٤١) .

فان تأمل هذا الخبر لا يقف بنا عند مجرد القول بأن معارضة أبى العلاء لابن سعد كانت عن حفظه الواثق (٤٢) ، ولا عند التردد بين أن تكون عن هذا وأن تكون عن حسه المرهف (٤٣) بل يتجاوز بنا التأمل هذا الموقف ، الى الترجيح القوى بأن هذه المعارضة من أبى العلاء ، لم تكن دون حسه الذوقى ان لم تكن به وحده ، وأن هذا الحس كان من التفتح والادراك فى تلك السن المبكرة بحيث يفهم ما يقال ، ويميز جيده من رديئه ...

---

(٤١) المرجع السابق ص ٥١٥ . و «موضعا» معطوف على «خبرا» فى البيت السابق :

تُهدِى له كلَّ ساعةٍ خَبَراً عن جَحْفَلٍ تحتَ سيفه بَائِدْ

والموضع : المسرع . والفتان : غشاء من أدم يغشى به الرحل . والناجية : الناقة السريعة . وهامة العاقد : راس الوالى .

(٤٢) الجامع فى أخبار أبى العلاء ٢/٥٩٥ .

(٤٣) أبو العلاء المعرى ص ٣٧ .

ذلك أنها لم تكن ردا من تلميذ على مثله ، بل كانت رد من تلميذ ناشىء على أستاذ كبير فيما هو من أدق تخصصه ، وهو الرواية . فـادا أدى بهـذا الأستاذ ـ مع تخصصه ـ الى ما أدى ، من التوقف فى روايته ، والنهوض لتحقيقها ، لم يكن مجرد اعتراض عابر من تلميذ ناشىء ، بل لابد أنه كان مصحوبا من ثقة التلميذ وجرأته ، والحاحه على أستاذه بما أحرجه واحوجه الى أن يتوقف ويستوثق . ذلك ما نفهمه ـ دون افتراض ـ من عبارة النص « فرده عليه أبو العلاء .. ولم يقبل ذلك ابن سعد .. » ، فرده عليه : تعنى التخطئة والرفض لرواية الأستاذ . ولم يقبل : تعنى مجادلة لم يقر الأستاذ فيها تصحيح التلميذ ، ومضى الى نسخة عراقية ، كما تعنى أن ابن سعد لم يعتمد على ذوقه فى التصحيح قدر اعتمـاده على الرواية والنقل ، ربما لقصور ذوقه ، وربما لأمانته المسرفة فى النقل .

واذا كان هذا التلميذ قد ألح على أستاذه فى الرد ، وتمادى معـه على هذا النحو ، فما أظنه كان يفعل ذلك لمجرد حفظه ـ كما فهم من فهم ـ وهو أمام رواية حافظ ، يعلم هو وغيره أنه ليس أقل ثقة ممـن حفظ عنهم ، ان لم يزد عليهم ، بروايته عن الشـاعر دونهم ، وكـونه المقصود من بعدهم لتلميذهم .

انما المعقول أن يكون هذا الالحاح والتمادى من واع لمضمون الروايتين ، مميز بين المضمونين ، وذلك آية الحس الذوقى وثمرته ، كما أنه المواقق لما حرص عليه المعرى بعد نضجه من اعتداده بدرايته لا بروايته (٤٤) .. وتأمل ـ ان شئت ـ مضمون البيت مع ما قبله على الروايتين تجده على رواية أبى العلاء : أن الممدوح لعزته لا تمر به ساعة الا وتهدى له خبرا عن هلاك عدوله بسيوف جنوده ، أو بشيرا على ناقة سريعة يحمل اليـه رأس ملك فى تاجه ، بينما تجده ـ على رواية ابن سعد ـ أن كل ساعة

---

(٤٤) تعريف القدماء ص ٥١ .

تهدى له خبرا ٠٠٠ أو مكانا فى فناء ناحية تحمل رأس ملك فى تاجه وشتان ما بين المضمونين ، فضلا عن ركاكة الأسلوب على الثانى ٠

ولأن استعداده الذوقى على هذا النحو من القوة كان انبعاثه للنقد دون مثير آخر أحيانا على ما يبدو فى القسم الأول من الغفران ٠٠٠ وكانت ثقته به فى ايجاب ما يراه أو فى الاحتكام اليه كما سيأتى ٠

٣ ـ ذكاؤه : تاريخ أبى العلاء وآثاره متظاهران على أنه كان على غاية من الذكاء ، بهرت معاصريه ، وشغلت مؤرخيه ، حتى كان من الأولين من لم يصدقوا بذلك حتى اختبروه ، وكانت اختبارات ذكاء طريفة ، تعرض لها المعرى منذ صغره فى المعرة من بعض الحلبيين (٤٥) ٠ وحين سافرالى بغداد من بعض أهلها ، (٤٦) وبعد رجوعه منها من تلاميذه وغيرهم (٤٧) ٠ ثم كان من مؤرخيه من تزيد فى أخبار ذكائه فجمع منها الصحيح والمكذوب ، حتى لقد عقد ابن العديم فى (الانصاف والتحرى) فصلا خاصا فى « ذكائه وفطنته وسرعة حفظه وألمعيته ، وتوقد خاطره وبصيرته » ، جمع فيه من هذه الأخبار ما وسعه ، وحقق منها ماشك فيه (٤٨) ٠

لكن الصحيح من هذه الأخبار ـ وتؤيده آثاره ـ يكاد يستوفى له من قدرات الذكاء ما قل أن يتهيأ مثله لغيره ، من الحفظ ، والتذكر ، والفهم والملاحظة ، والتحليل ، والخيال ٠ على أنها لاتوجد فيه بأقدارها المعروفة عند غيره ، بل هى فيه على غاية ما تكون ٠ وحسبك شاهدا على ذلك مما وعاه التاريخ ـ وهو كثير ـ :

---

(٤٥) تعريف القدماء ص ٥٥٨ ٠
(٤٦) المرجع السابق ص ٢١٢ ـــ ٥٥٤ ٠
(٤٧) المرجع السابق ص ٥٦٤ ـــ ٥٦٩ ٠
(٤٨) المرجع السابق ص ٥٥١ ـــ ٥٦٤ ٠

أولا : أن يحفظ ويعيد محادثات لم يفهمها بالآذربيجية ٠٠ والفارسية ، اذ كان كما حدث عن نفسه لا يسمع شيئا الا حفظه ولا يحفظ شيئا فينساه (٤٩) ٠

ثانيا : أن يفهم ويفسر على الفور لغزا شعريا فى الفقه ٠ وآخر نثريافى اللغة ٠٠٠ اختبره بالأول القاضى أبو الطيب الطبرى حين وافى بغداد ٠ وامتحنه بالثانى ـ فى المعرة ـ رجل عراقى (٥٠) ٠٠٠ وتبقى شهادة التاريخ له بعد ذلك بأنه كان غاية فى الفهم (٥١) ٠

وثالثا : أن يلعب ـ وهو أعمى ـ مع المبصرين بالشطرنج والنرد (٥٢)

فان لم تقنعك هذه الأخبار بذكائه على ما نرجحه من صدقها ، فانظر فيما بقى من آثاره لتجده قد استوعب معجم اللغة كما لاحظ التبريزى (٥٣) ٠٠ ومعجم الثقافة من علوم وأخبار ، استوعبهما حفظا ودراية ، كما استوعب ودرس أحوال الناس وأخبارهم ، ثم راح يصرف ذلك كله فى شعره ونثره تصريف لبق حاذق ، لا يروعك منه ما وعى قدر مايروعك تحليله له ، وموازنته بين أجزائه ، ونقده نقدا لاذعا ، أو تخيله من ذلك كله صورا شعرية ونثرية ، حسية ومعنوية ، لم يقتصر أثر بعضها (٥٤) على أهل اللغة ، بل تعداهم ، حتى أجمع الجميع على أنه ممثل الذهن العربى ، فى تفكيره وفى مقاييسه ، وفى نظراته الى الدنيا دون سائر المفكرين والشعراء (٥٥) ٠

---

(٤٩) المرجع السابق ص ٥٥١ — ٥٥٣ ٠
(٥٠) المرجع السابق ص ٢١٢ — ٥٦٤ ٠
(٥١) المرجع السابق ص ٦٧ ٠
(٥٢) المرجع السابق ص ٤ ٠
(٥٣) المرجع السابق ص ٥٦٩ ٠
(٥٤) أعنى رسالة الغفران ٠
(٥٥) رجعة أبى العلاء للعقاد ص ١٣ ٠

وان سألت عن مصدر هذا الذكاء وحـــدته ، **فاذكر الفطرة القوية** التى اشتملت عليه وعلى غيره من المواهب ، **والعمى** الذى أرهفه بقلة الشواغل وحصر الانتباه ، والمعرفة الواسعة التى صقلته وضاعفت قواه .

واذا كان واضحا أن الذكاء من أخص مكونات الناقد الأدبى التى تمكنه ممـا ينبغى له من ثقـافة عامة وخاصة ، يستعين بها على الفهم والتفسير ، ومن ملاحظة دقيقة يقوى بها على التحليل والتقويم = فان ذكاء أبى العلاء على حدته النادرة ، وقدراته البالغة ، يكون اذن أقوى تأهيلا للناقد الأدبى فيه ، وأقوم أداة للفهم والتفسير والتقويم .

٤ ـ ثقافته : ماذا كانت وقد تهيأ لصاحبها ما تهيأ من وراثة عريقة ، وذكاء خارق ، ونشأة فى أزخر عصور الحضارة الاسلامية بالنشاط الفكرى والأدبى والسياسى ؟

نقرأ تاريخ أبى العلاء فلا نقف من خبر هذه الثقافة الا على أمرين :

ثقة مطلقة لمعاصريه بها على النحو الذى يبدو فى التماس الرؤساء تصنيفه ، واقبال الطلاب عليه (٥٦) .

ووصف مجمل لبعض ما حصله من العلوم وشيوخه فيها ، فى المعرة وفيما رحل اليه من البلاد .

ففى المعرة : ذكروا من تحصيله وشيوخه حتى مفارقته العشرين ـ وهى نهاية ما ذكروا ونهاية تلمذته : ـ

أنه قرأ القرآن بكثير من الروايات على شيوخ يسار اليهم فى القراءات .

وقرأ النحو واللغة على أبيه ، وعلى أبى بكر محمد بن مسـعود ابن محمد النحوى ، وعلى أبى عمرو عثمان الكرجى الطرسوسى قـاضى

---

(٥٦) انظر ثبت مؤلفاته وتلاميذه فى تعريف القدماء ص ٣٨ ، ١٠١ ، ٥٢٧ ، ٥١٧ .

معرة النعمان سنة ٣٨٥هـ ، وغيرهم من أصحاب ابن خالويه . وكان مما قرأه على أبيه كتاب (الجمهرة) لابن دريد .

وأخذ الحديث عن أبيه ، وعن جده سليمان بن محمد ، وعن أخيه محمد الذى كان أسن منه . وعن جدته أم سلمة ، وعن أبى زكريا يحيى ابن مسعر وغيرهم (٥٧) .

وفى غير المعرة : ذكروا أنه رحل ـ من أجل العلم ـ خمس رحلات ، الى حلب وأنطاكية واللاذقية وطرابلس فى الشام ، وبغداد فى العراق ، لكن الصحيح منها ـ على التحقيق ـ اثنتان ، هما رحلتاه : الى حلب فى صباه ، والى بغداد فى كهولته . وكلتاهما وقعت من أجل العلم وتحصيله ، تلمذة فى الأولى ، وقراءة ومذاكرة فى الثانية ، خلافا لما ذهب اليه بعض المعاصرين (٥٨) . من أنه لم يطلب العلم فى غير المعرة ، وهو غير صحيح .

فرحلته الى حلب : أثبتها ابن العديم وابن خلكان (٥٩) ومن أخذ عنهما . وفيها قرأ اللغة والنحو على محمد بن عبد الله بن سعد النحوى راوية المتنبى ، وعارض روايته لبعض شعر المتنبى كما سبق .

وكان دخوله اليها وهو صبى كما قالوا ، لكنهم لم يحددوا المدة التى أقامها هناك . والظاهر أنها طالت شيئا ما ، حيث كانت ابان تلمذته ، وفى حلب حاضرة اقليمه وموطن أخواله الذين ثبت برهم به وحد بهم عليه ، بل موطن تلك الحركة العلمية والأدبية والفلسفية التى أحياها سيف الدولة ولم تمت بموته .

---

(٥٧) المرجع السابق ٥١٤ — ٥١٧ ، وبغية الطلب ١/١٩٥ب مصور بمعهد المخطوطات .

(٥٨) الاستاذ محمد سليم الجندى فى : الجامع فى أخبار أبى العلاء ١/١٨٧ .

(٥٩) تعريف القدماء ٥١٥ ، ١٨٢ .

ورحلته الى بغداد : أثبتها جميع مؤرخيه ، وصرح هو فى غير موضع من رسائله بأن الذى أقدمه اليها مكان دار الكتب بها ، وايثاره الاقامة بدار العلم ، لا الاستكثار من النشب ولا التكثر بلقـاء الرجال (٦٠) ، وروى ابن العديم أنه انما دخلها لتعرض عليه الكتب التى فى خزائنها لمـا وصف له من كثرتها ، ولم تكن لطلب دنيا (٦١) .

فهو اذن قد رحل الى بغداد ، يدفعه اليها ما فيها من علم لعله لم يسبق اليه . لكنه لا يلتمس هذا العلم تلمذة على أحـد ، بل قراءة فى خزائن كتبهـا ، ومذاكرة لعلمائهـا وأدبائها ، كمـا يبدو من تصريحه السابق ، ومن قوله أيضا « ومنذ فارقت العشرين ما حدثتنى نفسى باجتداء علم من عراقى ولا شآم (٦٢) .

وسواء كان من غاياته مع ذلك التماس الشهرة والحياة الهادئة (٦٣) أم لم يكن = تبقى الغاية العلمية فوق الشك وقبل كل غاية . فاذا قال بعض مؤرخيه (٦٤) انه سافر متظلما من أمير حلب فى وقف له ، أو زاد بعض المعاصرين (٦٥) رغبته فى سعة العيش = وجدناه قد سبق الى نفى ذلك . واذا قال ابن العديم (٦٦) : انه أخذ فيها عن أبى الحسن على بن عيسى الربعى ، وأبى أحمد عبد السلام بن الحسين البصرى ، وأبى على عبد الكريم السكرى النحوى = وجدناه قد سبق الى نفى الأخذ أيضا ، مع القطع بأنه لقى الأولين (٦٧) ، ووجدنا ابن العديم نفسه يناقض بذلك روايته

---

(٦٠) رسائل أبى العلاء ص ٣٢ ، ٣٤ .
(٦١) تعريف القدماء ص ٥١٦ .
(٦٢) رسائل أبى العلاء ص ٣٢ .
(٦٣) تجديد ذكرى أبى العلاء ص ١٣٠ .
(٦٤) القفطى والذهبى : تعريف القدماء ص ٣١ ، ١٩٠ .
(٦٥) د . طه حسين فى « تجديد ذكرى » ص ١٣٠ .
(٦٦) تعريف القدماء ص ٥١٥ .
(٦٧) انظر عبث الوليد ص ٥١ ، ورسالة الغفران ص ٤٢٩ .

السابقة : انه انما سافر لتعرض عليه الكتب التى فى خزائنها .. وروايته أنه لما قصد الربعى ناداه : (ليصعد الاصطبل) ، فانصرف مغضبا ولم يرجع اليه (٦٨) .

ولعل أبا العلاء انما قصد بلقائهم أن يذاكرهم ويبلوما عندهم ، مما دفع بعضهم خشية منه أن يصرفه ويؤذيه على نحو ما فعل الربعى والمرتضى .

واذا كانت غايته هى المطالعة المستقلة ، ومذاكرة العلماء ومجالستهم فلابد أنه قضى من ذلك وطرا عظيما ، على مدى سنة وسبعة أشهر أقامها فى بغداد ، منذ دخلها أول سنة ٣٩٩هـ ، الى أن رحل عنها آخر سنة ٤٠٠هـ (٦٩) ، فقد كانت بغداد آنذاك ـ على الرغم من اضطرابها السياسى ـ عاصمة العلم والأدب ، ومطمح جميع النفوس فى العالم الاسلامى ، بما زخرت به من مكتبات ، على رأسها « دار الحكمة » التى أسسها الرشيد ، و « دار العلم » التى أسسها سابور بن أردشير ، وبما نشط فيها من مجامع العلم والأدب والفلسفة والفقه ، مما رحل لأجله ولم ينقطع عنه مدة اقامته ، فمما وعى التاريخ « أنه طلب أن تعرض عليه الكتب التى فى خزائنها ، فادخل اليها وجعل لا يقرأ عليه كتاب الا حفظ جميع ما فيه » (٧٠) . ولم تكن هذه الكتب الا جماع المعارف الانسانية ، العربية والمترجمة ، مما وصفه واستقصاه ابن النديم فى (الفهرست) ، ولم تكن قراءته لها الا أساس ما ذكره واعتمد عليه فى تحقيق آرائه النقدية واللغوية ، من كتب ودواوين شاهدها هناك وخاصة التى فى دار العلم (٧١) .

---

(٦٨) تعريف القدماء ص٥١٦ . وأنظر ص ٧٥ ، ففيها قال ياقوت ـ ـ بعد أن ذكر الخبر : ـ والاصطبل فى لغة أهل الشام : الاعمى ، ولعلها معربة .

(٦٩) تعريف القدماء ص ٥ ، ١٧ ، ١٩ ، ٢٨ ، ٥٤٣ .

(٧٠) المرجع السابق ص ٥٤٤ .

(٧١) رسالة الغفران ص ١٤٧ .

ومع ارتياده للمكتبات ومطالعته فيها كان ـ كما قالوا ـ يحضر حلقة القاضى التنوخى : على بن المحسن (ت ٤٤٧هـ) ، ومجلس الشريف المرتضى (ت ٤٣٦هـ) ، ومجمع عبد السلام البصرى خازن دار العلم (ت ٤٠٥هـ) .

ففى حلقة التنوخى قرءوا عليه بعض شعره فى (السقط) ، واعترضوا عليه فى لفظ « يوح » ـ بالياء ـ زاعمين أنه بالباء ، ولم يثبت أنه أخطأ ... (٧٢)

وفى مجلس المرتضى كان رده على من لقبه بالكلب : « الكلب من لا يعرف للكلب سبعين اسما » ، كما كانت معارضته للمرتضى فى تنقصه للمتنبى ... (٧٣)

وفى مجمع البصرى كان يحضر ـ مع من يحضر ـ كل جمعة كما يفهم من قوله له :

تُهَيِّجُ أَشْـوَاقِى عَرُوبَةُ إِنهَـا ... إِلَيكَ ذَوَتْنِى عَنْ حُضُورٍ بِمَجْمَعِ

بل كان أكثر جلوسه عنده فى (دار العلم) طوال اقامته . (٧٤)

وما زال فى كتب أبى العلاء آثار مما جرى فى هذه اللقاءات وغيرها تدل على كثرة ما غشيه منها وكثرة ما استقر فى وعيه من مناقشاتها ... (٧٥)

---

(٧٢) شروح السقط ٢٧٩/١ .
(٧٣) تعريف القدماء ص ١٧ ، ٧٦ ، ٢٦٧ ، ٣٣٣ .
(٧٤) شروح السقط ١٥٨٣/٤ وحاشية ص ١٦٤٦ .
(٧٥) أنظر الغفران ص ٣١٣ ، ٣٣١ ، ٤٢٤ وشرح التبريزى لابى تمام ٣٠٤/١ ، ٥٦/٢ واللزوميات ٢٤/١ .

أما ماعدا هاتين الرحلتين ـ الى حلب فى صباه والى بغـداد فى كهولته ـ فلم يثبت شىء منه بطريق صحيح عند القـــدماء والمعاصرين :

فرحلته الى أنطاكية : التى قيل انه تردد ـ وهو صبى ـ على خزانة كتبها ، واختبر ذكاءه ابن منقذ فيها ، قد نقضها ابن العديم من قديم ، بحجة أن أنطاكية قد أخذها الروم من المسلمين ، وأخلوها منهم من سنة ٣٥٨هـ الى سنة ٤٧٧هـ وولـــد أبو العلاء ومات وهى لهم ، فلا يعقل أن يكون بها خزانة كتب ، وتقصــد للاشتغال بالعلم . ولذلك رجح أن تكون الرحلة الى كفر طاب أو حلب ، فقد كانت الأولى مشحونة بالعلم ، والثانية مما رحل اليه بالفعل . واذا فابن منقذ هو أبو المتوح مقلــد بن منقذ الذى كانت له كفر طاب فى أيام أبى العلاء ، وكان له ايضــا بحلب دار ومنزل . (٧٦)

كذلك نقض ابن العديم **رحلته الى طرابلس** من أجل خزانة كتبها ، تلك الرحلة التى أثبتها القفطى ومن أخذ عنه ، فقال فى هذا النقض : « وذكر بعض المصنفين أنه رحل الى دار العلم بطرابلس للنظر فى كتبها ، واشتبه عليه ذلك بدار العلم ببغداد ، ولم يكن بطرابلس دار علم فى أيام أبى العلاء ، وانما جدد دار العلم بها القاضى جلال الملك أبو الحســـن على بن محمد ابن أحمد بن عمار فى سنة ٤٧٢هـ ، وكان أبو العلاء قد مات قبل ذلك سنة ٤٤٩هـ ، وقف ابن عمار بها من تصانيف أبى العلاء (الصاهل والشاحج) و (السجع السلطانى) و (الفصول والغايات) و (السادن) و (اقليد الغايات) . و (رسالة الاغريض) . (٧٧)

---

(٧٦) تعريف القدماء ص ٥٥٤ ـــ ٥٥٧ بإيجاز . وكفر طاب : بلدة قريبة من المعرة .
(٧٧) المرجع السابق ٢٠ ، ٥٥٧ .

أما رحلته الى اللاذقية التى أثبتها القفطى فى سياق خبر الرحلة الى طرابلس حيث قال : « فاجتاز باللاذقية ـ يعنى وهو فى طريقه الى طرابلس ـ ونزل دير الفاروس ، وكان به راهب يشدو شيئا من علوم الأوائل ، فسمع منه كلاما من أوائل أقوال الفلاسفة ، حصل له به شكوك لم يكن عنده ما يدفعها به ، فعلق بخاطره ما حصل به بعض الانحلال ، وضاق عطنه عن كتمان ما تحمله من ذلك ، حتى فاه به فى أوائل عمره ؛ وأودعه أشعارا له ، ثم ارعوى ورجع ، واستغفر واعتذر ، ووجه الأقوال وجوها احتملها التأويل » (٧٨) .

أما هذه الرحلة فهى ـ كما ترى ـ مبنية على رحلته الى طرابلس ، وتلك بنقض ابن العديم لها باطلة فما بنى عليها باطل كذلك .

لكن هذه الرحلات الثلاث على الرغم من نقض ابن العديم لها فى القديم ، وعلى الرغم مما زاده بعض المعاصرين (٧٩) لبطلانها من وجوه = قد وثق بها بعض المحدثين (٨٠) وأسرف فى ثقته ، حتى لقد افترض أن أبا العلاء تعلم اليونانية فى هذه البلاد ، وتلقى بها آداب اليونان وفلسفتها ، مرتبا على ذلك أنه تأثر فى كثير من مادة (الغفران) وموازناتها النقدية بـ (ضفادع) أرسطوفانيس وغيرها من تراث اليونان الشائع فى عصره .

ولأنه لم يستمد هذه الثقة من مصادر التاريخ نفسها ، بل اعتمد ـ مع التحريف ـ على من نقل عنها (٨١) =

عرض نفسه لتعقب المحقق الكبير ، الأستاذ محمود شاكر (٨٢) ،

---

(٧٨) المرجع السابق ص ٢٠ .

(٧٩) الأستاذ محمد سليم الجندى فى : « الجامع » ١/١٩١ — ٢٠٤ .

(٨٠) د . لويس عوض فى : على هامش الغفران ص ٩٦ ، ٩٧ ، ١٣٧ ، ١٣٨ .

(٨١) د . طه حسين فى : « تجديد الذكرى » ص ١١٦ — ١١٩ .

(٨٢) فى : « أباطيل وأسمار » ط مطبعة المدنى سنة ١٩٦٥ .

الذى أخذ عليه أولا تسرعه فى الثقة والافتراض والحكم ، ثم بين له ما غفل عنه من بطلان تلك الرحلات ، بما ذكر ابن العديم عن الأوليين فيما أسلفنا ، وبما ذكر هو عن الثالثة فى خمس مقالات اضافية ، وفق فيها للغاية ، اذ نقض خبرها **أولا : من حيث روايته** ، لانفراد القفطى بها دون معاصريه وسابقيه ولا سند له ، وهو مصرى ولد بعد موت أبى العلاء بمائة وعشرين سنة (٨٣) . **وثانيا : من حيث مؤداه أن المعرى شك فى فى أول شعره** ، لأن هذا الشك لم يظهر الا فى قصائد الرثاء ، وليست مما قاله فى صباه ، ولا مما اعتذر عنه ، ولا مما اتهم بسببه فى دينه (٨٤) . **وثالثا : من حيث خلفيته التاريخية** ، اذ كان أبو العلاء من أسرة عريقة فى العلم والديانة يبعد منها أن تدع فتى أعمى لراهب يغويه ، كما كان له من قوة العقل والتحصيل التى استغنى بها عن التلمذة بعد العشرين ما يبعد معها استغواء راهب لمثله فى سن التعليم (٨٥) . **ورابعا من حيث دلالة ألفاظه :** (اجتاز) و (نزل) على اقامة غير طويلة ـ من ساعة الى ثلاث ليال على الأكثر ـ لا تكفى لدراسة ديانات . أو فلسفة تشكك . ثم دلالة لفظ الدير على مكان فساد ولهو فى ذلك العصر لم يكن بهما مجالا لعلم ، ولا مقصدا لمثل المعرى وأسرته (٨٦) .

وقد انتهى من هذا النقض الى أنه خبر موضوع (٨٧) لتنقص أبى العلاء وعقله خاصة ، حيث استطاع راهب شاد أن يضله ابان تعلمه .

وانما أطلت بتحقيق هذه الرحلات تحصيلا للحق من أمرها ، ودحضا لزيف من ضلال التأويل ألحق بها ، فبعدها لا يبقى من أخبار تعلمه

---

(٨٣) أباطيل وأسمار ص ٢١ — ٤٣ .
(٨٤) المرجع السابق ص ٤٣ — ٦٣ .
(٨٥) المرجع السابق ص ٦٣ .
(٨٦) المرجع السابق ص ١١٩ .
(٨٧) المرجع السابق ص ١٣٥ .

وتحصيله سوى ما أسلفنا : تلمذة على بعض شيوخ الشام فى المعـــرة وحلب ، قرأ القرآن بقراءاته ، وسمع الحديث ، وقرأ اللغة والنحو ، وسمع شيئا من الشعر . ثم رحلة الى بغداد ، قرأ فيها من الكتب ما شاء وجالس من العلماء والأدباء من شاء ، على مدى سنة وسبعة أشهر رجع بعدها الى المعرة ، حيث بدأ حياة أخرى تفرغ فيها للتأليف والتعليم .

وليس يدل امتداد هـذه المرحلة لمن كان يحفظ ما يمر بسمعه الا على شيئين :

نهم زائد لاستيعاب المعرفة الانســانية لـم يشبعه التلقى ، فوصـله بقراءة واسعة لم تنقطع حتى السابعة والثلاثين .

وتجاوز محصوله العلمى بهذا النهم الزائد ما وعاه تاريخ تحصيله الى ما يمكن مثله من العلوم النقلية والعقلية .

هذه الدلالة المجملة على ثقافة أبى العلاء ـ وهى خلاصة ما وعـاه التاريخ ـ نجد بيان مجملها فى آثاره على قدر ما بقى منها ومن أوصافها . وليس الا تنظر فى هذه الآثار وتتأمل ما تناوله فيهـا من موضـوعات . وما أبدعه من الشعر والنثر ، وما أودعـه خلال هذا الشـعر والنثر من مسائل العلوم ومصطلحاتها ، لترى أنها كانت أثرا ضخما لثقافة واسعة ، وأن مبدعها لم يكن ليبدعها على هذا النحو الا وهو ملم الماما تاما بهذه العلوم (٨٨) .

علوم اللغة بأنواعها : النحو والصرف والاشتقاق والغريب . **وعلوم الأدب :** علم البيان ، والعروض والقوافى ، وأخبــار وأيام الجـاهلية والاسلام ، وعلم الشعر جاهليه واسلاميه . ثم علوم الشريعة : التفسير ، والقراءات ، والحديث ومصطلحه ، والفقه وأصوله ، والتوحيد والكلام . **وعلوم التاريخ :** التاريخ العام ، والسيرة ، والفرق . **والعلوم الفلسفية :** علم الفلك والنجوم ، وعلم النغم والايقاع ، والمنطق ، والفلسـفة .

---

(٨٨) المرجع السابق ص ٦٨ .

أضف الى ذلك معرفة واسعة عميقة بحياة عصره ، من أخلاق وعادات وسياسة ٠

على أن بعض هذه العلوم مما ألف فيه كتبا مستقلة كعلم النحو ، وله فيه تسعة كتب لم تصل (٨٩) ٠ أو شبه مستقلة ، كعلم الصرف وله فيه (رسالة الملائكة) ، وعلم الشعر وله فيه (معجز أحمد) ، والفلسفة ونقد المجتمع فى (اللزوميات) ٠

وجملتها مما لا يخلو من شواهده ومعالمه كتاب من كتبه التى بقيت وان تفاوت حظها قلة وكثرة فى كل كتاب ٠ ولعل اللزوميات أحفلها باصطلاحات ورجال هذه العلوم أو أكثرها ٠

فاذا كانت بعض آثاره تمثل ثقافته على ما نرى ، من سعة المادة وتنوع العناصر ، فما ظنك بما كانت تمثله كل آثاره ٠

بيد أنه بهذا القدر قد تمكن من أداة الناقد الثقافية أقوى التكمن وأبلغه ، اذ تهيأ له به من الثقافة العامة والخاصة والثقة بالنفس والطابع العلمى ما قل أن يتهيأ لغيره ٠

أما الثقافة العامة : فحسبك من سعتها وتنوعها وعمقها أنها تحيط بأنواع الثقافة الانسانية المعروفة لعصره ، ما بين عربية ومترجمة ، وما بين لغوية وأدبية ، ودينية وتاريخية ، واجتماعية وفلسفية ، احاطة مستظهر شغوف متعمق ، بلغ من شغفه بالمعرفة أن يظل فى طلبها والنهل منها على ما هو عليه من قوة الحفظ والتذكر بضعا وثلاثين سنة ، ما بين المعرة وحلب وبغداد ، وكما بلغ من تعمقه أنه كان ـ بطبيعته ـ دائم التأمل طويل التفكير منذ قصره العمى على نفسه ، وحبسه عما يشغل أمثاله من المبصرين ، لكنه تأمل الذكى البصير ، وتفكير الأديب الحاذق ، الذى استغل هذه الثقافة أحسن استغلال ، حتى كان ما وعاه أدبه منها

---

(٨٩) تعريف القدماء ٥٣٨ ، ٥٤٠ ٠

اهدى سبيل الى معرفتها ووصفها ، وحتى كانت لتنوعها وعمقها أهدى وسائله فى التحقيق والتأويل كما سيأتى :

وأما الثقافة الخاصة : فنعنى بها اطلاعه الباهر على اللغة وأدبها : ليس بالحفظ فقط ، بل بالحفظ والدراية والاستعمال ، الى الحد الذى بهر معاصريه واستنفرهم اليه ، اذ لم يكد يدع لفظا من ألفاظ اللغة تقريبا الا أحصاه واستعمله أحسن الاستعمال فى شعره ونثره ٠ ولم يكد يدع شيئا من ديوان الشعر والنثر قبله لم يحفظه ويتذوقه الا القليل النادر ٠ هذا مع درايته التامة بعلوم اللغة والأدب دراية مجتهد فى كثير من مسائلها ، وناقد لمن خالفه من علمائها ٠

وآية هذا الاطلاع من تاريخه أنه ظل نحو نصف قرن وهو معتزل ـ يعلم اللغة والأدب ويؤلف فيهما ، حتى كان حجة معاصريه فيهما ، ومقصد القاصى والدانى من طلابهما ، والمشار اليه دون غيره اذا ذكرا ٠ قال عنه تلميذه التبريزى : « أفضل من رأيته ممن قرأت عليه أبو العلاء ، وما أعرف أن العرب نطقت بكلمة ولم يعرفها المعرى » (٩٠) وقال له مراسله ابن القارح ـ بعد أن أطرى أدبه وعلمه ـ : « والعجب العجيب والنادر الغريب حفظه ـ أدام الله تأييده ـ لأسماء الرجال والمنثور كحفظ غيره من الأذكياء المبرزين للمنظوم ، وهذا سهل بالقول صعب بالفعل ، من سمعه طمع فيه ، ومن رامه امتنعت عليه معانيه ومبانيه » (٩١) ٠

أما آثاره فدلالتها على ذلك أقوى وأوضح ، وليس الا أن تنظر معجمها اللغوى وما فيه من غريب وترادف واستقصاء ألفاظ ومعان ٠ ثم صياغتها الفنية وما فيها من دقة نظم وفنون بديع ومصطلحات علوم ٠ ثم أغراضها الأدبية وما استوعبته من أغراض السابقين ٠ ثم تنظر منها ما ألفه فى النحو والعروض ، وما ألفه والتزم فيه ما لا يلزم من النظم

---

(٩٠) تعريف القدماء ص ٥٦٩ ٠

(٩١) رسالة الغفران ص ٦٢ ٠

والنثر ، وما تناوله بالتحليل والتفصيل من قضايا اللغة والأدب ، وما بسطه خلالها من آراء علمائها فأيده أو نقضه ، ليس الا أن تنظر ذلك وغيره لتعلم أن اضطلاعه باللغة والأدب كان أمـرا عجبا ، وأن هـــذا الاضطلاع كان زادا أى زاد لذوقه ونقده كما سيأتى ٠

وأما ثقته بنفسه واعتداده بها : فهى ثقة قوية صادقة ، صدر عنها كثيرا فيما حدث وكتب ، وما كان لمثله فى قوة حفظه وضبطه ، وجـودة تأمله وفهمه ، وسعة ثقافته وعمقها الا أن يكون كذلك ٠ طالبه التبريزى ـ لما قرأ عليه (اصلاح المنطق) ـ بسنده متصلا فقال له : « ان أردت الدراية فخذ عنى ولاتتعد ، وان أردت الروايةفعليك بما عند غيرى »(٩٢) ، وحاول تلاميذه اختباره بوضع كلمات وألفوها مـع غيرها ، فقال لهم ـ بعد أن كشف قصدهم ـ : « والله ما أقول الا ما قالته العرب ، ومـــا أظن أنها نطقت بكلمة ولم أعرفها » (٩٣) ٠ ولا ريب أنه ـ عن هذه الدراية والاحاطة ـ كان ما نجده فى كتبه من أحكام قاطعة : بأن هذا قليل ، أو لم يرد ، أو ورد فى كلام فلان ، مما كان منه فى نقده معارضته السابقة لابن سعد ٠٠ ورفضه اعتراض البغداديين على لفظتى « يوح » (٩٤) من قـــوله :

وَيُوشَعُ رَدَّيُوحَا بعضَ يـــومٍ ... وأنتَ مَتَى سَفَرْتَ رَدَدْت يُوحَا

مدعين أنها بالباء ، و« كفاف » (٩٥) من قوله :

أَوْدَى فليتَ الحادثاتِ كَفَافِ ... .

---

(٩٢) تعريف القدماء ص ٥١ ٠
(٩٣) أوج التحرى ص ١٣ ٠
(٩٤) شروح السقط ١/٢٧٩ ٠
(٩٥) بغية الطلب ١/٢٠٠ ب ٠

مدعين أن « كفاف » بكسر الكاف ، وكان الصواب ما قال :

وأما الطابع العلمى : فأوضح من أن يستدل عليه فى آثاره كلها . ولعله فيها أقوى منه فى أى أثر عربى آخر . ولا غرابة فى هذا ممن ملك العلم عليه حياته كلها من أولها الى آخرها ، حتى كان من آثار هذا الطابع فى تفكيره وانتاجه : ذلك الاستقلال فى الرأى ، والدقة فى التعبير الأدبى على ما رأينا فى ثقته بنفسه ، واستمداده معظم صوره التشبيهية والمجازية من مصطلحات العلم ، حتى لتزيد صوره منها على صوره الحسية . ناهيك باخضاعه العلم للأدب ، حين استدنى الكثير من قضاياه فى اللغة والنحو والصرف والعروض والقوافى والنقد الأدبى ، وقدمها فى قالب أدبى ممتاز ، كانت (الغفران) و (الملائكة) و (رسالته الى النكتى البصرى) من أهم معارضه . وحين استنزل الفلسفة من معاقلها الى حيث تلذ القلب ـ مع مخاطبتها العقل ـ بتأليفه ديوانا مستقلا هو (اللزوميات) لعرض قضاياها ومناقشتها على نحو لم يسبق ولم يلحق فيه . أضف الى ذلك التزامه مالا يلزم ، بالنظم على جميع حروف المعجم فى هذا الديوان ، وبالسجع على جميعها أيضا فى (الفصول والغايات) ...

٥ ـ **اتجاهه الفلسفى :** نعنى اتجاهه الى البحث عن الحقيقة وأخذ نفسه بها ، وهو الاتجاه الذى نزع اليه منذ نشأته ، حتى صار طابع تفكيره وسلوكه فى عزلته ، وقد دل على هذا النزوع المبكر وأشار اليه فى موضعين :

فى رسالته الى أهل المعرة ، التى آذنهم فيها بالعزلة والانفراد ، عند مغادرته بغداد ، حيث يؤكد ما عزم عليه من ذلك بأنه « ليس نتيج الساعة ، ولا ربيب الشهر والسنة ، وانما هو غذى الحقب المتقادمة ، وسليل الفكر الطويل » (٩٦) .

---

(٩٦) رسائل أبى العلاء ص ٣٤ ط اكسفورد .

وفى كتابه (الفصول والغايات) ، الذى ألفه فى مطلع عزلته ، حيث يبين قلة ما لقيه من الخير فى جانب الشر بقوله : « ما زلت آمل الخير وأرقبه ، حتى نضوت كملا ثلاثين . فلما تقضت الثلاثون وانا كواضع مرجله على نار الحُباحِب علمت أن الخير منى غير قريب » (٩٧) .

فهو اذن قد طال تطلعه للخير وترقبه له ، حتى اذا لم يصبه وهو فى الثلاثين فكر أن يعتزل .

ولم يكن فقد بصره ـ فى الواقع ـ الا بداية هـذا التطلع الطويل للخير ، لما فقد معه من أمنه وسلامه ، وقدرته واطمئنانه . ثم كانت مصائبه بعد ذلك ، بكثرة الأمراض (٩٨) .. والحساد (٩٩) .. وفقد الأبوين (١٠٠) .. والفقر (١٠١) فضلا عما أظله وأحاط به من فساد العصر واضطرابه ، وقلقه فى شتى المجالات ، وهو صاحب الذكاء الحاد ، والحس المرهف ، والثقافة الفلسفية العميقة .

كان ذلك كله معمقا شعوره بقلة الخير وقلة حظه منه ، ومؤديا به عند هذا الشعور الى الانسحاب والاعتزال ، والاكتفاء بالقليل فى مأكله وملبسه وفرشه ، ومحققا لعقله من النضج وقوة الملاحظة وحرية النظر ما تجاوز مجرد النزوع الى الخير ، الى التأمل العميق فى واقع الحياة كله ، طلبا للحق ودحضاللباطل ، وهو التأملالذى زخرت به (اللزوميات) و (الفصول والغايات) و (الأيك والغصون) ، مما ألفه فى عزلته . ولم تخل آثاره قبلها من ملامح دالة عليه لاسيما (رسالة الاغريض)

---

(٩٧) الفصول والغايات ٢٧٩/١ ونار الحباحب : ما اقتدح من الشرر عند تصادم الحجارة ، أو ما سقط من الزناد .

(٩٨) تعريف القدماء ص ٥٧٨ .

(٩٩) المرجع السابق ص ٦٣ وشروح السقط ٥٢٣/٢ ، ٦٤٩ .

(١٠٠) تعريف القدماء ص ٤٦٣ ، ٥١١ .

(١٠١) المرجع السابق ص ٣١ ، ١٢٥ .

التى ألفها حوالى سنة ٣٨٨ هـ ، ونقد فيها بعض معانى الجاهليين الأسطورية ، اذ يدل ذلك فيها على نضج اتجاهه الفلسفى قبل اعتزاله .

لكنه على الرغم من نزوعه المبكر الى هذا التأمل ، لم يفرغ له قبل عزلته كما فرغ له فيها ، لما شغل به قبلها من الدرس والتحصيل ، والمزاحمة فى معترك الحياة والتطلع الى أمجادها . ومن ثم كان أعمق وأقوى فى آثار عزلته منه فيما قبلها ، ثم كان فى (اللزوميات) أو فى الفترة التى أمليت فيها غيره فيما قبلها وما بعدها ، فبينما نراه فى (الفصول والغايات) التى أمليت قبلها يائسا حزينا ، يلتمس من الله الصبر والعزاء ، اذ به فيها عابس ساخط شديد الحملة على الدنيا وما فيها ومن فيها ، متحرر من كل قيد فى تناولها ونقدها . على حين كان فيما بعدها كـ (الغفران) مثلا مبتسما هادئا ، فلا حزن ولا سخط ، وانما استغراق مع الخيال فى حلم لذيذ .

واذا كان لا يسعنا أن نبسط كل ما أنتجه هذا التأمل من آراء ، لزيادته عما يقتضيه هذا البحث ، فحسبنا أن نشير فقط الى ما يتصل به ومدى اتصاله :

أولا : اعتماده العقل أصلا أول للمعرفة : حتى جعله اماما ونبيا فقال :

سَأَتْبَعُ مَنْ يَدْعُو إِلَى الخيرِ جاهداً   وَأَرْحَلُ عنها ما إمامِى سوى عقلِى

* * *

أَيُّهَا الْغِرُّ إِنْ خُصِصْتَ بعقلٍ   فَتْبَعْتَهُ فكلُّ عقلٍ نبىُّ[(١٠٢)]

وحتى جعل غيره من مصادر المعرفة من عيان وخبر مقيسا به ، ما صدقه قبله وما كذبه رفضه فقال :

---

(١٠٢) اللزوميات ٢١٩/٢ ، ٤٣٩ .

وما تُرِيكَ مَرَائِى العَيْنِ صَادِقَةً فاجعلْ لنفسِكَ مِرآةً مِنَ الفِكَرِ(١٠٣)

* * *

والخَبَرُ المسمُوعُ يُوزَنُ بالعقـ ـل فَيَضْوى إليه عُرْفٌ ونُكْرُ(١٠٤)

ثم لم يقبل أن ينتمى الى مذهب معين من مذاهب الفلاسفة وغيرهم فأخذ وترك من جميعها محتكما اليه وأنشد :

إذا رَجَعَ الحصيفُ إلى حِجَاهُ تهاون بالمذاهب وازْدَراها
فخُذْ منها بما أدَّاهُ لُـبٌّ ولا يَغْمِسْكَ جَهْلٌ فى صَراهَا(١٠٥)

* * *

ويغضب عقلى مغضباً إنْ تركته سُدًى واتبعتُ الشافعىَّ ومالِكا(١٠٦)

على الرغم من اعترافه بعجز العقل أمام الغيبيات ، وأمام الطبع الغالب حيث يقول :

قَضَى اللهُ فينا بالذى هو كائنٌ فتمَّ وَضَاعَتْ حِكمةُ الحكماءِ(١٠٧)

* * *

العقلُ زَيْنٌ ولكن فوقه قدَرٌ فماله فى ابتغاءِ الرزق تأثير(١٠٨)

* * *

نهَانِىَ عَقلِى عن أُمور كثيرة وطَبْعى إليها بالغريزة جاذِبى(١٠٩)

---

(١٠٣) المرجع السابق ٣٨٨/١ .
(١٠٤) المرجع السابق ٣٤٢/١ وضوى اليه يضوى ــ كنوى ــ مال وأوى وانضم .
(١٠٥) المرجع السابق ٤٢٧/٢ فى صراها : أى فى أسرها وحبسها .
(١٠٦) المرجع السابق ١٥٥/٢ .
(١٠٧) المرجع السابق ٥٣/١ .
(١٠٨) المرجع السابق ٣١٥/١ .
(١٠٩) المرجع السابق ١/[illegible] .

هذا الاعتماد الزائد على العقل على الرغم مما يعتريه ، قد تأثر به ذوقه النقدى ، فى جنوحه الى الموضوعية بالتعليل لأحكامه كثيرا ، وفى جعله العقل مصدر الوحى الشعرى ، وميزان بعض المعانى فى القبول والرفض ، وبعض التفسيرات فى التحليل والتوجيه .

ثانيا : اتجاهه الى كل ما رفضه عقله من عقائد الناس وسلوكهم وتقاليدهم وأقوالهم ومذاهبهم ، بالنقد والتجريح والسخرية ـ كان ذا أثر كبير فى شحذ قدرته النقدية ، وحفزها للنقد أيا كان نوعه ولأدنى ملابسة ، الى الحد الذى جعل آثاره كلها دون استثناء معرضا رائعا لألوان شتى من النقد الاجتماعى والأدبى لم تتهيأ لغيره .

ثالثا : تواضعه الشديد فى عزلته ـ بعد غلوه فى التعالى قبلها ـ عندما أدرك غرور الحياة وقلة خيرها وخير من فيها ، هو الذى جعله فى نقده الأدبى يكره من شعر السقط ما مدح به نفسه (١١٠) ، بل يعيب المادحين لأنفسهم أو لغيرهم لأنهم ومن مدحوا فى رأيه أقل من ذلك كما سيأتى .

رابعا : كلفه الزائد بالحق والخير بحثا عنهما وتخلقا بهما ، كان ـ كما سيأتى ـ أساس كثير مما أعجبه وما أسخطه من قيم الجمال والقبح ، بل أساس ما تحراه فى تلقى النصوص من تحقيق وتصحيح ..

٦ ـ **اعتقاده** : من أكثر جوانبه غموضا وخفاء ، ان لم يكن أغمضها وأخفاها ، حتى غدا أرحبها مجالا لاختلاف الرأى ، واضطراب الرؤية قديما وحديثا . فلم يكد يصل مؤرخو شخصيته ـ على كثرتهم ـ الى تحديد قاطع أو متفق عليه لطبيعته وصفته ، بل تفرقت آراؤهم فيه

---

(١١٠) شروح السقط ١/٣ .

مذاهب شتى ، بلغت فى كثير من صورها حد التناقض ، وصدر كل منها عن رؤية صاحبه الخاصة ٠

فكان من صفاته عند من أساءوا الظن بما رأوا أو سمعوا : كفر ، زندقة ، الحاد ، تعطيل ، شك ، حيرة ، اختلاف عقيدة ، يقابلها عند من أحسنوا الظن به : ايمان صحيح ، توبة وارعواء عما سبق منه ٠ وعند من ربطوا بينه وبين بعض الطوائف : تشيع ، اعتزال (١١١) ، برهمة ، جبر ، قرمطة ، درزية (١١٢) ٠

هكذا بدا أبو العلاء عند مؤرخيه : كافر ومؤمن ، بل متشيع ومعتزل وجبرى ، على هذا النحو من التناقض العجيب ٠ ولم يكن أبو العلاء كذلك فى الواقع ، لاستحالة اجتماع هذه الصفات فى شخص ٠

ولم يكن هذا الغموض وما نشأ عنه الا أثرا لجملة من العوامل نلاحظها فى آثاره وتاريخه على النحو التالى :

أولا : تحرر عقله من قيود الرغبة والرهبة فى نقد الحياة والسخرية منها ، منذ اقتنع بغرورها واعتزالها بتأثير اتجاهه الفلسفى ، حتى جاء ما تناول الدين من نقده وسخريته موهما تجاوزه الحد ، ومؤديا الى ما كان من سوء الظن والاتهام ٠

ثانيا : صياغته كثيرا من آرائه شعرا له نسقه الخاص فى اللغة والتجوز والبديع ولزوم مالا يلزم ، مما أدى الى اضطراب الرؤية والفهم عند كثيرين ممن تناولوه ، لا سيما من تقصر بهم همتهم العقلية والذوقية

---

(١١١) انظر فى ذلك كله تعريف القدماء ص ٢٠، ١٨٧/١٤٢ ، ١٥٢/٨٠ ، ١٤٥/١٠٠/١٩/٢٧١/١٩٩ ، ٣١/٤١٩ ، ٥٢/٣٥٣/٤٠٦/والبرهمة ــ كما تصورها مؤرخوه ــ : عقيدة للهنود تحرم ايذاء الحيوان وتنكر الرسالة.

(١١٢) تجديد ذكرى أبى العلاء ص ٢٦٢ ، الجامع ٤١١/١ ، حكيم المعرة لعمر فروخ ص ٨٥ ٠

عن مستواه ومستوى المشتبه منه خاصة . على نحو ما نجد فى (زجر النابح) الذى ألفه المعرى للدفاع عن بعض ما اتهم به فى (اللزوميات) ، وكان أخص ما التفت اليه بالدفاع ما ضل فيه المعترض سبيل التأويل ، لسوء قصده أو لجهله بأساليب النظم ، حتى وجدناه كثيرا ما يصدر دفاعه بنحو قوله : « المعنى كذا » ، أو يعقب عليه بقوله : « فانما ذلك - أى انكار المنكر - بغباوته وضلاله عن أساليب القول » ، أو يسرف فى ضرب الأمثال لكلامه من القرآن والحديث والشعر والنثر (١١٣) .

ثالثا : جزئية النظر فى كثير من صفاتهم السابقة ، لا سيما حكمهم بتشيعه واعتزاله وقرمطته ودرزيته وبرهمته (١١٤) ، واتهامهم له بانكار النبوات والبعث والجن والملائكة (١١٥) . اذ بنوا هذه الأحكام والاتهامات على أبيات موهمة أو غامضة ، وأعرضوا عن أضعافها من شعره ونثره الواضح الدلالة على ضد ما حكموا وما وصفوا .

رابعا : تحريف كثير من شعره فى حياته قصدا لايذائه ، وبعد مماته تأييدا لمقالة السوء فيه ، ففى حياته ذكروا أنه أنشأ (رسالة الضبعين) دفاعا عن بيتين حرفا من (اللزوميات) (١١٦) ، وبعد مماته كان من مؤرخيه من حرفوا بعض أبياتها ، وهم أبو الفدا والذهبى وابن الشحنة (١١٧) . على أن هذا الديوان رغم طبعه عدة طبعات حتى الآن لم يحقق تحقيقا علميا دقيقا ينقيه مما به من تصحيف وتحريف .

---

(١١٣) انظر « زجر النابح » ص ٤ ، ١٠ ، ١٥ ، ٧١ .
(١١٤) انظر الجامع ١/٣٩٩ — ٤١٢ .
(١١٥) فهم هذا الانكار طه حسين فى تجديد الذكرى ص ٢٧٤ ، ٢٦٩ ، ولم يقر أبو العلاء مثل ذلك فى زجر النابح ص ٦ ، ٢٣ ، ٣٧ ، ٣٩ ، ١٠٤ ، ١٠٨ .
(١١٦) تعريف القدماء ص ٢٢٣ .
(١١٧) الجامع فى أخبار أبى العلاء ١/٣٩١ .

خامسا : اتجاه بعض تلامذته وغيرهم الى وضع الأشعار على لسانه يضمنونها أقاويل الملاحدة قصدا لهلاكه واتلافا لنفسه (١١٨) ، ولعل بعض ما نسبه اليه مؤرخوه من أبيات ليست فى ديوانى السقط واللزوميات (١١٩) وكانت حجة لبعض الدارسين (١٢٠) مما وضعه هؤلاء .

واذا كان لا يسعنا أن نقطع بذلك فى جميعها ، لضياع الشطر الأكبر من شعره الى الآن ، فان بعضها قد قطع ابن العديم (١٢١) – وهو حجة فى تاريخ أبى العلاء – بوضعه ، لأنه لم يجده فى شىء من دواوينه التى رآها وتتبعها .

سادسا : نسبة بعض الأبيات المنحرفة اليه قصدا أو خطأ للتشنيع عليه بها – مع انها بالتحقيق من شعر غيره – على نحو ما فعل السبكى ، وأبو الحسن الجزار وغيرهما (١٢٢) .

سابعا : ضياع كثير من آثاره ، لاسيما كتبه التى دفع فيها ما اتهم به ، ببيان ما قصد اليه ، وهى : (زجر النابح) ، (نجر الزجر) ، و (رسالة الضبعين) . وكلها مما دافع به عن (لزوم ما لا يلزم) . والمطلع على ما بقى من (زجر النابح) يدرك مدى أهمية هذا الضائع فى فهم ما قصد اليه .

ثامنا : الى جانب ذلك كله نجد فى آثار أبى العلاء التى وصلت الينا والتى لم تصل ووصفت ما هو مغمور بالشعور الدينى السليم ، لاسيما ما ألفه خالصا للوعظ والارشاد ، أو لتمجيد الله الذى جل عن التمجيد ، وهو

---

(١١٨) تعريف القدماء ص ١٠٠ .

(١١٩) المرجع السابق ص ٥٨ ، ٦١،٦٢،٧٨،٨٣،١١٦؛١٨٦؛٤٠٦ .

(١٢٠) د. طه حسين فى تجديد الذكرى ص ١١٨ ، ٢٧٠ .

(١٢١) انظر بغية الطلب ١/٢١٢ أ ، ٢١٣ أ ، ٢١٤ أ ب .

(١٢٢) انظر الجامع ١/٥٠٩ .

كثير نذكر منه ــ على سبيل المثال لا الحصر ــ (الفصـــول والغايات) مائة كراسة ــ و (الأيك والغصون) ــ ألف ومائتا كراسة ــ و (تضمين الآى) ــ أربعمائة كراسة ــ و (تاج الحرة) ــ أربعمائة كراسة ــ وغيرها كثيـــــر (١٢٣) .

كما نجد فى ســـلوكه ابان عزلته ما يؤكد هذا الشـــعور ، فقد زهد وتنسك ولزم بيته ، وتوفر على ذكر الله والصلاة والصيام له ، وهو القائل :

وعَالِمٌ خالِقِى أنّ الصلاةَ له أبَرُّ عندىَ من دُرِّى وَيَاقُوتِى[١٢٤]

* * *

أنا صائمٌ طول الحياة وإنما فِطْرى الحِمَامُ ويوم ذَاكَ أُعَيِّدُ[١٢٥]

هذه العوامل مجتمعة ، وما يبدو من تفاوت بين آثاره التى غمرت بشعوره الدينى السليم ، وآثاره التى غمرت بتحرره وجرأته ، مع الجهل بتاريخها جميعها على الترتيب =

ذلك كله هو الذى يفسر لنا ما يبـــدو من غموض اعتقـــــاده واضطراب السابقين فيه ، بل يقنعنا بتعذر القطع فيه برأى ، حتى نظهر على جميع هذه الآثار ونحققها وننقيها من التزييف ، ثم ندرسها ونوازن بينهـــــا .

ومهما يكن من أمر هذا الاعتقاد وصفته ، فانه ــ كما ترى ــ واضح المعالم فى حياته وآثاره ، قوى التأثير فيهما ، وكذلك كان فى نقـــده الأدبى ، الا أنه فيه على وجهين :

---

(١٢٣) تعريف القدماء ص ٥٢٧ ــ ٥٣٨ .
(١٢٤) اللزوميات ١/١٧٣ .
(١٢٥) المرجع السابق ١/٢٤٩ .

عام : وهو ما يشارك نقده فيه سائر آثـــاره ، من حيث ساء رأى بعضهم فيها ، وكثر اعراضهم عنها ، لسوء القالة فى دينه . وانما كان ذلك بالنسبة الى نقده من ابن الأثير وابن معقل كما سيأتى .

وخاص : وهو نوعان :

نوع لم تزايل المعرى فى ابدائه روح الجد والصدق والصراحة ـ وهو الأكثر ـ اذ تردد فى معظم كتبه التى ألفها فى عزلته على امتدادها منذ (الفصول والغايات) أول ما ألف فيها .. حتى (الضوء) آخـر تأليفه كما سيأتى ...

ونوع اكتنفه من السخر والجرأة فى العرض ما زهد الكثيرين طويلا فيه وفى المعروض جملة ، كتفضيله نعيم الجنة على جزاء التكسـب فى الدنيا ، وجعله الشعر الذى يمجد الله سبحانه وقيم الدين سببا للغفران والتكريم فى الجنة ، وان كنت أميل الى تصديقه وتقبله لأمور :

منها : ما صدر من نقده عن حسه الدينى البعيد عن مظنة السخرية، لأنه يعنى أصالة هذا الاتجاه عنده .

ومنها : ظروف المعرى فى ابدائه حوالى سنة ٤٢٤هـ ـ تاريخ املاء الغفران (١٢٦) ـ وهى ظروف اتهامه بالكفر والزندقة ، لما أبداه من آراء جريئة فى (اللزوميات) التى انتهى من نظمها ونشرها فى الناس حوالى سنة ٤٢١هـ (١٢٧) .

فان تمثل هذه الظروف وما قاساه فيها من عنف الاتهام كما يبدو فى (زجر النابح) ، حتى اضطر أن يدافع عن نفســه بهذا الكتاب

---

(١٢٦) الغفران دراسة نقدية : لبنت الشاطىء ص ١٠ .
(١٢٧) المهرجان الألفى لأبى العلاء ص ٢٥٥ ــ ٢٦٦ .

وكتابين آخرين = تمثل ذلك يرجح عندى جده فى الحديث عن الغفران ، والتوسع فى أسبابه من توبة ، وشفاعة ، وشعر دينى ، أملا منه فى عفو الله عما بدر منه بما له من ذكر وتمجيد ٠

ومنها : أنه فى مقدمة اللزوميات التى بين فيها ما رفض من الشعر وما لم يرفض جعل رفضه فقط لما استجيز فيه الكذب ٠ أما الكائن عظة للسامع فهو ان شاء الله مما يلتمس به الثواب كما قال (١٢٨) ٠

على أننا بالنظر فى النوع الأول من حيث ملابسة بعض صوره لصور النقد الدينى الذى أخذ بسببه فى (اللزوميات) ومن حيث تردد صوره خلال عزلته كلها = يمكننا أن نرجح غلبة اليقين الدينى السليم على قلبه ، وعمق جذورة فى نفسه مهما لابسه أحيانا من عوارض اليأس والسخط التى تأتى وتزول ٠

٧ ـ خلقه : من الطموح والتواضع ، والعزة والعفة ، والزهد والتقنع ، والصبر والتجمل ، والصدق والجراة ، والكرم والرحمة ، والوفاء والحياء ، ولين الجانب وحب الخير ، كان هذا الخلق ، بل من هذه الصفات فى أقوى صورها كما يبدو من تاريخه وآثاره ٠

وحسبك من طموحه المبكر بتأثير وراثته ومواهبه ، ما كان من شغفه بالعلم حتى بلغ منه ما وصفناه ، ومن اقباله على الحياة وتحديه لعماه حتى رئى فى شبابه يلعب الشطرنج والنرد (١٢٩) ، ويتغنى بشرفه ومجده وتحديه فى نحو قوله :

---

(١٢٨) اللزوميات ١/٣١ ، ٣٢ ٠
(١٢٩) تعريف القدماء ص ٤ ٠

لِىَ الشرفُ الذى يَطَأُ الثريَّا ... مع الفضل الذى بَهَرَ العبادا

أَفُلُّ نوائب الأَيام وحدى ... إذا جمعت كتائبها احتِشادا[130]

فلما انحسر مد هذا الطموح الى اليأس والعزلة ، ولم يبق منه الا ذلك الأسى على ما فات فى (اللزوميات) ، والحلم بما حرم منه فى (الغفران) ، كان اسرافه فى التواضع ، حتى أنكر على نفسه ما سلف منها ، وصغر من شانه وشأن علمه ما أكبره الناس ، فعاد ـ كما أسلفنا ـ يكره أن يقرأ عليه شعره فى صباه ، لأنه مدح نفسه فيه ، وأن يلقب بأبى العلاء ، لأن الصحيح عنده ضده :

دُعِيتُ أَبا العلاءِ وذاك مَيْنٌ ... ولكن الصحيح أبو النُّزُول[131]

بل صار يزعم لقاصديه أن لا علم عنده ، ويجهلهم فى قصدهم له :

مَنْ يَبْغِ عندى نَحْواً أَو يُرِدْ لُغَةً ... فما يُسَاعَفُ مِنْ هذا ولا هَذِى

* * *

ماذا تريدون لا مالٌ تيَسَّرَ لِى ... فيُسْتماح ولا علمٌ فيُقْتَبَسُ

* * *

أجهلُ مِنِّى رجلٌ يَبْتَغِى ... مِنِّىَ ما لستُ له محسنًا[132]

أما عفته وعزة نفسه فأخص ما ورثه عن أسرته ، وتجمل به طوال حياته ، اذ لم يكن ترفعه عن التكسب بادبه قبل عزلته وبعدها ، ورفضه

---

(١٣٠) شروح السقط ٥٦٧/٢ .
(١٣١) اللزوميات ٢٤٠/٢ . والمين : الكذب .
(١٣٢) المرجع السابق ٢٩٤/١ و ٢٣/٢ ، ٣٦٥ .

ما عرض عليه البغداديون من أموالهم ، وما بذله وزير الفاطميين ، ثم خليفتهم ، ثم داعى دعاتهم (١٣٣) ، على الرغم من حاجته الى المال فى بغداد ، وقلة محصوله فى عزلته ، كذلك لم يكن تعففه عن قول البذىء وفعل المنكر ـ لم يكن ذلك كله الا صدى لما ورثه وآثره من هذا الخلق الذى طالما نوه به وأشار اليه ، فقال فى شبابه :

قَنِعْتُ فخِلْتُ أَنَّ النجمَ دونى ... وَسِيَّان التَّقَنُّعُ والجهادُ (١٣٤)

وقال فى بغداد لأهل المعرة :

أُنبِّئُكُمْ أَنِّى على العهد سالمٌ ... وَوَجْهِى لمَّا يُبْتَذَلْ بسُؤَال (١٣٥)

وقال فى عزلته :

ولم يَحْبُنِى أحدٌ نعمةً ... ولكنَّ مولَى المَوَالِي حبا (١٣٦)

* * *

فَلاَ تحملنَّ لهم مِنَّةً ... ولو بتَّ فى صُورة الْعَائل (١٣٧)

فاذا علمنا أنه لم يقفْ بنفسه عند حد الترفع عن المنن والمنكرات ، والتقنع بالقليل الذى يحصل له ، وهو بضع وعشرون دينارا فى العام ، بل راضها على أشد ضروب الحرمان قسوة ، فاعتزل الناس ، وترك الزواج والانجاب ، وواصل صوم الدهر ، وامتنع عن أكل اللحم وما تولد منه نحو نصف قرن ، وقنع من الطعام بالبقل ، ومن الشراب بالماء ، ومن

---

(١٣٣) تعريف القدماء ص ٥٦٩ ، ٥٧٧ .

(١٣٤) شروح السقط ١/٢٨٣ .

(١٣٥) المرجع السابق ٣/١٢٠٥ .

(١٣٦) اللزوميات ١/٤٤ ، وحبا : أعطى .

(١٣٧) المرجع السابق ٢/٢٥٢ . والمنة ـ بكسر الميم ـ النعمة والعائل : الفقير .

الحلوى بالتين ، ومن اللباس بالخشن ، ومن الفراش بسجادة لباد فى الشتاء ، وحصير البردى فى الصيف (١٣٨) .

اذا علمنا ذلك أدركنا مدى ما أخذ به نفسه من الزهد فى الدنيا ومن فيها وما فيها . والحرمان من كل متعها ولذاتها ، والقهر لشهواته وأهوائـــــه ..

بل ان هذه الرياضة القاسية وما صاحبها كثيرا من معاناة الأمراض وكيد الخصوم والحساد لتدل أيضا على أنه كان يأوى من صبره وتحمله الى ركن شديد ، حتى صح منه أن يعد الصبر من خير حالاته ، وأن يستعدى على خصومه قوة احتماله ، فيقول :

وَحالِي خيرُ حالِ كنتُ يوماً عليها وهى صبرٌ واعتزالُ (١٣٩)

* * *

غَـرِيَتْ بذمِّـي أمَّـةٌ وبحمد خالقها غَريـتُ

وَفَرتْنيَ الْجُهّـالُ حـسـا شِدةً علىَّ وما فَرِيتُ .

سَعَـرُوا عَلَيَّ فلم أُحِـسَّـ ن وعندهم أنّى هَرِيتُ (١٤٠)

وأما صدقه وجرأته فحدث عنهما ولا حـــرج ، بعد ما رأيت من اكباره لنفسه وترفعه بها ، ومن اعتزاله للحياة على تعلقه بها ، « وهو ما باعها على حبه الفطرى لها ، الا لكى يشترى كرامة نفسه ، وحرية

---

(١٣٨) تعريف القدماء ص ٣١ ، ١٢٣ ، ١٢٥ ، ١٣٢ .

(١٣٩) شروح السقط ١٦٥٩/٤ .

(١٤٠) تعريف القدماء ص ١٠٠ وغرى به ــ كرضى ــ : أولع ، وفراه : شقه ، وفرى ــ كرضى ــ : تحير ، وسعروا : أوقدوا ، وهريت : من هرا اللحم هروا : أنضجه ، وهريت العبد : ضربته بالعصا .

رأيه ، وصدق كلمته ، فيجهر بما يكتمه غيره تقية ومداراة ، ويصدع بالحق الذى يخونه غيره نفاقا ورياء » (١٤١) ، وتأمل ـ ان شئت الدليل على ذلك ـ أدبه لترى صورة صاحبه وصورة مجتمعه ..

وأولاهما رمز الصدق كله ، وثانيتهما رمز الجرأة فى التناول والنقد .

على أن ما نلاحظه من فقر أبى العلاء ، وزهده فى الدنيا والناس ، لم يضعف فيه سلوك الكرم والرحمة والوفاء والحياء ولين الجانب ، فقد كان ـ على قلة ما له ـ يدفع شيئا منه لذوى الحاجة ممن يتردد اليه أو يقرأ عليه (١٤٢) . وفى سقط الزند والرسائل وثبت كتبه كثير مما أنشأه لفرط حيائه ممن طلبه ، أو للوفاء بحق الاخاء والشكر على يد سلفت .

ولا شك أن ما عرف عنه من عطف على الحيوان حتى امتنع عن أكله ونهى عن تعذيبه ، وما زخرت به (اللزوميات) و (الفصول والغايات) من حض على الاحسان والخير ، وكف عن الظلم ـ شاهد على رقة قلبه ورحمته وسعته لحب الناس .

هكذا كان خلقه ، غنى التكوين ، نبيل الصفات ، واضح المعالم فى حياته وآثاره ، قوى التأثير فى فكره وأدبه .

فماذا كان من تأثيره فى ذوقه ونقده ؟

لا ريب أن ناقدا هذه أخلاقه جدير بحرية الرأى وتساميه ونزاهته ، وكذلك كان أبو العلاء .

فانه ما كان ليجابه الشريف المرتضى ـ عندما تنقص المتنبى ـ

---

(١٤١) ابو العلاء المعرى لبنت الشاطىء ص ١٩١ .
(١٤٢) تعريف القدماء ص ٥٧٥ .

برأيه فيه ، ويهاجم الشـــعراء والأدباء المتجرين بشـــعرهم وأدبهم ، والخطباء الكاذبين ، فى (اللزوميات) و (الغفران) الا لتمتعه بتلك الحرية التى آثرها على ما باع من دنياه ٠

ولم يكن اعجابه المطلق بالصدق والتسامى فى الشعر ودعوته المتصلة اليهما حتى جعلهما سبب الغفران فى الجنة ، وسخطه المطلق على الكذب والتدنى والتكسب الا لنبل شعوره وتساميه ٠٠

بل لم يكن تركه مجاملة من نقدهم ، واحتماله الأذى من بعضهم ، الا لاخلاصه الزائد للحق ، وتنزهه عما ليس من طبعه وخلقه ، فى قوله وفعلـــــه ٠

٨ ــ **سخريته** : على الرغم مما أخذ به المعرى نفسه من جد وصرامة فى أخلاقه وسلوكه ، نراه فى كثير من شعره ونثره مبتسما ساخرا من أحوال الدنيا والناس ، يخلط الجد بالهزل ، ويلبس الباطن بالظاهر ، حتى غمض مراده ، بل تناقض أحيانا ، واستوجب اتهامه من القدماء والمحدثين ٠ وليس الا أن تنظر فى رسالتى الغفران والملائكة ، ورسالته الى النكتى ولزوم ما لا يلزم ، لترى تمكن هذا الفن من نفسه ، وتعميته لمراده أحيانا ، بل لتبتسم وتضحك أيضا مما ابتسم منه وضحك ٠

وتأمل ــ ان شئت ــ من اللزوميات قوله :

خُذِ المِرآةَ واستخْبِرْ نُجُوماً تُمِرُّ بمَطْعَمِ الأَرْىِ الْمَشُور
تَدُلُّ على الحِمَام بلا ارْتِيَاب ولكِنْ لا تدلُّ عَلَى النُّشُور(١٤٣)

أو تمثل من (الغفران) صورة ابن القارح ، بطل الرحلة فيها الى

---

(١٤٣) انظر : زجر النابح ص ١٢٠ ٠ وتمر بمطعمه : تجعله مرا ٠ والأرى المشور : العسل المجنى ٠ والحمام : الموت ٠ والنشور : البعث

العالم الآخر ، حين ذهب يوم الحشر يتكسب بأدبه كما كان فى الدنيا ، وحين ضاع منه كتاب توبته وقيل من يشهد عليها ... أو صورة أستاذه ابى على الفارسى فى ذلك اليوم ، وقد أحاط به جماعة من الشعراء تأول كلامهم على غير وجهه ، وهم يتجاذبونه ويعنفونه (١٤٤) . الى غير ذلك من صور السخر فى الغفران وهى كثيرة ...

وانه لعجيب حقا أن يكون المعرى الساخر على هذا النحو فى أدبه هو ذلك الجاد الصارم فى حياته التى أسلفنا ، وأن يتخلق بهذين الخلقين وانما التخلق فى الغالب بأحدهما ..

لكنه عجب متناه اذا ذكرنا أنه كان مهيأ لهما منذ صغره ، بطبيعة تكوينه الفنى والثقافى من جهة ، وبنشأته فى بيت الدين والوقار من جهة أخرى ، حتى بدا قبل عزلته كما وصفه من شاهده : « شاعرا ظريفا يأخذ فى كل فن من الجد والهزل » (١٤٥) . ثم كان تطور فكره وسلوكه على النحو الذى سبق فى اتجاهه الفلسفى والخلقى هو الذى بلغ بهذين الخلقين فيه ما بلغا فى عزلته . ولعله لم يذهب عنك ـ من وصفنا لهذا الاتجاه ـ كيف أداه الى التزام الجد وتجنب السخر فى حياته وخلقه ، أما كيف أداه الى السخر العميق فى شعره ونثره فمن الحق أن نذكر للعقاد سبقه الى ملاحظة ذلك ، حين نظر الى ملكة السخر عند المعرى على أنها أظهر ملكاته ، وأرجعها الى ثلاث خصال من صميم هذا الاتجاه ، هى :

استخفافه بالدنيا

ودقة احساسه

وشعوره بالواجب

---

(١٤٤) رسالة الغفران ص ٢٤٩ ــ ٢٥٦ .

(١٤٥) تعريف القدماء ص ٤ .

فهو يستخف بالدنيا ـ كغيره من المتشائمين ـ لأنه لم ير فيها نعيما يؤبه له ، ولا وطرا يستحق أن يسعى اليه ، وانما يعتريه ذلك من دقة الاحساس ، فلدقة احساسه تنغص عليه لذاته ، وتنتابه الأحزان ، ولدقة احساسه أيضا يفطن الى دخائل النفس الخفية ، فتنفضح له المضحكات والمغامز . وكما لفتته هذه الدقة فى الاحساس الى الضحك من أخلاق الناس زادت حذره من ضحكهم وبعده عن مظانه .. وهو عظيم الشعور بالواجب حتى ليحمل على نفسه مضاضة الفاقة ضنا بكرامته ، ويعف عما يشتهى من لحم الحيوان وعن ايذائه بأى وجه كراهة لبغى دان غيره به .. وكما بعثه هذا الشعور على فعل الواجب والأسى لافتقاده بعثه على الضحك من كل شيء يوضع فى غير موضعه ، ويظهر بغير المظهر اللائق بـــه (١٤٦) .

وكما عرض المعرى بعض آرائه فى الحياة والناس والدين فى اطار فنه الساخر فالتبست كثيرا ، عرض بعض نقده الأدبى فى هذا الاطار ؛ فكان له من هذا الفن لذعه وفكاهته مع الوضوح أحيانا ، ومع اللبس والغموض أحيانا أخرى .

فمن الواضح ما لا تعارض بين معارضه الساخرة ومعارضه الجادة ، كنقده لديوان امرىء القيس على لسان قصائده ...

ومن الغامض ما ناقضت معارضه الساخرة معارضه الجادة ، امـا بسبب سخطه الزائد كما فى اللزوميات ، واما لانطاقه شخصـيـاته بما يناسبها لا بما يعتقده ، وهو كثير فى الغفران ...

٩ ـ **قدرته الابداعية** : للشعر والنثر ـ يظهر أثرها فى ذوقه النقدى من وجهين : دعمه والتعبير عنه :

---

(١٤٦) مطالعات فى الكتب والحياة ص ٨٦ ، ٨٧ ، ٨٩ ، ٩٠ .

أما دعمه فمما لا شك فيه ، اذا ذكرنا أن القدرة الابداعية صنو القدرة النقدية ، كلتاهما تنشد الجمال وتدل عليـــه ، الأولى بالابداع ، والثانية بالنقد . هدا فضـلا عن أن الابداع وخاصة ابداع الشعر يعتمد على الذوق فى الانتقـاء والتمييز (١٤٧) ، ممـا يزيده دقة ورهافة ، ويؤهله للتذوق والنقد . ولعل هـــذا التواصـل الكائن بينهمـا تأثيرا وتاثرا هو الذى جعل الشعراء منذ نشأ الشعر والكتاب منذ كانوا نقادا يسمع لرأيهم ، بل يوثق بهم أكثر من غيرهم ، على النحو الذى عبر عنه الجاحظ وابن رشيق حيث يقول الأول « طلبت علم الشعر عند الأصمعى فألفيته لا يعرف الا غريبه ، فرجعت الى الأخفش ، فوجدته لا يتقن الا اعرابه ، فعطفت على أبى عبيدة فرأيته لا ينقد الا فيما اتصل بالأخبار وتعلق بالأيام والأنساب ، فلم أحظ بما أردت الا عنـــد أدباء الكتاب ، كالحسن بن وهب ، ومحمد بن عبد الملك الزيات » (١٤٨) ، وحيث يقول الثانى : « وأهل صناعة الشعر أبصر به من العلماء بآلته من نحو وغريب ومثل وخبر وما أشبه ذلك ، ولو كانوا دونهم بدرجات ، فكيف ان قاربوهم أو كانوا منهم بسبب ؟ وقد كان أبو عمرو بن العلاء وأصحابه لا يجرون مع خلف الأحمر فى حلبة هذه الصناعة ـ أعنى النقد ـ ، ولا يشقون له غبارا لنفاذه فيها ، وحذقه بها ، واجادته لها » (١٤٩) .

لكن التفوق الذوقى لهؤلاء بما عانوه من ابداع ليس على اطلاقه ، بل هو مقدور فى الواقع بمكان قدرتهم الابداعية من الطبع والصنعة ، يقوى ما قوى حظها منهما ، ويضعف ما ضعف ، على نحو ما نجد فى تاريخ الشعراء والكتاب ...

---

(١٤٧) انظر ما ذكره العقاد عن هذا الاعتماد بمجلة مجمع اللغـة العربية عند نقده لديوان عبد الرحمن صدقى ٩/ ١٥٠ سنة ١٩٥٣ .

(١٤٨) الكشف عن مساوىء المتنبى ص ٣١ .

(١٤٩) العمـدة ١/ ١١٧ .

فاذا نظرنا الى قدرة الابداع فى أبى العلاء ، وجدناها أظهر قدراته التى عرف بها قديما ، ودرس لأجلها حديثا ، يقل لحقها أن توصف فى كلمات ، ولما تستوعبها دراسات متخصصات ، وماذا نقول فى شاعرية بلغ من قوتها أن يقول صاحبها الشعر فى الحادية عشرة (١٥٠) .. وأن يرتجله كلما أعجله الموقف (١٥١) ... وأن يتصل نتاجه له طوال حياته (١٥٢) .. وأن يكون هذا النتاج فى قول بعض مؤرخيه مائة ألف بيت (١٥٣) .. وفيما أثبت من مؤلفاته خمسة دواوين (١٥٤) ، بقى منها ثلاثة (١٥٥) ... وأن نجد فى هذا الباقى من التعبير عن الفكر والشعور ما يلذ العقل والقلب ، ويتجاوز الأغراض القديمة الى النظر فى فلسفة الوجود وحكمة الخلق .. ومن تحرى الصنعة ذلك التأنق البالغ فى انتقاء الألفاظ ودقة نظمها تحقيقا لمعنى أو لمحسن بديعى ، ناهيك بالتزامه ما لا يلزم فى ديوان كامل .. مع التزامه فى جميع شعره أن لا ينشده رئيسا أو يتكسب به رزقا (١٥٦) ..

أو ماذا نقول فى كتابته التى بلغ نتاجها فيما أثبت ثمانمائة كراسة من الرسائل الفنية ، وأضعافها من الكتب الفنية أيضا (١٥٧) ... ويلغ من افتنانه فيها ما لم يأت به أحد قبله ، وحسبنا بالغفران مما وصل الينا نصا أدبيا عالى الذكر والتأثير .. على أنه فى نثره كان أشد منه فى شعره تكلفا وصناعة ، وانتقادا وتمييزا ، مما عمل الذوق فيه كثير ..

---

(١٥٠) تعريف القدماء بأبى العلاء ص ١٧ ، ١٨ ، ٥٥١ .
(١٥١) المرجع السابق ص ٢١٢ ، ٥٥٨ .
(١٥٢) المرجع السابق ص ٤١٦ ، ٤١٧ .
(١٥٣) المرجع السابق ص ٤٦٣ .
(١٥٤) المرجع السابق ص ٥٣٥ — ٥٣٨ .
(١٥٥) هى « السقط » و « اللزوميات » و « ملقى السبيل » .
(١٥٦) شروح السقط ١/١٠ .
(١٥٧) تعريف القدماء ص ٥٢٧ — ٥٣٤ .

اذا نظرنا الى ذلك ـ وغيره ـ من صفة ابداعه وجدنا الدليل الواضح على أصالة ذوقه وقوته وأهليته ٠ ولو لم يكن لهذا الذوق من أثر الا عمله فى هذا الابداع الضخم لكفاه ٠٠٠

وأما الأثر الآخر لقدرته الابداعية فى نقـــده فهو حيث كانت أداة التعبير عن أكثر ما أثر منه بالشعر والنثر ، أو قل حيث كان هذا النقـد بعض أدبه ، يبلغ من قوة التأثير والنفاذ ما بلغه هذا الأدب ، ويعتـــوره من الغموض والوضوح ما اعتوره كذلك ٠

فاذا ذكرنا أن حظه من الغموض كان أكثر وأوفر ، بما تكلفه صاحبه من الغريب والبديع ، وبما طبع عليه من عمق التفكير ، تبينا كم يلزمنا لفهم هذا النقد وتفسيره من جهد مُضنٍ ونظر طويل ٠٠٠

واذا ذكرنا أيضا أنه فى بعض هذا الأدب قد اعتمد الاطار التمثيلى لعرض آرائه النقدية كما فى الغفران ورســـالته التى نقد فيها ديوان امرىء القيس ، حيث أنطق شخصياته بما يناسبها أحيانا رعاية لعصرها ٠ أو لمزاجها ٠٠ أو لموقفها ٠٠ لا بما يعتقده هو ٠ اذا ذكرنا ذلك تبينا مدى حاجتنا ثانية فى استجلاء هذه الآراء وفهمها الى التريث والتروى ٠٠ والى الموازنة بينها وبين نظائرها فى معارض أخرى ٠٠ على أن ما نصل اليه فيها أحيانا قد لا يتجاز مجرد الترجيح ٠

١٠ ـ **قدرته التعليمية** : من أبرز عوامل النشاط الذى مارسه وتأثر به فى املائه بُعدما اعتزل خاصة ، اذلم نظهر لهعلى كثير من هذا النشاط قبل ذلك ، عدا ما سبق من قراءة البغداديين عليه شيئا من شعر السقط ٠ ولعل تفسير ذلك أن الناس ـ على الرغم من اعتزاله اياهم ـ وتواضعه لهم عن مظنة العلم والافادة ـ لم يستطيعوا لما بهرهم ـ منذ رحلته الى بغداد ـ من أخبار ثقافته وفنه وعلمه باللغة أن يعتزلوه ٠ فتسببوا اليه حتى أذن لهم ، وطرقوه ـ كما قال ـ « رجلا بعد رجل كلهم يطلب منه

أدبا » (١٥٨) ، فصار مدرسا على الرغم منه قرابة نصف قرن ، لما شاء تلاميذه من آثاره وآثار غيره فى اللغة والآدب ، يقرءون أو يسألون أو يكتبون ما يمليه ·· بل صار التدريس من قدراته الأصلية التى نجد آثارها فى مؤلفاته وفى أشعاره · وليست الشروح والتعليقات التى أملاها خلال هذه المؤلفات والأشعار ، والتى أملاها فى كتب مستقلة ـ أثرا لمجرد ظهار القدرة اللغوية كما قرر بعض الدارسين (١٥٩) ، بل هى عندى أثر هذا الطابع التعليمى الذى تمكن من نفسه ، وشاهدى على ذلك قوله مثلا فى الاعتذار عما شرحه لابن القارح :

« وهو ـ أكمل الله زينة المحافل بحضوره ـ يعرف الأقوال فى هذا البيت ، وانما أذكرها لأنه قد يجوز أن يقرأ هذا الهذيان ناشىء لم يبلغه ذاك » ··

« وهو أجل من أن يشرح له مثل ذلك ، وانما أفرَق من وقوع هذه الرسالة فى يد غلام مترعرع ، ليس الى الفهم بمتسرّع ، فتستعجم عليه اللفظة ، فيظل معها فى مثل القيد ، لايقدر على العجل ولا الرُوَيْد » (١٦٠) ·

ولعل الدكتور طه حسين فى ملاحظته أثر الدرس اللغوى فى ايثار المعرى بداوة اللفظ والأسلوب واستعمال مصطلحات العروض والقافية والنحو والصرف فى اللزوميات (١٦١) ـ كن أقرب منه فى جعله هذا الايثار من أجل الغموض والرمز (١٦٢) ·

---

(١٥٨) مقدمة ضوء السقط نسخة مصورة خاصة بالدارس ·

(١٥٩) محمد سليم الجندى فى الجامع ٢/٦٠٥ ، ٦١٢ ·

(١١٦٠) رسالة الغفران ص ١٧٩ ، ٣٨٢ · والعجل : السرعة ، والرويد : المهل ·

(١٦١) تجديد ذكرى أبى العلاء ص ١٨٨ ، ٢١٠ ·

(١٦٢) المرجع السابق ص ٢٠٤ ·

على أننا نعتقد أن تأثير هذا الجانب يتجاوز ما ذكرنا ، الى أبعاد جديرة بالنظر والتأمل فى دراسة مستقلة ليس هنا مجالها ، وحسبنا من هذا التأثير ما يبدو منه فى نقده وله مظهران :

أولهما : كونه الدافع المثير لكثير من آثار هذا النقد • على ما هو واضح فى المجالس والمؤلفات التعليمية التى تتناول الأدب وقضاياه ، تستثير الذوق لكثير من التفسير والتقويم ، ابداء لرأى أو اجابة لسؤال •

وثانيهما : منعه من اطراد عرضه بما ينثر خلاله من شروح واستطرادات • فاذا كانت صياغة هذا النقد قد تأثرت بمذهبه الفنى فى الشعر والكتابة ، من تحرى الغريب والبديع واصطلاحات العلم ، حتى غامت مراميه ، واحتاجت فى فهمها الى زيادة النظر والتأمل ـ فقد تأثر عرضه له بهذا الطابع التعليمى فى أنه لا يستقل ولا يطرد ، ولا يخلو غالبا من حشو هذه الشروح والاستطرادات •

١١ ـ **استشراف الشعراء لرأيه فيهم :** يدل ما بقى من أخباره وآثاره ـ على قلتها ـ أنه كان مثابة الشعراء طوال حياته ، احتكموا اليه وطلبوا رأيه وهو شاب ، كما احتكموا اليه وهو شيخ مشرف • لا فرق فى ذلك بين الشادين منهم والمجودين ، فمما ذكره صاحب (نسمة السحر) أن الشعراء كانوا يعرضون أشعارهم على أبى العلاء » (١٦٣) • وقد اتخذ هذا العرض أكثر من مظهر : تارة بالانشاد وتارة بالمراسلة ، اذ كانوا كثيرا ما يفدون عليه وينشدونه بأنفسهم ، فيعقب عليهم بحكمه •

وممن وفد عليه غير مرة ـ قالوا ـ أبو نصر أحمد بن يوسف المنازى الشاعر ، وفد عليه مرة ومعه جماعة فأنشدوه ، وأنشد أبياته فى وصف وادى بزاغة التى مطلعها :

---

(١٦٣) تعريف القدماء ص ٣٥٩.

وَقَمَانَا لَفْحةَ الرَّمْضاء وادٍ سقاهُ مُضاعَفُ الغيثِ الْعَمِيم

فقال له أبو العلاء : « أنت أشعر من بالشام » . ووفد عليه مرة أخرى ــ بعد سنين ــ مع جماعة من الشعراء فأنشدوه وأنشد :

لقد عَرَّضَ الْحَمَامُ لنا بسجع إذا أَصْغَى له ركبٌ تَلَاحَى

فقال له : « ومن بالعراق » عطفا على قوله السابق . وفى رواية أن الانشاد الثانى كان ببغداد (١٦٤) .

وذكر ابن العديم أن المنازى انما عمل الأبيات الميمية ليعرضها على ابى العلاء ، فكان كلما أنشده المصراع الأول من كل بيت سبقه الى الثانى كما نظمه ، ولما انشده ✻ نزلنا دوحه فحنا علينا ✻ قال ابو العلاء . ✻ حنو الوالدات على الفطيم ✻ فقال المنازى انما قلت : « ... على اليتيم » ، فقال أبو العلاء : « الفطيم أحسن » (١٦٥) .

كما ذكروا ممن وفد عليه وأنشده التهامى ، وأبا الفضل محمد بن عبد الواحد البغدادى ، ومحمد بن ابى بكر المعروف بالحاتمى (١٦٦) .

ولعل أبلغ من هذه الوفادات على دلالتها ما كان من ارسال بعض الشعراء اليه شعرهم أو شيئا منه ليعرض عليه ، واستثارته بهذا العرض الى نقد كثير ، على نحو ما نجد فى (رسالتى المنيح والاغريض) اللتين أرسلهما فى شبابه الى أبى القاسم المغربى ، وفى رسالته الى النكتى البصرى أول اعتزاله ، وفى شرحه لديوان ابن حصينة حوالى سنة ٤٤٥هـ ، فليس النقد الأدبى فيها كلها ــ كما سيأتى ــ الا أثر ما عرض عليه من أشعارهم واستشرفوا اليه من آرائه ...

---

(١٦٤) المرجع السابق ٣٥٩ ، ٤١٣ ، ٤١٤ .
(١٦٥) بغية الطلب فى تاريخ حلب ١٥٦/٢ ب .
(١٦٦) تعريف القدماء بأبى العلاء ٥٦٢ ، ٥٦٣ ، ٥٦٤ .

ولئن دل هذا العرض بنوعيه على مدى الثقة الفنية من الشعراء بأبى العلاء ، لقد كان بحق من أهم مثيرات ذوقه ومقوماته التى لا تزال بعض آثارها من مصادر دراستنا ومادتها ٠

* * *

مما سبق يتضح أن أبا العلاء كان مهيأ للنقد بكافة أدواته التى أتيحت ـ أو ينبغى أن تتاح ـ لكبار النقاد ، من الاستعداد والذكاء والثقافة والممارسة المتصلة ٠ فاذا ذكرنا وراثته وابداعه وفلسفته وسخريته وخلقه ـ مما قل أن يتهيأ بعضه لغيره ـ وجدنا أنه كان أغنى تكوينا وأكثر تهيؤا ٠

والحق أن تاريخنا الأدبى والنقدى لا يكاد يعرف ذلك الأديب العالم المفكر الشاعر الكاتب الفيلسوف الساخر الناقد للمجتمع الملتزم ما لا يلزم والمتفاعل ـ هو وبيئته ـ أشد التفاعل على الرغم من عزلته ٠

لا يكاد يعرف ذلك كله الا فى أبى العلاء ، فهو وحده الذى تحقق به وفيه ذلك المثال الفريد ، وتحققه فيه على ما رأينا ـ من سعة هذه الجوانب وتواصلها وتفاعلها ـ لا يعنى غنى تكوينه فقط ، بل يعنى أيضا أن قدرته النقدية لم تكن مجرد استعداد صقلته الثقافة والممارسة ، انما هى قدرة مركبة من عناصر تكوينه المختلفة ، قد استمدت منها ، وصدرت عنها ، حتى كان لها بهذا التركب طابعها الخاص فى التذوق والاتجاه ٠

الفصل الثانى

مصادر نقد أبى العلاء

(أ) الرواية عنه

(ب) تصانيفه

١ ـ الشعر

٢ ـ الرسائل

٣ ـ الشروح

٤ ـ الكتب

مصادر نقد أبى العلاء

لا نتناولها لمجرد أن نشير اليها أو نحصيها ، فلذلك موضعه عند الاخذ منها وعند حصرها ، ولكن لنبين ما بقى منها ومدى الثقة به وتاريخه ودوافعه وصفته ما أمكن · وهو بيان لا معدى عنه قبل تناول النقد فيها لأمرين :

أحدهما : أن ما بذلت فى البحث عما ضاع والتحقيق لما زيف من هذه المصادر كانت له نتائج مرضية أرى أن أثبتها هنا لأهميتها ، بما صححت من رؤية بعض الدارسين ، وبما يسرته من مادة البحث عن أبى العلاء لى وللاحقين ·

والآخر : أن التحديد بقدر الامكان لتاريخها ودوافعها وصفتها سوف يقفنا على طبيعة الجو النفسى واتجاه النقد ومعارضه ومجالاته فيها ، وهى أمور ينبغى أن يسبق التصور لها ما سيتبعها من تفصيل أكثره مبنى عليها ·

فاذا تأملنا ما خلص لنا من نقد أبى العلاء ألفينا له مصدرين :

الرواية عنه ··· **وتصانيفه** ···

أما الرواية : فمصدر ما وجدت من آرائه مسندا اليه مباشرا أو منسوبا اليه دون اسناد ، مما ليس فى كتبه التى وصلت ، ولا منقولا مما لم يصل ، وجدتها منثورة فى بعض كتب تلاميذه وغيرهم ، فلم أدخر وسعا فى تتبعها وجمعها من مظانها ·

لكن ما تحصل منها اذا قيس بما تحصل من تصانيفه قليل ، ومن

وملاقيه ـ وقد نيّفوا على السبعين (١) ـ كانوا أقل من القليل ٠ وليس عرفنا من رواتها ـ وهم أربع فقط ـ اذا قيسوا بمن عرفنا من تلاميذه يعنى هذا الا أن كثيرا مما سمعه هؤلاء من نقد أبى العلاء، قد ذهب عنا بنسيانهم أو بضياع ما ضاع من تاريخهم وآثارهم ٠٠

والذين عرفتهم من رواة هذا النقد هم :

ابن فورجة ، وابن سنان ، والتبريزى ممن قرءوا عليه ، وعبد السلام القزوينى ممن اجتمعوا به ٠

فابن فورجه : أبو على محمد بن حمد بن فورجه البروجردى الذى كان حيا الى سنة ٤٢٧ هـ (٢) والذى كان اماما فى اللغة والنحو ومبرزا فى النظم والنثر (٣) =

لقى أبا العلاء فى بغداد ـ ٣٩٩ ـ ٤٠٠ هـ ـ وقرأ عليه ٠٠ وأكثر من الرواية عنه (٤) ٠٠ وكانت بينهما مشاعرة (٥) ٠٠

ويبدو أن شعر المتنبى كان مما قرأه عليه ، فقد روى عنه بعض رأيه فيه ، ومعارفه عنه ، فى كتابيه : (التجنى على ابن جنى) ، و (الفتح على أبى الفتح) ، والكتابان مفقودان هنا ، لكن مالدينا منهما فى كتب الأدب والتاريخ (٦) يدل على ذلك ٠٠

---

(١) تعريف القدماء ٥١٧ ــ ٥٢١ ، الجامع ٤٥٧/١ ، ٤٨٣ ٠

(٢) فى تحقيق نسبه وتاريخه انظر : الجامع ٢٤٩/١ ٠

(٣) انباه الرواة ٣٢٤/٣ ، المهرجان الالفى لأبى العلاء ٣٥٤ ٠

(٤) بغية الطلب فى تاريخ حلب ١٩٦/١ أ مصور ، تعريف القدماء ٣٣١ ٠

(٥) شروح السقط ١٣٦٩/٣ ٠

(٦) شرح الواحدى للمتنبى ٢٧٧/١ ، ٧٤٥/٢ بغية الطلب ٤٧/١ ب ، ٤٨ أ ٠

وابن سنان : أبو محمد عبد الله بن محمد بن سعيد بن سنان الخفاجى العالم الأديب الشاعر (٤٢٢ ـ ٤٦٦ هـ) (٧) :

كان من تلاميذ أبى العلاء الذين قرأوا عليه بالمعرة (٨) . ومع أنه لا تحديد لزمن تلك التلمذة وما قرأه فيها ، يمكننا أن نرجح كونها بعد سنة ٤٣٥هـ أى بعد بلوغه الثانية عشرة وتحصيله لمبادىء العلوم ـ وأن نلمح استمرارها وقتا غير قصير من أقواله عنها :

« كنت حاضرا عند شيخنا أبى العلاء .. وأجاز لنا فى بعض الأيام شيخنا .. ومازلت أسمع أبا العلاء يقول (٩) .

كذلك يمكننا أن نستدل من اشاراته الى ما قرأه فيها (١٠) ، ومن رواياته لنقد أبى العلاء (١١) أن (شعر السقط) وبعض (شعر المتنبى) كانا مما قرأه ودرسه عليه .

وكما كان من آثار هذه التلمذة تبرمة كشيخه بالعصر فى شعره (١٢) .. كان من آثارها أيضا صدوره عن ذوق أستاذه أحيانا ، وروايته كثيرا من آرائه فى الشعر من حيث : أساس استجادته .. ومدى جودته .. وبعض عيوبه (١٣) ..

والتبريزى : أبو زكريا يحيى بن على ... الخطيب التبريزى

---

(٧) النجوم الزاهرة ٥/٩٦ ، سر الفصاحة : المقدمة .
(٨) تعريف القدماء ٥١٨ .
(٩) سر الفصاحة ١٠٨ ، ١١٤ .
(١٠) المرجع السابق ١٥٩ ، ١٩٦ ، ٢١٣ ، ٢٣٨ ، ٢٨٦ .
(١١) المرجع السابق ١٠٨ ، ٢١٦ .
(١٢) المرجع السابق المقدمة ص ح .
(١٣) المرجع السابق ١٠٨ ، ١١٤ ، ١٥٦ ، ٢١٦ ، ٣٢٩ .

أحد أئمة اللغة والنحو (٤٢١ ـ ٥٠٢ هـ) ـ من أشهر تلاميذ المعرى ، قرأ عليه بالمعرة حوالى سنة ٤٤٥ هـ لأكثر من سنتين كتبا كثيرة من كتب اللغة ، وشيئا من تصانيفه (١٥) . وكان مما قرأه عليه فيما نعرف : (تهذيب اللغة) (١٦) للأزهرى ، و (الغريب المصنف(١٧) ، و (اصلاح المنطق) (١٨) ، (ديوان الحماسة) (١٩) ، (ديوان السقط) (٢٠) (ديوان المتنبى) (٢١) ، و (ديوان أبى تمام)(٢٢) .

لذلك كان أكثر تلاميذه رواية عنه وأخذا منه ، وأكثر ما رواه من آرائه النقدية يتصل بضبط الرواية وتحقيقها ، وأقله يتصل بتأويل المعنى والتعقب للسابقين (٢٣) .

والقزوينى : عبد السلام بن محمد .. كان شيخ المعتزلة اماما مصنفا ظريفا (٤١١ ـ ٤٨٨هـ) (٢٤) ـ وله حوار مع المعرى حول ما نظم عن فضل الحسين بن على رضى الله عنهما (٢٥) .

---

(١٤) النجوم الزاهرة ١٩٧/٥ .

(١٥) تعريف القدماء ٥٢١ ، شروح السقط ٣/١ .

(١٦) تعريف القدماء هامش ص ٣٧٤ .

(١٧) شروح السقط ٥٢٤/٢ .

(١٨) تهذيب اصلاح المنطق : مقدمته وص ١٢٦ أ ، مخطوط .

(١٩) شرح ديوان الحماسة للتبريزى ٣١٠/١ ، ٥١٢/٢ ، ٣٢٥/٣ ، ٢٦٧/٤ .

(٢٠) شروح السقط ٣/١ ، ٨٤ ، ١٠٥ ، ١١١ .

(٢١) المرجع السابق ٧٨٣/٢ والموضح ٢٨/١ ب ، ٢٩ أ .

(٢٢) مقدمة شرح الحماسة المنسوب الى المعرى ، مخطوط .

(٢٣) نفس المصادر لما قراه عليه ، ومعها : نضرة الاغريض فى نصرة القريض ص ١٠ مخطوط .

(٢٤) النجوم الزاهرة ١٥٦/٥ .

(٢٥) تعريف القدماء ٧٨ .

واذا كانت رواية هؤلاء بتلقيهم المباشر عن أبى العلاء جديرة بالثقة والقبول فان ما نسب اليه دون اسناد جدير بالشك والتمحيص قبل تقبله والثقة به لاسيما ما اختلفت رواياته ، أو اضطربت نسبته ، أو خالف الثابت مما أملاه .. بل ان ما روى كله جدير بهذا الشك والتمحيص ، لأن المسند منه أيضا قد يلحقه بنسيان الرواة من الزيادة والنقصان ما ينأى به كثيرا عن أصله الصحيح .

وأما تصانيفه : فهى المصدر لأكثر ما وجدت من نقده ، والأساس الأول فى دراسته وتقويمه ، اذ كان ما بقى منها بأنواعه من أشعار ورسائل وشروح وكتب معارض لهذا النقد ، واذ كان ما عرضه فيها أضعاف ما روى عنه .

لكنها معارض جديرة منا بالتفات خاص ، من حيث تضمنت النقد دون أن تخلص له قط أو تخلو منه فى الغالب ، فان تضمنها له وتوزعه فيها على هذا النحو أمر له دلالات هامة ينبغى أن نعيها فى هذا المقام :

أولاها : أن ذوق المعرى كما ألمحنا من قبل كان من القوة واليقظة والتحفز للنقد أيا كان نوعه ولأدنى ملابسة ، بحيث صارت أماليه كلها معارض لهذا النقد لا تخلو منه الا نادرا .

ثانيتها : أن خاصة التداعى والاستطراد قد غلبت وسيطرت فى مصنفاته كلها ــ بتنوع ثقافته وغزارة معانيه ــ على نحو لم يتيسر له معها أن يتوفر فى املائه على موضوع واحد .

ثالثتها : أن ما ضاع من أنواع تصانيفه بالقياس على ما بقى منها وبسبب قوة الذوق والتداعى فيه ــ كان لا شك من معارض نقده الأدبى على نحو ما .

فاذا علمنا بالموازنة بين ما أحصاه مؤرخوه منها وما بقى أن ما نفتقد أكثر مما نجد = أمكننا أن نتصور مقدار ما ذهب عنا من هذا النقد فيما افتقدناه ٠

ولأن مابقى متنوع كما ذكرت الى أشعار ورسائل وشروح وكتب أخرى ـ كان لابد لتناولها فى الاطار الذى حددناه أن نفرد كل نوع منها بتناول خاص ٠

فالشعر :

ليس هينا ما وجدته من النقد الأدبى فيه ، وان قل فى حجمه عما وجدته فى نثره ، لأنه ـ على قلته ـ أكثر كثيرا مما نجده لأى ناقد أدبى تصدى للنقد بالشعر ، وأوفى تمثيلا لبعض اتجاهاته من نقده النثرى ٠

فاذا كان شعره قد بلغ فى قول بعض معاصريه مائة ألف بيت (٢٦) ، وفيما أثبت من مصنفاته خمسة دواوين (٢٧) ٠ فاعلم أن هذا النقد القليل الكثير ليس الا محصل ديوانين من ثلاثة بقيت بعد ضياع ما ضاع من هذا كله ، وهما (سقط الزند) و (لزوم ما لا يلزم) ، دون (ملقى السبيل) الذى لا نقد فيه ٠ وقد قدم لكل من السقط واللزوم بمقدمة قيمة ، صار بنقده لشعره فيها فذا بين شعرائنا القدامى على الاطلاق ٠

أما سقط الزند :

فقد وصفه هو فى فهرست كتبه بأنه : كتاب لطيف يشتمل على شىء نظم قديما فى أول العمر (٢٨) ٠

---

(٢٦) تعريف القدماء ٤٦٣ ٠
(٢٧) المرجع السابق ٥٣٨/٥٣٥ ٠
(٢٨) المرجع السابق ٤٥ ٠

ولأن فيه ما نظمه فى صباه ، وما نظمه فى كهولته ببغداد ، وما نظمه فى شيخوخته بعد رجوعه منها • ذهب أحد المحدثين (٢٩) الى أن هذا الوصف غير صحيح •

لكننا اذا تأملنا وجدنا أنه انما وصفه بذلك فى آخر حياته ، وعند صنفه فى مطلع عزلته كما سيأتى ، فصح له أن يعده مما نظم فى أول العمر • على أن أول العمر فى وصفه لا يعنى ما قبل عزلته فقط ، لأن من السقط مانظمه فى مطلعها وقبل أن يصنفه ويسميه بهذا الاسم ، كقصيدته « الميمية » و « اللامية » فى رثاء أمه التى ماتت قبيل رجوعه من بغداد •

ولأن ما فيه مع هذا التنوع الزمنى قد انتظم أغراض الشعر دون ترتيب = كان من خصائصه المميزة :

أولا : دلالته على نفس أبى العلاء قبل اعتزاله وفى أثنائه دلالة لا يفى بها غيره من دواوينه ، حيث ينبىء عن طموحه واعتداده واقباله قبل أن يعتزل ، بنحو قوله :

وإنّى وإنْ كنتُ الأخيرَ زمانُهُ ... لاتٍ بما لم تستطعهُ الأوائلُ(٣٠)

ثم يشير الى يأسه وانطوائه وسخطه منذ اعتزل بقوله الآخر :

بنُو الوقتِ إنْ غرُّوك منهم بحكمة ... فما خلقُها إلا غرائزُ جُهَّالِ

لذاكَ سَجَنْتُ النفسَ حتى أَرحتُها

مِن الناسِ ما أخلاهُ ربْعٌ بإخلالِ(٣١)

---

(٢٩) محمد سليم الجندى فى « الجامع » ٧٦٣/٢ •
(٣٠) شروح السقط ٥٢٥/٢ •
(٣١) المرجع السابق ١٨٤٠/٤ •

ثانيا : عدم الالتزام فى نظمه بخطة معينة من حيث الموضوع أو الأسلوب على نحو ما نجد فى اللزوم وملقى السبيل وجامع الأوزان ، واستغفر واستغفرى (٣٢) ومن هنا كان تنوع موضوعاته وأساليبه ، تنوع موضوعاته مع الدوافع المختلفة الى مدح وفخر ورثاء ووصف · وتنــوع أساليبه تبعا لمزاجه وقدرته الفنية ، من كلف بالمبالغة والتقليد ومجاراة الخاطر فى شبابه ، الى جنوح للقصد والاستقلال ومجاراة العقل ونهـم بالمحسنات والمصطلحات وغريب الأوزان والقوافى فى عزلته ·

ثالثا : تتابع قصائده دون ترتيب واضح بحسب الأغراض أو القوافى أو التاريخ وان كنا مع ذلك نطمئن الى شيئين :

أولهما : أنه حين الجمع كان مرتبا بحسب التـاريخ ان لم يكـن للقصائد على التوالى فى المراحـل الثـلاث ، لأن ما بقى من عناوين بعضها ، وتاريخ المخاطبين بها ، والأحداث الواردة فيها ، يدل على أن ماجمع فى كل مرحلة مرتب بجملته مع ما جمع فى الأخريين ، لا يشذ عن ذلك فيما نعرف الا قصيدتان نظمتا فى بغداد ، وردت احداهما فى شروحه المطبوعة بين ما نظم قبل سفره اليها (٣٣) ، وفى مخطـوطه (الضوء) بعد ما نظم فى عزلته (٣٤) · ووردت الثانية بين ما نظم فى عزلته فى المطبوع والمخطوط (٣٥) ·

وثانيهما : أن جمعه وتسميته وخطبته كانت فى مطلع عزلته ، خلافا لمن زعم أن ذلك لم يكن قبل سنة ٤١٧هـ (٣٦) ، ودليلنا على ذلك أن نصر

---

(٣٢) تعريف القدماء ٥٣٥ — ٥٣٨ .

(٣٣) شروح السقط ٧٤١/٢ .

(٣٤) ضوء السقط ورقة ٨١ ب .

(٣٥) شروط السقط ١٤٧٦/٤ ، ضوء السقط ٦٠ ب .

(٣٦) د. عبد الله الطيب فى بحثـه عن «الدرعيـات»: البحـوث والمحاضرات بالمجمع اللغوى دورة ٢٨ ص ٥٥ .

ابن صدقة القابسى توجه الى المعرة ، ولازم أبا العلاء ، وأخذ عنه ديوان (سقط الزند) ، وكتب منه نسخة جيدة ، ثم قدمهـــا للحاكم بمصر ، فأعجبه نظمه ، وأرسل الى عزيز الدولة الوالى بحلب (٤٠٧ ـ ٤١٣ هـ) (٣٧) أن يحمله الى مصر فاعتذر فكف عنه (٣٨) • وهذا على أقل تقدير كان قبل هلاك الحاكم سنة ٤١١ هـ (٣٩) ، فهل أخذ ابن صدقة (سقط الزند) عن صاحبه ـ بهذا الاسم ـ ونسخه الا وهو مصنف موجود ؟

وكما كان السقط دون غيره من دواوين أبى العلاء ومصنفاته ممثلا لنفسه ولشاعريته فى شبابه وعزلته ، كان بما فيه من ملاحظات النقد ـ على قلتها عما فى اللزوم ـ ممثلا لذوقه فى المرحلتين ، حيث نجـــده فى الأولى معتدا بالشعر ، الى حد جعله يبالغ فى تقريظ شعر مادحيه بما يسقط رأيه فيه ، ويلم ببعض مظـاهر الاجـادة والضـعف ، وينهى عن التكسب • ثم نجده فى الثانية يعيب أولا بعض معانى السابقين ، وثانيا ما بدر من غلوه وكذبه ، مع الاشارة الى رفضه لهذا الشعر الذى كان معتدا به ، ومع التنويه بترفعه عن التكسب وانشاد الملوك •

وأما لزوم ما لا يلزم :

فمن أهم ما نظم فى عزلته ، وقد استمر فى نظمه فترة طويلة ، كانت ـ فيما يبدو من اشارته الى سنه والى بعض الأحداث فى عهده ـ منذ بلغ الأربعين الى أن جاوز الخمسين ، أو بعبارة أخرى منذ سـنة ٤٠٢ هـ الى ٤٢١ هـ (٤٠) •

---

(٣٧) زبدة الحلب ١/٢١٥ ، ٢١٩ •
(٣٨) تعريف القدماء ٤١٧ •
(٣٩) النجوم الزاهرة ٤/١٩٦ •
(٤٠) انظر • المهرجان الألفى لأبى العلاء ٢٥٣ ـ ٢٦٦ •

ومعلوم أنه فى عزلته ، ومنذ رجع من بغداد ، قد أخذ نفسه بمـا لايلزم فى حياته كلها ، عزم أن يعتزل (٤١) ، فلم يبرح منزله ، وانفرد عن الناس مدة ، وترك الزواج ، وحدد مأكله ومشربه وملبسه مبـالغة فى الاستغناء ۰ وعزم أن يتوفر على ذكر الله (٤٢) ، فلم يلبث أن رفض الشعر ، وأخذ فى املاء ألوان من تمجيد الله والعظات ۰ وعزم أن يركب الصعب فى أدبه (٤٣) كما ركبه فى سلوكه ، وأن يأتى منه بما لم يسبق اليه ، فأنشأ (الدرعيات) عقب رجوعه ، احدى وثلاثين قصيدة ومقطوعة فى موضوع واحد ، ثم أنشأ (الفصول والغايات) ، وبناه على حروف المعجم ماعدا الألف ، بأن جعل كل حرف غاية كالروى قبلها ألف لمجموعة من الفصول ۰

عزم على هذا كله حين اعتزل ، فلم يزدد مع الأيام والممارسة الا امعانا فيه واستزادة منه ، وانسحب من الدنيا رفضا لغرورها وغرور من فيها ، فزاده التأمل فى أحوالها علما بها وسخطا عليها ۰

فلما أنشأ (اللزوميات) جاءت نتاجا متسقا مع هـذه المقدمـات وتطورا لها ، اذ تكلف فى بنائها أن ينتظم بالروى حروف المعجـم عن آخرها ، فى أحوال ضبطها كلها ، مـع التزام حرف أو أكثر لا يلـزم قبله (٤٤) ، وقصد من انشائها الى تمجيد الله ، وتذكير الناسين ، وتنبيه الغافلين ، والتحذير من الدنيا الخادعة ، وأهلها المجبولين على الغش والمكر ۰۰ (٤٥) فكانت بهذا التكلف والقصد أبرز مثال لتشدده واغـرابه

---

(٤١) رسائل أبى العلاء ص ٣٤ ۰
(٤٢) تعريف القدماء ٣٨ ، ١٠١ ۰
(٤٣) المهرجان الألفى لأبى العلاء ٢٥ ۰
(٤٤) لزوم مالا يلزم ١/٢٢ ، ٢٣ ۰
(٤٥) لزوم مالا يلزم ١/٢ ، ٣١ ۰

وغموضه من جهة ، ولفلسفته فى الحياة ونقد المجتمع قولا وفعلا واعتقادا نقد الساخط الجرىء من جهة أخرى .

وبما أن الأدب بعض آثار المجتمع أو قل من أهم أقواله ، كان شطر كبير من نقده للمجتمع متجها الى أدبه ، من حيث وظيفته الاجتماعية وقيمه الفنية ، حتى كانت (اللزوميات) بهذا الشطر من النقد ـ على قلته فى جملة نقدها ـ من أهم معارض نقده الأدبى المنظوم ، وحتى كان هذا النقد كغيره فيها متأثرا بتكلفه وفلسفته ، تأثر بتكلفه وعمق فكره فغام مراده كثيرا . وتأثر بفلسفته فصدر أكثره عنها ، وكان حظه من السخط الغالب فى نقده الاجتماعى غير قليل ..

فاذا ذكرنا (مقدمة اللزوميات) التى أملاها عند ترتيبها كما قال (٤٦) ، وعند آخر تاريخ لنظمها تقريبا ، ذكرنا أهم مقدماته ، بل أهم مقدمة صدر بها شاعر لديوانه ، من حيث مضمونها العلمى والنقدى . وحسبك من أهميتها النقدية أنه فيها :

نقد شعر اللزوميات من حيث موضوعه وقيمته الفنية ـ كما نقد شعر السقط فى مقدمته ـ وبين أى الشعر رفض هنالك وأيه قبل هنا وأساس ذلك .

واحتج لتكلفه لزوم ما لا يلزم ، واستبعد الاقواء من القدماء .. وناقش السابقين فى بعض أحوال الروى مناقشة الناقد العالم ..

الرسائل :

عن أهم مصادر نقده وأطرفها ، بما سلكه فيها وافتن فى عرضه ، اذ سلك فيها من النقد ما لم يسلكه كاتب قبله أو بعده فى رسائله ، وافتن

---

(٤٦) لزوم مالا يلزم ٣٢/١ .

فى عرضه ضروبا من الافتنان لم يبلغها فى شعره ، ولم يساوه فيها أحد من النقاد كما سنبين .

على أن ما بقى منها بأنواعه ـ من طوال ووساط وقصار ـ ليس فى الواقع الا أقلها ، اذا علمنا أنها بلغت فى ثبت مصنفاته ثمانمائة كراسة أو أربعين جزءا (٤٧) . لم يبلغنا من طوالها سوى : رسالتى (الغفران) و (الملائكة) وكانتا فى جزأين (٤٨) .. ولم يبلغنا من وساطها وقصارها سوى ثلاث مجموعات : **الأولى** ـ وهى أشهرها وأكبرها ـ : ثنتان وأربعون رسالة ، بين كاملة وناقصة ، فى جزء .. **والثانية** : مختصر رسالتيه الى داعى الدعاة ـ ضمن مختصر الرسائل المتبادلة بينهما ـ فى أقل من جزء . **والثالثة** : خمس رسائل من الوساط والقصار فى أقل من جزء أيضا . وكلها ماعدا المجموعة الأخيرة مطبوعة ، والمطبوع ـ ماعدا الغفران والملائكة ـ غير محقق (٤٩) .

لكننا سوف نقتصر فى هذا التناول على :

رسالتى المنيح والاغريض .

ورسالته الى النكتى البصرى .

ورسالته الى بعض كتاب الديوان .

ورسالة الغفران .

ورسالتيه الى داعى الدعاة .

---

(٤٧) تعريف القدماء ٤٨ ، ١١١ . الكراسة : أربع صفحات .

(٤٨) المرجع السابق ١١١ .

(٤٩) وقد اعتمدت فى الأولى على (رسائل أبى العلاء) ط أكسفورد ، وفى الثانية على (بين أبى العلاء وداعى الدعاة) ط السلفيه . وفى الثالثة على مخطوط دار الكتب ٢٨ أدب شنقيطى ، وفى الغفران على طبعة بنت الشاطئ بدار المعارف . وفى الملائكة على طبعة دمشق .

اذ هى الجديرة بما فيها من نقد أن نتناولها دون ماعداها .

فالمنيح والاغريض :

مما دون الطوال كما قالوا (٥٠) ، ومن رسائل المجموعة الأولى (٥١) ، بل من رسائله التى ذاعت قديما وحديثا .

كتبهما الى أبى القاسم الحسين بن على المغربى ، العالم ، الشاعر ، الكاتب (٣٧٠ ـ ٤١٨هـ) (٥٢) ، ودل فى سياقهما على أنه أملى الأولى حين أرسل اليه من مصر بعض نظمه ونثره ، والثانية حين أرسل اليه (مختصره لاصلاح المنطق) . كما دل بقوله فى الأولى : « وانما شرفت ـ المعرة ـ على من سواها ، وطالت على البلاد دون ما والاها ، لاقامته بها فى تلك الأيام » ، ثم قوله : « ولقد هممت باسترفاد حضرته من بدائعه ما يفضل المال ، ويكون الجمال .. وأبى الله أن يكون التفضل الا من قبله ، فوعد بما سنح من المنثور والمنظوم » = على أن أبا القاسم أقام فى المعرة فترة لعلها لطلب العلم ، كانت أساسا لتعارفهما ، ذلك التعارف الذى أثمر فيها نعرف صداقة متينة لم تنتقض على الأيام ، وفيما نرى هنا تقديرا متبادلا جعل المعرى يستشرف لابداع المغربى ، والمغربى يستشرف لرأى المعرى ، حتى اذا رحل عن المعرة الى مصر وأبدع ما أبدع من النظم ، وأنشأ ما أنشأ من النثر ، عجل بهما الى المعرى ، فمتى كان هذا التعجيل أو التراسل اذن ؟

لا تحديد من التاريخ لذلك ، وان كنا نرجح من هذا التقدير المتبادل

---

(٥٠) تعريف القدماء ٤٧ ، ١١١ .

(٥١) انظر : رسائل أبى العلاء ص ٣ ـ ٢٠ .

(٥٢) فى تاريخه انظر : مختصره لاصلاح المنطق ٩٧ أب،تهذيب تاريخ دمشق ٤٠٩/٤ ، ذيل تاريخ دمشق ٦٤ ، المنتظم ٣٢/٨ .

أن (المختصر) أرسل الى أبى العلاء فأجاب عنه بالاغريض حوالى سنة ٣٨٨ هـ ، لأنه على التحقيق ألف سنة ٣٨٧ هـ ، وروجع وصحح فى جمادى الأولى سنة ٣٨٨ (٥٣) ، كما نرجح من اشارته فى الاغريض ، الى ما حظيت به الرسالة الأولى من تشريف على أنه دافع لرحيل أختها ـ أن المنيح كانت قبل الاغريض بقليل ، وأنها أول ما أرسل الى المغربى بعد رحيلـــــه ٠

فاذا كانت الرسالتان قد أمليتا حوالى هذا التاريخ فهما اذن من أمالى الشباب ، بل هما ـ فيما يبدو ـ أقدم تصانيفه المتضمنة لنقده ٠

ومن ثم كانت أهميتهما النقدية حيث تضمنتا أول نقده المصنف ، ونقده فى شبابه ، ولأديب صديق ٠ لا تكاد تقرؤهما حتى يأخذك اعجابه بالمغربى ، وثناؤه المتصل عليه وعلى أدبه ، فى أسلوب تواضع وتأنق فيه كثيرا ، وبالغ أحيانا ، حتى لقد فضله على المعريين ، وعلى نفسه ، وعلى القدماء والمحدثين ، مؤكدا غير مرة أن تفضيله واكباره ليس لمـــا بينهما من ود وصداقة ، بل لأدبه الذى تفوق فى نثره وشعره ، بمزايا عددها فى طبعه وصنعته ٠

كما حكم له على الجاهليين فى وصف الناقة والخيل بروعة التجديد وقوة التأثير ، مزريا ببعض تشبيهاتهم ومعانيهم المتطيرة ، ثم بالشـــعر الأول لكذبه و « بقفانبك » لفحشها ٠٠ وفضل (مختصره) على (اصلاح المنطق) بالايجاز وعدم التكرار وطرح الاستشهاد برجز الضب ٠

واذا كان بعض هذه الآراء قد أفسده التعميم والاطلاق بسبب مجاملته وتواضعه ومبالغته ، كاعجابه المطلق بأدب المغربى ، وتفضيله له على

---

(٥٣) مختصر اصلاح المنطق ورقة ٩٧ ٠

كل من عداه ـ فان سائرها من مزايا المغربى وعيوب الجاهليين جدير بالثقة والقبول لأسباب :

منها : أن تاريخ المغربى يشهد بأنه كان على جانب كبير من الذكاء وسعة الثقافة واجادة الشعر والنثر .

ومنها : ان ما بقى من آثاره الشعرية والنثرية (٥٤) ـ على قلتها ـ يصدق هذا التاريخ ، ويستحق الاعجاب ، ويؤكد صحة الكثير من هـــذا النقـــد .

ومنها : أن معظم هذه الآراء قد تردد فى بعض مصنفات المعرى بعد اعتزاله (٥٥) ، كعيبه الطيرة والكذب والفحش ، واستحسانه قوة الطبع وجودة الصنعة ، واعتداده بالاجادة لا العصر .. مما يدل على أصالتها وتأريخها لنقده .

ومنها : أن بعضها يؤكد نضج حســه الذوقى وتأثره الفلســفى فى تلك السن المبكرة ، كعيبه (الكذب والفحش والطيرة ونسبة الأشواق الى ذوات الأطواق) على الجاهليين .

ورسالته الى النكتى البصرى :

مما دون الطوال ومن رسائل المجموعة الأولى أيضا (٥٦) ، غير أنها لم تشتهر اشتهار المنيح والاغريض ولم تلقب مثلهما بلقب خاص ، الا أن تكون المقصودة (برسالة الجن) التى ذكرهـا الكلاعى (٥٧) ،

---

(٥٤) انظر بعضها فى : تعريف القدماء ٥٩١ ، والمصور ٧٨٧ أدب بمعهد المخطوطات .

(٥٥) كالرسائل ٦٧ ـــ ٧٥ ، والغفران ٤٧٧ ، وللفصول والغايات ٤١٨/١ ، واللزوميات ٤٤/١ ، ٢٠٩/٢ .

(٥٦) رسائل أبى العلاء ٦٥ ـــ ٨٨ .

(٥٧) أحكام صنعة الكلام ص ٢٣١ .

ووسمها بهذا الاسم لحديث المعرى فيها عن شياطين الشعر ، كذا وسمها بعض المعاصرين (٥٨) « برسالة الشياطين » لهذا الحديث .

وعلى الرغم من أن التاريخ لم يحفظ من أخبارها سوى أنها كتبت الى رجل يعرف بأبى الحسين أحمد بن عثمان النكتى البصرى (٥٩) = أمكننى بالقراءة الدقيقة لها أن أتبين كثيرا من صفة هذا الرجل وصلته بأبى العلاء ورسالته اليه .

فمنها نفهم أنه كان شاعرا كاتبا ، فقد « بهر بنثير ونظيم » ، واديبا عالما معتدلا يحسب من أهل التفسير لكتاب الله « وله فى تفسير سورة الاخلاص كتاب » ، ومن أهل العلم بلغة الرسول صلى الله عليه وسلم والتظاهر بالصيانة وحسن المذهب ، وأنه كان صديقا قديما لأبى العلاء صاحبه فترة ما فى شبابه ، كما يبدو من قوله : « ودلنى كتابه على أنه يحسبنى قد أضعت وده .. ولم أنس أيامه ولا مذاكرته ... فكيف استجار أن يقصر كنية صديقه .... »

كذلك نفهم من قول المعرى عنه : « وادّكر بعد أمة » ، ثم قوله عن نفسه : « انى مقصور فى البيت ، أى لازم له ، فكأنى محبوس فيه » = أن كتاب النكتى اليه ورده عليه كانا بعد فترة انقطاع طويلة امتدت الى عزلته ، وان دل قوله فى آخر الرسالة : « انما أجبته بنثير دون منظوم لأنى منذ سنوات أعرضت عن تلك الهنوات » = على أن ذلك لم يكن بعد اعتزاله بكثير ، لأنه كما أسلفنا انما رفض الشعر فى مطلع عزلته .

فاذا كانت تلك صفة النكتى وصفة علاقته بالمعرى فماذا كانت رسالته وكيف أجابه أبو العلاء ؟ . الظاهر من قوله فى مطلع الرسالة : « مرحبا

---

(٥٨) كامل كيلانى فى : الغفران ورسائل اخرى ٧٥ .

(٥٩) أظنه « أبا الحسين البصرى » الذى ذكره فى « الغفران ٥٢٩ » على أنه من أهل (نصيبين) وأنه كان معلما لبعض العلوية .

بكتاب الشيخ .. لقد بهر بنثير ونظيم » ، ثم قوله : « لقد أهـدى الى رياضا أرجة ، لاتزال الألباب بربوعها معرجة ، من طويل فرع بوزنه ، وكامل كمل فى حسنه ، ووافر يجعل تعلة للمسافر » = أن النكتى أهدى اليه شعره ضمن رسالة خاصة .

ولم يكن قصده من هذا الاهداء الا أن يستطلع رأيه فى هذا الشعر عن ثقة به كما نفعل الآن ، وهو القصد الذى فهمه أبو العلاء وأجـــابه اليه ، ودل عليه وهو يعرض هذا الرأى بقوله : « واذا توخيت قول الحق لم يكن لسيدى ـ جمل الله به ـ كبير فضيلة فى اجتنابه هذين النوعين من الزحاف ـ العقل والوقص ـ وانما قلت ذلك ليعلم أنه لم أناجه بخطاب صدر عن صدر مريض ، كما جرت العادة بذلك من العامة لقالة القريض ، وقد قال ﷺ : ما أنا من دد ولادد منى » ، ثم قوله بعد ذلك وهو يعاتبه على أن قصر كنيته : « وقد تفقدت موضعا آخر فى منظومه ـ أدام الله عزه ـ وليس ذلك على سبيل الانتقاد » .

ولعله لهذا القصد فضلا عما عرف من تعمقه واستقصائه فى عزلته ، لم يكن رأيا عابرا مبتسرا ، بل كان نقدا فاحصا مستقصيا لجوانب من شعر النكتى ، شغل بها أكثر من نصف الرسالة . لكنه فى جملته وتفصيله كان نقد المعجب المتنزه عن الكذب .

أعجب بقدرة النكتى الفنية لأنها أبدعت الشعر والنثر ، وبشاعريته التى سأل عن ملهمها من الجن أم من الملائكة ؟ لمزايـا بينها فى ألفاظه وتراكيبه وأوزانه وحروف رويه ، وفى تجنبه عيوب القافية والضرورات فاحشها ومباحها ، مما لم يتجنب أكثره الفحول ، ولم يسلم منه القديم والمحدث ، مستطردا فى أثناء ذلك وبعده الى كثير من القضايا ، كشياطين الشعر ، والقدرة الناظمة ، وتفقد المتنبى صياغته ، وغلـو النكتى فى مدحه ، وتجويز أرسطو للكذب .

وانما اهتم بأسلوبه وعروض شعره دون معـــانيه وأغراضـــه ، لاجـادته البالغـــة للأولين فيمـــا يبدو من تجنبه كـــل ماعيب على الفحول ، وهى اجادة جديرة أن تلفت المعرى وأن تستحوذ على اهتمامه وهو شاعر لغوى بطبعه ٠

وفضلا عما تحلت به الرسالة من الاستطراد فى أولهـا والمعاتبه والمذاكرة فى آخرها ـ

تضمنت من السخر والتفكه ما خفف تعمقهـــا العلمى وتكلفهـا الفنى من جهة ، وأبهم حديثه عن شياطين الشعر بعض الابهام من جهة أخـــرى ٠

ورسالته الى بعض كتاب الديوان (٦٠) :

احدى رسائله القصار التى لا تزال مخطوطة ، والتى لا يعرف من تاريخها والمرسل اليه بها سوى أنها كانت بعد رجوعه من بغداد ، لحكايته فيها رواية البغداديين فى « قفانبك » ، وأنه كتبها الى أحـد كتـــاب الديوان ممن كانت لهم به قرابة ٠

لكنها على الرغم من ذلك من أهم رسائله المتضمنة لنقده ، فقد نقد فيها ديوان امرىء القيس أو أهم قصائده ، حتى كاد يفرغها لهذا النقد دون أن ينسى مخاطبه فى الكلام ، بطريقة فى العرض فريدة ، تعـــد من خصائص أسلوبه الفنية ، وهى التشخيص والتمثيل ٠

فالرسالة من أولها الى آخرها موازنة بين ديوان الكاتب ـ أو دواوين الكتابة ـ وبين ديوان امرىء القيس ، وما يقوله كل منهما لو نطق فى

---

(٦٠) الرسالة الأولى من المجموعة الثالثة المخطوطة ص ١ ٠

نقد صاحبه ، فدواوين الكتابة لو نطقت لأثنت على الشيخ الكاتب ، فقولها فيه خلاف ما يقوله ديوان امرىء القيس ، لأنه لو أذن له فى الكلام لمعقد به كل ملام ، واللائمات على عيوبهن من قصائده ثمانية ، وعيوبهن تنحصر فى ثلاث من جوانب شعر امرىء القيس :

الغزل ، والسياق العروضى ، والسياق النحوى .

فالغزل أهم أغراضه معقد اللوم والانكار من بعضها .

والخزم ، وكثرة القبض ، وتخفيف الروى المشدد دون رعاية التفاوت ، والاقواء ، وفتور الايقاع ، و قصر الوزن ـ معقد الشكوى ونفور الحس من أخرى .

واضطراب الاعراب فى اثنتين شائن لهما ومستشنع فيهما .

وكأنى بالقارىء يلح على بهذا السؤال : كيف اعتمدت على هذه الرسالة المخطوطة ونوهت بما فيها من نقد دون أن تحقق سندها الى المعرى ؟

وتحقيق ذلك : أننا ـ فضلا عما فى الرسالة من خصائص علائية فى اللغة والسجع والتشخيص والتمثيل والاستطراد ، وفضلا عن المزاج الفلسفى الخاص بأبى العلاء فى بعض نقدها ـ نجد بعض الآراء هنا بنصه أو بمعناه فى نقد الاغريض «لقفانبك» (٦١) ، والغفران لامرىء القيس (٦٢) .

وهنا يعرض سؤال آخر هو : اذا كانت الرسائل الثلاث متفقة فى نقد امرىء القيس مع سبق الاغريض فأين تقع المخطوطة من الغفران اذا ؟ .

---

(٦١) رسائل أبى العلاء ص ١٨ .
(٦٢) رسالة الغفران ص ٣١٣ — ٣٢٢ .

والجواب عن ذلك أنه بالنظر فى نقد الرسائل الثلاث ومعها رسالته الى النكتى يبدو أن المخطوطة كانت قبل الغفران من وجوه :

أولها : أن نقده لامرىء القيس فيما قبل الغفران يتجه الى عيوبه على حين هو فيها يتجه الى الدفاع عنه والاحتجاج له . وثانيها : أنه فى المخطوطة عاب عليه اضطراب الوزن فى بعض أبيات « **النونية والصادية** » ثم ذكر نفس العيب فى الغفران محاولا توجيهه والاحتجاج له وثالثها : أنه فى المخطوطة عاب عليه الخزم فى « قفانبك » برواية البغداديين ، ثم نفاه عنه وجعله من تصرف الرواة فى الغفران .

فان اتجاهه العام الى عيوب الكندى الخلقية والفنية فيما نعرف تاريخه وغيره ، ثم اتجاهه الى الدفاع عنه والاحتجاج له فى الغفران — يدل على أن عيبه فى المخطوطة اضطراب الوزن والخزم كان قبل توجيهه للأول ونفيه للثانى فى الغفران .

ولعل تشابه الرسالتين فى اصطناع الاطار التمثيلى لعرض النقد ، مع نضج هذا الاطار فى الغفران — يجعلنا نرجح مرة أخرى أن المخطوطة لم تكن قبل الغفران بوقت طويل .

ورسالة الغفران :

أشهر رسائله الطوال ، بل أشهر رسائله التى عرف بها قديما ، واقبل عليها الدارسون حديثا ، ولعل شهرتها — أو كثرة التعريف بها — تغنينا عن اطالة القول فى تاريخها وسببها وموضوعها والمخاطب بها ، مما فرغ الباحثون من تحقيقه (٦٣) ، وأصبح من المقرر أنها كانت تملى حوالى سنة ٤٢٤هـ ، وأنها أمليت جوابا عن رسالة تلقاها صاحبها من ابن القارح ،

---

(٦٣) انظر فى ذلك خاصة : الغفران دراسة نقدية ٤ — ١٠ ، والجامع فى أخبار أبى العلاء ٢/٧٤٣ ، ٧٥٠ .

على بن منصور الأديب الحلبى ، الذى ذكر من دوافعه لمراسلة أبى العلاء ضياع رسالة تحملها من بعض الأدباء اليه ، واشفاقه من انكار المعـــرى ما كان من هجائه لأبى القاسم المغربى .

لكنه لم يقف عند حد هذين الدافعين كما قال ، بل استطرد ـ وأطال ـ فى اظهار براعته وعرض بضاعته ـ من الحديث عن نفسه وشـيوخه وتقدم سنه ، الى الحديث عن الزنادقة وأخبارهم وتغيظه عليهم ـ ممـا جعل أبا العلاء يتجاوز مجرد الرد عليه ، الى ما شاء له خياله ، واقترحت عليه أحلامه ، فكانت تلك الرحلة الخيالية الطريفة الطويلة بابن القارح الى العالم الآخر ، ثم الرد على رسالته وما جاء فيها بعد ذلك .

واذا كان فى الرحلة من الحوار والحركة ، والمواقف والنعيم ما لم تره عين ، ولم تسمع به أذن ، ولم يخطر على قلب بشر ، ممـــا حـلم به أبو العلاء ـ

فان فى الرد من التناول التفصيلى ما زاد به أبو العلاء على ما ذكره ابن القارح من أخبار الزنادقة والملحدين وقضايا النقد واللغة .

بل ان فى الرسالة بقسيها من العلم والأدب والنقد والسخرية مـــا قل أن نجده فى غيرها .

على أن ما فيها من النقد يجعلها أهم مصادره ، لأنها قد تضمنت من موضوعاته :

١ ـ مكانة القرآن بين فنون الأدب .
٢ ـ مكانة الأدب وغايته .
٣ ـ النقد التجريدى لبعض معالم الشعر .
٤ ـ النقد التطبيقى لسند بعض الأشعار ومتنها ومعانيها وصياغتها

وموسيقاها مع الموازنة بين بعضها أحيانا ، وبين موصوفها ونظيره فى الجنة أحيانا أخرى .

وقد عرض هذا النقد أو أكثره فى اطار الحوار الممتع الذى زخرت به الغفران ، بين ابن القارح ومن لقيهم من الشعراء والادباء ، فى مجالس أدبية حافلة بالتشخيص والتمثيل ، بعضه على لسان ابن القارح .. وبعضه على ألسنة الشعراء يحتكم اليهم .. وبعضه على ألسنة الادباء . وعلى الرغم مما شاب هذا الحوار من تكلف السجع والاستطراد ، وما شـــاب النقد فيه أحيانا من قصد السخرية وعموم الحكم وتناثر المسائل وتداخلها = يعد أسلوبالعفران فى عرض النقدالادبى نمطا فريداومثالا فذا فى اللغة العربية . أما من تعرضت لهم من الشعراء والأدباء فحسبك من كثرتهم وتنوعهم أنهم ـ عدا المغمورين ـ جملة المشهورين منذ العصر الجــاهلى الى حين املائها .

ورسالتاه الى داعى الدعاة :

هما جواباه عن رســائل أبى نصر هبة الله بن موسى بن عمران ، داعى الدعاة الفاطمى ، حين أرسل اليه يسترشده ـ كما زعم ـ لما سمع قوله فى (اللزوميات) :

غـــدوتَ مريضَ العقلِ والدينِ فالْقَنِى
لتسمعَ أنباءَ الأمورِ الصّحـائحِ (٦٤)

ولم يكن فى الواقع ـ كما يبدو من رسائله ـ الا متحرشا به مريدا بمناظرته فى « ترك اللحوم وغيرها من منافع الحيوان » أن يظهره بمظهر الملحد عن الدين ، المجانف لما أحل الله لعباده ، وقد ظن أنه نجح فى ذلك ، فاعتذر فى آخر رسائله عما أذاعه من هذا السر دون قصد منه .

---

(٦٤) ٢١٨/١ .

وقد حاول المعرى أن يدرّى خصمه بشتى الوسائل ، من التواضع والاسراف فى الصنعة ، وفى القاب التعظيم التى خلعها عليه ، فضلا عن تعليله لمسلكه وزهده .

وفى سياق التعليل لمسلكه وصنعته التى رغب عنها مخاطبه ظفرنا من ملاحظاته النقدية :

بتأويله لأبياته الحائية التى دار حولها الجدل .. وبدفاعه عن السجع أبرز ألوان صنعته .. والظاهر من كلامه أن تلك المراسلة كانت فى أواخر حياته لقوله : « انه ما أكل شيئا من حيوان خمسا وأربعين سنة » ، ولدعوته بتخليد امارة تاج الأمراء ثمال بن صالح فى نصر الدولة النبوية ـ يعنى الفاطمية ـ ، فان عادة ترك اللحم لم تعرف عنه قبل اعتزاله ، وعلاقة ثمال بمصر لم تحسن الا بعد سنة ٤٤٢ هـ ، أى قبل وفاة المعرى بسنوات (٦٥) .

الشـــروح :

من أهم مصادر نقده أيضا ، لاسيما شروحه للشعر ، ربمـــا لقوة المثير ، من كون التناول للشعر وفى مجال التعليم .

وقد بلغت هذه الشروح فى ثبت مصنفاتــه سبعة وعشرين شرحا ، أكثرها لمصنفاته الشعرية والنثرية ، وأقلها لشعر غيره ونثره . لكننى لم أجد منها بعد التتبع والكشف عن كثير مما ضاع سوى :

١ ـ ثلاثة كاملة تقريبا ، هى (شرح رسالة الاغريض) ، و (عبث الوليد) ، و (ضوء السقط) .

---

(٦٥) زبدة الحلب ٢٦٧/١ .

٢ ـ أجزاء ناقصة من (زجر النابح) ، و (شرح ديوان ابن أبى حصينة) :

٣ ـ نصوص متفاوته فى حجمها ، تضمنتها كتب تلاميذه وغيرهم ، من (الرياشى المصطنعى) ، و (ذكرى حبيب) ، و (اللامع العزيزى) ، و (معجز أحمد) .

وكلها ماعدا شرح الاغريض من شروح الشعر ، وكلها ماعداه قد تضمنت النقد ، أما هو فلم يتجاوز شرح الغريب من الألفاظ والمصطلحات كما وصفه المؤرخون ، وكما وجدته فى النسخة التى صورتها منه ، وتوجد بمعهد المخطوطات تحت رقم ٧٨٧ أدب .

فعبث الوليد :

لا خلاف فى نسبته ، وانما الخلاف فى صفته ، فقد ذكره بعضهم (٦٦) على أنه كتاب متصل بشعر البحترى ، وضعه لأن بعض الرؤساء أنفذ اليه نسخة من هذا الشعر ليقابل له بها ، فأثبت ما جرى من الغلط ليعرِضَ ذلك عليه ، وبعض الغلط من الناسخ ، وبعضه من البحترى . وذكره آخر (٦٧) ـ مع ذكرى حبيب ومعجز أحمد ـ على أن المعرى اختصر ديوان أبى تمام وشرحه وسماه **ذكرى حبيب** ، وديوان البحترى وسماه **عبث الوليد** ، وديوان المتنبى وسماه **معجز أحمد** ، وتكلم على غريب أشعارهم ومعانيها ، ومآخذهم من غيرهم ، وما أخذ عليهم ، وتولى الانتصار لهم ، والنقد فى بعض المواضع عليهم ، والتوجيه فى أماكن لخطئهم . وذكره ثالث (٦٨) على أنه شرح لديوان البحتري .

---

(٦٦) القفطى وياقوت وابن العديم فى : التعريف ٤٦ ، ١٠٧ ، ٥٤١ .
(٦٧) ابن خلكان ومن أخذ عنه فى : التعريف ١٨٣ .
(٦٨) السيوطى والمكى فى : التعريف ٣٣٤ ، ٣٥٢ .

وللفصل فى هذا الخلاف نظرت فى الكتاب نفسه فتبينت أمرين :

الأول : أنه ليس شرحا للديوان كما فى الوصف الثالث ، ولا لبعضه كما فى الثانى ، لأنه لم يتناول كل قصائد الديوان ولا كل أبيات القصائد التى تعرض لها ، ولا كل عناصر الشعر فى كل بيت تناوله . ثم هو ليس اختصارا مقصودا للديوان كما تعنى كلمة « اختصر » فى الوصف الثانى ؛ لأن المعرى لم ينبعث من نفسه لتأليفه ، انما ألفه تلبية لرغبة بعض الرؤساء اليه ، أن يقابل له بنسخة من ديوان البحترى ، كما يبدو من قوله فى مقدمته : « أثبت ما فى الديوان مما أصلح من الغلط ، وانما أثبت ذلك ليكون مولاى الشيخ كأنه حاضر للقراءة .. وقد وصل ذكر شىء مما أجرى اليه أبو عبادة من الضرورات ، وما يجتلبه أمثاله (٦٩) » . فالكتاب اذن تلبية لرغبة ، والرغبة ــ أو الدافع الأول ــ تصحيح النسخة . وما صحح من الأغلاط لم يقتصر على أغلاط النسخ ، بل شمل معها ما مال اليه واجتلبه أبو عبادة من الضرورات .

ومن ثم جاء تعليقا ــ لا شرحا ــ على بعض الأبيات التى اشتملت على خطأ أو غريب ، من الألفاظ والاستعمال . فناقش أخطاءها ؛ وتكلم على غريبها ومعانيها ، الى آخر ما جاء فى الوصف الثانى ، وكان الكتاب بهذا التناول مصدرا لطائفة هامة من نقد أبى العلاء تتفرع الى :

(أ) نقد السند والمتن ، وهو الغاية الأولى من الكتاب .

(ب) نقد بعض المعانى ، بالتصحيح لخطأ البحترى أو خطأ المفسرين له .

(جـ) نقد أسلوب البحترى ، من حيث التعبير والوزن والقافية ، مع الالتفات خلال ذلك الى نمط مذهبه ، وعادات تعبيره الشاذة ، وما ينبغى لانشاد بعض قصائده ، وهو التفات فيما يبدو وكما سيأتى جديد .

---

(٦٩) عبث الوليد ١٩٠ .

أما لماذا تجاوز أبو العلاء ما طلب منه من تصحيح النســخة الى ما تجاوز اليه فهو فيما أرى لأمرين :

الأول : ما كان من ميل الآمدى فى (موازنته) الى البحترى دون أبى تمام حبيب المعرى ـ حتى عد الأول قليل المساوىء ، « لشدة تحرزه وجودة طبعه وتهذيبه ألفاظه الا أبياتا يسيرة (٧٠) » ، هذا الميل فيما يبدو ، قــد دفع المعرى عندما أتيح له هذا التناول لديوان البحترى ، أن يعدد مساوئه فى لغته ، ليدل على أنها ليست قليلة ، وعلى أن البحترى لم يكن يتحرز عنها كما زعم الآمدى ، حتى لقد بلغ من اندفاعه فى ذلك أن بدا الكتاب كأنه دراسة دقيقة للغــة البحترى وشذوذه فيها ، وحتى اصطبغت أحكامه عليــه فى كثير من الأحيان بشــدة غير معهودة ، من نحو « هذا ردىء » ، أو « ردىء جدا » ، أو « قبيح » ، أو « انـه كان يتقرى آثار حبيب » ـ يعنى فى أخطائه ... الخ ، ولولا أنها كانت فرصة للمعرى كما نعتقد لاقتصر على تحقيق النسخة أو تصحيحها ، ولكان فى غنى عن تعديد ما عدد من مساوىء البحترى .

الثانى : طبيعة أبى العلاء فى الاستطراد الناشىء عن ميله اللغوى ، ورغبته فى اظهار قدرته اللغوية ، ووعيه واحاطته بديوان البحترى .

وأما متى أملى أبو العلاء هذا الكتاب ، فعلى الرغم من معرفتنا للرئيس الذى طلب منه ذلك ، وهو أبو اليمن المسلّم بن الحسن بن غياث الكاتب الحلبى صاحب الديوان بحلب ، لم نجد بعد البحث من تاريخه أى شىء يعين على هذا التحديد ، وانما وجدنا فى الكتاب ما يدل اجمالا على أنه كان بعد رجوعه من بغداد ، ففى تعليقه على بيت البحترى :

وأَيهمُ يُعِيرُ عليك دمعَــــا
وآلِسُ دونَ أَهلكَ والـــــدّرُوبَ

---

(٧٠) الموازنة بين أبى تمام ولبحترى ١/٢٩٢ .

يقول : « رواية الشامين « آلس » مكسور اللام ، وحكى ابن عيسى الـرّبعى أنه قرأ بيتا فيه ذكر « آلس » على المتنبى بشيراز وهو قوله :

وفى حَناجرها من آلِـسٍ جُـرَعُ

فقال له أبو الطيب « آلس » [بالضم] ، والوجهان متقاربان (٧١) . »

فان نقله عن الربعى ، أحد علماء بغـداد ، رواية مقابلة لرواية الشاميين ـ يدل على أن املاء ذلك كان بعد سفره الى بغداد وعودته منها ؛ لأنه لا احتمال لسماعه حكاية الربعى الا فى بغداد ، حين سافر اليها .

ثم نمضى فى التحديد خطوة أخـرى ، مهتدين برواية ثـانية فى الكتاب ، وردت أيضا فى الغفران ـ عن نقد سيبويه لبشار ـ ونصها هنا : « وقد روى أن سيبويه عاب على بشار قوله :

عَلَى الْغَزَلَى مِنِّى السَّلَامُ فَطَالَمَا　　لَهَوْتُ بها فى ظِلِّ مُخْضَرَّةٍ زُهْرِ

فقد أنكر سيبويه عليه هذا الحرف ـ يعنى الغزلى ـ لأنه لـم يستعمل . فقال بشار : هذا مثل الجمزى والوقرى ، فانه قاسه على نظائره من فَـعَـلَى . وهى كثيرة (٧٢) . »

على حين وردت هذه الرواية فى الغفران ضمن هذا السياق : « وزعموا أنه ـ أى بشار ـ كان يُشار (٧٣) سيبويه ، وأنه حضر يوما حلقة يونس بن حبيب ، فقال : هل ههنا من يرفع خبرا ؟ فقالوا : لا . فأنشدهم :

---

(٧١) عبث الوليد ص ٥١ . وآلس : نهر بأرض الروم ، والدروب : مداخل بلادهم .

(٧٢) المرجع السابق ص ٧٨ . ودابة جمزى : أى سريعة . ووقرى : أى ثقيلة .

(٧٣) يشاره : أى يخاصمه .

بَنِي أُمية هُبُّوا مِن رُقادكُمُ إنَّ الخليفة يعْقُوبُ بنُ داوُد

ليس الخليفةُ بالموجودِ فالتمسوا خليفة الله بين النّاى والعُـودِ

وكان فى الحلقة سيبويه ، فيدعى بعض الناس أنه وشى به ، وسيبويه ـ فيما أحسب ـ كان أجل موضعا من أن يدخل فى هذه الدنيات ، بل يعمد لأمور سنيات . وحكى عنه أنه عاب عليه قوله : على الغـزَلى .. فقال سيبويه : لم تستعمل العرب الغزلى ، فقال بشار : هذا مثل قولهم البشكى والجمزى ونحو ذلك . وجاء بشار فى شعره بالنينان ، جمع نون من السمك ، فيقال انه أنكره عليه ، وهذه أخبار لا تثبت . وفيما روى فى كتاب (سيبويه) أن النون يجمع على نينان ، فهذا نقض للخبر (٧٤)»

فذكره مـا ذكـر من نقد سيبويه لبشـار فى (عبث الوليد) على وجه التقرير ، وفى (الغفران) على وجـه الشك والانكار ـ يعنى أن تقريره كان بعد شكه وانكاره ، كما يعنى أن عبث الوليد مما أملى بعد الغفران ، التى كانت تملى حوالى سنة ٤٢٤ هـ .

وضوء السـقط :

فى أول هذا الفصل رجحت أن أبا العلاء صنف (سقط الزند) وقدم له فى مطلع عزلته ، عندما طرقه الطلاب ، وقرءوا عليه شعره ، واحتاجوا أن ينسخوه . وقد تتابع الطلاب عليه من بعد على امتداد عزلته ، وكان سقط الزند ـ على الرغم من انكاره لشعره ـ بين ما قرءوا عليـــه من تصانيفه دائما ، قرأه عليه فيما نعرف ابن صدقة القابسى ، والتبريزى ، وابن سنان الخفاجى ، كما قدمنا ، وعبد الواحد البغدادى (٧٥) ، وابن

---

(٧٤) رسالة الغفران ص ٤٢٩ : ٤٣١ والبشكى : الخفيفة .

(٧٥) الانتصار ممن عدل عن الاستبصار ص ٢١ ، ٢٢ .

أخيه أبو مسلم وادع (٧٦) ، عدا من رووا عنه بعض شعره من تلاميذه وغيرهم ، حتى كان من آخر وارد عليه أبو عبد الله الأصبهاني ، الذى قرأ عليه ــ كما قال ــ كتبا كثيرة كان منها سقط الزند ، فانه طلب منه أن يشرحه له ، ولم يطلب ذلك أحد قبله فيما يبدو ، وقد أجاب طلبه ، فكان (ضوء السقط) (٧٧) ، الذى وصفه المؤرخون : بأنه شرح لغريب هذا الديوان فى عشرين كراسة (٧٨) .

وقد ظل هذا الشرح مفقودا على الأقل عندنا ، حتى كانت هذه الدراسة ، واضطلعت بجمع ما أمكن من تصانيف المعرى لأجلها . وكان (الضوء) مما جمعت ، اذ أمكننى الحصول على نسخة مصورة منه على ميكرو فيلم من المكتبة الأهلية بباريس ، ثم كبرته هنا ، فكنت أول من يحصل عليه ويعرف به ، وعن قريب سوف يكون محققا فى متناول الدارسين .

والكتاب لا شك فى نسبته ، اذ ذكره ووصفه غير واحد من مؤرخى أبى العلاء ، ولا شك فى أن نسخته هى ما صورته ، لأن مقدمتها هى مقدمة الكتاب التى أوردها التبريزى فى شرحه ، ولأن ما بعد المقدمة هو ما ضمنه شرحه أيضا ، مع الاشارة الى مصدره كثيرا ، حتى كاد يستوعب (الضوء) نقلا ، وهى ظاهرة سنعود اليها بعد قليل ، عند الحديث عن (الرياشى المصطنعى) ، و (ذكرى حبيب) ، و (اللامع العزيزى) .

وبدراسة هذا الكتاب وقراءته بامعان أستطيع أن أقرر أمرين :

---

(٧٦) شروح السقط ١/٢٨٩ .
(٧٧) انظر مقدمة ضوء السقط ورقة ٢ أ .
(٧٨) انظر التعريف ٤٥ ، ١٠١ ، ٥٣٥ .

أولهما : عدم دقة المؤرخين فى وصفهم له ، حين وصفه بعضهم بأنه شرح للسقط (٧٩) ، وحين وصفه أكثرهم بأنه شرح لما فيه من غريب، حتى رأينا منهم من يعتمد هذا الوصف (٨٠) ، ويحتج له بأنه شرح اللغة دون المعنى لما يحتمله الشعر من معان لا يخلو مريدها من متعقب .

ذلك أنه فيما تبينت ليس شرحا للديوان ، لأنه لم يتناول كل بيت ولم يستقص عناصر الشعر فيما تناوله ، وليس أيضا مجرد تفسير للغريب ، لأنه كما شرح الغريب شرح المعنى واحتج له وأصله وبين مأخذه ومزيته ، هذا عدا ما التفت اليه من جوانب الصنعة بالتحليل والبيان كثيرا .

ثانيهما : تضمنه لطائفة هامة من آراء المعرى النقدية بل من أهمها ، ليس فقط لما ذكرنا من وجوه التأويل وجوانب الصنعة ، بل لأنها جمعت بين الكشف عن هذا والكشف عما فى شعر السقط من احالة وكذب استغفر منهما كثيرا ، ومن مبالغات جائزة قد استحسنها الشعراء ، هذا فضلا عما تضمنته مقدمته من بيان للأدب الذى يختاره ويفضله منذ اعتزاله .

وزجر النابح :

أحد تصانيفه التى دافع بها عن (لزوم مالا يلزم) (٨١) ـ أثبته ووصفه غير واحد من مؤرخيه ، فقد الفه كما ذكر ياقوت « لأن بعض الجهال تكلم على أبيات من هذا الديوان ، يريد التشرر والأذية ، فالزم أبا العلاء أصدقاؤه أن ينشىء هذا الكتاب ، فأنشاه وهو كاره (٨٢) . »

وكما ذكر ابن العديم « يرد فيه على من طعن عليه ، ونسبه الى

---

(٧٩) ابن خلكان والمكى انظر التعريف ١٨٢ ، ٣٥٢ .
(٨٠) الكلاعى فى « أحكام صنعة الكلام » ص ٢٣١ .
(٨١) وهى ثلاثة : زجر النابح ، ونجر الزجر ، ورسالة الضبعين.
(٨٢) تعريف القدماء ص ١٠٥ .

الكفر في أبيات منه ، فبين وجوهها ومعانيها ، ومقداره أربعون كراسة » (٨٣) .

وقد ظل هذا الكتاب مفقودا مع ما فقد من دفاعاته ، حتى ظفر الدكتور أمجد الطرابلسى بمقتطفات منه على هامش الجزء الأول من نسخة (اللزوميا ت) بالمتحف البريطانى ، فحققها ونشرها (٨٤) .

وبالنظر فى هذه المقتطفات نلاحظ كما لاحظ (٨٥) أن الطاعن على أبى العلاء كان يتلاعب بأبياته ، فيعرضها بطريقة تؤلب العامة عليه ، وتحرشهم به ، كأن يصل ما انقطع أو يقطع ما اتصل منها ، أو يوجه المعنى كما يريد ، مما جعل المعرى يقسو فى الرد عليه أحيانا ، فيسخر منه أو يسخط عليه أو ينعته بأقبح النعوت .

بل جعله ـ وهذا ما يعنينا هنا ـ يتوخى فى الرد والدفاع توضيح المعنى الذى قصد اليه فى كل بيت أسىء فهمه وحرف عن موضعه ، لأنه كما صدر فى هذا التوضيح عن ثقافته الواسعة واطلاعه العميق الشامل على ما يتصل بالعلوم الاسلامية واللغوية ، صدر كذلك عن ذوقه للغة ، ودلالات ألفاظها وتراكيبها ، ومنحى المجاز والأوزان فيها ، يستلهم هذا الذوق فى التفسير والتوجيه والدفاع ، ويعرض تفسيره وتوجيهه ودفاعه فى نهج من الأسلوب المرسل الدقيق ، يخلو من تكلفه فى نثره الفنى ، ومن هلهلة نثره فى شروحه الأخرى ، مما كان الزجر به معرضا آخر لذلك النهج من الأسلوب عنده ، ومتميزا به عن شروحه كلها ...

وعلى الرغم من أن هذه المقتطفات والتاريخ أيضا قد خلوا تماما من

---

(٨٣) تعريف القدماء ص ٥٣٧ .

(٨٤) انظر زجر النابح بتحقيقه ص ٨ .

(٨٥) المرجع السابق ص ١٩ ، ٢٤ ، ٢٨ من المقدمة .

أى أشارة توقت هذا الطعن والرد عليه = ذهب المحقق الى (زجر النابح) بلا ريب مما أملاه المعرى فى أواخر حياته ، بعد أن ا... من نظم اللزوميات ، وذاعت أقواله فيها ، وتعرضت بعض هذه الأقوال للنقد والتجريح (٨٦) .

وهو اجتهاد قريب لا نخالفه فيه ، وانما نزيده تحديدا ، فنزعم أن ذلك لم يتجاوز العقد الرابع من القرن الخامس الهجرى ، لأنه المدة التى اشتد فيها الطعن على اللزوميات ، والاتهام بالكفر لأبى العلاء ، ففيما بقى من أخباره أن الشريف ابن المحبرة الحلبى ـ وكان من أكابر الحلبيين وفقهائهم ـ قد تصدي هو وآخر لم يسمه التاريخ للسعى به والتأليب عليه عند أمير حلب ، ثمال بن صالح ابن مرداس ، وقد حرفا بيتا من (لزوم مالا يلزم) عن موضعه ، ليثبتا عليه الكفر بذلك ، حتى اضطر أن يكتب الى هذا الأمير (رسالة الضبعين) ، يشكوهما وينقض تحريفهما بما فى حلب من نسخ (اللزوميات) الموثقة (٨٧) . ولابدأن ذلك كله كان قبل اعتقال ابن المحبرة سنة ٤٤٠ هـ ، ثم قتله سنة ٤٤١ هـ فى فتنة تعرضت لها حلب آنذاك ، وخلال حكم ثمال الذى امتد من سنة ٤٣٤هـ الى سنة ٤٤٨ هـ (٨٨) .

وشرح ديوان بن أبى حصينة :

انفرد بذكره ابن العديم اذ يقول : « وجمع شعر الأمير أبى الفتح ابن أبى حصينة السلمى وشرح مواضع منه فى ثلاثة مجلدات » (٨٩) .

---

(٨٦) المرجع السابق ص ١٢ .

(٨٧) تعريف القدماء ٢٢٣ ، ٥٢٦ .

(٨٨) بغية الطلب فى تاريخ حلب ١/٢٤٦ أ .

(٨٩) تعريف القدماء ٥٤١ .

وقد وجد بعض هذا الشرح فى خزانة المتحف العراقى ببغداد (٩٠). فى مجلد مصدر بمقدمة لأبى العلاء ، واضطلع بنشره المجمع العلمى العربى بدمشق سنة ١٩٥٧ ، بعد أن حققه الدكتور محمد أسعد طلس ، وجملة القصائد المشار الى مطالعها فيه ثمانون ، خص بالشرح منها اثنتان وسبعون .

ويظهر من قول أبى العلاء فى مقدمته :« وكان الأمير أبو الفتح سألنى أن أسمع شعره ، فقرىء على ما أنشاه من القريض » (٩١) ـ أنه سمع هذا الشعر لا جمعه كما ذكر ابن العديم ، على أن هذا الجمع من مثله مستبعد ، ولعل «جمع » فى كلامه محرف عن « سمع » كما قال بعض الدارسين (٩٢) .

كما يظهر من قول ابن العديم السابق « وشرح مواضع منه » ، ومن تضمن المطبوع من هذا الشرح مطالع لم يعقبها شرح ، أن المعرى لم يشرح كل ما سمعه بل قصائد منه ، وهو لا يشرح هذه القصائد بيتا بيتا ، بل يشرح غريبها ، مبينا فى جملة هذا الشرح معنى اللفظ ، وأصله واشتقاقه ، ووجه اعرابه أحيانا ، وما جد فى استعماله ، فهو ليس شرحا بالمعنى المعروف للفظ والمعنى وعناصر الفن فى الشعر ..

لكنه مع ذلك تضمن آراء فى النقد لها دلالتها على قلتها :

ففى المقدمة : يبسط رأيه فى أن فضل الشاعر باجادته لا بتقدمه ..

وفى الشرح : يتناول استعمال الشاعر بالتفسير ، وتصرفه فى بعض الصيغ بالاحتجاج له أو عليه ، ويقترح لاثراء اللغة ـ بالقياس ـ صيغا جديدة ، ولانشاد الشعر ما ينبغى على المنشد رعايته فى بعض القوافى ..

---

(٩٠) انظر مقدمة ديوان ابن أبى حصينة ٤١/١ ، ٤٢ .
(٩١) ديوان ابن أبى حصينة ٣/١ .
(٩٢) الجامع ٧٩٨/٢ .

وهنا نقرر أن محقق الشرح كان واهما ، حين زعم أن طريقة المعرى فيه هى طريقته فى (معجز أحمد) مع بعض اختلاف ، وهى طريقته فى (عبث الوليد) حذوك القذة بالقذة (٩٣) ، فأين (معجز أحمد) الذى شبه به وما طريقته ؟ ، ان النسخة التى اشار اليها عن شكيب أرسلان لم يثبت أنها للمعرى كما سنبين ، وأما (عبث الوليد) فهو - وان شابه ما هنا فى أنه تعليق لا شرح على بعض الأبيات دون جميعها - يتميز بأمرين :

أولهما : أن الغاية الأولى من تأليف (العبث) كانت تحقيق النص وما يدعو اليه التحقيق من تفسير ، وهى هنا شرح الغريب على ما بينا . اذا كان التناول هنا لما فيه غريب ، وهناك لما فيه اضطراب النسخ أو السياق ..

وثانيهما : أن روح النقد فى (العبث) أظهر ، ولغته هناك أشد ، حين يأخذ فى نقد السند والمتن متتبعا ذلك فى الديوان ، وحين يؤاخذ البحترى على تقريه ألفاظ أبى تمام أو العوام ، وعلى تصرفه فى اللغة والتراكيب . فطريقة . المعرى فى (العبث) ان لم تغاير ما هنا تمام المغايرة لا تشبهها كل المشابهة .

لكن متى سمع المعرى شعر ابن أبى حصينة وشرح منه ما شرح ؟ لم أظفر بما يحدد ذلك أو يقربه فيما طبع من الشرح ، ولا فى مقدمة المحقق له ، حتى نظرت فى الجزء المطبوع من متن الديوان ، واستقرأت تاريخ القصائد المشروحة ، فوجدت اثنتين منها أنشئتا وأنشدتا سنة ٤٤٥هـ (٩٤) . ولا أدرى أكان فى الجزء المفقود من الشرح ما أنشىء بعد ذلك أم لا ، فاذا عرفنا أن (ضوء السقط) من آخر تآليف أبى العلاء (٩٥)،

---

(٩٣) ديوان ابن أبى حصينة ١/٧ ، ٩ من مقدمة المحقق .
الحذو : التقدير والقطع . والقذة : ريش السهم . (اللسان : حذا وقذذ) .

(٩٤) انظر المرجع السابق ١/١٥٥ ، ١٥٩ و ٢/١٥٤ ، ١٦١ .

(٩٥) انظر مقدمة « الضوء » فى شروح السقط ١/٤ .

وأنه بدأ حوالى سنة ٤٤٧هـ أو قبلها بقليل (٩٦) = أمكن أن نقول:انشرح ديوان ابن أبى حصينة أملى تقريبا فيما بين سنتى ٤٤٥ و ٤٤٧ هـ .

والرياشى المصطنعى :

اتفق من ذكره ووصفه من مؤرخيه ـ وهم كثيرون ـ على انه عمله لرجل من الأمراء ، يلقب بمصطنع الدولة ، ويكنى أبا غالب ، ويدعى كليب ابن على . كان أنفذ اليه نسخة من (الحماسة الرياشية) ، وسأله أن يخرّج على حواشيها ما لم يفسره أبو رياش ، فجعله كتابا مفردا ، لخوفه من أن تضيق الحواشى عنه ، ومقداره أربعون كراسة (٩٧) .

ولا يزال الكتاب مفقودا حتى الآن ، على الأقل فى مصر (٩٨) ، وليس هو (بشرح الحماسة) المخطوط ، الموجود بدار الكتب المصرية تحت رقم ١٥٦٩٥ ز فى ٢٢٥ ورقة ، والمنسوب خطـأ الى أبى العلاء ، ذلك الشرح الذى ذكره جرجى زيدان والشيخ محمد محيى الدين عبد الحميد على أنه لأبى العلاء دون تحقيق (٩٩) ، ولم يكلفنا رد نسبته كبير عناء بعد قراءة مقدمته وتقليب صفحاته بامعان .

ففى المقدمة نجدنا أمام مؤلفه الحقيقى ، حيث يقول :

قال العبد الفقير الى رحمة الله ورضوانه محمد بن الفقيه الحسين ابن أبى الحسن على بن نصر بن منصور بن مرقد : أخبرنى الشيخ الأجل . فى سنة أربع وأربعين وستمائة سماعا عليه قال : أخبرنى .. ويمضى فى

---

(٩٦) الجامع ٢/٧٦٥ .

(٩٧) تعريف القدماء ٤٦ ، ١٠٨ ، ٥٤١ .

(٩٨) أخبرنى الزميل السورى الدكتور محمود الريداوى أنه عثر على نسخة من (الرياشى المصطنعى) على هامش نسخة من ديوان الحماسة بايران ، لكنه لم ينشره بعد .

(٩٩) انظر تاريخ آداب اللغة العربية ٢/٢٦٥ ، وشرح الحماسة للتبريزى تحقيق الشيخ محمد محيى الدين ١/٩ .

سرد سنده (للحماسة) عن طريقين ، فى أحدهما التبريزى فأبو العلاء، وتواريخ قراءة بعد أبى العلاء قطعا ، وحصر لأوزان الحماسة وضروبها لأبى العلاء عن التبريزى ، فهو كما ترى من رجال القرن السابع الهجرى ، مهتم بسند نسخته الذى فى بعضه أبو العلاء .

فاذا تجاوزنا المقدمة الى الشرح نفسه ـ وهو ليس شرحا فى الواقع ، بل تعليقا موجزا على بعض الأبيات ، يتوخى تفسير الغريب وبعض المعانى ، ويسجل لقلته على الهامش كثيرا ـ وجدنا أمرين :

أولهما : أن المصنف ينقل كثيرا عن أبى ريش وابن جنى ، وأحيانا عن المرزوقى وبعض اللغويين ... بل ينقل عن أبى العلاء فى موضعين : نقل فى الأول (ص ١٦٥ أ) رواية للتبريزى عن أبى العلاء ، وفى الثانى (ص ١٧٦ أ) رأيا لأبى العلاء دون اسناد .

وثانيهما : أن ما نقله التبريزى فى شرحه للحماسة الذى بين أيدينا من نصوص (الرياشى المصطنعى) ـ وهو ما نعنيه هنا ـ لا يتفق مع هذا الشرح الا فى الموضع الثانى ، الذى نقل فيه صاحبه رأى المعرى دون اسناد .

فهو اذا شىء آخر غير (الرياشى المصطنعى) بل هو شىء آخر ليس لأبى العلاء . وبعده لا نجد من كتاب أبى العلاء سوى ما نقله التبريزى ، ولاشك عندنا فيما نقل ، لأنه **أولا** نقل أمين لا يفتأ يشير الى من نقل عنهم فى شروحه برموز خاصة ، بل نقل تلميذ معجب لم يخل كتاب له من آراء أستاذه المعرى . ولأنه **ثانيا** نابض بروح المعرى فى شرح الشعر ، من حيث الاهتمام بالرواية والغريب والتأويل والتعبير والوزن والقافية والصنعة الفنية اهتمام فاحص مستقص ، على النحو الذى نعرفه به فيما قصده بالشرح . وقد كان كذلك في (الرياشى المصطنعى) ، الذى نقل التبريزى كثيرا منه فى شرحه ، حتى ما تكاد تخلو صفحة من هذا الشرح من أبى العلاء ، بل نحن نزعم أن شروح التبريزى متضمن لكتاب أستاذه كله أو جله ، مع اعتقادنا بسقوط الرمز الى أبى العلاء من النساخ.

أحيانا ، ويتصرف التبريزى فى النقل أحيانا أخرى • وحجتنا على ذلك ما وجدناه من (الضوء) فى شرحه للسقط ، لأنه كاد يستوعبه ، مع الاسناد ودونه ، كما بينا فى الحديث عن (الضوء) •

ومهما يكن ففيما بقى من (الرياشى المصطنعى) وفى الاطار المذكور لعناصر شرحه أصداء كثيرة لذوق المعرى ، كتقصى الروايات وجوه التأويل والترجيح أو الايجاب لبعضها ، وكالالتفات الى أسرار التعبير وتطور المدلول ووجه الاستعمال وسلامة الوزن أو خلله ، مع التعقب للسابقين فى ذلك كله ، مؤيدا لهم أحيانا ، ومخالفا فى أخرى •

لكن هل لنا نسأل عن التاريخ الذى أملى فيه (الرياشى المصطنعى) وماذا نبلغ من جواب هذا السؤال ؟

من تتبع نصوص الكتاب واستقرائها بدقة ، وجدت فى أحدها مايقطع بأنه أملى فى عزلته ، اذ حكى فى هذا النص مشهدا من مشاهده ببغداد ، خلاصته أن البغداديين كانت لهم رواية خاصة فى بيت من الأبيات ، وقدم الوزير ابن أبى خالد التبريزى ، ومعه سبط له قرأ الحماسة على بعض أهل العلم ببغداد ، وأنشد البيت برواية أخرى مع روايتهم (١٠٠) •

لكننى بعد هذا التحديد لم أجد فيه ولا فى غيره – مع كثرة البحث – ما يهدى الى تحديد آخر لهذا الاملاء فى عزلته ، وعسى أن نهتدى من ذلك الى ما نحب ان شاء الله •

وذكرى حبيب :

كعبث الوليد ، اختلفوا فى صفته دون نسبته ، فوصفه القفطى وابن العديم : بأنه تفسير شعر أبى تمام فى ستين كراسة • ووصفه ياقوت: بأنه مختصر فى غريب شعر أبى تمام ، سأل فيه صديق لأبى العلاء من الكتاب ، مقداره ستون كراسة ، وذهب ابن خلكان الى أن أبا العلاء اختصر

---

(١٠٠) شرح الحماسة للتبريزى ٤/٣٤٦ •

ديوان أبى تمام وشرحه وسماه « ذكرى حبيب » ، وديوان البحترى وسماه « عبث الوليد » ، وديوان المتنبى وسماه « معجز أحمد » ، وتكلم على غريب أشعارهم ومعانيها .. (١٠١) الى آخر ما أسلفت فى الكلام عن عبث الوليد .

وعلى الرغم من أنه لا يزال مفقودا يمكننا أن نحدد صفته مما قاله التبريزى عنه ، ومما نقله منه فى شرحه لأبى تمام ، وهو مصدرنا الأول فيه ، قال التبريزى فى مقدمة هذا الشرح : « وذكر أبو العلاء فى هذا الكتاب الأبيات المشكلة من شعر أبى تمام متفرقة ، وأنا ان شاء الله أكتب شعره من أوله الى آخره ... وأشير الى ماذكره أبو العلاء من الأبيات المشكلة فى مواضعها » (١٠٢) .

فمن قول التبريزى هذا ومما وجدت فى شرحه من ذكرى حبيب أقرر أمرين :

أولهما : أن الكتاب ليس تفسيرا بمعنى التفسير لشعر الديوان كما ذكر القفطى وابن العديم ، ولا لمختصره كما ذكر ابن خلكان . كذلك نكرر ماذكرنا فى (عبث الوليد) من أن « أختصر » .. فى وصف ابن خلكان غير دقيقة هنا أيضا ، لما ذكره ياقوت من أن الكتاب كان تلبية لسؤال صديق ، ولأن الاختصار لم يقصد أصلا ، وانما أدت اليه طبيعة التناول للمشكل خاصة . ولعل أقرب هذه الأوصاف وصف ياقوت ، ووصف ابن خلكان لطبيعة التناول ، بعد قوله : « اختصر » .

الثانى : أنه على الرغم من ضياع الكتاب قد بقيت منه نصوص كثيرة فى شرح التبريزى ، ولعلها كما ذكرت فى (الضوء) و (الرياشى) أكثر الكتاب ان لم تكن كله . وهناك بعد شرح التبريزى شرح آخر تضمن كثيرا من آراء المعرى فى (ذكرى حبيب) ، وهو كتاب (النظام فى

---

(١٠١) تعريف القدماء ٤٦ ، ٥٤١ ، ١٠٧ ، ١٨٣ .
(١٠٢) شرح ديوان أبى تمام للتبريزى ١/٢ ، ٣ .

شرح شـعر المتنبى وأبى تمـام) ، لابن المسـتوفى الاربلى (١٠٣) ، الا أن فقد أكثره جعلنى أكثر اعتمادا على شرح التبريزى ٠

والناظر فيما تضمنه هذا الشرح من (ذكرى حبيب) يجد أن جوانب ثلاثة من ديوان الطائى تكاد تستأثر باهتمام المعرى ونقده ، وهى : **غموضه ، ولغة صاحبه ، ومذهبه :**

ولعل ذلك لأن هذه الجوانب كانت محور الخصام والجدال فى تلك المعركة التى نشبت حول أبى تمام ، أو بين أنصاره وأنصار البحترى ، كما يبدو من مقدمة (الموازنة) للآمـدى ، ولعله أيضـا لمـا عرف بـــه المعـــرى ، من الاهتمـــام باللغـــة وغريبهـــا ، وحـــب البـــديع واصطناعه ، وهما أبرز سمات شعر الطائى ٠ يضاف الى هذين السببين سبب شرح المعرى لشعر الطائى ، وهو رغبة أحد الكتاب اليه أن يشرح له غريب هذا الديوان ومشكله ٠

فغموض شعر الطائى : حقيقة مقررة ، لا ينكرها المعرى ، بـــل يعللها ، ويصدر عنها فيما اتجه اليه من نقد الروايات وتحقيقها ، وتفسير الغموض وتعقب السابقين لتناوله ٠

ولغة الطائى : من ألفاظ وتراكيب ــ لا سيما الغريب والمشكل ــ نوه ببعضها ، وغض من آخر ، وعنى بتأويلها ، وتوجيه المشتبه منها ، وبيان تطور الدلالة فى بعضها ، غير أنه كان رفيقا فى غضه هنا ، حتى لانجد فى نقده « قبيح ، أو ردىء ، أو شاذ » مما نجده فى (عبث الوليد) ، كما كان مسرفا فى ثقته بالطائى ، لايكاد يخطئه ولا يفتأ يردد « لعله سمعه أو رآه فى شعر قديم ، لأنه كان مستبحرا فى الرواية (١٠٤) » ٠

---

(١٠٣) هو المبارك بن أحمد الاربلى ، المعروف بابن المستوفى ، كان اماما فى الحديث ، ماهرا فى فنون الأدب واللغة .. ولد سنة ٥٦٤هـ ومات ٦٣٧هـ . (الوفيات ٤/١٤٧) .

(١٠٤) شرح التبريزى لأبى تمام ١/٣٠٥ وأيضا ٢/٤١٧ ، ٣/٥٢ ٠

حتى لتبدو ثقته بثقافة البحترى والمتنبى التى أبداها أحيانا أقل مما هنا بكثير .

ومذهب الطائى : من الكلف بالاستعارة وألوان البديع – يشير اليه دائما ، ويعنى بتحليله ، وتأصيله ، وتعليله ، والتنويه بالجديد منـه ، بل يستلهمه فيما توخاه من تفسير وتوجيه وتحقيق .

وكما دلتنا نقول التبريزى من (ذكرى حبيب) على اتجاه المعرى فيه = دلنا تضمن بعضها أحد مشاهده الأدبية فى بغداد (١٠٥) على أن الكتاب أملى بعد رجوعه منها ، ثم لم نجد فيه ولا فى غيره بعد هـــذا ما يساعد على تحديد زمن هذا الاملاء فى عزلته .

واللامع العزيزى ومعجز أحمد :

انما جمعت بينهما فى التناول لأنهما أساسا فى شعر المتنبى ، ومعا موضع خلط زائد ، واضطراب متصل ، فى القديم والحديث ، من حيث هما كتابان أم كتاب ، وفى شرح الديوان كله أم متفاوتان ، وموجودان الآن أم مفقودان .

والحق أن كتابين آخرين من كتب أبى العلاء لم يبلغا من هـــذا الابهام ما بلغاه ، على كثرة ما تقصيت من أخباره وآثاره .. بـل ان أى أثر من آثار المعرى الموجودة ، والمشكوك فى وجودها ، لم يعدم من تحقيق دارسيه على كثرتهم ماعدمه هذان الكتابان .

وفى مجال البحث عن نقد أبى العلاء وتقصى مصادره للتعـــريف بالناقد الأدبى فيه – لم يكن لى بد من تحقيق القول فيهما ، لأنهما – والشعر موضوعهما – مظنة الوعى لكثير من آرائه النقدية ، بل لأنهما أيضا دون آثاره كلها دراسته الخاصة لشعر أستاذه وموضع اعجـابه أبى الطيب المتنبى .

---

(١٠٥) المرجع السابق ٣٠٤/١ .

على أن هذا التحقيق لم يبد سهلا أو مرجوا فى بادىء الأمر ، لغموض مصادره اذ لم تكن فيما أرى ويرى السابقون لى سوى أوصاف تاريخية ليس معها نص موثق من الكتابين أو من أحدهما . على أن هذه الاوصاف لم تخل من اضطراب ، كان من جماعة المؤرخين فى الكتابين ، بل كان من المؤرخ الواحد فى الكتاب الواحد كما سنرى . هذا فضلا عن خلو المجال قبلى من أى سبق يمكن أن يضىء الطريق ويمد الخطا .

لكن أمانة البحث ولذة الكشف كانتا عندى فوق الصعاب ، فلم أدخر جهدا ولا مالا فى سبيلها ، ومضيت طوال شهور ذات عدد ، أقلب مصادر التاريخ والأدب المطبوعة والمخطوطة والمصورة ، بعد أبى العلاء ، بحثا عما يهدى من صفاتهما ونصوصهما ، واقتضى الأمر أن أصور بعض المخطوطات غير الميسرة ، من هنا ومن الخارج ، فصورتها وعكفت عليها ، حتى انتهيت من هذا البحث الشاق الى ما انتهيت اليه من نتائج ، كانت والحق يقال كفاء ما بذلت فى سبيلها من جهد ومال ، بما أضافته الى مادة البحث ومصادره ، وبما يسرته وكشفت عنه فى هذا التحقيق من جديد أنا شديد الاغتباط به وبتقديمه . أما ما أضافته الى مادة البحث ومصادره فسيتضح بعد قليل .. وأما ما يسرته فى هذا التحقيق فهو ما أبينه الآن ، ولبيانه على وجهه ينبغى أن ننظر أولا الى ما بقى عن الكتابين ، ثم الى ما بقى منهما بعد ذلك .

وحين ننظر فيما بقى عنهما نجد ـ أول ما نجد ـ أن (اللامع العزيزى) كان أشهر ذكرا وأظهر أثرا من (معجز أحمد) ، لأنه ذكره ووصفه أحد عشر من مؤرخى أبى العلاء ، كان ذكر بعضهم له فى فهرست كتبه المنقول عنه أو عن بعض كتابه ، على حين لم يذكر المعجز ويصفه سوى ستة منهم لم يورده أيهم فى فهرست تاريخى = ولأنه أيضا ذكره ونقل منه فيما تتبعت أربعة من الباحثين فى الأدب بعضهم معاصر لأبى العلاء ، على حين لم يذكر المعجز مع النقل منه سوى واحد فقط ، وسيتضح ذلك كله .

كذلك نجد أن الخلط والاضطراب فى صفة الكتابين كان أكثر ما كان فى المجال التاريخى وفى معجز أحمد خاصة .

فالذين ذكروا (اللامع) ووصفوه من مؤرخى أبى العلاء دون القفطى لم يختلفوا على كثرتهم فى أنه تفسير أو شرح لشعر المتنبى ، عمله - كما زاد بعضهم - للأمير عزيز الدولة أبى الدوام ثابت بن ثمال ابن صالح بن مرداس ، ومقداره مائة وعشرون كراسة (١٠٦) . والذى خالف فيه القفطى أنه بعد ذكره الكتاب على أنه « فى شرح شعر المتنبى » - ذكره فى فهرست كتب أبى العلاء على أنه « فى شرح غريب شعر المتنبى » (١٠٧) ، وعندى أن الوصف الثانى خطأ من الناسخ لا من القفطى ، لأن الكتاب فى هذا الفهرست عند الذهبى - وقد نقله صراحة عن القفطى - : فى شرح شعر المتنبى لا غريبه (١٠٨) ، ولأنه فى مثل هذا الفهرست عند ياقوت - وكلاهما مصدر بمقدمة أبى العلاء - «فى تفسير شعر المتنبى » (١٠٩) لا غريبه أيضا ، ثم لأن القفطى دون غيره من مؤرخى المعرى عد (اللامع) من كتب أبى العلاء التى رآها (١١٠) ، فيبعد أن يختلط وصفه عليه ، وهو كما سنبين ليس فى شرح الغريب فقط .

فـ (اللامع) اذن باجماع المؤرخين شرح شعر المتنبى .

أما (المعجز) فأول من ذكره ووصفه منهم ابن خلكان ، اذ قال عقب ذكره اللامع بوصفه السابق : « واختصر ديوان أبى تمام وشرحه وسماه ذكرى حبيب ، وديوان البحترى وسماه عبث الوليد ، وديوان المتنبى وسماه معجزأحمد ، وتكلم على غريب أشعارهم ومعانيها (١١١)»

---

(١٠٦) تعريف القدماء ١١١ ، ١٥٤ ، ١٨٣ ، ٢٠٣ ، ٢٠٧ ؛ ٢٧٥ ؛ ٢٩٨ ، ٣٥٢ ، ٥٤٠ ، الصبح المنبى ١٦٠ ، أوج التحرى ٢٩ .

(١٠٧) تعريف القدماء ٣٦ ، ٤٧ .

(١٠٨) المرجع السابق ٢٠٣ .

(١٠٩) المرجع السابق ١١١ .

(١١٠) المرجع السابق ٥٠ .

(١١١) المرجع السابق ١٨٣ .

الى آخر ما أسلفت فى الكلام عن (عبث الوليد) ، فهذا القول منه فى وصف (المعجز) بعد ذكره (اللامع) بوصفه يدل **أولا** على أنهما عنده كتابان لا كتاب واحد ، فى شرح شعر المتنبى ، مع اختصار (المعجز) • وثانيا على أنه رأى (معجز أحمد) كما رأى (عبث الوليد) و (ذكرى حبيب) ، والا ما استطاع أن يصف الثلاثة بهذه الصفة الشاملة •

وقد قدمنا أن وصفه للأخيرين صحيح فى مضمونه لولا مافيه من عدم الدقة فى قوله « اختصر » • أما ما فى وصفه لـ (معجز أحمد) فندعه قليلا ريثما نستكمل أقوالهم فيه •

ثم ننظر بعده فلا نرى من جديد ، سوى تكرارهم لكلامه عن الكتابين ، أو عن (المعجز) فقط ، بالنص تارة (١١٢) ، ومع التصرف المشوه تارة أخـرى (١١٣) ، حتى بـدا (المعجز) فى بعض الأوصاف شرحا آخر ـ مع (اللامع) ـ لشعر المتنبى ، وفى بعضها الآخر اسـما ثانيا لهـذا الشرح ، مما لا يفيده كلام ابن خلكان • والذى لم يكرر كلامه فيما يبدو ـ وهو الصفدى ـ لم يختلف عن هؤلاء ، حين ذكر الكتابين دون تفرقـة على أنهما شرحان لشعر أبى الطيب (١١٤) ، مما لا يصح فى العقـل لبعده ، ولم يكن فى الواقع لما سنبين ••

ومن ثم ندع ما بعد ابن خلكان عن (معجز احمد) لتكراره وخلطه ، ثم نرجع النظر الى معاصر له أو أسبق بقليل ، **هو** ابن العديم ، فنجده يذكر لأبى العـلاء كتابين عن المتنبى ، **أولهما** (اللامع العزيزى) •• وثانيهما كتاب فى (معانى شعر المتنبى) مقداره ست كراريس (١١٥) ،

---

(١١٢) المرجع السابق ٢٠٧ •

(١١٣) المرجع السابق ٣٣٤ ، ٣٤٧ ، ٣٥٢ ، الصبح المنبى ١٦٠ ؛ اوج التحرى ٢٩ •

(١١٤) تعريف القدماء ٢٧٥ •

(١١٥) المرجع السابق ٥٤٠ •

ولا يذكر (معجز أحمد) باسمه من قريب أو بعيد ، مع اهتمامه الزائد بأبى العلاء ، حتى انه دافع عنه بكتاب (الانصاف والتحرى) ، وخصه بترجمة مطولة فى كتابة (تاريخ حلب) (١١٦) .

كما لم يذكر (معانى شعر المتنبى) أحد غيره من المؤرخين . فهل كان لأبى العلاء على هذا ثلاثة كتب عن المتنبى : (اللامع) و (المعجز) و (معانى شعر المتنبى) ، أم أن هذا الكتاب – عن معانى المتنبى – هو بعينه معجز أحمد ؟

الذى أرجحه وأميل اليه أنهما كتابان لا ثلاثة ، وأن (معجز أحمد) هو (معانى شعر المتنبى) لا غير لأمرين :

أولهما : تاطبقهما من حيث المدلول تاطبقا تاما ، معجز ومعانى ، فمعانى المتنبى هى الجديرة بهذا الاسم حقا ، اذ هى التى لفتت اليه قبل أبى العلاء من لفتت من المعجبين وعلى رأسهم سيف الدولة (١١٧) ، ومن النقاد والحاسدين وعلى رأسهم الحاتمى الذى ناظره فيها ، وكتب (الرسالة الحاتمية) عنها (١١٨) ، ثم هى التى لفتت اليه أبا العلاء حتى قال عنها ان صح ما رواه الصفدى فى ذلك :

ما حبيبٌ إلا أديبٌ ولكنْ ما أراهُ يُقاربُ المتنبى
ذا المعانى الغرائبِ اللاء أسهرْ نَ جُفونى دهرا وتَيَّمْنَ قلبى (١١٩)

وحتى كان حظها من اهتمامه فى (اللامع العزيزى) كما سنبين أوفر حظ بالقياس الى جوانب شعر المتنبى الأخرى .

---

(١١٦) بغية الطلب فى تاريخ حلب ١/١٩٥ ب — ٢٢٨ أ .
(١١٧) انظر : التبيان ٢/٣١٤ ، ومعجز أحمد المنسوب الى المعرى ٢١٠/٢ ب ، ٢١١ أ مخطوط .
(١١٨) انظر : التحفة البهية ١٤٤ — ١٥٩ .
(١١٩) نصرة الثائر على المثل السائر ١٠٦ ، ١٠٧ مخطوط .

وثانيهما : أن النص الوحيد الباقى والمنقول من (معجز أحمـــد) صراحة يؤيد ذلك ، فقد ذكر ابن أبى الاصبع هذا الكتاب باسمه ـ مع « عبث الوليد وذكرى حبيب » ـ بين الكتب التى اعتمد عليها فى تاليف كتابه (تحرير التحبير) (١٢٠) ، ثم قال فى « باب الطاعة والعصيان » من كتابه (بديع القرآن) ـ وهو من أبواب (التحرير) أيضا : ـ

« هذه التسمية تسمية المعرى ، عندما نظر فى شعر المتنبى ، وتكلم عليه ، فى كتابه المترجم (معجز أحمـد) ، يعنى المتنبى ، فأتى على على قوله « طويل » .

يَرُدُّ يَداً عَنْ [illegible]بِهَا وَهْوَ قادِرٌ ... وَيَعْصِي [illegible]وَى فِي طَيْفِهَا وَهْوَ رَاقِدٌ

وقال : أراد المتنبى الطباق فعصاه وأطاعه الجناس ، فانه أراد أن يقول : * يرد ردا عن ثوبها وهو مستيقظ * فعصاه ذلك ، لامتناع دخوله فى الوزن ، فقال : (وهو قادر) ، لأن القادر مستيقظ وزيادة ، ليكون بينها وبين القافية تجانس (١٢١) . »

فالالتفات هنا لصناعة المعنى ، من حيث طاعتها وعصيانها ، فضلا عن الدلالة عليها بمصطلح فنى = يعنى لونا من التناول والاهتمام أقرب ما يكون الى المفهوم من (معجز أحمد) ، كما يعنى مع وصف ابن العديم أن موضوع الكتاب هو معـــانى المتنبى ، أو أبياته الجديدة فى مضمونها وصنعتها ، وتلك بالطبع بعض ما فى الديوان لا كله .

ف (المعجز) اذن ليس شرحا للديوان كله كما وصف الصفدى ، ولا لمختصره كما وصف ابن خلكان ، انما الشرح للديون كله هو (اللامـع العزيزى) ، ليس لما قررته من صفته التاريخية فقط ، بل لها ولما وجدت من نصوصه وصفته أيضا فى التناول الادبى ، مما سأبينه بعد هـــذا التحقيق .

---

(١٢٠) تحرير التحبير ص ٦٠ ـ

كما انه ليس متحدا فى الغاية مع (العبث والذكرى) على ما يوهم وصف ابن خلكان ، اذ لكل من الثلاثة كما يبدو من نصوصها وأسمائهـــا غايته الخاصة ، وهو كشف عن أغلاط فى (العبث) ، وعن غموض فى (الذكرى) ، وعن جديد فى (المعجز) ..

لكن اذا كان (المعجز) بعد هذا التحقيق كتابا ثابت النسبة الى أبى العلاء ، حقيقى الوجود كـ (اللامع) ، بل أخص موضوعا وألمع عنوانا منه = فلم كان أقل ذكرا واشتهارا ، حتى لم يذكـر فى الفهرسـة التى قدم لها أبو العلاء عند القفطى وياقوت ، بل لم يذكره التبريزى أصلا ، ولا ابن العديم باسمه ، على ما هما عليه من عناية بالرجل وآثاره ؟

وتعليل ذلك عندى فى عنوان الكتاب نفسه (معجز أحمد) ، اذ يبدو أن دلالة هذا العنوان على اعجاز شعر المتنبى أو بعضه ، وانمـــا الاعجاز فى العرفين الدينى والأدبى للقرآن وحده = قد صرفت المعرى عند اتهامه عن نشره واذاعته ، ثم صرفت الكثيرين بعـده ممن رأوه عن ذكره والتنويه به ، تحرجا من هذه التسمية الموهمة الشديدة ، فكان ما كان من خموله ، حتى لقد عـرّفه ابن العديم وعرف به على أنه كتاب فى «معانى المتنبى » لا فى معجزه ، ولو عرفه باسمه لذكره ونقده فيما أعتقد ، لأنه صرح بسخطه على المعرى ـ مع دفاعه عنه ـ لـمـا قرأ له : من (السقط) .

. . . . لوْلاَ الفُصَيْصِىُّ كانَ المجدُ فى مُضَرِ

لايهامه تفضيل المذكور على النبى ﷺ لأنه من مضر ، حتى هدى الى تأويل لا تفضيل فيه ، فزال عنه ما أسخطه (١٢٢) .

ولعل من المقابلات الطريفة أن يصير (المعجز) بعد هذا الخمول فى القديم الى مزيد من الذكر والاشهار فى الحديث .

---

(١٢٢) بغية الطلب فى تاريخ حلب ٢٢٢/١ ب .

فحين ننظر الى ما بقى منهما ـ بعد هذا التحقيق لصفتهما ـ نجد من ذلك نوعين :

زائف مشهور ، وصحيح مغمور .

أما الزائف : فيتمثل فى هذين الشرحين ـ من شروح المتنبى ـ المنسوبين الى المعرى ، واللذين يوجد من أحدهما اثنتا عشرة نسخة مخطوطة فى مكتبات العالم ، بعنوان (معجز أحمد أو اللامع العزيزى) لأكثرها (١٢٣) و (معجز أحمد) فقط لبعضها (١٢٤) ، و (شرح المعرى) فقط لبعض آخر (١٢٥) . على حين يوجد من الثانى نسخة واحدة مخطوطة بدار الكتب المصرية بعنوان (اللامع العزيزى) تحت رقم ٤٦١٩ أدب طلعت فى ٤٩٥ ورقة .

ولأولهما ـ مع انتشاره ـ حظ وافر من اهتمام الباحثين ، اذ لفت اليه بعضهم (١٢٦) ، وعرف به آخر (١٢٧) ، واعتمد عليه ثالث (١٢٨) ، عن ثقة من الجميع بنسبته الى المعرى ، وترجيح من بعضهم أنه (اللامع) لا (المعجز) (١٢٩) .

وليس زيفهما فى الواقع لذاتهما ، فهما ـ والحق يقال ـ من أقوم شروح المتنبى التى رأيتها وقرأتها .

---

(١٢٣) تاريخ الأدب العربى لبروكلمان ٢/٨٩ .

(١٢٤) مقدمة مجلة الثريتونس عدد خاص بالمعرى ابريل ١٩٤٤ .

(١٢٥) تاريخ آداب اللغة العربية لجرجى زيدان ٢/٢٥١ ، ومقدمة عبث الوليد لشكيب أرسلان ص ٧ .

(١٢٦) بروكلمان وجرجى زيدان فى كتابيهما السابقين .

(١٢٧) شكيب أرسلان فى مقدمته السابقة .

(١٢٨) بلاشير فى : (ديوان المتنبى فى العالم العربى وعند المستشرقين ٢١ ، ٢٢) ، ود. عبد الوهاب عزام فى : (ذكرى أبى الطيب بعد ألف عام ٢١ ، وفى مقدمة ديوان المتنبى بتحقيقه) ، ود محمد شعيب فى : (المتنبى بين ناقديه ٧٨) .

(١٢٩) بلاشير وأرسلان فيما سبق لكل منهما .

وانما الزيف فى نسبتهما الى المعرى ، وليسا ـ بالتحققيق ـ من مصنفاته • وقد كان الكشف عن ذلك فى الثانى أيسر منه فى الأول ، لأننا فيه أمام شرح لا دليل على نسبته الى المعرى سوى عنوانه الذى سجل بمداد مخالف لمداد النص ، وسجله فيما نعتقد مفهرس متسرع لم يجد عنوان الشرح ، فاقترح له عنوانا من عنده ، دون أن يقرأ مقدمته أو يقابله بغيره من شروح معروفة النسبة ، وما ان قرأت مقدمته حتى تبينت أنها لغير المعرى ، لأن صاحبها يعده من سابقيه ، بل رجحت أنها للواحدى ، لما وجدت من تطاوله على مخالفيه ، فقابلت النسخة بشرحه ، فلم يختلفا الا فى صدر المقدمة ، ثم اتفقا بعد ذلك ، فى عدد القصائد وشرحها وترتيبها التاريخى ، مع تميز نسختنا بقدم نسبى ، اذ كان الفراغ من نسخها فى المحرم سنة ٧٧٩ هـ •

بينما نحن فى الأول أمام غموض أكثر ، اذ ليس الدليل على نسبته الى المعرى، مجرد عنوان بمداد مخالف لمداد النص ، بل هناك قول الناسخ فى بعض النسخ عند نهاية جزأى الشرح بنفس المداد : « تم كتاب شرح المتنبى لأبى العلاء المسمى بمعجز أحمد » (١٣٠) •

لكن اختلاف مداد العنوان والنص ، وسقوط المقدمة من جميع النسخ ـ وفى مصر خمسة منها ـ (١٣١) ، واتفاق الشرح للمقطوعة الأولى وبيتين من التالية مع شرح الواحدى = كان ذلك كله مظهرا لتصرف الناسخ من جهة ، وداعيا الى الشك فى النسبة من جهة أخرى •

ثم كان ما اكتشفته فى الشرح بالقراءة الدقيقة ، وما جمعته من نصوص (اللامع) و (المعجز) الموثقة = أدلة متظاهرة على نفى نسبة الكتاب الى المعرى والقطع بانه لغيره •

---

(١٣٠) انظر : مقدمة ديوان المتنبى ، للدكتور عبد الوهاب عزام ، فى وصفه لنسخة (المعجز) التى لم تتيسر لى بجامعة القاهرة ص : يد .

(١٣١) ثلاثة بدار الكتب المصرية برقم ٤٢٤٠ ، ٤٣٤٦ أدب ، ٢٥ أدب قولة ، ونسخة بمعهد المخطوطات ٧٧٧ أدب ، ونسخة بمكتبة جامعة القاهرة .

فاذا تجاوزنا بواعث الشك من اختلاف المداد ، وسقوط المقدمة ، ونقل الناسخ من شرح الواحدى = وجدنا من هذه الأدلة فى الشرح نفسه :

١ ـ **استشهاد الشارح بشعر المعرى وآرائه :** ليس فى موضع واحد ، كما ذكر الدكتور عبد الوهاب عزام ، ولم يعده قاطعا فى نفى الشرح عن أبى العلاء (١٣٢) ، بل فى خمسة مواضع (١٣٣) ، صرح فى جميعها بصاحب الشعر والرأى ، وهو أبو العلاء ، بل ان بعض هذه الآراء من روايات التبريزى عن أبى العلاء ، حيث يقول الشارح عن قول المتنبى :

ومِنْ إحْدَى فوائِدِهِ العَطَايَـا ... ومن إحدى عطاياه الدَّوامُ
فقد خَفِـىَ الزَّمَانُ به علينَـا ... كَسِلْكِ الدُّرِّ يُخْفِيهِ النِّظَـام

« قال الخطيب : قرأت على أبى العلاء * خفى الزمان بها * (١٣٤) »

فالاستشهاد بشعر المعرى ، وبآرائه عن طريق التبريزى ، دليل بين على أن المؤلف غير المعرى ، وغير التبريزى أيضا ، بل دليل على أن الكتاب ألف بعدهما ، اذ يبعد أن يكون المؤلف أبا العلاء ثم يقول « قال الخطيب : قرأت على أبى العلاء » ، أو أن يكون التبريزى ، لأن هذا القول منه مثبت فى كتابه (الموضح) شرح ديوان المتنبى (١٣٥) ، ولم يثبت أن له شرحين لشعر المتنبى .

٢ ـ **مخالفة ما فيه للموثق من الكتابين :** اذ بمقابلة النص الذى وجدته واعتمدته من (معجز أحمد) الحقيقى عند ابن أبى الاصبع عن بيت

---

(١٣٢) مقدمة ديوان المتنبى بتحقيقه ص يه .
(١٣٣) معجز أحمد المنسوب الى المعرى ١/٧٣ ب ، ٢/١٤٥ ب ، ١٢٧ ب ، ٢٦٠ أ ، ٢٨٥ أ .
(١٣٤) المرجع السابق ١/٧٣ ب .
(١٣٥) الموضح ٣/٩٦ ب .

المتنبى * يرد يدا عن ثوبها وهو قادر · * بما يوازيه عن البيت نفسه فى هذا الشرح (١٣٦) = لم أجد اتفاقا قط ··

كذلك بمقابلة ما وجدته من (اللامع العزيزى) ـ وهو كثير ـ فى كتابى (الموضح) شرح ديوان المتنبى للتبريزى ، و (المآخذ على شراح ديوان المتنبى) لابن معقل الأزدى ، وهما الكتابان اللذان صورتهما من أجل هذا التحقيق · بمقابلة ما فيهما من (اللامع) ـ عن نسخة بخط كاتب أبى العلاء ـ بما يوازيه فى هذا الشرح = لم أجد اتفاقا قط أيضا ، الا فيما قرنه الشارح بأبى العلاء ، ونقله فى الواقع عن (الموضح) للتبريزى ·

فهذه المقابلة ـ مع عدم الاتفاق ـ صريحة وقاطعة ـ بعد ما تقدم ـ بأن هذا الشرح شىء آخر غير (اللامع العزيزى) و (معجز أحمد) ، بل شأنه شىء آخر ليس لأبى العلاء ··

لكن اذا كان هذا الشرح بعد هذا التحقيق ليس لأبى العلاء فلمن يكون اذا ؟

والجواب أن المؤلف الحقيقى لا يزال مجهولا ، فليس فيما وجدت وتتبعت من تاريخ المتنبى وشروحه ما يعين على تعيينه ، وعسى أن نظهر من ذلك على ما نود ·

ذلك ما ذكر واشتهر من نسخ (اللامع) و (المعجز) الآن ، وهو غير صحيح ·

أما ما صح عندى من نصوصهما ـ وهو فى الواقع مغمور لم يذكر ولم يشتهر ، بل لم يلتفت اليه أحد قط من الدارسين ـ فهو :

---

(١٣٦) معجز احمد المنسوب الى المعرى ٢/٢١١ ب .

من المعجز : ذلك النص الوحيد الذى ذكرناه من قبل عن ابن أبى الاصبع .

ومن اللامع : نصوص كثيرة تضمنتها عدة مصادر على تفاوت ، بعضها نقل منه مباشرة ، كـ (شرح المتنبى) (١٣٧) للواحدى ، و (الموضح) (١٣٨) للتبريزى ، و (المآخذ) (١٣٩) لابن معقل ، و (ارتشاف الضرب) (١٤٠) لأبى حيان . وبعضها نقل عن(الموضح)، كـ (الأمالى) لابن الشجرى (١٤١) ، و (النظام فى شرح شعر المتنبى وأبى تمام) (١٤٢) لابن المستوفى ، و (معجز أحمد) المنسوب انى المعرى .

لكن أهمها وأجدرها بالنظر هنا لأصالته = (الموضح) و (المآخذ) ، فما فيهما من (اللامع) جامع لما فى غيرهما كله فيما رأيت وتتبعت . بل لعل (الموضح) قياسا على ما رأينا فى شروح : السقط والحماسة وشعر أبى تمام للتبريزى = قد تضمن من (اللامع) أكثره ، فقلما خلت صفحة من صفحاته التى بلغت ألفا ومائتين تقريبا من كلام أبى العلاء فى (اللامع) ، بل ان ماخلا من رمزه (ع) قد دلت (المآخذ) على أن بعضه له .

ومهما يكن فان ما أثر من (اللامع العزيزى) صريح بانه شرح للشعر كما ينبغى أن يكون الشرح ، للفظ والمعنى وعناصر الفن فيه ، بعد تحقيق متنه والترجيح بين رواياته ..

---

(١٣٧) ١/٩٣ ، ٢/٦٠١ ط برلين .

(١٣٨) معظم صفحات الكتاب .

(١٣٩) ورقة ١٠٧ — ١٨١ من نسخته المصورة بمعهد المخطوطات العربية

(١٤٠) ص ٤٧١ ص ٤٧١ مخطوط بدار الكتب ٨٢٨ نحو .

(١٤١) ١/١٩٣ ، ٢٢٤ ، ٣٤٦ ، ٣٥٢ ، ٢/٣٣٢ .

(١٤٢) معظم الصفحات فى الجزء الموجود بدار الكتب ٦٤٠١ز .

وفى اطار هذا الشرح أبدى المعرى كثيرا من آرائه النقدية ، فى ألفاظ المتنبى ، واستعمالاته ، ومعانيه ، ومجازاته وتشبيهاته ، وأوزانه وقوافيه ، وفى بعض قصائده ومقطوعاته ، وبعض عاداته فى الشعر .

فالفاظه واستعمالاته : أول ما يلتفت اليه ، بالتحقيق ، والتأصيل ، والتوجيه ، والاحتجاج ، منوها بما أعجبه ، ومزريا بما كرهه ..

ومعانيه : يبدو كلفا بها ، من اقباله على تأويلها ، وتأصيلها ، وبيان وحدتها ، والدفاع عما عيب منها ، والتنويه بمعجبها ، والازراء بما اضطراب فيه المتنبى أو زل أو أحال ..

ومجازاته وتشبيهاته : كذلك يلفت اليها ، ويتوخى تحليلها ، وتأصيلها ، والتنظير لها ، مع الاستحسان والاستهجان أيضا .

واهتمامه بأوزانه وقوافيه : واضح ، يتجلى فى الشرح . ثم فى فصل خاص بعروضه وقوافيه .. ثم فى تمييزه بكليهما بين ما تنكره الغريزة وما لا تنكره ، على أنه هنا كما فى (العبث) و (شرح ديوان ابن أبى حصينة) قد بين ما ينبغى رعايته فى انشاد بعض الصيغ والقوافى .

فلم يكن نقده فى (اللامع) اذا نقد المعجب المتعصب ، على ما شاع وذاع من تعصبه للمتنبى ، بل كان نقد الفاحص المتنزه عن التعصب ، فرضى وسخط ، وصدر عن حسه الفني كما صدر عن وعيه العقلى ، شأنه مع غير المتنبى .

ومن ثم كان (اللامع) أظهر مكانا من (المعجز) بين مصادر نقده ، بل من أهمها ، ليس لكثرة ما تضمنه فقط ، بل لذا ولما دل عليه من رأى أبى العلاء فى المتنبى ، فقد دل على كثير مما أعجبه فى شعره ، كما دل على أن فى هذا الشعر ما أسخطه أيضا .

ولكن متى كان هذا النقد المتنزه بعد ما كان من تعصب مطلق كما زعموا ؟

ان تحديد ذلك سوف يقفنا على جانب كبير من تطور ذوق أبى العلاء لشعر المتنبى ..

وعلى الرغم من صعوبة هذا التحديد لقلة الأدلة وعدم قطعها ، يمكننا أن نرجح كونه فى عزلته ، وفى العقد الرابع من القرن الخامس خاصة ، مستدلين بما يلى :

أولا : حكايته فى (اللامع) انشاد البغداديين الخاص لبيت من شعر المتنبى ، مما لم يكن ـ كما سلفنا ـ الا بعد رجوعه من بغداد وبعد اعتزاله .. (١٤٣) .

ثانيا : نقده للمتنبى الذى يتجه الى التنويه به والدفاع عنه ، منذ لقى ابن سعد بحلب ـ وهو صغير ـ حتى ألف (الغفران) سنة ٤٢٤هـ (١٤٤) = هذا النقد يعنى أن الاتجاه فى (اللامع) الى الانصاف والانتصاف كان بعد ذلك .

ثالثا : تأدبه فى ذكر الله ورسله وآل البيت ، من حيث الافتنان فى الثناء عليهم بألوان الثناء الدينى (١٤٥) ، على النحو الذى نلحظه فى (زجر النابح) = يعنى أن للامع ـ كالزجر ـ كان بعد فترة السخط والشك والجرأة التى أنشأ فيها (اللزوميات) ، ابان الاتهامات التى وجهت اليه بعد انشائها ، حتى احتاج الى الدفاع عن نفسه . وقد قدمنا فى الكلام عن (زجر النابح) أن تلك الاتهامات كانت أشد ما كانت خلال السنوات الأولى من حكم ثمال بن صالح (٤٣٤ ـ ٤٤٨ هـ) .

---

(١٤٣) الموضح ١/٦٠ أ .

(١٤٤) أنظر التعريف ص ٥١٥ ، ٧٦ ، شرح الواحدى ١/٢٧٧ ، رسائل أبى العلاء ص ٦٨ ، عبث الوليد ص ٦٤ ، ٦٥ ، الغفران ص ٤١٤ ، ٤٢٨ .

(١٤٥) الموضح ١/٩٨ أ ، ١٠٢ ب ، ١٢٦ أ ، ١٧٣ ب ، ٢٠٧ ب ، ٢/٢٣ ب ، ١٠٤ أ .

رابعا : تأليفه (اللامع) ـ فيما قالوا ـ (١٤٦) للأمير عزيز الدولة أبى الدوام ثابت بن ثمال بن صالح بن مرداس ، الذى لم نعرف عنه سوى أنه رابع أبناء ثمال (١٤٧) ، وأنه تولى المعرة وعزل عنها سنة ٤٥٦ هـ (١٤٨) .. فان تولى ثمال لحلب سنة ٤٣٤ هـ (١٤٩) = كان أول مناسبة لخلع الألقاب عليه وعلى أولاده .. نعنى أن (اللامع) لم يكن قبل خلع هذه الألقاب التى حفظت فى تاريخه . وكون ثابت أصغر سنا أو فى مقتبل العمر عند تولى أبيه ـ فيما يبدو ـ يجعل طلبه لهذا الشرح أول عهد أبيه ..

خامسا : ذكر ابن سنان الخفاجى من أحكام شيخه أبى العلاء الشفوية على شعر المتنبى ماورد بعضه فى (اللامع) (١٥٠) دون أن يشير اليه ، وتلمذته للمعرى كما أسلفت كانت فى العقد الرابع من القرن الخامس الهجرى (١٥١) ، فهذا الذكر يعنى أن (اللامع) أملى قريبا من هذه التلمذة : قبلها أو بعدها أو ابانها .

كتبه الأخرى :

مما عدا الشعر والرسائل والشروح ، ليس بين أيدينا منها كتاب كامل ، مع أنها كانت أكبر الأنواع التى ذكرناها حجما ، وأجلها قدرا ، لأنها أو أكثرها ـ كما وصفوا ـ كانت ثمرة انبعاث ذاتى من أبى العلاء ، وفى تمجيد الله والعظات .. وحسبك منها : (الأيك والغصون) فى ألف ومائتى كراسة ، و (وتضمين الآى) فى أربعمائة ، (وتاج الحرة) فى.

---

(١٤٦) تعريف القدماء ٤٧ ، ١١١ ، ٥٤٠ .

(١٤٧) مقدمة ديوان ابن أبى حصينة بتحقيق د. محمد أسعد طلس. ١٥/١ ط دمشق .

(١٤٨) زبدة الحلب فى تاريخ حلب ٢٩٣/١ .

(١٤٩) المرجع السابق ٢٦٢/١ ، ٢٧٣ .

(١٥٠) سر الفصاحة ص ٢١٦ ، والموضح ٩٣/٢ ب .

(١٥١) انظر ص ٧٥ .

أربعمائة أيضا ، (والفصول والغايات) فى مائة (١٥٢) ، وغيرها وغيرها ، مما ضاع ، ولم يبق منه سوى : جزء أو مجلد من (الفصول والغايات) ، وصفحات من (الأيك) و (خطبة الفصيح) و (القائف) و (الصاهل والشاحج) (١٥٣) ، ولا يعنينا من هذا الباقى هنا سوى ملجد (الفصول) والنص الباقى من (خطبة الفصيح) .

الفصول والغايات :

وواضح من فهرست كتبه وتاريخها (١٥٤) أن (الفصول والغايات) أول ما ألف فى عزلته ، فى الزهد والعظات وتمجيد الله سبحانه . بل زاد ياقوت ـ ماقيل ـ من أنه بدأ به قبل رحلته الى بغداد وأتمه بعد عودته منها (١٥٥) ، وهو الكتاب الذى افترى عليه بسببه ،فقيل: انه عارض به (السور والآيات) ، وليس ـ كما ذهب ابن العديم وغيره من المحققين قديما وحديثا ـ من باب المعارضة فى شىء (١٥٦) .

كذلك يتضح من بنائه أنه أول مصنفاته التى حاول فيها التزام مالا يلزم بالنثر ، حيث بناه على حروف المعجم ماعدا الألف ، بأن جعل كل حرف من حروف الهجاء غاية قبلها ألف ، أو قافية مردفة لعدد من الفصول . والذى بين أيدينا منه ينتهى بقافية « الخاء » ، مع سقوط بعض الفصول من قافية « الهمزة » .

ومع أن موضوع الكتاب « تمجيد الله والعظات » لم يخل من ملاحظات النقد التى صدر فيها عن حسه الدينى والخلقى والفلسفى والفنى . من ذلك :

---

(١٥٢) تعريف القدماء ص ٥٢٧ وما يليها .
(١٥٣) أوج التحرى ص ٤٨ ــ ٧٣ وأحكام صنعة الكلام ص ٣٨ ، ١٨٩ ، ٢٠٨ .
(١٥٤) تعريف القدماء ص ٥٢٧ .
(١٥٥) المرجع السابق ص ١٠٠٢ .
(١٥٦) المرجع السابق ص ٥٢٧ ، ٤٢٦ .

تنويهه بأمانة الكلمة حيث دعا لنفسه بها ودعا غيره اليها ، ممـا ردده من بعد كثيرا فى اللزوميات .

وتفضيله ذكر الله على أغراض الشعر الخاسرة ، مما لفت اليه فى مقدمة (الضوء) .

وعيبه بعض المعانى الموروثة التى لا يسيغها عقل ...

وبيانه أن معانى الشعر لا نهاية لها .. وهو رأى ردده فى الغفران .

وبيانه منازل الأوزان فى الكثرة والتقبل ، ولم ركت أشعار المولدين، وأن الاكفاء من شان النساء والضعفة من المحدثين ، واثر بعض التغييرات العروضية على الحس .

اما خطبة الفصيح :

فهى كتابه الذى ذكر فيه الالفاظ التى تروى فى كتاب (الفصيح) لثعلب ضمن كلام فصـيح منثور ، لتمجيد الله سبحانه ، وماقـاربه من العظات ، ومقداره خمس عشرة كراسة . (١٥٧)

ويفهم من موضوعه أنه ألف فى الشطر الأول من عزلته ، قريبا من (الفصول والغايات) و (الأيك والغصون) ، بل هو أيضا مايتفق مع قولهم (١٥٨) : ان أبا عمرو السفاقسى تلقاه عن أبى العلاء فى رحلته انى المشرق التى كانت بعيد العشرين وأربعمائة .

وقد كانت تلك الخطبة ـ كما وصفها بعضهم (١٥٩) ـ من أظرف الخطب معنى وأعذبها منحى ومبنى ، تشتمل على علم جم وأدب ..

---

(١٥٧) المرجع السابق ص ٣٨٥ ، ٥٣٠ .
(١٥٨) المرجع السابق ص ٣٨٥ ، وجذوة المقتبس ص ٣٠٣ .
(١٥٩) أحكام صنعة الكلام ص ٨٠ .

وفى النص الذى بقى منهـا بيان لوظيفة الشـعر فى اعتدالهـا وانحرافها ، وتنويه بحرمته وفضيلته .

***

وبعد ، فهذا ما وجدته وارتضيته من مصادر نقد أبى العلاء بالبحث الدقيق عنها ، والجمع لما قرب ومابعد منها ، والتحقيق لما زيف أو اعتوره الشك من أنواعها .. ومن وصفنا السابق لها يمكننا أن نستخلص الحقائق التـالية :

ـ أن مابقى منها بنوعيه ـ الرواية والتصانيف ـ أقل كثيرا ممـا ضاع ، اذا قيس بما عرف وثبت من رواته وتصانيفه .

ـ أنه ـ بالتحقيق ـ ليس منها ماينسب الى أبى العلاء من نسـخ (شرح الحماسة) و (معجز أحمد) و (اللامع العزيزى) المشـار اليها والى أماكنها فى هذا الوصف .

ـ أن مافيها من النقد صدر أكثر بالمعرة ، وأقله ببغداد . على أن الأكثر أيضا كان فى عزلته ، أى فى النصـف الأول من القرن الخـامس الهجرى .

ـ أن هذا النقد كان للشعر والشعراء ، خالصا لذلك « الشروح » ، وغـالبا فيما عداها . وليس منه ماخلص للنثر الا رأيه فى نثر المغربى بـ (المنيح والاغريض) ، ودفاعه عن القرآن بـ (الغفران) ، ورأيه فى الخطباء الكاذبين والمتكسبين بـ (اللزوميات) ، ورأيه فى السـجع بـ (رسالته الى داعى الدعاة) ، ورأيه فى الكلام المرسل بـ (الرسائل) .

ـ أن النقد فيها على الجملة نوعان :

تطبيقى : وهـو الأكثر ـ يرتبط بالنصوص من حيث تحقيقهـا ، وتأويلها ، وتقويمها ، وغايتها ، والموازنة بينهـا ، واللغة الخاصـة بقائليها ، لاسيما ما فى الشروح ومعظم الرسائل .

ونظرى : وهو الأقل ـ ينحصر فى بعض الحقائق العامة عن الشعر من جهة ، وغاية الشعر والأدب من جهة أخرى •

ـ أنها تتفاوت فيما تضمنته من النقد ، فالرسائل والشروح أكثر تضمنا له من الشعر والكتب ، و (الغفران) و (اللامع العزيزى) و (عبث الوليد و (ذكرى حبيب) أكثر تضمنا من غيرها •

ـ كما تتفاوت فى صياغتها ، فالشعر والرسائل والكتب اطار فنى ، فيه من أغراب المعرى وتكلفه وتصنعه وسخريته ماعمى مراده كثيرا ، وان كان ذلك فى اللزوميات والرسائل أكثر منه فى غيرهما •• أما الشروح ففيما عدا (زجر النابح) نثر مرسل ، مهلهل أحيانا ، لما يعوزه من ترابط وسبك ، لكنه فى (الزجر) كما أسلفنا مرسل فى نهج علمى دقيق •

ـ كذلك نجد فى تسميات هـذه المصادر عدا الطرافة العذبة فى بعضها ، والايماء الذكى الى من ألفت لهم أو عنهم = رمزا دقيقا للطابع الغالب أو الهام فى أكثرها ، فـ (الغفران) و (عبث الوليد) و (معجز أحمد) و (ذكرى حبيب) = بين أسمائها والاتجاه النقدى الغالب فيها غير قليل من التوافق المقصود •

الفصل الثالث

اتجاهات نقد أبى العلاء وخصائصه

أساس تحديد اتجاهاته وترتيبها :

الاتجاه الأول : تعريف وتبين .

الاتجاه الثانى : تحقيق النصوص .

الاتجاه الثالث : تحليل النصوص وتقويمها .

الاتجاه الرابع : الموازنة ....

الاتجاه الخامس : غاية الشعر والأدب .

خصائص نقد أبى العلاء .

* * *

أساس تحديد اتجاهاته وترتيبها :

قبل أن نأخذ فى عرض هذه الاتجاهات تفصيلا ينبغى أن نوضح الأساس الذى نظرنا اليه فى تحديدها وترتيبها :

أما تحديدها فمنظور فيه الى ما انتهينا اليه فى الفصل السابق ، من تنوع نقد أبى العلاء الى تطبيقى ونظرى ، **تطبيقى** – وهو الأكثر – يرتبط بالنصوص من حيث تحقيقها ، وتحليلها ، وتقويمها ، وغايتها ، واللغة الخاصة بقائليها ، والموازنة بينها أو بينهم . **ونظرى** – وهو الأقل – ينحصر فى بعض القضايا العامة عن الشعر من جهة ، وغاية الشعر والأدب من جهة أخرى .

ان هذا التنوع – كما ترى – يدل على أن نقد أبى العلاء يأخذ هذه الاتجاهات التى حددناها ، كما يدل على أنها أدق اطار لتناوله وعرضه ، ليس فقط لانتظامها جميع قضاياه النظرية والتطبيقية ، بل أيضا لتمييزها بين أنواع هذه القضايا كما سيأتى .

لكننا بصدد هذا التحديد والعرض نود أن نذكر بأمرين :

أولهما : أننا لسنا من رأى من يفرق (١) بين تحليل النص وتقويمه ، فيجعل الأول مرحلة أخرى غير النقد الأدبى ، والثانى فقط منه ، تبعا لما ذهب اليه من تمايز الأنواع الأدبية ، ليس فقط فى طبيعتها وتطورها ، بل أيضا فى دراستها ، « فدراسة النصوص عنده تتجه الى ما فيها من جديد مبتكر ، وتجمع المعلومات التى صار بها النص مؤثرا .. ثم تحلل المزايا وطبيعة النص نفسه بالدراسة المنهجية ، على أن يجىء كل ذلك بعيدا عن تقديم القيمة الأدبية له أو تقويمه ، لأن ذلك من مهمة النقد ، فالنقد وظيفته المفاضلة بين نص ونص ، والموازنة بين مؤلف وآخر ،

---

(١) برونتير : صاحب « نظرية تطور الأنواع الأدبية فى النقد » .
انظر : معالم النقد الأدبى ١٢١ ، ١٢٢ .

من حيث القيمة الفنية لهذا أو ذاك ، والكشف عما توحى به النصوص من أفكار أدبية ، مع الاشارة الى أصالتها أو سذاجتها ، فالغاية من النقد الأدبى هى الوصول الى الحكم على النصوص بما تحمل من مثل جمالية »٠

لسنا من رأيه فى هذا المذهب لأنه يلغى ويتجاهل طبيعة التلازم القائمة بين تحليل النص وتقويمه ، اذ ان التقويم بالمفاضلة والموازنة ، وبالكشف عما توحى به النصوص من أفكار ـ كما ذهب ـ لا يتم ولا يستقيم دون فهم وتحليل للمزايا والعيوب ٠ وحسبنا فى هذا المقام أن نلفت الى (موازنة الآمدى بين الطائيين) ، وهى أدق مثل للنقد التقويمى المنهجى = حيث نجده لا يكاد يوزان بين نصين فى أى عنصر من عناصر الشعر الا بعد تحليلهما تحليلا دقيقا ، بل لقد بدا منه ـ وصرح ـ فى غير موضع ، أن قصاراه فى موازنته هو التحليل ، والكشف عن المزايا والعيوب ، دون القول بأيهما أشعر أو أحسن (٢) ٠ ولا يعنى هذا الا أن تحليل النص الأدبى كتقويمه من النقد الأدبى فى الصميم ٠

وثانى الأمرين : أن تحديد الاتجاهات الذى ذكرناه لا يعنى الفصل فى عرضها بين النظرى والتطبيقى ، بأن يكون النظرى فى موضع والتطبيقى فى آخر ، لأن بعض الاتجاهات ينتظم آراء من النوعين ، كغاية الشعر والأدب والموازنات ٠٠٠ ومن هنا نعرض فى كل اتجاه ما يمثله منهما أو من أحدهما ٠٠٠

أما عرضها على هذا النحو من الترتيب فلأن الاتجاه الأول ـ فضلا عن عموم الحقائق فيه بالقياس الى ما بعدها ـ يمثل لنا تصوره للشعر من ناحيتها ، مما كان به أساسا قويا للكثير من نقده التطبيقى ، ولما كان فى نقده التطبيقى يبدأ بالتحقيق فالتحليل فالتقويم فالموازنة = مضينا فى عرضه على نحو من ترتيبه عنده ٠ ثم كان حديثه عن غاية الشعر والأدب آخرا لأنه طالما كان ـ مع انفصاله عن فنية النص ـ تاليا لها فى التناول ٠

---

(٢) الموازنة بين أبى تمام والبحترى : ٦/١ ، ٧ ، ٣٨٨ ، ٣٨٩ .

الاتجاه الأول

تعـريف وتبين

للشعر ، واختصاص العرب به ، وأوليته ، وتجدده ، ومصدره عند قائله

الشــعر :

عن الشعر قال أبو العـلاء ـ فى الغفران (١) : الشـعر كــلام موزون تقبله الغريزة على شرائط ، ان زاد أو نقص أبانه الحس » .

فدل عليه ببعض عناصره وهو الوزن ، وجعل مقياس هذا العنصر عند القائل والسامع هو الغريزة ، أى الفطرة والطبع .

ولا شك أنه تعريف طريف ، كما لاحظ غير واحد من الدارسين (٢) ، لجدته ، ولكونه بأهم العناصر وهو الوزن ، ثم لربط هذا العنصر فيـه بأساسه الفطرى وهو الغريزة .

لكننا على الرغم من تلك الطرافة التى لفتت الدارسين ولم يتجاوزوها = نلتفت الى هذا التعريف بسؤالين هامين فيما نحن بصدده من نقـد أبى العلاء ، هما :

أكان تصوره للشعر فى اطار الوزن فقط كما يفهم من هذا التعريف الطريف أم ماذا ؟

واذا لم يكن فلم اكتفى فى الدلالة عليه بهذا العنصر فقط ؟

---

(١) ص ٢٥١ .

(٢) انظر النقد واللغة فى الغفران ص ٤١ ، والجامع فى اخبار أبى العلاء ٩٠٩/٢ .

والجواب : أن هذا التعريف كما رأيت من تقصى نقده لا يمثل حقيقة الشعر عنده ، تلك الحقيقة التى التفت منها فى نقده الى جميع ما عرف السابقون من جوانبها قبله ، من لفظ ومعنى وخيال وعاطفة وموسيقى ، بل زاد على السابقين فى بعض هذه الجوانب ، واستقل دونهم بافاضة لم تكن لأحد قبله فى وظيفة الشعر والأدب كما سيأتى . وحسبنا فى الدلالة على ذلك هذان الخبران :

قال التبريزى : « كنت أسأل المعرى عن شعر أقرؤه عليه فيقول لى : هذا نظم ، فاذا مر به بيت جيد قال : يا أبا زكريا هذا هو الشعر (٣) .»

وقال ابن سنان : « مازلت أسمع أبا العلاء يقول : ان من الشعر ما يصل الى غاية لا يمكن تجاوزها » (٤) .

فالشعر عنده اذن هو الجيد من النظم ، أو ما بلغ الغاية فى جودته ، ولم تكن الجودة كما رأينا لمجرد الوزن والنظم ، بل لجملة من المزايا الفنية كما سنرى بعد قليل ... وانما اكتفى هنا بعنصر الوزن فى التعريف لأمرين :

أولهما : أنه فى الحقيقة أبرز العناصر المميزة للشعر ، مما جعله فى مقام آخر يعده الفارق المميز بين النظم والنثر (٥) . هذا فضلا عن أن المقام هنا لم يكن مقام جدّ وتحرّ ، انما كان مظهرا من مظاهر السخرية بابن القارح ، حيث جعله يستطيل موقف الحشر ، فيمدح رضوان ـ خازن الجنة ـ بأشعار كثيرة ، لعله يدخله الجنة بها ، فلما لم يأبه به ناداه بأعلى صوته يارضوان : لقد مدحتك بأشعار كثيرة ، ووسمتها باسمك ، فقال : وما الأشعار ؟ فقال : الأشعار جمع شعر والشعر : كلام موزون ...

---

(٣) نصرة الاغريض فى نصرة القريض ص ١٠ .
(٤) سر الفصاحة ص ١٥٦ .
(٥) رسالة الغفران ص ٣١٤ .

ثانيهما : أنه فى الحقيقة كان معنيا بهذا الجانب أكثر من غيره ، لعلمه الزائد بأصول العروض والغناء أولا ، ولتذوقه الدقيق لأنغامهما ثانيا ، ولحس الشاعر القوى فيه ثالثا ، مما يبدو جليا فى كثرة تعرضه للشعر من ناحيته ، واحتكامه الى الغريزة فيما تعرض له كما سيأتى .

على أن أبا العلاء لم يكن بدعا بين النقاد فى تعريفه الشعر ببعض عناصره ، اذ كان ذلك ديدن أكثرهم ان لم يكن ديدن جميعهم فى القديم والحديث ، كل يدل على الشعر بما هو أهم عناصره عنده ، أو بما يميزه عن فنون الأدب الأخرى ، حتى لم نجد لهم بعد التقصى تعريفا جامعا متفقا عليه من الجميع ..

ولعل تطور مفهوم الشعر والوعى به ، مع تفاوت الاهتمام به عبر العصور = من وراء هذا الاتجاه فى تعريفه والدلالة عليه .

اختصاص العرب بالشعر :

وفى نفس المقام الذى عرف فيه الشعر قال أبو العلاء على لسان زفر - خازن الجنة - لابن القارح لما مدحه بعدما مدح رضوان :

أحسب هذا الذى تجيئنى به - يعنى الشعر - قرآن ابليس المارد ، ولا ينفق على الملائكة ، انما هو للجان وعلموه ولد آدم ... فمن أى الأمم أنت ؟ فقلت : من أمة محمد بن عبد الله بن عبد المطلب ، فقال : صدقت . ذلك نبى العرب ، ومن تلك الجهة أتيتنى بالقريض ، لأن ابليس اللعين نفثه فى اقليم العرب ، فتعلمه نساء ورجال » (٦) .

وبعد هذا المقام بقليل قال على لسان حميد بن ثور : « كان الرجل منا يُعمل فكره السنة أو الأشهر ، فى الرجل قد آتاه الله الشرف والمال ، فربما رجع بالخيبة ، وان أعطى فعطاء زهيد ، ولكن النظم فضيلة العرب » (٧) .

---

(٦) المرجع السابق ص ٢٥٢ . وينفق : يروج .
(٧) المرجع السابق ص ٢٦٧ .

فذهب بعض الدارسين (٨) الى أن النص الأول اشارة الى اختصاص العرب بالشعر ، وذكر آخر (٩) ان هذا الاختصاص قد يستنتج من النصين ، لكنه لم يقطع بذلك ، وعد عبارة المعرى أقل تصريحا من عبارة الجاحظ : « وفضيلة الشعر مقصورة على العـرب وعلى من تكلم بلسان العرب » ، وعبارة الثعالبى « الشعر عمدة الأدب ، وعلم العرب الذى اختصت به عن سائر الأمم » .

وعندى أن المعرى ليس ممن يعتقدون اختصاص العرب بالشعر ، أو يجهلون حظ غيرهم منه ، لأمرين :

أولهما : أن النصين السابقين لا يدلان صراحة على هذا الاعتقاد ، فغاية مايدل عليه الثانى كما فهم بعض الدارسين (١٠) تعلق العرب بالنظم ، وان لم يكن صناعة رابحة ، لمكانته السامية عندهم . وغاية ما يدل عليه الأول لا سيما قوله « من تلك الجهة أتيتنى بالقريض لأن ابليس ... » أن شعرهم من الهامه دون قصر هذا الالهام عليهم ، بدليل تعميمه السابق فى النص « انما هو ـ أى الشعر ـ للجان وعلموه ولد آدم » ، ليس العرب فقط . وموضوع الالهام قضية أخرى ستأتى .

ثانيهما : قول أبى العـلاء فى رسـالته الى أبى الحسين النكتى : « وزعم صاحب المنطق فى كتابه الثانى من الكتب الأربعة ، أن الكـذب ليس بقبيح فى صناعة الشعر والخطابة ، ولذلك استجازت العـرب أن تقول فتفرط ، وتسرف فى الشىء فتغرق » (١١) .

فأى شعر ذلك الذى عناه صاحب المنطق ؟ انه لابد شعر آخر لغير العرب . ولا شك أن هذا النقل عن صاحب المنطق ، ومن كتاب بعينه .

---

(٨) د. بنت الشاطىء فى كتابها : الغفران دراسة نقدية ص ٢٠١ .
(٩) د. أمجد الطرابلسى فى كتابه: النقد واللغة فى الغفران ص ٤٧، ٤٨ .
(١٠) د. بنت الشاطىء فى كتابها السابق ص ٢٠٢ .
(١١) رسائل أبى العلاء ص ٨٢ .

قاطع بأن المعـــرى اطلع على هذه الكتب ، وعرف أن هناك من لهـم شعر غير العرب ، فلا يتصور منه أن يختصهم بالشعر أو يعتقد اختصاصهم بـــه .

أولية الشـعر :

أما أول من رقق الشعر وقصده من العرب فلا يكاد أبو العلاء يثق بما قيل واشتهر ، من أنه مهلهل بن ربيعة التغلبى ، ذلك ما يبدو من من حواره معه فى (الغفران) ، حيث يقول له ــ على لسان ابن القارح ــ بعدما أثنى على قصيدتين من شعره :

« أخبرنى لم سميت مهلهلا ؟ فقد قيل انك سميت بذلك لأنك أول من هلهل الشعر ورققه . فيقول : ان الكذب لكثير ، وانما كان لى أخ يقال له: امرؤ القيس ، فأغار علينا زهير بن جناب الكلبى ، فتبعه أخى فى زرافة من قومه ، فقال فى ذلك :

لما توَقَّل فى الْكُرَاعِ هجينُهُم ... هلْهلْتُ أَثْأَرُ مالِكاً أَو صِنْبِلاَ
وكأَنَّهُ بازٍ عَلَتْهُ كَبْـــــرَةٌ ... يَهْدى بشِكَّتِهِ الرَّعيلَ الأَوَّلاَ

هلهلت : أى قاربت ، ويقال : توقفت . يعنى بالهجين : زهيـر ابن جناب . فسمى مهلهلا ، فلما هلك شبهت به فقيل لى مهلهل . فيقول: الآن شفيت صدرى بحقيقة اليقين » (١٢) .

فهو فى هذا الحوار الطريف يفصل فيما تردد قبله من أسباب لهذا اللقب ، فيرفض ضمنا باعجابه بشعر المهلهل أن يكون لقب بذلك لاضطراب شعره واختلافه ، كما قال الأصمعى وابن سلام (١٣) ، ثم يرفض ويكذب

---

(١٢) رسالة الغفران ص ٣٥٣ وزرافة : جماعة ، وتوقل : تصعد ، وكراع الطريق . طوفه ، والكبرة : علوّ السن ، والشكة : السلاح .

(١٣) طبقات فحول الشعراء ص ٣٥ ، والاشتقاق ص ٦١ .

صراحة على لسان المهلهل نفسه أن يكون اللقب لما اشتهر ، من أنه أول من رقق الشعر وهلهله ، أى طوله (١٤) ، معتمـدا ما قيـل ، ومن أنه لقب ببيت قاله أخوه ـ وشبه به ـ على ما روى هنا ، أو قاله هـو على ما روى السابقون . (١٥)

واذا كان الشعر ـ عند الجاحظ ـ حديث الميلاد صغير السن ، أول من نهج سبيله وسـهل الطريق اليه امرؤ القيس بن حجـر ومهلهل بن ربيعة ، وغاية ما كان من سنه قبل الاسلام مائتا عام . (١٦)

فان أبا العلاء برفضه وتكذيبه أن يكون المهلهل أول من هلهل الشعر ورققه ، مع اعترافه له بالرقة والتقصيد = يعتمد ضمنا أن أولية ذلك كانت قبله دون تعيين ، وهو اتجاه قرره قبله عمر بن شـبة (١٧) ، وعنى بتحقيقه باحث حديث ، فى دراسة خلص منهـا الى أن أول من رقق الشعر وقصده ، هو ذؤيب بن كعب التميمى ولقيط بن معمر الايادى فى القرن الرابع قبل الهجرة ، وقبل المهلهل (١٨٠ ـ ٩٠ ق.هـ) بمائتى عام تقريبا = وأن أول الشعر ومقطعاته كان فى القرن السابع قبل الهجرة، وقبل ميلاد المسيح عليه السلام (١٨) .

واذن فأول من هلهل الشعر ورققه ، بَلْهَ من قاله وابتدعه ، فيما ذهب اليه أبو العلاء ـ وهو الحق ـ كان قبل المهلهل خلافا لما ذاع واشتهر .

---

(١٤) الأغانى ٥٧/٥ ، الموشح ١٠٦ ، سمط اللآلى ١١٢/١ ، صبح الأعشى ٤٣٣/١ .

(١٥) الجمهرة ١٦٥/١ ، الأغانى ٥٧/٥ ، خزانة البغدادى ١٩٥/٢ (طبعة هارون) ، اللسان : هلل .

(١٦) الحيوان ٧٤/١ .

(١٧) المزهـر ٤٢٤/٢ .
وعمر بن شبة : اخبارى بصرى ، شاعر ، فقيه ، صادق اللهجة ، غير مدخول الرواية . له مصنفات عدة ، منها : الشعر والشعراء (الفهرست ١٦٩) .

(١٨) الأسس المبتكرة لدراسة الشعر الجـاهلى ص ١١٦ ، ١١٨ ، ١٢٥ ، ٢٠٢ ، ٢٠٣ .

بقاء الشعر وتجدده :

وكما خالف المشهور عندهم فى ذلك ، خالفه أيضا فى بقاء الشعر وتجدده ، فاذا ذهب كثيرون منذ العصر الجاهلى الى نفاد المعانى وذهاب الاولين بها أو باكثرها ، حتى قال عنترة :

هلْ غادَرَ الشعراءُ منْ مُتَرَدَّم (١٩)

وقال زهير :

مَا أُرَانَــا نقُــولُ إِلَّا مُعَارَا

ثم ردد النقاد (٢٠) : « ان من تقدمنا قد استغرق المعانى وسبق اليها ، وأتى على معظمها .. » ، أو « ليس لمتأخر الشعراء أن يخرج من مذاهب المتقدمين ... » ، أو « ليس لأحد من أصناف القائلين غنى عن تناول المعانى ممن تقدمهم ، والصب على قوالب من سبقهم » .

اذا ذهب كثيرون هذا المذهب ، وجدنا أبا العلاء مع القائلين ببقاء المعانى وتجددها ، بل وجدناه أظهرهم قولا بذلك ، لترديده اياه فى غير موضع من مصنفاته ، مجملا حينا ومفصلا حينا آخر ، أجمل أولا فى (الفصول والغايات) ، حين قرر أن القريض لا ينقرض ... بعد أن عد عنترة قد هينم فى قوله :

هَلْ غادرَ الشعراءُ مِنْ مُتَرَنِّمِ (٢١)

ثم فصل فى (الغفران) ما أجمل فى (الفصول) ، حيث قال لعنترة ـ وهو يحاوره ويلومه ـ على لسان ابن القارح « وانى اذا ذكرت قولك :

---

(١٩) المتردم : الموضع الذى يرقع ، يريد : هل تركوا مقالا لقائل (اللسان ردم) .

(٢٠) الجرجانى فى : « الوساطة » ص ٢١٤ وأبو هلال فى : « الصناعتين » ص ٢٠٢ ، وابن « طباطبا » فى : عيار الشعر ص ٩،٨ .

(٢١) الفصول والغايات ١٣٧ ، ١٨٩ .

هينم : من الهينمة : وهى الكلام الخفى . وقيل : الصوت الخفى .

هَلْ غادرَ الشعراءُ مِنْ مُتَرَدَّمِ

لأقول : انما قيل ذلك وديوان الشعر قليل محفوظ ، فأما الآن وقد كثرت على الصائد ضباب ، وعرفت مكان الجهل الرباب . ولو سمعت ما قيل بعد مبعث النبى ﷺ ، لعتبت نفسك على ما قلت ، ولعلمت أن الأمر كما قال حبيب بن أوس :

فلو كان يَفْنَى الشعرُ أَفْنَاهُ ماقَرَتْ … حِيَاضُكَ منهُ فى العُصُورِ النَّواهِب
ولكنه صَوْبُ العقول إذا انْجلتْ … سحائبُ منهُ أُعْقِبَتْ بسَحائب)(٢٢)

على أنه لم يكد يرجع عن هذا الاتجاه أو يتردد فيه بعد ذلك ، بل أكده وأيده بقوله فى مقدمة شرحه لديوان ابن أبى حصينة :

« الدهر مديد طويل ، يجوز أن يحدث فى آخره كما حدث فى أوله ، لأن الله سبحانه ـ قدير على الممتنعات ، كل ماحكم به فهو آت .. ولا يمتنع أن ينشىء فى هذه العصور من الشعراء من هو لاحق بالمتقدمين ، وشبيه من سلف من الفحول الأولين » (٢٣) .

فهو كما ترى يقرر أن الشعر باق متجدد ما بقيت الحياة ، ليس كما وهم واوهم عنترة ، تضيق معانيه أو تستنفد . وحين يقرر ذلك يدعمه بغير دليل ، أولا : بزيادة ما نظم من الشعر بعد المبعث على ما كان منه فى عهد عنترة أضعافا مضاعفة ، وتلك آية التجدد والاتساع لا الضيق والنفاد . وثانيا : بالنظر الى مصدره الذى التفت اليه حبيب ، ولم يلتفت اليه عنترة ، وهو العقل فالعقل كما نعلم مجتمع المعانى والأفكار ، وهى فيه كما قال حبيب متجددة باستمرار ، بل ان الفكر أو العقل من هذا الوجه أكبر من ذلك عند أبى العلاء ، كما يبدو من قوله :

---

(٢٢) رسالة الغفران ٣٢٣ وفرت : جمعت . والصوب : السحاب ذو المطر .

(٢٣) شرح ديوان ابن أبى حصينة ١/٣ .

الفكرُ حبلٌ متى يُمْسَكْ على طرَفٍ
منه يُنَطْ بالثُّريا ذَلك الطرفُ

والعقلُ كالبحرِ مَا غِيضتْ غوارِبُهُ
شَيْئاً ومنهُ بنُو الأيام تَغْتَرِفُ(٢٤)

وثالثا : بقدرة الله ــ سبحانه ــ على أن يحث فى آخر الدهر مثل ما أحدث فى أوله ، وأن يمنح المتأخر من الشعر ما يلحق به المتقدم ، لأنها قدرة لا يعجزها الممتنع ، فكيف الممكن الميسور .

وقد كانت تلك النظرة من أبى العلاء موضع تقدير بعض الدارسين(٢٥) وما أجدرها بذلك ! ليس فقط لتجاوزه بها دائرة النقـاد اللفظيين ، الذين لم يعبئوا كثيرا بجدة المعنى أو عمقه ، بل لأنها مع ذلك نظرة منزهـة عن الكسل الفكرى ، وباعثة لمزيد من التفاؤل بمستقبل الفن الأدبى .

ولعله لها ــ فيما نرى ــ كان مذهب اليه ــ وسيأتى ــ من اهتمام خاص بالمعانى .. واعجاب زائد ببعض المحدثين .. وجدة ملحوظة فى تناوله للسرقات .

---

(٢٤) لزوم مالا يلزم ١٠٢/٢ وينط : يعلق . غيضت : نقصت . غوارب البحر : أعالى موجه . ولعل ما فى البيتين يقرب فى التصور اذا ذكرنا قول الغزالى فى (الاحياء ٢٧٩٧/١٥ ط دار الشعب) : والمعارف اذا اجتمعت فى القلوب ــ والقلب مرادف للعقل عنده ــ وازدوجت على ترتيب مخصوص ، أثمرت معرفة أخـرى ، فالمعرفة نتاج المعرفة ، فاذا حصلت معرفة أخرى وازدوجت مع معرفة أخرى حصل من ذلك نتاج آخر ، وهكذا يتمادى النتاج ، وتتمادى العلوم ، ويتمادى الفكر الى غير نهاية» .
(٢٥) د. أمجد الطرابلسى فى : « النقد واللغة فى الغفران » ص ٤٧ .

مصدر الشعر عند قائله :

١ ـ من النفس لا من خارجها :

بتقصى أقواله فى هذا ، وجدت أكثرها ينسب الشعر الى قوى الشاعر نفسه ، وبعضها ينسبه الى قوى خارجة عن نفسه ، مع تفاوت معارض هذه الأقوال فى الحالين ، من جد صريح فى الأولى ، الى سخر وتفكه فى الثانية ٠

ولتحقيق ذلك : ننظر أولا كيف نسبه الى غير قوى النفس ، فنجده فى مطلع رسالته الى النكتى البصرى ـ بعد أن أشاد بقوة الابداع فيه ـ يشيد ويعجب بشاعريته خاصة ، حتى ليتساءل عمن يقول المنظوم فى خاطره : « أجنى مرد أم ملك بالعبادة تفرد ؟ » ، ولا يثق بكليهما : « قد حرت فى ذلك ، خلده مأهول بالقرآن ، فلا يسلك عفريت فى صدره ، والملائكة لا تنطق بمثل شعره ، ولا نعلم أحدا روى شعرا عن الملائكة ٠ أما الجن فقد ورد عنها ما يعلمه » ٠ وهنا ذكر بعض ما روى أصحاب الحديث والسير من شعر الجن ، ونسب بعضه الى غيرهم ٠ ثم عاد الى ما لم يثق به فقال « وله ـ أدام الله عزه ـ أن يحتج بقول النبى ﷺ لحسان بن ثابت لما أمره باجابة شعراء قريش : قل وروح القدس معك ، فلمدع أن يقول : حسان ومن جرى مجراه من قالة القريض تعينهم الملائكة على ذلك » ، انظر قوله : « وله أن يحتج » ثم« فلمدع » ومدى بعدهما عن ثقته ، ثم تابع كلامه : « ولا ينكر ـ أدام الله عزه ـ ما ذكرته منأمر الجن ، علم أنه مشهور عند العرب أن لكل شاعر شيطانا يقول الشعر على لسانه ٠٠٠ وقد زاد ادعاؤهم لذلك ، حتى سموا الشياطين بأسماء يعرفونها بينهم ، قال الأعشى :

دعوت خليلى مِسْحلاً وَدَعَوْالَهُ جِهِنَّامَ بُعْداً لِلْغوِىِّ الْمُذَمَّمِ

فزعموا أن مسحلا شيطان الأعشى ، وقد رووا أخبارا كثيرة فى ذلك لاشك أنه أطلع عليها ، وحدثنا صديقه أبو القاسم المبارك ٠٠ » ، وهنا حكى

رؤيا ابن دريد لشيطانه « أبى زاجية » الذى كان يسكن الموصل ، وما روى من طول أعمار الشياطين ، فافترض ان كان الشاعر منهم ينتقل ، أن يكون انتقل الى النكتى صاحب النابغة أو الكندى أو ابن دريد (٢٦) . واضح هنا أيضا أنه يروى ويفترض ولا يقرر قط .

ثم نجده فى (الغفران) بعد ذلك ، يجعل شعر البشر من تعليم الجان والهامهم ، حيث يقول على لسان زفر - خازن الجنة - لابن القارح لما أراد دخول الجنة بشعر مدحه به : « أحسب هذا الذى تجيئنى به قرآن ابليس المارد ، ولا ينفق على الملائكة ، وانما هو للجان ، وعلمود ولد آدم » ، وحيث يقول على لسان الجنى الخيتعور - لما سأله ابن القارح عن أشعار الجن التى جمعها المرزبانى - : « انما ذلك هذيان لا معتمد عليه ، وهل يعرف البشر من النظيم الا كما تعرف البقر من علم الهيئة ومساحة الأرض ، وانما لهم خمسة عشر جنسا من الموزون قلما يعدوها القائلون ، وان لنا لالآف أوزان ما سمع بها الانس ، وانما كانت تخطر بها أطيفال منا عارمون ، فتنفث اليهم مقدار الضوازة من أراك نعمان » (٢٧) .

فهو كما ترى يتساءل عن مصدر شعر النكتى المعجب ، ولا يثق بنسبته الى ملك أو جنى ، لايثق بنسبته الى ملك ، لأن الملائكة لاتنطق بمثل شعره ، بل لم يرو لها شعر قط ، وما روى من اعانة روح القدس لحسان لا يقره هو ، بل يدع لغيره أن يحتج على خصوصية قالة الحق به .

ولا يثق بنسبته الى جنى ، **أولا** : لأن خلد النكتى مأهول بالقرآن ، فلا يسلك عفريت فى صدره . **وثانيا** : لأنه ذكر ما ذكر من أشعار الجن

---

(٢٦) رسائل أبى العلاء ص ٦٥/٦٧ .

(٢٧) رسالة الغفران ص ٢٥٢ ، ٢٩١ عارمون : جمع عارم وهو الشرس . الضوازة - بالضم - شظية من السواك . ونعمان : واد بالحجاز ينبت الأراك بين مكة والطائف ، والشعراء يتغنون به .

والهامها على وجه الاخبار لا الاقرار ، اذ من قوله : « فأما الجن فقد ورد عنها ما يعلمه ... ولا ينكر ما ذكرته من أمر الجن فقد علم أنه مشهور »، على أنه لم يخل ما ذكر من شكه وتهكمه ، فهو اما زعم أو ادعاء أو له نسبة أخرى .. وثالثا : لأن ما جوزه من انتقال شيطان النابغة أو الكندى أو ابن دريد الى النكتى انما هو افتراض لا واقع ، وشتان ما بينهما .

لكنه فى الغفران صرح - ولم يتساءل - بأن شعر البشر من الهام الجان ، والظاهر أنها فضلا عن اطار التمثيل صراحة الساخر لا الجاد .

فالمقام أولا مقام سخرية من ابن القارح من ناحية ، ومن شعر الجن والانس من ناحية أخرى ، سخر من ابن القارح ، حيث جعله يوم الحشر كما كان فى الدنيا مهينا متكسبا بأدبه ، بل محتالا على الشفعاء ، وطامعا فيما لا سبيل اليه ، من دخول الجنة بمدح خزنتها ... وسخر من أشعار الجن التى جمعها المرزبانى ، حيث جعلها هذيانا ، بل تجاوز فجعل ما للبشر من أوزان دون ما لهم من آلاف ما سمع بها الانس ، لا هو ولا غيره طبعا .

والمقام ثانيا مقام حوار تمثيلى ، توخى فيه المعرى انطاق الشخصيات بما يناسبها ، وان خالف رأيه ومذهبه ، فاذا قال زفر لابن القارح حين مدحه : « أحسب هذا الذى تجيئنى به قرآن ابليس .. وانما هو للجان » = فقد أنطقه المعرى بما يناسبه فى الرد على متكسب محتال ، وفى السخرية منه بنسبة شعره الى ابليس والجان . واذا قال الجنى الخيتعور عما ينسب الى الجان : « انما ذلك هذيان » ، وترفع بأشعارهم عن شعر البشر ، زاعما أن ما للبشر نفث أطيفال من الجن = فقد أنطقه أيضا بما يناسب شخصيته العالمة المعتدة كما مثلها ، فهو يسخر من المنسوب الى الجن لكذبه ، ومن شعر البشر لقلته . بل يمعن فى السخرية والمبالغة ، فيجعل ما عرف البشر من الشعر كما عرفت البقر من علم الهيئة .. أو يجعله وحى أطيفال الجن لاكبارهم .

هكذا كان التفكه والعجب مبعث تساؤل المعـرى عن مصدر شـــعر النكتى ، كما كانت السخرية والتمثيل مبعث قوله بالهـــام الجـــان فى (الغفران) دون اعتقاد منه فى الحقيقة لذلك . أما حين الجد وفى غير هذين الموضعين فأقواله صريحة بأن مصدر الشعر قوى النفس لاغير ، ليس فى مصنفاته الآخرى فقط ، بل فيها وفى هاتين الرسالتين أيضا ، اذ نجده فى رسالته الى النكتى ـ بعد تساؤله السابق عن مصدر شعره ـ يتســاءل عن كيفية نظمــه للأوزان ، بالطبع أم بقياس العروض ؟ ثـــم يقـول :

« وأحسبه ـ جمل الله به ـ قد جمع بين طبع كالبحر الخضم . وعلم اكتسبه (٢٨) » .

كما نجد فى الغفران ـ بعد سخريته السابقة ـ **أولا** : قوله على لسان حميد بن ثور : «كان الرجل منا يعمل فكره السنة أو الأشهر ، فى الرجل قد آتاه الله الشرف والمال ، فربما رجع بالخيبة » ، **وثانيا** عده من أسباب تجدد الشعر أنه صوب العقول كما قال أبو تمام (٢٩) .

ثم ننظر قبل وبعد وبين هاتين الرسالتين ، فنجد من أقواله فى احدى رسائله الى شاعر : « وقد كان عمل قصيدة على الراء ، تعاونت عليها فضيلتاه : الغريزة المهذبة ، والبراعة المكتسبة » (٣٠) .

وفى سقط الزند عن مصدر شعره هو :

تـذُودُ عُلَاكَ شـرَّادَ المعانِى ... إلَىَّ فمن زُهَيْرٌ أَو زِيَـادُ
إِذا ما صِدتُّها قالتْ رِجَالٌ ... أَلـم تكُن الكواكبُ لا تُصَادُ
من اللَّاتِى أَمدَّ بِهن طَبْـعٌ ... وهذبهن فِكْـرٌ وانْتِقَادُ (٣١)

* * *

(٢٨) رسائل أبى العلاء ص ٧٥ .
(٢٩) رسالة الغفران ص ٢٦٧ ، ٣٢٣ .
(٣٠) رسائل أبى العلاء ص ١٢٧ .
(٣١) شروح السقط ١/٣٢١ ـ ٣٢٥ .

ولولا ما تُكَلِّفُنَا اللَّيالِى لطال القـول واتَّصـل الروِىُّ
ولكنَّ القَرِيضَ لـه مَعَـانِ وأولاهَا بـه الفكْرُ الخَلِىُّ (٣٢)

* * *

وفى اللزوميات عن الطبع والجن والملائكة :

والطبع يَكْسِرُ بيتاً أَو يُقَـوِّمُـهُ بأهونِ السَّعْى تحْريكاً وتسْكِينا

* * *

قد عِشتُ عُمْراً طويلاً ماعلمتُ به حِسًّا يُحَسُّ لِجِنِّىٍّ ولا مَلَكِ (٣٣)

وفى بعض شروحه عن القريض : « وانما سمى بذلك لأن الشـاعر يقرضه من فكره » (٣٤) ، « شبه بقريض البعير ، وهى الجرة التى يخرجها الى فيه ، لأن الشاعر يخرجه من صدره الى فيه » (٣٥) .

واذن فالشعر عنده ليس الهاما من خارج النفس ، لا من الجن كما اشتهر عند العرب ، ولا من الملائكة كما اشتهر فى الاسلام خاصة ، فذلك أبعد ما يكون عن طبيعته العلمية والعقلية ، وما ورد فى كلامه من ذلك ليس الا استغلالا للمأثور منه على وجه التفكه والسخرية والاستطراد .

انما هو نتاج قوى النفس التى أشار اليها = **من الطبع** ، **والعلم** ، **والعقل** ، **والغريزة المهذبة** ، **والبراعة المكتسبة** ، **والفكر الخلى** ، **والانتقاد** .

أى أنه ـ كما نقول نحن اليوم ـ عمل ارادى ، يصدر فيه الشاعر عن وعيه وجهده . ولعله لتلك الروح العلمية فى النظر الى مصدر الابداع

---

(٣٢) المرجع السابق : ١٣٢٩/٣ .
(٣٣) لزوم مالا يلزم ٣٥٥/٢ ، ١٦٣ .
(٣٤) الموضح ١٠٩/٣ أ .
(٣٥) الموضح ١٧/٣ أ .

كان رأيه عند بعض الدارسين (٣٦) قمة تطور هذا النظر ، منذ العصر الجاهلى حتى القرن الخامس الهجرى ، من ايمان تام بفكرة الشياطين فى الجاهلية ، الى ضعف الفكرة وهزالها عند العلماء والنقاد فى العصر العباسى ، ثم الى الكلام عن القوى النفسية التى حلت محلها فى الانتاج الأدبى .

٢ ـ من الفطرة والكسب :

على أن أقواله عن قوى النفس التى نسب الشعر اليها لا تقف بنا عند مجرد هذه النسبة ، بل تدلنا معها على أمرين هامين هما :

ما يضطلع بالانتاج الجيد من هذه القوى ، وما ينبغى لها فى هذا الانتاج من مثيرات وظروف .

ولا يخدعنا فى دلالتها على ذلك ما قد يظهر من تفاوتها أو عمومها أحيانا ، لأنهما تفاوت وعموم لم يدفع اليهما الحديث عن مصدر الشعر ، انما دفع اليهما اختلاف المقامات أو نوع التعبير ، وسوف يتضح ذلك .

أما ما يضطلع بالانتاج الجيد منها : فالظاهر من أقواله التى حدث فيها عن مصدر الشعر الجيد ـ أنه ليس قوى الفطرة وحدها ، ولا الكسب وحده ، بل مزاج منهما ، يتضمن من **الفطرة ـ الطبع ، والعقل ،والخاطر ومن الكسب = العلم ، والبراعة ، والفكر ، والانتقاد .**

فالطبع ـ وهو المقصود بالغريزة هنا لاتحادهما فيما نسب اليهما ـ أهم هذه القوى وأولها ، ليس فقط لكثرة ما نسب اليه من عناصر الشعر ، اذ نسب اليه هنا شراد معانيه ، وقويم أوزان النكتى (٣٧) ، بل لذلك

---

(٣٦) د. عبد الرزاق حميدة فى : شياطين الشعراء ص ٢ .

(٣٧) كما نسب اليه فى « تعريف الشعر » حسن الوزن ، وفى مقدمة اللزوميات : أولا ما نظم فيها من ألوان العظة والتذكير ، وثانيا ماقد يكون فى الشعر من قوة الوزن والقافية أو ضعفهما .

ولأنه كان أول مالفت اليه من قوى النفس التى يصدر عنها الشعر الجيد ، فحين نوه بمعانيه ونظم النكتى وشعر شاعر آخر = كان ذلك لأنهم صدروا فيما قالوا أول ما صدروا عن الطبع .

لكن أى طبع ذلك الذى نسب اليه ما نسب من جيد المعنى والوزن ؟

انـــه ليس الطبـــع المتكلف ، بـــل الطبـــع الفطـرى ، الذى هو أساسا من الله ، والذى عده من مزايا أبى القاسم المغربى حين عدد مزاياه فى (رسالة المنيح) فقال :

« وخصه بارئه ـ تقدست أسماؤه ـ بطبع راض صعاب الأغراض حتى ذللها ، وأبس بوحوش اللغات فأهلها » (٣٨) .

على انه ليس الطبع الفطرى العادى ، وان كان كافيا لمجرد النظم ، بل الطبع الفطرى القوى ، وآية قوته عند أبى العلاء فى ثلاث :

(أ) **المواتاة فى يسر واسماح :** على ما يفهم من وصفه لطبع النكتى الذى صدر عنه نظمه الجيد ، بأنه : « طبع كالبحر الخضم » ، ان هذا الوصف يذكرنا بموازنتهم قديما بين جرير والفرزدق ، من حيث غزارة الأول وسهولته ، وحزونة الثاني وكزازته ، فى قولهـم : « جرير يغرف من بحر ، والفرزدق ينحت من صخر » .

(ب) **التصرف فى شتى الأغراض واستئناس الغريب :** يبـــدو ذلك من قوله السـابق عن طبـع المغـربى ، ومن قـوله يجيب بعض الشعراء (٣٩) :

---

(٣٨) رسائل أبى العلاء ص ٥ ووحوش اللغات : ما كان غير مستعمل ولا مشهور ، وأبس بها : تلطف فى استعمالها حتى تقبلتها الأسماع ولم تمجها الطباع ..

(٣٩) شروح السقط ٢/٧٢٠ .

لا يطْلُبنَّ كَلامَهُ مُتشبِّهٌ   فالدرُّ مُمْتنع على طُلاَّبهِ
رَدَّتْ لَطافَتُهُ وحِدّةُ ذهنه   وَحْشَ اللغاتِ أُوانساً بخطابهِ
فالنَّحْلُ يجْنِى الْمُرَّ مِنْ نوْرِ الرُّبَا   فيصيرُ شُهْداً فى طَريق رُضَابه

(جـ) ـ **التصرف فى المنثور كالمنظوم** : يبدو ذلك من تنويهه ، بتلك القدرة عند النكتى (٤٠) ، ومن قوله فى رسالته الى بعض الشعراء . « وقد عجبت من سداده ـ أدام الله عزه ـ فيما أشار به ، وحسن تسوره على المعانى ، ولكن أعط القوس باريها ... وانما قلت ذلك ، لأن بعض الشعراء لا يكون له تصرف فى منثور الكلام ، وقد روى أن البحترى كان لا يقـــدر على كتب رقعـة ، فيجعل المنظوم عوضا من المنثور ، والله المشكور ، ـ سبحانه ـ على ما خولـه من نظم ونثر ، وكلاهمــــــا للدرنسيب . » (٤١) .

هذا الطبع الفطرى القوى كما يوهبه الرجل توهبه المرأة ، ففى تحذيره لابن ألقارح من شاعرية ابنة أخته : « وربما كان فى نساء حلب شواعر ، فلا يأمن أن تكون هذه منهن ، فطالما كن أجـود غرائز من رجالهن » (٤٢) .

لكن هذه الشهادة منه بقوه الطبع الشعرى عند بعضهن ليست على اطلاقها ، أى انها لا تعنى بلوغهن فى تلك القوة مبلغ المطبوعين ، كما يبدو من تناول بعض المعاصرين (٤٣) لهذا النص ، لأنه فى غير هذاالمقام سجل عليهن عامة ما سجله على الضعفة من الشعراء ، من أن « الاكفاء » انما يوجد فى أشعارهن وأشعارهم (٤٤) ، الأمر الذى يقف بتلك الشهادة دون ما يمكن للرجل عنده من الطبع ومن قوته .

---

(٤٠) رسائل أبى العلاء ٦٥ .
(٤١) المرجـع السابق ٩٠ .
(٤٢) رســالة الغفران ٥٨٠ .
(٤٣) انظر : النقد واللغةفى الغفران ٤١،والغفران دراسة نقدية٢٥٩ .
(٤٤) الفصول والغايات ٣٦/١ .
والاكفاء : اختلاف حرف الروى فى نفسه .

فالطباع عنده اذن مختلفة فى قوة الابداع ، وهى كذلك أيضا فى نوع ما تبدع ، لا يكاد يتفق اثنان منها فى ذلك . فاذا ذكر ابن القارح من مصادره فى عيبه للمتنبى كتابا اجتمع على تأليفه اثنان ، تعجب أبو العلاء من اجتماعهما ، وأخذ فى نقض هذا الاجتماع ونحوه ، لنقض ما نسب اليه ، ونحوه عنده قصة الخالديين اللذين كانا فى الموصل ، وهما شاعران ، وقد كانا عند سيف الدولة ، وانصرفا على حد مغاضبة ، ولهما ديوان ينسب اليهما ، لا ينفرد فيه أحدهما بشىء دون الآخر الا فى أشياء قليلة ، وهذا متعذر فى ولد آدم ، اذ كانت الجبلة على الخلاف وقلة الموافقة (٤٥) .

ولئن كان للآمدى ـ فيما ذكروا من مصنفاته ـ (كتاب فى أن الشاعرين لا تتفق خواطرهما) (٤٦) مما يعنى سبقه الى تقرير هذا الخلاف = لقد كان أبو العلاء على فرض اتباعه له محسنا بقوة عرضه واحتجاجه .

والعقل : ليس غريبا من أبى العلاء أن يعده من قوى الابداع ، بل أن يعتمد عبارة أبى تمام فى ذلك : « ولكنه ـ أى الشعر ـ صوب العقول» على عمومها ، لانه كما أسلفنا يعد العقل مصدر المعرفة الأول ، والقيم على مصادرها الأخرى . ولعل فى هذا الاعتداد ما يفسر لنا ذلك العموم ، فحيث لا يريد المعرى قطعا أن العقل وحده مصدر الشعر ، لما ذكر من مصادره الأخرى ، ولعلمه أن كثيرا من العقلاء غير المطبوعين لايستطيعون نظم بيت = يبقى من دلالة هذا العموم **أولا** : زيادة التأكيد لمكانة العقل بين قوى الابداع . **وثانيا** التقرير لسيطرته على قوى الابداع الأخرى مادام هو مصدر الادراك الأول ، تلك السيطرة التى نلحظ أثرها فى موقفه الآتى من الخيال ..

واذا كان العقل عقلين : فطرى وهو الاستعداد الادراكى العام ،

---

(٤٥) رسالة الغفران ص ٤٢٤ .

(٤٦) الفهرست ص ٢٢٧ .

ومكتسب وهو محصلة الخبرات والتجارب والمعارف = فالظاهر أن أبا العلاء ـ وان لم يصرح ـ كان يعنيهما معا ، ويعنى أن الشاعر ينبغى أن يكون ذا حظ منهما يتفق مع موهبته وتتحقق به تلك السيطرة ، لأن هذا هو الذى يتفق مع ايمانه به وصدوره عنه فى معظم نظمه .

والخاطر : الذى هو أساسا ما يخطر بالقلب من تدبير أمر ، أو ما يحصل فيه من الأفكار على سبيل التجدد أو التذكر (٤٧) = يقع عند أبى العلاء من قوى الابداع موقع (الخيال) عندنا الآن ، فقد نسب اليه ما نُسب الى الخيال من تأليف الصور وتوليدها ، ونوه بأثره فى الابداع برسالة الاغريض ، حيث يقول عن خاطر المغربى وأثره فى شعره :

« ما أنفسه خاطرا امترى الفضة من القِضة ، والوصاة من مثل الحصاة ، وربما نزعت الأشباه ، ولم يشبه المرء أباه ، ولا غرو : لذلك الخضرة أم اللهيب ، والخمرة بنت الغربيب . وكذلك سيدنا ولد من سحر المتقدمين ، حكمة للحنفاء المتدينين ... أين مشبهو الناقة بالفَدَن ، والصحصح برداء الرَّدَن ، وجب الرحيل عن الربع المحيل (٤٨) » ..

الا أن هذا التنويه بأثر الخاطر ـ أو الخيال ـ فى الابداع قد خفت أو تلاشى فى عزلته ، اذ وجدناه فى مطلعها ـ لغلبة الطابع العقلى والفلسفى عليه ـ يرفض الشعر ، أو يرفض منه ما استجيز فيه الكذب ،

---

(٤٧) انظر المصباح المنير مادة : خطر ، واحياء علوم الدين ٨/١٣٨٥ ط دار الشعب .

(٤٨) رسائل أبى العلاء ١٦ ، ١٧ وامترى : استخرج القضة : الحصى الصغار . والوصاة : النبات المتصل ، والنخلة الصغيرة . ونزع الى أبيه : أشبهه ، ونزعت الأشباه هنا : مالت عن أصلها . لاغرو : لا عجب ، والغربيب : العنب الأسود . الفدن : القصر ، الصحصح : الارض الواسعة . والردن : الخز .

واستعين على نظامه بالشبهات (٤٩) ـ أى التخيلات ـ مقررا فى الاعتذار عن غلوه فى السقط : « أن الشعر للخلد مثل الصورة لليد ، يمثل الصانع مالا حقيقة له ، ويقول الخاطر مالو طولب به لأنكره » (٥٠) . حتى اذا نظم اللزوميات بعد هذا الرفض ، توخى فيها ـ كما قال ـ صدق الكلمة ، ونزهها عن الكذب والميط ، مقررا « أن من سلك هذا الاسلوب ضعف ما ينطق به من النظام ، لأنه يتوخى الصادقة ، ويطلب من الكلام البرة .. ويروى عن الأصمعى كلام معناه : ان الشعر باب من أبواب الباطل ، فاذا أريد به غير وجهه ضعف ، وقد وجدنا الشعراء توصلوا الى تحسين المنطق بالكذب ، وهو من القبائح ، وزينوا ما نظموه بالغزل وصفة النساء ، ونعوت الخيل والابل ، وأوصاف الخمر ، وتسببوا الى الجزالة بذكر الحرب ، واحتلبوا أخلاف الفكر ـ وهم أهل مقام وخفض ـ فى معنى مايدعون أنهم يعانون ، من حث الركائب ، وقطع المفاوز ، ومراس الشقاء » (٥١) .

والى هذا التحول نظر بعض المعاصرين (٥٢) ، فقرر « أن الخيال لم يكن من ملكات المعرى التى اشتهر بها ، ولم يكن هو نفسه يحب أن يوصف بالقدرة عليه ، بل لعله كان يكره أن ينسب الى أهله ، ويراه منافيا للصدق مخالفا للأمانة فى القول ، ويحسب المحاسن المتخيلة من باطل الزخرف ولغو الكلام . وكأنه كان يريد أن يبرأ من الخيال حين قال فى فاتحة لزومياته : « كان من سوالف الأقضية ، أنى أنشأت أبنية أوراق ، توخيت فيها صدق الكلمة ... » الى آخر ما سقنا من أقواله . فالمعرى ـ فى رأيه ـ كان ينكر أن يصف شيئا لا حقيقة له من الحس ، ويأبى على

(٤٩) لزوم مالا يلزم ١/٣١ .

(٥٠) شروح السقط ١/١٠ والخلد : القلب .

(٥١) لزوم مالا يلزم ١/٩ ، ٣٢ . والميط : الجور والبعد . والأخلاف: جمع خلف ـ بكسر الخاء ـ وهو حلمة الضرع .

(٥٢) العقاد فى : مطالعات فى الكتب والحياة ص ٧٩ ، ٨٠ الطبعة الأولى .

الشعراء أن يتقولوا بما لا يعانون ، ويتوصلوا الى تحسين المنطق بالكذب، وتزيينه بالغزل والحماسة ..

ولا أظنى أتفق معه الا فى شىء واحد ، هو ما ذكر أن المعرى أنكره على نفسه وعلى الشعراء . ثم أختلف معه بعد ذلك فى أمور .

منها : أن هذا الانكار لم يكن كما توهم عبارته عاما فى حياة المعرى كلها ، انما كان فقط بعد ما اعتزل ، وعندما رفض من الشعر ما رفض ، كما يبدو من أقواله السابقة .

ومنها : أن هذا الذى أنكره المعرى على نفسه وعلى الشعراء من كاذب الخيالات والأوصاف = ليس كما نعلم كل مادة الخيال الشعرى وآثاره ، بل لايزال هناك من الخيالات والأوصاف التى لم ينكرها المعرى ، ما برىء من الكذب ، مما له واقع فى الحس ، أو فى معاناة النفس ، وفى اللزوميات من ذلك ـ على قلته بالنسبة الى حجمها ـ كثير ، كقوله منها :

تَوَقَّوْا سبيل الغانيات فكلُّها كليْثِ الشَّرَى والطِيبُ فيها فرانِق(٥٣)

* * *

رأيت الحقَّ لؤلؤةً تـوارتْ بلُجٍّ من ضلال الناس جَمٍّ(٥٤)

* * *

ومغفـرةُ الله مَرْجـوَّةٌ إذا حُبِسَتْ أعظمى فى الرِّمَمْ

مُجاورَ قوم تمشَّى القَنـا ما بين أقدامِهِم والقِمَمْ(٥٥)

---

(٥٣) اللزوميات ٢/١٢١ ، والليث : الأسد ، والشرى : موضع بعينه تأوى اليه الأسد . والفرانق : سبع يصيح بين الأسد كأنه ينذر الناس به .

(٥٤) المرجع السابق ٢/٣٢٠ . واللج : معظم الماء . وجم : أى كثير .

(٥٥) المرجع السابق ٢/٣٣٨ .

ولا ندرى ماذا كان منه فيما ضاع من شعره ، على أن فى نقـــده ـ وسيأتى ـ من الشواهد على استحسانه اياه أيضا الكثير . وهذا وذاك دليل. على أن فى قوله الســـابق عن المعرى : « ويحسب المحاسن المتخيلة من باطل الزخرف ولغو الكلام » عمومـا غير صحيح ، لأن المحاسن المتخيلة الصادقة عنده ليست من باطل الزخرف ولغو الكلام .

ومنها : قطعه بأن الخيال لم يكن من ملكات المعرى التى اشتهر بها ، وأنه لم يكن يحب أن يوصف بالقدرة عليه . فأين هو اذن من «سقط الزند» وما فيه من ابداع وخيال وغلو اضطر صاحبه أن يعتذر منه ؟ بل أين هو من قوله فى هذا السقط :

وإنى وإنْ كنتُ الأخيرَ زمانُهُ ... لآت بما لم تستطعه الأوائل

أقائل هذا لم يكن يحب أن يوصف بالقدرة على الخيال ، على الأقل، حين قاله ، أو قبل أن يرفض الشـــعر ؟ ، وسقط الزند ـ كمـا بينت فى الفصل السابق (٥٦) ـ قد أنشأ المعرى الا قليلا جدا قبل أن يرفض من الشعر ما رفض ..

ولئن كان أبو العلاء قد فقد بفقد بصره وسيلة هامة من وســـائل الادراك والتصور = لقد كان له من حواسه الأخرى ، وذاكرته الفذة ، ووعيه القوى ، وثقافته الواسعة ، ما أمد خياله بالغزير من الصور الحسية والمعنـــــوية .

والذى نخلص اليه من ذلك كله : أن أبا العلاء بما رفض من الشعر والأخيلة قد ضيق مجال القول على نفسه وعلى الشعراء الى حد ما ، مما سيتضح أكثر فى تقويمه للنص .

لكنه مع ذلك لم يلغ أثر الخاطر أو الخيال فى الابداع الغاء تاما ـ بل لا يزال يعترف بأثره فيه ، ولهذا الاعتراف عنده مظاهر :

---

(٥٦) انظر ص ٨٠ .

أولها : حكمه على شعر اللزوميات بضعف النظام ، لأنه لم يجر فيه مع الخاطر الى غايته ، بل اقتصر منه على الصادق البار (٥٧) .

ثانيها : تعليقه فى (الغفران) على سرعـــة خاطر ابن القارح فى مجال البديه الذى أنكـره المغربى = بأنه لا عجب أن يأتى الشىء من أهله : « وهل يعجب لسجعة من قُمرى ، أو قطرة تسبق من الســـحاب المرى ... والبديه ينقسم أفانين ويصرف للنفر أظانين :

فمنه القَبَل : ولعله فيه أجرى من سبل ، أو هو السبل . والمراد بسبل : الفرس الأنثى المعروفة ، والسبل : المطر .

وبديه التمليط : ولا تجود الراسية بالسليط .

وبديه الاعنات : وذلك الموقظ من السنات ، وهو يختلف كاختلاف الأشكال ، ولا ينهض به ذوى الوكال » (٥٨) .

فان هذا التعليق فضلا عما يدل عليه من تفاوت الخواطر فيمـــا يضطلع به كل منها من أنواع البديه = ينبىء عن اعتداد المعرى بالخاطر القوى ومزيته فى مجال التنافر الشعرى ، ذلك المجال الذى تجرد هو له من صغره ، حين اقترح « المقافاة بالشعر » على الحلبيين الذين جاءوا لاختبار ذكائه ، وحين اقترح عليه أبو الطيب الطبرى الاجابة عن لغزه ارتجالا عند وروده بغداد (٥٩) .

---

(٥٧) لزوم مالا يلزم ١/٩ ، ٣١ .

(٥٨) رسالة الغفران ٥٤٧ ..

القمرى : ضرب من الحمام . المرى : الغزير الماء . الأظانين : جمع ظن على غير قياس . والنفر هنا : الغلبة . والقبل : الارتجال . والتمليط أن يقول الشاعر مصراعا ويقول للآخر : أملط ، أى أجز المصراع الثانى . والراسية : واحـــدة الرواسى ، وهى الجبـــال الثوابت والقدر الثابتة . السليط : الزيت .. الاعنات: تكليف غير الطاقة . والوكال : الضعف والبلادة .

(٥٩) تعريف القدماء بأبى العلاء ٥٥٨ ، ٢١٢ .

والمقافاة : مطارحة الشعر على قافية واحدة ..

وثالثها : استحسانه ما استحسن من قصـــائد وأبيات فى الغفران ، لا نعرضها لكثرتها ، بل نشير الى مواقعها (٦٠) ، وأكثرها لم يستحسنه ـ فى الواقع ـ الا بما فيه من أوصاف وخيال ، مما يمثل اعتداده بأثر الخيال من ناحية ، وتطور موقفه من الشعر ـ بسبب هذا الاعتداد ـ من ناحية أخرى . فاذا كان هذا الموقف رفضا مطلقا للشـــعر فى مطلع عزلته ، كما قال فى مقدمة السقط ، ثم تخصيصا لهذا الرفض بما استجيز فيه الكـذب ، واستعين على نظامه بالشـــبهات ، كما قال فى مقدمة اللزوميات = فان ذلك الاستحسان فى الغفران كان تطبيقا واضحا على هذا التخصيص .

والعلم : من ارجاعه القوة الناظمة لسـليم الأوزان والقوافى عنـد النكتى الى طبعه القوى وعلمه الجم = نفهم أمرين :

أولهما : أن العلم ـ أو الثقافة ـ من أهم مصادر الشعر الجيد وأدواته، يعنى العلم الجامع بين علوم اللغة والأدب ، والدين والدنيا ، لأنه هـو الذى يتفق مع ما وصف به النكتى من علم جم ، بعد ما ذكر من علمه بتفسير كتاب الله ولغة رسوله وعروض الشعر وقوافيه .

وثانيهما : أن سلامة أوزان النكتى وقوافيه لم تكن بعلمه الجم وحده ، بل به مع طبعه القوى ، وهذا يعنى ضرورة الجمع بينهما ، وضـــعف الاعتماد على أحدهما . ولعلنا نثق بهذا أكثر ، اذا تأملنا بحثه الطريف عن كيفية نظم النكتى شعره الجيد (٦١) : أيعرض أفانين القريض على ضروب الأعاريض ، أم يقولها بغريزة غير مؤتشبة النحيزة (٦٢) ، فان كان يبنى البيت كما بناه أهل الجاهلية بطباع ، لايعرف مكان توجيه يذكرولا

---

(٦٠) انظر الغفران : ٢٤١ ، ٢٦٣ ، ٢٧٧ ، ٣٢٥ ، ٣٢٨ ؛ ٣٣٣ ، ٣٣٨ ، ٣٤٤ ، ٣٥٦ .

(٦١) رسائل أبى العلاء ص ٦٧/٧٥ .

(٦٢) مؤتشبة : مختلطة أو غير صريحة . والنحيزه : الطبيعة .

اشباع ، فكيف سلم من عيوب الوزن والقافية التى لم يسلم منها فحولهم ــ ممن ذكر المعرى ــ ، وان كان يقول الشعر بقياس العروض ، فكيف تفرع ــ أى ركب ــ هذه الأوزان التى هى سليمة قويمة ــ من طويل وكامل ووافر ــ ولم يجر عليه ما جرى على رزين العروضى (٦٣) ، لما مدح الحسن ابن سهل بقصيدته الكافية التى أولها :

قَرَّبُوا جِمالهم للرَّحِيل غُدْوَة أَحِبَّتُك الأَقْرَبُوك

ولأنه قد سلم من عيوب الفريقين صح أن يكون كما قرر المعرى قد جمع بين فضيلتيهما : « طبع كالبحر الخضم ، وعلم اكتسبه جم » .

البراعة والفكر والانتقاد : نفهم أهمية الأولى من قوله السابق عن بعض الشعراء : « وقد كان عمل قصيدة على الراء ، تعاونت عليها فضيلتاه الغريزة المهذبة ، والبراعة المكتسبة » ، كما نفهم أهمية الأخيرين عن قوله عن معانيه :

وهـذَّبَهُنَّ فكـرٌ وانتقـادُ

وانما جمعنا بين ثلاثتها هنا ، لا لتقائها الظاهر فيما تضطلع بـه ويصدر عنها ، وهو التهذيب أو الصنعة كما نسميها ، اذ البراعة عموما : تعنى التفوق فى العلم وغيره (٦٤) ، فهى هنا التفوق فى صنعة النظم ، والفكر : بمعنى النظر والتأمل ، والانتقاد : بمعنى التمييز والانتقاء = كلاهما بنص عبارته للتهذيب .

والتقاؤها على ذلك يعنى أنها من عوامله الهامة ، التى ينبغى أن

---

(٦٣) هو رزين بن زند ورد العروضى ، شاعر صاحب عروض كان ينزل بغداد ، ترجمته فى الورقة ٣٤/٣٧ .

(٦٤) القاموس المحيط مادة « برع » .

تتهيأ للشاعر ، وأن يصدر عنها بالاضافة الى ما سبق ، لاسيما الطبع والعلم ، اذ كانا ـ كما رأينا ـ أساسا ومصدرا لنظم النكتى القويم السليم . كما يعنى أن التهذيب من ملامح الفن الهامة التى ينبغى التصدى لها وتحصيلها عند أبى العلاء ، ولعلهكان أهم عنده ممايقابله ، وهو «البديه» ، اذ على الرغم من ذكره السابق له وتمييزه بين أنواعه واعجابه بأصحابه = يبدو أشد اعجابا بما أبدعوه عن ترو وتهذيب منه بما أبدعوه مرتجلين ، فأبو تمام ـ وهو صاحب بديهة قوية ، ومذهب فى التروى والصنعة عرف به ، وكلاهما فيه ذائع مشهور ـ لم يستلفت أبا العلاء ببديهته كما استلفته بصنعته ، حين تأسف عليه فى (الغفران) : « أن يظل جسده وهو بالموقدة صال ، فانه كان صاحب طريقة مبتدعة ، ومعان كاللؤلؤ متتبعة . » (٦٥) على أن فى هذا القول ـ عن أبى تمام ـ اشارة أخرى من المعرى الى أن الصنعة ليست للشكل فقط ، بل له والمعانى أيضا .

واذا كانت الصنعة ملاك النظم عنده على هذا النحو فكيف تتهيأ البراعة فيها وهى ـ كما أشار ـ براعة مكتسبة ؟

انها كما يبدو من تلك الاشارة لن تكون بمجرد الاستعداد الفنى والعقلى ، ولا به مع مجرد العلم واعمال الفكر والذوق ، انما تكون كما أومأ فى موضعين من كلامه بممارسة النظم ورياضته ، عن هذه القوى جميعها ، على استقلال ، أو مع التلقى والتلمذة ، وهما لاشك أجدى .

وأول الموضعين : قوله السابق عن أبى القاسم المغربى « وخصه بارئه ـ تقدست أسماؤه ـ بطبع راض صعاب الأغراض حتى ذللها ، وأبس بوحوش اللغات فأهلها . »

وثانيهما : قوله لابن القارح عن ابنة أخته « ويجوز أن يكون ـ وشح

---

(٦٥) رسالة الغفران ص ٤٨٨ . والموقدة : نار جهنم ، وصال : أى محترق ، من صلى بالنار ، أى احترق .

الي هدفه المرأة شيء من آداب الخئولة ، فليتق معرة بيانهـا أكثر من اتقائه خلسة بنانها ... فهو يعلم أن الشعر ورثه زهير بـ نأبى سلمى من خاله بشامة بن الغدير ، ولم يكن فى مزينة شعر يذكر ، وحضره زهير عند الوفاة ، فأراد أن يعطيه شيئا من ماله ، فقال بشامة : أما يكفيك أنى ورثتك غرائب القصيد » (٦٦) ٠

فراض صعاب الأغراض حتى ذللها ـ فى الأول ـ تعنى أن قدرة المغربى على التصرف فى شتى الأغراض لم تكن الا بعد ممارسة شاقة ورياضـــة متصلة ٠٠

ووراثة زهير الشـــعر عن خاله ـ فى الثانى ـ لم تكن الا تلمذته عليه وتلقيه عنه من الشعر ما لم يجده عند قبيلته ، حتى استطاع أن يأتى منه بغرائب القصيد ٠

٣ ـ من الفكر الخلى والميل القوى :

وأما ما ينبغى للشاعر من مثيرات وظروف تهيئه للانتاج الجيد فقد نظر المعرى منها الى ضربين :

أولهما : خلو الفكر من الهموم ، ذلك الخلو الذى افتقده حينـــا وهو فى بغداد ، وافتقد معه من التهيؤ للنظم والابداع فيه ما ضمنه قوله فى تهنئته بمولود :

وَلَوْلَا مَا تُكَلِّفُنَا اللّيَالِي   لطال القولُ واتَّصل الـرَّوِىُّ
وَلكنَّ القريضَ لـه مَعَـــان   وأَوْلَاها بهِ الفِكْرُ الْخلِيُّ (٦٧)

أى لولا حوادث الزمان التى تقسم البال ، وتمنعنا من أن نتسع فى المقال ، لكانت التهنئة أمد اطنابا ، وأرحب جنابا ، ولكن الشعر بمعانيه

---

(٦٦) رسالة الغفران ص ٥٨٠ ٠
(٦٧) شروح السقط ٤/١٣٣٠

التى تستوجب النظر والتأمل لا يصلح له الا الفكر الخلى من الهموم ، والقلب الذى لم تشغله عوارض الغموم . (٦٧)

ذلك أن عوارض الهموم والغموم ، اذا شغلت الفكر والقلب ، قل تركيز الشاعر وخلوصه لما يتصدى له . وقد أدرك الشعراء ذلك من قديم ، حتى كان من وصية أبى تمام للبحترى : « تخير الأوقات وأنت قليل الهموم صفر من الغموم » (٦٨) .

وثانيهما : قوة الميل والحب للمخاطب بالشعر ، مما أشار اليه فى قوله لبعض ممدوحيه :

تَذُودُ عُلَاكِ شُرَّادَ المعانى ... إلىَّ فمن زهيرٌ أو زِيادُ
إذا مَا صِدتها قالت رجال ... ألم تكن الكواكب لا تُصاد
ولولا فرطُ حبك ما ازدهانى ... إلَى المدحِ الطَّرِيفُ ولا التِّلَادُ (٦٩)

فقد جعل حبه للممدوح دافعه الى مديحه ، لا الطمع أو الرغبة فى ماله . وجعل مكارمه ومعاليه تجمع اليه ماشرد من المعانى على الشعراء .

ولئن كان فى الضرب الأول يحدث عما عرف وتردد من قبله ، لقد كان فى الثانى يشير الى مثير خاص ، لعله لم يشتهر قبله فى مجال المديح ، اذ كان أكثره مما دفع اليه التكسب والارتزاق ، لا الحب والاقبال .

فان قلت : ان أبا العلاء مسبوق فى أكثر ماذهب اليه عن مصدر الشعر الجيد .

---

(٦٧) شروح السقط ١٣٢٩/٣ ، ١٣٣٠ .
(٦٨) العمدة ١١٤/٢ . وصفر : أى خال . والغموم : جمع غم ، وهو الكرب والحزن .
(٦٩) المرجع السابق ٣٢١/١ — ٣٢٤ ازدهانى : استخفنى .

قلت : هذا حق ، اذ قل أن نجد ناقدا قبله لم يكن له كلام فى ذلك ، مما أشرت الى بعضه ، وأشير هنا الى أجمع أقوالهم فيه وهو قول أبى الحسن الجرجانى : « الشعر علم من علوم العرب ، يشترك فيه الطبع والرواية والذكاء ، ثم تكون الدربة مادة له وقوة لكل واحد من أسبابه ، فمن اجتمعت له هذه الخصال فهو المحسن المبرز ، وبقدر نصيبه منها تكون مرتبته من الاحسان » (٧٠)

لكننى على الرغم من هذا السبق أقرر أن أبا العلاء – فى اطار ماعرضت من أقواله – كان أشمل نظرا ، بالتفاته الى أكثر ما سبق اليه ، كما كان أروع تناولا ، بعرضه ما عرض منه أو أكثره فى هذا الاطار التطبيقى الطريف ، حتى ليصعب علينا أن ننسب هذه الآراء الى غيره ، أو ننكر مزيته فى عرضها ، وجدته فى أكثرها .

ولعلنا لا نسرف اذا قلنا : انه بها يقرب كثيرا من نظرتنا الحديثة الى مصدر الابداع ، تلك النظرة التى استفادت كثيرا من الجديد فى ميدان علم النفس والتحليل النفسى ، وكان مجمل ما وصلت اليه = أن عوامل الابداع لابد فيها من قوى الفطرة والكسب ، أى لابد للأديب والشاعر من استعدادات خاصة للادراك الحسى والتصور والتخيل والابداع ، ومن ذكاء عام ودوافع حافزة من ميول وغرائز ، ثم لابد لهما – مع هذه الاستعدادات والدوافع – من الثقافة والدربة واعمال العقل . (٧١)

---

(٧٠) الوساطة بين المتنبى وخصومه ص ١٥ .
(٧١) انظر : شياطين الشعراء ص ١١ ، ٢١ .

الاتجـــــاه الثانى

تحقيق النصــــــوص

اذا كان أبو العلاء ـ فيما أجملت من نقده للنص الأدبى أول هذا الفصل ـ قد تعرض لأهم ما تعرض له السابقون من جوانبه ، ان لم يكن لجميعها ، فانه أيضـا قد تناول ذلك بروح علمى قويم ، حين توخى تحقيق النص قبل تحليله وتقويمه أو من أجلهما ، بالنظر فى نسبته الى قائله ، وفى متن عبارته ، لتمييز صحيحهما من زائفهما ، اذ كان ذلك وما زال أولى خطوات النقد وأساسه السليم (١) ، ليس فقط لما يجنبنا من خطأ الحكم على الشاعر بما لم يقله وفيه من الظلم ما فيه ، بل أيضا لما يجنبنا من خطـــأ الفهم للنص ، عند الجهل بقائله وعصره ، وعند اضطراب متنه بتصحيف أو تحريف .

على أن هذا التحقيق عنده لم يكن شيئا عابرا أو قليلا كما كان عند كثير من سابقيه ، بل كان اتجاها أصيلا لا يقل فى حيزه وأصـالته عن اتجاهاته الأخرى ، اذ كان كما رأينا فى الفصل الأول ـ (٢) أول ما نزع اليه من النقد ، وكما رأينا فى الفصل الثانى ـ (٣) من أظهـــر اتجاهاته النقدية فى شروحه ورسائله وما روى عنه ... وكما ســنرى هنا ـ مجالا للنظر فى النسبة والمتن معا من جهة ، ولتعقب أعلام الرواية والتعليم فيهما من جهة أخرى ، ولاستيعاب النص الجاهلى والاسلامى والمحدث الى عهده بهذا النظر من جهة ثالثة ، حتى غدا فى ذلك كله

---

(١) *النقد المنهجى عند العرب* ص ١٧، ٩٩ ، وفى *النقد الأدبى* ص١١٩.
(٢) انظر : ص ٣٠ .
(٣) انظر : ص ٩٣ ، ٩٧ ، ١١١ ، ١٢٤ .

موضع الثقة من معاصريه (٤) ، وممن بعدهم الى اليوم (٥) .

أما كيف بلغ هذه المكانة فى التحقيق ، فالظاهر أنه صادف التراث الأدبى والشعرى فى عصره لا يزال عرضة للوضع والنحل والتصحيف والتحريف ، وهو صاحب الذوق المرهف ، والثقافة الواسعة ، والكلف الزائد بالحق ، والاضطلاع بتدريس اللغة والأدب عن دراية فائقة ، بل هو المبتلى فى أدبه بالنحل والتصحيف كيدا وحسدا = اذ كان ذلك كله فى الواقع من أقوى البواعث لصاحبه على التحقيق والتمحيص .

ولما كان مجال هذا الاتجاه هو النص ، من حيث نسبته ومتنه = رأيت لعرضه هنا أن أفرد كلا منهما بتناول خاص .

---

(٤) من ذلك — فى توثيق نسبة النص — : ما ذكروا من أن أحد طلبة العلم فى اليمن ، وقع اليه كتاب فى اللغة سقط أوله ، وأعجبه جمعه وترتيبه ، فلم يزل يلقى به الأدباء ، ولا يجد من يعرفه أو يعرف صاحبه ، حتى دل على أبى العلاء ، فخرج اليه ، وما ان قرأ عليه شيئا منه حتى دله على اسمه واسم مصنفه ، وأملى عليه ما سقط منه وقيل ان هذا الكتاب هو «ديوان الأدب» للفارابى اللغوى .. (تعريف القدماء ص ٥٦٠ بايجاز) .

ومنه فى تحقيق المتن : ماذكروا من أن الخطيب التبريزى حصلت له نسخة من « تهذيب اللغة » للأزهرى ، فأراد تحقيق مافيها وأخذها عن عالم باللغة ، فدل على أبى العلاء ، فجعل الكتاب فى مخلاة وحمله من تبريز الى المعرة ، وهناك قرأه — كما قرأ غيره — عليه ..... تعريف القدماء ص ٣٧٤ .

(٥) من الشواهد النادرة على ذلك الآن : ما كان من اعتداد الشيخ الدكتور محمد الحبيب بن الخوجة ، عضو المجمع اللغوى المصرى عن تونس بأسانيد شيخه وسلفه الشيخ محمد الفاضل بن عاشور ، التى تلقاها ورواها عنه فى الحديث والشريعة والأدب ، والتى عد منها — وهو ما نعنيه — سنده لديوان الحماسة فقال : « ومن ذلك سنده الذى نروى به ديوان الحماسة ، من طريق أبى العلاء المعرى ، أعلم أهل عصره به ، عن أبى عبد الله النمرى ، عن أبى رياش عن عبد السلام البصرى ، عن أبى المطرف الأنطاكى ، عن أبى تمام » — فى المؤتمر ٣٨ جلسة ٧ ، ١٤ من فبراير ١٩٧٢ — وهى سلسلة مشهورة فى رواية الحماسة أشرنا اليها عند حديثنا عن « الرياشى المصطفى » فى الفصل السابق .

كان مداره عند أبي العلاء ـ كما كان عند سابقيه ـ على الشك فى هذه النسبة ، اما لافتعالها بالوضع أو النحل أو الانتحال ، واما للغلط فيها وهو قليل كما سيأتى .

ولما كان الافتعال والغلط هنا من الظواهر الأدبية العامة التى لم يختص بها عصر دون عصر ، ولا جيل دون جيل ، حتى لقد عرفهما العصر الجاهلى ، وأشار اليهما فى بعض أشعاره وآثاره (٦) ، كما عرفهما ما بعده من العصور الى اليوم = يمكننا أن نطمئن الى قدم هذا النظر وامتداد جذوره فى ذلك الماضى البعيد .

لكنه على الرغم من قدمه وامتداده ، لم يتسع ولم يعمق الا فى القرنين الثانى والثالث الهجريين ، اللذين قويت فيهما حركة الجمع والتدوين للغة والأدب ، هنالك فقط بلغ النظر فى نسبة النص وسنده أقصى ما وصل اليه قبل أبى العلاء ، بفضل من اضطلع بذلك من العلماء الرواة ، أمثال أبى عمرو بن العلاء وحماد الرواية ، ثم المفضل الضبى وخلف الأحمر ، من رجال الطبقة الأولى ، والأصمعى وأبى زيد وأبى عبيدة وأبى عمرو الشيبانى ، ثم ابن الاعرابى ومحمد بن حبيب وأبى حاتم وابن سلام الجمحى ، من رجال الطبقة الثانية (٧) ، اذ كان لهم فى تحقيق صحة النسبة ما بقى أكثره أساسا صالحا لمن بعدهم الى اليوم ، فيما يؤخذ وما يترك من الروايات ، بل كان لابن سلام خاصة فى هذا التحقيق ما لم يكن لأحد منهم ، وان استفاد من بعضهم ، حيث بين فى مقدمة كتابه (طبقات فحول الشعراء) **أهميته وضرورته :** لما كان من وضع الشعر ونحله بفعل العصبية بين القبائل من جهة ، وتزيد الرواة من

(٦) انظر : مصادر الشعر الجاهلى ص ٣٢٣ ــ ٣٢٥ .
(٧) المرجع السابق ص ٢٥٢ ، ٢٦٨ .

جهة آخرى (٨) ، كما بين ملامح الشعر الموضوع ـ من ضحالة المعنى ، وضعف الاسناد (٩) ـ ، والأساس فى نقده ـ من الذوق المثقف الخبير ، واجماع العلماء من الرواة ـ (١٠) ثم أكثر من التطبيق على هذا الأساس فيما بعد المقدمة من فصول كتابه ..

فاذا أضفنا الى مقياسه فى التحقيق مقياسا آخر لمعاصريه ، هو وجود الشعر فى ديوان الشاعر ـ أو ديوان القبيلة ـ الذى دونه الثقات من العلماء الرواة = نكون قد أحطنا بخلاصة مقاييسهم فى ذلك .. (١١)

وبعد ابن سلام لا نجد لهم من النظر فى نسبة النص الا تطبيقات تقل وتكثر تبعا لمدى هذا النظر عند كل منهم . فاذا تأملنا ماوجدنا منه لأبى العلاء ألفينا له من روعة العرض وسعة التناول مالم يجتمع قط فيما نجد لسابقيه .

فروعة العرض واضحة فى (رسالة الغفران) ، تلك الرسالة التى استأثرت من هذا الجانب بأكثره ، وكان لأسلوبها ـ من الحوار والسخرية ـ مابلغ الغاية فى اثارة الحس وتقبل النفس لما تضمنته .

وسعة التناول ليست فقط بما تعرض له من أشعار مشكوك فى نسبتها ، وهى كثيرة ، بل أيضا بما اتجه اليه ، من نفى النسبة فى بعضها ، واثباتها فى آخر ، والنفى والاثبات فى ثالث ، والتوقف عن ذلك فى رابع . اذ كانت هذه الاتجاهات فى الواقع جماع ما يمكن من وجوه النظر فيها ، لولا ماشابها أحيانا من تداخل واختلاط تعذر معهما العرض المستقل لبعضها ..

---

(٨) انظر طبقات فحول الشعراء ص ٣٩ ، ٤٠ .
(٩) المرجع السابق ص ٥ ، ٦ .
(١٠) المرجع السابق ٦ ، ٨ .
(١١) مصادر الشعر الجاهلى ص ٤٦٨ ، ٤٦٩ .

فنفي النسبة أو انكارها : . . . . .

اكثر صور هذا النظر ، وهو نوعان : ماترك تعليله ، وما علله .

اما ماترك تعليله فكرأيه فى شعر الجن الذى أشرنا اليه فى الاتجاه الاول ، حيث يقول للنكتى فى سياق الحديث عن مصدر شعره : « أما الجن فقد ورد عنها ما يعلمه ، منه أن كثيرا من أصحاب الحديث رووا أن الجن ناحت على عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقالت :

قَضَيْتَ أُمُورًا ثُمَّ خَلَّفْتَ بَعْدَهَا بَوَائِجَ فِى أَكْمَامِهَا لَمْ تَفَتَّقِ

فزعموا أن هذه الأبيات سمعت قبل قتل عمر ، وهى فى (الحماسة) منسوبة الي الشماخ . وقد ذكر رواية أصحاب الحديث ابن قتيبة فى كتابه الموضوع لغريب حديث النبى ﷺ والصحابة ، وروي أصحاب السير أن سعد بن عبادة مال الى سباطة قوم فبال ثم مال ميتا ، وأن الجن قالت :

قَتَلْنَا سَيِّدَ الخَزْرَجِ سعدَ بن عُبَادَهْ

رميناه بسهمين فلم نُخْطِئ فُؤادَهْ

فى أشباه لهذا لا تحصى » (١٢) .

وحيث يقول للجنى الخيتعور فى (الغفران) على لسان ابن القارح: « أخبرني عن أشعار الجن ، فقد جمع منها المعروف بالمرزبانى قطعة صالحة ، فيقول ذلك الشيخ - الجنى - : انما ذلك هذيان لا معتمد عليه ، وهل يعرف البشر من النظيم الا كما تعرف البقر من علم الهيئة ومساحة

---

(١٢) رسائل أبى العلاء ص ٦٦ والبوائج : جمع بائجة : وهى الداهية ، الأكمام : جمع كم ، وهو وعاء الطلع وغطاء النور ، وسباطة القوم : كناستهم .

الأرض ؟ وانما لهم خمسة عشر جنسا من الموزون قلما يعدوها القائلون ، وان لنا لآلاف أوزان ما سمع بها الانس » . (١٣)

فمع اقتصاره فى النص الأول على الاخبار دون اقرار ، وعلى الشك فى المروى ، بأنه زعم أو له نسبة أخرى = نراه فى النص الثانى يصرح بأن ماجمعه المرزبانى هذيان لا معتمد عليه ، دون تعليل لشكه فى الأول ، ولرفضه فى الثانى ، لكن تعريض خفى برواة هذا الشعر من أصحاب الحديث والسير ومن أخذ عنهم ، وسخرية صريحة من الشعر نفسه ، تجعله وشعر البشر هذيانا ، ودون ما للجن ، مما لم يسمع به الانس ، ومما أنشد هو منه وضعا ونحلا ، على لسان ذلك الجنى ، قصيدتين طويلتين ، احداهما فى توبته ، والأخرى فى قصة الرجم ، وقد برع فى اختيار معانيهما وألفاظهما ، حتى كأنهما لجنى فعلا . ومطلع الأولى :

حَمِدْتُ مَنْ حَطَّ أَوْزَارى وَمَزَّقَهَا
عَنِّى فَأَصْبَحَ ذَنْبِى الآن مَغْفُورًا

ومطلع الثانية :

مَكَّةُ أَقْوَتْ مِنْ بَنِى الدَّرْدَبِيسْ فَمَا لِجِنِّيٍّ بِهَا مِنْ حَسِيسْ (١٤)

كذلك – مما ترك تعليله – رأيُهُ فى الأبيات المَنْحُولة للأعشى :

أَمِنْ قَتْلَةَ بِالأَنْقَاءِ دَارٌ غَيْرُ مَحْلُولَهْ
كَأَنْ لَمْ تَشْهَدِ الْحَىَّ بِهَا بَيْضَاءُ عُطْبُولَهْ الأبيات

(١٣) رسالة الغفران ص ٢٩١ .
(١٤) المرجع السابق ص ٢٩٤ ، ٢٩٨ وبنو الدردبيس : حى من الجن ، وأقوت : خلت .

حيث يقول على لسانه : « ما هذه مما صدر عنى ، وانك منذ اليوم لمولع بالمنحولات . » (١٥)

ثم رأيه فى البيت التالى :

هل أنتَ باعثُ دينارٍ لحاجتنا أم عبدَ ربٍّ أخاعَونِ بن مِخْرَاقِ

حيث يقول : « هذ البيت يتداوله النحويون ، وزعم بعض المتأخرين من أهل العلم أنه مصنوع ، وما أجدره بذلك . » (١٦)

فقد نفى النسبة فى هذين الموضعين ، على وجه القطع فى الأول ، والترجيح فى الثانى ، دون تعليل أيضا ، وانما ترك التعليل هنا وفيما سبق ، لعدم الحاجة اليه ، على الأقل عنده ، لأن شعر الجن ـ كما يبدو من حكمه عليه ـ هذيان ، ولأن شعر الأعشى على وزن نفاه أو نفى قريبا منه عن بعض الجاهليين كما سيأتى . أما البيت الأخير فان تداول النحويين له دون نسبة ـ وهم طلاب الشاهد ـ مظنة صنعهم له كما صنعوا غيره .

وأما نفيه للنسبة فيما عدا هذه المواضع فقد جاء مقرونا بسببه وعلته ، بل جاء متنوع الأسباب عميقها ، يدل على حس مرهف ، وعقل ناضج ، وثقافة واسعة ، لأنه لم يعتمد فيه على ماحول النص ، أو على نقده من الخارج فقط ، بل اعتمد أيضا على النظر فى النص نفسه ، أو على نقده من الداخل ، وكان له من هذا وذاك مابنى عليه نفيه وانكاره ، ونجمله فيما يلى :

أولا : مخالفة لغة النص للغة من نسب اليه : تلك المخالفة التى دفع

---

(١٥) المرجع السابق ص ٢١١ .
المطبولة : الحسنة التامة من النساء .
(١٦) المرجع السابق ص ٥٦٨ .

بها ما نسب الى آدم عليه السلام من شعر ، فى هذا الحوار الذى أجراه بينه وبين ابن القارح فى الجنة ، اذ يقول له ابن القارح :

« يا أبَانَا – صَلَّى اللهُ عليكَ – قد رُوىَ لنا عنكَ شِعْرٌ ، منه قولك :

نَحْنُ بَنُو الأَرضِ وَسُكَّانُهَا مِنْهَا خُلِقْنَا وإلَيْهَا نَعُـودْ
والسَّعْدُ لا يَبْقَى لأَصْحابه والنَّحْسُ تمْحُوهُ ليالي السُّعُودْ

فيقول : ان هذا القول حق ، وما نطقه الا بعض الحكماء ، ولكنى لم أسمع به حتى الساعة .

فيقول – وفر الله قسمه فى الثواب – : فلعلك ياأبانا قلته ثم نسيت ، فقد علمت أن النسيان متسرع اليك ، وحسبك شهيدا على ذلك الآية المتلوة فى فرقان محمد ﷺ : **(ولقد عهدنا الى آدم من قبل فنسى ولم نجـــد له عزما)** [سورة طه : ١١٥]

فيقول آدم – صلى الله عليه – : أبيتم الا عقوقا وأذية ، انما كنت أتكلم بالعربية وأنا فى الجنة ، فلما هبطت الى الأرض نقل لسانى الى السريانية ، فلم أنطق بغيرها الى أن هلكت ، فلما ردنى الله – سبحانه وتعالى – الى الجنة عادت على العربية ، فأى حين نطقت هذا الشعر ، فى العاجلة أم الآجلة ؟ والذى قال ذلك يجب أن يكون قاله وهو فى الدار الماكرة ، ألا ترى قوله :

منها خُلِقنا وإليها نعودْ

فكيف اقول هذا المقال ولسانى سريانى ؟ وأما الجنة قبل أن أخرج منها فلم أكن أدرى بالموت فيها ، وأنه مما حكم على العباد .. وأما بعد رجوعى اليها فلا معنى لقولى : واليها نعود ، لأنه كذب لا محالة ، ونحن معاشر أهل الجنة خالدون مخلدون .

فيقول ــ قضى له بالسعد المؤرب ــ (١٧) : ان بعض أهل السير يزعم أن هذا الشعر وجده يعرب فى متقدم الصحف بالسريانية ، فنقله الى لسانه ، وهذا لا يمتنع أن يكون .

وكذلك يَرْوُون لك ــ صلى الله عليك ــ لما قتل قابيلُ هابيلَ :

تغيَّرَتِ البلادُ ومن عليها فوَجْهُ الأَرض مُغْبَرٌّ قبيحُ

.. فيقول آدم ــ صلى الله عليه ــ أعزز على بكم معشر أبينى ! انكم فى الضلالة متهوكون . آليت ما نطقت هذا النظيم ولا نطق فى عصرى ، وانما نظمه بعض الفارغين ، فلا حولا ولا قوة الا بالله ، كذبتم على خالقكم وربكم ، ثم على آدم أبيكم .. » (١٨)

ان أبا العلاء هنا لم يكتف بالسخرية والابتسام مما نسب الى آدم عليه السلام كما فهم بعض المعاصرين (١٩) ، بل احتج لنفيه عنه بحجة أخرى ضمنها هذا الحوار ، وكانت فى موازنته بين لغة آدم ــ فى الجنة وخارجها ــ ولغة مانسب اليه ، تلك الموازنة التى صدر فيها عن فهم وذوق ومعرفة ، وخلص منها ومن دلالات أخرى ذكرها الى امتناع أن يكون لآدم مما نسب اليه شيء ، انما هو كما يبدو من مضمونه فى الأول لبعض الحكماء ، ومن ركاكته فى الثانى لبعض الفارغين .

ثانيا : مخالفة النص لأسلوب الشاعر الخاص فى الوزن والتعبير :

كذلك الذى نسب الى امرىء القيس ، ونزهه عنه أبو العلاء ، اذ حاوره فى شأنه ــ على لسان ابن القارح ــ قائلا :

---

(١٧) المؤرب : الموثق المحكم .

(١٨) رسالة الغفران ص ٣٦٠ ــ ٣٦٤ وتهوك فى الأمر : تحير وارتبك فيه .

(١٩) د. أمجد الطرابلسى فى : « النقد واللغة فى الغفران » ص ٥٠ ــ ٥٣ .

« أتعرفنى عن التسميط المنسوب اليك أصحيح هو عنك وينشده الذى يرويه بعض الناس :

يا صحبنا عرِّجوا تقفْ بكُمْ أُسُجُ
مَهْرِيَّةٌ دُلُجُ فى سَيْرِهَا مُعُجُ
طالتْ بها الرِّحلُ
التسميط (٢٠)

فيقول : لا والله ما سمعت هذا قط ، وانه لقوى لم أسلكه ، وان الكذب لكثير ، وأحسب هذا لبعض شعراء الاسلام ، ولقد ظلمنى وأساء الى ، أبعد كلمتى التى أولها :

أَلَا انْعمْ صَبَاحًا أَيُّها الطَّلَلُ الْبالِي
وهل يَنْعَمَنْ من كان فى الْعُصُرِ الْخالِى

وقولى :

خليلىَّ مُرَّابى على أُمِّ جُنْدُبِ
لِنَقْضِىَ حاجاتِ الْفُؤَادِ الْمُعذَّبِ

يقال لى مثل ذلك ؟ والرجز من أضعف الشعر ، وهذا الوزن من أضعف الرجز ..

---

(٢٠) الأسج : النوق السريعات ، المهرية : الابل المنسوبة الى مهرة بن حيدان من عرب اليمن ، كان لا يعدل بها شىء فى سرعتها . الدلج : جمع دلوج : السارية بالليل . المعج : جمع معوج : وهى السريعة السهلة .
والتسميط : أن يأتى الشاعر بأبيات مشطورة أو منهوكة على قافية واحدة ، ثم ببيت من الوزن نفسه على قافية مخالفة ، ثم يستمر على ذلك مع التزام القافية المخالفة الى النهاية (انظر اللسان : سمط) .

فيقول : وانا لنروى لك بيتا ما هـو فى كل الروايـات ، وأظنه مصنوعا ، لأن فيه مالم تجر عادتك بمثله ، وهو قولك :

وعمرُو بنُ دَرْماءَ الْهُمامُ إذا غدا
بصارِمِهِ يَمْشِى كمِشيةِ قَسْوَرَا

فيقول : أبعد الله الآخر ، لقد اخترص فما اترص ، وان نسبة مثل هذا الى لأعدها احدى الوصمات ..

وانما أنكر حذف الهاء من (قسورة) ، لأنه ليس بموضع الحذف ، وقل ما يصاب فى أشعار العرب مثل ذلك ... » (٢١)

فقد قاس الوزن فى التسميط ، والتصرف اللغوى فى البيت ، على ما عرف لامرىء القيس ، فنزهه عنهما ، لأنهما ليسا من أسلوبه ، ولئن دل هذا على شىء فهو على احاطته بديوان الشاعر وأوزانه ولغته الخاصة ، مما لابد منه للناقد الحصيف . وعليه أيضـا كان نفيه « للشـينية » المنسوبة الى النابغة الجعدى ، فقد نفاها لأنها على روى لم يُنظم عليه قط ، وهو « الشين » ، ولأن فيها ألفاظا لم يعرفها وليست من لغته . (٢٢)

ثالثا : مخالفة النص بمدلوله للمشهور من عقيدة الشاعر : فعلى ذكر العلوى البصرى (٢٣) الذى ادعى العلوية ، وخـــرج على الدولة

---

(٢١) رسالة الغفران ص ٣٢٢/٣١٨ والقسورة : الأسد . واخترص: افتعل . وما اترص : ما اعتدل .

(٢٢) المرجع السابق ص ٢١٠/٢٠٨ .

(٢٣) العلوى البصرى : هو على بن محمد صاحب الزنج الذى خرج على الدولة العباسية سنة ٢٥٥ هـ وقتل سنة ٢٧٠ هـ . (تاريخ الطبرى ٤١٠/٩ — ٦٥٩) .

العباسية ، وقتل الألوف = على ذكره وذكر بعض أكاذيبه فى (الغفران) قال أبو العلاء :

« وقد رويت له أبيات تدل على تأله ، وما أدفع أن تكون قيلت على لسانه ، لأن من خبر أخلاق هذا العالم حكم عليه بفجورومين ، وأخلاق تبعد من الزين ، والأبيات :

قَتَلْتُ النَاسَ إشْفاقًا على أنفسىَ كىْ تبقَى
وحُزْتُ المال بالسيف لكى أنعمَ لا أشْقى
فمنْ أبصَرُ مثْواى فلا يظْلِمْ إذًا خلْقا
فواويْلى إذا مـا مُـتُّ عِند الله ما ألْقى
أَخلْداً فى جوار اللـه أم فى ناره ألْقَى

وأنشدنى بعضهم أبياتا (قافية) طويلة الوزن ، وقافيتها مثل هذه القافية ، وقد نسبت الى عضد الدولة ... وقد نحا بها نحو أبيات البصرى ، وأشهد أنها متكلفة ، صنعها رقيع من القوم ، وأن عضد الدولة ما سمع بها قط . » (٢٤)

فالظاهر من السياق هنا أن حكمه على أبيات كل من العلوى وعضدالدولة بالوضع والنحل = ليس الا لتكلفها مدلولا لا يتوقع من أحدهما ، بعد الذى كان من كل منهما ...

رابعا : **انقطاع السند والتاريخ** : وهو أساس النفى فى قوله : « ولقد وجدت فى بعض كتب الاغانى صوتا يقال : غنته الجرادتان ، فتفكنت لذلك ، والصوت :

---

(٢٤) المرجع السابق ص ٤٤٩ .

أَقْفَرَ مِنْ أَهْلِهِ الْمَصِيفُ   فَبَطْنُ عَرْدَةَ فَالْغَرِيفُ

الأبيات

وهذا شعر على قرى :

أَقْفَرَ مِنْ أَهْلِهِ مَلْحُوبُ

ومن الذى نقل الى المغنين فى عهد هارون وبعده ، أن هذا الصوت غنته الجرادتان ؟ ان ذلك لبعيد فى المعقول ، وما أجدره أن يكون مكذوبا . » (٢٥)

يعنى - كما يفهم من كلامه قبل هذا النص - أن الجرادتين من عصر ذهب تاريخه ، وهو عصر عاد ، لأنهما - فيما قيل - قد غنتا لوفد عاد عند الجرهمى بمكة ، وعاد قد أبادها الله ، وقال عنها : (**فهل ترى لهم من باقية**) (٢٦) ، أى لم تبق بقية منهم . فذهاب هذا التاريخ أو الابادة يبعد فى العقل بقاء شىء منه أو وجود من ينقله (٢٧) ، وأيضا مجىء هذا الصوت على القرى المشار اليه باعث آخر لمزيد من الشك فيه .

لكن قوله بعد هذا النص مباشرة : « ان العرب صارت تسمى كل قينة جرادة ، حملا على أن قينة فى الدهر الأول كانت تسمى الجرادة » يضعف من شكه هنا ، لأنه يعنى أن اسم الجرادتين قد صار من الخصوص الى العموم ، ومادام الصوت - كما وجد - غير مخصوص بمن غنتا لوفد عاد ، لم يبعد أن يكون لجرادتين بعدهما ، ممن لم ينقطع تاريخهما ..

---

(٢٥) المرجع السابق ص ٢٤٣ ، ٢٤٤ والجرادتان - فيما قيل - قينتا معاوية بن بكر الجرهمى أحد العماليق الذين سادوا مكة ، وقد غنتا لوفد عاد عنده لما حضروا الى مكة للطواف والاستسقاء فشغلوا عما حضروا له فهلكت عاد بغفلتهم ... أو هما مغنيتان على الاطلاق كما سيأتى .

(٢٦) الحاقة آية ٨ .

(٢٧) نظر أيضا اشكه فى حديث وفد عاد : زجر النابح ص ٢٦٧ .

فاذا ذكرنا ـ مع هذا ـ من أقوالهم عن الجرادتين قول ابن الكلبى : « كانت لابن جدعان أمتان ، تسميان الجرادتين ، تتغنيان فى الجاهلية ، سماهما بجرادتى عاد ٠٠ » (٢٨) ، أو قول ابن منظور : « والجرادتان مغنيتان للنعمان » (٢٩) = صح أن نثبت نسبة الصوت ـاما الى الأوليين واما الى الآخريين ـ وان كان على القرى المشار اليه ٠٠

خامسا : تقدم تاريخ المنسوب اليه الشعر على صاحبه الحقيقى :

وهو ما نلحظه فى استنكاره مانسب من شعر المتنبى والبحترى الى المتقدمين ، حيث يقول فى (عبث الوليد) : « وربما حسد بعض ، فنسب شعره الى المتقدمين ، ليكاد بذلك وينقص من قدره ، وحكى بعض الكتاب أنه رأى كتابا قديما قد كتب على ظهره : أنشدنا أحمد بن يحيى ثعلب :

مَنِ الجآذِرُ فى زىِّ الأَعاريبِ (٣٠)

وذكر خمسة أبيات من أول هذه القصيدة ، وهذا كذب قبيح وافتراء بين ، وانما فعله مفرط الحسد قليل الخبرة بمظان الصواب ؛ غرضه أن يلبس على الجهال ٠ وقد رويت أبيات أبى عبادة التى فى وصف الذيب لبعض العرب ، ويجب أن يكون ذلك كذبا مثل ماتقدم فى حديث البائية التى لأبى الطيب ، وقد نسبوا الأبيات التى لأبى الطيب فى صفة الذيب الى عبد الله بن أنيس صاحب النبى ﷺ ، ـ وهو من بنى البرك ابن أسد بن وبرة ـ ولا ريب أ نذلك باطل ٠ » (٣١)

فقوله « وربما حسد بعض فنسب شعره الى المتقدمين » ، وكون هذا البعض أبا الطيب والبحترى = متضمن لحجته على كذب هذه النسبة

---

(٢٨) الأغانى ٣٢٧/٨ ٠
(٢٩) لسان العرب مادة جرد ٠
(٣٠) مطلع قصيدة للمتنبى ٠ انظر التبيان فى شرح الديوان ١٥٩/١٠
والجآذر : جمع جؤذر : وهو ولد البقرة الوحشية ٠ والأعاريب:جمعأعراب.
(٣١) عبث الوليد ص ٦٤ ، ٦٥ ٠

وافترائها ، من وجود هذه القصائد فى الديوان المعتمد لكل منهما أولا ، وتقدم من نسبت اليه عليهما فى التاريخ ثانيا .

وقد ضرب ذلك مثلا لصورة من صور النحل القبيحة الواضحة ، وهى صورة الحسد الذى يتعرض له الشعراء النابهون ، فيدفع بحاسديهم من أجل كيدهم وتنقصهم ، الى نسبة شعرهم الى سابقيهم ، لكى يقال بذلك انه مسبوق مسروق ..

وهنا ندع نفيه للنسبة وقد اتضح لنا مدى اعتماده فيه على حسه وفهمه ، وعقله وثقافته لنرى كيف كان اتجاهه فى اثباتها :

واثباتها :

المقصود هنا هو اعتماده ما اعتوره الشك منها ، لما تحققه من صدقه ، وتبينه من صحته ، وقد كانت آية صدقه وصحته عنده فى أمور :

منها : تضمنه ما هو من لغة الشاعر الخاصة أو لغة عصره : وهى حجة قويمة نظر اليها فى كثير من نفيه واثباته ، وصدر فيها عن درايته الفذة باللغة ، من حيث ألفاظها ودلالاتها وخواص الشعراء منها . فأبيات تأبط شرا :

أ ا الذى نكحَ الغِيلاَنَ فى بلدٍ ... ما طَلَّ فيه سِمَاكِيٌّ ولا جَادَا
فى حيثُ لا يَعْمِتُ الغادِى عَمَايَتَهُ ... ولا الظَّلِيمُ بها يبغى تِهِبَّادَا
...

على الرغم من شكه فيما تضمنته من نكاح الغيلان = لم يشك فى نسبتها اليه ، واستدل على انها له لما قال فيها « تهبادا » ، مصدر تهبد الظليم : اذا أكل الهبيد ، وهو حب الحنظل ، اذ كان هذا المصدر ـ كما لاحظ ـ من خواص الشاعر اللغوية التى ترددت فى شعره وأكثر منها ، مثل قوله فى (القافية) :

طيْفُ ابنة الحُرِّ إذْ كُنَّا نُوَاصِلُها ثُمَّ اجْتُنِنْتُ بها بعْدَ التِّفِرَّاقِ

مصدر تفرَّقُوا تِفِرَّاقًا ، وهذا مُطَّرِدٌ فى تفعَّل وإنْ كان قليلاً فى الشعر ، كما قال أبو زبيد :

فثارَ الزَّاجِرُون فزَاد منهُمْ تِقِــرَّابًا وَصادفه ضَبِيِس (٣٢)

وبيت المهلهل :

أَرْعَدُوا ساعة الهياج وَأَبْرَقْـ ـنا كما توُعِدُ الْفُحُولُ الْفُحُولا

وهو البيت الذى كان ينكره الأصمعى ويقول انـه مولد ، ويثبته أبو زيد ويستشهد به = أثبته أبو العلاء أيضا ـ ان لم يكن للمهلهل فلغيره من القدماء الفصحاء ـ لأنه عنده فصيح لا مولد ، وذلك فى حواره مع المهلهل بشأنه فى (الغفران) ، حيث يقول له : « زعم الأصمعى أنه لا يقال : أرعد وأبرق فى الوعيد ولا فى السحاب • فيقول ـ أى المهلهل ـ : ان ذلك لخطأ من القول ، وان هذا القول لم يقله الا رجل من جذم الفصاحة ، اما أنا واما سواى ، فخذ به وأعرض عن قول السفهاء • » (٣٣)

ومنها : شهرة ذكر الشاعر وتناقل شعره : مما احتج به على اثبات وجوده صراحة ، والنسبة اليه ضمنا • فعلى ذكر المتنبى « هوى قيس لليلى » فى شـعره ، علق أبو العـلاء فى (اللامع العزيزى) بقوله : « وقيس هذا هو الذى يزعم الناس أنه المجنون ، وينسبون اليه أشعارا كثيرة ، وهــو قيس بن الملوح [بكسر الــواو مشـددة] ، وقيل الملـوح

---

(٣٢) رسالة الغفران ٣٥٩ ، ٣٦٠ •

ضبيس : شكس عسر ، أو ثقيل الروح والبدن • (اللسان ضبس)

(٣٣) المرجع السابق ص ٣٥٤ والجذم ــ كجذر ــ الأصل ، وأرعـد وأبرق فى البيت بمعنى أوعد .

[بفتحها] ، وقيل فى شأنه : ان أخباره موضوعة ، وأنه لم يكن قط ، وهذا ادعاء ليس بصحيح ، لأن ذكره أسير مما زعموا ، وقد تناقلت أشعاره الرواة . » (٣٤)

فقد جعل اشتهار ذكره وتناقل الرواة لأشعاره ، من دواعى التسليم بوجوده ، والتسليم بما نسب اليه ، لكنها هنا نسبة اجمالية ، لا تفريق فيها بين هذه الأشعار ، ولاتحديد للمراد بها من نصوص ..

ومنها : **عدم نقل الرواية كل ماقيل** : وهو أساسه فى تقبل بعض الأشعار ، مما ليس فى ديوان الشاعر ، نحو أبيات المرقش الأكبر :

تَخَيَّرْتُ مِن نَعْمَانَ عُودَ أَرَاكَةٍ لهندٍ ولكن من يُبَلِّغُهُ هندًا

... ...

التى يقول له بشأنها فى (الغفران) « : وبعض الناس يروى هذا الشعر لك ، ولم أجدها فى ديوانك ، فهل ما حكى صحيح عنك ؟ فيقول : لقد قلت أشياء كثيرة ، منها مانقل اليكم ، ومنها ما لم ينقل ... ولعلك تنكر أنها فى « هند » ، وأن صاحبتى « أسماء » ، فلا تنفر من ذلك ، فقد ينتقل المشبب من الاسم الى الاسم ، ويكون فى بعض عمره مستهترا بشخص من الناس ، ثم ينصرف الى شخص آخر . ألا تسمع الى قولى :

سَفَهٌ تَذَكُّرُهُ خُوَيْلَةَ بعد ما حالتْ ذُرَا نجرانَ دون لِقائِهَا (٣٥)

فخلو ديوان المرقش من تلك الأبيات ، فضلا عن التشبيب فيها بغير صاحبته ، مما يدفع الى الشك فيها = لم يمنع أبا العلاء من توثيقها بحجة أن الرواية لم تنقل كل ما قيل ، وأن الشعراء لم يتقيدوا فى التشبيب بواحدة . لكن تلك الحجة على صحتها تعارض توقفه الآتى عن اثبات

---

(٣٤) الموضح ٣/٩٩ ب .

(٣٥) رسالة الغفران ص ٣٥٦ ومستهترا : مولعا .

الشعر لأنه لم يجده فى ديوان الشاعر وقد أثبت هنا مالم يجده فى ديوان المرقش • كما تعارض ما اعتمده السابقون من مقاييس الاثبات التى أجملناها أول هذا الاتجاه ـ من احماع الرواة ، أو وجود الشعر فى ديوان الشاعر أو ديوان القبيلة ـ وكلاهما مفقود هنا •

على أنه لم يخالفهم فى ذلك فقط ، بل خالفهم ـ أو خالف بعضهم ـ أيضا فى الاثبات بلا دليل ، لأشعار نفوا نسبتها بالدليل ، كتلك التى تنسب الى الجاهليين فى قصة الرجم ، من نحو قول الأفوه الأودى :

كشهاب الْقَذْف يَرْميكم به فارسٌ فى كفِّهِ للحَرْبِ نارْ

وقول أَوْس بن حجرَ يصف ثورا وحشيا :

فانْصاعَ كالدُّرِّىِّ يتْبَعُهُ نقْعٌ يثُورُ تخالـه طُنُبَا

فقد نفاها الجاحظ (٣٦) ، وحكم بوضعها ، لانتقاضها بقوله تعالى:
(وأنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع فمن يستمع الآن يجد له شهابا رصدا) (٣٧) •

وأثبتها أبو العلاء منكرا بها قول من قال ان الرجم حدث فى الاسلام (٣٨) ، مع تسليمه أن « الرجم زاد فى أوان المبعث » ، وهو ما ذهب اليه ابن قتيبة فى تأويل هذه الآية (٣٩) •

فاذا كان هذا شأنه فيما اتجه فيه الى النفى أو الى الاثبات فكيف كان فيما اتجه فيه الى النفى والاثبات معا ؟

---

(٣٦) الحيوان ٦/٢٧٢ — ٢٨٠ •
(٣٧) سورة الجن آية ٩ •
(٣٨) رسالة الغفران ص ٢٩٧ ، ٢٩٨ •
(٣٩) تأويل مشكل القرآن ص ٤٢٩ — ٤٣١ •

النفى والاثبات :

كان ذلك فيما يبدو عنده على ضربين : تصحيح وترجيح ٠

تصحيح للنسبة التى عدل بها عن وجهها بسبب الخطأ غالبا ٠

وترجيح لأحد الوجهين فيما ترددت نسبته بينهما ٠

فمن التصحيح موقفه من كلمة النابغة التى أولها :

أَلِمَّا عَلَى الْمَمْطُورةِ الْمُتَأَبِّدَهْ أَقامتْ بها فى الْمَرْبَعِ الْمُتَجَرِّدَهْ

فقد نفاها عنه لأنها على قرى لم يسلكه قط ، وجعلها لرجل من بنى ثعلبة بن سعد ، قصد بها النعمان ولم يصل اليه ، على ماذكر النابغة الجعدى فى رواية نسبها اليه أبو العلاء ولم نجدها فى المصادر ٠ فالقصيدة عنده جاهلية صحيحة ، نسبت الى النابغة على معنى الغلط والتوهم ، لا الكذب والوضع (٤٠) ٠

ونحو من هذا موقفه من المثل السائر :

هى الخمر تُكْنى الطِّلَاء كما الذئبُ يُكْنى أبَا جَعْدَةِ

وموقفه من بيت المتنبي :

أُذُمُّ إلى هذا الزمان أُهَيْلَهُ

حيث ذكر أن الأول ـ ويروى ناقصا ـ ينسب الى عبيد ابن الأبرص ، لكنه أوجب أن يكون قيل فى الاسلام ، بعد ما حرمت الخمر (٤١) ، لأن كون هذه التكنية فى الاسلام أظهر وأقوى من كونها فى الجاهلية ، كأنهم كنوها تحرجا من ذكر اسمها بعد تحريمها ٠

---

(٤٠) رسالة الغفران ص ٢٠٧ ٠

المتأبدة : المقفرة .

(٤١) المرجع السابق ص ٥١٢ ٠

على حين تعقب ابن القارح فى الثانى ، لما أخذ على المتنبى ذمه الزمان وقد صار الى ماصار اليه عند سيف الدولة ، فبين له أن هـذا البيت لم يقله المتنبى فى سيف الدولة ، انمـا قاله فى على بن محمد ابن سيار بن مكرم بأنطاكية ، قبل أن يمدح سيف الدولة (٤٢) . فنسبته اذن الى فترة أخرى ، قبل تلك الفترة التى اتصل فيها بسيف الدولة .

ومن الترجيح موقفه من بيتى ابن كلثوم ، اللذين ينسبان الى عمرو ابن عدى :

تَصُدُّ الكَأْسَ عنَّا أمَّ عمْرٍو وَكانَ الكَأْسُ مَجْرَاهَا الْيَمِينا
وَمَا شَرُّ الثَّلَاثَةِ أُمَّ عمرٍو بصاحِبِكِ الذِى لاتَصْبَحِينا (٤٣)

وموقفه من هذا البيت الذى ينسبه الى طرفة قوم ، والى عدى بن زيد آخرون :

وأَصْفرَ مَضْبُوحٍ نظرْتُ حَوِيرَهُ على النَّارِ واسْتوْدَعْتُه كفَّ مُجْمِدِ (٤٤)

وموقفه من هذين البيتين اللذين ينسبان الى الوليد بن عبد الملك ، وقيل الى الوليد بن يزيد :

أَتُوعِدُ كُلَّ جبَّارٍ عنِيدٍ فها أنذاك جبَّارٌ عنِيدُ
إذا لَاقيْت ربَّك يومَ حَشْرٍ فقُلْ يارَبِّ مزَّقنى الوليدُ (٤٥)

---

(٤٢) المرجع السابق ص ٤١٥ .

(٤٣) المرجع السابق ٢٧٨ تصبحينا : من الصبوح : وهو شرب الغداة .

(٤٤) المرجع السابق ٣٣٥ . وأصفر : قدح أصفر . مضبوح : ملوح. حويره : رجوعه . مجمد : شحيح .

(٤٥) بين أبى العلاء وداعى الدعاة الفاطمى ص ١٧ .

اذ رجح نسبة الأولين الى عمرو بن عدى ، على ما وعته كتب التاريخ (٤٦) ، وعلى أن ابن كلثوم حسن بهما كلامه واستزادهما فى أبياته ، كما رجح نسبة الثانى الى طرفة لأنه أشبه بكلامه ، والأخيرين الى الوليد بن يزيد ، لأن الأول كان لحانا لحنا فاحشا لا يقدر صاحبه أن ينظم مثلهما .

هكذا ذهب أبو العلاء ينفى ويثبت فيما اتضح له وجه النفى أو الاثبات فيه ، أما ما لم يتضح له وجهه فقد توقف دونه .

والتوقف عن النفى والاثبات :

لا يكون من مثله الا نهاية فى الحذر والاحتياط ، لأنه وقد أوتى من قوة الذوق والفهم والعقل والثقافة ماجعله يرسل هذه الأحكام القاطعة المطمئنة فى كثير مما ذكرنا = جدير أن لا يتوقف عن الحكم الا فيما أعوزه أن يطمئن الى رأى فيه .

وحين أعوزه هذا الاطمئنان وجدناه يكتفى تارة بالاشارة الى أن النص ليس فى ديوان الشاعر ، أو له رواية أخرى ، من نحو قوله ينصح ابن القارح بتزوج عجوز : « ويروى للحارث بن حلزة ولم أجده فى ديوانه :

وَقالُوا مانكحْتَ فقلْتُ خيْرًا   عَجُوزًا مِنْ عُرَيْنَةَ ذاتَ مال
نكحْتُ كبيرةً وَغرِمْتُ مالا   كذاك البيعُ مُرْتخَصٌ وغال (٤٧)

أو قوله ـ على لسان ابن القارح ـ لمغنيتين فى الجنة : « أسمعانا شيئا من القصيدة (الحائية) ، التى تروى لعبيد مرة ولأوس أخرى (٤٨) .»

(٤٦) مروج الذهب ٣٥٥/١ ط دار الشعب .
(٤٧) رسالة الغفران ٥٠٣ .
(٤٨) المرجع السابق ٢٧٤ .

وتـارة يكـون الاكتفـاء بالسـؤال عن النص أو حكاية السؤال عنه ، كقوله ـ على لسان ابن القارح ـ لأوس بن حجر فى النار : « يا أوس : ان أصحابك لا يجيبون السائل ، فهل لى عندك من جواب ؟ فأنى أريـد أن أسألك عن هذا البيت :

وقَارَفَتْ وَهْى لَمْ تَجْرَبْ وبَاعَ لها
مِن الفَصَـافِص بالنُّمِّىِّ سِفْسِـيرُ

فإنه فى قصيدتك التى أولها :

هَلْ عَاجِلٌ مِنْ متاع الحَىِّ مَنْظُور
أم بيْتُ دَوْمَةَ بعْد الْوَصْل مهْجُورُ ؟

ويروى فى قصيدة النابغة التى أولها :

ودِّعْ أُمامَةَ والتَّوْديعُ تعْـذِيرُ
ومَا وَدَاعُك منْ قَفَّتْ بهِ الْعِيرُ

... وكلاكما معدود فى الفحول ، فعلى أى شىء يحمل ذلك ؟ (٤٩) »

وقوله ـ وقد ذكر وصف عـدى بن زيد لابريق الخمر ـ : « وكنت بمدينة السلام ، فشاهدت بعض الوراقين يسأل عن قافية عدى بن زيد التى أولهـا :

بكرَ العاذِلَاتُ فى غلسَ الصُّبْـ ـح يُعاتِبْنَهُ أَما تَسْتفيقُ
وَدَعَا بالصَّبُوحِ يَوْمًا فجاءتْ قَيْنَةٌ فِى يمينها إبْريقَ

(٤٩) المرجع السابق ٣٣٩ باع : اشترى . الفصافص : نبات . النمى : الفلوس . سفسير : سمسار ، قفت : ذهبت .

وزعم الوراق أن ابن حاجب النعمان سأل عن هذه القصيدة ، وطلبت فى نسخ من ديوان عدى فلم توجد ، ثم سمعت بعد ذلك رجلا من أهل (أستراباذ) يقرأ هذه القافية فى ديوان العبادى ، ولم تكن فى النسخة التى فى دار العلم (٥٠) . »

وتارة يكون التوقف بجعل النسبة فى حيز الافتراض كقوله ـ وقد ذكر بيتين للشبلى ـ : « فان صح أن هذين له » (٥١) .

النظر فى المتن :

واذا كان الشك فى النسبة قد دفعه الى النظر فيها ونقدها على هذا النحو ، فان استنقاذ المتن من عوارض التصحيف والتحريف والتصرف والنسيان كان الباعث له على فحصه ونقده .

ولا شك أنه حين انبعث لذلك كان بين يديه من آثار السابقين فيه شىء غير قليل ، مما نجده مبثوثا فى كتب اللغة والأدب حينا ، ومجموعا فى مظانه من كتب التصحيف ونحوها حينا آخر ، كالذى جمعه حمزة بن الحسن الأصفهانى ، المتوفى سنة ٣٦٠هـ ، فى كتابه : (التنبيه على حدوث التصحيف) ، وأبو أحمد الحسن بن عبد الله العسكرى ، المتوفى سنة ٣٨٢ هـ ، فى كتابه : (شرح ما يقع فى التصحيف والتحريف) ، وأبو القاسم على بن حمزة البصرى المتوفى سنة ٣٧٥هـ فى كتابه (أغاليط الرواة) ، وأبو الفتح عثمان بن جنى المتوفى سنة ٣٩٢هـ ، فى كتابيه : (الخصائص) ، و (المحتسب فى تبيين وجوه القراءات الشاذة) .

وكان مما رددوه وردده غيرهم بلا خلاف تقريبا ، أن لا يقبل الشعر من صحيفة ، ولا يروى عن صحفى (٥٢) ، وأن لا يؤخذ القرآن من

---

(٥٠) المرجع السابق ١٤٦ .
(٥١) المرجع السابق ٥٨٢ .
(٥٢) طبقات ابن سلام ص ٦ .

مصحفى ، ولا العلم من صحفى ، (٥٣) يعنون أن أخذ الشعر والعلم من الصحف ، أى من الأوراق أو الكتب وحدها ، أو ممن أخذ منها وحدها ، وأخذ القرآن من المصحف وحده ، أو ممن أخذ منه وحده = ليس صحيحا ولا مقبولا ، لما يلابسه من تصحيف وتحريف ، انما يصح الأخذ ويقبل ، بالسماع أو مع السماع ، من راوية لهذه الأشياء ، عالم بها ، ضابط لما فيها ، ضليع فى علوم اللغة وآدابها .

ومن ثم صار الأخذ من الصحف وحدها دون سماع من صفات الهجاء ، وتركه من صفات المديح ، حتى قال بعضهم فى هجاء أبى حاتم السجستانى :

إذا أَسْنَدَ القومُ أخبارَهُم　　فإسنادُهُ الصُّحْفُ والْهاجِسُ

وحتى قال أبو نواس فى رثاء خلف الأَحْمَرَ :

لا يَهِمُ الحاء فى القـراءة بالخا
ء ولا يأخُذُ إسنادهُ عن الصُّحُف (٥٤)

لكن أبا العلاء على الرغم من هذا السبق كان واضح الأصالة والاستقلال فيما أثر له هنا ، يبدو ذلك أولا فى تعليله غموض شعر أبى تمام ، بأنه لم يؤخذ ولم يرو عنه ، حيث يقول فى مقدمة كتابه (ذكرى حبيب) :

« انما أغلق شعر الطائى أنه لم يؤثر عنه ، فتناقلته الضعفة من الرواة ، والجهلة من الناسخين ، فبدلوا الحركة بالحركة ، فاوقعوا الناظر بما جنوه فى أم أدراص وتغلس ، وغيروا بعض الأحرف بسوء

---

(٥٣) شرح ما يقع فيه التصحيف والتحريف ص ١٠ .
(٥٤) المرجع السابق ص ١١ .
الهاجس : الخاطر ، ويهم : من الوهم .

التصحيف ، فغادروا الفهم خابطا فى عشواء ، لأن تغيير الضمة الى الفتحة أو الكسرة ينشب الفطن فى الحبالة ، وأما نقل الحاء الى الخاء ، والدال الى الذال ، فيحدث عنه البأس ، تقرن به بلادة وانتكاس » (٥٥) .

فهل كان أبو العلاء يجهل من أسباب غموض شعر أبى تمام ما تكلفه من الغريب والصنعة ؟ كلا ! لما يبدو من عنايته بشرحهما وتحليلهما ..ولكنه على مايظهر من كلامه هنا ، لم يكن يرى لهما من الأثر فى غموضه ماكان لتناقله بالرواية والنسخ دون تلق مباشر من صاحبه ، ذلك التناقل الذى جر عليه ــ فى رأيه ــ من التصحيف والتحريف ما أبهمه ، وأتعب الناظر فيه ، واستوجب الفحص الدقيق .

ولعل فى تعريفه الفريد للتصحيف ما يؤكد هذا التعليل ، ويدل على تصوره لخطر التصحيف ، حيث يقول فيما نقل عنه : « وأصل التصحيف أن يأخذ الرجل اللفظ من قراءته فى صحيفة ، ولم يكن سمعه من الرجال ، فيغيره عن الصواب . وقد وقع فيه جماعة من الأجلاء من أئمة اللغة وأئمة الحديث ، حتى قال أحمد بن حنبل : ومن يعرى من الخطأ والتصحيف » (٥٦) .

ولأن الخطأ والتصحيف عنده على هذا النحو من الوقوع والشيوع كان مانلحظه فى اتجاهه هنا ، ونعنى به :

أولا : الميل الى تخطئة الرواة المتقدمين ــ وان نزههم البعض ــ

---

(٥٥) شرح ديوان أبى تمام للتبريزى ١/١ .
أم أدراص : جحرة الفأر . وتغلس : من الغلس : ظلمة آخر الليل. ووقع فى أم أدراص وتغلس:مثل يضرب فى موضع الشدة والبلاء . والحبالة: المصيدة . (الأساس واللسان : درص ، غلس ، حبل) .
(٥٦) المزهر فى علوم اللغة وأنواعها ٣٥٣/٢ .

ما دام الخطأ والتصحيف لا يعرى منهما أحد ، اذ يقول عن مستنكر القراءات فى رسالة الملائكة :

« اختلف أهل العلم فى مستنكر القراءات ، فكان بعضهم يجترىء على تخطئة المتقدمين ، وكان بعضهم لا يقدم على ذلك ، ويجعل لكل شىء وجها ، وان كان بعيدا فى العربية ، واحتج من أجاز غلط الرواة بأن الذين نقلوا القراءة كان فيهم قوم أدركوا زمن الفصاحة ، فجاءوا بها على مايجب ، وقوم سبقتهم الفصاحة ، ولم يكن لهم علم بقياس العربية ، فلحقهم الوهم الذى لا يتعرى منه ولد آدم ﷺ » (٥٧) ٠

فاحتجاجه أو ايراده الاحتجاج لجواز غلط الرواة ،دون تنزيههم = يوحى - مع تصوره لعموم الخطأ والتصحيف - بميله الى الحكم بتخطئتهم ، ورد ما أنكر من قراءاتهم ، أكثر من ميله الى تكلف الوجوه البعيدة لتصويب ما ورد عنهم ٠

ثانيا : مخالفة السابقين ، فى امكان الأخذ من الصحف أو الكتب دون سماع ، وهو ما حذروا أو حذر أكثرهم منه كما رأينا ، فمع أن الأفضل عنده اقتران الأخذ بالسماع ، كما يبدو من تعليله غموض شعر أبى تمام ، نراه فى رسالة الملائكة يرجع الغموض فى بعض الكتب الى أربعة أسباب ، منها التصحيف ، ثم لا يرى بأسا فى الأخذ منها اذا علم الغرض ، ومن قوله فى ذلك :

« وقد يقع فى الكتب ألفاظ مستغلقة ، **فمنها** : مايكون تعذر فهمه من قبل عبارة واضع الكتاب ، لأنه يكون متسورا على مابعد من الألفاظ ، وعلى ذلك جاءت عبارة سيبويه فى بعض المواضع ٠ **ومنها** : ما يستبهم لأن صاحب الكتاب يكون قاصدا لابهامه ، ويقال ان النحويين المتقدمين فعلوا مثل ذلك ، ليفتقر اليهم فى ايضاح المشكلات ٠ **ومن ألفاظ الكتب**

---

(٥٧) رسالة الملائكة ص ٢٠٠ ٠

ما يستعجم لتصحيف يقع فيه فان الحرف ربمــا زاغ عن هيئته ، فأتعب الناظر ، وشغل قلب المفكر . وربمــا كان الكلام قــد سقط منه شيء ، فيكون الاخلال به أعظم ، ومعناه أبعد من الابانة » (٥٨) .

ثم قال بعد ذلك : « اذا أشكلت الألفاظ والغرض معلوم ، فما ينبغى للناظر أن يحفل بذلك ، وليقصد أخذ المعنى ، والقاء مايظهر من اللفظ الفاسد ، وان كان الغرض غير مفهوم ، فعند ذلك يجب التوقف » (٥٩) .

وما نظنه كان يتجه الى ذلك لولا تصوره السابق لعموم البلوى فى الخطأ والتصحيف ، وثقته بان (الكتاب) على الرغم من ذلك مصدر أصيل للمعرفة ، لايقدح فى أصالته ولا يمنع من الأخذ منه افتقاد الناظر فيه أحيانا لمن يسمعه منه ، ويأخذه عنه ، أليس هو نفسه قد أخذ أكثر علمه وثقافته من الكتاب وحــده دون ســماع ، ومــذ فارق العشرين من العمر ــ كما قال ــ ماحدثته نفسه باجتداء علم من عراقى ولا شآم (٦٠) .

ثالثا : اليقظة الزائدة لآفات المتن ، والتصدى الدائب لنقدهــا ، ليس فى كتاب معين ، ولا فى مرحلة معينة ، بل فى جميع مراحــل حياته وكتبه تقريبا ، منذ أدرك ذوقه فى موقفه من ابن سعد النحــوى بحلب ، حتى آخر مابقى من نقده فى (ضوء السقط) = وليس على سبيل الاكتفاء ، بعرض ماصحف وما صح عنده فقط ، بل على وجه الاستقصاء لجميع الروايات الواردة ، والذهاب أحيانا الى افتراض ما يحتمل من روايات أخــرى للفظ ومناقشتهــا ، حتى لا يترك من بعده مجالا لمصحف أو متعقب .

فاذا تاملنا ما تناوله من نصوص ، وجدناه أحيانــا يكتفى بايراد

---

(٥٨) المرجع السابق ص ٢٢٦ ، ٢٢٧ .
(٥٩) المرجع السابق ص ٢٨٠ .
(٦٠) رسائل أبى العلاء ص ٣٢ .

الروايات على وجه الشك دون مناقشة أو ترجيح ، من نحو قوله لعلقمة فى (الغفران) : « ان فى نفسى لحاجة من قولك :

يهْذِى بِها أَكْلَفُ الخدَّيْنِ مُخْتَبِرٌ

مِن الجِمال كثيرُ الَّلحْمِ عَيْثُومُ

فرُوِىَ يهْذِى بالدال غير المعجمة ، ويهْذِى بذال معجمة ... » (٦١)

وأحياناً يُسَوِّى بين الروايات فى القبول ، كقوله للبيد :

« ما مَخْزَاك » فى قولك ؟

وصبُوحِ صافيةٍ وجَذْبِ كَرِينةٍ

بِمُوَتَّرٍ تَأْتَالُهُ إبْهامُهـــــــــا

فان الناس يروون هذا البيت على وجهين ، منهم من ينشده (تأتاله) ، من آل الشىء يئوله اذا ساسه ، ومنهم من ينشد (تاتاله) ، من الاتيان . فيقول لبيد : كلا الوجهين يحتمله البيت » (٦٢) .

وقد يتجاوز **التوقف والتسوية ، الى الحكم المجرد من التعليل** ، لرواية على أخرى ، من نحو قوله عن بيت المتنبى :

وبَحْرٌ أبُو الْمِسْكِ الْخِضَمُّ الذى له

علَى كُلِّ بحْرٍ زخْرَةٌ وَعُبَابُ

« الناس يروون : وبَحْرٌ بالرفع ، ولو خفض البحر وجعل عطفا على (جليسٍ) لكان دلك أبلغ فى المدح»(٦٣)(وجليس) المعطوف عليه هو ما تضمنه البيت السابق من قول المتنبى :

---

(٦١) رسالة الغفران ٣٢٩ أكلف : من الكلفة : حمرة فيها سواد . عيثوم : ضخم .

(٦٢) المرجع السابق ٢١٧ كرينة : مغنية . موتر : له أو تار .

(٦٣) الموضح ١/٧٨ ب الخضم : الكثير العطاء . زخرة وعباب : زيادة وكثرة تستعظم .

أعزُّ مكانٍ فى الدُّنى سَرْجُ سابحٍ
وخيرُ جليسٍ فــى الزمان كتابُ

لكن ذلك منه ـ **أعنى التوقف والتسوية واطلاق الحكم** ـ ليس الا قليلا من كثير ، مما قصد فيه الى تحليل الروايات ومناقشتها ، والتمييز بين صحيحها وخاطئها ، وقويها وضعيفها ، تمييزا مؤسسا على ما اتضح له وساقه من دليل ٠

وقد كانت أدلة متنوعة ، لم يقتصر فيها **على مراجعة النسخ الأخرى** ، شأن كثيرين ممن قبله ، بل اعتمد أكثر ما اعتمد على **ذوقه ومعرفته** : ذوقه للغة النص ، وموسيقاه ، ومعنــاه ، وصنعته ، ومعرفته بسيــاقه ، ومذهب صاحبه ، وقدره ٠٠

ثم كان تمييزه المؤسس على تلك الأدلة متنوعا أيضا ، فحيث كــان مقتضاها القطع بالقبول أو الرفض ، كان حكمه الواثق المطمئن لرواية بأنها الصحيحة أو الواجبة ، وعلى أخرى بأنها غلط أو خطأ أو مصحفة ٠ وحيث كان مقتضاهــا الترجيح فقط ، كان حكمه للرواية بأنها أجــود ، أو أشبه ، أو أسلم ، أو أحسن ، من تلك القليلة أو الضعيفة أو البعيدة ٠

ولما كان القطع برواية دون أخرى ، والترجيح لرواية على أخرى : مقتضى لأكثرها ان لم يكن لكل منها كما سيأتى ، وكان تشقيق العـــرض اليهما مؤديا الى تكرار ما اقتضاهما = آثرت تجنبا لهذا التكرار عرضهما بما أسسا عليه فى اطار شامل ٠

واذا كان هنا كما كان فى نظر النسبة قد اعتمد على غير دليـل أحيانا ، حتى بدت أسسه مشتركة أو متداخلة ، فاننا فى عرض هذه الأسس نعتمد ماكان الأول منها فى حكمه ، ولا نغفل الاشـارة الى ماقد يكون هنالك من أدلة أخرى ٠

فمراجعة النسخ :

لم تكن عنده لنسخ الديوان الأخرى فقط ، بل كانت لحواشى بعض النسخ ، وللعتيق من كتب اللغة أيضا . ولئن كانت مراجعته لنسخ الديوان أو لحواشى بعضها فى الأكثر لمجرد تقصى الروايات وفحصها . لقد كانت مصدرا لما اختاره أو أوجبه أحيانا ، على مايبدو فى (عبث الوليد) ، من قوله عن بيت البحترى :

عُبُدٌ يُعْتَقُ فى إنعامِهِ مِنهُمُ الدَّهْرَ وحُرٌّ يُسْتَرَق

« كان فى النسخة (عُبُدٌ يُعْتَقُ) ، وهذا ردىء ، لأنّ عُبُدًا جمع عَبْدٍ ، وإنما يجبُ أنْ يُقال (عُبُدٌ تُعْتَقُ) بالتاء وفى نسخة أخرى (عَبُدٌ يُعْتَقُ) ، وهذا أشبه بأبى عُبادة ، لانه سمع قول أوْس :

أبنِى لُبَيْنى لسْتُمُ بِيَدٍ إلّا يدًا ليْستْ لها عَضُدُ

أبنى لُبَيْنَى إنَّ أُمَّكُمُ أَمَةٌ وإنّ أباكُمُ عَبُدُ

فاستعمله كما سمعه فى شعر أوْس . . . » (٦٤)

أو قوله عن بيته الاخر :

سيحْمِلُ أثقالى تبرُّعُ مُنْعِمٍ بِأنْعُمِهِ أَدَّتْ ركابى ثِقالُها

« كان فى الأصل (أدت) بتشديد الدال ، وله وجه ، ذلك أنه يريد أن ركابى أدتها الى هذا الممدوح ثقال أنعمه .. وفى الحاشية (آدت ركابى) بالمد ، وهو الوجه ، أى أثقلتها ... » (٦٥) .

كذلك كان رجوعه الى العتيق منْ كُتب اللغة حجته على ما اعتقده الصحيح أحيانا ، يبدو ذلك فى موقفه ببغداد ممن اعترضوا عليه فى قوله ـ من (السقط) :

---

(٦٤) عبث الوليد ص ١٥٩ .

(٦٥) المرجع السابق ص ١٧٨

وَيُوشعُ رَدَّ يُوحا بعْضَ يَوْمٍ   وأنتَ متى سَفَرْتَ رَدَدْتَ يُوحا

وزعموا أنها (بوح) بالباء لا بالياء ، وهو الموقف الذى نقله البطليوسى عند شرحه لهذاالبيت ، فقال: « يروى أن المعرىاعترضعليه فى هذه اللفظة ببغداد ، فى حلقة ابن المحسن ، واحتج عليه بـ (كتاب الألفاظ) ليعقوب ـ يعنى ابن السكيت ـ فقال : هذه نسخ محدثة غيرها شيوخكم ، ولكن أخرجوا مافى دار العلم من النسخ العتيقة ، فأخرجوها فوجدوها مقيدة كما قال ، ووجدوها أيضا كذلك فى (الجمهرة) ، وكانت بخط أبى بكر بن دريد » (٦٦) .

لكن مراجعة النسخ ـ وان كانت من أقوم المناهج فى تحقيق المتن ـ لم تكن حجة مطلقة عنده فى كل حال ، بدليل أنه لم يعتمد ما أجمعت عليه النسخ أو كان من قديمها اذا مجه ذوقه أو الذوق العام ، وتلك لعمرى آية الأصالة فى التحقيق ، لأن الذوق القوى أو الذوق العام مهما يكن أصدق من النسخ التى لا تخلو على أى حال من تصحيف النقلة وتحريفهم .

فمما عدل عنه ـ وقد أجمعت عليه النسخ ـ رواية البيت الثانى من بيتى أبى تمام :

سَقَتْ رَبْعَهُمْ لَا بَلْ سَقَتْ مُنْتَوَاهُمُ
من الأَرض أَخْلَافُ السحاب الحَوَاشِكُ
وَأَلْبَسَهُمْ عَصْبَ الرَّبِيعِ وَوَشْيَهُ
وَيَمْنَتَهُ نَبْتُ النَّدَى المُتَلَاحِكُ

حيث كان تعليقه : « جاء فى النسخ (ألبسهم) ، والأشبه (ألبسه) على معنى الربع ، لأن العادة أن يدعى للديار بسقيا

---

(٦٦) شروح السقط ١/٢٧٨ ، ٢٧٩ ويوح : من أسماء الشمس . وسفرت : كشفت عن وجهك .

الغمام ، ليكثر فيها النبات والزهر ، فأما سكانها فيبعد أن يدعى لهم بمثل ذلك ، لأن الشعراء تصف ماعلى الهوادج من الزينة ، فوجب أن يكون من فى الهودج أحسن ملبسا منه ، فهو غنى عن التزين بالربيع وطيبه » (٦٧) .

ومما عدل عنه ـ وهو من نسخة قديمة ـ ماحدث عنه فى (عبث الوليد) بقوله : « كان فى الأصل القديم :

والشَّيْبُ يزْجِيهِ الْهوَى وَخُفُوفُهُ

على الفعل المضارع ، وذلك ردىء ، ولا ريب أنه تصحيف ، وانما الرواية المعروفة (تزجية الهوى) ، ليكون المصدر وهو (الخفوف) معطوفا على المصدر وهو التزجية » (٦٨) .

أرأيت كيف رجح فى الأول ما اقترحه على ماجاء فى النسخ تبعا لعادة الشعراء فى ذلك ، وكيف حكم بالرداءة والتصحيف ـ فى الثانى ـ على ماجاء فى الأصل القديم تبعا لحسه اللغوى ، الذى يؤثر التناسب فى المصدرية بين المتعاطفين .

واذا كانت ثقته بالذوق على هذا النحو مقدمة على ثقته بالنسخ فلننظر الى أى حد اعتمد عليه هنا وكيف كان ذلك .

وذوقه للغة النص وموسيقاه ومعناه وصنعته :

ليس فقط من أكثر ما اعتمد عليه فى التمييز بين الروايات ، بل هو أيضا من أقوم طرق هذا التمييز ، لأنه يربطه بعناصر النص فيما ينبغى أن تكون عليه .

---

(٦٧) شرح ديوان أبى تمام للتبريزى ٢/٤٥٧ منتواهم : ماينوون الرحلة اليه . أخلاف : جمع خلف ، وهو حلمة الضرع . الحواشك : الكثيرة الماء . العصب : ضرب من البرود يعصب غزله ثم يصبغ ويحاك . واليمنة : ضرب من برود اليمن . المتلاحك : المتصل بعضه ببعض .

(٦٨) عبث الوليد ١٤٢ التزجية : الدفع برفق . والخفوف : السرعة .

اما ذوقه للغة النص ، أو ذوق اللغة الذى تمثله وصدر عنه ، فلم يكن التناسب بين المتعاطفين المذكور قبل سطور غاية ما يؤثره هنا ، بل كان ما آثره وصدر عنه أكثر من ذلك ٠

فهو يؤثر المسموع ويرفض مالم يأت فيه ، كما يبدو من قوله عن بيت أبى تمام :

أَطَلَّ على كُلَى الآفاق حتّى   كأَنَّ الأَرضَ فى عَيْنَيْهِ دَارُ

« كلى : جمع كلية ، استعارها للآفاق ، لأن من اطلع على كلية الشىء فقد خبر أمره ، اذ كانت الكلية لاتكون الا فى الباطن ٠ ومن روى (كلا الآفاق) بكسر الكاف وهو يريد كل الآفاق فروايته خطأ ، لأن (كلا) يستعمل للاثنين لا للجمع ، ولم يأت فى المسموع كلا القوم ، ولا كلا الأصحاب ، وانما يقال : كلا الرجلين وكلا الفرسين ونحو ذلك ٠٠ ولا ينبغى أن يعدل عن ضم الكاف » (٦٩) ٠

كذلك يؤثر ماخلا من التعسف ومن الحاجة الى التأويل ومن الضرورة على مالم يخل منها ٠

فرواية بيت أبى تمام :

وَمَقْدودةٍ رُؤْدٍ تَكَادُ تَقُدُّهَا   إصَابَتُهَا بالعَيْنِ منْ حَسَنِ الْقَدِّ

بفتح (السين) ، فى قوله « من حسن القد » ، أى من القد الحسن ، أى تصاب بالعين لأجل قدها الحسن = أوجه عنده من ضمها ، فيقال من « حسن القد » ، وان كان جائزا ، لأن ترك التعسف أحسن (٧٠) ٠

كأنه يرى الضم من الرواة لا من الشاعر ، على حين نسبه الآمدى

---

(٦٩) شرح التبريزى لأبى تمام ٢/١٥٥ ٠

(٧٠) المرجع السابق ٢/٦١ مقدودة : حسنة القد ، رؤد : مقتنية ٠

اليه ، وشنع به عليه (٧١) .

ورواية بيت أبى الطيب :

حُشاشةُ نفسٍ ودَّعَتْ يَوْمَ ودَّعُوا ... فلم أدْرِ أىَّ الظَّاعِنِين أُوَدِّعُ (٧٢)

بـ (الظاعنين) على الجمع ، أحسن عنده من (الظاعنين) على التثنية ، اذ هو بالجمع « على مايجب من الكلام ، لأنه جعل الحشاشة مودعة ، وجعل المودعين جمعا . واذا روى على التثنية فانه أجرى المودعين الذين ذكرهم فى قوله : (ودعوا) مجرى الخليط ، وهو نحو من قول الأسود به يعفر :

إنَّ المنيةَ والحُتوفَ كِلاَهُمَا ... يُوفِي الْمَخَارِمَ يَرْقُبَانِ سَوَادِى

جعل الحتوف بمنزلة العدو » ، فقد افتقر الى هذا التأويل ، ومالا يفتقر اليه أولى (٧٣) .

ومجىء قول البحترى ـ فى الأصل الذى نظر فيه أبو العلاء :

فأَخَذْها بِكَفِّهِ ثم أَغْفا

باسكان الذال « ردىء جدا ، فاخر الفعل الماضى لم يجىء اسكانه فى شعر فصيح ، وهو من الضرورات القبيحة ، والصواب : فحواها » (٧٤)

وعند أبى العلاء أيضا أن مايقوى به اللفظ أو يتفق مع الأكثر من الروايات أحسن وآثر ، فبيت أبى الطيب :

مَالِمَنْ ينْصِبُ الْحَبَائِل فى الأرْ ... ضِ ومَرْجَاهُ أنْ يصِيد الهِلاَلا

---

(٧١) الموزنة ٢/٩٥ .

(٧٢) حشاشة : بقية .

(٧٣) الموضح ٢/١٦٠ أ يوفى : يعلو . المخارم : الطرق فى الجبال .

(٧٤) عبث الوليد ص ١٤٩ .

يروى فيه (مرجاه) باضافة (مرجا) الى الهاء ، (ومرجاة) على أن الهاء للتأنيث ، لكن روايته بالاضافة أحســـن عند المعرى ، لأن الهاء ترجع الى (من) ، وهذا أقوى فى اللفظ من أن يكون (من) لا عائد اليها (٧٥) .

وبيت البحترى :

وأَيُهُمُ يُعِيرُ عَلَيْكَ دَمْعًــا و آلُسُ دُونَ أَهْلِكَ والدُّرُوبُ(٧٦)

ذهب فى التعليق عليه الى أن كون (آلس) على فاعل آثر عنده من كونه مضموم اللام ، ـ وان كان الوجهان متقاربين ـ لأن الأعجمى اذا عرب وجب أن يحمل على الأكثر ، وفاعل من هذا الباب أكثر من غيره لأن اللام اذا كسرت حمل على فاعل من الألَس ، وهــو الخيانة وقلة العقل ، واذا ضم احتمل أن يكون فعلا مضارعا مثل آمر وآخذ ، ويجوز أن يحمل على جمع واحد من الثلاثى ، نحو كلب وأسد ، لأنا لو جمعنا أسدا على أفعل قلنا آسد .. (٧٧)

لكن المعرى على سلامة حسه اللغوى فيما أوردنا ، لم يتضح وجه الرأى عنده فى رفضه رواية قول امرىء القيس :

من السَّيْلِ والغُثَّاء فَلْكَةُ مِغْــزَلِ

فجِئْتُ وقَدْ نَضَّت لنومٍ ثِيابهـــا

بتشديد الثاء فى (الغثاء) ، والضاد فى (نضت) ، ذلك الذى عدل اليه الرواة ـ كما قال ـ لتصحيح الزنة ، فقد احتج لرفضه بأن ذلك منهم

---

(٧٥) الموضح ٢/١٧٢ ب .

(٧٦) آلس نهر ببلاد الروم . والدروب : مداخل تلك البلاد .

(٧٧) عبث الوليد ٥١ .

قد أفسد اللفظ ، وبان الشاعر ـ كما أنطقه ـ لم يقل الا بالتخفيف على الزحاف (٧٨) ، وهنا نسأل : ان صح أن الشاعر لم يقل الا على الزحاف ، لأنه لم يكن عندهم بمكروه كما قال = فأى فساد فى اللفظين على رواية التشديد ، وهما فى المعاجم بالتخفيف والتشديد لمعناهما فى البيتين ؟

وأما ذوقه لموسيقى النص : فقد كان أساسه فى ايثار روايات يتحقق بها التناسب الصوتى ، ورفض أخـــرى مؤدية الى فســاد الوزن أو الى اختلافه ، خذ مثلا تعليقه على قول أبى تمام يطلب من ممدوحه فرسا :

فَهُوَ لَدَى الرَّوْعِ والحَلائب ذُو أعلىً مُندًّى وأسْفلٍ يَبَسِ

« الوجه أن ينون (أعلى) ليساوى (أسفلا) فى التنوين ، اذ لو ترك تنوينه لتنافرت الكلمات » (٧٩) .

أوْ تعليقه على بيت أبى الطيب :

وتَرَى المُرُوَّةَ والفُتُوَّةَ والأُبُـ وَّةَ فِيَّ كُلُّ مليحةٍ ضَرَّاتِهَا

« أصل المروءة الهمز ، ويجب أن يكون أبو الطيب خفف الهمزة ، ليضاهى بها الأبوة والفتوة » (٨٠) .

تجده قد أوجب من الرواية ما يحقق التناسب الصوتى بين الألفاظ ، ايثارا منه لتناسبها على تنافرها ، وهو أساس جمالى عنده سوف يأتى علينا كثير من أمثلته .

ثم تأمل رفضه رواية البغداديين فى (قفانبك) ، حيث يقـــول لامرىء القيس :

---

(٧٨) رسالة الغفران ٣١٥ .

(٧٩) شرح ديوان أبى تمام للتبريزى ٢/٢٣٧ الحلائب : جمع حلبة من الخيل .

(٨٠) الموضح ١/٩١ ب .

« ياأبا هند ، ان رواة البغداديين ينشدون فى (قفانبك) هذه الأبيات بزيادة الواو فى أولها ، أعنى قولك :

وكأنَّ ذُرَا رَأْسِ الْمُجَيْمِرِ غُدْوَةً

وكذلك : وكأنَّ مكاكِىَّ الجِواءِ

وكأنَّ السِّبَاعَ فِيهِ غَرْقَى

فيقول : أبعد الله أولئك ، لقد أساءوا الرواية ، واذا فعلوا ذلك فأى فرق يقع بين النظم والنثر ؟ انما ذلك شىء فعله من لا غريزة له فى وزن القريض ، فظنه المتأخرون أصلا فى المنظوم ، وهيهات هيهات » (٨١)

أو قوله عن بيت البحترى :

قَرُبَتْ مِنَ الفعلِ الكريمِ يَدَاكَا

« هذه الرواية الصحيحة ، ومن روى (قريب) فقد غلط غلطا بينا ، ودل على أنه لا يعرف وزن الشعر بالغريزة ، لأنه اذا روى هذه الرواية كان النصف الأول من الطويل الثالث ، والقصيدة من ثانى الكامل ، وذلك بين على من له أقرب حس » (٨٢) .

تجده فى الأول يحكم الشاعر فى تلك الزيادة التى ليست من الوزن فى شىء ، فيرفضها لأنها تذهب بجلال الشعر ، حتى لتكاد تصير به الى النثر ، وكأنه يترفع بالشاعر هنا أن يأتى منه ذلك الذى لا يكون الا ممن لا غريزة له فى الوزن ، بعدما آخذه عليه فى رسالته الى

---

(٨١) رسالة الغفران ص ٣١٣ .

(٨٢) عبث الوليد ص ١٦٢ . ولكى تتبين أن القصيدة من ثانى الكامل تأمل الشطر الثانى : ونأى على المتطلبين مداكا (ديوان البحترى ١٥٦٨/٣ طبع دار المعارف) .

بعض كتاب الديوان ، التى رجحنا كونها قبل (الغفران) ، مؤاخذة تشعر بنسبته ذلك اليه لا الى الرواة .. ولعل هذا التطور فى رأيه راجع الى نضج حسه النقدى ووعيه بما يجوز على السابقين وما لا يجوز ، وربما كان لمزيد من الثقة بالكندى منظورا فيها الى ما كان من احسانه واقتداره .

ثم تجده فى الثانى يرفض الرواية لسبب واضح ، هو اختلاف شطرى البيت بها فى البحر ، مما لايصح أن يكون فى القصيدة .

وأما ذوقه للمعنى : فتبعا لما يرضاه ويؤثره ، من الصحيح والجيد ، أو الأبلغ والأجود ، كان تمييزه بين المقبول والمرفوض ، والفاضل والمفضول من الروايات .

فلتحقيق صحة المعنى كان رأيه فى بيت جميل :

وَصَاحَ بِبَيْنٍ مِنْ بُثَيْنَةَ والنَّوى جَمِيعٌ بذات الرَّضْم صَرْدٌ مُحَجَّلُ

أن من انشده يضم الصاد مخطىء، «لأنه يذهب الى أنه أراد الصُّرد فسكن الراء ، وانما هو صَرْدٌ ، أى خالص ، من قولهم : أحبك حبا صردا ، أى خالصا . يعنى غرابا أسود ليس فيه بياض : وقوله : محجل أى مقيد ، لأن حلقة القيد تسمى حجلا ، قال عدى بن زيد :

أعاذِلَ قد لاقيتُ مايَزَعُ الفتَى
وَطَابَقْتُ فى الْحِجْلَيْنِ مَشْى الْمُقيَّد

والغراب يوصفَ بالتقييد لقصرِ نساهُ » (٨٣)

ولتحقيق وحدة المعنى فى البيت كان تعقيبه على بيت الطائىّ :

---

(٨٣) رسالة الغفران ص ٣١٢ الصرد : طائر أبقع ضخم الرأس يصيد العصافير ، يزع : يكف . النسا : عرق من الورك الى الكعب .

عُطايا هِيَ الأَنْواءُ إلا عَلَامَةً

دَعَتْ تِلْكَ أَنْواءٌ وتِلكَ مَوَاهِبًا

«بعض المتأدبين ينشد هذا البيت (دُعَتْ) على معنى (دُعِيَتْ)، يذهب الى أنها لغة طائية ، وما يجب أن يكون الشاعر قال الا (دعت) بفتح الدال ، ويكون (دعت) فى موضع وصف للعلامة ، أى « سمت » من قولهم : دعوت الرجل بكذا اذا سميته ، ودعوته اذا ناديته ، فأما اذا أنشد هذا البيت على (دعت) فى اللغة الطائية ، فان النصف الثانى يكون منقطعا من النصف الأول على أنه بيان له ، ولا يكون متعلقا بقوله (علامة) » (٨٤) .

ولتحقيق جودة التشبيب كان تعليقه على بيت البحترى :

عَجِلَتْ إلى فَضْلِ الخِمَارِ فآثَرَتْ

عذباتِهِ فى مَوْضعِ التَّقْبِيـــل

« كان فى النسخة (فأثَّرَتْ عذباتُهُ)، وفى الحاشية (فأَرْسَلَتْ)،

فاذا كان من أثرت فهو من التأثير ، كأنه يصف مواضع التقبيل بالرقة ، وهذا افراط يؤدى الى ماليس بحميد ، ويخرج المعانى الى الاحالة ، كما قال القائل :

لو حَمَلَتْ خَرْدلةً بكفِّها أَثْقلها الْمَحْمُولُ أَوْ أَمَالَهَا

ولا خير فى المرأة اذا صارت الى هذه الحال ، وانما الروايـــة الصحيحة (فآثرت) ، من الايثار ، والمعنى على ذلك يلطف ويحسن ، يريد أنها بخلت عليه بهين آثرت به عذبات الخمار . وفى أخبار البحترى أن دعبل بن على الخزاعى كان يستحسن هذا البيت ويقول : انه أحسن

---

(٨٤) شرح التبريزى لأبى تمام ١/١٥٠ . والأنواء هنا : الأمطار .

بيت قيل فى التشبيب ، فحكى ذلك أبو الغوث بن البحترى لأبيه • فقال : هذا منه كثير ، أو نحو ذلك من الكلام » (٨٥) •

فهل كان تمييزه القاطع بين الروايات فى هذه الأبيات الا عن نظر للمعنى ، وما ينبغى لصحته أو جودته • فحيث كان مراد جميل : صاح نذير البين بفراق بثينة بعد اجتماعها = كان حكمه على رواية من روى (صرد) ـ بضم الصاد ـ للطائر المعروف أنها خطأ ، لبعدها عن المعنى ، لأن نذير البين المعنِى هو الغراب لاغير ، بقرينة ذكر التقييد ، وهو من صفاته ، وكانت الرواية عنده (صرد) بفتح الصاد ـ أى خالص السواد ـ ليصح المعنى •

وحيث كانت وحدة المعنى فى بيت الطائى باتصال شطريه كان حكمه بايجاب رواية (دعت) بفتح الدال ـ دون (دعت) بضمها ـ لأنها هى التى تتحقق بها هذه الوحدة •

وحيث كانت جودة التشبيب فى بيت البحترى أنها بخلت عليه بما آثرت به عذبات الخمار من مواضع التقبيل ، واحالته أنه وصف لهذه المواضع بالرقة حتى لتتأثر بتلك العذبات = كان حكمه لرواية (آثرت) دون (أثرت) ، مع الاحتجاج لذوقه فى البيت بما وعى التاريخ من ذوق السابقين فيه •

وكما كان هذا التمييز القاطع ـ عن ذوق المعنى ـ كان هذا الترجيح أيضا لرواية (هر) على (هز) فى قول الحماسى حزاز بن عمرو :

هلَّا علَى زيْدِ الفوَارس زَيْــــدِ الَّلاتِ أو هلاًّ علَى عمْرِو
تَبْكِينَ لا رَقَأَتْ دُمُوعُكِ أوْ هلاَّ علَى سَلَفَىْ بنى نصْر
خَلَّوْا عَلَىَّ الدَّهْرَ بَعْدَهُــــمُ فبُقِيتُ كالمَنْصُوب لِلدَّهْر
إنَّ الرزِّيةَ ما أُولاكِ إذا هَرَّ المُخالعُ أَقْدُحَ الْيَسْرِ

---

(٨٥) عبث الوليد ص ١٧٢ ، ١٧٣ •

« لأن هر – بمعنى كره – أبلغ فى المدح ، اذ كان المخالع فيها قد عجز عن الدخول فى الأيسار ، وهو فى الرواية الأخرى معدود فيهم » (٨٦) .

يريد الشاعر : ان المصيبة كل المصيبة فقد أولئك الأخيار اذا اشتد الزمان ، وكره المقامر أسهم القمار .

ولعل مما يتصل بذوقه للمعنى هنا ، لفته الى مصدره ، واستناده اليه في التمييز ، فى نحو قوله عن بيت أبى تمام .

لهُ خُلُقٌ نهى القرآنُ عنهُ وذاك عطاؤهُ السَّرَفُ البِدَارُ

« من روى (السرف البذار) بالذال المعجمة فهو مصحف ، وانما يتعلق بقوله تعالى : (**وآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ولا تبذر تبذيرا**) (٨٧) ، وليس فى الآية ذكر السرف لفظا ، وانما فيها نهى عنه فى المعنى ، والبذار ليس مصدر بذر ، وانما بنى الطائى المعنى على الآية الأخرى ، وهى قوله تعالى : (**ولا تأكلوها اسرافا وبدارا أن يكبروا**) (٨٨) ، فدل ذلك على الدال غير المعجمة ، وبين اللفظين فى القوة تفاوت وبون شديد » (٨٩) .

فقد حكم على الرواية بالتصحيف لبعدها عما يتوهم أخذها منه ، مبينا المأخذ الحقيقى لمعنى الطائى ، ومحتجا به على ما اعتقده من رواية فى البيت ، وهى رواية الدال غير المعجمة ، التى هى مع ذلك أقوى لفظا من الرواية الأخرى .

---

(٨٦) شرح التبريزى لحماسة ٢/١٥٥ رقأت : سكنت . خلوا على الدهر : أغروه بى وسلطوه على . و « ما » فى «ما أولاك» زائدة ، وأولاك : لغة فى أولئك . المخالع : المقامر . اليسر : القمار .

(٨٧) سورة الاسراء آية ٢٦ .

(٨٨) سورة النساء آية ٦ والبدار : مصدر بادر الى الشىء ، أى سارع اليه وعاجله .

(٨٩) شرح ديوان أبى تمام للتبريزى ٢/١٥٢ .

وأما ايثاره للصنعة ولتحقيق بعض وجوهها فى النص = فقد صدر عنه فى غير موضع من تمييزه بين الروايات ، مما نجتزىء للدلالة عليه، بقوله عن بيت أبى تمام يمدح ويطلب فرسا :

جَرَّتْ له أَسْمَاءُ حَبْلَ الشُّمُوسْ والوَصلُ والهجْرُ نعيمٌ وبُوسْ

« أحسن الروايات (جرت له حبل الشموس الشموس) ، وينشد على أربعة أوجه : فتح الشينين ، وضمهما ، وفتح الأولى وضم الثانية ، وفتحها وضم الأولى . فأما الذى يروى (جرت له أسماء حبل الشموس » فانه يخلى هذا المصراع من الصنعة . فاذا روى (جرت له حبل الشموس الشموس) بفتح الشينين ، فالشموس الأولى : هى الشموس من الخيل ، والشموس الثانية : اسم امرأة تعرف بالشموس ، أو يكون نعتا لها ، أى هى شمس من الريب ... ومن روى (حبل الشموس الشموس) بضم الشينين ، أراد بالأولى جمع الشمس الطالعة ، وبالثانية جمع الشمس التى يعنى بها المرأة الحسناء ، والعامة اذا وصفوا الانسان بالطمع قالوا : هو يتعلق بحبال الشمس . ومن روى بفتح الأولى وضم والثانية ، أراد بالأولى الشموس من الخيل ، وبالثانية جمع شمس من النساء ، ومن قدم الضم وأخر الفتح فالى هذا المعنى يرجع » (٩٠) .

أرأيت كيف جذبته الرواية التى يتحقق بها الجناس الى تفضيلها على الرواية العاطلة من هذه الحلية ، بل الى أن يستقصى الروايات المحققة لها ، ويبين وجه كل منها ومعناه ... ولولا حرصه على ماينبغى للنص من توشيتها وجمالها ما كان اقباله هكذا عليها ، وتفضيله للرواية بها على غيرها .

وكما تعاظمت ثقة أبى العلاء بذوقه فاعتمد عليه هذا الاعتماد فى فحص المتن ونقده = تعاظمت أيضا بمعرفته ، ذلك التعاظم الذى ندل عليه هنا .

---

(٩٠) المرجع السابق ٢/ اختصار .

نعنى معرفته بسياق النص ومذهب صاحبه وقدره :

فسياق النص ـ أى القرائن السابقة عليه واللاحقة له ـ : كان شديد الملاحظة له ، والاستناد اليه فى التمييز بين الروايات ، ليس سياق البيت أو الأبيات المتجاورة فحسب ، بل سياق القصيدة أيضا ، مما يدل على شمول النظر وقوة الوعى .

من هذه القرائن التى استدل بها على ايجاب رواية ورد أخرى ما يتصل بالمعنى ، كقوله عن البيت الأول من أبيات الحماسى ، زفر ابن الحارث :

وَلمّا قرَعْنا النَّبْعَ بالنَّبْعِ بعضَهُ ببعضٍ أَبَتْ عِيدَانُهُ أنْ تكسَّرا

وَلمَّا لقِينا عُصْبةً تغْلِبِيَّةً يقُودُون جُرْدًا للمنية ضُمَّرا

سَقَيْنَاهُمُ كأْسًا سَقَوْنَا بمِثْلها ولكنهم كانُوا على المَوْت أَصْبرا

« لم يقل الرجل ـ والله أعلم ـ الا (عيدانهم) ، يعنى القوم الذين حاربوه ، لأنه شهد لهم بالصبر ، وليس هو من ذم أصحابه ، كما قال عمرو بن معد يكرب :

فلوْ أنَّ قوْمِى أنْطقتْنى رماحُهُمْ
نَطَقْتُ ولكنَّ الرِّماحَ أجَرَّتِ

... (٩١) »

---

(٩١) شرح الحماسة للتبريزى ١/١٥٢ والنبع : شجر صلب يعمل منه القسى. أجرت : أمسكتنى عن مدحهم ، من الاجرار ، وهو أن يشق لسان الفصيل ويجعل فيه عويد لئلا يرضع أمه .

ومنها ما يتصل بطبيعة الخبر من خطاب وغيبة ، كقوله عن بيت أبى تمام :

صَدَفَتْ لُهَيّا قلْبِيَ الْمُسْتَهْتَرِ

فبَقِيتُ نهْبَ صَبَابَةٍ وتذكُّـر

«من روى : (صدعتِ لَهْبَى قلبى) فروايته تصحيف ، ويدل على ذلك أنه جاء فى البيت الثانى بما يدل على أنه يخبر عن غائب ، وهو قوله :

غابَتْ نجومُ السَّعْد يَوْمَ فِرَاقِها

وأَسَاءتْ الأَيامُ فِيـها مَحْضَرِى

وان كان الخروج من احدى المخاطبتين الى الاخرى جائزا كثيرا فانه يقبح فى هذا الموضع » (٩٢) .

فعندما كانت شهادة الحماسى بالصبر لاعدائه جزءا من المعنى فى أبياته = أوجبت وحدة سياقه عند المعرى ما اقترحه من الرواية فى بيته الأول . ولما كان الالتفات من الخطاب الى الغيبة فى بيتى الطائى قبيحا فى هذا الموضع خاصة ، موضع الغزل المقتضى لوحدة الشعور والسياق بالخطاب أو الغيبة = كان رفضه لرواية الخطاب قبل الغيبة ، لينتظم الأسلوب فى سياق الغيبة فقط ، على أن الشاعر انما يحدث عمن أعرضت عنه وفارقته ، فبقى بعدها نهب صبابة وتذكر ...

ومن قرائن السياق التى استدل بها على الترجيح والتفضيل مايتصل بوحدة الأسلوب ـ فى القصيدة أو الأبيات أو البيت ـ وما يجنح الى رعاية المقام ، فمما يتصل بوحدة الأسلوب فى القصيدة قوله عن بيت المتنبى :

---

(٩٢) شرح التبريزى لأبى تمام ٤/٤٤٩ . وصدفت : أعرضت ، لهيا : امرأة وهو تصغير لهوى ولهيا . المستهتر : الذاهب العقل .

ليس يَحيكُ المَلَامُ فى هِمَمٍ
أَقْرَبُها منكَ عنك أَبْعَدُها

« يقوى رواية من روى فى أول القصيدة (أبعد ؟) ـ على الاستفهام ـ قوله فى هذا الموضع : (أقربها منك عنك أبعدها) ، لأن أبا الطيب قليل التكرير » (٩٣) .

ومما يتصل بوحدة الأسلوب فى الأبيات المتلاحقة قوله عن بيت البحترى :

أَلِلشَّبيبةِ لمَّا كان آخرُها
خلفِي وللشَّيْب لما كان قُدَّامِي

« كان فى الأصل (هل للشبيبة) ، وفى الحاشية (أللشبيبة) ، وهو أحسن ، لأن (هل) قد جاءت فى البيت الذى بعده مبتدأ بها فى أوله ، وهو قوله :

هل الشَّبَابُ مُلِمٌّ بى فرَاجعَةٌ
أيامُهُ لِيَ فى أعقاب أَيَّامِي

والبيت الذى أوله (أللشبيبة) متعلق بالبيت الذى قبله ، وهو قوله :

مَصْبُوبَتَان عَلَى سُخطِي ومَعْتَبَتِي   وَصَبَّتَان بتَكْليفى وإِغْرَامِي

والمعنى أنهما تفعلان هذا ، ثم استفهم فقال : أذلك منهما لما كان آخر الشبيبة خلفى ؟ والألف ههنا أحسن من هل ، لأنها الأصل فى باب الاستفهام ، والاتساع يقع فيها أكثر منه فى غيرها ، فيحسن أن يقال : ألأجل كذا جفوتنى ، ولا يحسن : هل لأجل كذا جفوتنى » (٩٤) .

---

(٩٣) الموضح ١/١٢٣ ب
(٩٤) عبث الوليد ص ٢١٧ .

ومما يتصل بوحدة الأسلوب فى البيت قوله عن بيت أبى تمام :

قَلائِصُ مَايُقيهَا حَدْهَمى ولا سَيْفى غَدَاةَ الهَمّ واقِ(٩٥)

« اذا رويت (سيفى) فالمعنى مفهوم بين ، لأن العرب تمدح بعقر الابل وتؤبن الهالك بذلك .. ومن روى (ولا سبقى) فالمعنى ولا سبقى الى السير ، والوجه الأول – لتقديمه ذكر الحد – أحسن » (٩٦) .

ومما يجنح الى رعاية المقام قوله – على لسان النابغة لابن القارح – فى (الغفران) (٩٧) :

« وكيف ينشدون – يعنى الرواة – :

وإذا نَظَرْتَ رأيت أَقْمَرَ مُشْرقا وما بعــــده ؟

فيقول – أرغم الله أنف شانئه – : ننشـد واذا نظرت ، واذا لمست ، واذا طعنت ، واذا نزعت ، على الخطاب . فيقول النابغة : قد يســـوغ هذا ، ولكن الأجود أن تجعلوه اخبارا عن المتكلم ، لأن قولى (زعـــم الهمام) يؤدى معنى قولنا (قال الهمام) ، فهذا أسلم ، اذ كان الملك انما يحكى عن نفسه ، واذا جعلتموه على الخطاب قبح : ان نسبتموه الى فهو مندية (٩٨) ، وان نسبتموه الى النعمـان فهـــو ازراء وتنقص . فيقول – أيد الله الفضل بزيادة مدته – : لله درك يا كوكب بنى مرة ، ولقد صحف عليك أهـل العلم من الرواة ، وكيف لى بأبوى عمرو : المـازنى والشيبانى ، وأبى عبيدة ، وعبد الملك ، وغيرهم من النقلة لأسالهم ،كيف يروون – وأنت شاهد – لتعلم أنى غير المتخرص ولا الولاغ (٩٩) ؟ فلا

(٩٥) قلائص : جمع قلوص ، وهى الفتية من الابل .
(٩٦) ديوان أبى تمام بشرح التبريزى ٢/٤٢٥ .
(٩٧) رسالة الغفران ٢٠٥ – ٢٠٦ .
(٩٨) المندية : الكلمة يندى لها الجبين خجلا .
(٩٩) المتخرص : المفترى ، الولاغ : المغتاب .

يقر هذا القول فى حذنة (١٠٠) أبى أمامة الا والرواة أجمعون قد أحضرهم الله القادر .. فيقول : لا اله الا الله مكونا مدونا ، وسبحان الله باعثا وارثا ، وتبارك الله قادرا لاغادرا ! كيف تروون أيها المرحومون قون النابغة فى (الدالية) : واذا نظرت ، واذالمست ، واذا طعنت ، واذا نزعت، أبفتح التاء أم بضمها ؟ فيقولون : بفتحها . فيقول : هذا شيخنا « أبو أمامة» يختار الضم ، ويخبر أنه حكاه عن « النعمان » . فيقولون : هو كما جاء فى (الكتاب الكريم) « (**والأمر اليك فانظرى ماذا تأمرين**) » (١٠١) .

ان القرائن اللاحقة والسابقة فى النصوص الثلاثة الأولى ، بما تؤدى اليه من وحدة الأسلوب ، وهى من جميل مايؤثر كما سيأتى = كانت - مع ما أشار اليه من خصوصية للشاعر أو لبعض الألفاظ - معتمده وأساسه فى ترجيح مارجح من الروايات ، كما كان النظر الى قول النابغة (زعم الهمام) قبل قوله : (واذا نظرت ...) ، على أن (زعم) فى معنى (قال) ، ومابعدها مقولها ، أى حكاية الهمام عن نفسه = كان النظر الى هذا السياق المناسب - دون غيره - للمقام أساسه فى اختيار الضم على الفتح ، ذلك الاختيار الذى أبدع فى عرضه على هذا النحو ، من السخرية الجميلة ، والتعريض اللاذع بالنقلة من الرواة السابقين .

أما معرفته بمذهب صاحب النص : فقد كان الطائى والبحترى والمتنبى أخص من تعرف مذاهبهم ، واعتمد عليها فى تحقيق أشعارهم ، اذ كانت صنعة الطائى من حيث الكلف بالاستعارة والجناس والمشاكلة وغيرها = ذريعته فى ايجاب الرواية أو ترجيحها ، من نحو تعليقه على قوله :

مُلِّكْتَهُ الصِّبَا الْوَلُوعُ فَأَلْـ ... ـفَتْهُ قَعُودَ الْبِلى وسُؤْرَ الخُطُوبِ

---

(١٠٠) الحذنتان : الأذنان .

(١٠١) سورة النمل آية ٣٣ .

« من روى (سود الخطوب) فله وجه ، الا أنه جدير بأن يكون تصحيفا ، و (سؤر الخطوب) : أى بقيتها ، ومن عرف مذهب الطائى ـ يعنى فى الكلف بالاستعارة ـ لم يعدل عن هذه الرواية » (١٠٢) ٠

أو قوله عن بيته :

مَزَّقْتُ ثَوْبَ عُكُوبِهَا بِرُكُوبِهَا   والنَّارُ تَنْبُعُ مِنْ حَصَا الْمَعْزَاءِ

« العكوب : يروى بضم العين وفتحها ٠٠٠ والأشبه بصناعة الطائى ضم العين فى (عكوب) ، ليكون مشاكلا لضمة الراء فى (ركوب (١٠٣) ٠» وانه لكثير ماقال أبو العلاء : « الأشبه بصناعة الطائى أو الأشبه بمذهبه كذا ٠٠٠ »

وكصنعة الطائى هنا خصوصية البحترى ، فى استعمال بعض الزحافات والمصادر ، حيث كانت أساسه فى الايجاب والترجيح أيضا ، من نحو قوله عن هذا البيت :

آمَنَنى غُولَ أَوْ جَالِي وَجَاوَزَ بى   فِى كُلِّ مُطَّلَبٍ غَايَاتِ آمَالِي

« كان فى النسخة (امنتنى) ، وهو تصحيف ، ولا ريب أن أبا عبادة قال (آمننى) ، يخبر عن ابن ميكال ، وجاء به على الزحاف ، لأنه يستعمل هذا الفن كثيرا فى قصائده ، ومن عرف مذهبه ـ يعنى فى هذا الاستعمال ـ لم يعدل عن هذه الرواية » (١٠٤) ٠٠

---

(١٠٢) شرح التبريزى لأبى تمام ١/١٢٣ ملكته : الضمير اوادى أحبته الذى ذكره فى البيت السابق ، الصبا الولوع : التى تأتى بالمطر كثيرا ، وأصل القعود ٠ الفتى من الابل الذى صلح لأن يقعد على ظهره .

(١٠٣) المرجع السابق ١/٤٠ العكوب بالضم : الازدحام والوقوف وغليان القدر ٠ وبالفتح الغبار ٠ المعزاء : أرض غليظة فيها حصى .

(١٠٤) عبث الوليد ص ١٨٣ ٠ والغول : الهلكة والداهية ٠٠ والأوجال : جمع وجل ، وهو الخوف .

أو قوله عن بيته الآخر :

فِدَاؤُكَ أقوامٌ إِذَا الْحقُّ نَابَهُمْ ... فَادَوْا مِنَ الْمَجْد المُطِلِّ نَوًا كِلَا

« كان فى الأصل (نواكلا) ، فان كانت الرواية صحيحة فهو يجوز فى ضرورة الشعر ، لأن باب فاعل اذا كان وصفا لمن يعقل من المذكرين يجمع على فُعَّل وفُعَّال .. ومن روى : (تواكلا) فهو أشبه بمذهب أبى عبادة ، لأنه قد جاء بما بعد هذه الألف مضموما فى القصائد التى يكسر فيها ، وذلك عندهم ليس بعيب » (١٠٥) . وهو هنا أيضا كثير الترديد لقوله : الأشبه بأبى عبادة كذا ...

على حين كانت مزايا المتنبى فى التعبير من مذهبه الذى لاحظه هنا ، ففضلا عن استئناسه السابق بكونه قليل التكرير ، يستأنس هنا بقلة قصره للممدود فى تعليقه على بيته :

حَيِيٌ مِنْ إِلَهِى أَنْ يَرَانِـــى ... وَقَدْ فَارَقْتُ دَارَكَ واصْطَفَاكَا

« الأشبه بأبى الطيب أن يكون قال : (واصطفاك) وهو يريد فعلا ماضيا ، كأنه قال : وقد فارقت دارك وقد اصطفاك الله سبحانه ، وذكر محمد بن سعد راوية المتنبى أنه سمعه يقول : ليس فى شعرى قصر ممدود الا قولى :

خُذْ من ثَنَاىَ عَلَيكَ مَا أَسْطِيعُهُ ... لاَ تُلْزِمَنّى فى الثَّنَاءِ الْوَاجِبَا» (١٠٦)

لكن الجدير بالذكر هنا ، أن اعتماده على المعرفة بخصائص الشاعر أو بمذهبه ، انما كان لمجرد الكشف عما قال ، أو عما ينبغى أن يكون قد قال ، دون أن يعنى ذلك أنه الأجود أو الأفضل ، بدليل أنه كثيرا ما قرر شبه

---

(١٠٥) المرجع السابق ص ١٦٤ .
(١٠٦) الموضح ١/١٢٥ ب .

الرواية بمذهب الشاعر ، ثم اقترح الرواية الأجود ، ففى تعليقه على قوله البحترى :

وَصَفَا العَيشُ فى دُجُون تَتَبَّعْ نَ عَليلَ الْبَطْحَاءِ حَتَّى اسْتَبَلاَّ

يقول : كان فى النسخة (غليل) ، وهو يشبه مذهب أبى عبادة ، لأنه يقول فى الأخرى :

واو شِئْتُ يَوْمَ الْبَيْنِ بَلَّ غَليلَهُ

فاذا حمل على هذا الوجه فليس فيه كبير فائدة للمدوح ، لأنه اذا بل عطشه فقد يجوز أن لا يرويه ، وان رويت (عليل البطحاء) فهو حسن ، لأن قولهم (استبل) فى المرض أكثر من قولهم : (استبل) فى العطش ، واذا رويت بالعين حسن أن يكون (عليل) فى معنى معلول ، اذا سقى مرة بعد مرة ، وهذا ضرب من الصنعة لطيف ، لأن (عليلا) يحتمل وجهين ، و (استبل) يختص به أحدهما أكثر من خصوصية الآخر » (١٠٧) .

فانظر كيف هون من شأن الرواية الأصلية – مع شبهها بمذهب الشاعر – لقلة غنائها فى المديح ، ونوه بالرواية المقترحة لأنها أدق تعبيرا ، من حيث كانت (استبل) معها أكثر منها مع الأولى ، ولأنها بتضمنها معنى آخر محققة لضرب من الصنعة لطيف هو التورية .

وأما معرفته بقدر الشاعر وما يليق به : فقد كانت من وراء أحكامه على بعض الروايات التى آثرها أو رغب عنها ، اذ على الرغم من شدة نقده لغة البحترى فى (عبث الوليد) تقرأ له مثلا عن هذا البيت :

---

(١٠٧) عبث الوليد ص ١٧٢ . ودجون : جمع دجن ، وهو المطر الكثير . والعليل : المريض . والغليل : العطش .

وإنْ نَشَاءُ شَرَعْنَا فى تَطوُّلِهِ   شُرُوعَنَا فأَخَذْنَا مِنْهُ مَاشِينَا

« كان فى النسخة (وان نشأ) ، وهذا غلط لا يجوز مثله على هذا الرجل ، ولعله (وان هممنا شرعنا) ، أو نحو ذلك مما يقوم مقامه ، مثل : وان صدينا وان ظمينا » • وكثيرة هى العبارات التى نزه بها البحترى عن بعض الروايات الخاطئة ، من نحو « ولعله لم يقل شيئا من هذه الروايات لأن النقلة يوقعون أصناف التغيير » (١٠٨) • وأكثر منها مانزه به أبا تمام ، فثقته به أشهر وأظهر ، ومما ذكرناه من قبل فى ذلك قوله « ولعل الطائى سمعه فى شعر قديم ، لأنه كان مستبحرا فى الرواية » (١٠٩) •

واذا كان ـ كما رأينا ـ لم يقتصر على التمييز بين ماورد من الروايات ، بل ذهب الى التصحيح واقتراح الأجود أو الأحسن = فان مما اتجه اليه أيضا ـ لكن دون ذلك ـ :

* افتراض روايات أخرى وبيان وجهها فى استقصاء وطول نفس عجيبين ، مما نجده فى (ذكرى حبيب) كثيرا و (عبث الوليد) أحيانا » (١١٠) •

* النظر فى ترتيب قصائد الدواوين على حروف الهجاء ، فكثيرا ما أخطأ جامعوها ومرتبوها فى وضع بعض القصائد • وهنا تعقبهم المعرى ، فبين ما أخطئوا فيه ، وما يحتمل ترتيبا آخر أو أفضل (١١١) •••

---

(١٠٨) المرجع السابق ص ٢٢١ ، ٢٢٦ ، ٢٣٢ •
(١٠٩) انظر ص ١١١ •
(١١٠) شرح التبريزى لأبى تمام ١٧٧/٢ ، ١٧٨ ، وعبث الوليد ١٥٧•
(١١١) انظر : عبث الوليد ٢٩ ، ٣١ ، ٣٣ ، ٣٥ ، ١٤١ ، ٢٠٥؛ وشرح التبريزى لأبى تمام ٤٠٤/٢ •

* الاحتكام الى ما تعارف عليه الناس أو الشعراء فى بعض الأساليب والمعانى (١١٢) .. والى ما نقله الثقات من رؤساء الكتاب أيضا (١١٣) .

واذا كان مايؤخذ عليه فى هذا المقام ، فهو أنه ـ على الرغم من اتجاهه الى القطع والترجيح ، واحتكامه الى أقوم الأسس فى التمييز ـ لا يكاد يدع رواية حكم بتصحيفها ، أو رداءتها ، الا التمس لها وجها ، وبين مايمكن أن تحمل عليه مع ذلك ...

---

(١١٢) عبث الوليد ٨٢ ، ٢١٨ والموضح ١/١٠٢ ب .
(١١٣) شرح التبريزى لأبى تمام ١/٣٠٤ .

الاتجـاه الثالـث

تحليـل النصـوص وتقويمها

ماذا نعنى بالتحليل والتقويم ؟

لا نعنى بالتحليل هنا ـ مجرد شرحه للمعنى والغريب الذى رأينا صورا منه فى تحقيقه للمتن ، فذلك ـ وان كان منه ـ ليس كل فيه ٠

كذلك لا نعنى شرحه للنص فى الاطار الشامل للشرح كما فى (اللامع العزيزى) ، أو الاطار المحدود كما فى (عبث الوليد) ، لأن ماهنالك من بحوث استطرادية فى اللغة والنحو والعروض خارج عن عملية التذوق ، وعما نبحث عنه ٠

انما نعنى بالتحليل مايتصل بفهم النص وتذوقه ، فيما قصد اليه : **من شرح أو تعليل ، أو تاصيل = للغة ، والمعنى ، والصـنعة ، والوزن والقافية والبناء والمذهب الخاص ببعض الشعراء ٠**

أما التقويم فنعنى به ما ينبىء عن اعجابه أو سخطه ، من أحكامه ودفاعاته التى ارتبطت ـ فيما وجدت ـ بهذه العناصر أيضا ٠٠٠

ومن هنا ـ أى من اشتراكهما فيما قصد بهما من العناصر لأجـل تذوقها ـ كان الجمع بينهما فى هذا العرض تلافيا للتكرار ، واستيفاء لمعالم التذوق فى كل عنصر ٠ كما كانت ميزتهما على اتجاهاته الأخرى فى الدلالة على طبيعة ذوقه وثقافته ، وعلى ماكان منهما قبله فى سعة التناول وجدته ، اذ قل أن نجد من السابقين من استوعب هـذه العناصر فى تناوله ، بله من تعرض لمذاهب الشعراء ٠

وقبل أن نعرض اتجاهه اليهما فى كل عنصر على حدة نود أن نذكر هنا بأمرين هامين :

أولهما : أن هذا الاتجاه ـ لارتباطه بما ذكرنا من عناصر ـ يبدو وثيق الصلة بتلك القضية النقدية التى أثارها القدماء حول **اللفظ والمعنى** ، ولم تزل تثار باسم **الشكل والمضمون** ، اذ ليس ماعنوا باللفظ ـ أو الشكل ـ من كلمات وتراكيب وقوالب فنية ، وبالمعنى أو المضمون ـ من أفكار ومشاعر = الا تلك العناصر التى تعرض لها فيما أشرنا وكما سيأتى .

أى أنه ـ لهذا الارتباط ـ يتضمن موقف المعرى من **اللفظ والمعنى** ، ويكشف عن مدى اهتمامه بكل منهما ، مما يزيد فى أهميته من جهة ، ويبعث على تلمس ذلك فيه ثم تلمس موضعه بالنسبة الى ما سبق فى مجاله من جهة أخرى .

ومن تتبع ما سبق يمكننا أن نقول : ان رواد هذا المجال ـ قبل أبى العلاء ـ ثلاثة : فريق كان أميل الى المعنى ، فتلمس الجمال فيه ونوه بالنص من أجله ، كأبى عمرو الشيبانى فيما روى الجاحظ (١) ، وأنصار أبى تمام فيما روى الآمدى (٢) ..

وآخر كان أميل الى اللفظ ـ أى الصياغة ـ يراه مناط الجمال ومعقد النظر ، وان نظر الى المعنى فعلى أنه بعد اللفظ ، ويمثل هذا الفريق ـ على كثرته ـ الجاحظ (٣) وقدامة (٤) والآمدى (٥) ..

---

(١) الحيوان ٣/١٣١ .
(٢) الموازنة ١/٤٠٠ .
(٣) الحيوان ٣/١٣١ .
(٤) نقد الشعر ١٧ ـ ١٩ ، ١٩٤ .
(٥) الموازنة ١/٤٠٠ .

وثالث يبدو ميله اليهما معا ، وأظهر أصحابه ابن قتيبة (٦) والمرزوقى (٧) ...

ثانيهما : أن صور التحليل والتقويم ـ كما رأينا فى الفصل الثانى ـ تتوزع فى شروحه وبعض رسائله خاصة ، لكن على تفاوت بين هذه المصادر فيما غلب على كل منها من معالم التحليل والتقويم ، تبعا لدوافع تأليفها وطبيعة النصوص المتناولة فيها ، فقد يغلب الاتجاه الى التقويم كما فى (الغفران) ، أو الى التحليل كما فى الشروح أو فى أكثرها . وقد يغلب الاتجاه الى اللغة كما فى (عبث الوليد) ، أو الى الصنعة كما فى (ذكرى حبيب) ، أو الى الوزن والقافية كما فى (رسالته الى النكتى البصرى) ، أو الى المعانى كما فى (معجز أحمد) .

لذلك كان لابد للوفاء باتجاهه هنا أن ننظر الى هذه المصادر ، وأن نرجع اليها جميعها ، كيلا يخطئنا من وضوح الرؤية وشمولها ما أخطأ بعض الدارسين (٨) ، حين لاحظ أن الاتجاه الغالب على المعرى فى مجال النقد التطبيقى ـ وهو مانعنيه بالتحليل والتقويم هنا ـ هو الاتجاه اللغوى ، معتمدا فى ذلك على (عبث الوليد) خاصة . وليس الاتجاه اللغوى كما أشرنا وكما سنرى الا واحدا من اتجاهاته الى ما ذكرنا من عناصر ، كذلك ليس (عبث الوليد) الا جزءا من كل هو ماينبغى أن نصدر عنه فى عرض اتجاهه عموما ، واتجاهه الى كل عنصر من العناصر السابقة خصوصا .

---

(٦) الشعر والشعراء ٦٦/١ وما بعدها .
(٧) شرح الحماسة للمرزوقى : المقدمة .
(٨) انظر : اتجاهات النقد الأدبى فى القرن الخامس الهجرى ص ١٢١ .

ونعنى بها أداة التعبير من الفاظ وتراكيب ، تلك التى لا يكـــون المبدع بها والناقد لها الا اذا تمكن من مادتها وقواعدها ، بالمعرفة والحس والاستعمال ، حتى ان أى نقص فى هذا التمكن لا يقصر به فقط عن مــدى الاجادة والتأثير ، بل يعرضه أيضا لسهام المواخذة والاعتراض ٠

وتحقق هذه الأداة لأبى العلاء على أقوى ماتكون فى غير مجال من مجالات الابداع أظهر من أن نعيد القول فيه ، بعد ماذاع عنه واشتهر ، وبعد ما أسلفنا من صفته ومداه فى الحديث عن ثقافته أول هذا البحث ٠

أما تذوقه لها ونقده اياها ، مما نحن بصدده الآن ، فقد كان ــ فيما يبدو ــ كفاء ماتحقق له منها ، بدليل ما اتجه اليه فى تناولها ، ونعرضه فيما يلى :

التاريخ لبعض الألفاظ والتراكيب :

تاريخ استعمالها فى الجاهلية والاسلام ، من حيث امتداد هـــذا الاستعمال ، وكثرته أو قلته ، والمعروفون به فى كل منهما =

من طريف ما اتجه اليه ودل عليه فى دراسته للنص ، وكان اتجاهه اليه بالنسبة الى الشاذ الذى قل أو فقد فى القديم ، والفصيح الذى جد أو كثر فى الاسلام ، الا أنه بالنسبة الى الفصيح أوضح منه بالنسبة الى الشاذ ٠ لذلك نقتصر عليه هنا ، وندع الشاذ لحديث خاص سيأتى بعــد قليــل ٠

أما طرافته فلأنه يقفنا على مـــدى أصــالة اللفظ ــ أو التركيب ــ الشعرية ، كما يدلنا على سبق أبى العلاء فى مجال من أخصب مجالات

الدراسة اللغوية الحديثة ، التى لم تشتهر بعد عندنا ، وهو مجـــال التاريخ اللغوى (١) .

ومن أمثلته ـ فيما وجدت له ـ قوله عن بيت أبى تمام :

أهلَ الفراديسِ لم أُعدِدْ لذكركمُ   إلا سَقَى ورعَى اللهُ الفراديسا

« اختلف أهل اللغة فى (الفردوس) ، فقيل ، اشتقاق الفردوس ، من الفردسة ، وهى السعة وقيل : الفردوس البستان الذى فيه عنب . والفردوس ليس بكثير التردد فى الشعر القديم ، وانما اشتهر فى الاسلام ، وكثر ذكر المحدثين (باب الفراديس بجلق) (٢) ، وبيت جرير مشهور (٣) ، فأما قول أبى الطيب :

أَجَارُكِ يَا أُسْدَ الفراديس مُكْرَمُ

فكنت أظنه عنى فراديس جلق ، ثم أنكر ذكره الأسد ، لأن ذلك الموضع ليس مما تخطر فيه ، حتى حدث محدث أنه أراد الموضع المعروف بالفراديس ، وهو قريب من قنسرين والأجم (٤) ، وذكر من حكى ذلك أن أبا الطيب عبر هناك ليلا ، فسمع زئير الأسد » (٥) .

فكلمة (الفردوس) كما يبدو من حديثه الواثق عن تاريخها لم

---

(١) انظر فى التنويه بهذا المجال : المعاجم العربية فى ضوء دراسات علم اللغة الحديث للدكتور محمد أحمد أبو الفرج هامش ص ٩٦ ط دار النهضة العربية سنة ١٩٦٦ .

(٢) جلق : هى دمشق .

(٣) يعنى قوله :

فقلت للركب اذ جد الرحيل بنا   ما بعد يبرين من باب الفراديس

(ديوان جرير ص ٢٥٠ طبع بيروت)

(٤) قنسرين : مدينة بالشام . والأجم : موضع قريب منها .

(٥) شرح ديوان أبى تمام للتبريزى ٢/٢٥٥ ، ٢٥٦ .

تكثر فى الشعر القديم كثرتها وشهرتها فى الاسلام ، وعند المحدثين خاصة .

واذا كان هنا لم يبين السر فى تلك الشهرة ، فانه قد بينه فى كلمة (اليم) التى قال عنها فى التعليق على بيت ابن أبى حصينة :

وَفَلاةٍ كأنها لُجَّةُ اليَمِّ عَلَيْهَا مِنَ السَّرَابِ إيَاءُ(٦)

« **اليم** : البحر ، وليس أصلها بعربى ، ولكنهم قد استعملوه قديما ، ولما جاء فى القرآن العظيم ـ جل منزله ـ عرفته العرب ، ورددته فى أشعارها ، قال ذو الرمة :

داويّةٌ ودُجَى لَيْلٍ كأنهما يَمٌّ تَرَاطَنُ فى حَافَاتِه الرُّومُ(٧) . »

اذ كانت شهرة (**اليم**) وتردده فى الأشعار بعد الجاهلية = لمجيئه فى القرآن، والقرآن كما سنرى مرجع التأصيل الأول للاستعمال عند أبى العلاء .

وكما وثق بثقافته هنا فقرر أن شهرة (**الفردوس**) و (**اليم**) لم تسبق الاسلام ، كانت ثقته بهاأعظم ، حين قرر أن (**حمى الوطيس**) (٨) قد سبقت الاسلام ، وليست ـ كما قيل ـ مما جد فيه ، فى تعليقه على بيت أبى تمام :

وتَرَكْتَ تلكَ الأَرضَ ظِلاًّ سَجْسَجًا (٩)

مِن بَعْدِ ما كَادَتْ تكونُ وَطِيسَا

---

(٦) الاياء : ضوء الشمس .

(٧) شرح ديوان ابن أبى حصينة ٢/١٣٠ . والداوية : المفازة .

(٨) الوطيس : التنور ، والتنور : الذى يخبز فيه . وحمى الوطيس أى اشتدت الحرب .

(٩) سجسجا : أى معتدلا .

« بعض الناس يدعى أن أول من قال (**حمى الوطيس**) النبى ﷺ »
وما أحسب هذا الا وهما ، لأن (الوطيس) قد كثر فى الشعر القديم .
قال تأبط شرا :

إنى إذا حَمِىَ الوطيسُ وَأُوقِدَتْ
للحربِ نَارٌ كَرِيهَةٍ لم أَنْكُلِ (١٠)

وقال الأفوه :

أَدِينُ بالصـــبر إذا ضَــرَّمَتْ
نيرانَهَا الحربُ اضطرامَ الْوَطِيسْ» (١١)

فاذا مضينا معه فيما تتبع تاريخه ، وجدنا منه ـ على خلاف ماسبق ـ ماصار بعد الشهرة فى القديم ، الى القلة والا ستهجان عند المحدثين . وذلك (التقفية بمصدر الفعل) ، التى قال عنها فى تعليقه على بيت أبى تمام أيضا :

مافى النجوم سِوَى تَعِلَّةِ باطلٍ قَدُمَتْ وأُسِّسَ إفْكُهَا تَأْسِيسَا

« كان الشـعراء فى القديم اذا جـاءوا بالفعل جـاءوا بمصدره فى القافية ، كما قال النمر بن تولب :

بك انْلَهُمَّ من حَصَرٍ وعِيٍّ ومنْ نفسٍ أعالجها عِلَاجِ (١٢)

وكما قال القُطامِى : أَمَامَ الرَّكْبِ تَنْدَرِعُ انْدِرَاعَا (١٣)

وكما قال الآخر : كنار مَجُوسَ تَسْتَعِرُ اسْتِعَارَا

---

(١٠) لم أنكل : لم أجبن .
(١١) شرح التبريزى لديوان أبى تمام ٢/٢٦٦ .
(١٢) العى:العجز عن البيان . والحصر:الانقطاع عنه عجزا أو حياء .
(١٣) تندرع : تتقدم فى السير .

ثم كثرت الصناعة ، وتشدد فيها القالة ، حتى صاروا يعيبون ذلك . فأما أبو الطيب فقلما يجيء به ، ولا ريب أنه كان يعتمد تركه ، واخلاء الكلام من مثله أحسن وأقوى ، لأنه يجيء بعدما استغنى الكلام وعلم الغرض » (١٤) .

٢ ـ تأصيل التعبير :

أيضا مما اتجه اليه فيما يبدو مخالفا ، لاظهار صحته وسلامته ، وأن لا مخالفة فيه ، اما لجريانه على اللغة الجيدة كقوله عن حذف (ياءات المتكلم) فى بيت المتنبى :

فيا شَوْقِ ما أبقَىَ ويَالى من النَّوَى
ويادَمْعِ ما أجرى وَيَاقَلْبِ ما أصْبَا

« حذف الياءات التى للاضافة وهى اللغة الجيدة » (١٥) ..

واما لمجيء مثله فى القرآن الكريم كقوله عن « السحاب الغر » فى بيت المتنبى الآخر :

نَذُمُّ السَّحَابَ الْغُرَّ فِى فِعْلِهَا به
ونُعْرِضُ عنهـا كُلَّمَا طَلَعَتْ عَتْبَا

« وقوله (السحاب الغر) : جاء بالنعت مجموعا ، ولو قيل : السحاب الأغر لكان صوابا ، ومثل مجيء النعت مجموعا قوله سبحانه (وينشىء السحاب الثقال) (١٦) ، ولو أنه فى غير كتاب الله ـ سبحانه ـ لجاز أن يقال السحاب الثقيل » (١٧) .

---

(١٤) شرح التبريزى لأبى تمام ٢/٢٦٦ ، ٢٦٧ .
(١٥) الموضح ١/٢٣ ب .
(١٦) سورة الرعد آية ١٢ .
(١٧) الموضح ١/٢٣ أ .

واما لمجيئه فى الشعر القديم كقوله عن (**سليل الطين**) فى بيت السقط :

عَلَى أُمِّ دَفْرٍ لَعْنَةُ اللهِ إنها
لأَجدرُ أنثى أن تخُونَ وأنْ تُخْنِي

رآها سليلُ الطِّين والشَّيبُ شاملٌ
لها بالثُّرَيَّا والسِّمَاكَيْن والْوَزْن

« سليل الطين : آدم ، وقد وصف بذلك فى الدهر القديم ، قال الراجز :

مَاتَ أبوها جَلْعَدٌ من الْهَرَمْ
وآدمُ ابنُ الطين رَطْلٌ ما احْتَلَمْ

أى لين ما اشتد وقال المرار الفقعسى :

فَضَلْنَا النَّاسَ إنَّا أَوَّلُوهُــــمْ
وإنَّ مكارمَ الأَخلاق فينَــــا

أبًـا فأباً إذا نحنُ انتسبنا
إلى أنْ تبلغَ الأَنسابُ طينَــــا

يعنى الطين الذى جبل منه آدم ﷺ • والوزن : من النجوم ، ويجوز أن يكون يعنى به الميزان » (١٨) •

فحذف الياءات التى للاضافة ، ووصف اسم الجنس بالجمع ، ووصف آدم عليه السلام بسليل الطين = لما كانت مظنة المخالفة أو الجرأة ، كان

(١٨) ضوء السقط ورقة ٣٦ أ. أم دفر : كنية الدنيا • والدفر : النتن • تخنى : تهلك •

اتجاهه الى تأصيلها وتحقيق صحتها دفعا لهذا الظن ، بالنص على مكانة لغتها ، أو على نظائرها من القرآن والشعر القديم ·

ومن البين أنه حين اتجه الى التأصيل قد اعتمد أكثر ما اعتمد على القرآن ، ثم على الشعر القديم · وقلما اعتمد على غيرهما من حديث ومثل وأقوال مأثورة ···

٣ ـ وجه الخصوصية فى بعض التعبيرات :

ولما كانت لغة الأدب ـ والشعر منه خاصة ـ قائمة على الانتقاء والاختيار للأنسب أو الدال ، ممايحتاج الى سعةالمعرفة ، ورهافةالحس ،ولم يوفق فيه لذلك الا القليلون فى قليل مما أبدعوه = كان تلمس النقاد لهذا القليل واشارتهم اليه من قديم ، على نحو ماتجد فى قول ابن أبى عتيق عن بيت قيس بن الخطيم :

بين شُكُولِ النساء خِلْقَتُهَا   حَذْوًا فلا جَبْلَةٌ ولا قَضَفُ

« لولا أن أبا يزيد قال : (حذوا) مادرى الناس كيف يحشون هذا الموضع » (١٩) ·

بل كان منهم بعد ابن عتيق ، من تجاوز مجرد التنويه ، الى الشرح والتعليل ، لمواضع الخصوصية والاختيار ، ومن أخصهم فى ذلك أبو العلاء ، لأنه لم يتتبعه عند شاعر واحد ، ولا فى عصر معين ، بل تتبعه لدى القدماء والمحدثين ، وأتى فيه بما يعد من أهم معالم تذوقه ، من نحو تعليقه على قول أبى تمام للمعتصم فى فتح عمورية :

---

(١٩) الأغانى ١/٣ والجبلة : الغليظة : والقضف : الدقيقة اللحم : والحذو : التقدير ·

فَبَيْنَ أيامكَ اللَّاتِى نُصِرْتَ بِهَا

وبين أيام بَدْرٍ أقربُ النَّسَب

أَبْقَتْ بَنِى الأَصْفَر المِمْرَاضِ كاسْمِهِم

صُفْرَ الوجوهِ وجَلَّتْ أَوْجُه العَرَبِ

« الروم يقال لهم بنو الأصفر ... وقال (الممراض) ليدل على أن صفرته كانت من مرض لا من خلقة ، والممراض : الكثير المرض » (٢٠) .

فقد علل اختيار الوصف فى بيت الطائى بما يقتضيه ويؤدى اليه ، وهو الدلالة على أن صفرة أبى الروم من المرض لا من خلقة ، يعنى أنها صفرة طارئة لا موروثة ، لتكون صفرة وجوه بنيه التى قابلها بصفاء وجوه العرب غير منسوبة اليه ، وانما هى بسبب هزيمتهم أمام المعتصم ، ولولا هذا الوصف - المراض - لجاز أن تكون صفرة أبيهم وصفرتهم خلقية متوارثة ، فتكون مقابلته بين أثر الهزيمة فى صفرة وجوههم والنصر فى صفاء وجوه العرب غير دقيقة ...

على أن ما تتبعه من خصوصيات اذا تأملناه وجدنا أكثره للمتنبى ، ربما لزيادة اقباله على شعره ودراسته اياه ، وربما لقدرة المتنبى الشعرية ، وتفقده للغته الذى نوه به أبو العلاء كما سيأتى ..

ولم يكن فى تعليله هنا يعتمد فقط على ذوقه الفنى كما رأينا ، بل اعتمد أيضا على حسه اللغوى ، وخبرته الخاصة ، ومعرفته بالأخبار ، فمما اعتمد فيه على حسه اللغوى أو حس اللغة الذى تمثله قوله عن كلمة (عند) فى بيت المتنبى :

---

(٢٠) شرح ديوان أبى تمام للتبريزى ٧٩/١ .

وَيَمْنَعُنِى مِمَّا سِوَى ابنِ محمدٍ
أياد له عندى يَضِيقُ بهَا عِنْدُ

« أى انه قد أكثر النعم على ، فضاقت بها عند ، وهى أوسع منه أخواتها التى هى ظروف ، لأن القائل اذا قال : فوق ، أو تحت ، أو وراء ، وقدام ، أو عن يمين وشمال ، فقد خص جهة من الجهات الست ، فاذا قال : الطبنة عند فلان ، احتمل الكلام أن تكون فى جميع الجهات » (٢١) ..

ومما اعتمد فيه على خبرته قوله عن خصوصية (الأجداد) فى بيت المتنبى .

أرى الأَجْدَادَ تَغْلِبُهَا كثيرا
عَلَى الأَولادِ أخلاقُ اللِّئَام

« الزمان يحدث فى العالم أخلاقا لئيمة ، وطالما كان الجد كريما وكان ولد ولده غير جميل . وقال (الأجداد) لأن الجد أجدر بتغير ولد الولد من الأب بابنه ، على أن الآباء لايكون أبناؤهم على طرائقهم الا فى الأقل ، فطالما رأيت العالم وابنه جاهل ، والسخى وابنه بخيل » (٢٢) .

ومما اعتمد فيه على معرفته بالأخبار قوله عن خصوصية (**الضب**) فى بيت المتنبى أيضا :

لقد لعِبَ الْبَيْنُ الْمشِتُّ بِهَا وَبِى
وزودنِى فى السير مازَوَّدَ الضَّبا

(٢١) الموضح ١/١٥٠ أ . والطبنة بالضم : صوت الطنبور أو لعبة للأعراب ، وبالكسر الفطنة .
(٢٢) المرجع السابق ٢/١٢٣ ب .

« يجوز أن يعنى أنه لم يزود شيئا ، كما أن الضب لا يزود . وخص الضب : لأنه لا يحتاج الى الماء ، فكأنه لم يزود ماء ولا غيره » (٢٣) .

فمن حيث كانت (عند) فى الذوق اللغوى العام ـ كما بين ـ أعم ظروف الجهات = كان اختيارها لتدل على مالا يدل عليه أخواتها ، ولأن (الأجداد) ـ كما قرر ـ أبعد درجة من الأبناء ، وهؤلاء ـ كما رأى ـ قد يخالفون اتجاه الوراثة من آبائهم = كان الموضع هنا لكلمة (**الأجداد**) ، لأن احتمال مخالفة الأولاد لهم فى الطريقة أكثر وأظهر ... أما عدم احتياج الضب الى الماء فواضح أنه من الشائع المعروف .

٤ ـ مايؤثره فى الكلمات :

فاذا نظرنا بعد هذا الذى ذكرنا من تحليله ، الى ماصحبه أو استقل عنه من تقويمه للكلمات والتراكيب ، لنرى عن أى القيم الفنية صدر فى اعجابه وسخطه ، وجدناه يؤثر فى كلمات النص :

أولا : خفتها فى النطق :

وذلك بتباعد مخارج حروفها ، كما يبدو من تعليقه على كلمة (شووروا) ، فى قول البحترى :

ثلاثَةٌ جِلَّةٌ إنْ شُووِرُوا نَصَحُوا
أو استُعينُوا كَفَوْا أو سُلِّطُوا عَدَلُوا

« شووروا : بواوين ، ولا يجوز ادغام الأولى فى الآخرى على مذهب النحويين ، لأن الواو ـ يعنى الأولى ـ منقلبة عن آلف فاعل .. والنطق بـ (شوور) وبابه ينفر منه الطبع ، والغريزة تفر الى همز الواو الثانية ، وما علمت أن ذلك حكاه أحد ، لأن الواو المكسورة انما تهمز اذا وقعت

---

(٢٣) المرجع السابق ٣/٢٤ ا .

أولا ، مثل وشاح واشاح ، ووعاء واعاء ... فأما اذا وقعت فى غير الاوائل فهى مقرة على حالها ، مثل قولهم : مقاوم فى جمع مقام ، ومراود فى جمع مرود » (٢٤) .

فنفور ذوقه واقباله هنا وان لم يعلله ، ليس ـ كما ترى ـ الا لاجتماع الواوين والتخلص منه ، وقد كان فى اجتماعهما من عسر النطق لوحدة المخرج ، مادفعه الى اختيار هذا القلب الذى لم يرد .

ثانيا : عذوبتها فى السمع : بأن تجد لتاليفها فيه حسنا ومزية على غيرها وان تساويا فى التأليف من الحروف المتباعدة كما يقول ابن سنان (٢٥) .

وهى من الصفات التى نعى على رؤية خلو رجزه منها ، حيث يقول له فى (الغفران) : « ولم تكن صاحب مثل مذكور ، ولا لفظ يستحسن عذب » (٢٦) ، واظنها المعنية بقوله فى (الغفران) أيضا عن هذه الأبيات :

أَطُوِّفُ بالبيتِ فِيمَنْ يَطُوفُ وأَرْفَعُ مِنْ مِئْزَرِى الْمُسْبَلِ
وأَسْجُدُ باللَّيْلِ حَتَّى الصَّبَاحِ وأَتْلُو من الْمُحْكَمِ الْمُنْزَلِ
عَسَى فارِجُ الكَرْبِ عَنْ يُوسُفَ
يُسَخِّرُ لِى رَبَّةَ الْمَحْمَلِ

« ما أيسر لفظ هذه الأبيات ، لولا أنه حذف (أن) من خبر (عسى) ! فسبحان الله ، ! لا تعدم الحسناء ذاما » (٢٧) .

---

(٢٤) عبث الوليد ص ١٨٤ .
(٢٥) سر الفصاحة ص ٦٧ .
(٢٦) رسالة الغفران ص ٣٧٥ .
(٢٧) المرجع السابق ص ٥٣٩ .

ثالثا : اعتدال تاليفها : لا سيما الكلمات الأعجمية ـ بأن لاتكون كثيرة الحروف ، كما يبدو من قوله عن كلمة (قطر بـــل) فى بيت البحترى :

يومٌ بِغُمّى تُجْلَى بطَلْعَتِهِ الـ غَمّاءُ ، أَوليلةٌ بِقُطْرُبُلِ

« قطربل : اسم أعجمى كثير الحروف ، وقد ذكره فى القصيدة التى يصف فيها الفرس مشددا ، وكذلك هو فى أشعار من تقدمه من المحدثين ، ولما كانت الكلمة أعجمية اجترأ على تخفيفها ، وقوى ذلك عنده أن حروفها كثيرة ... » (٢٨) ، فذكره كثرة حروفها ، وجعله هذه الكثرة سببا لاجتراء الشاعر على تخفيفها = مما يوحى باعراضه عنها ، ربما لخروجها بذلك عن الأمثلة المعتادة ، أليس قد أشار الى أن الأعجمى اذا عرب وجب أن يحمل على الأكثر (٢٩) ... واتجه فى الطويل منه الى أنه مؤلف من كلمتين ، كـ (جرجـــراياء) عند البحترى أيضا (٣٠) ، و (وهسوذان) عند المتنبى (٣١) . ؟

رابعا : دقة اختيارها : لتدل على ما يدل عليه بغيرها ، تلك الدقة التى نوه بها عند المتنبى ، حين قال لابن فورجه ـ وقد حاول ابدال كلمة من شعره بأخرى ـ : « لاتظنن أنك تقدر على ابدال كلمة واحدة من شعره بما هو خير منها ، فجرب ان كنت مرتابا » (٣٢) .

فاذا تركنا مناقشة هذا الحكم هنا لما سيأتى ونظرنا بعده ، وجدناه أيضا ـ عند شرحه لشعر المتنبى ـ يأخذ عليه عدم دقته فى بعض ألفاظه ويعين ماهو أدق منها ، من ذلك أخذه عليه ـ وعلى الكتاب عموما ـ

---

(٢٨) عبث الوليد ص ٢٠١ .
(٢٩) المرجع السابق ص ٥١ .
(٣٠) المرجع السابق ص ١٠٢ .
(٣١) الموضح ١/١٨٣ أ .
(٣٢) شرح الواحدى للمتنبى ١/٢٧٧ .

استعمال كلمة (مولانا) فى مخاطبة الملوك - وسيدنا أولى بذلك منها - حيث يقول فى التعليق على بيته :

وقد رأيتُ الملوك قاطِبــةً
وسرتُ حتى رأيتُ مَوْلاَهــا

« المولى : كلمة تستعمل فى الشىء وضده ، وهو هنا المولى الذى يملك غيره ، واصطلحت الكتـاب على أن قولهم فى المخاطبة للملك : (مولانا) أشرف من (سيدنا) وهذا وهم وقع فى القديم ، لأن العبد يجوز أن يقال له مولى ، وكذلك الحليف والمعتق وابن العم ، وقد صح أن هذه الكلمة يشترك فيها الرفيع والوضيع ، و (السيد) كلمة لا تستعمل الا فى معنى السيادة والرفعة ، فكانت المخاطبة للملوك بها أوجب » (٣٣) ٠

فكلمة (مولانا) لاشتراكها أولا ، ولا ستعمالها دون قرينة ثانيـا ، كانت دون (سيدنا) فى هذا المقام ٠ أما المشترك الذى لابديل له ، وفى الكلام على تخصيصه قرينة فليس مما يعاب عنده ، بدليل استحسانه (مها اللذات) فى قول أبى تمام :

أَهْلَ الفَرَاديس لَمْ أَعْدُدْ لِذِكْرِكُمُ
إلا سَقَى وَرَعَى اللهُ الفراديسَا
إِذْ لَا نُعَطِّلُ منهَا مَنْظَرًا أَنِقًــا
ومرْتَعًـا بمهَا اللَّذَّاتِ مَأْنُوسَا

فكلمة (مها) - كما قال - تستعمل فى الدر والاسنان وبقر الوحش والبِلّوْر والنساء وغير ذلك مما يحسن ويصفو ، لكنها لم تكن معيبة هنا ، لأن أبا تمام خصها بالانس لما قال (مها اللذات) (٣٤) ٠

---

(٣٣) الموضح ١٧٢/٣ أ ٠

(٣٤) شرح التبريزى لأبى تمام ٢٥٦/٢ ٠ وأنقا : أى معجبا ٠

خامسا : وضوح مدلولها : بأن لاتكون غريبة مبهمة ، فان الغموض بسبب الغرابة هو الذى أبهم المراد بكلمة (**حوم**) فى شعر علقمة ابهاما تحير له المعرى ، حتى لامه عليه فى (الغفران) ، حيث يقول له : « وان فى نفسى لحاجة من قولك :

كَأْسُ عَزِيزٍ مِنَ الأَعنابِ عَتَّقَهَا
لبعض أربابها حَانِيَّةٌ حُومُ

فقد اختلف الناس فى قولك (حوم) ، فقيل : أراد حُمّا ، أى سودا فأبدل من احدى الميمين واوا ، وقيل : أراد حوما ، أى كثيرا ، فضم الحاء للضرورة ، وقيل : حوم ، يحام بها على الشراب ، أى يطاف » (٣٥) .

وهل كان (**الجندل**) الذى عابه على الرجاز فى قوله لهم : « والله مايصلح كلامكم للثناء ، ولا يفضل عن الهناء ، تصكون مسامع الممتدح بالجندل ، وانما يطرب الى المندل (٣٦) » = الا ذلك الذى آثروه وأغرقوا فيه من الغريب ، حتى بدا كلامهم بسببه أحاجى وألغازا . وحسبك من تشبيهه اياه بالجندل ـ وهو الحجارة ـ دليلا على كراهيته له فى المديح خاصة ، ثم حسبك من تشبيهه مايطرب له من غير الغريب بالمندل ـ وهو العود الطيب الرائحة ـ دليلا على ايثاره ماينفذ الى النفس ، فيغمرها بالأنس ، من الألفاظ العذبة الواضحة ..

سادسا : قوتها بقوة مدلولها : كما يبدو من قوله عن بيت المتنبى :

فَأَوْهِ بَدِيلٌ مِنْ قَوْلَتِى وَاهَا لِمَنْ نَأَتْ والبديلُ ذِكراهَا

---

(٣٥) رسالة الغفران ص ٣٢٩ . وحانية : قوم خمارون نسبوا الى الحوانيت أو الى الحانة . (ديوان علقمة بشرح الشنتمرى ٦٨) .
(٣٦) المرجع السابق ص ٣٧٧ .

« لو أن لى حكما فى هذا البيت لقلت بدلا من (قولتى) : (قولنا) ، لأن التذكير أقوى من التأنيث (٣٧) » ، أو قوله عن بيته الآخر :

رُبَّ نَجِيعٍ بسيفِ الدولة انْسَفَكَا وَرُبَّ قافيةٍ غاظت به مَلِكَا

« لو أن لى حكما فى هذا البيت لجعلت أوله (كم من نجيع) ، لأن (رب) تدل على القلة ، وانما يجب أن يصف كثرة دماء الأعداء ، ويحسن ذلك أن (رب) جاءت فى النصف الثانى ، وهى ضد (كم) (٣٨) . »

سابعا : **طرافتها** : بأن لاتكون عامية مبتذلة ، أى ممتهنة بكثرة استعمال العامة لها ، مما يحط من قيمتها وقيمة الأدب الذى تضمنها .

وهذا واضح من تمييزه وتضعيفه دائما للعامى من لغة الشعر ، لاسيما عامى أبى تمام والبحترى والمتنبى ، كقوله ـ على سبيل المثال ـ عن بيت أبى تمام :

وتَرى تَسَحُّبَنَا عليه كأنما جِئناهُ نطلبُ عندهُ ميراثا

= « تسحبنا : استطالتنا ، كأنه من السحب ، والتسحب : كلمة مبتذلة . » (٣٩)

وكقوله عن بيت البحترى :

وإذَا مَا امْتَعَضْتُ مِنْ وَلَعِ الشَّيْـ ـبِ برأسى لم يَعْدُ ذاك امتِعَاضِى

«الامتعاض : كلمة تستعملها العامة ، والصحيح معَض يَمْعَض (٤٠) .»

---

(٣٧) الموضح ٣/١٦٩ ب . وأوه : بمعنى أتأوه ، وواها : بمعنى أتعجب .

(٣٨) المرجع السابق ٢/١١٨ أ . والنجيع : الدم . وسفكه : صبه .

(٣٩) شرح التبريزى لأبى تمام ١/٣٢٣ .

(٤٠) عبث الوليد ص ١٢٨ .

وكقوله عن بيت المتنبى :

أَرَى مُرْهَفًا مُدْهِشَ الصَّيْقَلِيـ ـنَ وَبَابَةَ كُلِّ غُلَامٍ عَتَا

« البابة ، الغاية ، تقول : هذا بابتك وغايتك فيما تحتاج اليه .. وقوله : (وبابة كل غلام عتا) ، هذه كلمة قد ابتذلتها العامة حتى ظهر بها ضعف ، وقد تكلموا بها قديما ، يقولون : هذا بابة كذا ، أى يصلح له . » (٤١)

على أن لما تتبعه من العامى عند ثلاثتهم دلالتين أخريين :

احداهما : أن البحترى كان أكثرهم حظا منه ، حتى لقد سجل عليه أنه « كان لاينظر فى هذه الأشياء » (٤٢) ، أى لايهتم بها ولايميزها ولا يتحرج منها ، على حين كان المتنبى اقلهم ..

والأخرى : أن ماميزه عندهم ثلاثة أنواع :

ماهو مما ابتذلته العامة دون أن تغيره عن وضعه اللغوى ، كالتسحب ، والبابة .

وماهو مما استعملته على نحو خاص من الدلالة أو البنية يخالف المعروف فيه والمشهور ، كالفاظ :الامتعاض ، ومهاول، والبرطيل ، والفلوة، وسامراء ، عند البحترى (٤٣) ، والاشلاء ، والشعلة ، عند أبى تمام (٤٤) وسامَرِّىّ عند المتنبى (٤٥) .

---

(٤١) الموضح ١/١٣ أ .
(٤٢) عبث الوليد ص ١٣٧ .
(٤٣) المرجع السابق ١٢٨ ، ١٣٧ ، ١٩٩ ، ١٦٣ ، الموضح ١/١٢ب. البرطيل : الرشوة . الفلوة : واحدة الفلو ، وهو الجحش والمهر فطما أو بلغا السنة .
(٤٤) شرح التبريزى لديوان أبى تمام ١/٣٤٧ ، ٢/٤١١ الاشلاء : الاغراء .
(٤٥) الموضح ١/١٢ ب .

وماهو مما استعملته وليس من كلام العرب ، وان كان بعضه مقيسا عليه ، كالفاظ : يبظرمه ، والطبخشية ، وبنو الأطروش ، ومقلولها ، والجلنار ، وجرجراياء ، عند البحترى (٤٦) .

من هذا التنوع فى استعمال العامة يبدو أنها لاتكاد تبالى بالعرف الفصيح ، اذ كثيرا ما تخالفه أو تزيد عليه ..

واذا كان الأدب ـ والشعر منه خاصة ـ فن اللغة فى أسمى ماينبغى من أوضاعها = فان صيانته عن السفساف المبتذل ، والمحرف أو المنحرف ، كصيانته عن الغريب الوحشى = مما يحقق فنيته ، وسموه ، وغايته .

ثامنا : جريانها على العرف اللغوى الفصيح والمشهور : فى بنيتها ، وضبطها ، وتصريفها ، ودلالتها ، ولغاتها . مما نلحظ ايثاره اياه **أولا :** فى تحقيقه للمتن ، حيث قبل من الروايات ماجرى على المسموع ، ورفض مالم يأت فيه ، **وثانيا :** فى تعقبه للمخالفين لهذا العرف ، وازرائه بالشاذ مما خالفوا فيه . وقد كانت مخالفات كثيرة ، تلك التى تعقبها ، لاسيما مخالفات المحدثين ، وفى مقدمتهم البحترى ، اذ كان ـ كما سجل عليه ـ جريئا على العرف اللغوى ، لقلة نظره فيه من جهة ، وسعة بحره فى القريض من جهة أخرى ... (٤٧)

فمما تعقبه وازرى به للمخالفة فى البنية : وصل همزة القطع أو تخفيفها ، فى نحو قول عدى بن زيد :

يَالَيْتَ شِعْرِي وَانَ ذُوعَجَّةٍ   فى

---

(٤٦) عبث الوليد ٢١٦ ، ٢٢٠ ، ٢٣٤ ، ١٩٥ ، ٨٤ ، ١٠٢ .
بظرمه : قال له أمصص بظرأمك . الطبخشى : التابع الذى ليس له موضع . الأطروش : الأصم . والمقلول : الشىء الذى فيه قلة . والجلنار : زهر الرمان . وجرجراياء : موضع .
(٤٧) عبث الوليد ١١٧ ، ١٣٧ .

اذ يقول له فى (الغفران) : « وما كنت أختار لك أن تقول : * ياليت شعرى وان ذو عجة * لأنك لاتخلو من أحد أمرين : اما أن تكون وصلت همزة القطع ، وذلك ردىء ، على أنهم قد أنشدوا :

إنْ لَمْ أُقَاتِلْ فَالْبِسُونِى بُرْقُعَا

ويزيد مافعلت من اسقاط الهمزة بعدا أنك حذفت الألف التى بعد النون ، فاذا حذفت الهمزة من أول الكلمة ، يقيت على حرف واحد ، وذلك بها اخلال = واما أن تكون خففت الهمزة فجعلتها بين بين ، ثم اجترأت على تصييرها ألفا خالصة ، وحسبك بهذا نقضا للعادة ، ومثل ذلك قــول القــائل :

ياليتُ شعْرى أنا ذو عَجَّة

يقولون : مَهْلاً : لَيْس للشيخ عَيَّلٌ

فهَا أنا قد أعْيَلتْ وانَ رَقُوبُ (٤٨)

ولو قلت :

فحذفت الواو لكان عندى أحسن وأشبه . » (٤٩)

فنقض المعتاد من بنية اللفظ لما فيه من الاخلال به معيب . ومن هذا النقض فيما عابه على البحترى ـ عدا ماسبق ـ ألوان الحذف التى اجترأ عليها ، حتى لقد سجل عليه انه كان لا يحفــل بهذا النــوع من التصرف ، كحذفه **(الألف والــلام) فى قــوله : « ابن مدبر »** ، يعنى **« ابن المدبر »** ، فذلك منكر فى السمع وان كان جائزا ، لأن العادة جرت بغيره ، وانما يرجع فى ذلك الى مايتعارف بين الناس (٥٠) ، وحذفه (ياء

---

(٤٨) رقوب : أرتقب معروفا أو صلة لأنى لا أستطيع الكسب .
(٤٩) رسالة الغفران ١٩٠ والعجة : الصوت العالى .
(٥٠) عبث الوليد ص ١٧٩ .

النسب) فى قوله : «ويمانه» ، يعنى و «يمانيه» ، فهو أيضا ردىء ، لأن هذه الياء تثبت فى الاضافة ، وحذفها قليل فى هذا الموضع (٥١) . الى غير ذلك ..

ومما عابه للمخالفة فى الضبط : تشديد البحترى ميم (**الدم**) فى قوله :

وقائلةٍ – والدم يَصبُغُ وَجْهَهَا

رُوَيْدَكَ ياابن السِّتَّ عشْرةَ كَمْ تَسْرى

حيث وصفه بأنه ردىء جدا ، لأنه فى غير القافية ، ولو كان فيها كان أسهل ، لأنهم يقفون على تشديد المخفف (٥٢)

= وتسكين المتنبى ياء « **لى ومعى** » فى قوله :

تَعَرَّضَ لِى السَّحَابُ وقدْ قفَلْنَا ... فَقُلْتُ إليْكَ إنَّ معى السَّحَابَا

لأن « الأحسن فيهما التحريك اذا لقيهما ساكن » . (٥٣)

ومما عابه لمخالفة تصريفه : (**قسطال**) فى شعر أوس بن حجر ، اذ يقول له :

« وانى لكاره قولك :

... ... والْخَيْلُ خَارِجَةٌ منَ القَسْطَالِ

أخرجت الاسم الى مثال قليل ، لأن فعلالا لم يجىء فى غير المضاعف . » (٥٤)

---

(٥١) المرجع السابق ص ٢٢٨ .
(٥٢) المرجع السابق ص ١٢٠ .
(٥٣) الموضح ١/٥٨ أ .
(٥٤) رسالة الغفران ص ٣٤٢ والقسطال : الغبار .

و (السُّبَد) فى بعض قوافى بشار ، على احتمال أنها جمع (سُبَد) ـ وهو طائر ـ لأن فُعَلاً لايجمع على ذلك (٥٥) ، ونظير هذين ـ فى قلة التصريف أو فى عدمه ـ مما عابه على البحترى كثير ، كبنائه أفعل التفضيل غير مرة من المبنى للمجهـول ، وهو ردىء ، لعدم سـماعه أو لقلته ، ولأن الأصل المعتمد فى ذلك أن يكون (**أفعل من**) من المبنى للفاعل (٥٦) ، وكقوله **(مضعوف)** فى ضعُف ، و **(طُلاَّح)** فى جمع طليح ، وهما قليلان فى الاستعمال ، وانما المستعمل فيهما ضعيف، وطُلَّح وطلائح ، والمستعمل ـ كما قرر ـ هو الذى يجب أن يتبع ٠٠ (٥٧)

ومما عابه للمخالفة فى الدلالة ـ عدا ما سبق ممـا هـو عامى ـ : (**كسوف الدرارى**) ، أى الكواكب فى قول أبى تمام :

وكلُّ كُسُوفٍ فى الدَّرارِىِّ شُنْعَةٌ ولَكِنَّهُ فى الشَّمْسِ والدُّرِّ أَشْنَعُ

اذ « لم تجر العادة بأن يقال : كسف الكوكب ، انما المعروف : كسفت الشمس وخسف القمر » ٠ (٥٨)

و (**طليح الشوق**) فى قول البحترى :

أَمَا لِعَيْنَىْ طَلِيحِ الشَّوْقِ تَغْمِيضُ

لأن الطليح ـ وهو المعيى ـ أصله للنوق ، وقلما يقولون للجمل طليح ، انما يقولون ذلك للناقة (٥٩) ٠

ومما عابه بتنكبه اللغة المشهورة : قول البحترى «أكنَى للماضى . فقد وصفها بأنها « رديئة » ، وان حكيت ، لأن أفصح اللغات : كنـوت

---

(٥٥) المرجع السابق ص ٣١١ ٠
(٥٦) عبث الوليد ص ٥٨ ، ١١٥ ، ٢١١ ٠
(٥٧) المرجع السابق ص ٧٥ ، ٧٨ ٠
(٥٨) شرح التبريزى لأبى تمام ٢/٢٣٧ ٠
وانظر أيضا ١/١٥٦ ، ٢٦٤ ٠
(٥٩) عبث الوليد ص ١٢٨ ٠

وكنيت . (٦٠) كما عد قوله « غمد الحسام » على الثلاثى المبنى للمجهول = من القليل ، لأن اللغة المعروفة « أغمدت السيف » (٦١) و (حببت) فى قول المتنبى :

حَبَبْتُكَ قلبِى قبلَ حُبِّكَ مَنْ نَأَى

على القليل جدا ، لأن المعروف « أحببت » بالهمزة . (٦٢)

فانت تراه فى جميع ما عابه مما ذكرنا ، لم يعبه الا لأنه ـ كما قال ـ نقض للعادة ، أو لم تجربه ، أو جرت بغيره ، أو لم يجىء ، أو لم يسمع ، أو قليل فى استعمالهم ، أو المعروف والأفصح غيره ...

وليس المعتاد أو المعروف أو الأفصح الذى يختاره الا ما أثر واشتهر من كلام الفصحاء ، كما يفهم من هذه الصفات ، وكما يبدو أيضا من قوله : « انما المستعمل هو الذى يجب أن يتبع » ، وقوله : « انما يرجع فى ذلك الى مايتعارف بين الناس » ، أى ان العرف المشهور عنده هو عرف الفصحاء القدماء ، الذى كثر واشتهر بين جماعة العلماء ..

ومع أن المسموع المشهور هو الأصل المختار عنده على هذا النحو = جنح الى القياس أحيانا فى بعض ماحاول الاعتذار عنه والتوجيه له كما سيأتى . ولا غرابة فى هذا ، لأن توجيه مايبدو مخالفا لاظهار صحته وامكانه ، لا جودته واختياره ..

انما الغريب أن تجده ينوه بالمقيس ـ مع قلته ـ فى قوله لعنترة :

« وانى لأتمثل بقولك :

وَلَقَدْ نَزَلْتِ فلا تَظُنِّى غَيْرَهُ ... مِنِّى بِمَنْزِلَةِ الْمُحَبِّ الْمُكْرَمِ

---

(٦٠) المرجع السابق ص ١٣٠ .

(٦١) المرجع السابق ص ١٢٧ .

(٦٢) الموضع ٣/١٧٦ ب .

ولقد وقفت فى قولك (المحب) ، لأنك جئت باللفظ على مايجب فى أحببت ، وعامة الشعراء يقولون : أحببت ، فاذا صاروا الى المفعول قالوا : محبوب ، قال زهير بن مسعود الضبى :

وَاضِحَةُ الْغُرَّةِ مَحْبُوبَةٌ والْفَرَسُ الصَّالِحُ مَحْبُوبُ

وقال بعض العلماء لم يسمع بـ (محب) الا فى بيت عنترة . وان الذى قال أحببت ، ليجب عليه أن يقول محب ، الا أن العرب اختارت : أحب فى الفعل ، وقالت فى المفعول : محبوب ... » (٦٣)

وكأنه هنا يعترض على العرب وعلى المسموع المشهور عنهم ، فى رأيه أن عنترة جاء باللفظ على ما يجب ، وأن من قال (أحببت) يجب عليه أن يقول (محب) ، مع أن عامة الشعراء ـ كما قال ـ على خلاف ذلك . واعتراضه على المسموع أو تجديده فيه مما اتجه اليه أحيانا ، كما رأينا منه فى (شوور وبابه) ، و (مولانا مع سيدنا) ، و (محب) أيضا هنا .

واذا كان فى هذه المواضع ـ كما أسلفنا ـ قد احتج لاتجاهه فما حجته هنا ؟ انها كما يبدو من تعليله : مجىء اللفظ على مايجب ، وهذا الواجب ليس الا القياس ، لكنه قياس التصريف فى سياقه المشهور ، ذلك السياق الذى لايعدل عنه الا بموجب واضح ، ولا موجب فيما يبدو من ثقل أو خفة ، فايثاره المقيس حينئذ ليس رفضا للمشهور ، ولكنه ايجاب لما ترك من سياقه الصحيح دون موجب ، وعليه لا تناقض فى رأيه هنا ورأيه فيما سبق .

٥ ـ ما يؤثره فى التركيب :

أما ما يؤثره فى نظم النص من كلمات هذه صفاتها فأمور نجملها فيما يلى :

---

(٦٣) رسالة الغفران ص ٣٢٥ .

أولا : تجنب التكرار : للحروف المتقـــاربة فى جملة الكلمـــات ، وللكلمات نفسها أيضا ، أما الحروف المتقاربة فمن الطبعى أن ينفر منها فى الكلام وقـــد نفر منها فى الكلمة ، بـل نفوره منها هنا ألزم ، لأن استمرارها فى الكلمة المفردة دونه فى الكلام اذا طال واتسع . وآية ذلك هنا ماوراه ابن سنان قال : « كنت حاضرا عند شيخنا أبى العلاء ـ وقد قرئت عليه قصيدة لأبى الطيب ـ فلما وصل القارىء الى هذا البيت :

ولا الضِّعْفَ حتى يَبْلُغَ الضِّعْفَ ضِعْفُهُ
ولا ضِعْفَ ضِعْفِ الضِّعْفِ بل مِثْلَهُ أَلْفُ

قالَ : هذا والله شعر مدبر ، وكان منَ العصبية لأبى الطيب على الصفة التى اشتهرت عنه (٦٤) » ، فلم يكن ادباره ـ فيما ـ الا لهذا التكرار المتصل لحروف الضاد والعين والفاء أولا ، ولكلمة الضعف ثانيا ، ولغموض معنى البيت ثالثا ..

وأما تكرار الكلمات فكراهيته له أوضح اذا لم يكن ثم مايقتضيه ، كرهه مقدرا كما كرهه ظاهرا ، كرهه مقدرا بدليل قوله فى رسالته الى أبى منصور ـ خازن دار العلم ببغداد ـ عن قصيدة كان أرسلها اليه ولم يجب عنها : « وقد كنت نظمت الى سيدى الشيخ ـ أدام الله تمكينه ـ قصيدة ، وزنها الطويـل الأول .. ولولا أن من الابرام فرط الاكـرام ، والتكرير يحسب من التغرير = لأعدت ارسالها » (٦٥) .

وكرهه ظاهرا فى النثر ، حيث يقول فى (رسالة الاغريض) عن التكرار فى (اصلاح المنطق) : « ان حكم التأليف فى ذكر الكلمة مرتين ، كالجمع فى النكاح بين أختين ، الأولى حل يُرام ، والثانية بَسْـل حرام » (٦٦) .

---

(٦٤) سر الفصاحة ص ١٠٧ ، ١٠٨ .
(٦٥) رسائل أبى العلاء ٥٣ الابرام : الاملال ، التغرير : الخداع .
(٦٦) المرجع السابق ١٩ بسل : حرام .

كما كرهه فى الشعر ، حيث عد من مزايا المتنبى أنه قليل التكرير (٦٧) ، وحيث نزع فى تحليل شعره وشعر غيره الى مايزيل التكرار أو يبعد احتماله ، خذ مثلا قوله عن بيت المتنبى :

أَنتَ يافَوْقَ أَنْ تُعزَّى عَنِ الأَحْـ ... ـبَابِ فَوْقَ الذى يُعَزِّيكَ عَقْلاَ

« قوله : (يافوق) يحتمل وجهين ، أحدهما : أن يكون قد حذف المنادى لعلم السامع مايريد ، كأنه قال : أنت ياسيف الدولة أو ياملك .. والآخر : أن يكون (فوق) نعتا لسيف الدولة ، فكأنه أخرجه من باب الظروف الى باب الأسماء ، وهذا الوجه أحسن فى نقد الشعر ، لأن (فوق) الأولى والثانية فى الوجه الأول ظرفان ، وفى الوجه الآخر الأول منهما اسم ، والثانى ظرف . » (٦٨)

تجد هذا النزوع واضحا فى محاولته الخروج بـ (فوق) فى أحد موضعيها - وهو الأول - من الظرفية الى الاسمية ، ليكون التكرار فى البيت للفظها ، مع اختلاف معناها .

ونحو ذلك قوله عن بيت أبى تمام :

فَأَتَوْا كَرِيمَ الْخِيمِ مِثْلَكَ صَافِحًا

عَنْ ذِكْرِ أَحقَادٍ مَضَتْ وضِبَابِ (٦٩)

« **الضباب** : جمع ضب وهو الحقد ، وعطفه على (الأحقاد) لاختلاف اللفظ ، ويجب أن يكون الضب أشد ثباتا فى القلب من الحقد ، لأنهم يصفون الضب بالخديعة ، وانما شبه بالضب الذى يحترش (٦٩) . »

---

(٦٧) الموضح ١/١٢٣ ب .

(٦٨) المرجع السابق ٢/١٦٦ ب .

(٦٩) شرح التبريزى لأبى تمام ١/٩٣ والخيم : السجية والطبيعة .

وقوله عن بيت البحترى :

وَجْهٌ ركابكَ مُصْعِدًا يَصْعَدْ بنَا
جَدٌّ ونَحلَ بمَا نَرُومُ ونَظْفَـــرِ

« أهل اللغة يفسرون (نحل) : أى نظفر ، وعلى ذلك فسروا قول الشاعر :

وشَحِيجُ الغرابِ أنْ سِر إليها
تَحلَّ منها بنائلٍ وقَبُولِ(٧٠)

فاذا حمل على ذلك فهو مما كرر معناه لاختلاف اللفظ ، كما قال عدى : **(كذبا ومينا)** ، وكما قال الحطيئة : *** وهند أتى من دونها النأى والبعد *** ، والاشتقاق يدل على أن معنى **(حلى)** غير معنى (ظفر) فى الأصل ، وانما الغرض فى قولهم : حلى بكذا ، أى صار له كالحلى ، فحسنه وزينه وسره . » (٧١)

الا أن التكرار هنا ـ فى بيتى الطائى والبحترى ـ للمعنى فقط دون اللفظ ، ومع ذلك كان اتجاهه بمعنى **(ضباب)** فى بيت الطائى و **(نحل)** فى بيت البحترى الى المخالفة المانعة من هذا التكرار المعنوى ، معتمدا فى ذلك على حسه ومعرفته .

وعلى الرغم من أن حكم التكرار عنده ـ كما قال فى الاغريض وكما رأينا ـ حكم الجمع بين الأختين ، من المحظورات الفنية ، بما هو حشو وزيادة = وجدناه يسقط هذا الحظر عنه اذا كان محققا لغاية نفسية أوفنية ، وآية ذلك الاسقاط فيما تحققت به غاية نفسية ماوراه ابن سنان حيث قال : « وأجاز لنا فى بعض الأيام شيخنا أبو العلاء بن سليمان قول الشاعر :

---

(٧٠) شحيج الغراب : ترجيع صوته .

(٧١) عبث الوليد ١١٠ .

أَلَا طَرَقَتْنَا بَعْدَ ما هَجَعُوا هِنْدُ
وقَدْ سِرْنَ خَمْسًا واتْلَأَبَّ بِنَا نَجْدُ

أَلَا حَبَّذَا هِنْد وأَرضٌ بها هِنْدُ
وهندٌ أَتَى من دُونِهَا النَّأْىُ والبُعْدُ

وقال : « من حبه لهذه المرأة لم ير تكرير اسمها عيبا ، لأنه يجد للتلفظ باسمها حلاوة . » (٧٢)

فالحب والتلذذ هنا هما مبعث التكرار أو غايته عنده ، وارتباطهما بنفس الشاعر واضح . أما ماتجاوز عنه بل استحسنه لغاية فنية ، فمنه تكرار المتنبى الذى عيب عليه فى قوله :

العارضُ الهَتِنُ بن العارضِ الهتن بـــ
ـــنِ الهـــتنِ بنِ العارضِ الهـــتنِ

حيث نوه به ، « لأنه وصف الممدوح بصفتين ، ثم وصف ثـــلاثة من آبائه بمثل ماوصفه به ، وقلما يتفق مثل هذا النظام . » (٧٣)

ثانيا : تجنب الحشو ـ وهو الزيادة التى لافائدة فيها ـ يبدو ايثاره اياه من رفضه تكرار الكلمة بلا فائدة ، اذ هو فى الحقيقة ضرب من الحشو . كما يبدو من عده (**نقا الرمل (٧٤)**) فى قول البحترى :

أَتَوْا منْ بلاد الرَّمْل فى عَدد النَّقَا
نقَـا الرَّمْلِ منْ فِرْسَانِه وخُيولِه

---

(٧٢) سر الفصاحة ص ١١٤ ، ١١٥ واتلأب : امتد واستوى .
(٧٣) الموضـــح ٣/١٥٠ أ والعارض : السحاب المعترض فى الأفق والهتن : الكثير الصب .
(٧٤) نقا الرمل : أى التل منه .

زيادة لا فائدة فيها إلا إقامة الوزن كـ (أُسود الغيل) في قول أبي تمام :

إنّ الأُسودَ أُسـودَ الغيل هِمّتُهـا
يومَ الكريهةِ في المَسْلوبِ لا السَّلَبِ (٧٥)

ثالثا : الايجاز : من الطبعى أن يؤثره وقد رفض التكرار والحشو ، لأنه مجاف لهما ، اذ هو أداء المعنى بتمامه فى أقل مايمكن من الألفاظ ٠وقد آثره ونوه به فى النثر والشعر ، فمن تنويهه به فى النثر قوله لأبى القاسم المغربى ، لما أرسل اليه (مختصره لاصلاح المنطق) : « ووقفت على (مختصر اصلاح المنطق) الذى كاد بسمات الأبواب ، يغنى عن سائر الكتاب ٠٠٠ قد ناب فى كلام العرب الصميم ، مناب مرآة المنجم فى علم التنجيم ، شخصها ضئيل ملموم ، وفيها القمران والنجوم ٠ » (٧٦)

ومن تنويهه به فى الشعر قوله أيضا للمغربى لما أرسل اليه قصيدتين من شعره ، (ميمية وواوية) : « شاهدنا فيما سمعناه ـ يعنى من الشعر ـ المعنى الحصير ـ يعنى المستوعب ـ فى اللفظ القصير ؛ كصورة كسرى فى كأس المشروب ، وتمثال قيصر فى الابريز المضروب ، لم يزر به ضيق الدار ، ولا قصر الجدار » (٧٧) ، ثم قوله أيضا : « وسيدنا ـ أطال الله بقاءه ـ القائل النظم فى الذكاء مثل الزهر ، وفى البقاء مثل الجوهر ، يجمع بين اللفظ القليل ، والمعنى الجليل ، جمع الأفعوان فى لعابه بين القلة ، وفقد البلة ٠ » (٧٨)

---

(٧٥) عبث الوليد ص ١٦٧ ٠

(٧٦) رسائل أبى العلاء ص ١٨ ، ١٩ ٠

(٧٧) المرجع السابق ص ٦ الابريز : الذهب الخالص ٠ والمضروب : المطبوع نقدا ٠

(٧٨) المرجع السابق ص ١٦ ٠ الذكاء : الطيب ٠ البلة : العافية ٠

وعلى الرغم من أنه لم يحدد المواضع التى يؤثرفيها الايجاز لا نظن أنه كان يؤثره فى كل حال ، بل لعله كان يؤثر عليه الاطناب فى مواضع لا يليق فيها الايجاز ، وآية ذلك جنوحه هو فى أدبه للاطناب كثيرا .

رابعا : **الوضوح** : بأن يكون الكلام ظاهر الدلالة على المراد منه ـ يبدو ايثاره اياه من تفضيله لوضوح الكلمات ، اذ هى ـ كما نعلم ـ لبنات التركيب ، كما يبدو من تنويهه بأبى الحسين النكتى البصرى ، لأنه لم يعاظل بين البيتين ، ولم يتبع حوشى الكلام (٧٩) . **والمعاظلة** : ـ كما ذكر الآمدى ـ مداخلة الكلام بعضه فى بعض ، وركوب بعضه لبعض ، كقول أبى تمام :

يايَوْمَ شَرَّدَ يَوْمَ لَهْوِى لَهْـوَهُ
بِصَبَابَتى وأَذَلَّ عِزَّ تَجَلُّدِى

فهذه الالفاظ الى قوله « بصبابتى » كانها سلسلة ، فى شدة تعلق بعضها ببعض (٨٠) ، يريد : يايوم شرد لهوه بصبابتى يوم لهوى وأزال صبرى (٨١) .

وهل ننسى مع ذلك الحاحه على الشعراء فى (الغفران) بهذا السؤال عن غريب أشعارهم : ماذا أردت بقولك كذا فقد اختلف الناس أو المتأولون فيه ؟ وذلك حين استوقفهم هنالك ، واستنشدهم أو أنشدهم بعض أشعارهم ، ثم راح يحاورهم فى غير جانب منها ولا سيما الغريب ، مفسرا حينا ، ومكتفيا بعرض الآراء حينا آخر ، كقوله للحارث اليشكرى : « لقد أتعبت الرواة فى تفسير قولك :

---

(٧٩) المرجع السابق ص ٨٢ . والحوشى : الغامض من الكلام .
(٨٠) الموازنة ٢٧٦/١ ، ٢٧٨ .
(٨١) ديوان أبى تمام بشرح التبريزى ٤٥/٢ .

زَعَمُوا أنَّ كل من ضَرَبَ الْعَيْ رَ مُوَالٍ لنا وأَنَّا الوَلَاءُ

وما أحسبك أردت الا العير : الحمار . » (٨٢)

وقوله لعلقمة : « وإنَّ فى نفسى لحاجةً من قولك :

يَهْذِى بِهَا أَكْلَفُ الخَدَّينِ مُخْتَبِرٌ
مِنَ الجِمَالِ كثير الَّلحم عَيْثُومُ

فروى (يهدى) بالدال غير معجمة ، و (يهذى) بذال معجمة . وقيل: (مختبر) من اختبار الحوائل من اللواقح ، وقيل : هو من الخبير أى الزبد ، وقيل الخبير : اللحم ، وقيل هو الوبر . » (٨٣)

ولا يخفى مافى قوله « أتعبت الرواة ، وان فى نفسى لحاجة » من عتب ولوم لهما على ما آثراه من غموض واغراب . ولايقال : ان الحوار هنــا فى اللفظ الغريب ، وان كلامنــا عن التركيب ، لأن التركيب ليس الا جملة من الفاظ ، اذا غام أحدها أو اختلف الرأى فيه غامت كلهــا واستبهمت ، ولم يغن فى استجلائها وضوح بعض دون بعض ..

خامسا : ملاءمة الألفاظ للغرض المقصود ، بأن يعبر عن كل غرض من الغزل أو المديح أو الهجاء بما يناسبه ويليق به = أيضا مما نوه به فى شعر المغربى لما أرسله اليــه ، اذ يقول فى وصفه : « ان تغــزل فحنين

---

(٨٢) رسالة الغفران ص ٣٣٢ وأنا الولاء : أى نحن ولاتهم على هذا.
(٨٣) المرجع السابق ٣٢٩ ، وانظر ١٩١ فيما سبق .

العود ، أو تجزل فهدير الرعود ... خشن ، فحسن ، ولان ، فمـــا هان . » (٨٤)

سادسا : **التناسب بين الكلمـات المتقابلة أو المتعاطفة فى منـاحى** صفاتها المختلفة . ممـا رأينـاه يلتفت اليه ويصـدر عنه فى تمييزه بين الروايات ، حيث فضل بل أوجب أحيانا من الروايات مايحقق التناسب بين المتعاطفين فى المصدرية أو الصوتية أو الصيغة ... (٨٥)

ومن ذلك ايضا تفضيله ضم الياء من (**يرشد**) **اذا** ضمت فى (**يغوى**) ، ليكون الفعلان على طريقة واجدة ، لما لم يسم فاعله ، فى قول البحترى :

لَقَد أَرْشَدَتْنَا النائباتُ فلم يكنْ
لِيَرْشُدَ لولاَ ما أَرَتْنَاهُ مَنْ يَغْوَى

فيغوى ـ كما قـال ـ : « ردية جـدا ، لأن المعـروف غَـوِيْتُ أغـوى .. واذا ضمت الياء من (يغو ى) خلص البيت من استعمال لغة ردية ، لأنه يحمل على أَغْـوَى يُغْـوِى ... (٨٦) »

كما أن منه تفضيله الجمع فى المعطوف اذا كان المعطوف عليه جمعا ، فى قوله عن بيت البحترى الآخر :

أَحْلَى مُعَاطِيكَ كَأْسًا أَوِ مُنَاوِلَهَا
مُعْطِيكَ خَدًّا نَقِيًّا صَحْنُهُ وفَمًا

(٨٤) رسائل أبى العلاء ص ٦ ، ١٦ .
(٨٥) انظر ص ١٩٥ ، ١٩٩ ، ٢١١ .
(٨٦) عبث الوليد ص ٢٩ .

« معاطيك : جمع مُعاط . وأحلى : مبتدأ ، ومناولها : واحد فى موضع الجمع ، كما يقال هذا أفضل رجل فى الناس ، ولو أمكن أن يكون (مناولها) مجموعا لكان أحسن ، ولكن الوزن اضطره الى التوحيد ، وهذا كما يقال : أفضل أصحابك أو صديقك فلان ، فيوضع الصديق موضع الأصدقاء . » (٨٧)

وغنى عن القول أن تناسب الكلمات فى النظم أدعى لتآخيها ووحدتها وتركه موجب لتنافرها وقطيعتها . ومن ثم كان كما يقول ابن سنان غاية الحذاق من الكتاب والشعراء . (٨٨)

سابعا : **استواء النسج فى القوة** ، أى أن يكون النظم على نهج واحد لااختلاف فيه = مما نظر اليه فى شعر الشاعر كله ، فضلا عن نظره اليه فى القصيدة أو الأبيات .

ولعله لم يذهب عنك ما سبق فى تحقيق المتن . من ترجيحه الرواية اذا كانت بقرينة أخرى فى القصيدة محققة لقوة النظم وسلامته . وحسبنا هنا أن نذكر بهذا التعليق على بيت المتنبى :

ليس يَحيكُ المَلَامُ فى هِمَمٍ
أقربُهَا منك عَنْكَ أَبْعَدُهَا

« ليس يحيك : أى ليس يؤثر . ويقوى رواية من روى فى أول القصيدة : *** أبعد مابان عنك خردها *** على الاستفهام = قوله فى هذا الموضع *** أقربها منك عنك أبعدها *** ، لأن أبا الطيب قليل التكرير . » (٨٩)

---

(٨٧) المرجع السابق ٢١٤ .
(٨٨) سر الفصاحة ص ٢٠٠ .
(٨٩) الموضح ١/١٢٣ ب .

فكون أبي‌الطيب قليل التكرير وهو من مزاياه = قد جعل المعرى لتحقق هذه المزية يجنح الى الرواية بالاستفهام فى أول القصيدة ، حتى تخالف ماهنا بمعناها ، اذ بدون الاستفهام لاتكادان تختلفان ٠٠

أما حرصه على استواء النسج فى شعر الشاعر كله فيبدو من رواية التبريزى عنه تعليقا على بيتى المتنبى :

ماذا يقـــولُ الذى يُغَـــنِّى
يا خيرَ مَنْ تَحْتَ ذى السَّمَاء

شَـغَلْتَ قلبى بلَحْـظِ عَيْنِـى
إليكَ عَنْ حُسْـن ذَا الغِنَـاء

« قال لى أبو العلاء وقت قراءتى عليه شعره : ماكنت أحب أن يكون هذان البيتان فى شعره ٠ » (٩٠)

وهنا نسأل : لماذا لم يحب أبو العلاء كون هذين البيتين فى شعر المتنبى ؟

ألما فيهما من تكرار (ذى وذا) على خلاف عـادته ، أم لنثرية نسجهما ، ونزول ألفاظهما عن مستوى لغته القوية الجزلة ؟

انه ـ فيما يبدو ـ لذلك كله ، مما لم يعهده المعرى فى غير هذين البيتين ، وما أظنه كان يكرههما فى شعر المتنبى الا لحرصه على وحدة هذا الشعر فى مزاياه التعبيرية من جهة ، واعتقاده سقوطهما عن هذا المستوى من جهة أخرى ٠

ثامنا : توخى العرف النحوى الفصيح والمشهور فى التاليف والاعراب:

مما كان أكثر نظرا اليه وحرصا عليه ، ليس لمجـرد الافادة كمـا يعنى النحويون ، بل لاجادة هذه الافادة وقوتها ، وآية ذلك فى أمور :

---

(٩٠) المرجع السابق ١/١١ أ ٠

منها : تنويهه فى غير موضع بمن توخوا هـذا العرف ومنـاحى توخيهم ، فقد نوه بالنكتى أن برأ نظمه من الضرورات الصدرية والحشوية والعجزية ٠٠ (٩١) ، وبالمتنبى أن كان يفر من الضرورة وان جذبه اليها الوزن ٠٠ (٩٢) ، وبالبحترى أن أدخل اللام مع المصدر فى قوله : (وما تركى لمنبح) ، لأنه أحسن من ادخالها على الفعل ٠ (٩٣) ، وبالحماسى ــ ابن زيابة ــ أن ربط بين الصفات بالفاء فى قوله :

يَالَهْفَ زَيَّابَةَ لِلْحَارِثِ الـ ... صَّابحِ فَالْغَـانِمِ فَالْآيِبِ

لأن هذه الصفات متراخية ومتعاقبة فى الحصول ، اذ الصابح قبل الغانم ، والغانم أمام الآيب ، فحسن ادخال الفـاء ، بخـلاف مالو كانت الصفات مجتمعة فى الموصوف ، فانه يقبح ادخال الفاء ٠٠ (٩٤)

ومنها : اقتراحه فى بعض التراكيب ــ مع صحتها وجوازها ــ مابه تمكن الكلام وقوته ، كقوله عن بيت البحترى :

سَقْيًا لِمَجْلِسنَا الذى آنَسْتَهُ
وَاهًـا لِمَجْلِسِـنَا الَّذى أَوْحَشْتَهُ

« لو أمكنت واو العطف فى أول نصفه الثانى لكان أمكن للكلام ، لأنهم يؤثرون أن تكون الجملة الثانية معطوفة على الأولى ، الا أن ترك حرف لا اختلاف فى جوازه ٠ ويدل على أن دخوله أحسن قول أبى ذؤيب :

---

(٩١) رسائل أبى العلاء ص ٧٨ ٠
(٩٢) المرجع السابق ص ٦٨ ٠
(٩٣) عبث الوليد ص ١٠٣
(٩٤) شرح ديوان الحماسة للتبريزى ١٤٢/١ ٠

أَمِنَ الْمَنُونِ ورَيْبِهِ تَتَوَجَّعُ
والدهرُ ليس بمُعْتِبٍ مَنْ يجْزَعُ

فدخول الواو ههنا أحسن من أنْ يقول : (الدهر) ، وإنْ كانَ ذلك جائزا (٩٥) » .

ومنها : تعقبه للمخالفين لهذا العرف ، وتقبيحه للردىء مما خالفوا فيه ، حيث نجده فى بعض ذلك يستشنع العيب ، فيعده شائنا للقصيدة كلها ، كما فى نقده لبائية امرىء القيس ❋ خليلى مرابى ❋ ، ولا ميته ❋ ألا انعم صباحا ❋ .

فالأولى ـ كما قال ـ : « لو كانت تصل الى قول بلسان ، لنفت ماصنع من غير الاحسان ، على أنها أقل من سواها [أى فى ديوانه] فحشا ، وقد شنعها بعيب ، لم يُخلها فى الزمن من ريب ، وذلك قوله :

فَظَلَّ لَنَا يَوْمٌ قصيرٌ بنَعْمَة فَقُلْ فى مَقِيلٍ نَحْسُهُ مُتَغَيّبُ

فمن رواه خفضا فهو ضرورة قبيحة ، ما أباحته للقائل مبيحة ، وذلك أنه قدم الضمير المتصل بالمرفوع ، وليس ماقضى بمدفوع ، ومن أنشده بالاقواء ، فما ظفر بجميل الأهواء » .

والثانية ـ كما قال أيضا ـ « شأنها بقوله فى آخر بيت : «أَخْنَسَ ذَيَّالِ » ، فالذى يعرف مذاهب العرب يزعم أنه فى موضع نصب ، وأنه أجرى البيت على الوقف ، وقد أعملت الحيل فى وجوه

---

(٩٥) عبث الوليد ص ٧٠ . والمنون : الموت أو الدهر . ومعتب : مرض .

نُصّتْ له ، فقيل : أبدل (أخنس) من الهـــاء فى (روقيه) ، وقيل أراد (ذيالى) بالاضافة الى نفسه ، والأول أشبه » • (٩٦)

فاضطراب الاعراب فى بيتى الكندى لما ألبس المعنى ، وأبهـــم انسياق ، كان معيبا فيهما ، شائنا لقصيدتيهما ، على حين كان فصـــل المتضايفين بهاء السكت عيبا دون ذلك ، لم يتجاوز بــه ماوقــع فيه ، لأن الغموض به أقل ، وهذا تعليقه عليه عند أبى نواس : « وأما قوله فى صدر هذا البيت :

نَدِيمُ قَبْلَ مُحَدِّثُهْ مَلِكِ

فهو نحوٌ مِنْ قول امرىءِ القيس :

فالْيَوْم أَشْرَبْ غَيْرَ مُسْتَحْقِبِ

وليس ينبغى أنْ يحمل على قول من وقف على الهاءِ كما قال :

يَابَيْذَرَهْ يابَيْذَرَهْ يا بَيْذَرَهْ

. . . .

لأن هذا حسن فيه اظهار الهاء ، اذ كان الكلام تاما يحسن عليــه السكوت ، وقوله : (محدثه ملك) مضاف ومضاف اليه ، فلا يحسن فيه مثل ذلك ، اذ كان الاسمان كاسم واحد• » (٩٧)

فعلى الرغم من أنه لم يستحسن هذا التصرف من أبى نواس ، لا نرى منه تلك الحدة التى رأيناها فى نقده بيتى الكندى •

---

(٩٦) خمس رسائل لأبى العلاء ص ١ والبيت المقصود فى الثانية هو•

فخر لروقيه وأمضيت مقــدما طويل القرى والروق أخنس ذيال

(٩٧) رسالة الغفران ص ٤٣٤ •

وبيت أبى نواس عجـــزه : تيــه مغن وظــرف زنديق

واذا كانت مخالفة العرف النحوى المخلة بالسياق مكروهة عنده فى الشعر على اتساعه للضرورات = فهى فى النثر أحق بالكراهية والانكار ، كما يبدو من حكايته - على لسان الحية فى (الغفران) - ما أنكر على حمزة ، من قراءته بخفض (الأرحام) ، فى قوله تعالى : (**واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام**) [سورة النساء : ١] وبكسر الياء فى قوله تعالى : (**وما أنتم بمصرخى**) [سورة ابراهيم : ٢٢] وكذلك بسكون الهمزة فى قوله تعالى : (**استكبارا فى الأرض ومكر السىء**) [سورة فاطر : ٤٣] ، = ثم تعليقه على ذلك - على لسانها أيضا - بقوله : « وهذا اغلاق لباب العربية ، لأ نالفرقان ليس بموضع ضرورة ، وانما حكى مثل ذلك فى المنظوم . » (٩٨)

أى أن مايحتمل فى الشعر - على شذوذه - للضرورة لا ينبغى أن يصار الى مثله فى القرآن ، لأنه ليس من الشعر ، واحتمال ذلك فيه يعنى أن يصير النثر كالشعر ، فى اباحة الخروج على العربية وقواعدها ، وأن يؤدى ذلك - عند وقوعه - الى اطراح هذه العربية واغلاق بابها .

على هذا النحو كان موقفه من شذوذ القدماء المخل ، وهو كذلك من شذوذ المحدثين ، الا أن ما أخذه عليهم يبدو أضعاف ما أخذه على سابقيهم ، مما يعنى جرأتهم على العرف النحوى أيضا .

وكما كان البحترى أكثر من تعقبهم المعرى بجرأتهم على اللغة فيما سبق = كان هنا أيضا ، حتى لقد سجل عليه أنه كان لا يحفل بضرورة ولا حذف (٩٩) . وعلى الرغم من أن المتنبى لم يكن أقل منه جرأة على النحو ان كان أبو تمام أقل = يبدو ما أخذ عليه أضعاف ما أخذ عليهما وعلى غيرهما ، اذ هو لايكاد يصف أبا تمام بالشذوذ ، ولا يصف المتنبى به الا فى القليل (١٠٠) ، على حين نجده يأخذ على

---

(٩٨) المرجع السابق ص ٣٦٨ .
(٩٩) عبث الوليد ص ١١٧ .
(١٠٠) الموضح ٧٤/١ ب ، ١٠٩ أ ، ٢٣/٢ ب ، ١٨٣/١ ب .

البحترى مثلا حذف المضاف اليه من الأول لدلالة الثانى عليه ٠٠ وتقديم جواب الشرط ٠٠ وجمعه بين (الألف واللام) و (من) فى استعمال أفعل التفصيل ٠٠٠ وحذفه الكثير للعائد أو لبعض أجزاء الكلام ٠٠ واستعماله (اما) دون تكرارها ٠٠ ويصف ذلك غيره بأنه « ردىء » أو وهم ، أو ضعيف ٠ » (١٠١)

فهل كان ميله الى مآخذته ـ كما رأينا ـ والاحتجاج لهما ـ كما سيأتى ـ لمزيد من الثقة بهما وبثقافتهما ، أو لميله اليهما دونه ، أو لتباعد الزمان بين تناوله لشعره ولشعريهما ؟ كل ذلك جائز ، وسوف يتضح أكثر من توجيهه واحتجاجه لبعض مخالفاتهم ٠٠٠

تاسعا : توخى الصنعة دون تكلف : مما يعنى تهذيب التعبير وتجويده من جهه ، وتوشيته بصور الفن الأدبية من جهة أخرى ٠ فالتعبير الذى ترو ى فيه صاحبه حتى جوّده آثر عنده مماعداه ولو كانبديهة وارتجالا ؛ والتعبير المحلى بصور الفن أحسن عنده من العاطل منها ٠

أما ايثاره المجوّد على غيره فله شواهد كثيرة : **منها** : ماأشرنا اليه فى الاتجاه الأول من تنويهه بشعره ، لأنه نتاج الطبع والتهذيب ، لا البديهة والارتجال ، مع اقتداره عليهما ، ومع تنويهه بهما ومعرفته بقدرهما (١٠٢) **ومنها** : تنويهه بالمتنبى ، أن كان شديد التفقد لما ينطق به من الكلام ، يغير الكلمة بعد أن تروى عنه ، ويفر من الضرورة وان جذبه اليها الوزن ٠٠٠ (١٠٣) ، **ومنها** : اشادته بمزايا التهذيب والتجويد فى أسلوب (النكتى) الشعرى ، حيث انتقى أعذب الألفاظ ، وبرأ النظم من الضرورات الصدرية والحشوية والعجزية ،

---

(١٠١) عبث الوليد ص ٤٠ ، ١٣٢ ، ١٢٤ ، ١١٧ ، ١١٦ ، وأيضا ٦٦ ، ١٧٧ ٠

(١٠٢) انظر ص ١٤٧ ، ١٥٧ ٠

(١٠٣) رسائل أبى العلاء ص ٦٨ ٠

واختار من الأوزان أحسنها وأشهرها ، يعنى الطويل والكامل والوافر ، ومن الروى ما اختاره الفحول لعذوبته وتمكنه ، أى الدال والباء والميم والنون = وحيث تجنب عيوب الوزن والقافية ، فلم يصب منها شيئا مما أصابه الفحول ومن دونهم ، صادرا فى ذلك عن طبعه وعلمه وحذقه (١٠٤) .

ومنها : ايثاره ماذكرنا من محاسن الكلمات والتراكيب ، فكلها أو أكثرها ـ فيما يبدو ـ من معالم الصنعة التى لا تصاب عفوا بل عن ترو وقصد .

وأما ايثاره الموشى بصور الفن على العاطل منها = فمن شواهده ما أشرنا اليه فى الاتجاه الأول أيضا (١٠٥) : من تنويهه بطريقة أبى تمام المبتدعة ، وليست الا مذهبه الفنى من توخى الصنعة والبديع . ومن شواهده أيضا : ميله الى المشتمل على الصنعة من الروايات ، ذلك الميال الذى رأيناه فى قوله عن بيت أبى تمام :

جرَّتْ له أسماءُ حَبْلَ الشُّموسْ
والوصلُ والهجرُ نَعِيمٌ وبُوسْ

« أحسن الروايات (جَرَّتْ له حَبْلَ الشَّمُوسْ الشموس) ... فأما الذى يرْوى (جَرَّتْ له أسماءُ حَبْلَ الشُّمُوسْ) فإنه يُخْلى هذا المصراع من الصنعة » . (١٠٦)

ـ ونراه أيضا فى قوله عن ثانى بيتى الطائى :

تُصَدِّعُ شَمْلَ القَلْبِ مِنْ كلِّ وجْهَةٍ
وتَشْعَبُهُ بالبَثِّ مِنْ كلِّ مَشْعَبِ

---

(١٠٤) المرجع السابق ص ٦٥ ـ ٧٩ .
(١٠٥) انظر ص ١٦٠ .
(١٠٦) شرح التبريزى لأبى تمام ٢٧٤/٢ ، ٢٧٥

بمُخْتَبَل ساج من الَّطرْف أَحْوَرِ
وَمُقْتَبَلٍ صَافٍ من الثَّغْر أَشْنَبِ

« يُخْتَارُ فتحُ الباء من (مُخْتَبَلٍ) ، ليكون موازياً لفتحها فى (مُقْتَبَلٍ) ، ولو كُسرَت الباءُ فى (مُقْتَبِلٍ) لكان كسرها فى (مختبل) واجبًا » . (١٠٧)

لكن هذا الايثار للصنعة بنوعيها انما كان ـ كما قلنا ـ لما لم تنته به الصنعة الى التكلف والاغراب ، أما نحو ذلك فمما كرهه وأررى به ، على مايبدو من قوله لرؤبة فى (الغفران) : « ياأبا الجحاف ، ما كان آكلفك بقواف ليست بالمعجبة ، تصنع رجزا على الغين ، ورجزا على الطاء ، وعلى الظاء ، وعلى غير ذلك من الحروف النافرة . »(١٠٨) ، = وقوله فى الرد على رسالة أبى الحسن بن سنان : « وعجبت من ألفاظه التى ليست مسجوعة سجع الجاهلية ، ولا منثورة نثر كلام العامة ، بل هى منظومة نظم اللؤلؤ البحـــرى ، متضـــوعة تضوع نسيم الروض السحرى » (١٠٩) .

فقوافى رؤية من هذه الحروف النافرة ليست بالمعجبة ، لما فيها من غرابة وتكلف ، وألفاظ أبى الحسن المنظومة باحكام ليست أحسن من نثر العامة المهلهل فقط ، بل أحسن من سجع كهان الجاهلية المتكلف أيضا .

---

(١٠٧) المرجع السابق ١٥٥/١ تصـــدع وتشعب : تفرق . البث : الحزن . مختبل : فاتر ، ساج : ساكن ، مقتبل ـــ بفتح الباء ـــ موضـــع التقبيل . أشنب : من الشنب : برودة الفم والأسنان . وقيل : رقة الاسنان وحدتها وبياضها .

(١٠٨) رسالة الغفران ٣٧٥ .

(١٠٩) رسائل أبى العلاء ١١٩ النسيم السحرى : نسيم آخر الليل قبل الفجر . وتضوعه : تحركه وطيب رائحته

٦ ـ دفاع عن بعض ماعيب :

كما نوه أبو العلاء بما آثره من الألفاظ والتراكيب على النحو الذى رأيناه ، دافع عن بعض ماعيب منها ، اما لأنه مما استجاده وآثره ، واما لأنه مما ثبتت سلامته أو ورود مثله عنده .

أما ما دافع عنه لاستجادته اياه فقد سبق بعضه (١١٠) ، ومنه أيضا (نظم القرآن) ، الذى ألف ابن الراوندى كتابه (الدامغ) فى الطعن عليه (١١١) ، والذى قال عنه أبو العلاء ـ بعد أن ذم (الدامغ) وصاحبه ـ فى (الغفران) :

« واجمع ملحد ومهتد ، وناكب عن المحجة ومقتد ، أن هذا الكتاب الذى جاء به محمد ﷺ كتاب بهر بالاعجاز ، ولقى عدوه بالارجاز ، ماحذى على مثال ، ولا أشبه غريب الأمثال ، ماهو من القصيد الموزون ، ولا الرجز من سهل وحزون ، ولا شاكل خطابة العرب ، ولا سجع الكهنةذوى الأرب ، وجاء كالشمس اللائحة ، نورا للمسرة والبائحة ، لو فهمه الهضب الراكد لتصدع ، أو الوعول المعصمة لراق الفاردة والصدع ، (وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون) (١١٢) ، وان الآية منه أو بعض الآية لتعترض فى أفصح كلم يقدر عليه المخلوقون ، فتكون فيه كالشهاب المتلألىء فى جنح غسق ، والزهرة البادية فى جدوب ذات نسق ، (فتبارك الله أحسن الخالقين) . [سورة المؤمنون : ١٤] » (١١٣)

---

(١١٠) انظر ص ٢٤٣ ، ٢٤٤ .

(١١١) رسالة الغفران ص ٣٩ .

(١١٢) آية ٢١ من سورة الحشر .

(١١٣) رسالة الغفران ص ٤٧٢ .

والمحجة : الطريق المستقيم . والناكب عن المحجة : من تركها ومال عنها . وبهر : غلب وقطع . وأرجزه : أصابه بالاضطراب . ما حذى على مثال : ما ألف على نحو معروف . والحزون : الصعب الغريب . ذوى الارب : ذوى المهارة والبصر بالأمور . اللائحة : المضيئة المتلألئة . المسرة : الكاتمة.والبائحة : المظهرة . الهضب الراكد : الجبل الثابت . الوعل =

فالقرآن الذى بهر بالاعجاز كما قال ، متفرد فى نظمه وأسلوبه عن جميع فنون الأدب التى عرفها العرب ، بالغ فى تأثيره ـ كالشمس ـ من تعرض له ومن تحاماه ، حتى الجماد والحيوان لو فهماه .. متميز بين ما اعترض فيه من أفصح الكلم ، تميز النور فى الظلام ، والزهـر فى الجدب .

ومع أننا لاندرى شيئا عن مطاعن ابن الراوندى على نظم القرآن ومدى استهداف المعرى لها = نحس من دفاعه أمرين :

أولهما : أن التفاته الى هذه المزايا بعد ذمه لابن الراوندى وكتابه لايدل فقط على تنزيهه القرآن عن الطعن ، بل يدل أيضا على ارتفاعه بنظمه الى ذروة الروعة والجمال ، حتى ليصح لنا أن نقول : ان القرآن عنده هو النمط الفنى الأول ...

وثانيهما : أن هذا القول منه عن القرآن ـ دفاعا وتنويها ـ يرد بقوة ـ كما ذهب بعض الدرسين ـ (١١٤) على من زعموا أنه عـارضه بكتابه (الفصول والغايات) .

وأما مادافع عنه لثبوت سلامته أو لورود مثله فهو ـ كما وجدت ـ بعض ماعيب على أبى تمام والمتنبى ، هذان الشاعران اللذان أحبهما ، حتى سمى كتابه فى أولهما (ذكرى حبيب) ، وفى ثانيهما : (معجز أحمد) ، وحتى نوه بفنهما فى مواضع كثيرة ، ورد علينا بعضهـا وسيرد الآخر ، وكان هذا الحب ـ فيما يبدو ـ أساسا لدفاعه عنهما ،

نيس الجبل . المعصمة : اللاجئة الى الجبل المستمسكة به ، الفاردة : المسنة . الصدع : الشابة التوية . الشهاب : الكوكب الشديد الضوء . الغسق : ظلمه أول الليل . وجنح غسق : طائفة منه . والجدوب : جمع جـدب ، وهو المـكان اليابس لاحتباس المـاء عنه . وذات نسق : ذات نظام واحـد .

(١١٤) المرجع السابق هامش ص ٤٧٣ .

ولما توخاه فى هذا الدفاع من تعميق النظر ، وتخطىء المعترض وتأكيد الصحة بالشرح والاستشهاد ٠

خذ مثلا قوله عن بيت أبى تمام :

وَلَيْسَتْ بِالْعَوَانِ الْعَنَسِ عِنْدِى
ولا هى مِنْكَ بِالْبِكْرِ الْكَعَابِ

« العوان : التى ولدت بطنين أو ثلاثة ، وقد عاب بعض أهل العلم (١١٥) هذا البيت بقوله : (العنس) ، وقال : لم نسمع العنس الا فى صفة الناقة ، كأنه يذهب الى أنه أراد العانس ، فوضع العنس مكانها ، ويجوز أن يكون هذا غلطا على الطائى ممن عابه ، اذ كان مثله ـ مع أدبه ـ لا يغيب عنه مثل ذلك ، والعانس : التى تحبس عن الترويج بعد البلوغ حتى تبلغ عشرين سنة أو أكثر ، ويستعمل هذا الوصف للرجال والنساء ٠٠٠ والعنس : الناقة الشديدة المسنة ، ويحتمل أن يكون أبو تمام أراد : ليست صنيعتك عندى مثل الناقة التى هى عوان قد أسنت اذ كنت تجددها فى كل حين ، ولا هى منك بالبكر الكعاب ، أى ليست أول صنائعك ٠ » (١١٦)

تجده يجل الطائى عن احتمال الخطأ ، فى استعمال (العنس) مكان العانس ، حتى لقد جوز أن يكون الخطأ ممن خطأه ، اذ كان مثله مع أدبه لا يخفى عليه مثل ذلك ، كما جوز أن يكون أبو تمام قد استعمل الكلمة فى البيت بمعناها لا بمعنى العانس ، فيكون المراد كما قدر ، وهو تقدير صحيح ، الا أنه يذهب بدقة الصنعة فى البيت ، أعنى المقابلة بين ماشبهت به الصنيعة من صفتى المرأة : العوان العانس ، والبكر الكعاب ، اذ تصير أولاهما على تفسيره للناقة ، مع أن هذه الصنعة

---

(١١٥) يعنى الآمدى فى الموازنة ١/١٦٢ — ١٦٦ ٠

(١١٦) شرح التبريزى لديوان أبى تمام ١/٢٩٠ ٠

كانت مما تلمسه دائما عند الطائى كما رأينا ، بل كانت مما حرص عليه الطائى ولو أخطأ فى سبيله على ما اشتهر عنه ٠

أوخذ من دفاعه عن المتنبى قوله عن الثانى من بيتيه :

فَيَالَكَ لَيْلًا على أَعْكُشٍ أَحَمَّ البلاد خَفِيِّ الصُّوَى
وَرَدْنَا الرُّهَيْمَةَ فى جَوْزِهِ وَبَاقِيه أَكْثَرُ مِمَّا مَضَى (١١٧)

« الجوز الوسط ، وبعض من لا علم له بالعربية يسأل عن هذا البيت ويظن أنه مستحيل ، لأنه يحسب أنه لما ذكر (الجوز) وجب أن تكون القسمة عادلة فى النصفين ، فيذهب الى أن قوله * وباقيه أكثر مما مضى * نقض للكلام المتقدم ، وليس الأمر كذلك ، ولكنه جعل ثلث الليل الثانى كالوسط وهو (الجوز) ، ثم قال : (وباقيه أكثر) ، كأنه ورد والثلث الثانى قد مضى ربعه وبقى ثلاثة أرباعه أو أكثر ، وهذا بين واضح ، والهاء فى (باقيه) يجوز أن ترجع الى الليل والى الجوز » (١١٨) ٠

تجده هنا أيضا قد اشتد على المعترض ، حتى نسبه الى الجهل بالعربية ، ثم بين من مدلول (الجوز) ومرجع الضمير المتصل به مايصح به المعنى ، ويصحح الخطأ فى تلمسه ، ويبدى عن تعمقه فى الفهم والتذوق ٠

ولأن الطعن فى الموضعين السابقين على الاستعمال من حيث دلالته كان جنوح المعرى ـ كما ترى ـ للشرح والتعليل ، على حين جنح فى دفاعه عن قول المتنبى الآخر :

---

(١١٧) أعكش والرهيمة : موضعان قرب الكوفة ٠ أحم : أسود ـ الصوى : أعلام تبنى على الطريق ليهتدى بها ٠

(١١٨) الموضح ١/١٥ ب ٠

وَاحَرَّ قَلْبَاهُ مِمَّنْ قَلْبُهُ شَبِمُ
وَمَنْ بِجِسْمِي وحالِي عنده سَقَمُ

ـ الى الاستشهاد بغير شاهد ، لأن الدفاع هنا عن مطاعن نحوية ، كما يبدو من قوله فيه : « بعض النحويين يرى أن حذف الياء فى هذا الموضع ردىء (١١٩) ، لأنها تحذف فى قولك : (ياغلامِ) ، فاذا أضيف الغلام الى غيره لم تحذف منه ، كقولك : (ياغلام غلامى ، وياعبد عبدى) . وقد حكى سعيد بن مسعدة أن بعض العرب يقول : (جاءنى غلام) ، فيحذف الياء فى غير النداء ، فاذا أخذ بهذا القول فحذف الياء من (واحر قلباه) سائغ يسير . وكذلك من عاب اثبات الهاء فى الوصل ، وزعم أنها تثبت فى الوقف ، فقد جاء خلاف مازعم فى الشعر ، فى قوله :

يَا مَرْحَبَاهُ بحمارٍ أَعْفَرَا

وقوله: يَا مَرْحَبَاهُ بِحِمَارٍ نَاجِيَهْ

وقوله: يَارَبِّ يارَبَّاهُ إِيَّاكَ أَسَلْ

وقوله: إِلَيْكَ أَتُوبُ يَارَبَّاهُ مِمَّا جَنَيْتُ فَقَدْ تَكَاثرت الذُّنُوبُ

... (١٢٠) »

الا أنه ـ كما ترى ـ قد احتج بالقليل الذى حكم برداءة بعضه فيما سبق ، وان أمكن أن يقال : اذ ههنا بسبيل تحقيق الجواز لا الجودة ، وليس على الشاعر ـ كما يقول صاحب الوساطة ـ : « عيب فى اتباع انلفظة النادرة اذا رواها الثقات ، فمتى وجدت الرواية عن ثقة لم يحظر على الشاعر قبولها والعمل بها لأجل اختلاف النحويين » (١٢١) .

---

(١١٩) يعنى ياء المتكلم فى « قلبى » لأن أصل الكلام : واحر قلبى ممن قلبه شبم .

(١٢٠) المرجع السابق ٥٧/٣ أ والأعفر : ماتعلو بياضه حمرة أو الأبيض ليس بالشديد البياض .

(١٢١) الوساطة ص ٤٦٣ .

٣ ـ توجيه بعض ماخولف فيه :

كذلك لم يكن كل ماخالف عرف اللغة والنحو لاضطرار أو نحوه موضعا لعيبه وتقبيحه ، بل كان منه ماذهب الى توجيهه والاحتجاج له وهو كثير ، بعضه من مخالفات القدماء ، وجله من مخالفات المحدثين . لا سيما أبو تمام والبحترى والمتنبى .

وانما ذهب الى ذلك ـ فيما يبدو ـ لأحد أمرين : اما تجنيب النص مايعاب به من الضرورات ، واما اثبات صحته وجوازه ..

أما تجنيبه مايعاب به من الضرورات فقد كان غايته ووكده فيما أمكن الحمل فيه على غيرها ، لأنها لم تكن عنده من مظاهر اصابة الشاعر واجادته ، بل كانت من مظاهر ضعفه وضعف شعره ، يبدو ذلك من تقسيمه الشعراء الى ثلاثة : مصيب ومخطىء ومضطر ، والضرورات أيضا الى ثلاثة : مقيسة ومسموعة وشاذة عن القياس والسمع (١٢٢) . فاذا كان المصيب ـ فيما سبق من كلامه ـ من برأ النظم من الضرورات .. ومن كان يقر من الضرورة وان جذبه اليها الوزن كان المضطر ـ فضلا عن المخطىء ـ دون المصيب ، واذا كانت الشاذة ـ فيما سبق من حكمه (١٢٣) ـ قبيحة ، ما أباحتها للقائل مبيحة = فان المقيسة أو المسموعة لاتعدو أن تكون مباحة .

أى ان المضطر عنده الى شىء من هذه الضرورات ان لم يبلغ درجة القبح بشاذها لن يبلغ درجة الاصابة بمباحها ، لذا كانت محاولته تجنيب النص لها، وابراءه منها بكل وجه ممكن، خصوصا أن اللغات ـ كما قرر ـ كثيرة ، ولا يمكن أن يحاط بجميع مالفظت به القبائل (١٢٤) .

---

(١٢٢) رسائل أبى العلاء ص ٦٥ .
(١٢٣) انظر فيما سبق (عن المصيب والشاذة) ص ٢٥١ ، ٢٥٢ .
(١٢٤) عبث الوليد ص ٢٣٤ .

والوجوه التى التمسها واعتمد عليها فى ذلك كثيرة :

فمنها : كون الاستعمال المحتمل للضرورة لغة خاصة ، فتكون تلك اللغة مخرجه من الضرورة ، كما يبدو من قوله عن حذف نون (لكن) ، متحركة لاساكنة ، فى بيت النجاشى :

فَلَسْتُ بآتيهِ ولا أَسْتَطِيعُــــــــهُ

ولاكِ اسْقِنِى إنْ كَانَ مَاؤُكَ ذَا فَضْلِ

« فاما الفراء فيذكر أنه لغة فى (لكن) ، فاذا حمل قول النجاشى على ذلك فلا ضرورة فيه » (١٢٥) ٠

ومنها : شهادة القياس بجوازه ، تلك الشهادة التى اعتمد عليها هنا على الرغم من نزوعه الواضح الى السماع ، ففى التعليق على بيت البحترى :

لَمْ تَنَمْ عَنْ دُعَائِهِم حِينَ نَادَوْا

وَالْقَنَا قَـدْ أَسَالَ فِيهِمْ قَنَاءَ

لمده (القنا) فى آخر موهى من القناة الجارية = جعل من الادعاء مانسب الى سيبويه ، من أنه « أوما الى مد المقصور فى ضرورة الشعر » ، لأن « القياس يشهد بن مد المقصور جائز ، اذ كانوا قد زادوا حروف المد واللين فى مواضع كثيرة » (١٢٦) ٠

ومنها : مجىء نظيره فيما أثر من القراءات ، كحذف التنوين فى قول البحترى :

قَدْ لَعَمْرِى أَضْحَى الزَّمَانُ حَمِيدًا

بابن وَهْبٍ محمـدِ المَأْمُولِ

---

(١٢٥) الموضح ١/١٠١ أ ٠

(١٢٦) عبث الوليد ص ٢٦ ، ٢٧ ٠

أى حذفه من (محمد المأمول) لالتقاء الساكنين ، اذ على الرغم من أن اثباته أحسن عنده قرر « أن هذا عندهم ليس من الضرورات ، لأن بعض القراء قد استعمله فى مثل قوله تعالى : (**قل هو الله أحد الله الصمد**) [سورة الاخلاص : ١ ، ٢] (١٢٧) .

ومنها : صرف الاسناد فى النص عما يحتمل الضرورة الى مايبعد به عنها ، كقوله عن بيت البحترى :

أَو كالْعُقَابِ انْقَضَّ مِنْ عَلْيَائِهِ
فى باقِرِ الصَّمَّانِ أَو آرامِهِ (١٢٨)

« كان فى الأصل (من عليائه) وهو الوجه ، وفى الحاشية من (عليائها) ، وهو ردىء جدا ، لأنه ذكر العقاب بقوله (انقض) : فيقبح أن يرجع الى تانيثها مع تقارب اللفظ ، وقد حكى تذكير العقاب وهو قليل ، وأحسن من هذا الوجه أن يجعل (انقض) للفرس ، لأنه اذا قال (كالعقاب) ، فقد شبهه بها فى جميع أمورهـا والانقضاض بعض أفعالها ، وبهذا الوجه يسلم من الضرورة . انما يحسن تذكير العقاب اذا ذهب بها مذهب الطائر ، لأن تأنيثها تانيث حقيقة ، اذ كانت تبيض وتفرخ ... (١٢٩) . »

ومنها : اقتراح وجه آخر من الاعراب لا ضرورة فيه : كقوله فى التعليق على بيت البحترى :

وَمِنْ قَبْلُ ما جَرَّبْتَ أَنْبَاءَ جَمَّةً
ولا يَعْرِفُ الأَنْبَاءَ إلاَّ مُجرِّبُ

---

(١٢٧) عبث الوليد ص ١٧٧ .

(١٢٨) العقاب : طائر كاسر . باقر : جماعة البقر . الصمان : موضع . آرام : ظباء .

(١٢٩) عبث الوليد ٢١٢ .

« ترك صرف (أنباء) ، وذلك ردىء جدا ، ولكنه يدخل فيما ترك صرفه للضرورة ... ولا ريب أن الشاعر نصب (جمة) ، ولو خفضها وجعل المعنى : (أنباء أمور جمة) تخلص من الضرورة » (١٣٠) .

وأما اثباته صحة المخالف أو اعتذاره عنه ، مع عيبه لمثله فيما أسلفنا = فمما اتجه اليه أحيانا لبيان مدى امكانه وسعة اللغة له ، كما كان اتجاهه الى عيبه لبيان مدى جودته واثارته لا جوازه وصحته ، فالاتجاهان صحيحان لتعدد الغاية فيهما ، بل ان مراوحته بينهما - لذلك - من أمارات أصالته . واذا كان ما يؤخذ عليه هنا فهو كثرة مؤخذاته لبعض الشعراء كالبحترى ، واحتجاجه لآخر كأبى تمام والمتنبى ، ربما لما بينا من قبل (١٣١) .

على أنه - فيما جنح لاثبات صحته أو للاعتذار عنه - لم يثبت ولم يعتذر فى الغالب الا بوجه قوى ، وانها لوجوه كثيرة ومتنوعة ، تلك التى اعتمد عليها وصدر عنها ، وكان من أهمها : **القياس والتاويل وثقافة الشاعر وكون الاستعمال فى القافية او لغة خاصة** ..

فالقياس : مما اعتمد عليه كثيرا وان تكلفه أحيانا ، ومثاله مما لا تكلف فيه : قوله فى التعليق على تجاوز الطائى (مشهور التعدية) فى بيته :

لم تطلع الشمس فيه يومذاك على ... بان بأهل ولم تغرب على عزب

« أهل اللغة يختارون (بنى فلان على أهله) ، ويكرهون (بنى بها) ، وأصل ذلك أنهم كانوا اذا أعرسوا بنوا القباب على العرائس ، والمتعارف فى كلامهم : (بنى على المرأة القبة) ، ولا يمنع القياس دخول الباء فى هذا الموضع ، ويكون المعنى بنى بأهله ، أى من أجلهم » (١٣٢) .

---

(١٣٠) المرجع السابق ٦٦ .
(١٣١) انظر ص ٢٥٥ .
(١٣٢) شرح التبريزى لأبى تمام ٦١/١ .

أما ما تكلف فيه فيبدو فى قوله عن بيته هو – من السقط –

عَجِبَ الأَنامُ لطُول همة مَاجِدِ
أَوْفَى به قِصَرٌ على أَضْرَابِهِ

«أضراب : جمع ضَرْب، والضرب مصدر، وفَعْل لايجمع على أفعال فى أكثر الكلام ، ويجوز أن تكون هذه الكلمة مجموعة على حد لفظ ما استعمل، لأنه يقال : ضربت الدرهم ضربا ، وكان القياس أن يسمى الدرهم (الضرب) كما يقال للمنقوض النقض وللمقبوض القبض ٠٠ » (١٣٣) فاذا كان الجمع على حد هذا اللفظ كان جاريا على القياس حينئذ ، لكن هذا اللفظ لم يستعمل ، فتقديره اذا تكلف ٠

والتأويل : هو ماجنح اليه فى كثير من مخالفات المتنبى كقوله عن وصفه المفرد بالجمع فى بيته :

أَفْدِى الْمُوَدِّعَةَ الَّتى أَتْبَعْتُهَا
نَظَرًا فُرَادَى بَيْنَ زَفَرَاتٍ ثُنَا

« انما جاز أن يقول : نظرا فرادى ، لأن النظر قد يتسع حتى يشتمل على نظرات كثيرة ، فلذلك حسن أن يوصف بالجمع ، فاذا قلت : جاء فلان فرادى لم يحسن أن تصف واحدا بجمع ٠٠٠ » (١٣٤)

وكقوله أيضا عن موقع (ما) فى بيته الآخر :

أَعْطَى فقلتُ لِجُودِهِ مايُقْتَنَى
وَسَطَا فَقُلْتُ لِسَيْفِهِ ما يُولَدُ

---

(١٣٣) ضوء السقط ورقة ٢٧ ب وانظر أيضا ٢٦ ب ٠
(١٣٤) الموضح ٣/١٤٢ ب ٠

« قوله : (لسيفه مايولد) ، أى انه لكثرة مايقتل يظن كل من يولد مقتولا بسيفه ، وحسن أن يوقع (ما) ههنا على الآدميين ، لأنه وسع دعواه فكأنه قال : ولسيفه الشىء الذى يولد ، وهذا كما يقال : ما أنت ؟ ـ وقد علم أنه آدمى ـ أى من من الناس أنت ، فكأن المتكلم اذا سأل عن ذلك يوهم أنه جاهل متهاون . » (١٣٥)

وثقافة الشاعر : أيضا مما اعتمد عليه كثيرا ، اذ على الرغم من تلك الأحكام القاطعة المطمئنة التى أطلقها كثيرا ـ وهو واثق ـ بأن هذا الاستعمال مفقود أو لم يعرف فى الكلام القديم = وجدناه يجنح الى الثقة بثقافة الشاعر ، لتوجيه قوله وترك مؤاخذته ، حيث يقول عن بعض الاستعمالات : ويجوز أن يكون الشاعر سمعها ـ أو لعله سمعها ـ فى شعر قديم ، وأكثر مانجد ذلك منه فيما تعقبه من مخالفات أبى تمام ، اذ كانت ثقته بثقافته عالية ، على أننا قد نجده أيضا فيما تعقبه من مخالفات المتنبى والبحترى ، لكن على قلة . ومن صور ذلك ـ فيما تعقبه من مخالفات الطائى ـ قوله عن بيته :

نُسَائِلُها أَىَّ الْمَوَاطِنِ حَلَّتِ

وَأَىَّ دِيَارٍ أَوْطَنَتْهَا وَأَيَّتِ

« جرى فى هذا البيت كلام فى دار العلم ببغداد ... وكان الذى سأل عن هذا البيت أبا نصر أحمد بن يوسف المنازى فقال : انما أراد (أيّتْ) فى معنى (تأيّتْ) ، من التأبىّ ، وهذا قول حسن ، وهو يشبه مذهب الطائى فى الصنعة ، الا أن المعروف من كلام العرب (تأيّيْتُ) ،

---

(١٣٥) المرجع السابق ١/١٣٣ ب وانظر أيضا ١/٩٦ أ ، ١٠٣ ب ، ١٠٩ ب ، ١٢٨ أ ، ١٨٠ ب .

ولم يجيء فى أشعارهم (أيّيْتُ) ، ويجوز أن يكون أبو تمام سمعها فى شعر قديم ، لأنه كان مستبحرا فى الرواية ... » (١٣٦)

وكقوله هذا قوله عن بيت المتنبى :

أعزُّ مكانٍ فى الدُّنا سَرْجُ سابحٍ
وخيْرُ جَليسٍ فى الزّمان كتاب

« قلما يوجد فى الشعر الدنيا مجموعة ، وانما جاء بها أبو الطيب قياسا ولعله سمعها فى بعض الأشعار ... » (١٣٧)

لكن إذا ذكرنا قوله فى مثله : « وما أظن أنها - أى العرب - نطقت بكلمة ولم أعرفها » - حيرنا فى إحالته هنا على ثقافة الشاعر الذى لم يعن باللغة عنايته ، وقد يخفف من حيرتنا نصه فى (عبث الوليد) على « أن اللغات كثيرة ، ولا يمكن أن يحاط بجميع مالفظت به القبائل » ، ونصه فى (رسالة الملائكة) على « أن اللغة واسعة جدا ، ولا يمكن أن يدعى حصولها فى الكتب عن آخرها » (١٣٨) .

فهل كان ذلك منه فى (العبث والملائكة) تاليا لقوله الأول أو رجوعا عنه ؟ لا يتضح ذلك ، وربما كان الأول - وهو مما روى عنه - موضوع منحول ، لمخالفته ما أملاه وهو أوثق وأثبت ..

وكون الاستعمال المخالف فى القافية : كذلك مما نظر اليه فى التوجيه كثيرا ، لأن القوافى - كما قال - « أجمعت الشعراء على أن تستعمل

---

(١٣٦) شرح التبريزى لأبى تمام ٣٠٤/١ وانظر أيضا ٢٩٧/١ ، ٤٦/٢ ، ٢٥٧ . التأبى : القصد .
(١٣٧) الموضح ٧٨/١ ب ، وانظر أيضا ٥٤/١ أ .
(١٣٨) عبث الوليد ص ٢٣٤ ، رسالة الملائكة ص ٢٣٠ ، ٢٣١ .

فيها أشياء لا تستعمل فى حشو البيت ، فمن ذلك حذف الاعراب فى الشعر المقيد ، وتخفيف المشدد ، ولا يستعملون مثل ذلك فى غير القافية » (١٣٩) فتخفيف (جان) فى قول ابن أبى حصينة :

فعِشْ عُمْرَ مَاحبَّرْتُ فِيكَ فإنَّهُ
سَيَبْقى إذا لم يَبْقَ إنسٌ ولاجان

على الرغم من أنه لم يَرِدْ فى كتاب الله — كما قال — إلا مثقَّل النون — أسهلُ من تخفيفه فى حشو البيت لذلك (١٤٠) .

وحذف المتنبى الاعراب من (ناسى) — وأصله ناسِيًا — فى قوله :

ألا أَذِّنْ فما أَذْكَرْتَ ناسى
ولا لَيَّنْت قلباً وهوَ قَاسِى

ليس مثل أنْ يأتِيَ به فى حشو البيت ، لأَن ذلك عند البصريين من الضرورات : وعند الفراء لغة العرب وأنشد الكوفيون :

فكسوْتَ عارٍ جنْبَهُ فتركْتَهُ جَذْلانَ جَادَ قميصُهُ ورِدَاؤُهُ

. . . » (١٤١)

أما كونه لغة خاصة : فمما جنح اليه فى التوجيه أحيانا ، كقوله عن بيت الحماسى معن بن أوس :

---

(١٣٩) الموضح ٢/٢٦ أ .
(١٤٠) شرح ديوان ابن أبى حصينة ٢/٧٢ وانظر أيضا ص ٧٩ .
(١٤١) الموضح ٢/٢٦ أ .

وإنّى أخوكَ الدائمُ العهدِ لم أَخُنْ إنَ ابْزَاكَ خَصْمٌ أو نَبَابكَ مَنْزِلُ(١٤٢)

« القى حركة الهمزة من (أبزاك) على النون من (ان) وحذف الهمزة ، وهى لغة جيدة حجازية ، وقد قرأ بها ورش ، الا أن قطع الهمزة اذا أمكن أحسن وأكثر ، وانما يستعمل الشعراء ذلك لاقامة الوزن ، كما قال ذو الرمة :

مِنَ الِ أَبى مُوسَىَ ترَى الناس حَوْلَهُ
كأَنهُمُ الْكِرْوانُ أَبْصَرن بازِيَا» (١٤٣)

وفيما عدا هذه الوجوه اعتمد أحيانا على وجود نظير للاستعمال فى بعض التصاريف .. أو الأشعار .. أو الرخص النحوية .. أو على كون اللفظ من الأسماء الأعجمية لجرأتهم على تغييرها (١٤٤) .

ولئن كان أبو العلاء ـ كما نرى من ألوان احتجاجه هنا ـ ظاهر النزوع الى الاعتذار عن الشعراء = لقد كان ـ مع ذلك ـ يكره التكلف فى هذا الاعتذار ويندد به ، كرهه من نفسه ، فلم يتكلف ـ كما رأينا ـ الا نادرا ، وكرهه من غيره ، فلم يعجبه من أبى سعيد السيرافى ولا من أبى على الفارسى ولا من سائر النحويين ماتكلفوه فى هذا المجال .

فمما أخذه على السيرافى اجازته للتخلص من الاقواء = أن تكون رواية مانسب الى آدم عليه السلام :

تغيرتِ البلادُ ومَنْ عليها فَوَجْهُ الأَرضِ مُغبَرٌّ قبيحُ
وأودى رَبْعُ أهليها فبانوا وزال بشاشَةَ الوجهُ المليحُ

---

(١٤٢) أبزاك : غلبك . ونبابك منزل : لم يوافقك .
(١٤٣) شرح الحماسة للتبريزى ١٣٣/٣ .
(١٤٤) الموضح ٢٥/١ أ ، ٨٧ ب ، ١٨/٢ ب ، ٧٢/٣ ب .

بنصب (بشاشة) على التمييز ، وحذف التنوين لالتقاء الساكنين ، حيث علق عليه بقوله : « هذا الوجه الذى قاله أبو سعيد شر من اقـواء عشر مرات فى القصيدة الواحدة (١٤٥) » . وتكلف السيرافى فيما ذهـب اليه واضح لا يحتاج الى بيان ..

ومما أخذه على الفارسى تلك التأويلات البعيدة التى جعل الشعراء يقاضونه عليها فى ذلك المشهد العابث الساخر من مشاهد الغفران ، كذهابه الى رفع (الماء) فى قول يزيد بن الحكم الكلابى :

فَلَيْتَ كَفَافًا كان شَرُّكَ كُلُّهُ
وَخَيْرُكَ عَنِّى ما ارْتَوَى الْماءَ مُرْتَوِى

ولم يقله الشـاعر الا بالفتح ـ وكذهابه الى فتح الميم من (مقتوى) فى قول يزيد أيضا :

تَبَدَّلْ خَليلًا بى كَشَكْلِكَ شَكْلُهُ
فَإِنِّى خَليلًا صَالِحًا بكَ مُقْتَوِى

ولم يقله الا بالضم ... (١٤٦) .

أما ما أخذه على النحويين من ذلك فكثير ، يستطيع أن يرجـع اليه من أراده فى (الغفران) (١٤٧) وغيرها ..

---

(١٤٥) رسالة الغفران ص ٣٦٣ .

(١٤٦) المرجـع السابق ٢٥٤ ومقتـوى ـ بضم الميم ـ متخـذ (اللسان : قتا) .

(١٤٧) المرجع السابق ٣٦٩ ، ٣٧٠ .

معانى النصوص

كان عظيم الاهتمام بها والتناول لها ، يبدو ذلك ـ فيما سبق (١) ـ من كونها أخص ما عناه فى (معجز أحمد) و (زجر النابح) و (نجر الزجر) و (رسالة الضبعين) ، ثم من كونها أخص ما فضل به المتنبى ونوه به عند الطائى ، واتجه اليه فى تحليله وتقويمه • كما يبدو هنا من سعة تناوله لها ، حيث اتجه فى هذا التناول الى **تأويلها** ، **وتأصيلها** ، **وتعليلها** ، وبيان **ما يؤثره فيها** ، **والتمييز** بين جديدها ومسبوقها ، **والتوجيه لما خالف** ، **والدفاع عما عيب منها** •

ولم يكن غريبا أن نجدها بهذه المكانة ممن أخذ نفسه بالبحث عن الحقيقة على ما أوضحنا فى اتجاهه الفلسفى ، اذ ليست معانى النصوص ـ كما رأينا ـ الا حقيقتها الفكرية والشعورية ، فهد اذن بعض مايتجه اليه بطبيعته الفلسفية فضلا عن طبيعته الذوقية •

أما كيف كان تناوله لها فى اطار ماذكرنا فهو ما نأخذ فى عرضه وتفصيله :

١ ـ تأويلها :

من أظهر ما شغل به أبو العلاء فى دراسة النصوص • وطالما كان شاغل العلماء والنقاد قبله وبعده ، ثقة منهم جميعا بأن للأدب ـ لا سيما الشعر ـ لغته الخاصة ذات الألوان والظلال والدلالة الهامشية ، أو بأن تلك اللغة ـ على اتساع دلالتها ـ ليست الا رموزا توحى بما أراده الشاعر دون أن تستوعبه أو تحيط به غالبا •

ولادراكهم هذه الخصوصية كما ندركها اليوم كان اقبالهم الزائد على شرح المعانى ، والوساطة بهذا الشرح بين النصوص وطلابها من المتعلمين

---

(١) انظر ص ٥٣ ، ١٠٣ ، ١١٦ ، ١٦٠ .

وغيرهم ، كما كان تعقبهم بعضهم لبعض فى هذا المجال ، دفعا لخطأ أو تحقيقا لصواب ، حتى لنجد أنفسنا مع تراثهم فى حشد زاخر من هذه الشروح ، وحتى كان حظ بعض الشعراء وبعض الأشعار ـ لأهميتها ـ من ذلك عظيما ، فقد بلغت شروح أبى تمام نحو العشرين (٢) ، وشروح الحماسة نيفا وثلاثين (٣) ، وشروح المتنبى نحو الأربعين (٤) .

ولئن كان أبو العلاء ـ كسابقيه ـ قد شغل بمعانى الكلمات ، شغله بمعانى التراكيب والأبيات ، أو من أجلها = لقد كان لما اعتمد عليه من ثقافته الواسعة ، وحسه المرهف ، ومعرفته الدقيقة بمذاهب الشعراء واتجاهاتهم = أثره الواضح فى تميز تأويله بجملة من الطوابع الخاصة التى نحاول بيانها فى هذا العرض ، بالنسبة الى معانى الكلمات أولا ، والتراكيب والأبيات ثانيا :

معانى الكلمات :

تلك التى يعد فهمها أساسا لفهم ماتركب منها وتذوقه وتقويمه = قد نحا فى تحديدها عدة مناح :

منها : الدلالة على المراد واستقصاء وجوهه ـ ان كانت ـ دون تعيين أو ترجيح ، وهو الكثير الغالب فى شروحه الاستطرادية التى قصد اليها فى أثناء شعره ونثره ، وفى شروحه العامة التى قدمنا صفتها فى الفصل الثانى ، فمن الأولى قوله فى اللزوميات :

---

(٢) انظر «الحركة النقدية حول مذهب أبى تمام» (ط بيروت) ١/١٢٩، ١٤٥ ، ١٥٠ ، ١٥٣ ، ١٦٧ ، ٢٩١ ، ٤٠٨ ، ٤٤٥ ؛ ٥٣٦ .

(٣) مقدمة شرح الحماسة للمرزوقى ص ذ .

(٤) وفيات الأعيان ١/١٠٣ .

فَلَا يُمْسِ فَخَّارًا ـ من الْفَخْرِ ـ عَائِدٌ إلى عُنْصُرِ الْفَخَّار لِلنَّفع يُضْرَبُ

* * *

وفوائدُ الأَسفار ـ جمع السَّفْرِ ـ فى الدّ نيا تَفُوقُ فوائد الأَسْفَــارِ (٥)

ثم تفسيره فى (الغفران) لكلمــات : الحماطة ، والحضب ، والأسود ، والأسودان ، والأبيضان ، وغيرها ، مما أجرى اليه (٦) ، ومما أحصاه بعض المحدثين (٧) ، فوجده أكثر من مائة وأربعين كلمة .

ومن الثانية قوله عن (المجدار) و (القسطار) فى أبيات الحماسى :

إضْرمينى يا خِلْقَــةَ المِجْدَار وَصِلينى بطُول بُعْدِ المَزَارِ

فلقَدْ سُمْتِنى بوَجْهِكِ والوَصْــــــل قروحًا أعيتْ عَلَى المِسْبَارِ

ذَقَنٌ نَاقِصٌ وأنفٌ غَلِيظٌ وَجَبِينٌ كسَاجَةِ القُسْــطَارِ

« المجدار هنا : رجل معروف كان قبيح الخلقة ، ويجوز أن يكون لفظه مشتقا من الجدرة ، وهى السلعة التى تظهر فى الجسد ، والمراد أنها تظهر به كثيرا ، كما يقال : مذكار للتى تلد الذكور ، ويجوز أن يكون من قولهم : جدرت الجدار اذا بنيته وأسسته . والقسطار : ليس بعربى فيما قيل ، والمراد به الميزان .. » (٨)

على أن للاستقصاء فى تناوله وجها آخر وان كان قليلا ، هو الدلالة على ما يعنيه اللفظ عند المطبوعين والمتصنعين ، كقوله عن (أم السلسبيل) فى بيت الحماسى :

خَيَالٌ لِأُمِّ السَّلْسَبِيل وَدُونَهُ مسيرةُ شهر لِلبَرِيدِ الْمُذَبْذَبِ (٩)

---

(٥) لزوم مالا يلزم ٧١/١ ، ٤١٩ .

(٦) رسالة الغفران ص ١٣٠ ــ ١٣٩ .

(٧) انظر الجامع فى أخبار أبى العلاء ٦١٥/٢ .

(٨) شرح الحماسة للتبريزى ٣٦٧/٤ .

(٩) المذبذب : الذى لا يستقر .

« أم السلسبيل : امرأة ، والسلسبيل : الماء السهل المساغ . ولو أن هذا الشعر لبعض الشعراء الذين عرفوا الصناعة ، وتنطسوا فى الأغراض ، لجاز أن يعنى بالسلسبيل : الريق على وجه التشبيه ، وتكون الأم ههنا على غير معنى الكنية ، ولكن يراد أن ريقها لايزال سلسبيلا ، كما يقال : فلانة أم الضيفان ، وفلان أبوالأيتام ، أى يحفظهم ويكثرون عنده . » (١٠)

ومنها : ايجاب معنى معين أو ترجيحه دون غيره ، مما يحتمله اللفظ أو يراه بعض المفسرين ، وهو كثير أيضا ، تعقب فى معظمه السابقين ، عن ثقة ظاهرة بمعرفته لدلالة الألفاظ ، وبصره بمواقعها ، وحسه بما ينبغى منها ، وأظهر ما كانت هذه الثقة فى أحكامه القاطعة بأن الشاعر لم يرد كذا .. وانما أراد كذا ... ، كقوله للحارث اليشكرى :
« لقد أتعبت الرواة فى تفسير قولك :

زعَمُوا أَنَّ كلَّ منْ ضربَ الْعَيْـ ـرَ مُوَالٍ لنا وأَنَّا الولَاءُ

وما أحسبك أردت الا العير : الحمار » (١١) .

الا أنه فى الكثير الغالب لم يعتمد على هذه الثقة وحدها ، بل اعتمد معها على قرائن أخرى من السياق ، والمقام ، والاستعمال ، كانت تقتضى الايجاب حينا والترجيح حينا آخر . فهو مثلا فى قوله عن (أغار) فى بيت الأعشى :

نبيٌّ يرَى مالا يرَوْن وذكرُهُ أغار لعَمْرى فى البِلاد وأَنْجدآ

« حكى الفراء وحده أغار فى معنى غار ، اذا أتى الغور ، واذا صح هذا البيت للأعشى فلم يرد بالاغارة الا ضد الانجاد » (١٢) .

---

(١٠) المرجع السابق ٣٥٢/١ .
(١١) رسالة الغفران ص ٣٣٢ . وانظر فيما سبق ص ٢٤٧هـ ٨٢ .
(١٢) المرجع السابق ص ١٧٩ .

لم يوجب ـ فيما يبدو ـ أن تكون أغار : أتى الغور الا لمقابلتها في السياق لأنجد ، وأنجد لاتحتمل الا أتى النجد ، فكذلك أغار ،على الرغم من أن استعمالها بهذا المعنى لم يحكه أحد الا الفراء كما قال .

كذلك فى قوله عن (شتيم) فى بيت الحماسى :

وإلاَّ أَكُنْ كُلَّ الجَوَاد فإنني على الزَّاد فى الظَّلْماء غيْرُ شَتِيمِ

« يقع فى بعض النسخ أن الشتيم : القبيح الوجه ، وهو كذلك . الا أن هذا الموضع ليس مما يذكر فيه القبح ، وانما يريد : انى لا أشتم على الزاد ، لأنى أوفره على صاحبى أو ضيفى ، فينصرف وهو لى حامد ، لايذمنى بالبخل أو كثرة الأكل ، قال الآخر :

الفقرُ خيرٌ من مبيتٍ بتُّه بجُنُوب نخْلة عند آل مَعارِكِ

جاءوا بقُرْصٍ من شعيرٍ مُحْرَقٍ بينى وبين غُلَامهم ذى الحارِكِ

بَرِكٍ على جنْب الخِوان مُعَوّد أَكْلَ الطعام بلَقْمه الْمُتَدَارِكِ

وليس شتيم فى البيت إلا فى معنى مشتوم (١٣) . »

ـ رفض أن يكون المراد بـ (شتيم) القبيح الوجه ، وان كان كذلك فى اللغة ، لبعده عن مقتضى المقام فى البيت ، ومقتضاه ـ كما بين واستشهد ـ أن يكون بمعنى مشتوم .

على حين نجده فى قوله عن كلمة (السِّرّ) فى بيت الحماسى :

طعامُهُمُ فَوْضَى فَضًا فى رحالِهم ولا يُحْسِنُون السِّرَّ إلاَّ تناديا

« فوضى فضا : أى مختلط ... وأهل العلم منهم من يفسر (السر)

---

(١٣) شرح الحماسة ٢٧١/١ والحارك : أعلى الكاهل .

فى هذا البيت بالنكاح ، ولا يمتنع ذلك ، والاحسن ان يكون المعنى : لا يفعلون قبيحا يستر ، فكل أفعالهم ظاهرة ، لأنها جميلة . فعلى هذا يكون (تناديا) مستثنى ، ويكون التقدير : لا يحسنون السر لكن يتنادون » (١٤) .

وقوله عن كلمة (السودان) فى بيت المتنبى :

أَتانى وعيدُ الأَدعياء وأَنهُمْ أَعَدُّوا لِىَ السُّودان فى كفْر عاقِب

« بعض من فسر شعر المتنبى يذهب الى أنه أراد بالسودان : الحيات جمع أسود ، ويذهب الى أن ذلك كناية عن الشرور ، ولا يمتنع ما قال ، ولكن ظاهر الأمر أنهم عبيد سود » (١٥) .

وقوله عن كلمة (المُسْند) فى بيت البحترىّ :

أَسْنِدْ صُدُورُ الْيَعْمَلَات بِوَقْفةٍ فى الْماثِلَات كأَنهنّ الْمُسْنَدُ(١٦)

« أشبه مايجعل المسند ههنا أن يكون فى معنى خط حمير ، لأن مذهب الشعراء فى ذلك معروف ، واياه قصد ابو عبادة ، كما قال ابو ذؤيب :

عرفْتُ الدِّيارَ كرَقْمِ الدَّوا ةِ يَزْبُرُها الكاتبُ الْحِمْيَرِىُّ(١٧)

وكانوا يسمون خطهم (المسند) ، وسموا هذا الخط العربى (الجزم) ، لأنه جزم من ذلك الفن ، أى قطع ، وقد يحتمل أن يعنى بالمسند (الحديث المسند) ، أى هذه المنازل قد صارت حديثا يذكر » (١٨)

---

(١٤) شرح الحماسة ٢٧٦/٤ .

(١٥) الموضح ١/٦٠ ب

(١٦) اليعملات : النوق النجيبات المطبوعات على العمل . الماثلات : رسوم الديار .

(١٧) الرقم : الخط . يزبره : يكتبه .

(١٨) عبث الوليد ١٠٢ .

فى تفسيره لهذه الكلمات لم يمنع ماقيل ـ أو يحتمل ـ كما ترى ، وان رجح عليهو جها آخر ، كان مقتضى لمعنى البيت فى الأولى ، ولسياقه فى الثانية ، ولاستعمال الشعراء فى الثالثة .

ومنها : بيان ماكان يعنيه اللفظ فى عصر وما صار اليه فى آخر ، مما نسميه الآن بتطور الدلالة ، ويساعد بيانه على تحديد معنى اللفظ فى أطواره المختلفة من جهة ، ومدى قربه أو بعده من معناه فى كل طور من جهة أخرى .

وانه ليدلنا على أحد عوامل هذا التطور ، بقوله فى التعليق على بيت الطائى :

وَزُوَّارُهُ لِلعطايا حُضُورٌ كَأَنَّ حُضُورَهُمُ لِلْعَطَاءِ

« المعانى تحدث فى الأسماء لأغراض تقع لم تكن قديمة » .

أى ان حدوث معان جديدة للأسماء يكون تلبية لأغراض جديدة لا تدل عليها الأسماء بمعانيها السابقة ، فتلبية حاجة الأغراض الجديدة هو عامل التطور هنا ، وكونها باستحداث معان جديدة فى الأسماء أحد مظاهر هذا التطور ، وآية ذلك فى البيت ـ كما قال ـ أن « أصل العطايا والعطاء واحد ، وانما يختلفان فى أنّ هذا جمع عطية ، وهذا لفظه لفظ الآحاد ، وكانوا فى صدر الاسلام يقولون : حضر الجند للعطاء اذا حضروا لأخذ أرزاقهم الواجبة لهم فى كل سنة ، وانما يأخذونها لأنهم يستخدمون فى الحروب والخروج فى البعوث ، فكأن الشاعر جعل اجتماع هؤلاء الزوار لأخذهم عطايا ليست لهم واجبة ، كاجتماع الأجناد لأخذهم ماهو مفترض لهم واجب » (١٩) .

---

(١٩) شرح التبريزى لأبى تمام ٤/٢٦ .

فالاجتماع لأخذ الأرزاق الذى رجح قصد الطائى اليـه لـم يكن من مدلول الكلمة فى القديم ، انما هو معنى جد وطرأ فى الاسلام ، وكان مع جـدته قريبا من المعنى الأول ، لأنه فرع له ، ان التطور هنا توسـع فى المدلول ، لأن الجديد لم يلغ الأصل ، على حين كان التطور الى معنى مغاير ، فيما يبدو من تعليقه على قول الحصين بن الحمام المرى :

وقُلْتُ : تَبيَّنْ هلْ ترَى بين ضارج
ونِهْيِ الأَكُفِّ فارساً غَيْرَ أَعْجمَ (٢٠)

مِنَ الصُّبْحِ حتى تَغْرُبَ الشَّمْس لا تَرَى
من الخيل إلاَّ خارِجِيًّا مُسَوَّمَا

« كانوا فى القديم قبل الاسلام يُسَمُّون من خرَجَ شُجَاعا او ربما وهو ابن جَبَانَ أوبخيل ونحوذاك خارجيًّا ، وكذلك يقولون للفرس الجواد إذا برَزَ وأبواه ليسا كذلك خارجى قال الشاعر :

أُكِرُّ صَريحَ الْخَيْلِ فى كُلِّ موْطِنٍ
إذا مَا رَضِيتَ الخارجىَّ الْمُوَضَّعَا(٢١)

ثم صاروا فى الاسلام يجعلون الخارجىَّ مَنْ خَالَفَ السلطانَ أو جماعة ، فقال الشاعر :

---

(٢٠) الأعجم : الذى لا يفصح .
(٢١) أكر : من الكر وهو خـلاف الفـر . والموضع ــ بفتح الضاد المشـددة ــ من الضعة : وهى خلاف الرفعة فى القدر .

وميعادُ قوم إنْ أرادوا لِقَاءنا

بجَمْعِ مِنىً إنْ كَانَ لِلناسِ مَجْمَعُ

يَرَوْا خارجيًّا لم يرَ النَّاسُ مثلَهُ

تُشيرُ لَهُمْ كَفٌّ إلَيْهِ وإصْبَعُ

والخارجِيُّ فى شعرِ حُصَيْنٍ : رجلٌ خَلَعَ طَاعَةَ المِلك ، ومُسَوَّم : له علامة يُعرَفُ بها ٠ » (٢٢)

الا أن جعله الخارجى فى بيت الحصين رجلا خلع طاعة الملك خطأ ، لا أدرى أهو منه أم من التبريزى ، لأن الحصين لم يدرك الخوارج ، وليست قصيدته فيهم كما قالوا فى سببها (٢٣) ، بل ليس فى سياق البيت مايعين على ذلك ، فهو يقول فيه *** لاترى من الخيل الا خارجيا مسوما *** أى لاترى من الخيل الا فرسا خارجيا ، أى جوادا لم يكن أبواه كذلك ، وهو أحد المعنين اللذين كانا للفظ فى الجاهلية ، ويدل عليه أن القصيدة ـ كما قالوا ـ جاهلية ، وصاحبها جاهلى وان أدرك الاسلام ٠

ومنها : التساؤل عن وجوه الخلاف فى المراد مع اقرارها جميعا ، مما ضمنه (الغفران) ، ونجده فى تلك المحاورات التى أجراها مع بعض الشعراء حول الفاظهم ، من نحو قوله لابن أحمر : « **أنشدنى قولك :**

بَانَ الشَّبَابُ وَأَخْلَفَ العَمْـــرُ وَتَغَيَّرَ الإخوانُ والدَّهْرُ

---

(٢٢) شرح الحماسة للتبريزى ٣٦١/١ ٠

(٢٣) المرجع السابق ٣٦٤/١ ٠

وقد اختلف الناس فى تفسير (الْعَمْر) فقيل إنك أردتَ : البقاء ، وقيل : إنكَ أردتَ الواحد من عُمُورِ الأَسنان ، وهو اللحم الذى بينها فيقولُ عمرو متمثلا :

خُـذَا وَجْهَ هَرْشَى أو قَفَاهَا فإنه كِلَا جَانِبَىْ هَرْشَى لَهُنَّ طَرِيقُ »(٢٤)

وقوله أيضاً لعنترة : « ماذا أردتَ بالْمَشُوفِ الْمُعْلَم ؟

– يعنى فى قوله :

ولقد شَرِبْتُ من الْمُدَامَةِ بعدَمَا
رَكَدَ الْهَوَاجِرُ بالْمَشُوفِ الْمُعْلَمِ –

– آلدِّينارَ أم الرِّدَاء ؟ فيقول : أى الوجهَيْنِ أردتَ فهو حَسَنٌ ولا يَنتقِض (٢٥) . »

وليس يعنى هذا السؤال والاقرار منه – فى مجال التعقب للسابقين – الا حسم اختلافهم فيما اختلفوا فيه من جهة ، وسعة ادراكه لما لم يسعهم ادراكه من جهة أخرى .

فان قلت : اليس فى اقراره غير وجه هنا – مع تجويزه غير وجـه أولاً – مايعارض حكمه السابق بالايجاب أو الترجيح لوجه معين ؟

---

(٢٤) رسالة الغفران ص ٢٤٠ وهرشى : ثنية فى طـريق مكة ولها طريقان كل من سلكهما كان مصيبا .

(٢٥) المرجع السابق ص ٣٢٤ . المدامة : الخمر . الهواجر : جمع هاجرة ، وهى شدة الحر .

قلت : لا معارضة ، لأنه لم يوجب ولم يرجح ـ كما رأينا ـ الا لدواع لم تكن فيما احتمل غير وجه عنده .

ومنها : الاكتفاء بعرض ماقيل عن المـراد دون الادلاء برأيه فيه . وانما كان ذلك فيما غمض وجهه ولم يتضح المعنىُ به ، وهو قليل . من نحو عرضه الحائر على علقمة فيما سبق (٢٦) ، ماقيل فى مراده بكلمتى : (حوم) و (مختبر) ، بعد سؤاله الحائر أيضا لابن مقبل عما أراد بالمرانة فى قوله :

يادَارَ سَلْمَى خَلاَءً لَا أُكَلِّفُها   إلا الْمِرَانَةَ حَتَّى تَسْأَمَ الدِّينَا

« فقد قيل : انك أردت اسم امرأة ، وقيل : هى اسم ناقة ، وقيل العادة ... » (٢٧)

وما نظنه كان يتوقف هذا التوقف ـ وهو من نعرف علما باللغة ودلالتها ـ الالما أخذ به نفسه من الدقة والحذر فى الفهم والتفسير .

معانى التراكيب والأبيات : على الرغم من أنها الغاية من تأويل الكلمات ـ فيما يبدو ـ وجدنـاه يستغنى عن تأويلهـا بتأويـل الكلمات أحيانا ، مما عرضه لسهام ابن معقل ، الذى قال معلقا على بعض هـذه التفسيرات الجزئية فى (اللامع العزيزى) : « كان الشيخ جعل جـل مقصوده فى هـذا الديوان ـ يعنى ديـوان المتنبى ـ شرح كلمة حوشية أو نادرة غريبة ، فقلما يتعرض لذكر معنى مشكل أو ينبه على صـنعة بديعة . » (٢٨) وقد أسرف فى هذا الاتهام كثيرا ، لأن جل مقصود المعرى

---

(٢٦) ص ٢٤٧ .

(٢٧) رسالة الغفران ص ٢٤٧، وانظر ما قيل عن(المرانة)فى اللسان : مرن ، وفيه عن الأصمعى : الدين : العهد ، والأمر الذى كانت تعهده . كما أن فيه « حتى تعرف » بدل « حتى تسأم » .

(٢٨) المـآخذ على شراح ديوان المتنبى ورقة ١٦١ أ ، ١٧٢ ب .

فى شعر المتنبى لم يكن كذلك ، كيف وعنايته بمعانيه عموما وبشرحها فى (اللامع) خصوصا على النحو الذى ذكرناه وسيأتى ، ولأنه فى الواقع لم يجنح الى هذا الاستغناء الا فيما أحس بوضوحه أو استيضاح المستملى له كما ذكر التبريزى (٢٩) ، بدليل أنه عندما افتقد هذا الوضوح توخى الشرح والتبيين ، وكان هذا التوخى فى مصادر نقده عامة ، وفى شروحه للشعر خاصة ، حتى فى (ضوء السقط) الذى عرفه المؤرخون بأنه فى شرح الغريب أما ما اتجه اليه فى شرحه وتبيينه فثلاثة أمور :

أولها : التماس أقرب المعانى مع الايجاز فى أدائه أحيانا ، وهو ما دفع اليه الاتجاه التعليمى فى أماليه ، اذ كان أكثرها ـ كما أسلفنا ـ تلبية لرغبات تعليمية ، على أنه لم يقصر فى جملته ، كما زعم ابن معقل حين قال فى التعليق على بعض أمثلته : « وكأن الشيخ قد التزم فى كل مكان من شعر أبى الطيب دق معناه أن يفسره باعادة لفظه ، وهذا يتساوى فيه الأبله والفطن » (٣٠) ، والا فأى عيب أو قصور فى قوله تفسيرا لبيت المتنبى :

ونُفُوسٌ إذا انْبَرَتْ لِقِتالٍ نَفِدَتْ قبلَ يَنْفَدَ الإقْدَامُ

« زعم أن نفوسهم لا تفرق من الموت ، وأنها اذا انبرت لقتال أنفدتها الحرب واقدامها لم ينفد » . (٣١)

أو قوله تفسيرا لبيته الآخر :

ومَا أنا منهم بالعيش فيهمْ ولكنْ مَعْدِنُ الذهب الرَّغَامُ

---

(٢٩) شروح السقط ١/٣ .
(٣٠) المآخذ ورقة ١٦١ أ .
(٣١) المرجع السابق ١٦٩ ب .

« زعم أنه ليس من العالم لكونه فيهم ، وانما مثله مثل الذهب ، معدنه الرغام وليس هو منه » • (٣٢)

أى عيب فى هذين التفسيرين حتى يقول ابن معقـل تعليقا على الأول :

« هذا من جملة تفسيره معنى البيت باعادة لفظه ، والمعنى : أن الاقدام يصاحبهم فلا يفنى قبل فناء نفوسهم ، فيكونوا فى وقت جبناء ، بل تفنى نفوسهم قبل فناء الاقدام ، وان كان ذلك مستحيلا ، وانما ذكـره مبالغة فى بقاء اقدامهم » • (٣٣)

ثم يقول تعليقا على الثانى : « هكذا قال الشاعر ، وكلا القولين يحتاج الى تفسير ، والمعنى : انى وان كنت منهم بعيشتى معهم ومقامى بينهم فانى لست منهم ، لأنى شريف وهم أخساء ، فأنا فيهم كالذهب فى التراب » • (٣٤)

وأى زيادة قد أضافها فى تعليقه سـوى التطـاول واعـادة التفسـير بترتيب آخر ، على أن ايجاز المعرى ـ كما ترى ـ أدق من تفصيله وحشوه •

انما كان هذا النحو من تفسير المعرى معيبا حين أخل بالمعنى أو قصر عن مداه ، وهو مانوافق ابن معقل فيما تعقبه منه ، فمما أخل فيه بالمعنى قوله عن بيت المتنبى :

تَعَلَّقَهَا هَوَى قَيْسٍ لِلَيْلَى وَوَاصَلَهَا فَلَيْسَ بِه سَقَامُ

« هذا المملوح يُحبّ المعالِىَ حبًّا شديدًا كحبِّ قيسٍ لليلى ». (٣٥)

---

(٣٢) المرجع السابق ١٧١ ب •
(٣٣) المرجع السابق ١٦٩ ب •
(٣٤) المرجع السابق ١٧١ ب •
(٣٥) الموضح ٣/٩٩ ب •

اذ الشرح فى هذا القول للشطر الأول ، دون الثانى ، الذى لايتم المعنى الابه ، كما ذهب ابن معقل وأصاب ، فى قوله ــ على الرغم من تطاوله ــ : « عادته اذا لم يفهم معنى البيت أن يعيد ألفاظه ، وههنا لم يعدها كلها ، بل ترك منها بقية يحسن بها المعنى ، بل لا معنى دونها ، وهى ❊ وواصلها فليس به سقام ❊ ، والمعنى : أن قيسا ــ مع شدة حبه لليلى ــ لم يواصلها فسقم ، والممدوح واصل المروءة التى عشقها فلم يسقم لعدم الوصال ، كما سقم قيس لذلك » (٣٦) ٠

ومما قصر فيه عن مدى المعنى قوله عن بيت المتنبى الآخر :

هُوَ الشُّجَاعُ يَعُدُّ الْبُخْلَ من جُبُنٍ
هُوَ الجَوَادُ يَعُدُّ الْجُبْنَ مِنْ بَخَلِ

« وصفه بالشجاعة ، وزعم أنه يرى البخل جبنا من قلة المال ، فهو يتركه لأنه شجاع يرى البخل جبنا ، ويعد الجبن من بخل ، أى انه اذا جبن فقد بخل بنفسه على الحمام » (٣٧) ٠

فعبارته مهلهلة ، والمامه بالمعنى متعسر كما ترى ٠ وانه لأمر محير أن يكون فهمه كذلك لهذا المعنى الجميل ، وأن يكون هذا الكلام من املائه وهو الشاعر الأديب ٠

ان أمثال هذه الشروح التى استهدف بها لمؤاخذة ابن معقل ، لا تعقل من مثله ، وهو من نعرف حدة ذهن ، وصفاء ذوق ، وقوة طبع = الا اذا كان قد تصدى لها وأريدت منه فى نوبات اضطرابه ومرضه ، فقد كان كثير الأمراض كما قالوا (٣٨) ٠

---

(٣٦) المآخذ ١٧٢ ب ٠
(٣٧) الموضح ١٣٧/٢ ب ٠
(٣٨) تعريف القدماء بأبى العلاء ص ٥٧٨ ٠

أليس من العجيب أن يكون لـه من الفهـم والتذوق لبعض غوامض المتنبى ما يعجب ابن معقل نفسه ، فيفضله به على جميع شراح المتنبى كما سيأتى بعد قليل ، ثم يكون له هـذا التفسـير الهزيل ، التى اسـتحق من ابن معقل أن يقول فى التعليق عليه :

« فى تفسيره هذا قصـور عبارة عن هـذا المعنى الطائـل واللفظ الهائل ، وهو أن الشجاع اذا أقدم فى الحرب ولم يقدم على انفاق ماله خوفا من الفقر فقد بخل ، وذلك البخل يعد جبنا ، لأنه لو كان شجاعا ـ وقد جاد بنفسه ـ جاد بماله ، فالضن به جبن . « وكذلك الجواد اذا جاد بماله ولم يجد بنفسه خوفا من القتل فقد جبن ، وذلك الجبن يعـد بخلا ، لأنه لو كان جوادا ـ وقد جاد بماله ـ جاد بنفسه ، فالضن بهـا بخل . والمعنى : أنه وصف الممدوح بصفتين كاملتين اجتمعتا فيه ، فجعله شجاعا لا يبخل وجوادا لا يجبن ، لأن هاتين الصفتين قد تفترقان ، كما يحكى عن ابن الزبير أنه كان شجاعا بخيلا ، وعن جماعة من بنى أمية وبنى العباس أنهم كانوا سمحاء جبناء » (٣٩) .

ثانيها : تعمق المعنى واستقصاء وجوهـه ، فيما دق أو احتمـل غير تأويل ، وأكثر ما اتجه الى ذلك فى معانى الطائى والمتنبى ، وبعض معانيه هو ومعانى الجاهليين ، وكان له من فكره وثقافته ـ وهما ماهما ـ على هذا النحو من التعمق والاستقصاء خير دافع ومعين .

فمما تعمق معنـاه لدقته ـ وقـد مر بنا بعض أمثلته للطائى والمتنبى (٤٠) ـ بيت الحماسى :

ثُمَّ انْصَرَفْتُ وَقَدْ أَصَبْتُ وَلَمْ أُصَبْ
جَذَعَ الْبَصِيرَةِ قَارِحَ الإِقْدامِ

---

(٣٩) المـآخذ ١٤٨ ب ١٤٩ أ .
(٤٠) انظر ص ٢٦٠ ، ٢٦١ .

اذ قال فى شرحه الذى فضله التبريزى على جميع الشروح : « يريد أنه مذ كان لم يزل شجاعا ، فاقدامه قارح لأنه قديم . ويعنى بقوله : (جذع البصيرة) أنه كان فيما سلف لا يرى رأى الخوارج ، ثم تبصر فى آخر أمره ، فعلم أنهم على الحق ، فاتبعهم ، فبصيرته جذعة ، أى محدثة لم تطل عليها الأيام » (٤١) .

وأيضا قوله ـ من السقط ـ فى رثاء الشريف الموسوى لأبنائه :

أَنْتُمْ ذَوُو النَّسَبِ الْقَصِيرِ فَطَوْلُكُمْ
بَادٍ عَلَى الكُبَرَاءِ والأَشْرَافِ

والرَّاحُ إنْ قِيلَ ابْنَةُ الْعِنَبِ اكْتَفَتْ
بأَبٍ عَنِ الأَسماءِ والأَوصافِ

اذ كان تفسيره له : « أن الرجل اذا كان شريفا اكتفى باسم أبيه ، مثل أن يقول : أنا ابن حاتم ، وأنا ابن بسطام ، فيقال هو قصير النسب . واذا لم يكن أبوه شريفا افتقر الى أن يذكر آباء كثيرة ، حتى يصل الى أب معروف . ودخل رؤبة على دغفل النسابة فقال له : من أنت ؟ فقال : أنا ابن العجاج ، فقال دغفل : قصرت وعرفت . والمراد أنه ظهر طولكم ـ أى فضلكم ـ لأن نسبكم قصير ، كما أن الراح قصيرة النسب ، اذا قيل : ابنة العنب اكتفت » (٤٢) .

---

(٤١) شرح التبريزى للحماسة ١٣٢/١ .
(٤٢) ضوء السقط ٥٩ آ .

ومما استقصى وجوه تأويله على مختلف رواياته قولُ الحَمَاسِيّ . .

أَعَبّاسُ إنَّ الذى بيننا أَبَى أَنْ يُجَاوِزَهُ أَرْبَعُ
عَلاَئقُ من حَسَبٍ داخلٍ مع الإلِّ وَالنَّسَبِ الأَرفعُ
وَأَنَّ ثَنِيَّةَ رَأْسِ الهجَا ءِ بيْنِى وبينك لاَ تُطْلَعُ
وَأَبْغِضْ إلىَّ بإتْيَانِهَا إذَا أنا لم آتِها أُدْفَعُ (٤٣)

لأن تفسيره له : يروى (أدفع) بفتح الهمزة ، و (أدفع) بضمها ، يقول : بينى وبينك أسباب توجب الرعاية ، وتمنع من الهجاء ، وأنى لا أذكرك بغير الحق ، الا أن تهجونى ، فأدفع عن نفسى . هذا فى رأى من فتح الهمزة من (أدفع) ، ومن ضمها فالمراد : اذا أنا لم آتها فقد أكرهت على ذلك وألجئت اليه ... » (٤٤)

لكنه على الرغم من سداده فى أكثر ما تعمقه واستقصاه ، حتى استحق اعجاب ابن معقل نفسه ، وتنويهه به فى غير موضع ، بل تفضيله اياه على ماعداه ، كتأويله لبيتى المتنبى :

وَلَهُ فى جَمَاجِمِ المَالِ ضَرْبٌ وَقْعُهُ فى جَمَاجِمِ الأَبْطَالِ
فَهُمُ لاِتِّقَائِهِ الدَّهْرَ فى يَوْ مِ نِزَالٍ وليسَ يومَ نِزَالِ

ذلك التأويل الذى أورده ابن معقل هكذا : « يقول : يهب المال .

---

(٤٣) عباس : هو ابن مرداس . والقائل : خفاف بن ندبة . والهاء فى « يجاوزه » : مختصر من هو : مبتدأ خبره أربع » . والال : العهد. والثنية : العقبة التى تثنى من يريد قطعها .

(٤٤) شرح التبريزى للحماسة ٢/١٨٣ .

فتعلم الأبطال أنهم اذا أجروا الى خطأ ، أو تعدوا على ضعيف ، كان قادرا على معاقبتهم وكف أيديهم بالقوم الذين يعطيهم ماله ، فالأبطال معه طول زمنهم فى نزال ، وان لم يكن ثم حرب ولا منازلة » • ثم علق عليه بقوله :

« هذا أصلح مما ذكره ابن جنى والواحدى •• » (٤٥)

نقول : انه على الرغم من هذا السداد والاعجاب ، قد أخطأه التوفيق ، فى بعض ما تعمقه من المعانى ، كقوله عن بيت المتنبى :

مُلُومُكُما يَجِلُّ عَنِ المَلَامِ ... وَوَقْعُ فَعالِهِ فَوْقَ الكَلَامِ

« يريد أنه إذا قال قولاً أتبعه بالفعل من غير تَلَبُّث ، لا كَمَنْ يَمْطُلُ إذا وَعَدَ أنه يفعَل»(٤٦) ، لأنَّ هذا القولَ إذا وُوزِنَ بقول ابن مَعْقِل عن البيت نفسه : « إنما أراد أنه إذا قال أنه يَفْعَلُ فِعلاً جُودًا أو بَأْسًا كان فعلُه أكثر من قوله ، كقول الشاعر :

يَقُـولُ فَيُحْسِنُ القَوْلَ ابنُ لَيْلَى
وَيَفْعَلُ فَوْقَ أحْسَنِ ما يَقُولُ (٤٧) »

بدا بعيدا عن مراد المتنبى ، الذى لم يرد ـ فيما يبدو ـ الا ما ذكره ابن معقل ، فان فوقية الفعل للكلام لا تعنى الاتباع والاسراع كما فهم المعرى ، بل الزيادة والكثرة كما فهم ابن معقل •

---

(٤٥) المـآخذ ١٥٩ أ وانظر أيضا ١٦٤ أ ، ١٧٠ أ : ١٧٩ ب •
(٤٦) الموضح ٣/١٢٢ أ •
(٤٧) المـآخذ ١٧٣ أ •

ثالثها : الذهاب ـ مع التقصى لوجوه التأويل ـ الى المفاضلة بينها ، على أساس من موافقة الذوق ، أو غرض الشاعر ، أو الشبه بمذاهب العرب ، أو كثرة الاستعمال ، وهو ماتعقب فى أكثره السابقين ، فايدهم أحيانا ، وعارضهم فى أخرى .

فمما صدر فيه عن ذوقه : تلك المفاضلة بين ذوق العامة وذوق اللغويين فى فهم المثل الشائع : « الحسن أحمر » ، حيث يقول عنه فى احدى رسائله : « العامة يتأولون هذا الكلام على أن الرجل اذا كان جميلا كان لونه الى الحمرة . وعلى ذلك يحمل البيت المنسوب الى بشار :

غَطَّتْ بحُمْرَة وَجْهِهَا قَسَمَاتِهَا وَالْحُسْنُ أَحمَرْ

وأهل اللغة يَحملون المثل على غير هذا المعنى ، ويزعمون أنّ المراد أن الإنسان إذا طلب أمرًا حسناً صَبَرَ على سَفْك الدّم . ومن ذلك قولهم : دونه الموت الأحمر . وعلى نحو من هذا يتأوّلون قول أبى زُبَيْد :

إِذَا عَلِقَتْ قِرْنًا خَطَا طِيفُ كَفِّهِ
رَأَى الموتَ بالعينين أَسْوَدَ أَحْمَرَا

والمراد بالمثل فى هذا الكتاب مذهبَ العَامّةِ (٤٨) . »

ولم يكن مذهبهم هو المراد ـ فيما يبدو ـ الا لأن تأويلهم أقرب وأوضح من تأويل اللغويين البعيد المتكلف . وكراهيته لتكلف التأويل ـ كما أشرنا غير مرة ـ ظاهرة واضحة .

---

(٤٨) رسالة الهناء ١٨١ ، ١٨٢ .

على أن اللافت هنا أنه رغم نزوعه الفلسفى لم يبعد عن الصواب كما بعد غيره حيث يقول فى التعليق على الآخير من هذه الأبيات للمتنبى :

وإنَّ رَحِيلا واحِدًا حال بينَنَا وفى الموت من بعد الرحيل رحيلُ

وماعِشْتُ من بَعْد الأَحبة سَلْوَةً ولكننى للنائبات حَمُـولُ

فإنْ كان شَمُّ الرَّوْح أَدْنَى إليكُمُ فَلَا بَرِحَتْنِى رَوْضَةٌ وقَبُـولُ

« كلام أبى الفتح يدل على أن المتنبى أراد : فلا برحت روضة وقبولا ، وقدم الخبر ، كأنه دعا لنفسه بأن يكون بعض الرياض . وقال غيره : ليس الخبر مقدما ، وانما أراد : لا زايلتنى روضة وقبـول ، والقبول : ريح الصبا .. ولم يكشف هذا المعنى الا رجل يقال له المخزومى ، له تصنيف فى شعر المتنبى ، وذلك أن الشاعر قال : ان رحيلا واحدا حال بيننا ، وهو الرحيل فى الدنيا ، وبعده رحيل ثان وهو الموت ، فأن يكون بيننا رحيل واحد أقرب من أن يكون بيننا رحيلان ، فدعا لنفسه بالحياة ، لأنه مادام يشم الروح فهو أقرب اليهم منه اذا صار تحت الأرض » (٤٩) .

والفرق واضح بين ما اختاره من التفسير ومالم يختره ، على أن ما لم يختره أكثر مما ذكر ، اذ يبدو أن ماعرف به المتنبى من اغراب وتفلسف قد أوقع شراح هذا البيت فى حيص بيص ، حتى اختلفوا فى فهمه اختلافا كثيرا ، كما يبدو مما أورده (صاحب التبيان) (٥٠) فى شرحه ـ لابن جني وابن فورجة والواحدى وابن القطاع ، وابن الافليلى ، وليس فيما أورده لأيهم من القرب والوضوح مانجده فيما اختاره المعرى .

---

(٤٩) الموضح ٢/١٥٦ ب والروح : نسيم الريح الشرقية .
(٥٠) انظر التبيان فى شرح الديوان ٣/٩٥ ، ٩٦ .

الا أن هذا النزوع على الرغم من أصالته فى تكوين ذوقه كما أشرنا فى الفصل الأول (٥١) ، ومن اصابته أحيانا كما نرى هنا = قد بعد به فى بعض التأويلات ، على مايبدو فى قوله عن بيت المتنبى أيضا :

مَا بَالُ كُلِّ فُؤَادٍ فى عَشِيرَتِهَا بِهِ الذى بِى وَمَابى غَيْرُ مُنْتَقِلِ

« أجود مايتأول فى هذا المعنى : أن يجعل الذى يجده من الشوق كأنه شخص ، والشخص اذا حصل فى مكان شغله ولم يشغل غيره ، فاذا اعتقد ذلك صح انكاره لثبات وجده ، لأنه فى أماكن كثيرة ، والشخص لا يشغل مكانين ، فأما العرض فلا يشغل مكانا ، فاذا كان فى قلب واحد جاز أن يكون فى قلوب عالم كثير » (٥٢) .

لأننا اذا قسنا هذا التفسير الأجود بتفسير الواحدى مثلا للبيت نفسه ، حيث يقول : « يعنى أن قومها يحبونها كحبى اياها ، فهى بعيد مرامها ، منيع وصالها وهم دونها ، وذلك مما يوئس من الوصول اليها ، واذا وقع اليأس دعا الى السلو ، ومع ذلك فانى لا أسلو ولا ينتقل مابى من الهوى » (٥٣) .

= وجدنا من صفاء الذوق فى تفسير الواحدى ماذهب به النزوع الفلسفى فى تفسير المعرى على الرغم من امكانه واحتماله .

ومما نظر فيه الى غرض الشاعر — فى الفهم والاختيار — قوله عن بيت الطائى فى مدح أبى دلف العجلى :

---

(٥١) انظر ص ٥٠ .

(٥٢) الموضح ٢/١٤٩ ب .

(٥٣) المآخذ ورقة ٢١٣ ب .

ولو كَانَ يَفْنَى الشِّعْرُ أَفْنَاهُ مَا قَرَتْ
حِيَاضُكَ منه فى الْعُصُور الذَّواهِبِ

« ماقرت حياضك : ماجمعت ، والمعنى : انك رجل ملك شريف الآباء ، قد مدح أجدادك بشعر كثير ، فلو كان الشعر يفنى لفنى من أجل ما مدحتم به فى الدهر القديم . وقيل : انما أراد أن ابا دلف كان شاعرا ، وقد يحتمل هذا ، ولكن الاول أجود وأبلغ فى المدح » (٥٤) .

ولم يكن أجود بالطبع الا لان المدح فيه بشرف الأصول ومجادتهم ، وهو أحمد عندهم من المدح بطريف الشرف والمجد .

أما ايثاره الأشبه بمذهب العرب فى الكناية خاصة ، فهو ما نلحظه فى تعليقه على الثانى من بيتى الحماسة :

لاَ تَأْمَنَنْ قَوْمًا ظَلَمْتَهُـــمُ وَبَدَأْتَهُمْ بالشَّتْمِ وَالرَّغْمِ
أَنْ يَأْبِرُوا نَخْلاً لِغَيْرِهِـــمُ والشَّىْءُ تَحْقِرُهُ وَقَدْ يَنْمِى

اذ ذكر أن معناه قد اختلف فيه : « فقيل : أراد أنه يفارقهم ، ويهبط هو وقومه أرضا ذات نخل كان لغيرهم ، فيدفعونهم عنه ويأبرونه ، كأنه يتهددهم بترحله عنهم ، لأن ذلك يؤديهم الى الذل ، واستدلوا على هذا الوجه بقوله فى القصيدة :

قَوِّضْ خِيَامَكَ وَالْتَمِسْ بَلَدًا يَنْأَى عَنِ الْغَاشِيكَ بالظُّلْمِ

وقيل : بل يريد أنه يحاربهم ، فيصلحهم لغيره ، فيجعلهم كالنخل التى قد أبرت ، اذ كان عدوهم ينال غرضه منهم اذا أعانه عليهم . وقيل : بل عنى أنه يسبى نساءهم فتوطأ ، فيكون ذلك كالابار الذى هو تلقيح النخل» .

---

(٥٤) شرح التبريزى لأبى تمام ٢١٤/١ .

ثم علق على هذا الخلاف « بأن الوجه الآخير أشبه بمذاهب العرب مما تقدم ، لأنهم يكنون بالنخلة عن المرأة ، قال الشاعر يخاطب امرأة :

أَلاَ يَا نَخْلَةً من ذَات عِرْقٍ ... عَلَيْكِ ورَحْمَةُ الله السَّلاَمُ
سَأَلْتُ الناسَ عنكِ فَخَبَّرُونِى ... هَنًا مِنْ ذَاكِ يَكْرَهُهُ الْكِرامُ
وليسَ بما أَحَلَّ اللهُ بَأْسِى ... إِذَا هو لم يُخَالِطْهُ الحَرَامُ »(٥٥)

فكنايتهم عن المرأة بالنخلة جعل تأويل « ابار النخل فى البيت » بسبى نسائهم ووطئها = أولى من غيره ، وهى حجة قوية .

وأما جنوحه الى ما كثر فى التفضيل فهو صريح قـوله عن بيت الحماسى :

هِلاَلاَنِ حَمَّالاَنِ فى كُلِّ شَتْوَةٍ ... مِنَ الثِّقْلِ مَالاَ تَسْتَطِيعُ الْأَبَاعِرُ

« قد تأول النمرى له وجها قد يجوز مثله ، ولكنه بعيد ، انما ينبغى أن يحمل الشىء على ماكثر ، وذلك أنه ذهب الى أن هـذين المدوحين يحمـلان من قرى الأضياف ومن نحر الابل مالا تستطيعه الأباعـر ، أى أنها لا تقوى عليه لأنه يهلكها ، وهذا مجانس قولهم : بنو فلان ظلامون للجزر ، قال ابن مقبل :

عَادَ الأَذِلَّةُ فى دارٍ وكَانَ بِهَا ... هُرْتُ الشَّقَاشِقِ ظَلاَّمُونَ لِلْجُزُرِ(٥٦)

أى يَعْقِرُونَهَا كثيراً ، فكأَنَّ ذلك ظلمٌ لها ، ونحو ذلك قولُ الآخر :

---

(٥٥) شرح الحماسة ١/٢٠٠ والهن : كناية عن الشىء يستقبح ذكره.
(٥٦) عاد : صار . وهرت الشقاشق : خطباء فصحاء .

قَتِيلان لا تَبْكِ المَخَاضُ عَلَيهِمَا   إذَا شَبِعَتْ من قَرْمَلٍ وَأفَانِ(٥٧)

أى كانا يَعْقِرانها ، فلما قُتِلَا لم تَبْكِ عليهما »(٥٨)

وقد كان هذا التأويل مثار اعجاب التبريزى ، حتى ليقول تعليقا عليه وعلى تأويل النمرى والمرزوقى أيضا : « فلا تعدلن عما قال أبو العلاء الى غيره . » ، وانما كان ذلك ـ فيما يبدو ـ لعدوله فى فهم (الثقل) عما يوزن ـ كما فهما ـ الى ماينا‌سب سياق قوله : « فى كل شتوة » ، وهو : القرى ، فالموازنة عنده اذن ـ بين الممدوحين والابل ـ ليست كما ذكرا فى الحمل المادى ، انما هى فى الحمل المعنوى ، فالمحتمل من القرى والنحر لا تستطيعه الابل ، لأنه يتقاضاها نفسها ويهلكها ، كما يبدو من صور المعنى التى ذكرها .

لكن لاتظن أن التبريزى وغيره ، ممن استثارهم تأويل المعرى ، قد شغلوا عن فهمه للكلمات ، بفهمه للتراكيب ، لأن الواقع أنهم نظروا فى كليهما وكان نظرهم الى الأول ـ كنظرهم الى الثانى ـ مثار اعجابهم وتعقبهم .

وحسبك من اعجابهم وثقتهم : أن الواحدى ـ وهو أشد شراح المتنبى تطاولا على سابقيه ـ لم يورد شيئا من تأويل المعرى الا أردفه بالثناء والاطراء ، كقوله عن بيت المتنبى :

هَذِى بَرَزْتِ لَنَا فَهِجْتِ رَسِيسَا   ثُمَّ انْثَنَيْتِ وَمَا شَفَيْتِ نَسِيسَا(٥٩)

« قال ابن جنى : أى يا هذه ، ناداها وحذف حرف النداء ضرورة . وقال أبو العلاء (هذى) موضوعة موضع المصدر ، واشارة الى البرزة الواحدة كأنه يقول : هذه البرزة برزت لنا ، كأنه يستحسن تلك البرزة ، وأنشد :

---

(٥٧) المخاض : النوق الحوامل . قرمل وأفان : نبتان .

(٥٨) تعريف القدماء ٣٧٧ .

(٥٩) الرسيس : بقية الهوى فى القلب . والنسيس : بقية النفس .

بِإِبِلِي إِمَّا سَلِمْتِ هَــــذِي . . . .

أى هذه الكرة . وهـذا تأويل حسن لا ضرورة فيه ولا حاجة معـه الى الاعتذار » (٦٠) .

ومع الواحدى نجد التبريزى عند تفسيره لكلمة (هضم) فى بيت الحماسى :

يَاحَبَّذَا حِينَ تُمْسِي الرِيحُ باردةً ‏ ‏ ‏ وادى أُشَيٍّ وَفِتْيَانٌ بِهِ هُضُــمُ

يقول : « سألت الرقى عن قوله : (هضم) مامعناه ؟ فقال : هو جمع أهضم ، هو الضامر البطن ، فقلت له : قد ذكر لى أبو العلاء شيئا غير هذا فقال : ماهو ؟ قلت : قال : هضم : يعنى أنهم يهضمون المال ، أى يكسرونه وينفقونه ، فانشد :

إذا قَالَتْ حَذَامِ فَصَدِّقُوهَــا ‏ ‏ ‏ فإنَّ القولَ ماقالت حذَامِ »(٦١)

أما تعقبهم ومؤاخذتهم فلم يخلوا من تعسف ، خصوصا ما كان الحكم فيه الى الذوق ، فمثلا قول أبى العلاء عن (الزيادة) فى بيتى المتنبى :

لَوْ أنكرتْ مِنْ حَيَائِها يـدهُ ‏ ‏ ‏ فِي الحرْبِ آثارَهَا عَرَفْنَاهَا

وَكَيْفَ تَخْفَى الَّتى زيادتُهَـا ‏ ‏ ‏ وَنَاقِعُ الموتِ بعْضُ سِيمَاهَـا

« ذكر ابن جنى أن الزيادة : السوط فى هذا البيت ، ولا يمتنع ذلك . والأشبه أن تكون الزيادة ههنا السيف ، لأنه قرنه بناقع الموت ، والموت

---

(٦٠) شرح ديوان المتنبى للواحدى ٩٣/١ .

(٦١) شرح الحماسة للتبريزى ٣٢٥/٣ ، وشروح السقط ٥١٢/٢ .

الناقــع : الذى قــد اجتمع ، من قولهم : مــاء ناقــع ، أى مجتمع فى موضعه » (٦٢) ٠

هذا الفهم مع القرينة التى ذكرها لا يمتنع ـ فيما يبدو ـ حتى يقول ابن معقل تعليقا عليه : « وأرى أن الزيادة هنا غير ماذكر ابن جنى وابو العلاء ، وهى الزيــادة فى التاثير بقــوة الضرب والبيت الأول من البيتين يدل عليه » (٦٣) ٠

وقد يجوز ماقــال ، لكنــه ليس الجائز دون غيره كمــا يفهم من عبارته ، بل ليس أشبه من قول أبى العلاء ، لأنه ـ ان صح أن (الزيادة) هنا غير ماذكر ابن جنى لبعد اقتران السوط بالموت ، فان كونها السيف كما ذكر المعرى اقرب من كونها « زيادة فى التأثير بقوة الضرب » كمــا ذكــر هــو ، لأنها حينئذ زيــادة مطلقــة ، ليســت بالضرورة مصاحبة لناقع الموت ، الا أن تكون لضرب خاص بالسيف مثلا ٠

على حين يبدو أن أجود الوجهين هو ابعدهما ، فى قول المعرى عن (نجيع الدماء) فى بيت الطائى :

مُعَرَّسُهُ فِى ظِلالِ السّــيو ف وَمَشْرَبُهُ مِنْ نَجِيعِ الدِّماءِ

« نجيع الدماء : يحتمل وجهين ، أحدهما : أن يدعى له أن قتــل أعدائه يغنيه عن شرب الماء لأنه يشفى صدره به ، كما قال التغلبى :

شَرِبْنَا مِنْ دِمَاءِ بنى سُلَيْمٍ بِأَطْرَافِ القنا حتَّى رَوِينَا

والوجه الآخر : ـ وهو أجود ـ أن يكون النجيع هاهنا : من قولك : ماء نجيع وناجع ، اذا كان يصلح عليه بدن الشارب ، ويحسن هــذا الوجه أن القصيدة قد مر فى أولها (النجيع) فى معنى الدم :

---

(٦٢) الموضح ٣/١٧٤ ب ٠
(٦٣) المــآخذ ١٨٠ أ ٠

على خالِدِ بْنِ يَزِيدَ بْنِ مَزْ يَدٍ امْرِ دُموعًا نجيعًا بِماءِ

فتكون هذه الكلمة مخالفةً لتلك » (٦٤) ٠

وانما كان هذا الأجود أبعد ، لأن كون النجيع بمعنى اصلاح البدن – مع اضافته الى الدماء – لا يبعد به عن معنى الكلمة قبل ذلك ، حتى تحصل المخالفة التى أرادها ، ولأنه على فرض المخالفة يبعد عن غرض الشاعر الذى يرثى فارسا * معرسه فى ظلال السيوف * ، ولأن تعليله الذى حسن به هذا الوجه بعيد – كما قرر ابن المستوفى – ، « لأن النجيع فى أول القصيدة وهنا ليس فيما فيه القافية ، فيجعل هذا مخالفا له لأجل الايطاء » (٦٥) ٠ أما كون النجيع بمعنى الدم على الوجه الأول وعلى ماذهب اليه ابن المستوفى فليس الأجود فقط ، بل الأقرب أيضا ، لقول الشاعر بعده :

وَهَلْ كَانَ مُذْ كَانَ حَتَّى مَضَى حَمِيدًا لَهُ غَيْرُ هَذَا الغِذَاءِ

---

(٦٤) النظام ٣٣/١ ٠

(٦٥) المرجع السابق ٣٣/١ ٠

٢ ـ تاصيل المعانى :

أيضا مما اتجه اليه فى بعض الأحيان ، وذلك فيمـــا بدا تجاوزه ولا تجاوز ـ ليدل على وروده وكثرته ، من نحو قوله عن بيت المتنبى :

ضَرُوبٌ لِهَامِ الضَّارِبِي الْهَامِ فى الْوَغَى
خَفِيفٌ إذا ما أثْقَلَ الْفَرَسَ اللِّبْدُ

« العرب تصف نفوسها بالخفة على ظهور الخيل ، لأن ذلك يدل على قلة البدن ، وهم يفخرون بالهزال والشحوب وقلة الأكل ، قال الشاعر :

فقلتُ لها لَيْسَ الشُّحُوبُ عَلَى الفتى
بِعَـــارٍ ولا خَيْرُ الرجال سَمِينُهَا

وقال الأعشى :

تَرَى هَمَّهُ نَظَرًا خَصْرَهُ وَهَمُّكَ فِى الْغَزْو لاَ فِى السِّمَنْ

وانما آثروا خفة الجسم لأنه اذا خف كان أسرع لانتقاله وأجدر بتمكنه عن الطعن وغيره مما يعانيه أصحاب الحروب » (٦٦) ٠

لما كان الوصف بالخفة مظنة العيب وعدم التوفيق فى المدح ، بين أصالته فى هذا الباب بانه مما آثروه وافتخروا به من قديم ، ثم عـلل ايثارهم اياه وافتخارهم به ، بانه من دواعى السرعة والحركة فى الحرب ، تلك التى كانت ومازالت مضمار الرجال ٠

واذا كان هنا قد اعتمد فى التاصـيل على الشـعر القديم ، وكثيرا ما اعتمد عليه ـ فانه أيضا قد اعتمد على الأمثال ، فى نحو قوله عن بيت المتنبى أيضا :

---

(٦٦) الموضح ١/١٥٥ أ ٠

وَأصبرَ عن أمواهـــهِ منْ ضِـبابِهِ

« الضب يوصف بأنه لا يشرب الماء ، ومما تذكره العرب على معنى الأمثال انهم يقولون : قالت النون للضب : رِدْ ، فقال الضب :

أَصْبَحَ قلبى صَـــرِدَا

لا يشْتَهى أَنْ يَـــرِدَا

إلاَّ عَـــرارا عَـــرِدَا

وصِـــلِّيانــاً بَـــرِدَا

وعنْكثـاً مُلْتَبِـــدَا

الصرد : البارد . والعـرار : ضرب من الحمض . والصليـا ن: نبت تأكله الابل وحمير الوحش . واالعنكث : قيل هو عرق نبت . » (٦٧)

لكن اعتماده ـ فى التأصيل على القرآن كان ـ فيما يبدو ـ أكثر من اعتماده على الشعر والامثال ، كما فى (زجر النابح) ، وسوف نـرى الكثير من شواهده بعد قليل .

٣ ـ تعليلهـا :

هو ماذهب اليه فيما خفى منحـاه ليبين وجهـه ، كقوله عن بيت الطائى :

نُحِرَتْ رِكابُ الْقَوم حَتَّى يغْبُرُوا رَجْلَى لَقَد عَنُفُوا عَلَىَّ ولَا مُوا

---

(٦٧) المرجع السابق ٢/١٠١ ب والنون : الحوت .

« دعا عليهم بنحر ركائبهم ليتلبثوا فى الديار ، فيقضى وطره من التسليم ، ويكون نحرها جزاء لهم على لومهم اياه » (٦٨) ٠

وكقوله عن بيت المتنبي :

ضَلَالاً لِهَذِى الرِّيحِ ماذا تُرِيدُهُ
وَهَدْيًا لِهَذا السَّيْلِ مَاذَا يُؤَمِّمُ

« دعا على الريح فقال : ضلت ضلالا ، كقولهم : هو يبارى الريح جودا ، اذا وصفوه بالكرم ، أى انها ان هبت تباريك فقد ضلت ٠ وقال : (هديا لهذا السيل) ، كأنه دعا له بالاهتداء ٠٠٠ » (٦٩)

الا أنه فيما يبدو - لم يذهب الى التعليل فى كل ماخفى وجهه ، ولم يستوفه فى بعض الأبيات ، مما عرضه لتعقب ابن معقل ، فآخذه على ترك التعليل كثيرا ، وعلى جزئيته أحيانا ، لكنه لم يخل من تكلف فى بعض المآخذ ، كقوله عن التعليل السابق : « علل دعاءه على الريح ولم يعلل دعاءه للسيل ، وذلك أن السيل جاء تاليا له متعلما منه ، فكان بمنزلة الصاحب المدارى ، والريح بمنزلة المقاتل المبارى ٠ » (٧٠)

فقد تكلف فى تعليله الدعاء للسيل بما ذكر ، لأنهم لم يقولوا : فلان يبارى السيل فى الجود كما قالوا يبارى الريح ، حتى يدعى أن « الدعاء للسيل » كان لأنه جاء تاليا للممدوح فى المباراة ، وأى مباراة كانت هنالك أو فى الخيال سبق فيها الممدوح ولم يباره فيها السيل ؟

---

(٦٨) شرح التبريزى لأبى تمام ١٥٠/٣ ٠
(٦٩) الموضح ٣/٥٥ ب ٠
(٧٠) المآخذ ١٦٣ ب ٠

٤ ـ مايؤثره فيهـا :

ليس قليلا ولا هينا ، بل أمور جديرة بالنظر والتأمل ، لأن دلالتها على ذوقه للمعانى بل على ذوقه النقدى عامة أكثر وأظهر ، كما أن أصداء مزاجه الفلسفى والدينى والفنى فيها على أقوى وأوضح ماتكون ، وهـذه الأمور هى :

أولا : الصدق : وايثاره اياه شنشنة من أخزم ، اذ هو فى الحقيقة أحد منازعه الفلسفية والخلقية ، ودعوته الملحة اليه ـ مع حملته الزائدة على الكذب ـ فى (اللزوميات) و (الفصول والغايات) ـ أظهر من أن نستشهد عليها ...

على أن ما آثره ـ ونعنيه هنا ـ من الصدق فى المعانى نوعـــان **الصدق الشعورى ، والصدق الواقعى :**

فالصدق الشعورى : أى مايتراءى من عواطف الشاعر ومشاعره خلال تعبيره ـ هو الذى استثاره واغرورقت له عيناه فى شعر المهلهل ، حتى قال له ـ وهو متلدد فى الجحيم ـ : « أعزز على بولوجك هذا المولج ! لو لم آسف عليك الا لأجل قصيدتك التى أولها :

أَلَيْلَتَنَا بِذِى حُسَمٍ أَنِيرِى ... إِذَا أَنْتِ انْقَضَيْتِ فَلَا تَحُورِى

لكانت جديرة أن تطيل الأسف عليك ، وكنت اذا أنشدت أبياتك فى ابنتك المزوجة فى (جنب) تغرورق من الحزن عيناى . » (٧١)

اذ لا موجب للأسف عليه فى الأولى ، والحزن معه فى الثانية الا مابثه فيهما من عواطفه ، حيث عبر بالأولى عن شفاء نفسه لما أدرك بثار أخيه كليب ، وبالثانية عن ذهاب نفسه حسرات على ابنته لتزوجها من غير الأكفاء .

---

(٧١) رسالة الغفران ٣٥٣ ذى حسم : موضع بنجد . لا تحـورى : لا ترجعى .

ولهذا الصدق أيضا كان اعجابه بقصيدة التهامى التى رثا بها ولده ، وأولها :

حكمُ المنية فى البرية جارِ
ما هذه الدُّنيا بدار قـــرارِ

حتى كان لايرد عليه أحد من أهل العلم الا استنشده اياها كما قالوا (٧٢) ، وحتى بلغ من تمييزه بين منشديها أن عرف صاحبها من انشاده لهـــا ، معللا ذلك بأنه سمعها منه ومن غيره ، فأدرك من حاله أنه ينشدها من قلب قريح ٠

وكما كان الصدق الشعورى مثارا لاعجابه وتنويهه ، كان افتقاده اياه مثارا لغضبه وسخطه ، فد عبل بن على عنده لم يكن صادقا فى تشيعه ، ولا فى شعره عن الشيعة ، لأنه « كان يتظاهر بالتشيع ، وانما غرضه التكسب ، وكم أثبت نسبا بتنسب (٧٣) ٠ »

وكذلك ابن الرومى الذى ادعى له البغداديون التشيع ، واستشهدوا على ذلك بقصيدته (الجيمية) = لا يراه الا على مذهب غيره من الشعراء فى التقول والكذب (٧٤) ٠

والصدق الواقعى : حيث يصور الشاعر حقائق الحياة وتجاربها كما هى فى الواقع أو فى نفسه دون افتعال =

يبدو ايثاره اياه من تنويهه به عند المتنبى ، فى قوله عن أول بيتيه :

إلْفُ هــذا الهــواءِ أَوْقَعَ فى الأَ نْ فسِ أَنَّ الْحمامَ مُـــــر الْمذَاق

---

(٧٢) تعريف القدماء ٥٦٤ ٠

(٧٣) رسالة الغفران ٤٢٠ بتنسب : أى بادعاء ٠

(٧٤) المرجع السابق ٤٧٧ ٠

وَالْأَسَى قَبْلَ فُرْقَةِ الرُّوحِ عَجْزٌ   وَالْأَسَى لا يكونُ بَعْدَ الْفِرَاقِ

« هذا البيت والذى بعده يفضلان كتابا من كتب الفلاسفة ، لأنهما متناهيان فى الصدق وحسن النظام ، ولو لم يقل صاحبهما غيرهما لكان له فيهما جمال وشرف » (٧٥) .

كما يبدو أيضا من تنويهه به فى (الغفران) ، حيث يقول لعلقمة ـ وقد جعله فى الجحيم ـ : « لو شفعت لأحد أبيات صادقة ليس فيها ذكر الله ـ سبحانه ـ لشفعت لك أبياتك فى وصف النساء ، أعنى قولك :

فَإِنْ تَسأَلونى بالنساءِ فإننى   بَصِيرٌ بأَدواء النساءِ طبيبُ

إذا شَابَ رَأْسُ المرء أو قلَّ مَالُهُ   فليس له من وُدِّهن نَصيبُ

يُرِدْنَ ثَرَاء المال حيث وَجَدْنَهُ   وَشَرْخُ الشباب عندهنَّ عَجيبُ» (٧٦)

فصدق المتنبى وعلقمة الذى أعجبه ، ليس الا تصويرهما حقيقتين عامتين من واقع الحياة ، عن الموت والنساء ، فى هذا الشعر القوى الذى جرى مجرى الأمثال .

ولا يخطئنا من تنويهه بالصدق فى أبيات علقمة ، ماوراء هذا التنويه ، من تمييزه بين احسان الشاعر ومذهبه الشخصى أو الدينى ، أى ان الاعجاب باحسان الشاعر الفنى لا يتأثر أولا ينبغى أن يتأثر بانحرافه . وقد كان هذا التمييز أوضح فى قوله لبشار ـ وقد جعله فى الجحيم أيضا ـ : « يا أبا معاذ : لقد أحسنت فى مقالك ، وأسأت فى

---

(٧٥) الموضح ٢/١١٦ ب وانظر أيضا ٢/٩٧ ب .

(٧٦) رسالة الغفران ص ٣٢٨ . وانظر أيضا ٣١١ ، ٣٥٨ ، ٣٦٠ .
وشرخ الشباب : أوله . .

معتقدك ، ولقد كنت فى الدار العاجلة أذكر بعض قولك فأترحم عليك ، ظنا أن التوبة ستلحقك ، مثل قولك :

ارْجعْ إلى سَكَنٍ تُقِيمُ به ذَهَبَ الزمانُ وأنت مُنْفَرِدُ
ترجُو غَدًا وَغدٌ كَحَامِلَـةٍ فى الْحَىِّ لا يَدْرُونَ مَا تَلِـدُ

... » (٧٧)

فقد استحسن صدق بشار فى هذين البيتين مع انحراف معتقده ، لتعبيره فيهما عن حقيقة واقعة .

الا أن هذا التمييز بين الاحسان والانحراف ليس على اطلاقه ، بدليل أن ما اصطبغ بانحراف صاحبه من المعانى لا احسان فيه عنده وان كان صادقا كما سيأتى ، لأن قيم الأدب عنده متكاملة ...

ولأن الصدق الواقعى عنده كالصدق الشعورى ، مما يؤثره ويعجب به = عاب على الشعراء كذب الواقع ، ذلك الكذب الذى اعتور معانيهم أحيانا .

اما لكذب مصادرهم فيها ، كما يبدو من قوله عن بيتى الطائى يمدح الأفشين لما أوقع ببابك :

مَانَالَ مَاقَدْ نَالَ فِرْعَوْنٌ وَلاَ هَامَانُ فى الدنيا ولا قَـارُونُ
بَلْ كَانَ كالضَّحَّاك فى سَطَوَاتِهِ بالعالمينَ وأنتَ أَفْرِيـدُونُ

« هذا شىء أخذه الطائى من سير الفرس ، وهى كثيرة الكذب ، وكذلك جميع الأخبار المنقولة ، يعترض عليها المين كثيرا » (٧٨) . يعنى هنـا

---

(٧٧) المرجع السابق ص ٣١٠ .
(٧٨) شرح التبريزى لأبى تمام ٣/٣٢١ .

فساد الضحاك وصلاح أفريدون ، اللذين يحيط بأخبارهما ــ كما فصل ــ من التخرص والافتعال مايضعف الثقة بها والاعتماد عليها .

واما لخطأ معرفتهم بأصولها : كما يبدو من قوله عن بيت البحترى :

وَمِنْ إِرْثِكُمْ أَعْطَتْ صَفِيَّةُ مُصْعَبًا   جَمِيلَ الأَسَى لَمَّا اسْتُحِلَّتْ مَحَارِمُهْ

« بنى أبو عبادة هذا المعنى على أن صفية بنة عبد المطلب كانت توصف بالصبر ، ولم يرد عنها شىء من ذلك ، بل ذكر أن ولدها الزبير بارزجلافى بعض الغزوات بين يدى النبى ﷺ ، فجزعت وقالت : يارسول الله يقتل ابنى؟ فقال : ابنك يقتله ، فقتله الزبير ، وانما الموصوفة بالتصبر أسماء بنت أبى بكر ، وهى أم عبد الله ، وليست أم مصعب » (٧٩) .

واما لبعدهم فيها عن المعقول ، حيث بنوها على الوهم والظن ؛ كذلك الذى أنكره عليهم ، من **ندب الأطلال .. (٨٠) والدعاء للقبور بالسقيا .. (٨١) وعد النعيب من شواهد الرحيل . (٨٢) وادعاء الأشواق لذوات الأطواق** ، أى الحمام (٨٣) ، **والتطير من بعض صفات الخيل** وألوانها ، مع أن « العاب ــ كما قال ــ وان لحق الكعاب ، ناكب عن ناقلات المراكب » (٨٤) .

ومما بعد عن المعقول ، واشتدت حملته عليه ، لأنه بنى على الادعاء المسرف = تلك المبالغات المفرطة التى تجاوزت الحق ولا احتمال

---

(٧٩) عبث الوليد ص ٢٠٧ .
(٨٠) متن السقط انظر الشروح ٤/١٧٦٦ .
(٨١) الفصول والغايات ص ٤٤٢ .
(٨٢) المرجع السابق ص ٤٦٩ .
(٨٣) رسالة الاغريض وتفسيرها ٤ أ ، ٨ أب ، وانظر : رسالة الغفران ٣٨٥ ، شروح السقط ٣/٩٨٠ .
(٨٤) رسالة الاغريض وتفسيرها ورقة ٦ .

لوقوعها ، ، لاسيما ادعاءات الجاهليين ، وادعاءاته هو فى (السقط) ، وادعاءات ابن هانىء ، والمتنبى .

فادعاءات الجاهليين – على الرغم من احسانهم وتقدمهم – نـــدد بها عموما فى قوله – من الاغريض – : « والشعر الاول – وان كان سبب الأثرة ، وصحيفة المأثرة – فانه كذوب القالة » . (٨٥) ، وندد ببعضها خصــوصا فى قوله – على لســان (قفانبك) لو كــانت تنطق فى لـــوم صاحبها – : وسمى فاطمة ، ولعله كاذب ، وفى حبــال السفه جــاذب وزعم أنه عقر مطية ، وقطع بسواها الطـيّـة » (٨٦) .

وما كان من غلوه فى السقط لم يغض عنه ، بل حاول التخلص من تبعته أولا : بحذف أسماء من غلا فيهم منه (٨٧) ، وثانيا : بصرف هذا الغلو الى مايحتمله من صفات الخالق أو المخلوقين (٨٨) ، وثــالثا : بتتبع كاذبه والتنديد به والتبرؤ والاستغفار منه ، كقوله عن هذه الأبيات :

بَنَى مِنْ جَوْهَرِ الْعَلْيَاءِ بَيْتًـا كَأَنَّ النَّيِّرَاتِ لَهُ عِمَـادُ (٨٩)
إِذَا شَمْسُ الضحى نظرتْ إليـه أَقَرَّتْ أَنَّ حُلَّتَهَا جِـــدادُ
فلولا اللهُ قَالَ النَّاسُ أضحـتْ ثَمَانِيَةً به السَّبْعُ الشِّدَادُ

« أى ان هذا الأمير بنى بيتا من جوهر العلياء ، لولا خوف الله لقــال

(٨٥) المرجع السابق ٨ أ . والشعر الأول : الطــويل . الأثرة : الايثار . المأثرة : المكرمة . القالة : جمع قائل . .

(٨٦) خمس رسائل لأبى العــلاء ص ١ . والطية : المسافة التى يطويها المسافر (الفصول والغايات ٤٦/١) .

(٨٧) شروح السقط ١٣٤/١ .

(٨٨) المرجع السابق ١٠/١ .

(٨٩) النيرات : الكواكب .

الناس : صارت بهذا البيت السموات السبع ثمانية ، وهذا من الكذب الصراح ، نسأل الله اقالة العثرة » (٩٠) .

أما ابن هانىء فحسبك من تنديده بغلوه أن يعده – فى سياق الحديث عن الزنادقة – ممن يتظاهر بالمذهب ، ولا يعتقده ، توصلا الى الدنيا الفانية ، اذ كان – على الرغم من اجادته – يغلو فى مدح المعز أبى تميم معد غلوا عظيما ، حتى قال يخاطب صاحب المظلة :

أَمُدِيرَهَا مِنْ حيْثُ دَارَ لَشَدَّ مَا زاحَمْتَ تَحْتَ رِكَابِهِ جِبرِيلاَ

وقال فيه – وقد نزل بمكان يقال له رَقَّادَةَ – :

حلَّ بِرَقَّادَةَ الْمَسِيحُ حَلَّ بِهَا آدمٌ وَنُوحُ
حَلَّ بِهَا اللهُ ذُو الْمَعَالِى وَكلُّ شيءٍ سِوَاهُ رِيحُ (٩١)

وأما المتنبى الذى كانت المبالغة من عاداته كما قرر المعرى ، فعلى الرغم من ايثاره لفنه ، وتعصبه له كما قالوا = لم يال فى تعقب ادعاءاته وانكار احالاته التى جره اليها التكسب ، على نحو مانجد فى (اللامع العزيزى) ، الذى كان مضمارا واسعا لهذا التعقب والانكار ، حتى لقد ضج ابن معقل من كثرة ذلك فيه وتصدى لدفعه ، وحتى لقد بلغ من الشدة فيما أنكره أن لا يصفه فقط بالكذب ، بل بما هو أشد ، كقوله عن هذا البيت :

هَابَكَ الليلُ والنهارُ فَلَوْتَنْ هَاهُمَا لَمْ تَجُزْبِكَ الأَيامُ

---

(٩٠) ضوء السقط ورقة ١٥ أ .

(٩١) رسالة الغفران ص ٤٦١ ، ٤٦٢ .

« يرحم الله أبا الطيب ، لقد اجتهد فى قيل الباطل ، ورضى على ذلك بعطاء زهيد ، ولو أن هذا البيت فى صفة الله ـ عز سلطانه ـ جاز أن ينال بذلك رضوانه » (٩٢) ٠

وكقوله أيضا عن بيته الآخر :

يَا أَيُّهَا الملكُ الْمُصَفَّى جَوْهَرًا

مِن ذَاتِ ذِى الْملكُوت أَسْمَى مَنْ سَمَا

« جعل الممدوح خالصا من جوهر من عز عن الجواهر والأعراض ، يخلقها بالارادة ، وهذه مجاوزة الى غير الفعل المحمود ، والقائل لها مذموم ، وان رضى بذلك فقد اقدم على أمر يستعظم » (٩٣) ٠

لكن الجدير بالذكر أن هذا الانكار انما كان فيما ادعى فيه للمخلوق صفة الخالق أو ماهو منها على مارأينا ، وفيما ادعى فيه غير ذلك مما لا تدعيه الشعراء ، كقوله :

وَضَفَّرْنَ الغَدَائرَ لا لِحُسْنٍ

وَلَكِنْ خِفْنَ فِى الشَّعْرِ الضَّلالاَ

وهو مانقده المعرى فقال : « وصفهن بكثرة الشعر ، وأنهن ضفرن الغدائر لا ليحسن بذلك ، ولكن خفن أن يضللن فى الشعر ، أى يغبن ، من قوله تعالى :

---

(٩٢) المآخذ ١٧٠ ٠

(٩٣) الموضح ٣/٨٠ ب ٠

(**أئذا ضللنا فى الأرض**) (٩٤) أى غبنا . وهذه « مبالغة فى الصفة اذا صحت للمرأة كانت عيبا . وقد وصفت الشعراء الشعر بالكثرة ، ولكنها لم تفرط فى ذلك مثل هذا الافراط » (٩٥) .

ودفاع ابن معقل عن المتنبى هنا بأنه أراد اللون لا الكثرة ليس بشىء (٩٦) ، لأن ارادته الكثرة واضحة من قوله (وضفرن) ، ومن أنها ـ لا اللون ـ المؤدية الى الضلال فى الغالب ...

أما دعاواه التى أشبه فيها الشعراء ، والتى هى من الكذب عند المعرى ، فقد علق عليها كما علق على أمثالها فى (السقط) ، بأنها مما اصطلحت عليه ، أو استحسنته ، أو رغبت فيه الشعراء ، كقوله عن هذا البيت :

وَأَنْتَ المَلْكُ تُمْرِضُهُ الْحَشَايَا   لِهِمَّتِه وَتَشْفِيه الْحُرُوبُ

« هذا من الكذب الذى اصطلح عليه أصحاب النظم واستحسنوه » (٩٧) . »

وكقوله أيضا عن بيته من (السقط) :

وَلاَ سَارَ فى عَرْضِ السَّمَاوة بَارِقٌ

وَلَيْسَ له مِنْ قومنا خُفَرَاءُ

« أى ان السماوة ـ وهى الأرض التى تنسب الى كلب ـ لايسير فيها بارق الا وله خفير منا ، وهذه من المبالغة التى ترغب فيها الشعراء » (٩٨) .

---

(٩٤) سورة السجدة آية ١٠ .
(٩٥) الموضح ٣/١٢ ب .
(٩٦) المآخذ ورقة ١٥٥ أ .
(٩٧) الموضح ١/٢٨ ب .
(٩٨) ضوء السقط ١٨ أ .

الا أن هذا التعليق منه ـ على مافيه من توجيه واعتذار ـ لا يعنى أن تلك الدعاوى من ذوقه النقدى ، بدليل أنه هنا نسب استحسانها والرغبة فيها الى الشعراء لا اليه ، وأنه فى مقدمة (اللزوميات) قرر أنه رفض من الشعر ما استجيز فيه الكذب ، مخالفا بذلك الشعراء الذين توصلوا الى تحسين منطقهم به ، وهو من القبائح (٩٩) ، لكن لأنه شاعر فيما يبدو كاد يكون على مذهب الشعراء فى أمور :

منها : تنويهه بجدة بعض مبالغات المتنبى ، حيث عد الشطر الثانى من قوله :

بَرَانِى السُّرَى بَرْىَ المُدَى فَرَدَدْنَنِى
أَخَفَّ على الْمَرْكُوب مِنْ نَفَسِى جِرْمِى

= « مبالغة فى صفة النحول لم يعبر عنها المتقدمون بهذه العبارة ، الا أن يكون لشاعر لم يسر شعره فيعرف » (١٠٠) ، كأنه يستحسنها ويعدها من مبتكراته ، وكأنه قد أنسى بجدتها وطرافتها مافيها من كذب أخذه على أمثالها .

ومنها : جنوحه فى بعض التأويلات الى أقرب المعنيين الى الاحالة ، كما يبدو ومن قوله عن بيت المتنبى أيضا :

طَرِبَتْ مَرَاكِبُنَا فَخِلْنَا أَنَّهَا
لولاَ حَيَاءٌ عَاقَهَا رَقَصتْ بنَا

« المراكب : جمع مركب ، وهو الذى يوضع على ظهر الدابة لتركب ، ويجوز أن تسمى الدابة مركبا ، وكون المركب فى معنى السرج أبلغ فى هذا

---

(٩٩) لزوم مالا يلزم ٣٢/١ .
(١٠٠) الموضح ٨٩/٣ ب .

الموضع ، لأن الدابة حيوان ، فهى أقرب الى الرقص من الذى يركب فيه » (١٠١) .

فقد جعل الأبلغ هو الأقرب الى الاحالة دون الأبعد منها ، مخالفا مارأينا من رفضه للاحالة فيما سبق ، ومن ثم كنا مع ابن معقل فى مؤاخذته له على ذلك ، وفى رأيه أن الأولى اضافة الرقص الى الخيل ، لأنها الأصل فى الحركة أما السروج فلازمة لها ، وحركتها من حركتها (١٠٢) .

ومنها : أخذه على الطائى قصوره عن المثال الفنى فى قوله :

فَمَا صُقِلَ السَّيْفُ الْيَمَانِى لِمَشْهَدٍ
كَمَا صُقِلَتْ بِالأَمسِ تِلْكَ الْعَوَارِضُ

= لأن قوله (بالأمس) يدل على أنه أراد الصقل بالسواك ، والأحسن فى حكم الشعر أن يدعى صقالها بالفطرة لا بالتصنع (١٠٣) .

كأنه هنا يريد من الشاعر أن يقول ماينبغى ـ وان كذب ـ لا مايجد ويعتقد ، فيناقض اتجاهه للصدق وطرح الكذب .

الا أن يقال : ذلك هو حكم الشعر ، أى الذوق العام ، لا ذوقه الخاص ، كما يبدو من كلامه ، وعليه لا تناقض .

ثانيا : التسامى : عما لا يليق من الفحش الفجور وسوء الأدب ، الى مايليق من تمجيد القيم الدينية والخلقية =

هو أيضا من ألوان الجمال التى نشدها أبو العلاء فى المعانى ،

---

(١٠١) المرجع السابق ١٤٤/٣ ب .
(١٠٢) المآخذ ١٧٦ أ .
(١٠٣) شرح التبريزى لأبى تمام ٢٩٥/٢ والعوارض : جمع عارض ، وهو الناب والضرس الذى يليه .

ولا عجب فى هذا ممن كان ـ كما أسلفنا ـ يعتز بمبادىء الخلق ، ولا يرى فى العبقرية التى أوتيها ما يسوغ الانحلال أو يدعو اليه ، فقد أعجب بالمتنبى حتى اتهم بالتعصب له . ولم يقبل منه التهاون بالقيم الدينية والخلقية ، بدليل ماقال عن تجاوزه وباطله ، مما ذكرنا بعضه قبل صفحات ، ونذكر هنا أيضا قوله عن بيته :

كُلُّ شَىْءٍ من الدِّمَاءِ حَرامٌ
شُرْبُهُ ماعَدَا دَمَ الْعُنْقُودِ

« أحل الخمر فى هذا البيت على سبيل الدعوى ، وذلك قبيح بمن يشتمل عليه الاسلام » (١٠٤) .

ثم قوله عن بيته الآخر :

إذا ما لَبِسْتَ الدَّهْرَ مُسْتَمْتِعًا به
تَخَرَّقْتَ وَالْمَلْبُوسُ لَمْ يَتَخَرَّقِ

« اذا طولب الشاعر بحسن الأدب وجب أن لا يقابل الممدوح بمثل هذا الكلام » (١٠٥) .

كذلك أعجب بالشعر الجاهلى ، حتى جعل ما مجد القيم الدينية والخلقية منه سببا فى الغفران لصاحبه ... (١٠٦) ولم يعجبه فيه ـ ولا فيما بعده ـ تلك الأشعار المنحرفة عن هذا المنهاج مما سلك أصحابه به فى النار . (١٠٧) = ولا تلك التىعبرت عن الفحشوالفجور فى غيرتحشم

---

(١٠٤) الموضح ١/١٢٩ أ .
(١٠٥) سر الفصاحة ٢١٦ .
(١٠٦) رسالة الغفران ص ١٧٦ ، ١٧٨ ، ١٨٣ ، ٢٠٢ ، ٢٦٧ ، ٣٠٧ .
(١٠٧) المرجع السابق ص ٣١١ ، ٣٣٤ ، ٤٥ ٣ .

ولا استحياء ، ككثير من شعر امرىء القيس ، حتى استحق منه أن يقول عن ديوانه :

« إنَّهُ لَوْ أُذنَ له فى الْكَلَام ، لَعَقَدَ به كُلَّ مَلَام ، فَقَالَتْ (قِفانبك) – وهى أُمُّ مَا نَظَمَ مِنَ القَرِيض ، والرَّاتِعَةُ فى الْأَنِيق الْأَرِيض – : إنَّ الْكِنْدىَّ أَقَرَّ فى أبياتى بعِهَار ، مِنْ سِرٍّ يُكْتَمُ وَمِنْ جِهَـار » (١٠٨) .

ولا يذهب عنا أيضا من ايثاره للتسامى ماكان – وأسلفناه – من مخالفته الرواة فى (دالية النابغة) الى ما يقتضيه المقام ... (١٠٩)

ثالثا : التجديد والابتكار : ولنا على ايثاره لهما فى المعانى من نقده شاهدان : أحدهما : تنويهه بما أصاب من أمثلتهما فى شعر المتنبى ، وفى شعره هـو أيضـا ، من نحـو قـوله السـابق عن بيت المتنبى * برانى السرى (١١٠) * وقوله التالى عن بيتيه الآخرين :

قَدْ لَعَمْرِى أَقْصرْتُ عَنْكَ وَلِلْوَفْـ ... ـدِ ازْدِحَامٌ وللعطايا ازدحَامُ
خِفْتُ إنْ صِرْتُ فِى يَمِينك أنْ ... تَأْخُذَنِي فى عَطَائكَ الْأَقْوام

« هذا معنى لم يعلم أ نأبا الطيب سبق اليه ، لأنه احتج لتأخره عنـــه بأن طلاب الأعطية يزدحمون لديه ، فخشى أن يؤخذ فى الهبات ، وهذه مبالغة لم يأت بمثلها سواه » (١١١) .

ثم قوله عن بيته – من السقط – :

---

(١٠٨) خمس رسائل مخطوطة ص ١ ، والعهار ، الفجور .
(١٠٩) انظر ص ٢٠٩ .
(١١٠) انظر ص ٣١٢ .
(١١١) المآخذ ١٧٠ أ .

وليـلٍ خاف يَقُولَ النّاسِ – لَمّا

تَوَلّى – سَار مُنْهَزماً فَعَـمادَا

« أى رب ليل كأنه لما انهزم خاف أن يعير بانهزامه ، فعاد بعد ما ذهب . وهذا معنى مفقود ، لأنهم قد وصفوا الليل بأنه يطول فيكون كالعائد ، الا أنهم لم يذكروا الهزيمة » (١١٢) .

والآخر : أخذه على أبى كبير الهذلى أن كرر نفسه ولم يجدد فى مطلع ثلاثة من قصائده ، حيث يقول له : « انك لمن أعلام هذيل ، ولكنى لم أوثر قولك :

أَزُهَيْرُ هَلْ عَنْ شَيْبَةٍ مِن مَعْدِلِ

أَمْ لا سَبيلَ إلى الشَّبَابِ الأَوَّلِ

وقُلْتَ فى الأُخْرَى :

أَزُهَيْرُ هَلْ عن شَيْبَةٍ من مَصْرِفِ

أَمْ لا خُلُودَ لِعَاجزٍ مُتَكَلِّفِ

وقلتَ فى الثالثة :

أزهيرُ هل عن شَيبة من مَعْكِمِ

أى من مَحْبس . فهذا يدل على ضيق عَطَنكَ بالقريض ، فَهَلَّا ابتدأت كُلَّ قصيدةٍ بِفَنٍّ ؟ » (١١٣).

---

(١١٢) ضوء السقط ٢٩ ب .

(١١٣) رسالة الغفران ص ٣٤٢ .

ونحو من هذا أخذه على الرجاز ضيق نطاقهم فى المعانى ، لدورانهم فى حدود أوصاف معينة ، اذا تجاوزوها لم يأتوا بجديد (١١٤) ٠

رابعا : التعمق : بأن يغوص الشاعر فى أعماق نفسه ، أو فى أعماق الحياة بالتأمل والتفكر ، لاستخراج معانيه ٠

هو من أخص ما أعجبه ونوه به فى أبى تمام ، حيث تأسف عليه فى (الغفران) ، « أن يظل جسده وهو بالموقدة صال ، لأنه كان صاحب طريقة مبتدعة ومعان كاللؤلؤ متتبعة يستخرجها من غامض بحار ، ويفض عنها المستغلق من المحار » (١١٥) ٠

وغنى عن البيان أن التعمق انما يكون من ذوى الثقافة الواسعة والالمام بالفلسفة ، كأبى تمام الذى تعاظم حظه من ذلك فيما يبدو ، حتى كان التعمق طابعه ، ليس فى معانيه فقط ، بل فى صنعته كذلك ، ولا غرابة أن يعجب المعرى بذلك منه ، وهو العالم الذى كان التأمل العميق قوام حياته وأدبه معا ٠

خامسا : حسن التعليل : ـ نعنى تعليل الشاعر أو احتجاجه لمعانيه حتى ترد على النفس مورد القبول ، وهو ما أشاد به ـ لجدته ـ فى قول المتنبى السابق : ❊ قد لعمرى اقصرت عنك ❊ ، (١١٦) ، كما أشاد به أيضا ـ للطفه ـ فى ثانى بيتيه :

بِرَغْمِ شَبِيبٍ فَارَقَ السَّيْفُ كَفَّهُ ... وَكَانَا عَلَى الْعِلاَّتِ يَصْطَحِبَانِ
كَأَنَّ رِقَابَ النَّاس قَالَتْ لِسَيْفِهِ ... رَفِيقُكَ قَيْسِيٌّ وَأَنْتَ يَمَانِ

---

(١١٤) المرجع السابق ص ٣٧٧ ٠

(١١٥) المرجع السابق ص ٤٨٧ ٠ والموقدة : نار جهنم ٠ وصال : أى محترق ٠

(١١٦) انظر ص ٣١٥ ٠

اذ يقول تعليقا عليه : « فى هذا البيت معنى حسن لطيف ، وذلك أن الشاعر قال : كأن رقاب الناس قالت لسيفه : رفيقك ياسيف من قيس عيلان ، وأنت منسوب الى اليمن ، فأفسدت بين شبيب وبين السيف ، لأن عادة من ينسب الى قيس عيلان أن يتعصب على اليمن » (١١٧) .

سادسا : كثرة المعانى فى البيت الواحد : وهو مايبدو ايثاره اياه فى دفاعه عن بيت المتنبى :

الْعَارِضُ الْهَتِنُ ابْنُ الْعَارِضِ الْهَتِنِ ابْـ ... ـنِ الْعَارِضِ الْهَتِنِ ابْنِ الْعَارِضِ الْهَتِنِ

إذ يقول : « العارض : السحاب الذى يَعْترض ، وبعض الناس يعيبُ هذا البيت على أبى الطيب ، فينبغى أنْ يقال له ما قال أبو عبادة :

إذَا مُحَاسِنِىَ اللَّاتِى أُدِلُّ بِهَا
كَانَتْ عُيُوبِى فَقُلْ لِى كَيْفَ أَعْتَذِرُ

وهذا البيت قَلَّما يُوجَدُ مثلهُ ، لأنه قد وَصَفَ الممدوحَ بوَصْفَيْن ، ثم وصف ثلاثة من آبائه بمثل ماوصفه به ، وقلّما يتفق مثلُ هذا النظام وهو يُشابه قولَه :

وحَمْدَانُ حَمْدُونٌ وَحَمْدُونُ حَارِثٌ
وَحَارِثُ لُقْمَانٌ ولُقْمَانُ رَاشِدُ (١١٨)

---

(١١٧) المآخذ ١٧٧ ب .
(١١٨) الموضح ٣/١٥٠ أ .

فهو كما ترى يعتد بكثرة الأوصاف ـ أو كثرة المعانى ـ المنظومة (١١٩) ، مما يبدو أنه صدر فيه عن طبيعته الفكرية ، وصدر عنه أيضا فى قوله عن شعر ابن هانىء ، : « ما أشبهه الا برحى تطحن قرونا » (١٢٠) ، أى لأجل تلك القعقعة التى فى ألفاظه دون طائل من المعنى ، كما فهم ابن خلكان ، وكما أدرك ابن رشيق أيضا (١٢١) .

سابعا : **الوحدة** : ليس فقط فى معنى البيت أو معانى الأبيات ، بل ايضا فى شعر الشاعر كله .

فمن رعايته لها فى معنى البيت قوله عن بيت الحماسى :

تَنادَوْا يَـالَبُهْثَةَ إذْ رَأَوْنَا   فَقُلْنَا أَحْسِنِى ضَرْبًا جُهَيْنا

« اذا حمل البيت على أن المعنى أحسنى خلقا صح الغرض ، وأشبه بعض الكلام بعضا ، كأنهم لما لقوهم وقذفوهم بما يكرهون ، لما ذكروا بهثة ـ وهو لغير رشدة ، أى لزنا ـ قالوا (أحسنى ملأ) ، أى خلقا ، اذ كان السباب ليس بجميل » (١٢٢) .

ومن رعايته لها فى معانى الأبيات نقده لبيت المتنبى فى وصف لعبة سقطت فى مجلس بدر بن عمار :

فلَا تَلُمها على تواقِعِهـا   أَطْربها أَنْ رَأَتْكَ مُبْتسِما

---

(١١٩) لكن فى « رسالة الصاهل والشاحج » التى ظهرت بعد كتابة هذا الكلام ما يدل على أن استحسانه لكثرة المعانى فى البيت مشروط بالا تزيد هذه الكثرة عن الحد المقبول (انظر ص ٦١٢ ط ١ دار المعارف ١٩٧٥ م) .

(١٢٠) وفيات الأعيان ٤/٥١ ، ٥٢ .

(١٢١) العمدة ١/١٢٤ .

(١٢٢) شرح الحماسة للتبريزى ٢/٢٠ . وبهثة : بطنان فى العرب ، بهثة فى بنى سليم وبهثة فى بنى ضبيعة وربيعة أضخم . وبهثة فى اللغة : ولد الزنا . ويروى : « أحسنى ملأ » أى خلقا .

حيث قال عنه : « هذا البيت مناقض للبيت الأول ، (١٢٣) ، لأنه وصفها بأنها لاتشاء ولا تحس بألم ، ثم جعلها فى البيت الأخير تطرب من ابتسام الممدوح (١٢٤) . »

ومن رعايته لها فى جملة شعر الشاعر قوله عن بيت المتنبى الآخر :

تَحَمَّلوا حَمَلَتْكُمْ كُلُّ ناجيةٍ   فكُلُّ بَيْنٍ علىَّ اليومَ مُؤْتَمَنُ

« كأنه دعا لنفسه بأن يتحملوا عنه ـ وتحملهم النواجى من الابل ، أى السراع ، وهذا ضد ماذكر فى قوله :

لَيْتَ الَّذى خلقَ النوَى جَعَلَ الْحَصَا
لِخِفافِهِنَّ   مَفَاصِلِى وَعِظَامِى »(١٢٥)

٥ ـ الجديد والمسبوق :

اذا كانت الجدة والابتكار ـ كما رأينا ـ من أخص ما أعجب به وآثره أبو العلاء ، فمن المحقق أن معانى الشاعر ـ أى شاعر ـ ليست كلها مبتكرة جديدة ، بل ان الجديد المبتكر ـ ان كان ـ هو أقلها دائما ، وأكثرها ـ ان لم يكن كلها ـ قديم مسبوق .. ومن ثم كان التفات أبى العلاء ـ ومن قبله النقاد ـ الى المسبوق التفاتهم الى الجديد أو يزيد .

ولأن تلك القضية ـ قضية الجديد والمسبوق ، أو الأصالة والتقليد ، أو السرقات كما ذاع واشتهر ـ من أهم ماشغل النقاد قديما ، حتى صارت

---

(١٢٣) يعنى قوله : ما نقلت فى مشيئة قدما ولا اشتكت من دوارها ألما
(١٢٤) المآخذ ١٧٠ ب .
(١٢٥) الناجية : الناقة المسرعة . البين : الفراق .
(١٢٦) المآخذ ١٧٦ ب ، والموضح ١٥٦/٣ أ .

المجال الوحيد أو الأكبر لبعضهم = كان من اللازم هنا أن نتبين موقف المعرى منها واتجاهه فيها ، ليس فقط لمجرد أنه ناقد ، بل لأنه شاعر أولا ، وناقد واسع الثقافة والتناول لآثار سابقيه ثانيا ٠ وقد أشرت فى الاتجاه الأول من اتجاهاته الى أن تناوله لهذه القضية جديد ، ففيم كانت تلك الجدة اذن ؟

انها كما رأيت ليست فى حجم هذا التناول كما هى فى طبيعته ، تلك الطبيعة التى نلحظ بواعثها فى معاناته النظم باكثار واقتدار من جهة ، وفى معرفته واحاطته بشعر الشعراء وأخبارهم من جهة أخرى ، ثم لايخطئنا من ملامحها :

أولا : شمول نظرته ، والتفاته الى أنواع المعانى ، الجديد والمأخوذ والعام ، حيث لم يذهب ككثيرين قبله وبعده الى الوقوف عند المأخوذ واختصاصه دون غيره بالاهتمام ، بل كانت الجوانب الثلاثة سواء فى تناوله واهتمامه ٠

ثانيا : اعتدال نظرته ، عندما وضح فى شعر (السقط) ما وضحه فى غيره ، من جديد ومأخوذ وشائع ٠ فلم يسرف فى التنويه بجديده ، ولم يقصر فى الاشارة الى مأخوذه ومسبوقه ، بل ان اشارته الى المأخوذ فيه كانت أكثر وأظهر من اشارته الى الجديد ٠ وليس ذلك بالطبع لقلة الجديد فيه ، اذ كان هذا الجديد فى المعانى والصياغة ـ كما ذكر البطليوسى ـ كثير ٠٠٠

ثالثا : عفة تعبيره عن هذه الجوانب ، لا سيما المأخوذ ، فحين نوه بالجديد المبتكر عند المتنبى أو عنده هو كان تعبيره ـ كما رأينا ـ : « هذا معنى لم يعلم أنه سبق اليه ، أو قلما يوجد مثله ، أو مفقود » ٠

على أنه احتاط فى بعض تعبيره فقال : « الا أن يكون الشاعر لم يسر شعره فيعرف » .

وحين أشار الى المأخوذ كان أنزه وأعف من رأيت فى تسميته له ، اذ لا يكاد يتجاوز هذه العبارات : « مأخوذ من قول فلان ، أو هو من قول الآخر ، أو مبنى على ـ أو ينظر الى ـ قول فلان » لا يتجاوزها الى ما غلب فى تناول كثيرين ، من ألفاظ السرق ، والغصب ، والمسخ والسلخ ، وغيرها ، من اصطلاحات أسرف بعضهم فى احصائها وتشقيقها بما لا طائل تحته غالبا ...

بل لقد ذهب فى بعض الأحيان الى التوجيه لما قد يسميه غيره اغتصابا ، وذلك فى قوله عن صلة البحترى ببنى السمط الذين كانوا بحمص :

« وفى أخباره أنه وجه اليهم بيتين يوجدان فى ديوان نهشل ابن حرى الدارمى ، فنسبا اليه ، ويجوز أن يكون تمثل بهما ، وهما :

جَزَى اللهُ عَنِّى والجوازى بكفه
بَنى السِّمْطِ إخوان المكارم والمجدِ

هُمُ وَصَلُونِى وَالتَّنَائِفُ بيننا
كما ارْفَضَّ غَيْثٌ فى تِهَامَةَ مِنْ نَجْدِ» (١٢٧)

ولعله لهذه العفة فى حديثه عن الأخذ ، لم يجنح الى الموازنة بين الآخذ والمأخوذ منه الا نادرا ، كقوله عن بيت المتنبى :

وفوارسٍ يُحْيِى الحِمَامُ نُفُوسَهَا
فَكَأَنَّهَا لَيْسَتْ مِنَ الْحَيَوَانِ

---

(١٢٧) ضوء السقط ٨٠ ب . والجوازى : جمع جازية بمعنى الجزاء . والتنائف : جمع تنوفة ، وهى الأرض البعيدة الأطراف ، ارفض : سال وتفرق .

هذا البيت من قول الطائى :

يَسْتَعْذِبُونَ مَنَايَاهُمْ لِأَنَّهُمُ لَا يَيْأَسُونَ مِنَ الدُّنْيَا إِذَا قُتِلُوا

الا أن الشاعر – يعنى المتنبى – أسرف فى المبالغة ، فجعل الحمام يحيى أنفسهم وكأنها ليست حيوانا » (١٢٨) .

لكنه وان لم يجنح الى هذا الجانب الهام من الموازنة كثيرا كان دقيقا فى اشاراته ، حيث لم يقل : « مأخوذ من ، أو من قول » الا عند توافق المعنيين أو تقاربهما ، كما هو الحال بين قول المتنبى السابق وماذكر أنه منه ، أو بين قول المتنبى أيضا :

كأنها الشمسُ يُعْيِي كَفَّ قَابِضِهَا شُعَاعُهَا وَيَرَاهُ الطرفُ مُقْتَرِبَا

وبيت الأول الذى قال إنه مأخوذ منه :

فَقُلْتُ لأصحابى هى الشمسُ ضَوْءُهَا
قريبٌ ولكنْ فى تَنَاوُلِهَا بُعْـد (١٢٩)

على حين قال : « مَبْنِيٌّ على أو يَنْظُرُ إلى » عندما كان التوافق أو التقارب فى بعض الجوانب فقط ، كما هو الحال بين البيت الثانى فى قوله – من السقط : –

سَقْيًا لِدِجلةَ والدُّنْيَا مُفَرَّقَةٌ ... ...

وبَعْدَهَا لَأُرِيدُ الشُّرْبَ من نَهَرٍ كَأَنَّمَا أَنَا مِنْ أَصحَابِ طَالُوتَا

وبين ماذكر أنه مبنى عليه ، من قوله تعالى : (**فلما فصل طالوت**

(١٢٨) الموضح ١٣٩/٣ أ .
(١٢٩) المرجع السابق ٤٣/١ ب .

بالجنود قال ان الله مبتليكم بنهر فمن شرب منه فليس منى ومن لم يطعمه فانه منى [سورة البقرة : ٢٤٩] (١٣٠) .

أما المسبوق الذى لا يختص به قائل ، لأنه من العام المشترك فلم يشر اليه بشىء مما سبق ، انما أشار اليه بما يعنى سبقه وعمومه ، واستشهد على ذلك ، كقوله عن بيته ـ من السقط ـ :

إذَا قَالَ صَحْبِى لَاحَ مِقْدَارُ مِخْيَطٍ
مِنَ الْبَرْقِ فَرَّى مِعْوَزاً جَذْبُ مُوجَعٍ

« المخْيَطُ : الإبرة ، وفرّى : خرّق ، والمعْوَز : الثوب الْخَلَق . . . وهذا المعنى قد ورد فى أشعار العرب كثيرا قال الشاعر :

أَعِنِّى عَلَى بَرْقٍ أُرِيكَ وَمِيضَهُ
تُضِىءُ دُجُنَّاتِ الظَّلَامِ لَوَامِعُهُ

إذا اكتحلتْ عَيْنَا مُحِبٍّ بضَوْئِهِ
تَجَافَتْ بِهِ حتى الصَّبَاحِ مَضَاجِعُهُ

... » (١٣١)

وكقوله هنا : « قد ورد فى أشعار العرب » قوله فى مواضع أخرى « وقد شرح ذلك غير واحد من المتقدمين والمحدثين » ، أو « وقد سبق الناس الى هذا المعنى » (١٣٢) . على أنه ـ مع هذه الاشارات ـ قد بين فى بعض الأحيان ما للمتأخر من تصرف فى المعنى المشترك ، فقال عن بيت المتنبى :

---

(١٣٠) ضوء السقط ٧٨ ب .

(١٣١) المرجع السابق ٧٤ أب . وميضه : لمعانه . دجنات : جمع دجنة ـ بضمتين فنون ساكنة ـ أى ظلمة .

(١٣٢) المرجع السابق ٦٠ أ ، ١٩ أ ، ٧٤ أب ، الموضح ١/٤٨ أ ، ١٢٣/٣ ب .

وإذا العَذْلُ فى النَّدَى زَارَ سَمْعًا

فَفِـداهُ العذُولُ والمَعْذُولُ

«ولم يزل الشعراء يذكرون عَذْل الممدوح على الجُود ، قال زهير :

غَدَوتُ عليه غَدوةً فوَجَدتُـهُ قُعودًا لديه بالصَّريم عواذلُهْ

يُفَدِّينَهُ طَوْرًا وطَوْرًا يَلُمْنَهُ وَأَعْيا فمَا يَدْرِينَ أَيْنَ مَخاتِلُهْ (١٣٣)

جعلهن يفدينه ، أى يتقربن اليه بالتفدية ، ثم يجئن باللوم فى اثر ما قلن . وأبو الطيب أوجب أن العذل فى الجود لايحسن أحد « أن يجريه للممدوح » (١٣٤) .

أى ان أبا الطيب زاد فى المعنى ، بأن جعل عذل الممدوح غير ممكن ، وان أمكن عذل غيره ، وهذا من ترفعه بالممدوح .

٦ ـ توجيه بعض المعانى :

أى التماس وجه أو مخرج لما خالف منها ، وأكثر ما كانت تلك المخالفة بالكذب والادعاء ، أى أنها مخالفة وانتقاض لما آثره من قيمة الصدق ، لكنها فيما يبدو مخالفة عامة ، وقع فيها أكثر الشعراء حتى هو . ومن ثم كان موقفه منها ، ومحاولته توجيهها وتخريجها ، أى لأجل أنها ظاهرة عامة كان هذا الموقف ، فرأيناه فى (مقدمة السقط) (١٣٥) يذهب بما غلا فيه من شعر هذا الديوان الى وجهات ثلاث :

صرف ما كان من صفات الله دون غيره اليه ، وماصلح لمخلوق ـ أى مخلوق ـ الحق به ، ومالا جهة له من الكذب استغفر الله منه .

---

(١٣٣) غدوت : بكرت . الصريم : الصبح . والختل : الخداع .

(١٣٤) الموضح ٢/١٧٥ ب .

(١٣٥) شروط السقط ١/١٠ .

مبينا مع هذه الثلاثة أن الشعر للخلد مثل الصورة لليد ، كلاهما تمثيل لما لا حقيقة له ، وأن الشعراء مطلق لهم فى حكم النظم الادعاء .

ثم رأيناه فى (ضوء السقط) بعد ذلك بزمان ، يعود الى الاستغفار مما ادعى فيه للمخلوق صفة الخالق ، مع التعقيب على مادون ذلك مما يدعى فى الجملة = بأنه مما استحسنته ورغبت فيه الشعراء ، وهو التعقيب الذى رأينا مثله على ما كان للمتنبى من ذلك (١٣٦) ، ونرى مثله أيضا على ما كان من غلو النكتى فى مدحه ، حيث يقول له ـ بعد أن تأول قصره لكنيته ، وعدل عن لومه على ذلك ـ :

« كيف ؟ وقد غلا فى وصفى ، وأعطانى مالا يستحقه موضعى ... ولكنه فى ذلك على مذهب الخطباء والشعراء ، وزعم صاحب المنطق ـ فى كتابه الثانى من الكتب الأربعة ـ أن الكذب ليس بقبيح فى صناعة الشعر والخطابة ، ولذلك استجازت العرب أن تقول فتفرط ، وتسرف فى الشىء فتغرق ، قال الشاعر فى وصف السيف :

تَرَى ضَرَبَاتِهِ أَبَدًا خَطَايَا إلى أَنْ يَسْتَبِينَ لَهُ قَتِيلُ (١٣٧)

وبالنظر فى هذه التوجيهات لا يسعنا الا أن ننوه بنزاهة الرأى ونبل الغاية فيما صرف اليه غلو السقط من وجوه . أما النزاهة فواضحة من أن يكون هذا موقفه من غلوه هو . وأما نبل الغاية فأوضح فى صرفه ما كان من مدحه المفرط عما أريد به الى ماينبغى أن يكون له فى الحقيقة ، مدفوعا فى هذا الصرف بما اصطبغ به ذوقه من نزوع دينى وفلسفى .

وهذا توجيه سديد ، ما أجدرنا أن نتمثله فى لوحات الفحول من المادحين ، فنتجه بها وجهة المثل العليا حيثما كانت ، دون نظر الى من قيلت فيهم ، حتى لا تنغص علينا نسبتها اليهم مافيها من روعة وجلال .

---

(١٣٦) انظر فيما سبق ص ٣١١ .
(١٣٧) رسائل أبى العلاء ص ٨٢ .

أما توجيهه للكذب بعد ذلك بأنه مما أبيح للشعراء واستحسنوه ، أو مما أجازه صاحب المنطق = فليس الا مجرد اعتذار ، لم يصدر فيه - كما أسلفت (١٣٨) - عن ذوقه الخاص ، انما صدر فيه عن الذوق العام ، وانظر أيضا هنا : الى جعله رأى صاحب المنطق من الزعم ، فان فيه دليلا آخر على ما نلحظه من بعد هذا التوجيه عن ذوقه الخاص .

الا أن قوله ترتيبا على زعم صاحب المنطق : « ولذلك استجازت العرب أن تقول فتفرط » = كلام موهم مضطرب ، ان كان يعنى أن العرب استجازت الافراط باجازة صاحب المنطق فهو بعيد ، وان كان يعنى أنها استجازته لأنه عندها ليس بقبيح كما كان عنده فهو ممكن ، لكن ايهام كلامه للمعنى الأول أظهر .

ونحو من هذا التوجيه - فى أنه مجرد اعتذار - قوله الذى تمحل فيه عن بيت الطائى :

وللْكَذِبَات كُنْتَ لِغَيرِ بُخْلٍ عَقِيمَ الْوَعْدِ مِنْتَاجَ الْوَعِيد .

« جعله عقيم الوعد ، ولا وعد هناك ، اذ كان يستعمل فى الخير ، فلو كان هناك وعد لكان البيت ذما للممدوح ، لأن الرجل يعاب باخلاف الوعد » .

لأنه نقض ذلك بقوله عقبه : « وقد دل قوله بعد ذلك على أنه وعدهم ثم أخلفهم على سبيل المكر ، وليس ذلك بحسن المدح » (١٣٩) .

---

(١٣٨) ص ٣١٢ .

(١٣٩) شرح التبريزى لأبى تمام ٣٧/٢ .

٧ ـ دفاع عن بعض ماعيب :

لا غرو أن يتجه اليه ، ويتصدى له من حاول التوجيه والاعتـذار عما لم يُعَبْ ، اذ كان الدفاع بطبيعته أبعث للنفس ، وأفسح للحوار والجدل ، فكيف بمن كان مثل أبى العلاء فى ثقافته ودرايته وثقته بنفسه •

وننظر فيما اتجه الى الدفاع عنه هنا فنجده نوعين :

ماعيب من معانى الشعراء ، وما عيب من معانيه هو ••

اما ماعيب من معانى الشعراء فقد تصدى للدفاع عنه فى غير موضع من كتبه ، لاسيما (الغفران) ، معتمدا فى هذا الدفاع على ذوقـه وثقافته ومذاهب الشعراء •

من ذلك الحوار الطريف الذى أجراه بين ابن القارح والنابغة ، فى وصفه (المتجردة) ، اذ يسأله ابن القارح عن هذا الوصف قائلا :

« ياأبا أمامة ، انك لحصيف الرأى لبيب ، فكيف حسن لك لبك أن تقول للنعمان بن المنذر :

زَعَمَ الْهُمَامُ بِأَنَّ فَاهَا بَـارِدٌ عَذْبٌ إذا ماذُقْتَهُ قُلْـتَ ازْدَدِ

زَعَمَ الْهُمَام ـ ولم أَذُقْهُ ـ بأَنَّهُ يُشْفَى بِبَرْدِ لِثَاتِهَا العَطِشُ الصَّدِى

ثم استمر بك القول حتى انكره خاصة وعامة ؟

فيقول النابغة ـ بذكاء وفهم ـ : لقد ظلمنى من عاب على ، ولو انصف لعلم انى احترزت أشد احتراز ، وذلك أن النعمان كان مستهترا بتلك المراة ، فامرنى أن اذكرها فى شعرى ، فادرت ذلك فى خلدى ، فقلت : ان وصفتها وصفا مطلقا جاز أن يكون بغيرها معلقا • وخشيت أن أذكر اسمها فى النظم فلا يكون ذلك موافقا للملك ، لأن الملوك يانفون من

تسمية نسائهم ، فرأيت أن أسند الصفة اليه فاقول : (زعم الهمام) ، اذ كنت لو تركت ذكره لظن السامع أن صفتى على المشاهدة ، والأبيات التى جاءت بعد ذلك داخلة فى وصف الهمام ، فمن تأمل المعنى وجده غير مختل » (١٤٠) .

انه فى هذا الدفاع يعتمد ماقيل : من أن النعمان هو الذى طلب هذا الوصف من النابغة ـ دون ماهنالك من روايات أخرى فى ذلك (١٤١) ـ ليدفع عن النابغة مظنة التغزل المسىء .

ثم يعلل مجىء الوصف على هذا النحو تعليلا ذوقيا لا بأس به ، فيرى أن التفصيل والمبالغة فيه كانا خشية أن يكون النعمان معلقا بغيرها فينصرف عنها ، وأن ترك اسمها لتجنب اساءة الملك بذلك ، وأن جعل الصفة من النعمان بدلا منه رعاية للمقام وتحرزا من الاتهام ...

ولما عَابَ ابنِ القارح على المتنبي قوله :

أَذُمُّ إلى هذا الزمان أُهَيْلَهُ

حيث اشتكى فيه من يعقل الى من لا يعقل (١٤٢) ، وهو من الادعاء أو التشخيص = دافع عنه أبو العلاء بأمرين أ

أولهما : أنه فى ذلك على مذهب الشعراء ، « والشعراء ـ كما قال (١٤٣) ـ مطلق لهم ذلك ، لأن الآية شهدت عليهم بالتخرص وقول الأباطيل ، (**ألم تر أنهم فى كل واد يهيمون ، وأنهم يقولون ما لا يفعلون**) » (١٤٤) .

وهذا بعينه هو ماوجه به ـ فيما أسلفنا ـ كثيرا من ادعاءاته وادعاءات غيره . وهو أيضا ماجنح اليه فى الدفاع عن اقرار الأعشى بالتهتك

---

(١٤٠) رسالة الغفران ص ٢٠٤ .

(١٤١) انظر الأغانى ١١/١٢ وما يليها .

(١٤٢) رسالة الغفران ص ٢٨ .

(١٤٣) المرجع السابق ٤١٦ .

(١٤٤) سورة الشعراء آية ٢٢٦ .

وشر بالخمر ، ثم في تعليل مارئي من نجاة (ديك الجن) مع الجاده الظاهر في شعره (١٤٥) .

ثانيهما : أنه سلك فيه منهاج المتقدمين ، خصوصا الذين دأبوا على تشخيص الدهر ، بنسبة الفعل اليه ، والتشبيه به ، وذمه ، ممـا بينـه واستشهد عليه أبو العلاء فى حديث طويل ... (١٤٦)

وأما ماعيب من معانيه فليس من غير (لزوم مالا يلزم) فيمـا نعلم ، وليس كل ما دافع به عن هذا المعيب بين أيدينا الآن ، انما الذى بين أيدينا منه (مقتطفات من زجر النابح) سبقت صفتها ، ونريد هنا أن نتبين كيفية دفاعه فيها .

ولكى نبين ذلك لابد أن نذكر بما أسلفنا عن طبيعة الطعن والدفاع ، فحيث كان قصد الطاعن ـ كما يبدو من بعض النصوص ـ أن يصم المعرى بالالحـاد ، ويؤلب عليه العـامة ، بتحريف كلامـه وتوجيه معـانيه الى ما يريد = كان دفاعه بتوضيح المعنى الذى قصد اليه وبيان وجهه ، مع القسوة فى الرد أحيانا ، بالسخرية من الطاعن ، أو السخط عليه ونعته بأقبح النعوت .

ولتوضيح المعنى هنا مناح متعددة قصد اليها أبو العلاء ، وأعانه عليها ثقافته العامة والخاصة ؛ ودرايته العميقة بأسرار العربية ، وذوقه المرهف الحساس ..

اذ نراه كثيرا مايتوخى ـ فى الدفاع ـ بيان الوجه الصحيح والفهم السليم للمدلول كقوله عن هذين البيتين :

سأَلتُ رجَالاً عن مَعَدٍّ ورَهْطِه ... وعَنْ سَبَأٍ مَا كَانَ يَسْبِي ويَسْبَأُ (١٤٧)
فَقَالُوا : هِيَ الأَيامُ لم يُخْلِ صَرْفُهَا ... مَلِيكًا يُفَدَّى أو تَقِيًّا يُنَبَّـأُ

---

(١٤٥) رسالة الغفران ٢١٩ ، ٤٤٦ .

(١٤٦) المرجع السابق ٤٢٦ — ٤٢٨ .

(١٤٧) يسبى : يأسر ، يسبأ ، من سبأ الخمر : اشتراها ليشربها .

«أرغم الله أنف المُتخرِّص ، ولا زالت الذلة معقودة منه بمتخطِّس ، فما ناضل بسهم مقرطس ، أليس قول القائل : (أو تقيا ينبأ) شهادة للأنبياء ، وأنهم خلصان الأولياء ؟ وأن المنية لو تحامت مخلوقـا ، لعرفت لأولئك النفر حقوقا ، ولكنهـا تجمـع بين الفطن والغبى وتـاتى على النبـأ والنبى » (١٤٨) .

وكقوله عن هذا البيت :

لا أَخْطُبُ الدنْيَا إلى مَالِكِ الد   نْيَا وَلَكِنْ خِطْبَتِى أُخْتَهَا

« لفظ بأنه لا يخطب الدنيا الفانية الى ربها ، وانما يخطب أختها المنتظرة ، فكيف تدعى الدعوة الباطلة على من هذا اعتقاده ، وطلب الآخرة همه والتماسه ؟ فرحم الله القائل :

إِذَا مَحَاسِنِى اللاَّتِى أُدِلُّ بِهَـا
كَانَتْ عُيُوبِى فَقُلْ لِى كَيْفَ أَعتذِرُ » (١٤٩) .

وقد يجنح إلى بيان مأخذ المعنى من الكتاب والسنة كقوله عن هذين البيتين :

أَيُرَجُّونَ أَنْ أَعُودَ إِلَيْهِمْ   لا يُرَجُّوا فَإِنَّنى لاَ أَعُودُ
وَلِجِسْمِى إِلَى التُّرَابِ هُبُوطٌ   وَلِرُوحِى إِلَى الْهَـوَاءِ صُعُودُ

« هَذَا مُسْتَنْبَطٌ من الكتاب والخبر فأما الكتاب فقوله تعالى :

---

(١٤٨) زجر النابح ص ٧ . المتخرص : المفترى ، مقرطس : مصيب .
(١٤٩) المرجع السابق ص ٣٩ .

(**كــلا اذا بلغــت التراقى ، وقيـــل من راق**) (١٥٠) يرقى بـروح هـــذا المقبـــوض ، وقـــد جـاء فى الخبـــر : أن أرواح المـــؤمنين وغيرهـــم تعـــرض على الملائكــــة ، فمـــا كـــان منهـا طيبا أمر به الى الجنة ، وماكان منها خبيثا رد الى الأرض أو جعل فى الهاوية ، وقد جاء فى حديث المعراج مما يتناقله رواة الأخبار ، أن النبى ﷺ لما عرج به ، رأى آدم ـ صلى الله عليه ـ فى بعض السموات ، وأرواح ولده تعرض عليه » (١٥١) .

وكثيرا ماكان مخرج الكلام على الخصوص لا العموم الذى هـــو الظاهر ، فبين مخرجه ، كقوله عن هذا البيت :

حَوانَـا مكـانٌ لايَجُـوزُ انتِقـالُهُ
ودهــرٌ له بالسَّاكنِيهِ مُــرُورُ

« هـذا كلام خرج عن الخصوص ، كان المـراد : لا يجـوز الا اذا شاء الله ، ومثل هذا التخصيص كثير ، ومن ذلك قوله تعالى : (**كل نفس ذائقة المـوت**) (١٥٢) ، وقوله فى موضـع آخـــر : (**ويحـذركم الله نفسه**) (١٥٣) ، وقد علم أن الله ـ سبحانه باق لا يغير ، وفى الكتـــاب العزيز : (**كل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال والاكرام**) (١٥٤) فدل ذلك على أن (**كل نفس ذائقة الموت**) = انما هو على الخصوص »(١٥٥) .

وقد يكون الكلام على الحذف ، فيبين ما حذف ، كقوله عن هذا البيت :

وَالْمَوْتُ نَوْمٌ طَوِيلٌ مَالَهُ أَمَدٌ
والنوم مَوْتٌ قصيرٌ فهومُنْجَابُ

---

(١٥٠) سورة القيامة : ٢٦ ، ٢٧ .
(١٥١) زجر النابح ص ٥٦ .
(١٥٢) سورة آل عمران آية ١٨٥ .
(١٥٣) سورة آل عمران آية ٢٨ .
(١٥٤) سورة الرحمن آية ٢٦ ، ٢٧ .
(١٥٥) زجر النابح ص ٦٣ وانظر أيضا ٤ ، ١١ ، ٣٦ ، ٤٣ ، ٦٣ ، ٨٢ ، ١٤٢ ، ١٥٧ ، ١٧٤ .

« هذا لا يعترض فيه الا رجل جاهل ، لأن كل جيل والمنتسبين الى كل نحلة لا يدعون أنهم يعرفون وقت النشور ماهو ، والمعنى : ماله أمد معروف ، ومثل هذا فى الكتاب العزيز ، من كتمان الساعة ، ومنع بنى آدم من علم أو انها ، وفى أى جيل يكون قيامها . والآيات مشهورة فى الحذف ، وقد ذكر بعضها فيما تقدم » (١٥٦) .

وقد يكون الكلام على الاستفهام الذى لم يفهمه الطاعن ، فيعرض بجهله ، ويبين له ما خفى عليه ، وذلك قوله عن هذا البيت (١٥٧) :

حِمَامٌ فَاتِكٌ فَهَل انتصَارٌ وكَسْرٌ دَائمٌ فمتى الْجُبُورُ

« أما قتل الحمام فهو معلوم عند الراشد والغوى ، والناشىء المقتبل والمسن ، (فهل انتصار ؟) ، أى ان أحدا لايصل الى ذلك ، لأنه حكم الله على عباده (وكسر دائم فمتى الجبور ؟) ، وانما ذلك انتظار من عند الله سبحانه . فان أنكر المتسوق (١٥٨) الاستفهام فى هذا الموضع فانما ذلك بغباوته وضلاله عن أساليب القول ، أما سمع قوله تعالى حكاية عن المؤمنين ونبيهم : (حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه : متى نصر الله ؟ ألا ان نصر الله قريب) (١٥٩) . »

وقد يكون الكلام على إرادة الجناس المركب ، مما بينه فى نحو قوله عن هذا البيت :

أَرَى عَالِمًا يَشْكُو إِلَى اللهِ جَهْلَهُ
وَكَمْ مِنْ بُرَى يَعْلُو فَيَخْطُبَ مِنْبَرًا

(١٥٦) المرجع السابق ص ٢٥ ، وانظر أيضا ٩٧ ، ١٢٢ .
(١٥٧) المرجع السابق ص ٧١ .
(١٥٨) المتسوق : من تسوق القوم ، باعوا واشتروا ، كأنه يتخذ من الطعن عليه تجارة .
(١٥٩) سورة البقرة آية ٢١٤ .

« أما شكية العالم الى الله جهله فهى مشهورة ، لايدفعها غوى ولا رشيد .
وأما قوله * وكم من برى يعلو فيخطب منبرا * فانه جعل (من) مع (برى) – وهو التراب – مجانسا لقوله فى القافية (منبرا) ، يريد واحد المنابر ، وليس فى هذا الكلام بحمد الله طعن على خطيب ولا غيره وانما هو تعجب من قدرة الله جل سلطانه ، لأنه يخلق من التراب من يعلو أعواد المنبر ، فيشهد بالوحدانية ويفوه بالعظات » (١٦٠) .

وقد يكون مبنى الكلام على اتصال المعنى بما بعده لا بما قبله ، مما ضل فيه الطاعن ، وبينه المعرى ، بقوله فى الأخيرين من هذه الأبيات:

أُمـورٌ تَسْتَخِفُّ بِهَـا حُلُـومٌ
وَلَا يَدْرِى الْفَتَى لِمَنْ الثُّبُـورُ
كِتَابُ محمدٍ وكتابُ مُوسَـى
وإنجيلُ ابن مريمَ والزَّبُـورْ
نَهَتْ أُمَمًا فَمَا قَبِلَتْ وَبَادَتْ
نَصِيحَتَهَـا فَكُلُّ القَـوْمِ بُـورُ

« كتاب محمد : مبتدأ غير متعلق بما قبله ، ومابعده عطف عليه الى قوله (الزبور) ، ثم جاء الخبر فى قوله : * نهت أمما ... البيت * ، و (نهت) راجعة الى الكتب ، وهذا بين مشهور ، لأن كل أمة لم تقبل أمر نبيها ، وانما قبله بعضهم ، والاسلام – على أنه أشرف الملل – قد أظهر المنتسبون اليه أشياء هى محظورة فيه ، كشرب الخمر ، والمراباة ، وغير ذلك من المناكير ، وهم مع مايفعلون يأملون الرحمة ، ويرجون العفو ، ويقرون بالوحدانية ، وان الله لعفو رحيم . وانما أتى هذا المنكر

---

(١٦٠) زجر النابح ص ١٠٣ .

من جهله بأحكام المنظوم ، وقلة خبرته باتصال الجمل بعضها ببعض ، لعله قرأ البيت الأول منهما دون أن يتبعه بالآخر ، فظن ـ ومعاذ الله أن يذهب المؤلف الى ذلك ـ أن البيت الثانى تفسير للأول ، (١٦١) وليس كما ظن وانما هـذا فن من القريض يسـمى (الاغـرام) ، وهـو دون التضمين ... » (١٦٢) .

وقد تكون الأبيات المطعون عليها من بحرين مختلفين ، وقد وصـل بينها الطاعن ، وهنا لا حد لسخرية المعرى من خصمه وحملته عليه ، كما يبدو من قوله عن بيتيه :

سَعَى آدمٌ رَبُّ البَرية فى أَذًى ... لذُرِّيَّةٍ فى ظَهْـره تُشْـبهُ الذَّرَّا

تَلَا النَّاسُ فى النَّكْرَاءِ نَهْجَ أَبيهِمُ ... وغُرَّ بَنُوهُ فِى الْحَيَاةِ كَمَا غُرَّا

« ومن جهل هذا المعترض أنه وصل بهذين البيتين بيتا لايدخل معهما ؛ وظن أنه يجوز أن يوصل اليهما ، فأنبأ عن غريزة ناقصة ، ولب ليس بثابت ، وتعرض لما لا يحسن ... وهذا البيت هو :

أَرَى عَالِمًا يَشْكُو إِلَى اللهِ جَهْلَـهُ

وَكَمْ مِنْ بَرًى يَعْلُو فَيَخْطُبُ مِنْبَرًا » (١٦٣)

فى هـــذه الردود وغيرهـــا ، ممـــا لا ســبيل الى استقصائه هنـــا لســعته = وفـق أبو العــلاء كثيرا فى ابـــراء ذمتـه ممـا اتهم به ، وكشف اللثام عن خبىء معانيه ، وبين وجهها ، وكانت حجته ـ كما رأينا ـ من ثقافته وذوقه دافعة داحضة .

ولعله لم يتجرد للدفاع هذا التجرد، ولم يُنْحِ على خصمه بما رأينا، من لاذع السخرية ، وخفى التعريض ، وصريح التجهيل أحيانا = الا لعنف

---

(١٦١) يعنى بالأول : « أمور تستخف ... » ، وبالثانى : « كتاب محمد ... »

(١٦٢) زجر النابح ص ٦٧ .

(١٦٣) المرجع السابق ص ١٠٢ .

الخصومة التى تعرض لها منه ، وشديد الاساءة التى كان هدفا لهـــا بسببه .

وهو ماجعله فى بعض الأحيان يتغوث من تمويهه وتضليله وغباوته كما رأينا ، وكما يبدو من قوله بعد بعض الدفاعات :

«لو أنَّ حولى عُصْبَةً يَمَانيَةْ ماتَرَكَتْنِى للكلابِ الْعَاوِيَهْ

ولكن انما يغضب لهذه الأشياء المسلمون ، وقد اغترب الاسلام فى هذا الأوان ... (١٦٤) . »

أو قوله فى صدر أخرى (١٦٥) : « فأما العالم الذين يسمعون هذا الانسان ثم لا ينكرون عليه ، فمؤلف (لزوم مالا يلزم) بينهم غريب مُطَّرَح ، قد يئس النصرة ... ولكنه ينتظر النصرة من الله ـ سبحانه ـ بالوعد السابق فى الآية : « ثم بغى عليه لينصرنه الله) (١٦٦) . »

---

(١٦٤) المرجع السابق ص ٧٠ .

(١٦٥) المرجع السابق ص ١٦١ .

(١٦٦) سورة الحج : ٦٠ .

الصنعــة الفنيــة

لا أظننا بحاجة الى مزيد لتأكيد اهتمامه بها فى النص الأدبى ، بعد ما أشرنا الى ذلك غير مرة ، فى مصادر الشعر عنده ، وفى تحقيقه للمتن ، وفيما يؤثره فى التركيب .

وليس الا أن تنظر فى هذه المواضع (١) ، لترى أن هذا الاهتمام كان على أقوى وأعظم مايكون ، وأن توخى الصنعة فى التعبير بتهذيبه من جهة ، وتوشيته بصور الفن المختلفة من جهة أخرى ، كان من أهـم معالم الابداع التى آنسه وجودها ، وأوحشه افتقادها . ومن ثم كـان حسبه فى تناولها أحيانا أن يقول : « فى هذا البيت من الصنعة كذا » ، فنفهم من اشارته مدى لفتهـا لذوقه ، واقبـاله عليهـا ، وان لم يصرح بالاعجاب والاستحسان .

واذا كنا فى عرض (نقده للغة) قد أتينا على نواحى التهذيب التى آثرها ، فاننا نخص بهذا الحديث جوانب التوشية الفنية التى نظر اليها ، وأهمها :

١ ــ **التشبيه** : وله فى تذوقه ونقده اتجاهات :

منها : **تحليل صوره** ، ذلك التحليل الذى لم يقتصر فيه على مجرد الشرح ، بل تجاوزه الى كثير من دقائق الصورة ، كتحديده المشبه به ، وبيانه السر فى اختياره ومالا تتم الصورة الا به من صفاته .

ففى نقده لبيت الطائىّ :

بِيضٌ فَهُنَّ إذَا رُمِقْنَ سَـوَافِرًا
صُوَرٌ وَهُنَّ إذَا رَمَقْنَ صِـــوَارُ (٢)

---

(١) انظر ص ١٦٠ ، ٢٠٥ ، ٢٥٥ .

(٢) رمقن : لحظن لحظا خفيفا . صوار : قطيع من بقر الوحش .

بين أن المشبه به من (الصور) : « خاصة مايصور فى المواطن مثـل البيع والحمامات وغير ذلك » ، يعنى الدمى ، اذ « لو لم تكن الصور التى تشبه بها [ذلك] لم يكن للمعنى فائدة » (٣) ٠

وعند نقده لبيته الآخر فى وصف فرس :

هَادِيهِ جِذْعٌ مِنَ الْأَرَاكِ وَمَا
خَلْفَ الصَّلَا مِنْهُ صَخْرَةٌ جَلْسُ (٤)

بين خصوصية المشبه به فقال : « انما اختار الطائى جذع الأراك لأنه أملس » (٥)

أما بيانه الصفة الدالة فى المشبه به فيبدو فى قوله عن هذا الشطر من (السقط) :

لَيْلِى كَمَا قُصَّ الْغُرَابُ خِلَالَهُ

« الليل يشبه بالغراب ، وانما جعله مقصوصا لطول الليل عليه ، فكأنه ساقط لا ينهض » (٦) ٠

على أنه قد التفت فى تحليله أحيانا ، الى مزية التشبيه وأثـره فى المعنى ، وذلك حيث يقول عن بيت الحماسى :

وَأَلَدَّ ذِى حَنَقٍ عَلَىَّ كَأَنَّمَا تَغْلِى عَدَاوَةُ صَدْرِهِ فِى مِرْجَلِ

« ألد : شديد الخصومة ... والحنق : شدة الغيظ ... يقول : رب خصم شديد الخصومة ، ذى غيظ وغضب على ، تغلى عداوته فى صدره غليان

(٣) شرح التبريزى لأبى تمام ٢/١٦٧ ٠
(٤) هادية : عنقه ٠ الأراك : شجر السواك ٠ والصلا : واحد الصلوين: عظمان يكتنفان الذنب ٠ جلس : صلبة ثقيلة ٠
(٥) شرح التبريزى لأبى تمام ٢/٢٢٦ ٠
(٦) ضوء السقط ٧١ أ ٠

المرجل بما فيه اذا كان على النار = أنا دفعته عن نفسى ، وقد أخـرج التشبيه مالا يدرك من العداوة بالحس الى مايدركه ، من غليان القدر ، حتى تجلى فصار كالمشاهد » (٧) ٠

كما تعقب السابقين ، مصححا ماوهموا فى فهمه وتذوقه ، على ماحكى التبريزى فى تعليقه على بيت الراجز :

كَأَنَّ أَيْدِيهِنَّ بِالْقَاعِ الْقَرِقْ أَيْدِى جوارٍ يَتَعَاطَيْنَ الوَرِقْ

حيث يقول : « **قال أبو عبيد فى تفسير هذا البيت : شبه بياض أيـــدى الابل ببياض أيدى الجوارى ٠ وقال أبو العلاء وقت قراءتى عليه (غريب الحديث) لأبى عبيد : هذا وهم من أبى عبيد ، يجب أن يكون شبه حمرة أيدى الابل بحمرة أيدى الجوارى الخاضبات ، وذلك أن الابل اذا سارت بالقاع نجلت الحصى بأيديها فد ميت ٠ والقرق : الذى فيه الحصى » (٨)**

هكذا (يجب) ، فى ثقة زائدة ، ورؤية كاشفة لأبعاد الصورة الحقيقية ، فان قوله : (بالقاع القرق) يكون حشوا ، لو كان التشبيه للبياض كما فهم أبو عبيد ، ومع هذا القول ، لابد من حمرة أيدى الابل بنجل الحصى لها ، ومن خضاب أيدى الجوارى لتتم الصورة ، كما فهم المعرى بنظره الثاقب وحسه المرهف ٠

ولا يقف الأمر بأبى العلاء فى التحليل عند حد تذوقه هو ، بل يبين لنا ذوق العامة فى عصره لبعض التشبهات التى أملتها البيئة العربية على القدامى ، ولا تزال تتداول ، من نحو قولهم : « كل الصيد فى جـــوف الفرا » وهو المثل الذى ضربه البحترى لممدوحه فى قوله :

---

(٧) شرح الحماسة للتبريزى ٦٧/١ .
(٨) شروح السقط ٥٢٤/٢ ٠ ونجلت : شقت .

إنْ يَسْمُ إسْحاقُ بْنُ كُنْدَا جيق – لي
أَمَلٌ – فَكُلُّ الصَّيْدِ في جَنْبِ الْفَرا

ثم كان تعليق المعرى عليه : « قولهم : (كل الصيد فى جنب الفرا) يتداول ، ويقال : (فى جنب الفرا) ، و (فى بطن الفرا) . فالفرا – يهمز ولا يهمز – : حمار الوحش ، وهو ولده . ومرادهم بذلك أن الحمار صيد كثير الفائدة ، فيه ماليس فى الغزال والثعلب والأرنب . ويقول القائل اذا أفاد الفائدة : (كل الصيد فى بطن الفرا) ، أى قد وجدت خيرا كثيرا . ولو قيل ذلك لرئيس أو عالم أو من تعرض اليه حاجة لكان حسنا ، لأن المعنى : من لقيك فقد استغنى عن غيرك . ولم تزل العرب تشبه السيد بالفنيق وغيره من الأشياء التى لايرضى الرجل أن يشبه بها ، كاليعسوب والعير ، والعامة الآن يعيبون على الشعراء هذاالنمط، ويقولون : جعل الممدوح كالحمار .. والعامة يقولون للبلد اذا كان فيه قوم يوصفون بالشهامة والمضاء : فى هذه الناحية رتوت ، يعنون المدح . والرتوت : ذكور الخنازير ، واحدها : رت . والخنزير أعظم شأنا من اليعسوب ، وقد شبهوا به كبراء القوم ، ولما رأى على بن أبى طالب [– رضى الله عنه – عبد الرحمن بن عتاب] مقتولا قال : هذا يعسوب قريش .. »(٩)

لكنه وان لم يوافق العامة فى عيبهم مثل تشبيه البحترى ، لعده اياه حسنا = يبدو قريبا منهم فيما بعده ، لعده اياه مما لايرضى الرجل أن يشبه به ، ولتعليقه بأن الخنزير أعظم شأنا من اليعسوب ، ثم اذا كان الخنزير أعظم شأنا من اليعسوب – كما قال – فما الفرق بينه وبين الحمار والفنيق . ؟

---

(٩) عبث الوليد ص ١٠٤ ، ١٠٥ والفنيق : الفحل المكرم. واليعسوب: ذكر النحل . والعير : الحمار .

ومنها : التنويه بما أعجبه والغض مما كرهه :

أما ما أعجبه فثلاثة أنواع :

أحدها : جدة التشبيه لتوليده وابتكاره ، تلك الجدة التى نوه بها فى شعر أبى القاسم المغربى لما أرسله اليه ، حتى فضل تشبيهاته بها على تشبيهات الجاهليين ، فى صفة الناقة والصحراء والخيل ... (١٠)

كما نوه بها فى بيت الطائى :

فَمَدَّ عَلَى الثَّغْرِ إِعْصَارَهَا

بِرَأْيٍ حُسَامٍ وَنَفْسٍ فَضَاءِ

لقوله : « ونفس فضاء ، يريد أنها واسعة مثل الفضاء ، أخذه من قولهم : أرض فضاء . وما يعلم أن أحدا قبل الطائى قال : نفس فضاء ، وكان هذا الفن من الكلام غرضه ودأبه (١١) » .

ثانيها : تركب الصورة ، ذلك التركب الذى نوه فى بيت الطائى الآخر :

أَثَافٍ كَالْخُدُودِ لُطِمْنَ حُزْنًا

وَنُؤْيٍ مِثْلَمَا انْفَصَمَ السِّوَارُ (١٢)

اذ يقول عنه : « **هذا معنى مصنوع حسن ، لأنه جعل الأثا فى مثل الخدود التى لطمت فاثر فيها اللطم ، فكأنه زعم أن الربع أسف لمفارقتهم اياه ، فكأن الأثاقى فى مواقع اللطم ، والنؤى سوار قد فصم ، لأنه يجوز أن تفصم الحزينة سوارها من الأسف ، وجمع بين ذكر اللطم والسوار ، لأنهما من شأن النساء** » (١٣) .

---

(١٠) رسائل أبى العلاء ص ١٧ .

(١١) شرح التبريزى لأبى تمام ٤/١٧ .

(١٢) أثاف : حجارة تنصب عليها القدر . ونؤى : حاجز حول الخباء . وانفصم : انكسر من غير فصل .

(١٣) شرح التبريزى لأبى تمام ٢/١٥٣ .

اذ ليس المقصود فى البيت مجرد تشبيه شيئين بشيئين : أثاف سفعتها النار بخدود أثر فيها اللطم ، ونؤى درس بعضه بسوار متكسر ، كما فهم الصولى والمرزوقى ، وحتى لو فرضنا أن ذلك هو الظاهر أو المقصود ، فليس جمال البيت فى تضمنه تشبيهين مستقلين على هذا النحو ، بل جماله – كما فهم المعرى وبين – فى تركب التشبيهين وتلاحمهما مكونين صورة واحدة ، هى صورة الربع – فيما بقى منه من أثاف متآكلة ، ونؤى متقطع – بازاء صورة امرأة حزينة ، جمع عليها الحزن بين شدة اللطم وفصم السوار ، مع ما يتبع تبادل الأطراف لمواقعها ، من تقارض الصفات والمشاعر ... كأن الربع أسف ، وكأن الأثافى فى مواقع اللطم ، والنؤى سوار قد انفصم .

وهل كان قوله : « وجمع بين ذكر اللطم والسوار لأنهما من شأن النساء » = الا لأنه راد الصورة المركبة . وأعجب بها كما فصلنا ، وانه لعجيب حقا أن يدرك المعرى هنا من أطراف الصورة ، ومواقع التأثير فيها ، والتناسب بين أجزائها مالم يدركه النقاد للبيت ، وما لا مزيد عليه لمستزيد فى القديم والحديث .

وهذه صورة أخرى فى بيته من السقط :

الْقَاتِلُ الْمَحْلِ إذ تَبْدُو السَّمَاءُ لنا
كأنها من نَجِيعِ الْجَدْبِ فى أُزُرِ

يلحظها ويقول عنها : « فى هذا البيت صنعة ، لأن السماء تحمرُّ آفاقها من الجدب ، ولذلك قالوا : سنة حمراء . . . والمعنى : أنه يَقْتُلُ الْمَحْلَ، فـ كأن دَمَهُ قد أصاب السماء، فهى من نجيع المحل فى أُزُرٍ . وهذا كما قال الآخر :

هُمُ الْمُطْعِمُون سَدِيفَ السَّنَا مِ وَالْقَاتِلُونَ اللَّيْلَةِ الْبَارِدَهْ» (١٤)

---

(١٤) ضوء السقط ٨ ب ، ٩ أ والمحل : الجدب : والنجيع : الدم .

قد يكون ما هنا أقل تركيبا وروعة من الصورة السابقة ، لكن قوله : « هنا صنعة » ، ودلالته على هذه الصنعة فى جملة البيت ، دون تشقيق القول ، فى « القاتل المحل » وهو استعارة مكنية أو تبعية ، وفى « تبدو السماء كأنها فى أزر » وهو تشبيه = يعنى بيقين أن نظرة وكلامه هنا أيضا عن الصورة مجتمعة .

وثالثها : كثرة التشبيهات ، تلك التى أشاد بها فى بيتى المتنبى :

وأنتَ أبو الْهَيْجَا ابنُ حَمْدانَ يا ابنَهُ
تَشَابَهَ مَوْلودٌ كريمٌ ووالــــد

وحمدانُ حمدُونٌ وحمْدُونُ حارثٌ وحَارثٌ لقمانٌ ولقمانُ راشدُ

حيث يقول عنهما : « اتفق له فى هذين البيتين مالم يتفق لغيره ، من تشبيه الممدوح بأبيه ، وتشبيه أبيه بجده ، ثم كذلك ، حتى استوفى سبعة فى التشبيه ، وعشرة فى المقابلة » (١٥) .

فهذا التشبيه المتراكب بعضه فوق بعض ، أو المتداخل بعضه فى بعض ، حتى بلغ خمس تشبيهات فى البيتين = آية من آيات قدرة الشاعر النظمية التى أعجبت المعرى وأولاها اهتمامه .

وأما ماغض منه من صور التشبيه فأنواع أيضا :

أحدها : مابعد من المعقول للاسراف فيه ، كتشبيههم البعير بالقصر ، ذلك التشبيه الذي يقول عنه فى (الفصول والغايات) : « أسنمة الابل تشبه بالجلاميد والاكام ، ويسرفون فى ذلك حتى يجعلوا البعير كالقصر ، قال أبو دؤاد :

---

(١٥) الموضح ١/١١٥ .

فَـإذا أَقْبلَتْ تقولُ قُصُـــورٌ

بسمَاهِيجَ فـوقها آطَـــــامُ

وإذا أدْبَـرتْ تقُـولُ إِكَـامٌ مُشْرفاتٌ فوْق الْإِكام إِكـامُ» (١٦)

وثانيها : ماتجاوز المعتاد فى المشبه به ، كذلك الذى كان من المتنبى فى تشبيه الفرس :

شَادِخةٍ غُرَّتُهُ كالشَّارقِ كأَنَّها مِنْ لوْنِهِ فى بَارقِ

باقٍ على الْبَوْغاءِ والشَّقائق .

ونقده أبو العلاء بقوله : « زعم أن البارق الذى شبه به الفرس طال مكثهفى الأرض ، وليس ذلك من عادة البرق » (١٧) .

وثالثها : ماتجاوز المعنويات وأغرق فى الماديات ، كذوق الكثرة من العرب فى محاسن المرأة ، ذلك الذوق الذى لم يعن بوصف محاسنها المعنوية عنايته بوصف وتشبيه محاسنها الحسية ، والذى سخر منه المعرى فى (الغفران) ، اذ يقول عن ابن القارح ـ وقد جعله يسجد اعظاما لله الذى أخرج له من احدى الثمار جارية تمنى بلقائه قبل خلق الدنيا بأربعة آلاف سنة ـ :

« ويخطر فى نفسه ـ وهو ساجد ـ أن تلك الجارية على حسنها ضاوية ، فيرفع رأسه وقد صار من ورائها ردف يضاهى كثبان عالج .. فيهال من قدرة الله اللطيف الخبير ويقـول : يارازق المشرقة سناها ،

---

(١٦) الفصول والغايات ٤١٨/١ سماهيج : موضع بساحل البحر ، آطام : جمع أطم : وهو البناء المرتفع ، الاكام : جمع أكمة : وهى التل من حجر واحد .

(١٧) الموضح ١١٠/٢ وغرة شادخة : ملأت الوجه ولم تشتمل على العينين . والشارق : الشمس . والبوغاء : تراب دقيق . والشقائق : جمع شقيقة : وهى أرض فيها رمل وحصى .

ومبلغ السائلة مناها ، والذى فعل ما أعجز وهال ، ودعا الى الحلم الجهال ، أسألك أن تقصر بوص هـذه الحورية على ميل فى ميل ، فقد جاوز بها قدرك حد التأميل ، فيقال له : أنت مخير فى تكوين هذه الجارية كما تشاء ، فيقتصر من ذلك على الارادة » (١٨) ٠

ان زعمه هذا الذوق لابن القارح ، حتى ليخشى فواته وهو ساجد ؛ ثم تحقيقه على ما أهاله ، ثم على ما أراد = سخرية مابعدها سخرية ٠

ورابعها : ماقصر فيه المشبه به عن مدى الصفة المطلوبة ، أو الكائنة فى المشبه ؟ كتشبيه ابن القارح حنينه الى المعرى بحنين النـوق ، ذلك التشبيه الذى آخذه عليه ، لعدم اتصال هذا الحنين من النوق ، حيث يقول له :

« وكيف يقول الخليل المخلص ـ وهو عن الهجران متقلص ـ : ان حنينه حنين واله من النوق ، وهى الذاهلة ان حمل عليها بعض الوسوق، انما تسجع ثلاثا أو أربعا ، ثم يكون سلوها متبعا » (١٩) ٠

= وكتشبيه ابن المقفع الليل والنهار فى قطعهما للأعمار ، بجرذين قارضين (٢٠) ، فقد استقله المعرى وزاد عليه فى (اللزوميات) ، اذيقول:

وَمَا بَرٌّ مِنْ سَاوَاهُمَا فِى قِيَاسِهِ ببِرَّىْ عُقُوقٍ بلْ هُمَا سَبُعانِ (٢١)

وخامسها : ماتناقضوا فى التشبيه بـه ، كتشبيههم بالابل فى الحنين ، وبها فى غلظ الأكباد ، وهو ما نعاه عليهم بقوله : « هم يصفون أكباد الابل بالغلظ ، فاذا وصفوا أنفسهم بالقسوة شبهوها بأكباد الابل ، قال قتادة بن مسلمة الحنفى :

---

(١٨) رسالة الغفران ٢٨٨ ضاوية : نحيفة . كثبان عالج : تلال من الرمل على طريق مكة ٠ بوص : عجيزه ٠

(١٩) المرجع السابق ٣٨٥ . واله : حزينة ٠ والوسوق : الأحمال ٠

(٢٠) كليلة ودمنة ١٠٠ ٠ والجرذ : ضرب من الفأر ٠

(٢١) لزوم مالا يلزم ٣٧٧/٢ والبران : الجرذان ٠ وملبر : ما صدق ٠

يُبْكَى عَلَينا ولا نَبْكِى عَلى أحدٍ   لَنَحْنُ أَغْلَظُ أَكبادًا من الْإِبِلِ

وقد كثر وصفهم الابل بالحنين والرقة ، ولكنهم يجرون القول على مايتفق فى بعض الاحيان ولا يميزون بين الحالين ، قال متمم :

فما وَجْدُ أَظْآرٍ ثلاثٍ رَوَائِمٍ   رأَيْنَ مَجَرًّا مِنْ حُوَارٍ ومَصرعا" (٢٢)

ولعله من البين بعد ما سبق من تنويهه وغضه أنه فى الأول قد صدر عن حسه الفنى ، على حين صدر فى الثانى - مع ذلك - عن حسه الفلسفى وعن معرفته أيضا .

ومن اتجاهاته كذلك : التنبيه على المسبوق من التشبيهات والمأخوذ كما نبه على الجديد ونوه به . لكنه - كعادته - لا يغض من شأن هذا المسبوق أو المأخوذ ، بل يكتفى بمجرد التنبيه على ذلك ، كقوله عن بيت المتنبى الثانى :

وَجُرْدًا مَدَدْنا بَيْنَ آذَانها الْقَنَا   فَبِتْنَ خِفافا يَتَّبِعْنَ الْعَوَالِيَا

تَمَاشَى بأَيْدٍ كُلَّما لَاقت الصَّفَا   نَقَشْن بِهِ صدْرَ الْبُزَاةِ حَوَافِيَا

« هذه - يعنى (نقشن به صدر البزاة) - كلمة أخذها الشاعر من كلام العامة ، لأن النساء يقلن : (نقشتها الناقشة صدر البزاة) ، يقول : انها اذا وطئت الأرض وهى غير منعلة نقشت فى صفا الأرض نقشا يشبه ذلك المذكور » (٢٣) .

---

(٢٢) الموضح ١٤٣/١ ب أظآر : جمع ظئر ، وهى العاطفة على ولد غيرها المرضعة له . روائم : محبات اليهات . والحوار : ولد الناقة .

(٢٣) المرجع السابق ١٧٧/٣ ب . والجرد الخيل القصيرة الشعر ، العوالى : الرماح . الصفا : الصخر .

وقد يتتبع المأخوذ عند غير شاعر ، مبينـا مازاد بعضهم فيه ، كقوله عن بيت الطائى :

بِمَجَامِعِ الثَّغْرَيْنِ مَا يَنْفَكُّ مِنْ   جَيْشٍ أَزَبَّ وَغَارَةٍ شَعْوَاءِ

« شبه الجيش بالأزب ، وهو الكثير الشـعر ، وانمـا يريدكثرة الرماح ، وهو مأخوذ من قول الأول :

فَلَوْ أَنَّا شَهِدْنَاكُمْ نَصَرْنَا   بذى لَجَبٍ أَزَبَّ مِنَ الْعَوَالِى

وقد شرح أبو الطيب هذا المعنى فى قوله :

صَدَمْتَهُمْ بِخَمِيسٍ أَنْتَ غُرَّتُهُ   وَسَمْهَرِيَّتُهُ فى وَجْهِهِ غَمَمُ» (٢٤)

يعنى أن ما ألم به الطائى ومن سبقه ، فى جملة من بيتيهما ، قد أتى به المتنبى فى بيت كامل ، فزاد بشرح المعنى مع التشبيه .

٢ ـ **الاستعارة** : وحظها من تناوله لا يقل عن حظ التشبيه ان لم يزد ، لا سيما استعارات أبى تمام التى استأثرت بالجانب الأكبر من هذا التناول ، اما لكثرتها ، واما لاقبـاله عليها ، وقبـل أن نقطع فى ذلك ، نسوق هذا المشهد الطريف ، مما أجراه فى (الغفران) ، بين ابن القارح وعنترة ، عندما أخذ الأول على الثانى قوله :

هلْ غادرَ الشعراءُ من مُتردَّمِ (٢٥)

وبين له ان الأمر ليس كما قال ، بل هو كما قال حبيب بن أوس :

فَلَوْ كَانَ يَفْنَى الشِّعْرُ أَفْنَاهُ مَاقَرَتْ
حِيَاضُكَ منه فى الْعُصُورِ الذَّوَاهِبِ

---

(٢٤) شرح التبريزى لديوان أبى تمام ١/١٧ .
لجب : جلبة وصياح . خميس : جيش . سمهريته : رماحه . والغمم : كثرة الشعر واسباله على الوجه .
(٢٥) انظر فيما سبق ص ١٤١ ، ١٤٢ .

ولكنه صَوْبُ العقولِ إذا انجلتْ
سَحائِبُ منه أُعقِبَتْ بِسحائبِ

فيقول [عنترة] : وما حبيبكم هذا ؟ فيقول : شاعر ظهر فى الاسلام ، وينشده شيئا من نظمه .

فيقول : أما الأصل فعربى ، وأما الفرع فنطق به غبى ، وليس هذا المذهب على ماتعرف قبائل العرب .

فيقول ــ وهو ضاحك مستبشر ــ : انما ينكر عليه المستعار ، وقدجاءت العارية فى أشعار كثير من المتقدمين ، الا أنها لا تجتمع كاجتماعها فيما نظمه حبيب بن أوس » (٢٦) .

اذ الظاهر من كلام عنترة أن المعرى ينكر مذهب أبى تمام ، ومن رد ابن القارح أن هذا الانكــار للمســتعار ، من حيث كثرته وزيادته ، لا من حيث وروده ، فقد ورد فى شعر المتقدمين .

والحقيقة أن هذا الانكار ليس برأى أبى العلاء ، انما هو تمثيل لرأى الجاهلى كعنترة ، والخصم لأبى تمام كابن القارح = فى مذهبه الجديد ، فالجاهلى لابد أن ينكر هذا المذهب لتجاوزه ماعرف كثيرا ، وابن القارح الذى عد الشاعر من الزنادقة ، لم يكن يسع المعرى أن يجرى على لسانه الا ماردد خصوم أبى تمام ، من كثرة استعاراته وتجاوزها .

فهل كان المعرى جاهليا أو خصما للشاعر حتى يكون هــذا رأيه ؟

كلا ! بل كان معجبا به أيما اعجاب ، حتى سمى كتابه فى شعره (ذكرى حبيب) ، وحتى كاد لا يخطئه فى اللغة ، بل خطأ من خطأه

---

(٢٦) رسالة الغفران ٣٢٣ ، ٣٢٤ .

كما أسلفنا ، وحتى تأسف عليه بعد هذا الحوار فى (الغفران) ، أن يصير الى النار ، وقد كان صاحب طريقة مبتدعة ، ومعان كاللؤلؤ متتبعة ، أى مذهب فى الصنعة جديد ، ومعان كاللآلىء حيزت ـ بعد الغوص ـ من المرام البعيد • وهنا نلتقى برأيه الصريح فى مذهب أبى تمام ، اذ لا معنى لتأسفه عليه من أجل مذهبه ومعانيه الا الاعجاب بهما •

واذا كانت الاستعارة أخص فنون هذا المذهب ، فهى اذن بموضع الاعجاب لا الانكار ، وهو الاعجاب الذى سنرى سره ومداه فى تناوله لشعره ، وليست الاشارة الى كثرتها فى الحوار السابق الا تقريرا لواقع لا انكار فيه خلافا لمن فهم ذلك (٢٧) • بل كأنه كان يعنى ماهنا فى قوله الآخر :

وجدتُ عوارىَّ الحياة كثيرة

كأنَّ بقاء المرءِ شعرُ حبيب (٢٨)

حيث جعل شعر حبيب مثلا فى كثرة العوارى ، أى الاستعارات = لبقاء المرء وما يتخلله من عوارى الحياة ، أى صروفها أو ما يتداول فيها • وانما قلت : كأنه كان يعنى ماهنا ، لأنه لايبعد أن يكون عنى بالعوارى فى شعر حبيب ما اعتوره من تصحيف وتحريف ، كانت كثرتهما فى هذا الشعر عنده ـ كما أسلفت ـ أربى من كثرة استعاراته التى ذكرها النقاد •

---

(٢٧) الدكتور محمود الربداوى فى دراسته : الحركة النقدية حول مذهب أبى تمام ص ٤٤٤ ط بيروت •

(٢٨) لزوم مالا يلزم ١/١١٨ • والعوارى : جمع عارية ـ بتشديد الياء وتخفيفها فيهما ـ وهى ما يستعارو يتداول بين الناس •

واذا كان من أثر لهذه الكثرة فى موقف أبى العلاء ، فهو أنها ـ كاعجابه ـ قد زادت من تقريه ومناحى تذوقه لهذه الاستعارات على النحو الذى نأخذ فى تفصيله :

وأول مانشير اليه من ذلك : اتجاهه الى تحقيقها لشعر الطائى ، مع امكان حمله على غيرها ، كذهابه فى (الحقب) من قوله ؟

لَقَدْ أَخَذَتْ مِنْ دَارِ مَاوِيَّةَ الْحُقُبُ

الى أن يكون « أراد بها الأزمان المتأخرة ، شبه الواحد منها بحقيبة الرجل ، لأن شعره معدن الاستعارة ، ثم جمع حقيبة على حقب ، مثل صحيفة وصحف » (٢٩) ، فقد ذهب الى ذلك مع ذهابه قبله الى أن (الحقب) برهة طويلة لاحد لها .

وكما كان وعيه الواثق هنا بأن شعره معدن الاستعارة ، كان تحديده الدقيق فى موضع آخر لمذهبه فيها : « بأنه يستعمل اللفظة على معنى المستعارة فيما بعد من شكلها ، ويجعل المرئى كغيره مما لا يدركه النظر » (٣٠) .

ولعل فى هذا التحديد لمذهبه فيها ، بعد التقرير لأن شعره معدنها = تأييدا لما رجحنا من اعجابه بها ، لأن تصورها على أنها مذهب متميز يعنى تقبله لها من حيث هى شئ آخر جديد ، لا شئ مخالف لما عرفه العرب ، كما فهم خصوم أبى تمام ، لا سيما الآمدى ، فعابوا صاحبها لذلك .

وثانى مانشير اليه : اتجاهه الى الدلالة عليها وبيان أصلها ، مما لم يقتصر فيه على استعارات الطائى ، وهو كثير ، لا يعنينا منه الا فهمه لها ، ومعتمده فى الحكم بها .

---

(٢٩) شرح التبريزى لأبى تمام ١/١٨٤ .
(٣٠) المرجع السابق ٢/٤٠٧ .

أما فهمه لها فعلى الرغم من صحته ودقته الغالبين قد اضطرب أحيانا ، كقوله عن بيت المتنبى :

وَمُرْهَفٍ سِرْتُ بَيْنَ الْمَوْجَتَيْنِ به حَتَّى ضَرَبْتُ وَمَوْجُ الْمَوْتِ يَلْتَطِمُ

« جعل نفسه سائرا بين الموجتين ، أى بين القرنين يخاف منهما الموت». اذا الظاهر أنه لم يعن بالموجتين القرنين ، انما عنى بهما الكتيبتين ـ كما قرر ابن معقل ـ (٣١) وهو الصحيح ...

وأما معتمده فى الحكم بها فهو العرف اللغوى ، يبدو ذلك من ترديده : الأصل أو المعروف فى هذا اللفظ كذا .. واستعاره لكذا ... كما يبدو ـ وهو أهم ـ من تقبيحه الاستعارة اذا تجووز بها العرف أو المعتاد ، حيث يقول عن بيتى المتنبى :

ففى فؤاد الُمحبِّ نَارُ هَوًى أَحَرُّ نار الجحيم أَبْرَدُهَا

شَابَ مِنَ الهجر فَرْقُ لِمَّته فَصَارَ مثلَ الدِّمَقس أَسْوَدُهَا

« الأحسن أن تكون الهاء فى لمته راجعة الى المحب ... وذهب بعض الناس الى أن الهاء راجعة الى الفؤاد ، وليس ذلك بحسن ، لأنه يجعل للفؤاد لمة ، وتلك استعارة ليست بحسنة ، لأن العادة جرت بأنهم لا يستعملون اللمة الا فى الشعر » (٣٢) .

هذا الاحتكام الى العرف أو العادة فى تقبل الاستعارة والحكم بها نزولا على وضعية اللغة = كان ولا يزال من أقوم الأسس فى الحكم بالاستعارة والمجاز وفى تذوقهما ... » (٣٣)

والثالث : استكناه خصوصيتها أو مزيتها ، من نحو قوله عن بيت الطائى :

---

(٣١) المآخذ ١٦٤ أ .

(٣٢) الموضح ١٢٣/١ أ . واللمة : الشعر الملم بالمنكب . **والدمقس**: الحرير الأبيض .

(٣٣) النقد الأدبى الحديث ص ٢٤٨ وما يليها .

فَسَقَاهُ مِسْكَ الطَّلِّ كَافُورُ الصَّبَا   وَانْحَلَّ فِيهِ خَيْطُ كُلِّ سَمَاءِ

« فى هذا البيت ثلاثة أشياء مستعارات : المسك والكافور والخيط ، والطل : أضعف المطر ٠ وانما خصه بالمسك لأن المطر الضعيف اذا أصاب التراب فاحت له رائحة طيبة ، فكيف به اذ أصاب الروض ؟ وجعل الكافور مستعارا للصبا لأنه أراد بردها ، وجعلها سببا لمجىء الطل ، فجمع بين شيئين متضادين من الطيب ، وهما الكافور والمسك ، لأن أحدهما بارد ، والآخر حار ٠ وقوله (وانحل فيه خيط كل سماء) : أراد بالسماء المطر ، وكنى بانحلال الخيط عن وقوع الغيث ، لأن الشىء اذا كان مشدودا بخيط فانحل أدى ذلك الى سقوطه وتبدده ، وأصله فى القربة ٠ » (٣٤)

أما التفاته الى مزيتها فنحو قوله عن بيت الطائى الآخر :

غَيْدَاءُ جَادَ وَلِيُّ الْحُسْنِ سُنَّتَهَا   فَصَاغَهَا بِيَدَيْهِ رَوْضَةً أُنُفَا

« استعار (ولى الحسن) من المطر الولى ، وهو الذى يجىء بعد الوسمى ، لأن من شأن النبت أن يكثر اذا أصابه الولى بعد الوسمى ، فدل بقوله (ولى الحسن) على أن الجمال فى هذه المذكورة عميم » (٣٥) ٠

والرابع : الاحتجاج لها بنظائرها فى القرآن أو الحديث أو الشعر ، كقوله عن بيت الطائى :

مَنْ مُبلغٌ أفناءَ يَعرُبَ كلَّها
أنى ابتنيتُ الجارَ قبلَ المنزلِ (٣٦)

« جعل الجار يبتنى كما تبتنى الدار ، وهذا مجانس لقوله تعالى : (**ومكروا ومكر الله** [آل عمران : ٥٤] ، لأنه جعل جزاءهم على المكر

---

(٣٤) شرح التبريزى لأبى تمام ٢٨/١ ٠

(٣٥) المرجع السابق ٣٦١/٢ الغيداء : المتثنية لينا ٠ وروضة أنف : جديدة لم ترع ٠ والوسمى : مطر الربيع الأول ٠ والسنة هنا : الوجه أوحره أو دائرته ٠

(٣٦) أفناء يعرب : أخلاطها

مكرا ، وكذلك الجار لما كان حالا الى جانب الدار جاز أن يستعار له ماهو لها فى الحقيقة » (٣٧) .

وكقوله عن بيت المتنبى :

بِقَائِى شَاء لَيْسَ هُمُ ارْتِحَالاً وَحُسْنَ الصَّبْرِ زَمُّوا لاَ الجِمَالاَ

« ادعى أنهم زموا حسن الصبر ، واستعار للصبر الزم ، وانما أصله للابل ، وقد جاء فى الحديث عن بعض الصحابة : (ما تكلمت بكلمة منذ كذا حتى أزمها وأخطمها) ، فاستعار الزمام للكلمة ، وكل شىء منعته من التصرف فقد زممته » (٣٨) .

أما الاحتجاج لها بالشعر فكقوله عن بيت الطائى :

وَمَلآنَ مِنْ ضِغْنٍ كَوَاهُ تَوَقُّلِى إِلَى الْهِمَّةِ الْعُلْيَا سَنَامًا وَغَارِبَا (٣٩)

« أى قد امتلأ من الحقد ، وهذا مستعار ، لأن الضغن عرض لا يمتلىء به الجسد ،ولكن وصفه بالكثرة ، وهذا كما قال الراجز :

يَا أَيُّهَا ذَا النَّابِحِى نَبْحَ القَبَلْ . . . .
وَقَدْ مَلأْتُ بَطْنَهُ حَتَّى أَتَــلْ غَيْظًا فَأَمْسَى ضِغْنُهُ قَدْ احْتَمَلْ » (٤٠)

---

(٣٧) شرح التبريزى لأبى تمام ٤٩/٣ .

(٣٨) الموضح ١٢/٣.أ ، والمآخذ ١٥٤ ب .

(٣٩) التوقل : من قولهم : توقل فى الجبل : صعد فيه . والغارب : ما قدام السنام .

(٤٠) شرح التبريزى لأبى تمام ١٤٨/١ . والقبل : الجبل . وأتل : اذا قارب الخطو من الغضب .

والخامس : التمييز بين جديدها ومسبوقها : كان ذلك أكثر ماكان فى استعارات الطائى ، اذ عقب على نحو عشرة منها ـ فيما تقصيت ـ بقوله : ولم يستعر ذلك من قبل الطائى ... أو قوله : لعله لم يوصف بذلك قبل الطائى .. فعلى هذا البيت مثلا :

حَلْيُ الضَّنِيعَةِ أَنْ يَكُونَ لِرَبِّهَا لَفْظٌ يُحَسِّنُهَا وطَرْفٌ قُلْقُلُ

كان تعليقه : « طرف قلقل : أى طرف يتردد الى المسلم ويكرر فيه . وأصل القلقل : الكثير الحركة ، ولم يستعر ذلك من قبل الطائى » (٤١)

ولقد كانت كثرة هذه التنويهات مثار ضجر ابن المستوفى ، حتى انه علق على بعضها بقوله : « مايزال أبو العلاء يكرر هذا القول فى استعارات أبى تمام ، وأبو تمام أكثر من استعمال الاستعارة ، فأتى بالجيد النادر ، والردىء المستهجن » (٤٢) .

على أن المعرى قد أصاب شيئا من ذلك التجديد للمتنبى ، ونوه به أيضا ، وذلك فى قوله عن ثانى بيتيه :

وَمَا عَاقَنِى غَيْرُ خَوْفِ الْوُشَا
ةِ وأَنَّ الْوِشَايَاتِ طُرْقُ الْكَذِبْ

وتَكْثِيرُ قَوْمٍ وتَقْلِيلُهُمْ
وتَقْرِيبُهُمْ بَيْنَنَا والْخَبَبْ

« استعار التقريب والخبب للوشاة ، لانهم يوصفون بالمشى والسعى ، ومنه قوله تعالى : (مشاء بنميم) (٤٣) ... ولعل التقريب والخبب لم

---

(٤١) المرجع السابق ٥٨/٣ . وانظر أيضا ٣٣/١ ، ٥٤ ، ١٤٣ ، ١٧٧ ، ١٨٠ ، ٢٤٣/٢ ، ٣٨٩ ، ٧٢/٣ .
(٤٢) المرجع السابق هامش ٣٨٩/٢ .
(٤٣) سورة القلم : ١١ .

يستعارا قبل أبى الطيب للوشاة » (٤٤) .

أما ماعدا ذلك ــ أى المسبوق ــ فقد كان متيقظا لعامه وخاصه ، إذ كثيرا ما عقب على بعض استعارات الطائى بأنها قديمة ، أو بأنها ليست مما استعاره ، أى ابتدعه ، من نحو قوله عن بيته :

لاَ يَأْسَفُونَ إِذَا هُمُ سَمِنَتْ لهم أَحْسَابُهُمْ أَنْ تَهْزَلَ الأَعْمَارُ

« استعار السِّمَن للأحساب ، وهي استعارة قديمة قال الشاعر :

رُبَّ مَهْزُولٍ سَمِينٍ عِرْضُهُ وسَمِينِ الْجِسْمِ مَهْزُول الحسب

... » (٤٥)

كما عَقَّبَ على أخرى ببيان مصدرها ، فقال مثلا عن بيته الآخـر :

صَبَّحْتُهُ بِسُلاَفَةٍ صَبَّحْتُهَا بِسُلاَفَةِ الْخُلَطَاءِ وَالنُّدَمَاءِ

« السلافة الأولى مُرادٌ بها الخمر . . . والسلافة الثانية على معنى الاستعارة ، جعل الذين صَبَّحَ بهم هذه السُّلافَةَ سُلاَفَةَ مَنْ خَالَطَ وَنَادَمَ ، أي أَفْضَلَهم ، وهذا من قول أبى نواس :

الرَّاحُ طَيِّبَةٌ وَلَيْسَ تَمَامُهَا إلا بطيب خَلاَئِقِ الْجُلاَّس ».

وكأني به فى تيقظه للمسبوق وتنبيهه عليه عند الطائى ، يحاول أن يصل أسبابه فى هذا المضمار بأسباب السابقين ، ليبين اتصاله بهم وجريه على منوالهم ، وليقلل من مسافة الخلف المدعاة بين مذهبه وطريقهم . لكنه على الرغم مما سبق لم يدع أغرابه ، ولم يسكت عن تجاوزه ،

---

(٤٤) الموضح ٣٨/١ والتقريب والخبب : ضربان من العَدْو ثانيهما أسرع .

(٤٥) شرح التبريزى لأبى تمام ١٧٦/٢

(٤٦) المرجع السابق ٢٩/١ ، ٣٠ .

بل تنبه لكليهما ، ودل عليه ، ولن حاول الاعتذار عن بعضه . ولنقرأ مثلاً قوله عن بيته :

تَلْقَى السُّعُودَ بِوَجْهِهِ وتُحِبُّهُ
وَعَلَيْكَ مَسْحَةُ بِغْضَةٍ فَتَحَبَّبُ

« مسحة بغضة : مستعار ، يقال عليها مسحة من الجمال ، أى هى جميلة جمالا ليس بمفرط ، لأن مسح الشيء لا يوجب كثرة تعلقه بالماسح ولا الممسوح ، وحق ذلك أن يستعمل فى المرئيات ، والبغضة لا ترى فى الحقيقة ، والجمال مرئى » (٤٧) .

فمع انه لايكاد يقر استعارته هنا يبدو كالمعتذر عنه فى نقده لبيته الآخر :

بيَوْمٍ كَطُول الدَّهْر فِى عَرْض مِثْله
وَوَجْدِىَ مِنْ هَـذَا وَهَـذَاكَ أطْوَلُ

اذ يقول : « لما جعل للدهر طولا وصله بالعرض على معنى الاستعارة . ولا حقيقة بأن يوصف الدهر بذلك ، انما هو طويل لاغير ، فاما العرض فانما هو على الأماكن وماجرى مجراها ، فأما الدهر فطويل ماعلم أن أحدا قبل الطائى وصفه بالعرض ، ولكنه لما تقدم ذكر الطول استجاز أن يجىء بالعرض » (٤٨) .

ولعله لم يحاول الاعتذار عن هذا البيت الا لأن حملة الآمدى عليه كانت زائدة ، اذ سود فى نقده وتقبيحه ست صفحات ، وعده من احالاته » (٤٩) ...

٣ ـ المثل : لا نعنى فقط ماشبه مضربه بمورده ، لأنه هو نفسه لم يقتصر على ذلك ، بل أطلقه أحيانا على بعض صور الاستعارة ، وعلى

---

(٤٧) شرح التبريزى لأبى تمام ١/ ١٤٠ .
(٤٨) المرجع السابق ٣/ ٧٢ .
(٤٩) الموازنة ١/ ١٨٧ ـ ١٩٣ .

بعض صور المجاز العقلى ، وكان له فى تذوقه واستكناه مزيته ما ينبىء عن دقة حسه وعمق درايته ، مثال ذلك ـ فيما هو من الاستعارة ـ قوله عن بيت الطائى :

حَمَلَ الْعِبْءَ كَاهِلٌ لَكَ أَمْسَى
لِخُطُوبِ الزَّمَانِ بِالْمِرْصَادِ

« الكاهل : مركب العنق فى الظهر ، وهذا مثل استحسنته العرب على ممر الدهور ، وأصله لغير الآدميين ، لأن الاثقال تحملها الابل وماجرى مجراها » (٥٠) ..

= وقوله أيضا عن بيت المتنبى :

فَبِي فَاتَتْ الْعَدْوَى مِنَ النَّاسِ عَيْنُهُ
فَمَا أَرْمَدَتْ أَجْفَانُهُ كَثْرَةُ الرُّمْدِ

« انما ضرب الرمد ههنا مثلا لما فى الناس من العيوب ، أى ان فيهم البخلاء والجبناء ومن هو قليل اللب ، فما أعدوه بما فيهم من الأشياء المذمومة » (٥١) ..

= ومثاله ـ فيما هو من المجاز العقلى ـ قوله عن بيت الطائى :

تَكَادُ عَطَايَاهُ يُجَنُّ جُنُونُهَا
إِذَا لَمْ يُعَوِّذْهَا بِرُقْيَةِ طَالِبِ

« جن جنونها : مثل وضع للمبالغة ، يقال جن جنونها وجاع جوعها ، والجنون فى الحقيقة لايجن ، وكذلك الجوع لايجوع ، ولكنهم يريدون به الشدة والافراط » (٥٢) ..

---

(٥٠) شرح التبريزى لأبى تمام ٣٦٧/١ .
(٥١) الموضح ١٧٨/١ أ .
(٥٢) شرح التبريزى لأبى تمام ٢١١/١ .

. فكما لفت الى المكانة التاريخية للأول والدلالة الفنية للثانى والثالث بين متحى التجوز فى جميعها . ولعله لم يحمل هذه الصور على المثل ـ ولا مورد لها فى الحقيقة ـ الا لشبهها به فيما يبدو ، من حيث الاشتهار وقوة الدلالة ، أو لعلها طبيعة العصر التى لم تعرف التفرقة الدقيقة بين هذه الأنواع .

٤ ـ **المجاز** : كالمثل ، توسع فى اطلاقه دون تمييز فى هذا الاطلاق ، وان تميز ما عناه به ، يبدو ذلك من قوله عن بيت المتنبى :

أَهْلاً بِدَارٍ سَبَاكَ أَغْيَدُهَا
أَبْعَدُ مَا بَانَ عَنْكَ خُرَّدُهَا

« هذا البيت فيه مجاز واتساع ، لأن العادة جرت بأن يقال : أهلا بفلان للقادم لا الذى يقدم عليه ، ولكن لما جعلها سارة له كما يسر القادم المحبوب جاز أن يقول لها ذلك » (٥٣) .

= كما يبدو من دفاعه عن بيتيه :

لَعَلَّ قِرَانَ هَذَا النَّجْمِ يَثْنِى
إِلَى طُرُقِ الْهُدَى أُمَمًا حَيَارَى
فَقَدْ أَوْدَى بِهِمْ سَغَبٌ وَظَمْءٌ
وَأَيْنُقُهُمْ بِمَتْلَفَةٍ حَسَارَى

« المعنى : لعل الله يهديهم بطلوع هذا النجم ، وهذا على المجاز ، كما تقول أحسن الى يوم الجمعة ، ولم يحسن اليك ، وانما ذلك الاحسان من الله فيه ، وهو كقولهم : ليل نائم ، وانما ينام فيه ، قال الراجز :

---

(٥٣) الموضح ١/١٢٢ أ والأغيد : الناعم . والخرد : الأبكار .

فَنَامَ لَيْلِى وتَجَلَّى هَمِّى
وقَدْ تُجَلَّى كُرَبُ الْمُغْتَمِّ

وقال جرير :

فَقَدْ لُمْتِنَا يَا أُمَّ غَيْلَانَ فِي السُّرَى
ونِمْتِ ومَا لَيْلُ الْمَطِىِّ بِنَائِمِ

...» (٥٤)

حيث عد التعبير فى الموضعين من المجاز ، دون تمييز بين كونه استعارة مكنية فى الأول ، ومجازا عقليا فى الثانى ، مما كان بعده فيما يبدو .

٥ ـ **السجع** : أحد فنون البديع التى أقبل عليها واستخسنها ان لم يكن أهمها ، يبدو ذلك بوضوح ، فى مناظرته لداعى الدعاة ، الذى طلب من المعرى أن يتجنب السجع فى كلامه ، حقى لا يعمى عليه مراده = حيث احتج للسجع بحجج :

أولاها : أن الناس فى الاسلام قد استحسنوا السجعات ، وكثرت فى خطبهم ومراسلاتهم ، فقلما يخطب بخطبة على منبر الا وفيها سجع .

وثانيتها : أن بعض الملوك قال لبعض الفقهاء : بلغنى أنك تحب السجع ، فقال نعم ، وقرأ عليه آيات من قوله تعالى : (والشمس وضحاها) (٥٥) ، والفواصل التى جاءت فى الكتاب الأشرف على ضروب ، منها : ماهو متباعد لا يجرى مجرى السجع ، وفيه مايجرى

---

(٥٤) زجر النابح ص ٢٠ .
(٥٥) سورة الشمس آية ١ .

مجرى المسجوعات ، كقوله تعالى : (والفجر ، وليال عشر ، والشفع والوتر) (٥٦) وكذلك قوله : (ألم تر كيف فعل ربك بعاد) (٥٧) .

وثالثها : أنه لو علمت الحمائم الساجعة أن الله أو نبيه ﷺ يكره سجعها على الغصون لخرست عنه وتبرأت منه ... وانما كرهه عليه السلام ـ يعنى فى قوله : أسجعا كسجع الجاهلية ـ لأنه قد كثر فى كلام الكهان ، فنهى عنه غير محرم له ، وقد روى عنه كلام مسجوع فى حديث جرير بن عبد الله البجلى ، منه قوله لما سأله عن المرعى والماء : (خير الماء الشبم ، وخير المرعى السلم ، اذا سقط صار درينا ، واذا خبط جعل لجينا) (٥٨) .

٦ ـ الجناس : ايضا مما توخاه ونوه به فى النص ، اذ كان ترجيحه الرواية فى غير موضع مما سبق = لتحقيقها اياه ... واذ كان تعليقه على هذه العبارة من (الفصول والغايات) :

« سَقَطَ فَارِسٌ أَسَدٌ، عَلَى فارِسٍ أَسْأَدَ ، دَارعٌ لِبَدٍ، على دُارعٍ زرَدٍ »

= قوله : « الفارس الاول : الاسد ، من فرس الفريسة ، والفارس الثانى : من الفروسة على الخيل . واذا خففت الهمزة من (أسـاد) ، فقلت (أسد) ، كان أحسن فى صناعة النظم والنثر ، على رأى من يرى التجنيس » (٥٩) ..

---

(٥٦) سورة الفجر آية ١ ، ٢ ، ٣ .
(٥٧) سورة الفجر آية ٦ ، يعنى هذه الآية وستا بعدها .
(٥٨) الغفران ورسائل أخرى ٤٣٠ ، والشبم : البارد . والسلم : شجر . والدرين : ما يبس من الورق وحطام الشجر . واللجين : الورق المدقوق المخلوط بدقيق أو شعير للعلف .
(٥٩) الفصول والغايات ١/١٩٨ ــ ٢٠٠ .

٧ ـ **التورية** : كثيرا مانوه بها ، ونزع فى التفسير الى مايحققها ، ففى تحليله لبيت الطائى :

إِذَا عَلَا طَوْدَ مَجْدٍ ظَلَّ فِي نَصَبٍ
أَوْ يَعْتَلِي مِنْ سِرَاهُ ذِرْوَةً شَعَفَا

نجد قوله : « والشعف : أعالى الجبال ، والذروة : أعلى كل شىء ، وأن يكون جمع شعفة الجبل أبين من أن يحمل على أنه شعف بالشىء فهو مشعوف ، الا أن هذا الوجه يدخل فى باب التورية ، فيكون أحسن ... » (٦٠)

= وفى نقده لبيته الآخر :

سَيَبْتَعِثُ الرِّكَابَ وَرَاكِبِيهَا
فَتًى كَالسَّيْفِ هَجْعَتُهُ غِرَارُ

يقول : « هذا معنى حسن لطيف ، وهو نحو من التورية ، لأنه ذكر السيف ، ثم ذكر الغرار ، وهو يريد النوم القليل ، والسيف له غرار ، فهذا المعنى الذى قصده الطائى » (٦١) .

فحمل الشعف فى البيت الأول على شعف القلب ، للتورية عنه بالمعنى الآخر الأقرب = أحسن وأدخل فى الفن ، وكذلك كانت ارادة النوم القليل بالغرار ، مع أن الاحتمال الأقرب غرار السيف بقرينة السياق ..

٨ ـ **المقابلة** : وعنايته باستخراجها والدلالة عليها فى شعر الطائى واضحة فى غير موضع ، كما هو واضح أيضا ميله اليها وكلفه بها من تنويهه بجديدها عنده ، فى نحو قوله عن بيته السابق :

---

(٦٠) شرح التبريزى لأبى تمام ٣٦٣/٢ . وشعف بالشىء : شغف به وأحبه .

(٦١) المرجع السابق ١٥٥/٢ .

لا يأسفون إذا هم سمنت لهم

أحسابهم أن تهزل الأعمار

« ... وقابل سمن الحسب بهزال الأعمار ، ولم يستعمل ذلك فى العمر قبل الطائى ، إلا أن يكون شيئا غير مشهور » (٦٢) .

٩ ـ **مراعاة النظير** : أيضا مما عنى باستخراجه واللفت إليه ، وإن لم يسمه بهذا الاسم ، وقد دل على استحسانه له بقوله عن بيتى الطائى :

قد كسانا من كسوة الصيف خرق

مكتس من مكارم ومساع

حلة سابرية ورداء

كسحا القيض أو رداء الشجاع (٦٣)

« هذا فن من صناعة الشعر ، وذلك أنه ذكر (الكسوة) ثم قال (خرق) ، والخرق : من لفظ التخريق ، وهو أحسن من أن يضع فى موضع الخرق غيره ، فيقول : ندب ، أو نجد ، أو نحو ذلك » (٦٤) .

١٠ ـ **الطاعة والعصيان** : هذا هو الفن البديعى الذى استنبطه من شعر المتنبى ، وسماه بهذه التسمية دون سبق ، عند نظره فى بيته :

يرد يدا عن ثوبها وهو قادر

ويعصى الهوى فى طيفها وهو راقد

وتفسيره كما قال فى كتابه : (معجز أحمد) : « أن يريد المتكلم معنى من

---

(٦٢) المرجع السابق ١/١٦٧ .

(٦٣) الخرق : سخى . سابرية : رقيقة . سحا القيض : ما تحت القشر الأعلى من البيضة . الشجاع : الحية .

(٦٤) شرح التبريزى لأبى تمام ٣٤١/٢ . والندب : الخفيف فى الحاجة . والنجد : الشجاع الماضى فيها يعجز غيره (القاموس : ندب ، نجد) .

معانى البديع ، فيستعصى عليه لتعذر دخوله فى الوزن الذى هو آخذ فيه ، فيأتى موضعه بكلام غيره يتضمن معنى كلامه ويقوم به وزنه ، ويحصل به معنى من البديع غير المعنى الذى قصده ، كهذا البيت الذى ذكرته ، فانه أراد أن يقول :

يَرُدُّ يدًا عن ثوبها وهو مستيقظ

حتى إذا قال :

ويَعْصِى الهوى فى طيفها وهو راقد

يكون فى البيت مطابقة ، فلم يطعه الوزن ، فيأتى (بقادر) مكان (مستيقظ) ، لتضمنه معناه ، فان القادر لايكون الا مستيقظا وزيادة ، فقد عصاه فى البيت الطباق ، وأطاعه الجناس ، لأن بين قادر وراقد جناس عكس » (٦٥) .

وعن أبى العلاء أخذ البلاغيون والنقاد هذا اللون ، لكن ابن أبى الاصبع خاصة ، على الرغم من تنويهه باستنباط المعرى ، واعجابه بتسميته لرشاقتها = لم يوافق على وجود (الطاعة والعصيان) فى بيت المتنبى ؛ لأنه — فى زعمه — كان يمكنه أن يقول (ساهرا) بدل (مستيقظ) دون عصيان الوزن ، فعدل الى (قادر) تحقيقا لطباق المعنى وجناس العكس معا ، وكان الشاهد الصحيح على (الطاعة والعصيان) عنده قول الآخر :

إنّ الثمانين — وبُلِّغْتَها —
قد أحْوَجَتْ سَمْعِى إلى تُرْجُمَان

حيث عصته المساواة ، وأطاعه غيرها من البديع الذى سماه ابن أبى الاصبع (الزيادة والنقص) :

---

(٦٥) تحرير التحبير ص ٢٩٠ وما يليها .

وهذه ـ فيما يبدو ـ مماحكة لفظية لا طائل تحتها ، لأن تكلفه طباق معنى مع جناس عكس فى البيت غير واضح ، ولأن ما استشهد به لا يتفق مع الحد الذى نقله عن المعري لهذا الفن ، وهو أن يكون العصيان من فن بديعى والطاعة من آخر ، اذ ليست المساواة التى عصت فى شاهده من أصباغ البديع على الاطلاق ، هذا الى أن مازعمه فى شاهده من ألوان البديع يبدو فى غاية التكلف ٠

* * *

على أننى بعد هذا العرض لما وجدت لأبى العلاء فى تذوق الصنعة ونقدها = أقرر أن الذى عرضته ليس كل ألوان الصنعة التى تناولها ، فقد تناول غيرها ، كالكناية والمجاز والطباق ، مما لم أذكره لاقتصاره فيه على مجرد الشرح دون نقد واضح ٠

وانما اقتصرت فى عرض ماعرضت من وجوه الصنعة على الوجه النقدى لها ، دون التجاوز الى مناحيها البلاغية والاصطلاحية ، لأنه كما يبدو من تذوقه ونقده قد نظر اليها وتناولها على أنها قيم نقدية لا بلاغية ، فاذا استثنينا حده (للطاعة والعصيان) وجدنا اشارته اليها بمجـــرد الاسم أحيانا ، ودون التسمية أحيانا أخرى ، ووجدنا الصفة الجامعة لها عنده أنها من صنعة الشعر ، وذلك قوله مما ذكرنا : « فى هذا البيت من الصنعة كذا ٠٠ أو هذا فن من صناعة الشعر ٠٠ أو هذا معنى مصنوع » ، = وقوله مما لم نذكره عن (التورية) : « هذا ضرب من صناعة الشعر يسميه أصحاب النقد التورية » (٦٦) ٠

فالاستعارة ـ على هذا ـ والتشبيه والتورية وغيرها من الفنون ضروب من صناعة الشعر ، وأصحاب النقد هم الذين يسمون أو سموا هذه الألوان ، أى أنها قيم نقدية لا بلاغية ، على الأقل الى هذا العصر الذى نلتقى فيه بأبى العلاء ٠ وهذا صحيح ، لأن التمييز بين الوجه النقدى فى هذه القيم والوجه البلاغى لم يكن قد اتضح بعد ، وعلينا أن ننتظر

---

(٦٦) شرح التبريزى لأبى تمام ١/ ٣٥ ٠

قرنا آخر ، لنرى هذه الألوان تنماز عن النقد ، وتستحيل - فى اطار المصطلحات - الى شىء آخر أصبح يسمى (البلاغة) ، بدليل ما نجده لأبى العلاء ثم لابن المستوفى - أحد علماء القرن السابع - عن جناس أبى تمام : (عواص عواصم) ، حيث ذكر أبو العلاء أن هذا « يسميه أهل النقد (تجنيس المقاربة) ، لأن اللفظين متقاربان ، ليس بينهما فرق الا فى الميم » (٦٧) ، ثم عقب عليه ابن المستوفى بأن « هذا التجنيس يسميه أصحاب البديع (الناقص) ، وهو ضرب من المضارعة ، وعليه أنشد بيت أبى تمام :

يمُدُّون مِنْ أيْدٍ عواصٍ عواصمٍ   تَصولُ بأسيافٍ قَواضٍ قَواضِبِ » (٦٨)

فهذه التسمية التى كانت من أصحاب البديع ، والتى انتهت الى ابن المستوفى ولم يسعه أن يفرط فى التنبيه عليها = لم تكن - فيما يبدو من عصر المعرى ، ولابد أنها وضعت بعده ، على امتداد مابينه وبين ابن المستوفى ، وفى القرن السادس تقريبا ..

ولعل مما يؤكد الطابع النقدى فى هذه الألوان أيضا ما نلحظه من عموم فى تناوله لبعضها ، وغموض فى تسمياته لأخرى .

أما العموم فواضح من اطلاقه الاستعارة مثلا - دون تخصيص - على غير صورة مما ميز بينه البلاغيون فيما بعد ، فسلافة الخلطاء ، وابتنيت الجار ، وسمنت أحسابهم = كلها استعارة بلا تخصيص ، مع أنها عند البلاغيين متمايزة ، اذ يسمون الأولى : استعارة أصلية ، والثانية تبعية ، والثالثة مكنية ، وهكذا ...

وأما غموض تسميات بعضها فواضح من هذا الاختلاط بين صور الاستعارة والمجاز ... كما هو واضح من وصفه (مراعاة النظير) بانها

---

(٦٧) المرجع السابق ٢١٤/١ .

(٦٨) النظام ١٩٩/١ وقواض : تقضى على الأعداء بما تريد . وقواضب : قواطع

« ضرب من صناعة الشعر » ، دون وسمها بهذا الاسم الاصطلاحي الذى عرفناها به عند البلاغيين ..

واذا كانت موسيقية التعبير بالسجع والجناس وغيرهما مما سبق (٦٩) قد استثارت ذوق أبى العلاء على ما رأينا ـ فانها بالأوزان والقوافى كانت أشد استثارة لهذا الذوق على ما سنرى فيما يلى .

---

(٦٩) انظر ص ١٩٩ ، ٢٠٠ ، ٢١١ ، ٢١٤ ، ٢٢٨ ، ٢٢٩ ، ٢٣٧ ، ٢٤١ ، ٢٤٨ ، ٢٥٤ .

وقد كان أكثر استعدادا لتذوقها ونقدها لأسباب كثيرة .

منها : تلك الآفة التى ان ذهبت ببصره ، فقد أرهفت على سبيل التعويض حسه وسمعه ، حتى كانت الأصوات واللغة خصوصا نافذته الأولى على الحياة ، وشاغله الأكبر فيها .

ومنها : علمه العميق بأصول الغناء وطرق الانتقال فيه ، فضلا عن تذوقه وتحليله اياه ، والغناء كما نعلم وكما قال حسان ـ مضمار الشعر وقوامه .

أما علمه بأصوله وطرق الانتقال فيه فواضح من حديثه فى (الفصول والغايات) عن طرائقه الثمــان ـ الثقيل الأول والثانى ، وخفيفهمـا ، والرمل والهزج ، وخفيفهما ـ ذلك الحديث الذى لانكاد نجد مثله لغيره من النقاد ، والذى عرف فيه بنقرات كل نوع فى اطار الأسباب والأوتاد العروضية ، مما يعنى ادراكه لتآخيهما وتفاعلهما (١) . = ثم هــو واضح أيضا من تطبيقه فى (الغفران) على هذا التعريف ، حين طلب من القيان على لسان ابن القارح ، أن تعمل قول أبى أمامة النابغة :

أَمِنَ آلِ مَيَّةَ رَائِحٌ أَوْ مُغْتَدِ
عَجْلَانَ ذَا زادٍ وغيرُ مُزَوَّدِ

= ثقيلا أول .. ثم خفيف هذا الثقيل .. ثم ثقيلا ثانيا . ثم خفيفه (٢) . وهكذا الى آخر الألحان الثمانية ، مما لا يطلبه الا خبير بأصول الانتقال من لحن الى لحن ، « اذ ان بين الأنغام توافقا وتنافرا ، وليست كل نغمة توافق السير على غيرها من النغمات » (٣) .

---

(١) الفصول والغايات ص ٨٨ .
(٢) الغفران ص ٢١٢ ، ٢١٤ .
(٣) المهرجان الألفى لأبى العلاء ص ٣٩٠ .

وأما تذوقه وتحليله لآثار الغناء فى النفوس فقد بلغ فيهما الغاية ، كما بين بعض الباحثين (٤) ، وآية ذلك - فيما بين - من وجهين :

أولهما : كثرة ما ردده فى شعره ونثره من صفات الغناء وآثاره التى لا يدركها الا الراسخون فى هذا الفن ، من نحو : **الاجتهاد والاسترسال ، والاستهلال ، والمناضلة ، والتغريد ، والتفخيم والترخيم ، والمراسلة ، والمطاولة** • فقوله فى (اللزوميات) ينعى التكبر على الانسان :

مَا كِبْرُهُ وَثَقِيلُ اللَّحْنِ يَمْنَعُهُ مِنْ سُرْعَةِ الْفَهْمِ تَرْسِيلٌ وَتَمْدِيدُ (٥)

= يعنى قطعا وعيه لطبيعة اللحن الثقيل ، وشعوره بأنه لايكون سريعا الى الفهم ، لطول الترسيل والتمديد فيه •

وثانيهما : دعوته الى ترك اللهو والتمتع بمفاتن الحياة ، واجتناب كل مايعين على ذلك ، وفى جملته الموسيقى ، لأنها من أفتن مفاتن الحياة ، بسحرها الذى لا يمتنع منه أصعب القلوب ، وأشد الأعصاب ، أليس هو قد فتن بها وأقبل عليها فى شبابه ، ذلك الاقبال الذى يمثله قوله

وَهَوَاكِ عِنْدِى كَالْغِنَاءِ لِأَنَّهُ حَسَنٌ لَدَىَّ ثَقِيلُهُ وخفيفُهُ (٦)

ثم أعرض عنها ونفر منها بعد اعتزاله ، الى حد أن عدها ندبا ونياحة ، فى نحو قوله :

أَعِكْرِمَ إِنْ غَنَّيْتِ أُلْفِيتِ نَادبًا (٧)

وقولها :

فإِنَّ أَغَانِىَّ الْحَيَاةِ نِيَاحَةٌ (٨)

---

(٤) الاستاذ فخرى أبو السعود •• المرجع السابق ص ٣٩١ — ٣٩٤ بايجاز •

(٥) لزوم مالا يلزم ١/٢٤٣ •

(٦) شروح السقط ٣/١١٠٩ •

(٧) لزوم مالا يلزم ٢/٢٩٤ • العكرمة : الحمامة •

(٨) المرجع السابق ١/٢٣٤ •

ومنها : علمه بأصول العروض والقوافي ، على نحو لا يقل عن علمه بأصول الغناء ان لم يزد ، حتى لقد ألف فيهما ثلاثة كتب :

جامع الأوزان والقوافى : وهو شعر منظوم على معنى اللغز ، يعم به الأوزان الخمسة عشر التى ذكرها الخليل بجميع ضروبها ، ويذكر قوافى كل ضرب ، فى تسعة آلاف بيت ...

مثقال النظم : فى العروض ...

كتاب فى القوافى (٩) ..

هذا عدا استطراداته واشاراته الكثيرة التى زخرت بها مؤلفاته الاخرى من شعر ونثر .. .

ومنها : عده الوزن فى الشعر العنصر البارز فيه ، حتى لقد اكتفى فى تعريفه السابق له بالاشارة اليه دون غيره من العناصر ، مما يعنى التفاته اليه وتيقظ حسه له أكثر من غيره .

لكن اذا كان حسه بالموسيقى عموما ، واستعداده لتذوقها ونقدها خصوصا ، على هذا النحو من العمق والقوة = فكيف تذوقها ونقدها فى الشعر اذا ؟

١ ـ الأوزان والقوافى الخاصة :

ان أول مانشير اليه من ذلك هو ونظراته العميقة الشاملة فى نظم بعض الشعراء والأشعار ، تلك النظرات التى توخى بها حصر أوزان هذا النظم وقوافيه ، وبيان القديم منها والجديد ، والمقبول وغير المقبول ، والتى كانت فيما بقى من نقده لنظم **النكتى** ، **والمتنبى** ، **وديوان الحماسة** ، **وأشعار التلبية** ...

---

(٩) تعريف القدماء ص ٥٣٧ ، ٥٤٠ .

لكنه فى ديوان الحماسة وأشعار التلبية ، قد اقتصر على حصر الاوزان والقوافى المطردة والشاذة ، مما نكتفى بالاشارة الى مواضعه (١٠)، ونتجاوزه الى ماهو أهم ، من حديثه عن أوزان النكتى والمتنبىوقوافيهما ، لأنه لم يقتصر فى هذا الحديث على مجرد الحصر ، بل التفت معه الى الجديد والمسبوق ، والى المزايا والعيوب .

أما أوزان النكتى وقوافيهفنجد اعجابهبهماوتناوله لهمامن جميعجوانبهما فى تلك الرسالة التى كتبها اليه (١١) ـ وسبقت صفتها (١٢) ـ ، اذ قد انتهى فيها الى أنه لم يعتمد فى نظمه على الطبع وحده كالجاهليين ، ولا قياس العروض وحده كالعروضيين ، بل جمع بين طبع كالبحر الخضم وعلم اكتسبه جم ، ومن ثم كانت مزاياه التى نوه بها :

أولا : فى أنه اختار لشعره تلك الأوزان القويمة ، من طويل فرع بوزنه ، وكامل كمل فى حسنه ، ووافر يجعل تعلة للمسافر ... ولم يجر عليه فى هذا الاختيار ما جرى على رزين العروضى ، من الشذوذ عن الأوزان المعروفة ، لما مدح الحسن بن سهل ، بقصيدته التى أولها :

قرَّبوا جمالهم للرحيل غُدْوة أَحِبَّتك الأَقْرَبُوك

وثانيا : فى سلامة أوزانه تلك من العيوب التى لم تسلم منها عند فحول الجاهليين والمحدثين ، حيث « لم يكف السباعى فى (الطويل) وقد كفته فحول الشعراء » (١٣) ، وحيث « سلم من القبض الذى هو للكف معاقب (١٤) ، ان ذلك لحس ثاقب ، قلما تسلم قصيدة جاهلية

---

(١٠) شرح الحماسة للتبريزى ٤/٣٧٩ ، ورسالة الغفران ص ٥٣٤ .

(١١) رسائل أبى العلاء ٦٦ ـ ٧٥ .

(١٢) انظر ص ٨٧ .

(١٣) الكف : حذف السابع الساكن كحذف النون من مفاعيلن .

(١٤) القبض : حذف الخامس الساكن كحذف الياء من مفاعيلن . ومعاقب : من المعاقبة ، ومعاقبة القبض للكف أنه يجوز تركهما معا ولا يجوز استعمالهما معا ، واذا استعمل أحدهما ترك الآخر .

بنيت على **الطويل** من أن يستعمل فيها **قبض** السباعى » ، وحيث « سلم من الخرم الذى اصطلح عليه السالف والخالف (١٥) ... ولم يتفق لـه ما اتفق لغيره من الشذوذ فى عروض الطويل ، أليس قد رووا قول النابغة :

جَزَى اللهُ عبْسًا عَبْسَ آل بَغِيضٍ ... جزاءَ الْكلاب الْعَاويَات وَقَدْ فَعَلْ (١٦)

ولما عمد ـ أدام الله عزه ـ لبنـاء **الوافر والكامل** ، حاد به كـرم السوس **عن شناعة الوافـر بعقل أو نقص ، وبـرأ الكامل من الخـــزل والوقص » (١٧) .**

الا أن فضيلته بترك الأولين عند المعرى ليست كبيرة ، لأن العقـل مفقود فى شعر العرب **والنقص قليل** . وكذلك ترك الأخيرين ، لأن الغالب تركهما ، وان كانا أكثر وجودا من **الأولين** .

= بل الفضيلة أنه لم يأت بالصنفين من الخرم اللذين يعتريهمـا الشعراء فى **الوافر** ، **فيخرمون الجزء السالم والمعصوب** (١٨) .. وأنه وفق فى الكامل لما حرمه قيس بن زهير فى بيته :

أَفَبَعْدَ مَقْتَلِ مَالِكِ بْنِ زُهَيْرٍ ... تَرْجُو النِّسَاءُ عَوَاقِبَ الأَطْهَارِ

---

(١٥) الخرم . حذف أول متحـرك من الوتد المجموع فى أول البيت كحذف الفاء من فعولن أول الطويل .

(١٦) انما شذت عروضه ـ أى آخـر شطره الأول ـ لنقصها عن المعتاد حرفا محتركا ، اذ هى « فعولن » والمعتاد « مفاعلن » .

(١٧) السوس : الطبيعة . والعقل ، حذف الخامس المتحرك كحذف اللام من مفاعلتن . والنقص : اجتماع الكف والعصب ـ حـذف السابع وتسكين الخامس ـ كحذف النون مع تسكين اللام من مفاعلتن . والخزل : حذف الرابع الساكن مع تسكين الثانى كحذف الألف مع تسكين التاء من متفاعلن . والوقص : حذف الثانى المتحرك كحذف التاء من متفاعلن .

(١٨) المعصوب : ما سكن خامسه كتسكين اللام فى مفاعلتن ، وخرمه مع ذلك أن تحذف منه الميم .

= حيث نقص العروض حرفا وهى فى القصيدة صحيحة ، فصارت عروض البيت (نزهيرن) = **فعلاتن** ، والصحيحة = **متفاعلن**

وثالثا : فى قوة قوافيه وسلامتها كذلك ؛ حيث اختار لرويه أنسب الحروف ، « من **الدال** : التى اختارها طرفة لكلمته المنفردة ، والنابغة لوصف المتجردة . **والباء** التى خلصت من الرخاوة وضعف البناء ، الى الشدة وتمكن الاثناء . **والميم** : التى خفت عند القائلين ، وزيدت فى أسماء المفعولين والفاعلين . **والنون** : التى هى قينة الحروف ، ونسيبها علامة « للمصروف » .

ثم انه لم يقيد **الروى** بالسكون ، « اذ كان **التقييد** ينقص به التأييد . ولم يوطىء كما أوطأ قديم ومحدث ... وبرىء من **السناد** الجائز على امرىء القيس وزياد » .

لكنه هنا أيضا لم يحمده على مجانبة **الاقواء والاكفاء** (١٩) ، ولم يعد ذلك فى الغريزة من الوفاء ، « لأن من عرف حروف المعجم من شعراء العرب والعجم ، وجب أن يهجر ذلك » ، وتلك هى النزاهة ، التى تميز بين مايحمد عليه الشاعر وما لا يحمد ، وقد صدر فى هذا التمييز ـ كما ترى ـ عن غريزته وثقافته ..

وأما المتنبى فقدخص المعرىأوزانه وقوافيهبفصل مستقل (٢٠) ،استوفى فيه جوانبهما أيضا ، فبين أولا أن أبا الطيب استعمل من الأوزان التى ذكرها الخليل أحد عشر وزنا : هى **الطويل** ، **والبسيط** ، **والوافر** ، **والكامل** ، **والرجز** ، **والرمـــل** ، **والسريـــع** ، **والمنسرح** ، **والخفيف** ، **والمجتث** ، **والمتقارب** ، ولم يستعمل أربعة : **وهى المديد** ، **والهزج** ، **والمضارع** ، **والمقتضب** .

ثم بين الأضرب التى استعملهـا من كل وزن ، ممثلا لكل منها ،

---

(١٩) سيأتى الحديث عن السناد والايطاء والاقواء والاكفاء بعد قليل .

(٢٠) وهو الفصل الذى نقله التبريزى فى الموضح ٣/١٨٣ — ١٨٦ .

ولافتا فى أثناء ذلك الى أمرين جديدين فى هذا الاستعمال ، هما نظم المتنبى على أصل الرمل وثانى المنسرح ، اللذين لم يذكرهما الخليل عن العرب ، فجاء **بأصل الرمل** فى قوله :

إِنَّمَا بدْرُ بْنُ عَمَّارٍ سَحَابٌ   هَطِلٌ فِيه ثَوَابٌ وَعِقَــابُ (٢١)

إِنَّمَا بَدْرٌ عَطَايَا وَرَزَايَــا   وَمَنَايَا وَطِعَانٌ وَضِــرَابُ

وجاء **بثانى المنسرح** فى قوله :

أَوْهِ بَدِيلٌ مِنْ قَوْلَتِى وَاهَا (٢٢)

لكنه لم يبين رأيه هنا فى هذا التجديد ، وان كنا نفهم عيبه له من انكاره لمثله على البحترى (٢٣) ، ومن موافقته الصاحب بن عباد على انكار مثله من المتنبى (٢٤) .

ثم نمضى معه بعد ذلك ، فنجده يتبع ماسبق ، بتفصيل ما استعمله المتنبى ، من ألوان **الزحافات والعلل** ، التى تباح وتقبلها الغريزة ، والتى تقبح وتنفر منها الغريزة . واجمال هذا التفصيل = أن المتنبى لم يزاحف زحافا تنكره الغريزة ، فى **الطويل** ، **والوافر والكامل** ، **والرجز** ، **والرمل والسريع** ، **والمنسرح** ، **والخفيف** ، **والمجتث** ، **والمتقارب** = بل جاء بما هو أحسن أحيانا ، كطى ثانى أجزاء **المنسرح** (٢٥) ــ وطيه أحسن فى الغريزة من تمامه ــ فى قوله :

---

(٢١) هطل : أى متتابع المطر عظيم القطر .

(٢٢) أوه : بمعنى أتأوه ، وواها : بمعنى أتعجب .

(٢٣) عبث الوليد ص ١٤٥ .

(٢٤) الموضح ٢/٨٤ يه .

(٢٥) أجزاء المنسرح ستة : (مستفعلن مفعولات مستفعلن) مرتين والطى : سقوط الرابع الساكن .

أَبعد نأى المَليحة البَخَل (٢٦)

انما زاحف زحافا تنكره الغريزة فى **البسيط** فقط ، بطيه أول أجزائه ، (مستفعلن) ، فى قوله :

رُبَّ نجيعٍ بسَيْف الدَّوْلَةِ انْسَفَكَا (٢٧)

كذلك لم يستعمل من العلل ماتنكره الغريزة ، الا الخرم فى موضعين اثنين :

فى **الطويل الثالث** حيث يقول :

لاَ يُحْزِنِ اللهُ الأَميرَ فَإنَّنى

وفى **الوافر** حيث يقول :

فَإنْ تَكُ طَيِّءٌ كَانَتْ لِئَامًا فَألأَمُهَا رَبِيعَةُ أَوْ بَنُوهُ

حتى اذا فرغ من حديث أوزانه عطف على قوافيه ، فبين أولا أنه استعمل **القوافى الأربع** التى تردد ذكرها ، **وهى المتراكب والمتدارك ، والمتواتر ، والمترادف** (٢٨) . ولم يستعمل **المتكاوس** : وهو أربعة أحرف متحركة بعدها ساكن ، واستعمالها يقل ، لأنها لا تكون الا بزحاف .

ثم بين ثانيا ما استعمله من أنواع **المقيدة والمطلقة** (٢٩) ، ممثلا لكل نوع ، وموضحا فى كل مثال حروف القافية وحركاتها ، من روى وتأسيس وغيرهما ..

---

(٢٦) النأى : البعد والفراق . والبخل ــ بفتح الخاء ــ هو البخل ــ باسكانها وكلاهما فصيح .

(٢٧) النجيع : الدم . وانسفك : انصب . وموقع الطى فى قوله (رب نجى) ووزنه : مفتعلن .

(٢٨) **والمتراكب من القوافى** : ماتوالت فيها ثلاث حركات بين ساكنيها .
والمتدارك : ماتوالى فيها حركتان بين ساكنيها .
والمتواتر : ما كان فيها حركة واحدة بين ساكنيها .
المترادف : ما اجتمع ساكناها ...

(٢٩) القافية المقيدة : هى الساكنة الروى ، والمطلقة : هى المتحركته.

ونمضى مع أبى العلاء فى نقده هنا ، فنجده فى (الفصول والغايات) يعقد موازنة طريفة بين الأوزان ، من حيث قوتها وضعفها ، وكثرة استعمالها وقلته ، وطول نفسها وقصره ، فيتخذ من هذه الجوانب أساسا للمفاضلة بين بعضها ، وذلك حيث يقول :

« ليس بعجيب ، فسل من ظهر نجيب ، ان المديد أخواه سيدان ، وكأنه بعض العيدان ، ما شئت من ضعف وانخناث » (٣٠) .

ثم يفسر هذا القول بأن « المديد والطويل والبسيط تجمعهن دائرة واحدة ، والبسيط والطويل ليس فى الشعر أشرف منهما وزنا ، وعليهما جمهور شعر العرب ، وان اعترضت الديوان من دواوين الفحول كان أكثر مافيه طويلا وبسيطاً ، والمديد وزن ضعيف لا يوجد فى أكثر دواوين الفحول ، والطبقة الأولى ليس فى ديوان أحد منهم مديد ، أعنى امرأ القيس وزهيرا والنابغة والأعشى فى بعض الروايات . وقد جاءت لطرفة قصيدة من المديد وهى :

أَشَجَاكَ الرَّبْعُ أَمْ قِدَمُهْ ... أَمْ رَمَادٌ دَارِسٌ حُمَمُهْ (٣١)

وربما جاءتْ منه الأبياتُ الْفَارِدَةُ كقول مُهَلْهِل :

يَالَبَكْرٍ أَنْشِرُوا لِى كُلَيْبًا ... يَالَبَكْرٍ أَيْنَ أَيْنَ الْفِرَارُ (٣٢)

و (ان بالشعب) مختلف فى قائلها ، ولم يجمعوا على أنها قديمة » (٣٣) .

فالطويل والبسيط عنده أشرف الأوزان ، والمديد ـ على تفرعه معهما

---

(٣٠) فسل : رذل ردىء . وانخناث : لين وتكسر .

(٣١) دارس : ذهب أثره . والحمم : الفحم ، وكل ما احترق من النار .

(٣٢) أنشروا : أحيوا

(٣٣) الفصول والغايات ٢١١/١ — ٢١٢ و « ان بالشعب » قصيدة منسوبة الى تأبط شرا ، ويقال انها لخلف الأحمر .

من دائرة واحدة ــ وزن ضعيف ، فان سألت عن السر فى هذه المفاضلة وجدته فى ثلاثة أمور :

قوة الوزن وضعفه : لأن وصفه المديد بالضعف فيعنى ذلك ، كما يعنيه وصفه لأخويه بالقوة بعد قليل .

وكثرة الاستعمال وقلته : اذ كان الأولان ــ كما قال ــ عليهما جمهور شعر العرب ... والمديد لايوجد فى أكثر دواوين الفحول .

وطول النفس وقصره : لقوله بعد ذلك :

« وتوجد هذه الأوزان القصار ــ يعنى التى منها المديد ــ فى أشعار المكيين والمدنيين كعمر بن أبى ربيعة ومن جرى مجراه ، كوضاح اليمن والعرجى ، ويشاكلهم فى ذلك عدى بن زيد ، لأنه كان من سكان المدر بالحيرة ، وله قصيدة فى المديد من سادسه ، وهى :

يَا لُبَيْنَى أَوْقِدِى النَّارَا . . . (٣٤) »

ان هذا الوصف للمديد وأمثاله بالقصار ، يعنى مانلمحه من أسباب التفاوت عنده بين القصار والطوال ، أى انه يعتد طول النفس فى الوزن ، من مزايا **الطويل والبسيط** التى حرم منها **المديد** وأمثاله ، ولا تظننا نفتعل هذا الفهم من اشارته ، لأن قد صرح بما يؤيده ، حين نزه امرأ القيس والأعشى عن مثل هذه الأوزان .. (٣٥) ، وحين نوه بشاعرية ابن فورجه ، فقال له :

إِذَا الْمَنْهُوكُ فُهْتَ به انْتصَارًا لَهُ مِنْ غَيْره فَضَلَ الطَّوِيلاَ (٣٦)

= وحين استقل عمله فقال : **« وأعمالى فى الخير قصار ، كثلاثة أوزان رفضها المتجزلون فى قديم الأزمان »** (٣٧) ، وهو يعني ــ كما فسر ــ :

---

(٣٤) المرجع السابق ٢١٢/١ .

(٣٥) رسالة الغفران ٢١١ ، ٣١٨ .

(٣٦) شروح السقط ١٣٩٥/٣ . والمنهوك : أقصر بحور الشعر ، والطويل أطولها .

(٣٧) الفصول والغايات ١٣١/١ ــ ١٣٢ . والمتجزلون : المتكلمون بكلام قوى فصيح .

المضارع والمقتضب والمجتث ، تلك التى قرر أنها مفقودة فى شعر العرب ، فقد رفضها القدماء لقصرها فيما يبدو .

= وحين قال أيضا داعيا (٣٨) : « **لاتنتهك رب عملى ، فيصبح كخامس الرجز ، قل حتى ذل وعجز .. والمنهوك : خامس الرجز ، سمى بذلك لانه سقطت منه أربعة أجزاء وبقى على جزأين ، مثل قوله :**

يَالَيْتَنِى فِيهَا جَذَعْ (٣٩)

وانما يجىء فى شذوذ الشعر ، ولم تسمع فيه أرجوزة طويلة من المتقدمين ، لانه لا يبلغ القائل غرضه من أجل قصره وزعم بعض الناس أنه لا يحسب شعرا ، واحتجوا بأن النبى ﷺ قال :

أنا النَّبِىُّ لا كَذِبْ أَنا ابنُ عبد المُطَّلِبْ »

فقوله : « لانه لا يبلغ القائل غرضه من أجل قصره » صريح بما قررنا ، من اعتداده بطول النفس — مع كثرة الاستعمال — ، فى تفضيله **الطويل والبسيط** ، على **المديد** وغيره من القصار . وغنى عن البيان أن طول الوزن مما يفسح مجال القول ، ويمد فى نفس الشاعر ، ويتسع — دون غيره — للأغراض الجادة .

لكن عده **المديد** وأشباهه من القصار ، التى قلت فى الجاهلية وكثرت فى الاسلام ، عند المكيين والمدنيين = فيه نظر ، لأن قلة **المديد** ليست من قصره — فيما يبدو — انما هى لضعفه ولينه ، بدليل أننا نجد له نظائر فى التكوين على ستة أجزاء قد استعملها الجاهليون وأكثروا منها ، **كأول الوافر ، وأول وثانى الكامل** ، وقد نص أبو العلاء على قوة هذه الأوزان ، وبين منزلتها من **الطويل والبسيط** فى قوله :

---

(٣٨) المرجع السابق ١/١٣٧ — ١٣٩ .
(٣٩) الجذع : الشاب الحدث .

« الأوزان التى تتقدم فى الشعر كله خمسة : ثلاثة هى ضروب الطويل بأسرها ، والضربان الأولان من البسيط . فالطويل الأول :

أَلا انْعِمْ صَبَاحاً أَيُّهَا الطَّلَلُ الْبَالِى

قِفَانَبْكِ مِنْ ذِكْرَى حَبِيبٍ وَمَنْزِلِ

وماكان مثل ذلك . والطويل الثانى :

و (لخولة أطلال) (٤٠) ، وماكان مثل ذلك . والطويل الثالث مثل قول امرىء القيس :

لِمَنْ طَلَلٌ أَبْصَرْتُهُ فَشَجَانِى كَخَطِّ زَبُورٍ فِى عَسِيبِ يَمَانِ

والضرب الأول من البسيط :

وَدِّعْ هُرَيْرَةَ إِنَّ الرَّكْبَ مُرْتَحِلُ

وماكان مثل ذلك . والثانى منه كقوله :

بَانَ الْخَلِيطُ ولو طُوِّعْتُ مابَانَا (٤١)

وماكان مثل ذلك . ويلى هذه الخمسة فى القوة ثلاثة أوزان ، وهى الوافر الأول كقوله :

أَحَادِرَةٌ دُمُوعَكَ دَارُمَىٍّ وَهَائِجَةٌ صَبَابَتَكَ الرُّسُومُ

والكامل الأول كقول النابغة :

أَمِنَ الِ مَيَّةَ رَائِحٌ أَوْ مُغْتَدِ

والكامل الثانى كقوله :

أَلاَّ سَأَلْتَ بِرَامَةَ الأَطْلاَلاَ وَلَقَدْ سَأَلْتَ فَمَا أَحَرْنَ سُؤَالاَ » (٤٢)

من هذا التفصيل يتضح أن الأوزان الثلاثة الأخيرة لها حظ من مزايا

---

(٤٠) يعنى معلقة طرفة التى مطلعها : لخولة أطلال ببرقة ثهمد

(٤١) بان : فارق وبعد . الخليط : القوم الذين أمرهم واحد .

(٤٢) الفصول والغايات ص ٢١٣ ، ٢١٤ . ما أحرن : ماردن .

القوة والطول وكثرة الاستعمال ، الا أنها دون سابقتها فى ذلك ، واذا كان هذا شأنها مع تكونها من ستة أجزاء كان التاخر بسبب القصر لما دونها فى التكوين ، وليس لأمثالها فى الحقيقة .

على أن رأيه فى القصار ومستعمليها لم يرق لبعض المعاصرين (٤٣) ، فقال عنه : « وقد يكون من الغريب أن نرى أبا العلاء يذهب الى أن جمهور أشعار الجاهلية يأتى من **الطويل والبسيط** ، ومايليهما من **الوافر والكامل** ، ثم يقول : (وأما الأوزان القصار فانما عرفت فى العصر الاسلامى فى أشعار المكيين والمدنيين ...) ، وقد ذهب أبو العلاء الى التعميم أكثر مما ينبغى ، فان الأوزان القصار عرفت فى العصر الجاهلى ، لا عند سكان المدر فقط ، بل عند سكان الوبر أيضا » ، ثم ساق أمثلة على ذلك من الحماسة ..

ويبدو أن أساس هذه المناقشة مانسبه الى المعرى من قوله : « وأما الأوزان القصار فانما عرفت فى العصر الاسلامى فى أشعار المكيين والمدنيين » ، فاذا علمنا أن أبا العلاء لم يقل كذلك ، انما قال ـ كما أوردت ـ : « وتوجد هذه الأوزان القصار فى ... » بدون قصر سقطت مناقشته من أساسها ، وغاية ماتدل عليه عبارة المعرى وماقبلها أن هذه الأوزان تقل فى الجاهلية وتكثر فى الاسلام ، فى أشعار هؤلاء خاصة لطبيعة الغناء الذى انتشر فى مكة والمدينة فى القرن الأول .

وليس ما استشهد به من أشعار فى الحماسة على وجود هذه الأوزان فى الجاهلية بالذى يجهله أبو العلاء ، اذ أكثره ـ كما سيأتى ـ عنده من الشاذ النادر ، وقد ذكره وأشار اليه .

على أن هذه الأوزان القصار لم تكن كلها مرفوضة أو منكرة عنده ، وان

---

(٤٣) د : شوقى ضيف فى : الفن ومذاهبه فى الشعر العربى ص٥٠ ، ٥١ .

فضل عليها الطوال ، بدليل أنه فى (الغفران) ذكر الأبيات المنسوبة الى الخليل بن أحمد التى أولها :

إنَّ الْخَلِيطَ تَصَدَّعْ فَطِرْ بِدَائِكَ أَوْ قَعْ (٤٤)

وجعلها موضعا لغناء أطرب وأمال ، وهذا بالطبع عن ثقة بمناسبة هذا الوزن وصلاحيته للغناء ...

لكن الغريب الذى لم أجد له وجها = هو عدة ثانى : الطويل هنا من أشرف الأوزان ومتقدمها ، وتمثيله له بقصيدتين ثم تعليقه على قصيدة منه للمتنبى « بأنه لا تعرف قصيدة للعرب على هذا الوزن ، ولم يستعمله أحد من فحول المحدثين استعمالا ظهر عنه ، الا أبو تمام فى قصيدة واحدة » (٤٥) .

أيكون ذلك التعليق مما نسب خطأ اليه فى شرح التبريزى للمتنبى ، أم أنه مما اضطرب رأيه ونقده فيه ؟ لا أدرى .

٣ ـ الأوزان المضطربة والشاذة :

تلك التى اختل سياقها الموسيقى ، وشذت بهذا الاختلال عما وضعه الخليل أو تؤثره الغريزة =

كان شديد التيقظ لها ، والتحفز لنقدها ، على مايبدو من كثرة تعقبه للقدماء والمحدثين بسببها ، متحيرا حينا ، ومنكرا حينا آخر ، حتى ليعد موقفه منها متمما لموازنته بين الأوزان وبيانه لمنازلها .

وننظر فى مظاهر الاختلال التى تحير لها أو أنكرها ، فنجدها فيما يلى :

أولا : اختلاف البحر أو الضرب : كان ينظم الشاعر قصيدته فى بحر

---

(٤٤) الغفران ص ٢٧٩ .
(٤٥) الموضح ١/١٦١ أ .

من البحور على ضرب وعروض خاصين ، ثم يخلط فى بعض أبياتها أو أشطرها ، بالخروج الى بحر آخر ، أو ضرب لا يتفق مع عروضه ، فيختل ايقاعه ، على هذا النحو الذى تحير له عند عدى بن زيد العبادى ، اذ يقول له وهو يحاوره : (٤٦)

« وكذلك ولدك علقمة ، حلت به فى العاجلة النقمة ، لما ركب للصيد ، فأصبح كجده زيد ، وقلت فيه :

أَنْعِمْ صَبَاحًا عَلْقَمَ بْنَ عَدِىّ   أَثْوَيْتَ الْيَوْمَ لَمْ تَرْحَلْ

وانى لأحار يامعاشر العرب فى هذه الأوزان التى نقلها عنكم الثقات ، ونداولتها الطبقات ، ومن كلمتك التى على الراء ، وأولها :

قَدْ آن أَنْ تَصْحُوَ أَوْ تَقْصِرْ   وقَدْ أَتى لِما عهدْتَ عُصُرْ
عنْ مُبْرِقات بالْبُرِينَ وَتَبْـــدُو بالأَكُفِّ اللَّامعات سُوُرْ(٤٧)
بيضٌ عليْهِنَّ الدِّمَقْسُ وَبالْـ   أَعْنَاق مِنْ تَحْتِ الْأَكِفَّةِ دُرّ»(٤٨)

= **أو ذلك الذى علق عليه عند طرفة ، بقوله له : (٤٩)**

« ولقد جئت باعجوبة فى قولك :

لوْ كان فِى أَمْلاكِنا مَلِكٌ   يَعْصِرُ فِينا كالَّذى تَعْصِرْ(٥٠)
لاَ جْتَبْتُ صَحْنَى الْعرَاق على   حَرْفٍ أَمُونٍ دَفُّها أَزْوَرْ (٥١)
مَتَّعنى يوْمَ الرَّحِيلِ بها   فَرْعٌ تَنَقَّاهُ الْقِداحُ يَسَرْ

---

(٤٦) رسالة الغفران ص ١٩٧ .

(٤٧) البرين : جمع برة — بضم الباء — وهى الخلخال وما أشبهه . وسور : جمع سوار ، حلية مستديرة كذلك .

(٤٨) الدمقس : الحرير ، والأكفة : جمع كفاف — بكسر الكاف — وهو من كل شىء حرفه المحيط به .

(٤٩) رسالة الغفران ص ٣٣٧ .

(٥٠) أملاك : جمع ملك . يعصر فينا : يعطينا .

(٥١) لاجتبت : لقطعت . الصحن : وسط الفلاة ، والمستوى من الأرض . حرف : ناقة ضامرة . أمون : موثقة الخلق يؤمن عثارها . دفها : جنبها .

ولكنك سلكت مسالك العرب ، فجئت بقرى كلمة المرقش :

هَلْ بالدِّيار أَنْ تُجيبُ صَمَمْ   لوْ كان حيًّا ناطِقًا كلَّمْ

وقول الأعشى :

أَقْصِرْ فكُلُّ طالبٍ سَيَمَلّْ

على أن مرقشا خلط فى كلمته ، فقال :

ماذا عليْنا . أَنْ غَزَا ملكٌ   مِنْ آل جفْنةَ ظالِمٌ مُرغِمْ

وهذا خروج عما ذهب اليه الخليل » .

فلم تكن حيرته امام بيت عدى الأول : **(أنعم صباحا ٠٠)** ، وعده المرقش خالطا فى قوله : **(ماذا علينا ٠٠٠)** = الا لأن كلامنهما خرج عن بحر قصيدته الذى نظمها فيه ــ وبحرهما معا هو **(السريع)** ، وتفاعيله فى اطار عروضهما وضربهما . **(مستفعلن مستفعلن** فَعِلنْ) مرتين ــ خرج عدى فى الشطر الثانى من بيته الى **المديد الرابع** ، لأن وزن شطره **(فعلاتن فاعلن** فعْلن) ، وخرج المرقش فى شطره الثانى الى **الكامل الثالث** ، لأن وزن شطره **(مستفعلن متفاعلن** فعْلن) .

ومع أن بعض الدارسين (٥٢) علل حيرته فى ابيات عدى : **(قد آن أن تصحو ٠٠٠)** بأنها من **السريع** ، جاء عروض أولهـا المصرع على (فعل) بسكون العين ، وكان يصح العروض لو أن ضربه كذلك ، لكنه هنا **(فعلن)** بكسر العين ، فلا مسوغ للعروض .

أقول : مع أن هذا سبب للحيرة صحيح ، يبدو أن حيرته كانت لأكثر من ذلك ، كانت لاختلال الوزن فى سائرها ، بدليلين : **أولهما** : انه لو

---

(٥٢) د: أمجد الطرابلسى فى : النقد واللغة فى الغفران ١٠٠ ، ١٠١ .

كان الاختلال فى البيت الأول وحده لأشار اليه فقط كما أشار الى سابقه ، لكنه أشار الى القصيدة كلها بقوله : « ومن كلمتك التى على الراء » ، **وثانيهما :** قوله فى (الفصول والغايات) عنها وعن قصـــيدة عبيد بن الأبرص : « ألتفت الى ذنوبى فأجدها ... مختلفة النظم ، كقصيدتى عبيد وعدى . وقصيدة عبيد :

أَقْفَرَ مِنْ أَهْلِه مَلْحُوبُ

وزنها مختلف ، وليست موافقة لمذهب الخليل فى العروض . وقصيدة عدى بن زيد العبادى :

قَدْ حـان أنْ تَصْحُوَ أَوْ تَقْصِرْ وَقَدْ أَتى لِمَا عهدْتَ عُصُرْ » (٥٣)

أما أبيات طرفة ، وهى من **السريع** أيضا = فاعجوبتها ـ فيما يبدو ـ فى مجىء ضربهـا (**فعـلن**) بسـكون العين فى الأولين وبكسرهـــا فى الثالث ، وعروضها (فعلن) بكسر العين ليس لها الا ضرب واحد مثلها .

الا أنـه يكاد يعتذر عن طرفة فى قوله له : « ولكنك سلكت مسالك العرب ... » ، لأن المرقش والأعشى اللذين جاء بقريهما قد اختلفت أضرب قصيدتيهمـــا كذلك ، اذ جاءت بكسر العـــين وسـكونها ، والعـروض بالكسر ، فله منهما فى شذوذه نظير .

وواضح من هذا النقد أن بحر السريع قد اختص باكبر قـــدر من اضطراب الايقاع واختلاله ، ربما لاجتراء الشعراء عليه ، وربما لخفته وسرعة النطق به وكثرة اعتلاله ، فلايكاد يظهر الاختلال فيه الا بالتأمل .

ثانيا : زيادة حرف أو أكثر على مايقتضيه الوزن ، ممـــا ينفـــر منه السمع وتنكره الغريزة . كذلك الذى كان ـ وأنكره ـ من امرىء القيس بين القدماء ، ومن البحترى والمتنبى وأبى تمام بين المحدثين .

---

(٥٣) الفصول الغايات ١/١٣١ .

أما امرؤ القيس فحيث يقول له محاورا (**فى الغفران**) (٥٤) :
« أخبرنى عن كلمتك الصادية والضادية ، والنونية التى أولها :

لِمَنْ طللٌ أَبْصرْتُهُ فشجَانى ‏ ‏ كَخَطِّ زبُورٍ فِى عَسِيب يمَانِ (٥٥)

لقد جئت فيها بأشياء ينكرها السمع ، كقولك :

فإِنْ أُمْسِ مَكْرُوبًا فياربَّ غارَةٍ ‏ ‏ شهِدْتُ على أقبَّ رِخوِ اللَّبانِ (٥٦)

وكذلك قولك فى الكلمة الصادية :

على نِقْنِقٍ هَيْقٍ له وَلِعِرْسِهِ ‏ ‏ بِمُنْقطَع الْوَعْساءِ بيْضٌ رَصِيصُ (٥٧)

وقولك :

فأُسْقِى بِهِ أُخْتِى ضعِيفَةَ إِذْ نأَتْ ‏ ‏ وَإِذْ بعُد الْمُزْدَارُ غيْرَ الْقرِيضِ

فى أشباه لذلك ، هل كانت غرائزكم لا تحس بهذه الزيادة ، أم كنتم مطبوعين على اتيان مغامض الكلام وأنتم عالمون بما يقع فيه ؟ ... فان الغرائز تحس بهذه المواضع ، فتبارك الله أحسن الخالقين . فيقول امرؤ القيس : **أدركنا الأولين من العرب لا يحفلون بمجىء ذلك ، ولا أدرى ماشجن عنه (٥٨) ، فأما أنا وطبقتى فكنا نمر فى البيت حتى نأتى الى آخره ، فاذا فنى وقارب ، تبين أمره للسامع** » .

ومن قبل هذا الكلام كان قوله عن (النونية والصادية) فى رسالته الى بعض الكتاب : (٥٩) « أما النونية وذات الصاد ، فكلتاهما تبكر

---

(٥٤) رسالة الغفران ٣١٥ — ٣١٧ .
(٥٥) زبور : كتاب . عسيب : جريدة من النخل كشط خوصها .
(٥٦) أقب : ضامر البطن . رخو اللبان : واسع جلد الصدر .
(٥٧) نقنق : ذكر النعام ، هيق : طويل .
(٥٨) ماشجن عنه : ما حبس عنه .
(٥٩) خمس رسائل مخطوطة لأبى العلاء ص ١ .

بضمير صاد ، جاء فيهما بمـــا ينكره المولدون ، ويكن فى الطبـــاع الهدون (٦٠) ، مثل قوله :

لها مِزْهرٌ يعْلُو الْخمِيسَ بِصوْتِهِ   أَجَشُّ إِذا مَاحرَّكتْهُ الْيدَانِ(٦١)

وقوله :

فَيَشْرَبْنَ أَنْفاسًا وَهُنَّ خوَائِفٌ   وتُرْعدُ مِنْهُنَّ الْكُلَى وَالْفَرِيصُ(٦٢)

وتلك نكرة عند المحدثين ، ووارثى الصناعة مع المورثين ... ولو لم يكن فى ديوانه ما يستنكف منها الا التى أولها :

عيْنَاك دَمْعُهمـا سِجـــــالُ

لكانت للعائب حسبا ، ولغير ماحسن كسبا ، وذلك أن شعراء الاسلام أنفوا من مثلها ، ولم يعرضوا فى الأزمنة لشكلها » .

فالأبيات التى ذكرها عدا اللامية ـ وكلها من **الطويل** ـ قـــد زاد شطرها الثانى على نحو ينكره السمع ، ويكن فى الطبـــاع الهدون كمـــا قال . وموضع هذه الزيادة نون (**فعولن**) التى قبل الضرب ، أى مايقابل هذه النون ، والمراد زيادته على ما يقتضيه الوزن ، والذى يقتضـيه الوزن ويحســن به (فعولُ) لا (**فعولن**) ، بدليل أنــك لو حذفت من الأبيات ما يقابل النون لاستقام الوزن :

الا أن قوله ـ على لسان امرىء القيس ـ : « أدركنا الأولين من العرب لايحفلون بمجىء ذلك » = صريح بثقته أنهـــم كانوا يحســـون ذلك ولا ينكرونه ، وبأنهم كانوا يتلافونه فى انشادهم ـ أو تغنيهم حين النظم ـ باختلاس بعض الأحرف أو الحركات ، على مايفهم من قوله : « كنا نمر فى البيت حتى نأتى الى آخره ، فاذا فنى وقارب تبين أمره للسامع » ،

---

(٦٠) صاد ــ بتخفيف الدال ــ عطشان ، وبتشديدها : معرض . والهدون : السكون .

(٦١) مزهر : عود ، الخميس : الجيش ، أجش : فى صوته بحة .

(٦٢) الفريص : جمع فريصة ، وهى لحمة بين الجنب والكتف ، أول ما يرعد من الدابة عند الفزاع .

أى كنا ننشد البيت ـ أو نغنيه ـ بطريقة خاصة ، تعبره من أوله الى آخره ، حتى اذا أنشد أو قارب النهاية ، تبين للسامع صلاح أمره واتساق نغمه •

وهذا النحو من الانشاد أو التغنى هو ماوثق به وتابع المعرى عليه غير واحد من المحدثين (٦٣) فى توجيه ماشذ من أوزان القدماء •

أما اللامية فقد شانها ـ فيما يبدو ـ كثرة التغيير فى عروضها وضربها ، حيث جاءت على (**مخلع البسيط**) وعلى غيره من أوزان **البسيط** المجزوءة ، ومن ثم أنف شعراء الاسلام من مثلها ، وكانت للعائب حسبا كما قال •

وأما ثلاثة المحدثين فأكثر من تعرض منهم لنقد المعرى على الزيادة فى الوزن = البحترى ، اذ لانكاد نجد ذلك من المتنبى فى غير ماسبق ، من مجيئه باصل الرمل والطويل ••• ومن الطائى فى غير بيته :

يقُولُ فيُسْمِعُ ويَمْشِي فيُسْرِعُ وَيَضْرِبُ فِي ذَاتِ الْإِلهِ فيُوجِعُ

ذلك الذى قالَ عنه أبو العلاء : « هذا البيت من عجيب ماجاء فى شعر الطائى ، لأنه أتبع العين الواو فى غير القافية ، وانما آنسه بذلك أن العين فى آخر النصف الأول وفى آخر النصف الثانى ، ولا ريب أنه كان يتبع العين واوا فى (يسمعو) ، وقد يمكنون الحركة حتى تصير حرف ساكنا ، مثل ماحكى أن بعض العرب يقول : **قام زيدو** ، فيثبت الواو ، **ومررت بزيدى** ، فيثبت الياء ، وذلك ردىء مرفوض » (٦٤) •

على حين كان من البحترى فى غير موضع وعلى غير وجه ، تارة بزيادة حرف ، وتارة بزيادة حرفين ، وكله مما أنكره أبو العلاء ، وبعضه ـ

---

(٦٣) العقاد فى اليوميات ٢٩٣/١ ود. أمجد الطرابلسى فى « النقد واللغة فى الغفران ص ١١٢ ود. عبد الله الطيب فى « المرشد » ٣/٨٢٠ ، ٨٢٢ •

(٦٤) شرح التبريزى لأبى تمام ٣٢٦/٢ •

مما زاد فيه حرفين ـ عده كسرا ، وهو شر من الزحاف كما قال . فمما أنكره من زيادته بيته :

مَنْ يتجاوزْ على مُطَالبةِ الْعَيْـ ـشِ تَقَعْقَعَ مِنْ مَلِّهِ عَمَدُهْ (٦٥)

اذ قال فى نقده : « هذا البيت فيه شىء تنكره الغريزة الصحيحة ، وهو فى موضع النون من (من) ، ولو كان فى موضعه (لمله) كان أقوم فى الحس ، والأبيات تختلف فى هذا الفن ، فيكون بعضها أقل انكارا من بعض . وقد جاء فى هذه القصيدة أشباه لهذا البيت ، كقوله :

عَادَ بِحُسْنِ الدُّنْيَا وَبَهْجَتِهَا خليفةُ الله الْمُرْتَجَى صَفَدُهْ (٦٦)

فيه موضعان ، أحدهما فى مكان النون من (الدنيا) ، والآخر فى (اللام) من (المرتجى) . وأحسن لوزنه فى الغريزة أن يكون (الدنا) ، وأن يكون (خليفة الله مرتجى) » (٦٧) .

ومما أنكره وعده كسرا بيته :

وأَحقُّ الأَيَّامِ بالْحُسْنِ أن يُؤْ ثَرَ عنهُ يومُ المِهْرَجَانِ الكبيرِ

اذ كان قوله عنه : « تقويمه : (ذو المهرجان الكبير) أو نحو ذلك ، وهذا كسر متجانس ، لأنه بزيادة حرفين ، الأول متحرك والثانى ساكن ، فى الوزن الذى يسمى الخفيف » (٦٨) .

ثالثا : التغيير الذى يعترى أجزاء الوزن بالحذف أو التسكين ، مما يسمى العروضيون بعضه (الزحاف) ، وبعضه (العلة) ، وليس كله سببا فى اضطراب الوزن واختلاله ، لأن منه ماهو أحسن من التمام .

---

(٦٥) تقعقع : اضطرب . مله : اسراعه . عمده : عظامه .

(٦٦) صفده : عطاؤه .

(٦٧) عبث الوليد ص ٩٩ .

(٦٨) المرجع السابق ص ٢٧ . والحرفان الزائدان هما الياء والواو من (يوم) ، والبيت فى الديوان غير مكسور :

وكأن الأيام أوثر بالحسـ ـن عليها ذو المهرجان الكبير

كذلك الذى أشار اليه قبل قليل عند المتنبى ، **من طى ثانى أجزاء المنسرح**.

ومنه ماهو مباح لاكراهة فيه ، لاستقامةالوزن معه ، كذلك **الزحاف الخفى** ، الذى أشار اليه فى قوله ـ يرثى الشريف الموسوى ـ لأبنائه :

مَا زاغَ بيتُكُمُ الشَّريفُ وإنَّما ... بالوجد أدرَكَهُ خَفِيُّ زِحَافِ (٦٩)

والخفى : مالا أثر له فى الوزن ، لخفته أو لقلته ، كالنقص بـ (**الكف**) ، فى الجزء الثالث من الهزج ، لا يعلم به فى الحس ، وكذلك فى الجزأين اللذين قبله ، مثل قول ابن الزبعرى :

فهذانِ يَذُودانِ ... وذا مِن كَثَبٍ يَرْمِى (٧٠)

انما يخل بالوزن ويكون سببا فى اضطرابه عنده ، ماتنكره الأذن وتنفر منه الغريزة ، لذاته أو لكثرته ، أماما أنكره لذاته فمنه مانوه بتجنب النكتى له فيما سبق (٧١) ... ومنه « أى حذف يقع فى **الجزء الثالث من البسيط** ، لأنه يبين فيه لصاحب الذوق ، وليس كذلك غيره من الأجزاء ، كقول الأعشى :

عُلِّقتُهَا عرضًا وعُلِّقت رَجُلاً ... غيْرى وعُلِّق أُخْرَى غيْرَها الرَّجُلُ

« فقوله : (**علقت**) **هو الجزء الثالث** ، وقد أصابه **الخبن** ، **والخبن** سقوط الثانى ... ولو أصابه الطى كان أشنع ، وهو كالمفقود فى شعر العرب ، **والطى** : سقوط الرابع ، فان أصابه **الخبل** فهو أشنع ، وهو كالمفقود فى شعر العرب أيضا .. **والخبل** : اجتماع **الخبن والطى** ... » (٧٢) لكننا لانكاد نتفق معه على أن للخبن فى بيت الأعشى أى أثر فى وزنــه ...

---

(٧٠) الفصول والغايات : ١/١٤٥ ، وانظر هـ ١٣ ص ٣٧٠ .
يذودان : يدفعان . ومن كثب : من قرب .
(٧١) ص ٣٧٠ ، ٣٧١ .
(٧٢) الفصول والغايات ١٤٥ .

وأماما أنكره لكثرته فكـ (**قبض**) امرىء القيس فى (**قفانبك**) ، اذ قال على لسانها فى اللوم لصاحبها : « وقبضنى خمس عشرة مرة قبضا بينا ، ليس عند المستمع هينا ، فأما قبض ليس يبين ، فالقصائد بـه تستهين (٧٣) » ، **والقبض** : حذف الخامس الساكن من الجزء الخماسى والسباعى .

وكـ (**الخزل**) **فى الكامل** (٧٤) ـ وهو سقوط فاء **مستفعلن** فيحول الى **مفتعلن** (٧٥) ـ على النحو الذى جاء به الخليل فى البيت الذى صنعه :

مَنْزِلةٌ صَمَّ صَداها وَعَفَتْ ... خالِيةٌ إن سُئِلت لمْ تُجِبِ (٧٦)

لانه جاء **بالخزل** فى ستة مواضع ، وهذا مالا يعرف ، وانما يعرف **الخزل** فى شعر العرب لجزء مفرد فى البيت ، كما قال تأبط شرا فى قصيدته التى أولها :

ياـارُ شُبَّتْ فارْ تَمَعتَ لِضَوئِهَا ... بالْجِزْعِ مِن أَفيادَ أَو مِن مَوْعِلِ

حيْثُ الْتقتْ فهمٌ وبَكرٌ كُلُّها ... وَالدَّمُ يجْرى بَيْنَهُمْ كَالْجَدْولِ

فقوله : (**والدم يجـ**) فيه خزل)

٤ ـ القوافى من حروف المعجم :

فاذا تجاوزنا نقده للأوزان الى نقده للقوافى وجدنا أول مانجد تأكيده المتصل لضرورتها ، حتى لايكاد يتصور الشعر شعرا بدونها ، على مايبدو من قوله فى احدى رسائله : « **وصلى الله على محمد وعترته حتى يستغنى فرض الحج عن الطواف ، وقريض الشعر عن القواف** » ، ومن قوله فى أخرى

---

(٧٣) خمس رسائل مخطوطة لأبى العلاء ص ١ .

(٧٤) نظر الفصول والغايات ١/٣١٨ ، ٣١٩ .

(٧٥) الخزل فى الحقيقة سقوط الألف مع تسكين التاء من «متفاعلن» فيحول الى « مفتعلن » ، لكنه لم يذكر التسكين نصا لأنه كان فى ذكره قبل هذا الكلام .

(٧٦) صم صداها : هلك من فيها . وعفت : امحت آثارها .

« وفقرى الى لقائه ولقائهم فقر الذى أملق الى الصلة ، وبيت الشعر الى قافية متصلة » (٧٧) •

فليت شعرى ماذا كان قوله ورأيه فيما يسمى الآن بـ (**الشعر الحر**) ، الذى تحرر أصحابه فيه من التزام القافية ، ومن أوزان الخليل ، وان حرموا أنفسهم وشعرهم من ذلك الايقاع الذى لايكون ولا يتم الا بالتزامهما •

ولحرصه على التزامها فى القصيدة ، مع التزامه هو مالا يلزم فيها = كان تمييزه المقصود هنا بين مايصلح ومالا يصلح لها من **حروف المعجم** ، حيث يقول عن أخص حروفها الذى تطلق بمعناه كثيرا :

« فاما الروى فاثبت حروف البيت ، وعليه تبنى المنظومات ، وهو يكون من أى حروف المعجم وقع ، الا حروفا تضعف ولا تثبت ، كألف الترنم وواوه ويائه (٧٨) ، وهاء الوقف ، وهاءات التانيث اذا كان ماقبلها متحركا ، والألف التى تلحق علما للتثنية فى مثل : ضربا وذهبا ، والواو التى تدل على الجمع اذا كان مضموما ماقبلها فى مثال : ضربوا وقتلوا ، وغير ذلك من الحروف ، فان اتفق غير ماذكرت فهو شاذ مرفوض » (٧٩) •

أى ان الروى يكون من أى حروف الهجاء الا هذه لضعفها ، وعلى أنه يكون من الألف ، والواو ، والياء ، والهاء ، فى حالات أخرى ، كما بين بعد ذلك = وجدناه يستضعف بعضها فى تلك الحالات أيضا ، كالواو . التى قال معقبا على حالاتها :

---

(٧٧) رسائل أبى العلاء ٦٢ ، ٤٥٠ •

(٧٨) ألف الترنم وواوه وياؤه : هى التى تلحق بحرف الروى عند ارادة مد الصوت .. لأن الشعر وضع للغناء والترنم ، فألحقوا كل حرف الذى حركته منه • (كتاب سيبويه ٢٩٨/٢) •

(٧٩) لزوم مالا يلزم ٢/١ •

« وما بنى على الواو قليل جدا ، لأن العرب انما كانت تتبع أشرف الحكم فى السمع ، وقلما نجد قافية لها قوة الا وقد عمل عليها المتقدمون » (٨٠) وهى شهادة خطيرة منه لذوق القدماء .

وكالواو فى ذلك الياء الساكنة لغير الترنم بعد متحرك ، لقوله عنها :

« الأحسن فيها أن تجىء وصلا على أى الحالات وجدت ، من كونها فى سنخ الكلمة ، أو للضمير ، أو مخففة من ياء النسب ... وربما جعلت هذه الياءات كلها رويا ، وذلك فى أشعار تضعف ، وليست هذه الياءات بأضعف من الألفات التى بنيت عليها القصائد » (٨١) .

أما حروف المعجم بعد ذلك فمتساويات فى القوة عنده ، الا **تاء التانيث وكاف الضمير** وأكثر ما اتفق للعرب ـ كما بين ـ أن يلزموا حرفا لايلزم قبلهما ... ، والا **نون التوكيد الخفيفة** ، فلا يجوز أن تجعل رويا ، لأن القافية موضع وقف ، وهذه النون تصير فى الوقف ألفا ، فان أريد بها **نون التوكيد الثقيلة** الا أنها خففت للقافية كما خففت **(أضلّ)** ودال **(أشدّ)** = فلا بأس أن تجعل رويا ، لأنها فى نية المثقلة (٨٢) .

٥ ـ أقسام القوافى :

لكن حروف المعجم بعد ذلك ـ وان استوت فى القوة ـ **ليست سواء** فى التقبل والاستعمال ، ومن ثم كان تقسيمه الطريف للقوافى الى تلك الأقسام : **الذلل ، والنفر ، والحوش :**

فالذلل : « ماكثر على الألسن ، وهى عليه فى القديم والحديث » (٨٣) كذلك الذى نوه به عند بعض الشعراء ، ونجده فى حديثه السابق عن **روى النكتى ، من الدال والباء والميم والنون** .. (٨٤) كما نجده فى

---

(٨٠) المرجع السابق ١/٢٧ .
(٨١) المرجع السابق ١/٢٨ والسنخ : **الأصل** .
(٨٢) المرجع السابق ١/١٩ ، ٣٠ .
(٨٣) المرجع السابق ١/٣٠ .
(٨٤) انظر ص ٣٧٢ .

حديثه عن **مأتم القصائد** على أبى تمام ، ذلك الحديث الذى نوه فيه بقوافيه الذلل وما نظم عليها ، حيث جعل **مأتم البائيات** ـ لو تداعت القصائد ـ فى آلاف ، لأن الباء طريق ركوب ... « فأما **الداليات والرائيات** وما بنى على الحروف الذلل **كالميم والعين واللام** وما جرى **مجراهن** ، فلو اجتمع كل حيز منهن وهو حراد ، لضاق عنهن الصدر والايراد » (٨٥) .

والنفر : « ماهو اقل استعمالا من غيره ، كالجيم والزاى ونحو ذلك » .

وقد كان من نحو ذلك عنده ما أخذه على رؤبة فى قوله له ـ على لسان ابن القارح ـ : « **ماكان أكلفك بقواف ليست بالمعجبة ، تصنع رجزا على الغين ، ورجزا على الطاء ، وعلى الظاء ، وغير ذلك من الحروف النافرة** » (٨٦) .

كما كان منه أيضا ماصرح بتركه فى كتابه (سيف الخطب) ، الذى بنى خطبه على حروف الهجاء ، مثل الهمزة والباء والتاء والدال .. اذ **يقول : « وتركت الجيم والحاء وماجرى مجراهما ، لأن الكلام المقول فى الجماعات يجب أن يكون سجيحا سهلا » (٨٧)** .

ومن نحوه كذلك **(الواو)** و **(الألف الممدودة)** و **(الثاء)** ، فالواو لقوله السابق عنها (٨٨) ، والألف الممدودة لقوله : « والمد فى القصائد سبيل مكنوب » (٨٩) ، والثاء لقوله فى مأتم القصائد **على أبى تمام : « وتجىء الثائيتان ... وان الثاء لقليلة فى** شعر العرب ، الا أنهما تستعينان كلمة كثير :

---

(٨٥) رسالة الغفران ص ٤٨٥ ، ٤٨٧ وحراد : جمع حرد وحارد أى معتزل منفرد .

(٨٦) المرجع السابق ص ٣٧٥ .

(٨٧) تعريف القدماء ص ٤٠ ، ٤١ والسجيح : السهل اللين .

(٨٨) انظر ص ٣٩١ .

(٨٩) رسالة الغفران ص ٤٨٥ ومنكوب : معدول عنه .

حِبالُ سَلامةَ أضحتْ رِثاثـاً   فَسُـقْيـاً لها جُدُداً أو رِماثـاً

وبأراجيز رؤبة ، ومـا كان نحوهـا من القوافى المتكلفة ، والأشـعار المتعسفة ... » (٩٠)

لكنه على الرغم من تنديده بهذه الحروف ومابنى عليها قد استطرف قصائد على بعضها ، كما يبدو من استنشاده وروايته (ضادية) عدى بن زيد التى أولها :

أَبلِـغ خَليلى عَبدَ هِنْدٍ فَلاَ   زِلْتَ قريبًا مِنْ سَوَادِ الْخُصُوصْ (٩١)

و (حائية) الأعشى التى أولها :

وَشَمُولٍ تحْسِبُ الْعيْنُ إذا   صُفِّقَتْ جُنْدُعَهَا نَوْرَ الذُّبَحْ (٩٢)

و (الشينية) المنسوبة الى الجعدى التى يقول فيها :

وَلقدْ أَغْدُو بِشَرْبٍ أُنُفٍ   قبْلَ أَنْ يظْهرَ فى الأَرض ربَشْ (٩٣)

وليس يعنى هذا الا انه لم يكن يمنع الاجادة على بعض هذه الحـروف النفر ..

« والحوش : اللواتى تهجر فلا تستعمل ، وذلك أن يتفق أن لاتحلو القافية على كل الأوزان ، كأن نقول : انهم استحسنوا التقييد فى الطويل الثانى ، فاستعمل وكثر ، كما قال امرؤ القيس :

لعمْرُك ماقلبى إلى أهلِهِ بحُرّْ

ولا يعلم شىء من الشعر القديم جاء فيه الطويل الاول مقيدا الا أن يكون شاذا مرفوضا ... ولا يوجد فى دواوين الفحول من أهل الاسلام الا أن

---

(٩٠) المرجع السابق ص ٤٨٦ . ورثاثا : بالية . ورماثا : قديمة .

(٩١) المرجع السابق ص ١٨٦ . والخصوص : موضع بالكوفة .

(٩٢) المرجع السابق ١٧٣ — ١٧٥ وشمول : خمر . صفقت : مزجت. جندعها : فقاعها . الذبح : الجزر البرى

(٩٣) المرجع السابق ٢٠٨ — ٢٠٩ . أنف : شـديدى الأنفة . وربش : عشب ونبات .

يجىء نادرا او متكلفا • وقد جاء فى أشعار المحدثين شىء من الطويل الأول مبنيا على الألف ، وهو الذى يسميه الناس المقصور ، فيقولون : مقصورة فلان ، يعنو نما رويه (ألف) ، قال الشاعر :

خرجْنا مِنَ الدنيا ونحن مِنَ اهْلِهَا ... فما نحْنُ بالأَحياء فيها ولا الموتى
إذا ما أتانا زائرٌ مُتفقِّـــدٌ ... فَرِحْنَا وقلنا جاء هذا من الدنيا

وهذا الشعر لرجل فى السجن كان على عهد ملوك بنى العباس ، ويقال : انه لرجل من ولد صالح بن عبد القدوس » (٩٤) •

واذا تأملنا تقسيمه هذا للقوافى وجدناه يصدر عن أمرين :

أحدهما : كثرة مابنى على الحرف وقلته من الأشعار ، وهو الظاهر •

والآخر : الخصائص الصوتية لبعض الحروف ، كوصفه الباء بأنها : « التى خلصت من الرخاوة وضعف البناء ، الى الشدة وتمكن الأثناء » ؛ والميم بأنها « التى خفت عند القائلين ••• » والنون بأنها « قينة الحروف •• » (٩٥) ، وكقوله السابق : (٩٦) « لأن العرب انما كانت تتبع أشرف الكلم فى السمع » •

وقد تكون هذه الخصائص الصوتية قليلة ومجملة ، لكنها مع ذلك كاشفة عن عمق حسه ودقة تمييزه •

على أنه بهذا التقسيم للقوافى والتمييز بين الحروف كان قدوة لدارس حديث (٩٧) فى بحثه عن قوافى الشعر العربى ، اذ بدأ بحثه عنها من حيث انتهى أبو العلاء ، فاتبع تقسيمه لها الى الذلل والنفر والحوش ••

---

(٩٤) لزوم مالا يلزم ١/ ٣٠ •
(٩٥) رسائل أبى العلاء ٧٢ •
(٩٦) فى ص ٣٩١ •
(٩٧) د• عبد الله الطيب فى كتابه : المرشد الى فهم أشعار العرب ١/٤٦ — ٧١ •

وأخذ عنه كثيرا من تمييزه السابق بين الحروف فى هذا المجال ، وان زاد ـ والحق يقال ـ باستقصائه لجميع الحروف ، وتتبعه لكل منهـا عند من استعملوه فى عصور الشعر المختلفة ، ولفته الى مدى الاجادة والضعف فى ذلك ، مع الكشف عن أسرار سهولتها وعسرها من الناحية الصوتية كثيرا ...

٦ ـ لزوم مايلزم :

ولا يفوتنا بصدد نقده للقوافى أن نوضح رأيه فى (لزوم مالا يلزم) ، لا أعنى الديوان ، انما أعنى تسميته .

ومعناها ـ كما شرح ـ « **أن القافية تلزم لها لوازم لا يفتقر اليهـا حشو البيت ، فاذا جاء فى الشعر شىء قد اتفق أن يلزم قائله شيئا غير هذه اللوازم فهو متبرع بذلك ...** » (٩٨)

ومن أمثلة هذا التبرع ماتكلفه هو فى ديوانه الذى يحمل هـذا الاسم ، وبينه بقوله : « **وقد تكلفت فى هذا التأليف ثلاث كلف ، الأولى : أن ينتظم حروف المعجم عن آخرها ، والثانية : أن يجىء رويه بالحركات الثلاث وبالسكون بعد ذلك . والثالثة : أنه لزم مـع كـل روى فيـه شىء لا يلزم من ياء أو تاء أو غير ذلك من الحروف** » (٩٩) .

وعنده أن « **هذا انما يفعله الشاعر لقوته ، ولو تركه لم يدخل عليه ضعف** » (١٠٠) .

هكذا نظر اليه من حيث هو براعة وقدرة ، فرأى فيه الدليل على قوة الشاعر ، ولا شك أنه كذلك ، اذا نظرنا اليه من هذا الوجه ، ولاشك أيضا ـ كما قال ـ « أن الناظر فى الدواوين ربما قرأ منها الشىء الكثير ، لايجد فيها أبياتا لزم فيها مالا يلزم من الحروف ، فان وجده فهو نادر ،

---

(٩٨) لزوم مالا يلزم ١/١ ــ ١٨ .

(٩٩) المرجع السابق ١/٢٣ .

(١٠٠) المرجع السابق ١/١٩ .

أما المتقدمون فقلما ينتظمون بالروى حروف المعجم ... والمحدثون كذلك على استبحارهم فى القريض .. واذا اتفق لهم أن يجيئوا بالحرف وحركته ضمة أو غيرها فقلما يستوعبون مجيئه على كل الحركات ، وان استعملوه فى حال الحركة جاز أن يلغوه من حال الاسكان ... » (١٠١)

لاشك فى هذا كله لأن المتقدمين والمحدثين ـ كما لاحظ وأصاب ـ انما يتبعون الخاطر ، أينما سلك فهم له تابعون (١٠٢) .

لكن مارأيه هو فنيا فى هذا التكلف الذى لم ير فيه بعض النقاد (١٠٣) من الحسن مايساوى توخيه ؟

الظاهر من تقسيمه القوافى الى الذلل والنفر والحوش أن فى التزامه مالا يلزم ـ على مابين ـ مالا يعجبه ذوقيا من النفر والحوش . وقد اعتذر من نظمه عليها بعض المقطوعات بأن ذلك كان قضاء لحق التأليف لاغير (١٠٤) .

كما يبدو من قوله عن نظمه فى (اللزوميات) : « لا أزعمه كالسمط المتخذ ، وأرجو الا يحسب من السميط » (١٠٥) = أنه لا يرتفع بهذا النظم ومافيه من التزام الى مستوى الذروة الفنية ، ولا يعده ساقطا ، كأنه يتوسط به ، أو يرى فيه اجادة ، ان لم تكن فى كله ففى بعضه ، وان لمتكن الغاية فقريبة منها . وكأنه كان يرى هذا الرأى فى التزامه مالا يلزم فى غير النفر والحوش ، وان عده كله من دلائل قوته واتيانه بما لم يستطعه الأوائل فى مجاله .

---

(١٠١) المرجع السابق ١/٢٢ .
(١٠٢) المرجع السابق ١/٢٣ .
(١٠٣) ابن سنان فى : سر الفصاحة ص ٢١٢ .
(١٠٤) لزوم مالا يلزم ٣٢٨ .
(١٠٥) المرجع السابق ١/١ والسمط ـ بكسر السين مشددة وسكون الميم : الخيط المنظوم فيه حرزات العقد . والسميط ـ على التصغير ـ الآخر القائم بعضه فوق بعض .

٧ ـ القوافى المعيبة :

كذلك ننظر فى عيوب القافية التى أشار الى كثرتها بقوله :

وَرُبَّ أَسْلَافِ قومٍ شَانَهُمْ خَلَفٌ والشِّعْرُ يُؤْتَى كَثِيراً مِنْ قوَافِيه (١٠٦)

فنرى أن أهم ماتعرض لنقده من تلك العيوب هو :

الاقواء ، والاصراف ، والاكفاء ، والسناد ، والايطاء ، والالجاء .

فالاقواء : وهو اختلاف حركة الروى فى قصيدة واحدة ، بأن يجىء بيت مرفوعا وبيت مجرورا = عيب نوه بالسلامة منه فى قوله من (السقط) :

لاَ خَابَ سَعْيُكَ مِنْ خُفَافِ أَسْحَمٍ كَسُحَيْمِ الأَسَدِىِّ أَوْ كَخُفَافِ
مِنْ شاعِرٍ لِلْبَيْنِ قال قَصيدةً يَرْثى الشَّرِيفَ عَلَى رَوِىِّ القَافِ
بُنِيَتْ عَلَى الْإِيطاءِ سالمة من الْـ إِقْـوَاءِ والإِكْفَاءِ والإِصْرافِ (١٠٧)

لكن يبدو أن موقفه من الاقواء عند الجاهليين كان غير موقفه منه عند من بعدهم ، لاننا نجده يفرق بين من عرف الكتابة من الشعراء ومن لم يعرفها ، ويخص الأول بمزيد من الانكار ، ففى نقده للنكتى ــ وهو من المحدثين ــ لم يحمده على مجانبة اقواء واكفاء ، « لأن من كتب وعرف حروف المعجم من العرب والعجم يجب أن يتجنب ذلك ، فان لم يتجنبه فقد أساء » (١٠٨) ، أى ان من عرف أشكال الحروف لم يعتمد على حسه فقط فى التمييز ، بل على حسه ومعرفته معا ، ومعنى هذا أن الجاهليين الذين اعتمدوا على حسهم فقط أقل اساءة عنده ، ومن ثم كان ميله الى

---

(١٠٦) المرجع السابق ٢/٤٣٢ .

(١٠٧) شروح السقط ١٢٨١/٣ والخطاب لغريب . خفاف : خفيف . أسحم : أسود . على روى القاف : يعنى صوته (غاق غاق) كأنه قواف رويها القاف .

(١٠٨) رسائل أبى العلاء ٧٢ ، وانظر رسالة الغفران ١٤٤ .

الاعتذار عنهم على الرغم من عيبه لاقوائهم ، بدليل قوله لليشكرى عن معلقته : « ولقد شنعت هذه الكلمة بالاقواء فى ذلك البيت :

[فَمَلَكْنَا بِذَلِكَ النَاسَ حتى مَلَكَ الْمُنْذِرِيْنُ مَاء السَّمَاءِ]

ويجوز أن تكون لغتك أن تقف على آخر البيت ساكنا » (١٠٩) .

فهو كما ترى ينكر اقواء اليشكرى ، ويعده مشنعا للقصيدة ، لكنه مع ذلك يجوز أن تكون لغته أن يقف على آخر البيت ساكنا ، واذا كانت لغته كذلك فلا اقواء . على أنه لم يقف فى تجويزه الوقف بالسكون عند كونه لغة خاصة ، بل جوزه تجويزا عاما حين قال عن اقوائهم فى موضع آخر : « ويقال : انهم اجترءوا على ذلك لأنهم يقفون على الروى بالسكون » (١١٠) . ومع تجويزه ذلك جوز وجها آخر ، وهو أن يكونوا قد جاءوا بالاقواء مع احساسهم به لعدم انكارهم له ، يبدو ذلك من قوله ـ على لسان ابن القارح ـ لامرىء القيس (١١١) : « وكيف تنشد :

جَالَتْ لِتَصْرَعَنى فَقُلْتُ لَها قِرِى إِنِّى امرؤٌ صرْعِى عليكِ حَرَامُ

أتقول : (حرام) فتقوى ، ام تقول (حرام) فتخرجه مخرج حذام وقطام ؟ ، وقد كان بعض علماء الدولة الثانية [يعنى العباسية] يجعلك لايجوز الاقواء عليك ، فيقول : لانكرة عندنا فى الاقواء ، أما سمعت البيت فى هذه القصيدة :

فكأَنَّ بذْرًا وَاصلٌ بِكُتَيْفَةٍ وكأنما مِنْ عاقل إِرْمَامُ

فيقول : لقد صدقت ياأبا هند ، لأن (ارماما) ها هنا ليس واقعا

---

(١٠٩) رسالة الغفران ٣٣٢ .
(١١٠) لزوم مالا يلزم ١٦/١ .
(١١١) رسالة الغفران ٣٢٠ .

موقع الصفة فيحمل على المجاورة ، لأنه محمول على (كائنا) ، واضافته الى ياء النفس تضعف الغرض » .

لكن اذا صح أن امرأ القيس قد أقوى ـ كما قال ـ خلافا لعلماء الدولة الثانية ، فهل صحيح أنه كان يحس باقوائه ، وأنه لانكرة عندهم فى الاقواء ؟

الذى وصل الينا عن اقواء الجاهلين يعنى أنه وقع دون احساس الشاعر به حين قال ، وأن الذين سمعوه منه قد أنكروه ، فبشر بن أبى خازم حين أقوى لم يتنبه لذلك حتى نبهه أخوه ، والنابغة حين أقوى لم يأبه لذلك حتى نبهه أهل المدينة ، بأن أسمعوه غناء ماأقوى فيه ، ففطن وصحح ، وقال فيما روى عنه : « **وردت يثرب وفى شعرى بعض العاهة ، فصدرت عنها وأنا أشعر الناس** » (١١٢) . ولا ريب أن المعرى كان يعرف ذلك ويرويه ، وهو القائل فى احدى رسائله الى بعض الشعراء : « وكم يود أنه يغرم للمساكين ، ولا يكون الحارث اليشكرى جاء بالبيت الذى فيه (ماء السماء) فى القصيدة المرفوعة ، وبكم دينارا كان يفتدى اقواء النابغة وانكار أهل المدينة عليه ذلك » (١١٣) ، لكنه على الرغم من هذا القول قد انساق الى ضده فيما قال لامرىء القيس .

والاصراف : كما قال : « **اقواء بالنصب** ، ذكره المفضل بن محمد الضبى الكوفى ، ولم يعرف البغداديون الاصراف ، والخليل وأصحابه لايجيزون الاقواء بالنصب ، وقد جاء فى أشعار العرب » (١١٤) ، يعنى أن الاصراف نوع من الاقواء ، يكون بفتح الروى فى بيت وضمه أو كسره فى آخر ، كما يعنى أن تسميته من وضع المفضل ، وأن الخليل وأصحابه لايجيزونه .

---

(١١٢) الأغانى ١١/١٠ ، ١١ .
(١١٣) رسائل أبى العلاء ٨٩ .
(١١٤) ضوء السقط ٥٧ أ .

ومع تنويهه بالسلامة منه فى أبيات السقط السابقة ، يبدو أشد انكارا له واعتذارا عنه حيث يقول (١١٥) : **« وقد جاءت أشياء فى الشعر القديم بعضها منصوب وبعضها مرفوع أو مخفوض ، وانما يحمل ذلك على الوقف ، لأنه يبعد أن يقول عربى فصيح له علم بالشعر :**

أَلَمْ تَغْتَمِضْ (١١٦) عَيْنَاكَ لَيلةَ أَرمَدَا ... وبِتَّ كما باتَ السَّلِيمُ مُسَهَّدَا

فيجىء بالألف ، ثم يجىء ببيت مرفوع أو مخفوض ، اذ كانت الألف منافية للواو والياء ، واذا حكم بالوقف على القافية فلا فرق بين الحركات الثلاث ، على أن تعاقب الحركتين الضمة والكسرة أكثر من معاقبة الفتحة لاحدى هاتين » ، فهو ـ كما ترى ـ يعتذر بالوقف على السكون كما اعتذر فى الاقواء ، لكن قوله : « وانما يحمل ذلك على الوقف ، لأنه يبعد أن يقول عربى فصيح له علم بالشعر .. » أظهر فى الانكار والاعتذار ، كما أن قوله : « على أن تعاقب الحركتين ... » يدل على أن اتيانهم بالاقواء كان أكثر من اتيانهم بالاصراف .

والاكفاء : الذى هو اختلاف حرف الروى فى نفسه ، مثل أن يجىء مرة طاء ، ومرة دالا وأكثر مايقع فى الحروف المتقاربة =

نفهم استنكاره واستقباحه له من قوله :« **فاسترنى رب ، فعيوبى أقبح من السناد والاكفاء ... وانما يوجد الاكفاء فى أشعار النساء والضعفة من الشعراء »** (١١٧) ، فالاكفاء اذن ليس من شيمة الأقوياء ، بل الضعفاء والنساء ، وهل كان قوله فى (اللزوميات) (١١٨) :

---

(١١٥) لزوم مالا يلزم ١/١٧ .

(١١٦) أرمدا : من الرمد ، وهو وجع العين وانتفاخها ، والسليم : الملدوغ ، سمى به تفاؤلا .

(١١٧) الفصول والغايات ١/٣٥ ، ٣٦ .

(١١٨) لزوم مالا يلزم ١/١٧ .

وأَعْـرَضَنْ عن قوافى الشعر تُكْفِئُهَا

الا تعبيرا آخر عن هذا الذوق للاكفاء .

والسناد : وهو اختلاف مايراعى قبل الروى من الحركات والحروف ،

نوه ببراءة النكتى منه فى نقده لقوافيه (١١٩) ، وود أن لم يكـن من عمرو بن كلثوم ، فى قوله له ـ على لسان ابن القارح ـ : « لوددت أنك لم تساند فى قولك :

كأنَّ مُتُونَهُنَّ مُتونُ غُـــدْرٍ
تُصفِّقُهَا الـرياحُ إذا جـــرَيْنَا »

يعنى مجيئه بالفتح ـ على الراء ـ مع الكسر الذى هو حركة هـــذا الموضع فى القصيدة .

الا أنه حاول الاعتذار عن عمرو برده ـ على لسانه ـ : « **أما ذكرك سنادى فان الاخوة ليكونون ثلاثة أو أربعة ، ويكون فيهم الأعرج أو الأبخق فلا يعابون بذلك ، فكيف اذا بلغوا المائة فى العدد ؟** » (١٢٠)

وانما حاول الاعتذار عن عمرو هنا ، لأنه من قبل هذا الحوار كان يعذر القدماء عموما فى السناد ، ويفرق بينهم وبين المحدثين فيه كما فرق بينهم فى الاقواء ، ففى رسالته الى النكتى ذكر أمثلة من سناد القدماء ثم قال : (١٢١)

« **وهؤلاء يعذرون فى مثل هذا** ، فما بال أبى عبادة يقول فى قصيدته التى أولها *** لله عصر سويقة ما أنضرا * :**

لم تُـدْعَ ذا السَّيْفَيْن إلا نجدةً — بك أوجبت لَكَ أنْ تقلَّدَ آخرا

وقد دخل فيما هو أشنع من هذا ، أليس هو الذى يقول :

---

(١١٩) رسائل أبى العلاء ٧٢ .
(١٢٠) رسالة الغفران ٣٣٠ .
(١٢١) رسائل أبى العلاء ٧٣ ، ٧٤ .

لا تُلْحِقَنَّ إلى الإساءة أختهـا
شرٌّ الإساءة أنْ تُسيء مُعاودًا

وارفعْ يديْك إلى السماحةِ مُفْضِلاً
إنَّ الْعُلى فى القوم للأعلى يَدا

شَرْوَى أبى الصَّقْر الذى مَدَّتْ له
شيبانُ فى الْحَسَنَات أبعدَها مـدَى (١٢٢)

ويَسُرُّنِى أن ليس يَكْرُمُ شِيمةً
مِنْ مَعْشرٍ منْ ليس يكْرُمُ وَالِدًا

فظن أبو عبـادة أن الألف التى فى الكلمـة المنفردة من أختها • وليست الثانية من المتصلات بالضمير أو من المضمرات نفوسها = تصلح أن تكون تأسيسا ، فتجىء مع (**والد وصاعد**) ، وذلك مجمع على رفضه عند من تقدم وغيره ، لايجعلون الألف المنفصلة تأسيسا ••• وانما تضعف بعض الغرائز فى غير المؤسس ، فتجىء بالتأسيس ، أو فيما بنى عليه ، فتجىء بما هو خال منه » •

فهو كما ترى ينكر على المحدثين ما عذر فيه القدماء ، لأنه أخذ على أبى عبادة ـ وهو من فحول المحدثين ـ سناد التأسيس فى الموضعين ، **والتأسيس : ألف قبل الروى بينها وبينه حرف** ، والشأن فى التأسيس عند العلماء أنه اذا بنيت عليه القصيدة لزم فى جميع الأبيات ، واذا لم تبن عليه وجب خلوها منه ، وأنه اذا كان فى كلمة والروى فى كلمة وجب أن تكون الثانية ضميرا أو متصلة بضمير • ومن الواضح أن أبا عبادة خالف هذين الأمرين حين قال (**آخـرا**) فى المثـال الأول ، فأسس فى غير المؤسس ، وحين قال (**للأعلى يـدا**) و (**أبعــدها مـدى**) ، فلم يأت بالتأسيس على وجهه فى المثال الثانى •

---

(١٢٢) شروى : أى مثل •

لكن قول أبى العلاء فى (مقدمة اللزوميات) ـ بعد (رسالته الى النكتى) ـ : « ولا يمتنع فى حكم الغريزة أن تكون الألف تأسيسا وبعدها كلمة ليس فيها اضمار (١٢٣) » = هذا القول يعنى تطـــور رأيه فى التأسيس وفيما أنكـره على البحترى ، فعلى حين كـان مـع المتقدمين عندما أنكر على البحترى ما أنكره فى المثال الثانى ، اذا به يميل عن رأيهم ويرى أن ما منعوه لا يمتنع فى حكم الغريزة ، ولا ريب أن تطور انرأى من التبعية الى الاستقلال فيه من تجدد النظر وصدقه ما فيه .

والايطاء : تكرير القافية فى قصيدة واحـدة = ممـا آثر تجنبه ، بدليل تنويهه بسلامة النكتى منه (١٢٤) ، وعيبه اياه على البحترى فى قوله :

هلْ لِلنَّدَى عدْلٌ فيغْدُو مُنْصفًا مِنْ فِعْل إسْما عِيلِهِ بْن شِهابهِ

أزْرَى به مِنْ غدْره بِصَديقه وعُقُوقِهِ لأَخيهِ مَا أزْرَى بِــهِ (١٢٥)

ثم قوله :

يقْظانُ ينْتخبُ الْكَلَامَ كأنَّهُ جيْشٌ لديْه يُريدُ أنْ يلْقَى بـهِ

اذ نقده بأنه « ردد (به) مرتين ، ولو ترك ذلك لكان أحسـن ، وكان بعض من سلف من أهل العلم يرى أن هذا ليس بايطاء ، لأنه يعتقد أن (أزرى) مع (به) كالشىء الواحد ، وكذلك هى مع (يلقى) ، وليس هذا القول بمرضى ، وان كانوا ذكروه » (١٢٦) .

والالجاء : هو ما تعقب فيه أبا تمام كثيرا ، وكشف عن مواضعه فى شعره ، يعنى اضطراره الى التقفية بأسماء لا يقتضيها السياق ، انما اقتضاها الروى فقط ، من نحو قوله عن بيته :

---

(١٢٣) لزوم مالا يلزم ١/٤ .
(١٢٤) رسائل ابى العلاء ص ٧٢ .
(١٢٥) أزرى به : قصر به .
(١٢٦) عبث الوليد ص ٤٤ .

خُذْهَا فما نالها بنقصٍ مـوتُ جَريـرٍ ولا الْبعِيثِ

« أى مادمت باقيا فكأن غيرى من الشعراء لم يمت . وذكر البعيث لأجل القافية » (١٢٧) .

وقوله أيضا عن بيته الآخر :

لمْ يُلْبِس اللهُ نُوحًا فضْل نِعْمتِهِ إلا لِمَا بِثَّهُ مِنْ شُكْرِه نُـوحُ

« هذا من الالجاء الذى تقدم ذكره فى حرفَ (الثـاء) عنـد قـوله (البعيث) ، لأن القصيدة لو كانت على (السين) لصلح أن يجعل مكان نوح موسى ، ولو كانت على (الدال) لصلح أن يجعل مكانه هودا ، فأما قول النابغة :

تيْتُك عاريًا خَلَقًا ثِيابـى على خوْفٍ تُظنُّ بى الظُّنُونُ

أفأَلْفَيْتُ الأَمانةَ لَمْ تَخُنْهَـا كذلك كان نوحٌ لا يخُونُ

فليس من هذا النحو [يعنى الالجاء] اذ كان البيت لا يفسد بتغير الاسم » (١٢٨) .

ومما هو شبيه بالالجاء فى أنه زائد لا دلالة له فى السياق ، ماتعقب فيه أبا تمام أيضا ــ وقد تقدم (١٢٩) ــ من التقفية بمصدر الفعل ، تلك التفقية التى كانت من مناهج القدماء ، ورغب عنها المحدثون ، حتى صاروا يعيبونها ، وحتى ان المتنبى كان يعتمد تركها ، واخلاء الكلام من مثلها أحسن وأقوى ، لأن المصدر يجىء بعدما استغنى الكلام ، وعلم الغرض ، وانما يتوصل به الى تقويم القافية وصلاح الوزن (١٣٠) .

٨ ــ انشاد الشعر :

وفيـه كانت أهـم ملاحظـات المعـرى ، تلك الملاحظـات التى

---

(١٢٧) شرح التبريزى لأبى تمام ٣٣١/١ .

(١٢٨) المرجع السابق ٣٤٣/١ وانظر أيضا ٢٩/٢ ، ٣٣٧ .

(١٢٩) ص ٢٢٢ .

(١٣٠) المرجع السابق ٢٦٦/٢ .

لانكاد نجد لهانظيرا فى تاريخنا النقدى ، والتى توخت من وحدة النغم بالانشاد مايحقق غاية التأثير .

وعلى الرغم من أن الانشاد كان ولايزال معرض الشعر الخاص بابراز موسيقاه والتأثير بها ، لا نكاد من عناية النقاد به شيئا يذكر ، ولعل طبيعة أبى العلاء فى الاعتماد على سمعه الى كونه شاعرا وناقدا هى التى جعلته يهتم به ويتجه الى نقده .

أما اهتمامه به فواضح أولا من الحاحه على الشعراء فى (الغفران) أن ينشدوا بعض أشعارهم ، اذ لم يلتق ابن القارح بواحد منهم هنالك فى رحلة الآخرة الا قال له : أنشدنا قولك ، أو كيف تنشد قولك . ؟ كما هو واضح ثانيا من قولهم ـ فيما أسلفنا (١٣١) ـ ان الشعراء كانوا يفدون عليه للانشاد كثيرا ، فيستمع منهم ، ويحكم لهم أو عليهم ، ان هذه الوفادة للانشاد فضلا عما تعنيه من ثقتهم بذوقه ذات دلالة أخرى على تقبله واقباله ، على أن هذا الاقبال كان يتعاظم اذا استحسن الشعر وأعجب به ، حتى لنجده يستزيد من انشاده ويميز بين أنواع الانشاد ، حكى ابن العديم : « سمعت والدى ـ رحمه الله ـ يقول : بلغنى أن أبا العلاء كان يعجبه قصيدة التهامى التى يرثى بها ولده ، وأولها :

حكم المنيةِ فى البريةِ جـار ... مـا هـذه الدنيا بدار قَـرارِ

قال : فكان لا يرد عليه أحد من أهل العلم الا ويستنشده اياها ، لاعجابه بها ، فقدم التهامى معرة النعمان ، ودخل على أبى العلاء فاستنشده اياها فأنشدها ، فقال له أنت التهامى ؟ فقال : نعم : وكيف عرفتنى ؟ فقال : لأننى سمعتها منك ومن غيرك ، فأدركت من حالك أنك تنشدها من قلب قريح ، فعلمت أنك قائلها » (١٣٢) .

وفى رواية أخرى أنه عقب على الانشاد بقوله : « أحسنت ، ولأنت صاحبها التهامى » (١٣٣) .

---

(١٣١) ص ٦٨ .

(١٣٢) تعريف القدماء ص ٥٦٤ .

(١٣٣) أوج التحرى ص ١٣٩ .

وأما ما اتجه الى نقد انشاده فثلاثة :

القوافى المحتملة للوصل وعدمه ...

القوافى الموصولة بالواو والياء ...

المهموز الوسط فى الوزن والقافية ...

فالقوافى المبنية على الراء : يجرى انشادها على التفخيم عنده فى موضعين :

أحدهما : ماكان أكثر قوافيه مما يقوى فيه التفخيم ، كقصيدة البحترى التى مطلعها :

اخْلَعْ ببغدادَ العِذَارا

اذ كان تعليقه على هذا البيت منها :

لا مُسْلِمُون ولايهُو دُ ولا مَجُوسُ ولا نصارَى

« من أنشد (نصارى) فى هذا البيت فأمال فقد أساء اساءة بينة ، وانما ينبغى ان تفخم ، لتكون القوافى على منهاج واحد ، وكذلك جميع مايقع فيه قافيتان ، احداهما يقوى فيها التفخيم والأخرى يستحسن فيها الامالة ، فانما ينبغى أن يحملَ على أغلب القافيتين » (١٣٤) .

فعلى الرغم من أن (نصارى) مما تحسن فيه الامالة أوجب فيها التفخيم ، لأن الأغلب على غيرها من قوافى القصيدة التفخيم .

والآخر : ماكان بعض قوافيه لا يجوز فيه الا التفخيم ، وذلك كقصيدة البحترى الأخرى التى مطلعها :

قُلْ للوزير الذى مناقبهُ شائعةٌ فى الأَنام مُشْتَهَرهْ

لقوله عنها :

« هذه الأبيات ينبغى أن تفخم الراء فى قوافيها ، اذ كان بعضها لايجوز فيه الا التفخيم ، مثل (مشتهره وخيره) ، وبعضها يحتمل

---

(١٣٤) عبث الوليد ص ١٢٢ .

التفخيم وغيره ، كقوله : (خضره) ، والمنشد طالما تهاون بذلك ، ففخم بعضا وأمال بعضا ، والأحسن أن يجريها كلها على التفخيم ، ليكون اللفظ متجانسا ، وكذلك يجرى حال الراء المنصوبة ، مثل قصيدة جعلت قوافيها (حميرا وميسرا) ونحو ذلك ، فهذا لا تميل فيه الغريزة الا الى التفخيم ، فاذا جاء مثل (منذر ومكثر) حسنت الامالة فى اللفظ الذى فيه الكسرة ، الا أن التفخيم ينبغى أن يلزم ، وذلك كقول الجعدى :

وَإِنَّا لَحَيٌّ ما نُعَوِّدُ خَيْلَنا إذا ما الْتَقَيْنا أَنْ تَحِيدَ وَتَنْفِرَا

فالراء فى (تنفرا) يحسن فيها الوجهان ، الا أن التفخيم ينبغى أن يلزم فى هذا الموضع لقوله :

وَلَيْسَ بِمَعْرُوفٍ لنا أَنْ نَرُدَّها صِحاحًا وَلا مُسْتَنْكَرًا أَنْ تُعَقَّرَا

اذ كانت الامالة تمتنع فى (تعقرا) ، وكذلك (السنور) وما أشبهه » (١٣٥) .

فلأن (**مشتهره**) ونحوها فى قصيدة البحترى واجبة التفخيم ، لأن راءها مفتوحة بعد فتح = كان انشاد القصيدة كلها على التفخيم أولى – وان كان فيها ما يحتمل الامالة لكسر ما قبله كـ (خضره) – ايثارا لوحدة الانشاد فى القوافى . ونحو من قصيدة البحترى فى ذلك قصيدة الجعدى التى أشار اليها ، وقصيدة ابن أبى حصينة التى مطلعها :

هلْ تعْرفُ الرَّبْعَ الذى تنكَّرا بيْن الْمَوَاعِيس إلى وادى القُرَى

والتى اختار للمنشد ان يفخم (الراء) فى قوافيها كلها ، وان كان فيها ماتجوز امالته ، كـ (**الكرى والورى**) ، لأن فيها أيضا مالا تجوز امالته ، كـ (تنكرا) ، فينبغى اذن للمنشد أن يقول (**الكرى**) **بفتح** الراء ، ليكون اللفظ بالروى متساويا (١٣٦) .

---

(١٣٥) المرجع السابق ص ١١٣ ، ١١٤ . والسنور : لبوس من قد كالدرع .

(١٣٦) شرح ديوان ابن أبى حصينة لأبى العلاء ١٨٤/٢ .

والظاهر من اجرائه الانشاد على التفخيم فى الموضعين أن مالا تفخيم فيه بالجواز أو الوجوب يجرى انشاده على الامالة لا التفخيم ..

والقوافى المحتملة للوصل وعدمه : نقرأ من رأيه فى انشادها قوله عن قصيدة ابن أبى حصينة التى مطلعها :

رَبْــعٌ تَعَفَّتْ باللِّوَى عُهُودُهُ ... وَأَصْبَحَتْ مُنْهَجَةً بُرُودُهُ (١٣٧)

« الاختيار فى وقف الهاء ووصلها بالواو الى المنشد ، والذى اختاره المتقدمون وأصحاب الغرائز أن يوصل بالواو ، لأنه أقوى فى السمع ، وعلى ذلك جاءت قصائد المتقدمين ، من الشعراء الأولين والمحدثين ، كقوله :

وبلــدٍ عاميــةٍ أَعْمَــاؤُهُ ... كَأَنَّ لَوْنَ أَرْضِـهِ سماؤُهُ (١٣٨)

اتباع الهاء أحسن ، وكذلك قول الحكمى أبى نواس :

لمَّا عدا الثَّعْلَبُ مِنْ وِجَارِهِ ... يلتَمِسُ الكَسْبَ على صِغَارِهِ (١٣٩)

اتباع الهاء بالياء أقوى للشعر ... الا أن وقف الهاء فى المنصوب أحسن منه فى المرفوع والمخفوض » .

فنجد أن مااختاره المتقدمون وأصحاب الغرائز من تحريك الهاء ووصلها فى غير المنصوب = هو مختاره أيضا ، لأنه ـ كما قال ـ أقوى فى السمع ، من حيث كانت الحركة أمد صوتا وأملأ للسمع من السكون . كذلك وصل اللام بالياء فى قول البحترى :

رَدَّتْ علىَّ أَحاديثَ الصِّبَا حُرَقًا ... وَقَدْ تَقَدَّمَ عصْرٌ دونه خالِ

فتصير فى الانشاد (خالى) بالياء = خير من تنوينه ، والياء حادثة للوصل ، ليست الياء التى هى منقلبة من الواو فى (**الخالى**) . واثبات

---

(١٣٧) المرجع السابق ٢/٥٠ وتعفت : امحت . ومنهجة : بالية .

(١٣٨) أعماؤه : مجاهله ، وعامية إعماؤه : متناهية فى العمى ، فلا يهتدى فيه (اللسان : عمى) .

(١٣٩) من وجاره : من جحره .

الياء فى الخط يقوى على قول من قال فى الوقف :(**هذا قاضى**) ، فاثبت الياء ، وعلى هذا قرأ ابن كثير فى الوقف (**مالهم من دونه من** والى [سورة الرعد : ١١] (١٤٠)

أما مهموز الوسط : فقد فصل أحوال انشاده فى تعليقه على بيت المتنبى:

ولا شُغِلَ الأميرُ عن المعالى ولا عنْ خَلْقِ خالقه بكاسِ

حيث يقول « الكأس وما يجرى مجراه من الثلاثى الذى فى وسطه همزة يكون له ثلاثة أحوال فى القريض ، اذا جاءت فى حشو البيت فالمنشد بالخيار ، ان شاء همز وان شاء جعل الهمزة ألفا ، كقول القائل :

وَكانَ الْكَأْسُ مَجْرَاها الْيَمِينَا

واذا جاءت فى القافية مع حروف ليست ذات لين فالهمز واجب ، وتركه خطأ ، نحو قول الراجز :

قدْ خطبَ النومُ إلىَّ نفسِى همْسًا وَأَخْفى مِنْ مقالِ الْهمْسِ

وَمَا بِأَنْ أَطْلُبَهُ مِنْ بَأْسِ

فان لم يهمز (بأس) فى هذا الموضع فهو عيب لم تجر العادة بمثله ، واذا نسبه بعيوب الشعر حسب من السناد ، الا أن العرب ساندت فى الواو والياء اذا كانا ردفين ولم يساندوا بألف ، لم يجيئوا مع (جلس وجيس) بمثل (ناس) ، وجاءوا مع (نفس وخمس بقوس) ، ويجوز عندهم أن ياتوا مع (خمر وأمر) بمثل (خير) ، الا أنه عيب .واذا كانت (كأس) ونظائرها مع حروف لين مثل (ناس وقاس) فهمزها خطأ » (١٤١) .

وانما فرق بين مجىء المهموز فى القافية ومجيئه فى الحشو بسبب

---

(١٤٠) غيث الوليد ص ١٨٢ .

(١٤١) الموضح ٢/٢٦ ب : وانظر أيضا ١/٨٥ ب ، وشرحه لديوان ابن أبى حصينة ٢/٦٩ .

النبر فى الهمزة ، النبر الذى يظهر أثره فى القافية أكثر من ظهوره فى الحشو ، من حيث كانت القافية منتهى الموجة الصوتية التى يرتبط بها السمع فى كل بيت من جهة ، وفى جملة أبيات القصيدة من جهة أخرى ، فقطع المهموز فى القافية اذا كان مقابله صحيحا هو الذى يحقق وحدة النغم ، بوحدة الضغط أو تقاربه على المقطع الأول الساكن فى الثلاثى ، على حين تختل هذه الوحدة اذا اختلفت القوافى من الثلاثى بالهمز واللين .

* * *

وبعد ، فمن الواضح أن أبا العلاء فى نقده الأوزان والقوافى قد اعتمد أكثر ما اعتمد على الغريزة ، حتى لتبدو المقياس الأول فيما قبله ورفضه هنا ، وآية ذلك مما ذكرناه : تمييزه بين زحافا ت المتنبى على أساس من قبول الغريزة وانكارها ، واعتراضه على زيادة القدماء فى بعض الأوزان بقوله لامرىء القيس : « هل كانت غرائزكم لا تحس بهذه الزيادة . فان الغرائز تحس بها » ، وعيبه بعض أوزان البحترى بأنها مما تنكره الغريزة ، وحكمه بأن القوافى المنصوبة كـ (حميرا) لا تميل فيها الغريزة الا الى التفخيم ...

وآيته مما لم نذكره قوله فى رسالته الى النكتى : **« وقد وجدنا بعض من يقول الشعر بالعروض ربما ركب وزن قصيدة المرقش ، وعنده أن غرائز الناس اليوم لا تنفر من مثل ذلك » (١٤٢) .**

= وقوله فى (رسالة الغفران) : **« وكان لى كرى من أهل البادية يعرف بعلوان ، وله امرأة تزعم أنها من طى ، وكان لايعرف موزون الأبيات من غيره ، وكانت المرأة تحس بذلك » (١٤٣) ...**

= وقوله فى مقدمة (اللزوميات) : **« ولو بنيت قواف على (ضربت وكتبت) ، ثم جىء فيها بـ (وزنت) لكان جائزا بلا اختلاف ، الا أن القائل اذا قواها بلزوم الباء كان أحسن ، ومن تدبر ماذكر ممن له أيسر غريزة علم أن (وزنت) مع (ضربت) فى القوافى أضعف من (خبت) مع (سمت) ، لأن هذه التاء [يعنى فى الأخيرين] من السنخ » (١٤٤) ، أى الأصل .**

---

(١٤٢) رسائل أبى العلاء ٧٥ .

(١٤٣) رسالة الغفران ص ٥٨١ .

(١٤٤) لزوم مالا يلزم ١/٢٠ .

ان هذا الاعتماد الزائد على الغريزة ـ فضلا عما يعنيه من قوة حسه ـ يـــدل على سلامة نقده ، لأن الاحساس هو الأصل فى التذوق .

ومع اعتماده الزائد على الغريزة كان اعتماده على المعرفة فى كثير مما ذكرت ، وآيته مما لم أذكره تنبيهه على أوزان لم يذكرها الخليل ، بعضها للجاهليين ، كأبيات أم السليك التى أولها :

طـاف يبْغِى نَجْوَةً مِنْ هـلَاكِ فهَـلَكْ

فقد قال عنها : « هذا الوزن لم يذكره الخليل ولا سعيد بن مسعدة ، وذكره الزجـاج وجعله سـابعا للرمـل ، وقـد يحتمل أن يكون مشـطورا للمديد » (١٤٥) .

= وبعضها للمحدثين ، **كأصل الرمل وثانى المنسرح** ، اللذين جاء بهما المتنبى ، فهما أيضا ـ كما قال (١٤٦) ـ مما لم يـــذكره الخليل ولاغيره .

لكنه ليس واضحا عيبه تصريع المتنبى لغير المطلع فى موضـع ، بعد ميله الى الدفاع عنه فى موضع آخر ، فقد قال عن بيته :

وَمَا بَلَدُ الأنسان غيرُ الموافِقِ ولا أَهْلُهُ الأَدْنَوْن غيرُ الأَصادقِ

« هذا البيت قد ضعف بالتصريع ضعفا بينا ، وهو كالمنقطع من معنى ماقبله ، ولم تجر عادة أبى الطيب بالتصريع فى غير الأوائل » (١٤٧) .
= بعد قوله عن بيته الآخر :

يا عاضِدًا ربُّهُ بهِ العاضِدْ وَسارِيًا يبْعثُ الْقطا الْوارِدْ

« يقال ان بعض الناس انكر على أبى الطيب كثرة التصريع فى هـــذه القصيدة ، اذ كانت العادة لم تجر بمثله ، وان كانت الشعراء قد استعملته على ضروب ... » (١٤٨)

---

(١٤٥) شرح الحماسة للتبريزى ٢/٣٧٠ .
(١٤٦) انظر ص ٣٧٣ فيما سبق .
(١٤٧) الموضح ٢/٩٧ ب .
(١٤٨) المرجع السابق ١/١٨١ أ

البنـاء الفنـى

لو قلت ان أبا العلاء كان شديد الاعتداد بوحدة البناء فى القصيدة ، أى وحدة أسلوبها وموسيقاها ومعانيها = لأيدك سند قوى من آرائه فيما قدمت وفيما سأقدم ، لأنه مع طلبه البيت السائر أو المثل المذكور الذى يقتضى وحدة البيت = قد أبدى كثيرا مايعنى ايثاره لتواصل الأبيات وتكامل البناء فى كل جانب من هذه الجوانب .

فالأسـلوب :

رأيناه يؤثر اطراده على نسق واحد من القوة ، فى البيت ، والأبيات ، والقصيدة ، وشعر الشاعر كله ، وكان ذلك فى أمور :

منها : تفضيله السابق روايـة (**تزجية**) بالمصـدر على (**يزجيه**) بالفعل فى قول البحترى :

وَالشَّيْبُ تَزْجِيَةُ الْهوَى وَخُفُوفُهُ

ليكون المصـدر وهـو (خفوفه) معطوفـا على المصـدر وهـو (**التزجية**) (١٤٩) .

ومنها : تفضيله السـابق أيضا روايـة (**أللشبيبة**) على (**هـل لشبيبة**) فى قول البحترى :

أَلِلشَّبِيبَةِ لمَّا كان آخِرُهـا خلْفِي وَلِلشَّيْبِ لمَّا كانقُدَّامِي

لأن (هل) قد جاءت فى البيت الذى بعده مبتدأ بها فى أوله ، وهـو قوله :

---

(١٤٩) انظر ص ١٩٥ .

هل الشبابُ مُلِمٌّ بى فَراجعُهُ أيامه لِى فى أعقـابِ ايامِى

ولأن الهمزة هاهنا أحسن من هـل ، لأنها الأصـل فى باب الاستفهام ، والاتساع يقع فيها أكثر منه فى غيرها ، فيحسن أن يقال : ألأجل كـذا جفوتنى ؟ ولا يحسن هل لأجل كذا جفوتنى ؟ (١٥٠)

ومنها : تفضيله السابق كذلك ، رواية من روى مطلع المتنبى :

أَهْلاً بِدارٍ سَبَاكَ أَغْيَدُهـا أَبْعَدَ مابان عنْك خُرَّدُهـا

على الاستفهام ، لقوله فى البيت العاشر من القصيدة :

لِيْسَ يَحِيكُ الْمَلَامُ فِى هِمَمٍ أَقْرَبُهَا مِنْكَ عنْك أَبْعـدُهـا (١٥١)

اذ كان أبو الطيب ـ فى رأيه ـ قليل التكرير ، وحمل الرواية على الاستفهام هو الذى يحقق لأسلوبه هذه المزية .

ومنها : عده اضطراب النحو فى (أخنس ذيـــال) بـ (**لامية**) امرىء القيس * **الا انعم صباحا** * = شائنا لها ، ورأيه أن الضرورة فى قوله من (البائية) :

فقُلْ فِى مقِيلٍ نحسُهُ مُتغيِّبِ

قد شنعت القصيدةبعيب ، لم يخلهافى الزمن منريب ، لأن هذه الضرورة ـ على خفض متغيب ـ ضرورة قبيحة ، ما أباحتها للقائل مبيحة ، حيث قدم الضمير المتصل بالمرفوع (١٥٢) .

ومنها : كراهيته السابقة أن يكون من شعر المتنبى بيتاه :

---

(١٥٠) انظر ٢٠٨ .
(١٥١) انظر ٢٠٨ .
(١٥٢) انظر ص ٢٥٢ .

ماذا يقُولُ الذِى يُغَنِّى ياخَيْرَ مَنْ تحْت ذِى السَّمَاء
شَغَلْتَ قلْبِى بِلحْظِ عينى إليك عنْ حُسْنِ ذَا الْغِنـاء

ولم تكن تلك الكراهية ـ كما بينا (١٥٣) ـ الا لما فيهما من تكرار (ذا) و (ذى) وحرف الذال عموما ، ثم لنثرية نسجهما ونزول ألفاظهما عن مستوى لغته الجزلة • فحرصه على وحدة شعره فى مزاياه التعبيرية ، واعتقاده سقوط هذين البيتين عن هذا المستوى = هو السبب فى كراهيته لهما •

والموســـيقى :

وجدناه أشد كلفا باستقامتها وعدم اختلالها ، فى البيت الواحـد ، والقصيدة جملة •

أما كلفه بذلك فى البيت فيبدو من ايثاره السابق رواية بيت الطائى :

فهُوَ لدَى الرَّوْعِ وَالْحلائِبِ ذُو أَعْلًى مُندًّى وَأَسْفَلٍ يَبَسِ

بتنوين (**أعلى**) ليساوى (**أسفل**) فى التنوين ، اذ لو ترك تنوينـه لتنافرت الكلمات •

= ورواية بيت البحترى :

قرُبَتْ مِن الْفعْلِ الْكَرِيم يَدًا كا ـ وَدَنَا على المُتَطَلِّبين مدا كا

بـ (**قربت**) دون (**قريب**) ، لأنه برواية (**قريب**) يصير الشطر الأول من **الطويل الثالث** ، والشطر الثانى من **ثانى الكامل** الذى منه القصيدة ، وذلك بين على من له أقرب حس •

= ورواية بيت المتنبى :

وتَرَى الـمُرُوَّةَ والْفُتُوَّةَ والأبُ وَّ ةَ فِىَّ كلُّ مليحةٍ ضَرَّاتِها

---

(١٥٣) انظر ص ٢٥٠ •

بتخفيف الهمزة من (**المروة**) ، ليضاهى بها (**الأبوة والفتوة**) (١٥٤) ٠

وأما كلفه بذلك فى جملة القصيدة فيبدو من عده الحارث اليشكرى قد شنع كلمته :

* آذنتنا ببينها أسماء *

بالاقواء فى قوله منها :

وَملكْنا بذلك النَّاسَ حتَّى
مَلَكَ الْمُنْذِرُ بنُ ماءِ السَّماءِ

فالاقواء الواحد لاخلاله بالسياق الموسيقى فى القافية يكفى لتشنيع القصيدة وعيبها (١٥٥) ٠ ونحو منه ما أخذه على امرىء القيس فى بعض قصائده ، حين جعلها ـ فيما أسلفنا (١٥٦) ـ تحتج عليه ، لاخلاله بالسياق الموسيقى فيها ، بما ارتكبه من حذف أو زيادة ينفر من كليهما الحس أو يفتر ٠

وأيضا أخذه على الطاعن عليه ـ فى زجر النابح ـ أن وصل بهذين البيتين :

سَعَى آدمٌ جَدُّ الْبريَّةِ فى أذًى
لِذُريَّةٍ فِي ظَهْره تُشْبهُ الذَّرَّا
تلاَ النَّاسُ فِي النُّكْراءِ نهْجَ أبيهم
وغُرَّ بنُوهُ فِي الحياة كما غُرَّا

قوله :

أرَى عالمًا يشْكُو إلى الله جَهْلَهُ
وَكَمْ مِنْ برًى يعْلُو فيَخْطُبَ مِنْبرَا

---

(١٥٤) انظر ص ١٩٩ ، ٢٠٠ ٠

(١٥٥) الغفران ص ٣٣٢ ٠

(١٥٦) انظر ص ٣٨٤ ، ٣٨٥ ٠

= قصدا للايذاء والتحريش ، مــع أن القولين من بحرين مختلفين ، فأنبأ ـ كما قال أبو العلاء ـ عن غريزة ناقصة ، ولب ليس بثابت ، وتعرض لما لا يحسن (١٥٧) .

والمعـــانى :

كانت آراؤه الرامية الى وحدتها فى البيت والأبيات والقصيدة .

ففى البيت : رأيناه يؤثر رواية « **أحسنى ملأ** » ـ أى خلقا ـ على رواية « **أحسنى ضربا** » فى قول الحماسى :

تنــادَوْا يالبُهْثَةَ إذْ رَأَوْنــا
فقُلْنــا أَحْسِنِي ضربًــا جُهَيْنَــا

اذ بها يصح الغرض ويشبه بعض الكلام بعضا ، أى لما رأونا ورمونــا بــ (يالبهثة) ـ وهو سباب ـ قلنا : أحسنى خلقايا جهينة ، اذ كان السباب ليس بجميل (١٥٨) .

وفى الأبيات : رأيناه يلفت الى رعاية المتنبى وحــدة سياقها فى قـــوله :

كأَنَّ فَعْلَةَ لَمْ تَمْلأْ مَوَاكِبُهــا

اذ كنى عن (**خولة**) أخت سيف الدولة (**بفعلة**) ، وهذا تقوية لقوله قبله :

أُجِلُّ قَدْرَكِ أَنْ تُسْمَيْ مُؤَبَّنَةً . . . . (١٥٩)

ثم رأيناه يأخذ عليه تناقضه فى قوله :

تَعُــومُ عَوْمَ الْقَذَاةِ فِى زَبَــدٍ
مِنْ جُودِ كَفِّ الْأَمِيرِ يَغْشَاهَا (١٦٠)

---

(١٥٧) زجر النابح ص ٩٩ ، ١٠٢ ، ١٠٣ .

(١٥٨) انظر ص ٣١٩ .

(١٥٩) الموضح ١/٢٣ ب .

(١٦٠) القذاة : الشىء اليسير . فى زبد : أى فى بحــر ذى زبد ، والزبد : رغوة الموج .

حيث لقبه هنا بـ (الأمير) وقد جعله (مولى الملوك) فى أول المدح ، فكأنه نقصه عن الرتبة الأولى (١٦١) .

وفى القصيدة أو المقطوعة : نراه يبين وحدة أبياته هو فى جملة من لزومياته التى طعن عليها ، ويتخذ من هذه الوحدة سبيله فى الدفاع عنها ، مبينا ماجناه الطاعن بفصله بينها قصدا لايذائه والتحريش به ، وذلك كفصله البيت الأول من هذه الأبيات :

مَابَيْنَ مُوسَى وَلاَ فِرْعَـونَ تَفْرِقَةٌ
عِنْـدَ الْمَنُون بإِكْبَار وَإِصْـغَارِ

كَأَنَّهَا ذَاتُ قُرٍّ أُطْعِمَتْ لَهَبَـا
مَاضَمَّهُ الحَطْبُ من سِدْ رٍ ومِنْ غارِ

أَوْ أُمُّ أَجْرٍ جرَى قَتْلٌ عَلَى نَفَـرٍ
حُرٍّ وَعَبْدٍ فَجَرَّتْهُمْ إلَى الْغَـارِ

تَرْمِى بعُضْوَيْن ذى نُطْقٍ وَذِى خَرَسٍ
إلَى فِم لِصُنُوف الطُّعْم فغَّـارِ (١٦٢)

مع اتصاله بما بعده ، ذلك الاتصال الذى شرحه أبو العلاء بقوله فى الدفاع عنه :

« ادعى أن هذا تسوية بين موسى وفرعون ، وترك الأبيات التى بعد هذا البيت ، اذ كانت تبين الغرض ، وتكشف حقيقة اللفظ .. والأبيات الأربعة كلها تشهد لموسى صلى الله عليه بالفضيلة .

---

(١٦١) الموضح ٣/١٧٣ ب وانظر ٢/٩٧ ب ، ٣/٨٣ أ .

(١٦٢) قر : برد . أم أجر : ضبع . وأجر : جمع جرو ، وهو ولدها. فغار : مفتوح .

أما البيت الأول : فمترجم عن مثل قول القائل : ما الشريف عند المنية الا كالوضيع ، وما العزيز فى لقائها الا كالذليل ...

وأما البيت الثانى : فهو كاشف للغرض في الأول ، لأنه شبه المنية بالأمة المقرورة ، التى توقد نارا تريد أن تدفع بها شفيف القرة (١٦٣) ، فهى تطرح اليها ماتيسر من الحطب ، من السدر والغار ، فأما السدر فهو مثل لفرعون وغيره ممن لا فضيلة له ، وأما الغار - وهو شجر طيب الرائحة - فهو مثل لموسى صلى الله عليه ، وقد تردد فى أشعار العرب صفة الغار بطيب الرائحة ، قال عدى بن زيد :

أَبْصَرَتْ عَيْنِى عِشَاءً ضَوْءَ نَارِ
مِنْ سَنَاهَا عَرْفُ هِنْدِىٍّ وَغَارِ

فجعل الغار مقرونا الى العود المجلوب من الهند .

وأما البيت الثالث : ففى مثل معنى البيت الثانى ، لأنه جعل المنية مثل الضبع ، لا تفرق بين عبد وحر ، ولا صعلوك من القوم وملك ، بل أى ذلك قدرت عليه أطعمته أجريا لها فى غار .

وأما البيت الرابع : ففى صفة الضبع المشبهة بها المنية ، وأنها تأخذ العضو الذى من شأنه النطق ، وهو اللسان المعدود من أشرف الأعضاء ، لأنه يذكر الله سبحانه ويفصح بتحميده ويقر بنعمه واحسانه ، والعضو الأخرس الذى ليس له شرف اللسان ، فتلقى العضوين جميعا الى فم يغفر بجميع مانبذ اليه ، ولا يفرق بين الأشرف والدنىء ، وأنما هذا المثل لموسى صلى الله عليه ومن سواه . وقد تبين تشريف موسى عليه السلام فى هذه الأبيات من وجوه كثيرة ، لأنه جعل كاللسان الناطق الذى يسبح الله ويقدسه » (١٦٤) .

---

(١٦٣) شفيف القرة : شدة لذع البرد .

(١٦٤) زجر النابح ص ١٠٩ : ١١٢ وانظر أيضا ٦٦ ، ٦٧ ، ٧٢ .

فاذا تجاوزنا حديثه عن أبياته هو الى حديثه عن غيرها ، وجدناه يأخذ على الطائى خروجه من وصف الى وصف آخر بغير ذريعة للخروج فى قوله عن بيتيه :

الرِّزْقَ لَا تَكْمَدْ عَلَيْـهِ فَإِنَّـهُ
يَأْتِي وَلَمْ تَبْعَثْ إِلَيْـهِ رَسُـولَا

لِلَّهِ دَرُّكِ أَيَّ مَعْـبَرَ قَفْـرَةٍ
لَا يُوحِشُ ابْنَ الْبَيْضَةِ الْإِجْفِيلَا

« خرج الى صفة الناقة بغير ذريعة للخروج » (١٦٥) ، اذ كانوا ـ كما هو مقرر ـ يستحسنون أن يربط الشاعر بين أجزاء قصيدته بحسن التخلص ، وهو ما افتقده المعرى هنا .

على أن مما اعتدبه فى البناء ـ مع وحدته ـ **طول النفس** أيضا ، وآية ذلك مانقله ابن عساكر فى ترجمة عبد المحسن الصورى ، اذ يقول : « ذكر أن أبا العلاء بن سليمان كان يعيب عبد المحسن الصورى بقصر النفس ، فحدثت أن أبا الفتيان بن حيوس لما حضر عند أبى العلاء : أنشده أبو العلاء أبياتا لعبد المحسن الصورى وقال : هذه لقصيرك ، فقال له أبو الفتيان : هو أشعر من طويلك ، يعنى المتنبى ، فمد أبو العلاء يده اليه ، وقبض على ثوبه وقال : الأمراء لايناظرون » (١٦٦) كأنه يطالبه بالكف اجلالا لقدره عن المناظرة .

واذا كان بعض آرائه هنا من النظرات الجزئية التى رددها القدماء ، والتى لاتسمو الى ما نعنيه بالوحدة الآن ، فان أكثرها من أخص ما نحرص على تحققه للبناء فى النقد الحديث .

---

(١٦٥) شرح التبريزى لأبى تمام ٦٨/٣ .
لا تكمد : لا تحزن . درك : خطاب لناقته . ابن البيضة : الظليم . الاجفيل: الذى ينفر من كل شىء .
(١٦٦) تاريخ دمشق ١٠/٦٩ ب .

مـــذاهب الشـــعراء

يعنى طرائقهم فى التعبير أو المعانى أو الصنعة الفنية أو الأوزان والقوافى، تلك التى كثر اتباعهم لها حتى صارت مذهبا وعادة ، والتى كان كشـفه عنها فى دراسته للنصوص من جديد مـا اتجـه اليـه ، وهى امـا عامة واما خاصة :

فمن العامة : ما احتج به فى تاويل بعض معانى القدماء ، من **كنايتهم عن المرأة بالنخلة** ، (١) وما احتج به للمتنبى ـ من **اصطلاحهـم على تعبيرات يستعملها كل منهم** ـ فى قوله عن بيته :

لِكلِّ امْرِىءٍ من دهره ما تَعَوَّدَا وعاداتُ سيفِ الدولةِ الطعنُ فى العِدا

« يجىء فى الشعر القديم أشياء قد اصطلحت عليها الشعراء ، ويستعملها كل منهم ولا يعيبون ذلك ، مثل قولهم :

وَكُنَّا إذا الْجَبَّارُ صَعَّرَ خَدَّهُ

قاله الْمُتَلَمِّسُ ؛ وتمامه : أَقَمْنَا لَهُ مِنْ مَيْلِهِ فَتَقَوَّما

وقال الفرزدق :

وَكُنَّا إذا الجبار صَعَّر خَدَّهُ ضَرَبْنَاهُ حَتَّى تَسْتَقِيمَ الْأَخَادِعُ

ويقال : إن ذا الرمة سَمِعَه الفرزدق يُنْشِد هذا البيت :

وكنا إذا الْجَبَّارُ صَعَّرَ خده

ضربناهُ تحت الْأُنْثَيَيْن عَلَى الْكَرْدِ

فقال له الفرزدق : لتتركن هذا البيت أو لتتركن لى عرضك ، ونحو ذلك من الكلام .

---

(١) انظر ص ٢٩٥ .

وقوله * لكل امرىء من دهره ماتعودا * قد يرد معناه ولفظه فى الشعر القديم ، من ذلك البيت المنسوب الى حاتم :

ذَرِينى وَمَالِى إنَّ مَالَكِ وَافِــرٌ
وَكُلُّ امْرِئٍ جَارٍ عَلَى مَاتَعَـوَّدَا

وهذا مثل المصراع الأول من بيت أبى الطيـ ب، الا أنـــه قد غير منـــه اللفظ » (٢) .

كأنه هنا يدفع عن المتنبى تهمة الأخــذ والاتبــاع ، بجعله ذلك من التعبيرات الاصطلاحية العامة التى لا يختص بها قائل ، مثلها مثل قولهم : * وكنا اذا الجبار صغر خده * ، وقولهم ــ فيما أورد أيضا ــ :

وَلَسْتَ بِمُسْتَبْقٍ أَخًا لَا تَلُمُّهُ
عَلَى شَعَثٍ أَىُّ الرِّجَالِ الْمُهَذَّبُ

ذلك البيت الذى يروى فى شعر النابغة ، وينشده بنو سعد بن زيد مناة لرجل منهم يقال له (شقة) على سبيل (**الاستزادة**) التى عرفهـــــا المحدثون بـــ (التضمين) كما قال (٣) .

كذلك من العامة : فيما لفت اليه مايجىء ويكثر عند المحـــدثين خاصة ، **كقولهم فى النسبة الى الشام (شآم)** ، « وهى كلمة مرغوب عنها ، اذ القياس **شامى** » (٤) .

= **وككسرهم (ياء المتكلم)** بعد الجار ، فى مثل قول الحلاج :

يَا جُمْلَـةَ الْكُلِّ لَسْـتَ غَيْـرِى
فَمَــا اعْتِذَارِى إِذًا إِلَـــــــىَّ

---

(٢) الموضح ١١٧/١ أ وصعر خده : أماله من الكبر ، والأخـــدعان : عرقان فى جانبى العنق ، والأنثيين : الأذنين ، الكرد : أصل العنق .
(٣) شرح التبريزى لأبى تمام ٣٥٢/٤ ، ٣٥٣ .
(٤) الموضح ٥/١ .

فقد وصف هذا الكسر بأنه ردىء قبيح ، وبأنه لم يأت فى شعر فصيح ، وبأنه دليل على ضعف المنة وركاكة الغريزة (٥) •

= **وكتسكينهم الياء فى نحو (نودى)** من قول الشبلى :

وَإِذَا كَانَ فِى القيامة نُــودِى
أَيْنَ أَهْلُ الْهَــوَى تَقَدَّمْتُ وَحْدِى

فقد صرح بأنه لا يحب ذلك وان كان جائزا ، كما قرر أنه انما يوجد فى أشعار الضعفة من المحدثين (٦) •

ومن الخاصة ــ التى يبدو أكثر تعرضا لها ، وكشفا عنها ــ ما بينه فى حديثه عن القدماء ، من **أن التسميط ليس من أوزان امرىء القيس • وأن المديد ليس من مذهب الطبقة الأولى ••• وأن استعمال المصــــدر (تِفِعّال) من مذهب تابط شرا ••• (٧)**

= وما بينه فى نقده للمحدثين ، من عادات ومذاهب أبى تمــام والبحترى والمتنبى خاصة •

أما أبو تمام : الذى سبق تنويهه بمذهبــه ، وتحديده لطريقته فى الاستعارة (٨) = فقد ذكر من عاداته أيضا :

اظهار علامة الجمع فى الفعل ، حيث يقول عن بيته :

شَجًا فِى الْحَشَى تَرْدَادُهُ لَيْس يَفْتُرُ
بِهِ صُمْنَ آمَالِى وَإِنِّــى لَمُفْطِــرُ

« يبين فى كلام الطائى أنه كان يختار اظهار علامة الجمع فى الفعل • مثل قوله **(صمن آمالى)** ، ولو قال **(صام آمالى)** لاستقام الوز ن،وقد

---

(٥) رسالة الغفران ص ٤٥٥ ، ٤٥٦ . والمنة بضم الميم ــ : القوة .
(٦) المرجع السابق ص ٥٨٢ •
(٧) انظر : ص ١٧٣ ، ١٧٨ ، ٣٧٥ فيما سبق .
(٨) انظر فيما سبق ص ٢٤٨ ــ ٢٥٠ .

جاء بمثل ذلك غير هـذا الموضع ، وهـــو على منهاج قول الفرزدق : **٭ يعضرن السليط أقاربه ٭ (٩) .**

٢ ـ حذف الألف واللام مما عرف بها ، وهو ماقال عنه فى بيته الآخر:

مُوَضَّحٌ لَيْسَ بِذِى رُجْلَةٍ
أَشْأَمَ والأَرْجَلُ مِنْهَا بَسُوسْ

« قوله (بسوس) : أراد به مشئوم ، مثل البسوس التى كانت لاجلها الحرب ، فحذف الألف واللام ، وله عادة بذلك ، كما قال : **٭ ما بين أندلس الى صنعاء ٭ ، و ٭ وجد فرزدق بنوار ٭ » (١٠) .**

٣ ـ عدم حذف جواب الشرط ، وهو مالفت اليه فى قوله عن بيتـه الآخر :

إِنْ يَكُنْ رَثٌّ مِنْ أُنَاسٍ بِهِمْ كَا
نَ يُدَاوِى شَوْقِى وَيَسْلُسُ رِيقِى

« لم يأت لـ (ان) فى هذا البيت جواب ، ولم تجر عادة الطائى بذلك ،ولكن يتفق للقائل فى بعض الأحيان مالم تجر عادته باستعماله » (١١) .

وأما البحترى : فقد كاد يستوعب عاداته التعبيرية ، بتتبعه الدقيق لها فى (عبث الوليد) ، وان كان ذلك فى الغالب لما خالف فيه :

فالضرورة والحذف : ـ كما قال ـ « شىء يجترىء عليه البحترى ، لسعة بحره فى القريض ، وكان لا يحفل بهما » (١٢) .

وتخفيف همزة القطع : « فى شعره من ذلك شىء كثير ، وتركـه أحسن ، وهو قليل فى الفصاحة الأولى ، وانما يجىء فى أشعار الضعفاء

---

(٩) شرح التبريزى لأبى تمام ٢/٢١٣ . والسليط : الزيت .
(١٠) المرجع السابق ٢/٢٧٧ موضح : أى فرس فيه أوضاح كالغرة ، والرجلة : بياض فى احدى رجلى الدابة وهو مكروه .
(١١) المرجع السابق ٢/٤٣١ ورث : بلى .
(١٢) عبث الوليد ص ١١٧ .

منهم ، كالعرجى وطبقته » (١٣) . الا أن قوله فى موضع آخر : « ان المحدثين يألفون ذلك وهو ردىء » (١٤) = يعنى أن هذه العادة قد شارك البحترى فيها غيره من المحدثين .

وقطع همزة الوصل : « قد جرت عادة أبى عبادة به فى مثل (الاجتماع) و (الارتفاع) ، وهو كثير فى شعره ، وذلك محسوب من الضرورات (١٥) . »

وادخال الهاء على المصادر : فى نحو بيته :

أَجَدَّ لَنَا مِنْكَ الْوَدَاعُ انْتِوَاءَةً
وَكُنْتَ وَمَا تَنْفَكُّ يَشْغَلُكَ الشُّغُلُ

قال عنه أبو العلاء : « أبو عبادة يدخل الهاء على المصادر كثيرا ، وقلما يوجد ذلك فى أشعار المحدثين ، مثل قوله : انتواءة مصدر انتوى ، واعتلاقة مصدر اعتلق ، والانتواء مأخوذ من النوى ، وهو البعد ، ويجوز أن يكون أبو عبادة أراد الافتعال من النية . وادخال الهاء على المصادر عريق فصيح كقولهم انقطع الوتر انقطاعة » (١٦) .

فهذه العادة ـ وان تكن قليلة عند المحدثين ـ عريقة فصيحة ، وليست معيبة عنده فيما يبدو .

وقلة اهتمامه بلغته : حتى كان لا يفرق بين الفصيح وغيره ، ولا يبالى بالتكرار = مما سجله عليه أبو العلاء **أولا** : فى قوله عن بيته :

وَمَهَاوِلٍ دُونَ الْعُلَا عَسَّفْتُهَا
خُلُقًا إِذَا ضَرَّ النَّدَى لَمْ يَنْفَعِ (١٧)

---

(١٣) المرجع السابق ص ١٩٧ وأيضا ٢١٠ .

(١٤) المرجع السابق ص ٢٠٦ .

(١٥) المرجع السابق ص ١٣٩ وأيضا ٨٣ ، ١٨٠ .

(١٦) المرجع السابق ص ١٧٥ .

(١٧) عسفتها : فى الديوان (١٢٩٠) : كلفتها . والمعنى واحد .

«**مهاول** : أصح مايقال فيه أنه جمع مَهال ، وهو مَفْعَل من هال يهول ، والعامة يقولون هذا أمر مهول ، يريدون به معنى هائل ، وذلك غلط ، ولعل أبا عبادة نطق به على مذهب العامة ، لأنه كان لا ينظر فى هذه الأشياء » (١٨) . **وثانيا فى قوله عن بيته الآخر** :

شَكَرْتُ السَّحَابَ الْوُطْفَ حِينَ تَصَوَّبَتْ

إِلَيْهِ فَأَدَّتْ مَاءهَا حِينَ أَدَّتِ (١٩)

« (أدت) الثانية تحتمل وجهين ، أحدهما : أن يكون من الأداء مثل الأول ، وهذا أشبه بأبى عبادة ، والآخر : أن يكو ن(أدت) فى معنى حنت ، وهذا أجود فى نقد الشعر ، يقال أدت الابل تئد اذا اشتد حنينها » (٢٠) .

فقوله عن الوجه الأول : « وهذا أشبه بأبى عبادة » يعنى أن التكرار من عاداته التى كثرت فى شعره .

وتقريه آثار ابى تمام ـ أى تتبعها ـ : مما نبه عليه أبو العلاء . كقوله عن بيته :

بِكَ اطَّأَدَتْ أَركانُ وَائِلَ وَاغْتَدَى

لَهَا الْمَسْمَعُ الْمُوفِى عَلَى النَّاس وَالذِّكْرُ

« كان أبو عبادة يتقرى آثار حبيب فى ألفاظه ، مثل مده الشام وغير ذلك ، وقوله (اطأدت) انما سمعها فى قول ابن أوس :

بـالْقَائِم الثَّامِن الْمُسْتَخْلَفِ اطَّأَدَتْ

قَوَاعِدُ الْمُلْك مُمْتَدًّا لَهَا الطِّوَلُ

وانما أراد افتعل من الطود ـ أى اطاد ـ ثم همز ضرورة » (٢١) .

---

(١٨) عبث الوليد ١٣٧ .

(١٩) الوطف : المسترخية لكثرة مائها .

(٢٠) عبث الوليد ٦٩ .

(٢١) المرجع السابق ١٢١ والقائم الثامن : الخليفة المعتصم ، واطأدت : ثبتت . والطول : الحبل . والطود : الجبل .

لكن ماذا فى هذا التقرى عنده ؟ والجواب : فيه ماعابه على البحترى ، كمده (الظما) فيصير (الظماء) ، وهو ردىء . وتسكينه راء (طرفة) ، وقول الثقات فيه بالفتح (٢٢) . وفيه ما أجازه ، كقوله :

وَأَكْسَبْتَنِى سُخْطَ امْرِئٍ بِتُّ مَوْهِنًا
أَرَى سُخْطَهُ لَيلاً مع الليل مُظْلِما

فمع أن المتقدمين من أهل اللغة ينكرون (أكسبته) ، ويحكون فقط (كسبه) = قرر أن القياس لا يمنع (أكسبه كذا) ، لأن الهمزة مما يعدى به الفعل (٢٣) .

والكسروطى أول البسيط : أيضا من عاداته التى أكثر منها وبينها المعرى ، أما الكسر ففى قوله عن بيته :

وَإِذَا أَشْكَلَ الصَّوَابُ عَلَى ظَـ ـنِّـ ـكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى اسْمَاعِيلُ

« أجود ما يصنع فى هذا البيت أن تسقط همزة اسماعيل ... ولو ظهرت لكان فى البيتكسر ، وقد روى عن أبى عبادة فى هذا الوزن خاصة كسر فى غير موضع » (٢٤) .

وأما طى أول البسيط فقد بينه فى قوله عن هذا البيت :

آمَنَنِى غُولَ أَوْجَالِى وَجَاوَزَ بِى فِى كُلِّ مُطَّلَبٍ غَايَاتِ آمَالِى(٢٥)

« كان فى النسخة (آمنتنى) ، وهو تصحيف ، ولا ريب أن أبا عبادة قال : (آمننى) ، يخبر عن ابن ميكال ، وجاء به على الزحاف ، لأنه يستعمل هذا الفن كثيرا فى قصائده ، ومن عرف مذهبه لم يعدل عن هذه

---

(٢٢) المرجع السابق ٦٠ ، ١٨٦ .

(٢٣) المرجع السابق ٢١٠ والموهن : نحو منتصف الليل أو بعد ساعة منه .

(٢٤) المرجع السابق ٢٠١ وانظر أيضا ١٥٧ .

(٢٥) أوجالى : مخاوف . وغولها : اهلاكها .

الرواية ، وقلما تخلو أوزانه التي في هذا المنهج من مثل هذا النوع (٢٦) ٠»، يعني زحاف الطي ٠

وأما المتنبي : فقد مر بنا أكثر ما دل عليه من عاداته في التعبير والمعاني والأوزان والقوافي ، وكانت دلالة تنويه في الغالب ٠ **من ذلك** : **تفقد الصياغة** ، الذي لفت اليه في رسالته الى النكتي اذ يقول : « أليس قد علم أن أحمد بن الحسين [أي المتنبي] كان شديد التفقد لما ينطق به من الكلام ، يغير الكلمة بعد أن تروى عنه ، ويفر من الضرورة وان جذبه اليها الوزن » (٢٧) ٠

ومنه : تجنب التكرار ، ذلك الذي أشار اليه واعتمد عليه في تحقيق مطلعه :

أَهْلاً بدارٍ سَبَاكَ أَغْيَدُهَا
أَبْعَد مَا بَانَ عَنْكَ خُرَّدُهَا

حيث رجح أن تكون (**أبعد**) على الاستفهام ، لقوله بعد ذلك في القصيدة :

أَقْرَبُهَا مِنْكَ عَنْكَ أَبْعَدُهَا

لأن المتنبي ـ كما قال ـ قليل التكرير (٢٨) ٠

ومن قلة تكريره أيضا مانوه به من تجنبه **التقفية بمصدر الفعل** ، تلك التي كانت من عادات القدماء ، الى أن كثرت الصناعة وصاروا يعيبون ذلك ، واخلاء الكلام من مثله أحسن وأقوى ، لأنه يجيء بعدما استغنى الكلام وعلم الغرض (٢٩) ٠٠

---

(٢٦) عبث الوليد ١٨٣ ٠ والطي : حذف الرابع الساكن من التفعيلة كحذف الفاء من (مستفعلن) ٠
(٢٧) رسائل أبي العلاء ص ٦٨ ٠
(٢٨) الموضح ١/١٢٣ ب وانظر ص ٢٠٨ فيما سبق ٠
(٢٩) شرح التبريزي لأبي تمام ٢/٢٦٦ وانظر هنا ص ٢٢٢ ٠

ومنه : **توخى المبالغة والاعراب** على مايبدو من نقده له فيما أسلفنا ».
ومن قوله أيضا عن بيته :

أُرِيدُ مِنْ زَمَنِى ذَا أَنْ يُبَلِّغَنِى
مَا لَيْسَ يَبْلُغُهُ فِى نَفْسِهِ الزَّمَنُ

« **جرى فى هذا البيت على عادته من المبالغة ، وجعل الزمان كأنه عاقل، بريد لنفسه الخير** » (٣٠) .

ومنه : **توخى التصغير** : الذى دفعه الى الحديث عنه انكار ابن القارح على المتنبى قوله :

أَذُمُّ إلى هـذَا الزمـان أُهَيْلَهُ

لأنه صَغَّرَهُمْ تَصْغيرَ تَحْقيرٍ غَيْرَ تَكْبيرٍ ، وتقليلٍ غير تكثيرٍ . .

= اذ رد عليه بأن « **الرجل كان مولعا بالتصغير ، لا يقنع من ذلك بخلسة المغير** » ، وبعد أن ذكر أمثلة لهذا الولوع من شعره قال :

« **ولا ملامة عليه ، انما هى عادة صارت كالطبع ، فما حسن بهـا مالوف الربيع ولكنها تغتفر مع المحاسن ، والشام قد يظهر على المراسن** (٣١) .»

فهو ـ كما ترى ـ يرجع تصغير المتنبى الى عادة صارت عنده كالطبع ، ويرى أن لا ملامة عليه لذلك ، أى لأجل أنها كالطبع .

ولأن كل عادة أو طبع ليس حسنا على الاطلاق كان قوله : « **فمـا حسن بها مالوف الربع ، ولكنها تغتفر مع المحاسن** » .. ، أى ان ماحسن منها مالوف مقبول ، وما لم يحسن يغتفر مع المحاسن ، فهو لا يعدهـا عيبا لذاتها ، ولا يمنع أن يكون فيها مايعاب .

---

(٣٠) الموضح ٣/١٥٥ ب . وانظر ص ٣٠٩ ـ ٣١١ فيما سبق .
(٣١) رسالة الغفران ص ٢٨ ، ٤١٤ الشام : جمع شامة : وهى أثر أسود فى البدن وفى الأرض ، والمراسن ، جمع مرسن : وهو الأنف .

ومنه : قله قصره للممدود ، تلك العادة التى اعتمد عليها فى تحقيق بعض شعره ، واحتج لها بحكاية محمد بن سعد النحوى عنه قوله : « ليس فى شعرى قصر ممدود الا قولى :

خُذْ مِنْ ثَنَاىَ عليْكَ ما أَسْطِيعُهُ
لاَ تُلْزِمَنِّى فِى الثَّنَاءِ الْوَاجِبَا (٣٢)

ومنه : **تجنب التصريع فى غير الأوائل** ، وهو مالفت اليه فى نقده تصريعا له بعد المطلع فى بعض القصائد ، حيث عده قاطعا للبيت عما قبله ، ومضعفا للسياق ، ومخلا بعادته فيه ... (٣٣)

---

(٣٢) الموضح ٢/١٢٦ أ .
(٣٣) انظر ص ٤١١ .

الاتجاه الرابع
الموازنة

تلك التى كانت أخصب اتجاهات النقد الأدبى منذ نشأته ، والتى بلغت أوجها عند ذلك الناقد الفذ أبى القاسم الآمدى =

لو قلت انها أساس نقد أبى العلاء أو معرضه لم تبعد عن الصواب . لأننا لانكاد نجد له رأيا غير مؤسس عليها أو معروض فى سياقها الا ماندر .

وتأمل ـ ان شئت ـ ماسبق من هذا النقد وما سيأتى ، أو تأمل من ذلك دفاعه عن القرآن (١) ، وحديثه عن المأخوذ والمأخوذ منه (٢) ، والأوزان الشريفة والضعيفة (٣) ، ثم انظر معى فى موازنته :

بين القصيد والرجز

وبين بعض موصوفات الشعراء ونظائرها فى الجنة .

وبين بعض القصائد .

وبين فنون الشعراء .

وبين الشعراء أنفسهم .

فبين القصيد والرجز :

كانت موازنته الطريفة فى غير موضع من شعره ونثره ، وكان الحاجة الزائد على تفضيل القصيد وتحقير الرجز ، من ذلك قوله :

قَصَرْتَ أَنْ تُدْرِكَ الْعَلْيَاءَ فِى شَرَفٍ
إِنَّ الْقَصَائِدَ لَمْ يَلْحَقْ بِهَا الرَّجَزُ

* * *

عَجَزْتَ عَنِ الْكَسْبِ الذى يَجْسِبُ الْعَمَى
وَمَا أَنْتَ عَنْ كَسْبِ الدَّنَايَا بِعَاجِزِ

---

(١) انظر ص ٢٥٨ .

(٢) انظر ص ٣٢٠ — ٣٢٥ .

(٣) انظر ص ٣٧٤ — ٣٨٠ .

وَمَنْ لَمْ يَنَلْ فِى الشِّعْرِ رُتْبَةَ شَاعِرٍ
تَقَنَّعَ فِى نَظْمٍ بِرُتْبَةِ رَاجِزِ

* * *

وَلَمْ أَرْقَ فِى دَرَجَاتِ الْكَرِيمِ وَهَلْ يَبْلُغُ الشَّاعِرَ الرَّاجِزُ (٤)

فهو كما ترى يحدث عن نفسه وعما وصلت اليه ، فيصورها بالراجز الذى نزلت مكانته عن مكانة الشاعر ، ونزول مكانة الراجز عن مكانة الشاعرليست من تقريره كما يبدو ، بل هى من تقرير سابقيه ، وقد أشار هو الى ذلك ، واستغله فى نقده ، كما استغله فى تصويره ، حيث يقول فى (الفصول والغايات) (٥) : « والرجز أخفض طبقة من الشعر ، حتى يروى عن الفرزدق أنه قال : انى لأرى طرقة الرجز (٦) ولكنى أرفع نفسى عنه ، وقال اللعين المنقرى للعجاج :

أَبالأَراجيزِيا ابْنَ اللُّؤْمِ تُوعِدُنِى
وفى الأَراجيزِ خِلْتُ اللُّؤْمُ والْخَوَرُ»

ثم نجده بعد ذلك يقول فى (ضوء السقط) (٧) : « القريض : الشعر ... وكانت العرب تفرق بين القريض والرجز ، ويقال ان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ وجه الى الأغلب العجلى يقول له : مابقى من شعرك ؟ فقال :

أَرَجَزًا تريد أم قريضـا أم هكذا بينهما تعريضـا
كلاَهُمَا أُجِيدُ مُسْتَرِيضاً (٨)

---

(٤) لزوم مالا يلزم ٣/٢ ، ٧ ، ٥ .
(٥) الفصول والغايات ٢١٩/١ .
(٦) الطرقة : الصف ، وآثار الابل بعضها فى اثر بعض . (اللسان : طرق) .
(٧) ضوء السقط ورقة ٢٥ ب .
(٨) مستريضا : من استراضت النفس : طابت وانبسطت .

ويسمون الكلمة من الرجز أرجُوزة ، وغيـره من الأوزان تسمى الكلمة ، وتسمى الطويلة منها قصيدة » .

لكن لم كان الرجز أخفض طبقة عنده من الشعر ؟

الظاهر أن ذلك كان لثلاثة أمور :

أولها : ضعف وزنه فى رأيه ، أليس هو القائل على لسان امرىء القيس عن التسميط المنسوب اليه :

يـا صحبَنَا عَـرِّجُـوا تقِـفْ بِكُمْ أُسُجُ . . . (٩)

« ماسمعت هذا قطّ ، وإنه لَقَرِىٌّ لَمْ أَسْلُكْهُ ، وإنّ الكذب لكثير . . أبْعَدَ كلمتى التى أولها .

أَلَا انْعِمْ صَبَاحًا أيها الطَّلَلُ الْبَالِى

وقولى :

خَلِيلَىَّ مُرَّا بى على أُمِّ جُنْـدَبِ

= يقال لى مثل ذلك ، والرجز من أضعف الشعر ، وهذا الوزن من أضعف الرجز » (١٠) .

فقوله : « والرجـز من أضعف الشعر » يعنى ضـعف وزنـه ، لاضطرابه وكثرة ما يعتريه من التغيير والحـذف ، كمـا يبدو من قوله الآخر :

بَقَـائِى الطويلُ وَغَيِّى البسيـ ـطُ وأصبحتُ مُضطَرِبًا كَالرَّجَزْ (١١)

وثانيها : قصر وزنه فى الغالب ، حيث استعمل مشطورا ومجزوءا

---

(٩) الأسج : النوق السريعات .

(١٠) رسالة الغفران ص ٣١٨ ، ٣١٩ .

(١١) لزوم مالا يلزم ٢/١١ .

ومنهوكا من استعماله تاما ، واذا كان وزن الرجز ضعيفا بطبيعته فكيف اذا حذف بعض أجزائه ، والقصر ـ كما سبق (١٢) ـ من دواعى ضعف الوزن عند أبى العلاء ، لأنه لايبلغ القائل غرضه • ولذا كان تفريقه ـ ـ على لسان امرىء القيس ـ قبل قليل بين أوزانه التى استعملها وبين التسميط المنسوب اليه ، من حيث الطول والقصر ، مع قوله عن وزن التسميط : « وهذا الوزن من أضعف الرجز » ، واذا كان هذا الوزن ـ ـ وهو مجزوء الرجز ـ من أضعف أوزانه فان ماقصر عنه كالمشطور والمنهوك يكون أشد ضعفا •

وانما قلت بقصر الرجز فى الغالب من استعماله = تبعا لما نقله وأقره أبو العلاء ، حيث يقول فى (اللامع العزيزى) (١٣) : « **وحكى سعيد ابن مسعدة أنه سمع بعض العرب يقول : الشعر ثلاثة : القصيد والرجز والرمل ، فالقصيد ما كان طويل الوزن ، والرجز : هو الذى يجىء كأنصاف الأبيات ، والرمل : زعم سعيد بن مسعدة فى حكايته أنه كل شعر مهزول غير مؤلف الأجزاء ، ومثله بقول عبيد :**

أَقْفَــرَ من أَهْلِهِ مَلْحُــوبُ

ويقول الآخر :

ألا لله قوم ولدت أختُ بنى سهم
هشام وأبو عبد الله مِدْرَهُ الخصم (١٤)

فأما قصيدة عبيد فتنبو عنها الآذان ، وأما الأبيات الميمية ـ وتنسب الى ابن الزبعرى ـ فمستقيمة الوزن فى الحس ، الا أن وزنها قصير » •

فمع أن الرجز قد استعمل تاما فى بعض الأحيان كان تعريفه فى الرواية التى ذكرها = أنه هو الذى يجىء كأنصاف الأبيات أى مشطورا • ولا ريب أن الذى عرف الرجز بهذا لا يجهل مجيئه تاما ، لكنه عرفه بأكثر استعمالاته ، وواضح أن أبا العلاء قد أقر هذا التعريف بسكوته عنه ، على

---

(١٢) انظر ص ٣٧٦ ، ٣٧٧ •
(١٣) انظر الموضح ١/٧٢ أ •
(١٤) مدره الخصم : أى الدافع له باللسان واليد •

حين وصف تعريف الرمل بالزعم وناقش شاهديه ، فاذا عرفنا أن الرجز ـ كأى وزن تام ـ من القصيد عند ابن مسعدة ، تبينا أن التفرقة فى روايته جرت على الأكثر فى استعمال الرجز .

وثالث الأسباب فى انخفاض رتبة الرجز عيوبه الفنية : من اعتساف القوافى ، وضيق المعانى ، وغرابة الألفاظ ... هاهو ذا ابن القارح يمر فى الجنة بأبيات ليس لها سموق أبياتها الأخرى ، فيسأل عنها ، فيقال له : هذه جنة الرجز ، يكون فيها كل من غفر له من الرجاز . «فيقول : تبارك العزيز الوهاب ، لقد صدق الحديث المروى : (ان الله يحب معالى الأمور ويكره سفسافها) ، وان الرجز لمن سفساف القريض ، قصرتم أيها النفر فقصر بكم .

ويعرض له رؤبة فيقول له : يا أبا الجحاف : ماكان أكلفك بقواف ليست بالمعجبة ، تصنع رجزا على الغين ، ورجزا على الطاء ، وعلى الظاء ، وعلى غير ذلك من الحروف النافرة ، ولم تكن صاحب مثل مذكور ، ولا لفظ يستحسن عذب ... أقسمت مايصلح كلامكم للثناء ، ولا يفضل عن الهناء ، تصكون مسامع الممتدح بالجندك ، وانما يطرب الى المندل ، ومتى خرجتم عن صفة جمل ، ترثون له من طول العمل ، الى صفة فرس سابح ، أو كلب للقنص نابح ، فانكم غير الراشدين » .

فاذا غضب رؤبة وقال : « ألى تقول هذا وعنى أخذ الخليل وأبو عمرو ابن العلاء ؟ » = أنحى عليه وعلى من استشهد بكلامه بقوله : « لو سبك رجزك ورجز أبيك لم تخرج منه قصيدة مستحسنة ، ولقد كنت تأخذ جوائز الملوك بغير استحقاق ، ولا فخر لك أن استشهد بكلامك ، فقد وجدناهم يستشهدون بكلام أمة وكعاء .. وكم روى النحاة عن طفل ، ماله فى الأدب من كفل » (١٥) .

---

(١٥) رسالة الغفران ٣٧٣ ـ ٣٧٧ والسفساف : الردىء . والهناء : القطران . والجندل : الحجارة . والمندل : العود الطيب الرائحة . والوكعاء : اللئيمة الحمقاء . والكفل : النصيب .

وبين بعض موصوفات الشعراء ونظائرها فى الجنة :

جنح الى الموازنة فى غير موضع من (الغفران) ، فأتى بما لم يأت به سواه ، اذ ذكر صفة **خمر الجنة وأباريقها وشهدها وسمك أنهارها وطيب حورها** ، ففضل كلا بصفته هنالك على موصوف الشعراء منه هنا ، كقوله مثلا عن صفة خمر الجنة وأباريقها :

« وتجرى فى أصول ذلك الشجر أنهار تختلج من ماء الحيوان ... وجعافر من الرحيق المختوم ، عز المقتدر على كل محتوم ، تلك الراح الدائمة ، لا الذميمة ولا الذائمة ، بل هى كما قال علقمة مفتريا ، ولم يكن لعفو مقتريا :

تَشْفِى الصُّدَاعَ ولا يُؤْذِيكَ صَالِبُهَا
وَلَا يُخَالِطُ مِنْهَا الرَّأْسَ تَدْوِيمُ

ويعمد اليها المغترف بكؤوس من العسجد ، وأباريق خلقت من الزبرجد ، ينظر منها الناظر الى بدى ، ماحلم به أبو الهندى رحمه الله ، فلقد آثر شراب الفانية ، ورغب فى الدنية الدانية ... وهو القائل :

سَيُغْنِى أبا الْهِنْدِىِّ عن وَطْبِ سَالِمٍ
أباريقُ لم يَعْلَقْ بها وَضَرُ الزُّبْدِ
مُفَدَّمَةٌ قَزًّا كَأَنَّ رِقَابَهَا
رِقَابُ بَنَاتِ الْمَاءِ رِيعَتْ مِنَ الرعْدِ

... » (١٦)

---

(١٦) رسالة الغفران ١٤١ — ١٤٣ تختلج : تجتذب . جعافر : جمع جعفر وهو النهر الكثير الماء . الرحيق : الخمر أو أطيبها . والراح : الخمر . الذائمة : العائبة . مقتريا : طالبا . صالبها : ما صلب وقوى منها . بدى : أول ما يبدو . الوطب : سقاء اللبن . وضر : وسخ.مفدمة : مغطاة ، القز : الحرير .

= وكقوله عن سمك أنهارها :

« فاذا من الله ـ تبارك اسمه ـ بورود تلك الأنهار ، صاد فيها الوارد سمك حلاوة ، لم ير مثله فى ملاوة ، لو بصر به أحمد بن الحسين [يعنى المتنبى] لاحتقر الهدية التى أهديت اليه ، فقال فيها :

أَقَلُّ ما فى أَقَلِّهَا سَمَكٌ   يَلْعَبُ فى بِرْكَةٍ مِنَ الْعَسَلِ »(١٧)

= وقوله أيضا عن ابن القارح وحوريتيه :

« ويخلو ـ لا أخلاه الله من الاحسان ـ بحوريتين له من الحور العين ، فاذا بهره مايراه من الجمال قال : أعزز على بهلاك (الكندى) ، انى لأذكر بكما قوله :

كَدَأْبِكَ مِنْ أُمِّ الْحُوَيْرِثِ قَبْلَهَا
وَجَارَتِهَا أُمِّ الرَّبَابِ بِمَأْسَلِ

إِذَا قَامَتَا تَضَوَّعَ الْمِسْكُ مِنْهُمَا
نَسِيمَ الصَّبَا جَاءَتْ بِرَيَّا الْقَرَنْفُلِ (١٨)

وقوله :

كَعَاطِفَتَيْنِ مِنْ نِعَاجِ تَبَالَةٍ
عَلَى جُؤْذُرَيْنِ أَوْ كَبَعْضِ دُمَى هَكِرْ

إِذَا قَامَتَا تَضَوَّعَ الْمِسْكُ مِنْهُمَا
وَأَصْوِرَةٌ مِنَ اللَّطِيمَةِ وَالْقُطُرْ (١٩)

---

(١٧) المرجع السابق ١٦٧ ــ ١٦٨ وملاوة : برهة من الدهر .

(١٨) الدأب : العادة . ومأسل : موضع . تضوع : فاح متفرقا .

(١٩) تبالة : موضع تألفه الوحوش . الجؤذر : ولد البقرة الوحشية . دمى : تصاوير . هكر : بلد باليمن . وأصورة : روائح طيبة . اللطيمة : وعاء المسك . والقطر : عود يتبخر به .

وأين صاحبتاه منكما ؟ لا كرامة لهما ولا نعمة عين (٢٠) ، لجلسة معكما بمقدار دقيقة من دقائق ساعات الدنيا خير من ملك بنى آكل المرار ٠ (٢١) ، ويقبل على كل واحدة منهما يترشف رضابها (٢٢) ويقول : ان امرأ القيس لمسكين مسكين ، تحترق عظامه فى السعير ، وأنا أتمثل بقوله :

كَأَنَّ الْمُدَامَ وَصَوْبَ الْغَمَامِ
وَرِيحَ الْخُزَامَى وَنَشْرَ الْقُطُرْ
يُعَلُّ بِهِ بَرْدُ أنيابها إذا غَرَّدَ الطائرُ الْمُسْتَحِرْ (٢٣)

والمتأمل فى هذه الموازنات يخلص الى أمرين :

أحدهما : أنها بالنسبة الى مافى الجنة قائمة على ما تخيلة المعرى من صفتها الواردة فى الكتب المنزلة والتراث الدينى ٠

والآخر : أن الموازنة هنا من حيث الموضوع لا الأسلوب ٠ والمقابلة فى هذا الموضوع لما فى الجنة بما فى الدنيا توحى بمؤاخذته للشعراء على ماجنحوا اليه من أغراض الدنيا الفانية ، وتهيب بهم أن يتساموا الى ماعند الله فى دار النعيم ، بتمجيده وتعظيمه ، يصدر فى ذلك كله عن حسه الدينى والفلسفى ٠

وبين بعض القصائد :

وجدناه يشرح قصيدة المتنبى التى أولها :

إنْ يكنْ صَبْرُ ذى الرَّزِيَّةِ فَضْلاً فكن الأفضلَ الأَعَزَّ الأَجَلَّا
أَنتَ يا فوقَ أَنْ تُعَزَّى عن الأَحْـ بَابِ فوقَ الذى يُعَزِّيك عَقْلاَ

---

(٢٠) نعمة عين — بضم النون — قرتها ٠

(٢١) المرار : شجر مر اذا أكلته الابل تقلصت مشافرها وبدت أسنانها ٠ وآكل المرار : لقب جد امرىء القيس ٠

(٢٢) الرضاب : الريق ٠ وترشفه : مصه ٠

(٢٣) رسالة الغفران ٢٨٤ — ٢٨٦ يعلّ : يسقى مرة بعد مرة ٠ المستحر : المغرد بالسحر ٠

ثم يتبع الشرح بقوله : « **لو لم يكن للمتنبى غير هذه القصيدة فى سيف الدولة لكان كثيرا ٠ وأين منها قصيدة البحترى التى أولها :**

إنَّ سَيْرَ الخَليطِ لما استقلاَّ . . »(٢٤)

كذلك وجدناه يقول للمرقش الأكبر ـ على لسان ابن القارح :

« **ان قوما من أهـل الاسـلام كانوا يستزرون (٢٥) بقصـيدتك (الميمية) التى أولها :**

هلْ بالدِّيار أَن تُجيب صممْ

وكان بعض الأدباء (٢٦) يرى أنها و (الميمية) التى قالها المرقش الأصغر ناقصتان عن القصائد (المفضليات) ولقد وهم صاحب هذه المقالة » (٢٧)

فقد فضل لاميـة المتنبى على لامية البحترى ، ورد القـول بنقص الميميتين عن المفضليات ، الا أنه لم يعلل حكمه فى الموضعين ، ووازن بين قصيدتى المتنبى والبحترى مع اختلافهما فى الموضوع ، اذ كانت الأولى فى رثـاء أخـت سـيف الدولة ، والثـانية فى مـدح الخليفة المعتز بالله العباسى (٢٨) ، فلم يتفقا الا فى الوزن والقافية ٠ وان كنا نستشف من قوله : « **لو لم يكن للمتنبى ٠٠٠ وأين منها قصيدة البحترى ٠٠٠٠** » أن ثمت تنقصا للمتنبى ، وادعـاء باحتذائه لاميـة البحترى فى الوزن والقافية ، وأن هذين ـ التنقص والادعاء ـ هما اللذان دفعاه الى الموازنة والحكم ، لا أنه قصد الموازنة ابتداء ٠

---

(٢٤) الموضح ١٦٩/٢ أ ٠

(٢٥) منهم ابن قتيبة فى « الشـعر والشـعراء » ٧٢/١ ، ٧٣ ٠ ويستزرون : يعيبون ويحتقرون ٠

(٢٦) هو ابن العميد ، انظـر الكشف عن مساوىء المتنبى ص ٤١ ٠

(٢٧) رسالة الغفران ص ٣٥٦ ٠

(٢٨) انظر ديوان البحترى ١٦٥٥/٣ ٠

وبين فنون بعض الشعراء :

كانت أدق موازناته النقدية ، وذلك حيث يقول للحطيئة فى الجنة ـ على لسان ابن القارح ـ : « **ما شأن الزبرقا نبن بدر ؟ فيقول : هو رئيس فى الدنيا والآخرة ، انتفع بهجائى ولم ينتفع غيره بمديحى** » (٢٩) ٠

ان هذه النظرة لفنى الحطيئة :**الهجاء والمديح** ـ نظرة غريبة ، أيكون أبعد الفنين من النفع ، وهو الهجاء = مصدرا له دون الآخر ، وهـــو المديح ٠ ؟

لكن لا غرابة اذا تأملنا قصده هنا ، وليس فى الحقيقة الا الموازنة بين فنى الشاعر ، تلك الموازنة التى جنح فيها الى التنويه بهجائه دون مديحه ، حيث عد الأول فنه الذى تحقق به ، وتفوق فيه ، وصدق فى التعبير به عن نفسه ٠ فمن هجاه اشتهر أمره ، وعلا ذكره ، لقوة هـــذا الهجاء وبقائه ، ومن مدحه لم يرتفع بمديحه ، لقصور هذا المديح وتكلفه ، فانتفاع الزبرقان بهجاء الحطيئة ذكر واشـتهار ، كما تمنى أنا بو الماجن من أوميروس قائلا : « **اهجنى لافتخر بهجائك ، اذ لـــم أكـن أهـــلا لمديحك** » (٣٠) ٠

وبين بعض الشعراء :

كثرت موازناته ، على الرغم من اطلاق بعضها واجمال آخر ، ففى قوله على لسان النابغة الجعدى للأعشى :

« **أغرك أن عدك بعض الجهال رابع الشعراء الأربعة ؟ وكـــذب مفضلك ، وانى لأطول منك نفسا ، وأكثر تصرفا** » (٣١) ٠

يبدو اعتراضه على ابن سلام ، لعده الأعشى فى الطبقة الأولى من الجاهليين (٣٢) ٠

---

(٢٩) رسالة الغفران ص ٣٠٨ ٠
(٣٠) اخبار العلماء بأخبار الحكماء ص ٤٩ ٠
(٣١) رسالة الغفران ص ٢٢٩ ٠
(٣٢) طبقات فحول الشعراء ٥٢ ٠

وفى قوله الآخر : **« التفت الى ذنوبى فأجدها متتابعة ... وأجدنى ركيكا فى الدين ركاكة أشعار المولدين ، سبقتهم الفصاحة ، وسبقوا أهل الصنعة » (٣٣) .**

موازنة ضمنية بين القدماء والمولدين والمحدثين ، ميز فيها القدماء بالفصاحة التى لم تتيسر للمولدين ، وميز المحدثين بجودة الصنعة التى لم تتحقق لعصر المولدين ، فكانت الركاكة طابع أشعارهم لذلك .

انها ـ فيما يبدو ـ الموازنة التى التفت الجاحظ الى بعضها حين قرر : « أن عامة العرب والحضر من سائر العرب أشعر من عامة شعراء الأمصار والقرى من المولدة والناتية » (٣٤) .

ولما كان المحدثون كالقدماء عنده أهلا للفضل والتقدم ، لم يكن بعيدا أن يجد فيهم من يعجب به ويؤثره ، وقد كان ذلك بالفعل فى المتنبى : ذلك الشاعر الذى بلغ اعجابه به وتفضيله اياه حد التعصب كما قالوا ، فقد ذكر ابن خلكان ، أنه لما فرغ من تأليف كتابه (اللامع العزيزى) فى شرح ديوان المتنبى ، وقرىء عليه ، أخذ الجماعة فى وصفه ، فقال : **« كأنما نظر المتنبى الى بلحظ الغيب حيث يقول :**

أَنَا الَّذِى نَظَرَ الأَعْمَى إِلَى أَدَبِى
وَأَسْمَعَتْ كَلِمَاتِى مَنْ بِهِ صَمَم (٣٥)

وعند ياقوت والبديعى أنه « كان يتعصب للمتنبى ، ويزعم أنه أشعر المحدثين ، ويفضله على بشار ومن بعده ، مثل أبى نواس وأبى تمام » (٣٦) .

---

(٣٣) الفصول والغايات ١/١٣١ .
(٣٤) الحيوان ٣/١٣٠ والناتئة : الطارئون غير الأصليين .
(٣٥) تعريف القدماء ص ١٨٣ .
(٣٦) المرجع السابق ص ٧٦ ، وأوج التحرى ص ٢٩ .

وقال ابن العديم : « **أخبرت عن أبى العلاء أنه كان يسمى المتنبى الشاعر ، ويسمى غيره من الشعراء باسمه** » (٣٧) ، الى غير ذلك من أقوالهم ، التى لم تسلم من تزيد الرواة فى بعض جوانبها ، والتى ندع ماتعنيه من تعصبه هنا لما سيأتى بعد قليل ، ونلتفت الى ماتضمنته من إعجابه به وتفضيله اياه ، فنجد شواهد ذلك كثيرة فيما قدمنا :

أليس قد نوه بلغته الخاصة ، من حيث تفقده لها ، وتجنبه التكرار والتقفية بمصدر الفعل فيها ، حتى ليقول فى بعض ماروى عنه : « **ليس فى شعره لفظة يمكن أن يقوم عنها ماهو فى معناها** (٣٨) ٠ ؟ »

وأليس قد أعجب بمعانيه ، حتى خصها بكتاب مستقل سماه (معجز أحمد ؟ ٠ هذا فضلا عما ورد علينا من تنويهه ببعضها ، ذلك التنويه الذى نجده أيضا فيما نقل البديعى ، من أنه « كان اذا ذكر الشعراء يقول : قال أبو نواس كذا ، وقال البحترى كذا ، وقال أبو تمام كذا ، فاذا أراد المتنبى قال : قال الشاعر ، تعظيما له ٠ فقيل له يوما : لقد أسرفت فى وصفك المتنبى ٠ قال : أليس هو القائل !

بَلِيتَ بِلَى الأَطْلاَلِ إنْ لَمْ أَقِفْ بِهَا
وُقُوفَ شَحِيحٍ ضَاعَ فِى التُّرْبِ خَاتِمُهُ ؟

فقيل له : كم قدر مايقفُ الشحيح على طلب الخاتم ؟ قالَ : أربعين يوما ، فقيل له : من أين علمت ذلك ؟ قال : سليمان بن داود عليهما السلام وقف على طلب الخاتم أربعين يوما » (٣٩) ٠

على أن من شواهد تفضيله اياه بمعانيه قوله أيضا فيما نقل الصفدى :

---

(٣٧) بغية الطلب فى تاريخ حلب ١/٤٠ ، ٤١ ب أ .
(٣٨) المرجع السابق ١/٤١ أ .
(٣٩) الصبح المنبى ص ٧٢ .

مَاحَبِيبٌ إلاَّ أديبٌ وَلَكِنْ   مَا أَرَاهُ يُقَارِبُ الْمُتَنَبِّى
ذا المعانى الغرائبِ اللاَّءِ أَسْهَرْ   نَ جفونى دهرًا وتَيَّمْنَ قلبى (٤٠)

فمع أنه قد نوه بمعانى الطائى ـ فيما أسلفنا ـ لتعمقه فيها ، يبدو من هذين البيتين ـ ان صح أنهما له ـ أنه كان يقدم المتنبى عليه فى هذا المجال .

ولعل ما أشار اليه وتتبعه البطليوسى فى شرحه (للسقط) ، من مظاهر تأثره بمعانى المتنبى ، وهو كثير = أن يؤكد قوله هنا * **أسهرن جفونى دهرا وتيمن قلبى** * ويجعلنا نثق بما نقل الصفدى .

فاذا كان أبو تمام ـ وهو من نعلم مكانته عند المعرى ـ بالمكان الثانى بعد المتنبى = لم يبعد أن يفضله على غير الطائى من المحدثين .

غير أن هذا التفضيل لم يحجب رؤيته لخصوصيته وخصوصية سواه ، لا سيما أبو تمام والبحترى ، كما يبدو من موازنته الدقيقة بين ثلاثتهم ـ وقد سئل أيهم أشعر ـ فقال : « **المتنبى وأبو تمام حكيمان ، وانما الشاعر البحترى** » (٤١) ، وهى موازنة نجد كثيرا من أصولها فى شهادته السابقة للطائى بأنه صاحب معان عميقة ، وللمتنبى بأنه صاحب غرائب وسوائر ، اذ ليس الحكيم الا ذلك أو قريبا منه .

على أن فى هذه الشهادة مايرجح نسبة تلك الموازنة الى المعرى : كما ذكر ابن خلكان = على نسبتها الى المتنبى ، كما ذكر ابن الأثير (٤٢)

---

(٤٠) نصرة الثائر على المثل السائر ١٠٦ ، ١٠٧ .
(٤١) وفيات الأعيان ١٧٦/٢ بتحقيق الشيخ محمد محيى الدين .
(٤٢) المثل السائر ٢٢٧/٣ .

الاتجـــاه الخـــامس

غايـــات الأدب

لاشك أن الأديب من أى نوع وفى أى عصر انما يقول مايقول لغاية ذاتية أو موضوعية :

ذاتية : فى أن يعبر عن نفسه وما يعانيه تعبيرا يتخلص به من أعباء معاناته ·

وموضوعية : فى أن يعبر عن غيره وما يعانون تعبيرا يعمق رؤيتهم من جهة ، ويحقق متعتهم من جهة أخرى ·

ولا شك ـ مع ذلك ـ أن كلا الغايتين قد تردد بين الصدق والكذب ، والتسامى والانحراف ، تبعـا لظروف الحياة السـياسية والاجتماعيـة والنفسية على مدى العصور ·

لكن اهتمام النقاد بهاتين الغايتين من حيث نقدهما وتوجيههمـــا لايساوى اهتمامهم بمادة الأدب ألفاظه ومعانيه ، لا فى شمول النظرة ولا فى اخلاصها ، اذ لم يتعرضوا الا لبعض الغايات كالتكسب والاحتراف ، ولم يتعرض أكثرهم وأشهرهم لذلك الا لتأييده وتوجيه أصحابه الى مايزيد حظهم من الرزق والعطـاء ، حيث كانـوا كالمتكسـبين صـنائع للملوك والأمراء ، « وذهنيتهم النقدية بلاطية مساوقة لاتجاه الشعر المتكسب فى رحاب السادة والكبراء · ومن أجل هذا نراهم يجارون الشعراء فيمـا اتجهوا اليه بشعرهم ، وفيما ذكروه من بواعث الشعر وأهدافه ، ويستقون قضاياهم النقدية من الواقع الذى كان يعيشه الشعر العربى » (١) ·

ومن أجل هذا أيضا تابع الشعراء والأدباء ظروف حياتهم دون أن يكون للنقد فى ترشيد مسيرتهم أثر يذكر ، فضلوا وأضلوا كثيرا ، حين أفحش بعضهم ، وأفرط آخر ، واحترف الشعر والأدب ثالث ··

---

(١) ظاهرة التكسب ص ١٦٥ ــ ١٦٧ ·

الا أبا العلاء فانه أولى هذا الجانب من اهتمامه ما لم يسبق اليه ، وأبدى فيه من الآراء ما كان به فريدا فى نقدنا العربى القـــديم كله ، ذلك أنه لم يتعرض للتكسب والاحتراف فقط كسابقيه ، بل تعرض لـــه ولغيره من غايات الشعر والأدب ، لا كما تعرضوا ، بل كما رأى هـــو بذوقه وفلسفته ، وكما سنرى من خلال هذا العرض . .

فالتذكير والاعتبار :

من غايات الشعر ، بل من فضائله التى نـــوه بها ، ودعا الى استيعابها والوقوف عليها ، حيث يقول فى (خطبة الفصيح) :

« الشِّعْرُ إِذَا جُعِلَ مَكْسَبًا لم يَتْرُكْ لِلشَّاعِرِ حَسَبًا ، وَإِذَا كَانَ لِغَيْرِ مَكْسَبٍ ، حَسُنَ فى الصِّفَاتِ والنَّسَبِ مَالَمْ تُسَبَّ الْمُحْصَنَة . . . فَاتَّقِ رَبَّكَ ، وَإِذَا رَأَيْتَ الشَّاعِرَ فَلَا تَقُلْ : (والشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ) ، فإِن الآية وُصِلَتْ باسْتِثْنَاءٍ ، وَجَنَى السَّيِّئَةِ شَرُّ الْجَنَى . لا تَجْهَلُوا فَضِيلَةَ الشِّعر ، فإِنه يُذَكِّرُ النَّاسِى ، وَيَحُلُّ عَزْمَةَ الْفَاتِكِ ، وَيَعْطِفُ مَوَدَّةَ الْكَاشِحِ ، وَيُشَجِّعُ الْجَبَانَ :

وَإِنَّ أَشْعَرَ بَيْتٍ أَنْتَ قَائِلُهُ
بَيْتٌ يُقَالُ إِذَا أَنْشَدْتَهُ صَدَقَا » (٢)

انه فى هذا النص قد أجمل الغاية من الشعر بأنه اما للتكسب واما لغيره ، وما لغيره اما معيب مثله كسب المحصـــنة ، واما نبيل الغاية فاضلها يستحق الشاعر من أجله أن يصان عن الذم ، وهو ما أشار الى

---

(٢) أحكام صنعة الكلام ص ٣٨ .
النسب : النسيب والتشبيب . والفاتك : الذى لايبالى . والكاشح: المبغض .

بعضه هنا ، ونجد بعضه الآخر ـ كما نجد بعض ما عابه ـ فى نصوص أخـــرى ٠

فاذا تركنا تفصيل ما أزرى بغايته لما سيأتى ، وجدنا مما نبلت غايته عنده ذلك الذى أشار اليه بقوله : « لا تجهلوا فضيلة الشعر ٠٠٠ »

وفضيلته ـ فى جملته ـ أنه يهدف الى التذكير والاعتبار ، تذكير الناسى ، واعتبار الفاتك والمبغض والجبان بما يقدمه الشاعر ، من صور ومزايا الطاعة والمودة والشجاعة ، فى اطار الفن الصادق المؤثر ٠

وبعض هذه الغايات ـ أعنى تشجيع الجبان ـ مما أشاد به فى شعر بعض الشعراء ، اذ يقول عنه :

جَزْلٌ يُشَجِّعُ مَنْ وافَى لَهُ أُذُنًا
فَهُوَ الدَّوَاءُ لِدَاءِ الجُبْنِ وَالْفَرَقِ
إذا تَرَنَّمَ شادٍ لِلْيَرَاعِ بِهِ
لاقى المنايا بلا خوفٍ ولا فَرَقِ (٣)

الا أن قوله « لا تجهلوا فضيلة الشعر ٠٠٠ » مثير للتساؤل ، من حيث نهيه عن الجهل بفضيلة الشعر بصيغة الطلب على هذا النحو ٠

وتفسير ذلك ـ فيما يبدو ـ أن تكون (خطبة الفصيح) التى جاء فيها ذلك مما أملاه ـ كما أسلفنا ـ بعد اعتزاله ، وبعد ما أعلن رفضه للشعر فى مقدمة (السقط) ، اذ كان هـــذا الرفض مظنة أن لا فضيلة للشعر عنده ، وكان بعض الناس فهم منه ذلك بالفعل ، مما دفعه الى النهى عن هذا الفهم ، والى التنبه لفضيلة الشعر ، على سبيل التخصيص الضمنى لرفضه ، قبل هذا التخصيص الصريح الذى كان من بعد فى مقدمة (اللزوميات) ٠

---

(٣) شروح السقط ٢/٦٨٠ لليراع : للجبان ٠ وفرق : فزع ٠

واللذة والاشتهار :

أيضا من الغايات التى لفت اليها ونوه بها ، لذة صاحب الشعر ، وذكره واشتهاره به .

أما اللذة : فحيث يقول (٤) — على لسان عدى بن زيد — لابن القارح الذى أسمعه مأخذين على شعره : **« لقد رزقت [يعنى فى الجنة] ما يجب أن يشغلك عن القريض ... فيقول : انى سألت ربى — عز سلطانه — ألا يحرمنى فى الجنة تلذذا بأدبى الذى كنت أتلذذ به فى عاجلتى ، فأجابنى الى ذلك ، (وله الحمد فى السموات والأرض وعشيا وحين تظهرون) (٥) .**

ان هذا السؤال — على لسان ابن القارح — لا يعنى تلذذه وحده ، بل تلذذ أبى العلاء أيضا بأدبه الذى فرغ له وشغل به .

وأما الذكر والاشتهار : فقد نوه بهما فى ذلك الحوار الذى أجراه بين ابن القارح والشماخ ، حيث يستنشد الأول الثانى قصيدتيه اللتين على الزاى وعلى الجيم ، فيقول :

« لقد شغلت عنهما بالنعيم المقيم ، فما أذكر منهما بيتا واحدا . فيقول — لفرط حبه الأدب وايثاره تشييد الفضل — : لقد غفلت أيها المؤمن وأضعت ، أما علمت أن كلمتيك أنفع لك من ابنتيك ، ذكرت بهما فى المواطن ، وشهرت عند راكب السفر والقاطن ، وان القصيدة من قصائد النابغة لأنفع له من ابنته (عقرب) ، ولعل تلك شانته ومازانته ، وأصابها فى الجاهلية سباء ، وما وفر لأجلها الحباء » (٦) .

---

(٤) رسالة الغفران ص ٢٠١ .

(٥) سورة الروم آية ١٨ .

(٦) رسالة الغفران ص ٣٢٨ والقاطن : المقيم . والسباء : الأسر . والحباء : المهر .

فعده نسيان الشماخ من غفلة المؤمن واضاعته ، وتفضيله القصائد على البنات فيما ذكر = يعنى اعتداده بأثر الشعر فى الذكر والاشتهار ، على حد قوله الآخر :

لاَ خَيْلَ مِثْلُ قَوَافِى الشعرِ جَائِلَـةً
أَبْقَى عَلَى الدهر أَعْنَاقًا وَآطَالاً

إنْ يَنْقُل الْحَتْفُ عن عَادَاتِهِ بَطَـلاً
فَمَا تَزَال مَعَانِيهِنَّ أَبْطَـالاً (٧)

ولأن الشعر باق وذائع على هذا النحو ، كانت وصيته بالاحسان لما يبقى ويؤثر ، فى قوله :

والقولَ إنْ يَبْقَ يُحْسَبْ للفتى أثرًا
فلا تَشِينَنْكَ بعد الموتِ أقوالُ

***

فَزِنْ ـ مِنَ الْوَزْن ـ لَفظًا أنت قَائلهُ (٨)

وتمجيد الله سبحانه :

كذلك من الغايات النبيلة التى فضلها وأشاد بها ، اذ يقول عقب اعتزاله :

« رَبَّ الْغَسَق وَاللَّمْع . . ذكرُكَ أحبُّ إلَى السَّمْع ، مِن قِيلِ عَجزَةٍ، بين شعراء ورَجَزَةٍ ، وَهَبْتَ لَهُمُ الْغَرَائز ، فجعلوا الصِّفَاتِ لكلِّ مالٍ صِفتَّات ، أو لِمُومِسٍ هَلُوك ، بِئسَ ذخيرةُ الصُّعلُوك . . . خَسر ذو الرُّمَّةِ ، مَا أفَادَ من صفةِ حِمَارٍ وَحْشىٍّ ، ورامحٍ فى أكرُعِهِ مَوْشِىٍّ ،

(٧) لزوم مالا يلزم ٢٠٦/٢ والآطال : جمع اطل : وهى الخاصرة . والحتف : الموت .

(٨) المرجع السابق ١٨٢/٢ ، ٢٠٢/١ .

لو نَطَقَ لَخَبَّرَ أَنَّ مَيًّا ، لم تُفِدهُ مِنَ الخَيْرِ شَيًا ، ويابُؤسَ الفرزدق وجرير ! وأحسن أُمَيَّةُ كُلَّ الاحسان . هو أَحمَدُ من الْمُنْتَسِبَيْن إلى حُجْرٍ وَحَجَرٍ ، والْمُرَقِّش الأكبر ، والعبسيّ ذي الْعجَرِ ، وَطَرَفَةَ وابن الوضَّاح » . (٩)

انه هنا بصدد موازنة طريفة بين ذكر الله وما عداه من أغراض ، وبين أحد المشتغلين بهذا الذكر والمشتغلين بسواه .

فذكر الله أحب اليه مما يقول الشعراء والرجاز ، فى التكسب من ذى المال الجافى ، وفى الغزل بالفاجرة الداعرة ، وفى الوصف اللاهى .

وأمية بن أبى الصلت أفضل ممن ذكر جميعا ، لأنه ـ كما شرح ـ كان مغرى فى الجاهلية بتمجيد الله ، وصفة الجنة والنار ، وهو القائل :

سُبْحَانَهُ ثم سُبْحَاناً يعودُ له   وقبلنا سبَّحَ الْجُودى والْجُمُدُ (١٠)

على حين شغل من عداه بالتهاجى والمناقضة كجرير والفرزدق ، أو بالغزل وصفات أخرى كالباقين .

غير أنه يبدو قاسيا فى حديثه عن بعض من ذكر ، لا سيما المرقش وعنترة وطرفة ، الذين أشاد ببعض مزاياهم الفنية فى مواضع أخرى ، وان كان هنا بصدد أغراضهم لافنهم .

ولعله لم يؤثر ذكر الله على هذا النحو الا بتأثير شعوره الدينى ، والفلسفى ، ذلك الشعور الذى قوى فى عزلته ، واتصل معه هذا الايثار ، حتى وجدناه يردد بعد ذلك فى (الأيك والغصون) : « **خير ماتنطق به**

---

(٩) الفصول والغايات ٣٥٩/١ الغسق : ظلمة أول الليل ، واللمع : من لمع الصبح ، والمال هاهنا : الرجل الكثير المال . والصفنات : الشديد الجافى ، والمومس الهلوك : الفاجرة التى تتهالك على الرجال . الرامح : الثور الوحشى ، الأكرع : جمع كراع : وهو مستدق الساق . والمنتسبان الى حجر وحجر : امرؤ القيس وأوس بن حجر . والعبسى : عنترة . والعجر : العيوب ، ابن الوضاح : عبيدبن الأبرص .

(١٠) الجودى والجمد : جبلان .

ثناؤك على خالقك » (١١) ، ثم يقول فى مقدمة (الضوء) آخر ما أملى : « قد علم الله ـ جلت كلمته ـ أن أحب الكلام الى ماذكر به عز سلطانه أثنى به عليه » (١٢) .

والغفران فى الآخرة :

من أهم الغايات التى التفت اليها ان لم يكن أهمها ، لأنه فى (رسالة الغفران) التى كانت تسميتها لهذا المعنى ، جعل من أسباب الغفران للشعراء ما كان لكل منهم من أشعار دينية .

فهذا زهير يُسْأَلُ : بِمَ غُفِرَ لَكَ ؟ فيقول : كنتُ من الباطل نَفُوراً ، فَصَادَفتُ ربًّا غَفُوراً ، و كنتُ مؤمنًا بالله العظيم . . . وقلتُ فى (الْمِيمِيَّةِ) ـ والجَاهِلِيَّةُ على السَّكِنَةِ ، والسَّفَهُ ضَارِبٌ بِالْجِرَانِ : ـ

فَلاَ تَكْتُمُنَّ اللهَ مَا فِي نُفُوسِكُمْ لِيَخْفَى وَمَهمَا يُكتَم اللهُ يَعْلَم
يُؤَخَّرْ فَيُوضَعْ فِى كِتَابٍ فَيُدَّخَرْ
لِيَوْم الْحسَاب أَوْ يُعَجَّلْ فَيُنْقَم

كما يُسأَل النابغة فَيُجِيبُ : « إنِّى كنتُ مُقِرًّا بالله ، وَحَجَجْتُ البَيتَ فى الجاهلية ، أَلَا تَسْمَعُ قولى :

---

(١١) أوج التحرى ٦٧ .
(١٢) ضوء السقط ٢ أ .
(١٣) رسالة الغفران ١٨٣ على السكنة : على أحوالها التى كانت عليها . ضارب بالجران : ثابت مستقر .

فَلا لَعَمْرُ الَّذِى قَدْ زُرْتُهُ حِجَجًا
وَمَا هُرِيقَ عَلَى الأَنْصَاب مِن جَسَدِ

وَالْمُؤمِن الْعَائِذَاتِ الطَّيرُ تَمْسَحُهَا
رُكبَانُ مَكة بَينَ الْغِيلِ وَالسَّنَد

وقولى :

حَلَفتُ فَلَمْ أترُك لِنَفسكَ رِيبَةً
وَهَل يَأْثَمَنْ ذُو إِمَّةٍ وَهُوَ طَائِعُ

بمُصْطَحِبَاتٍ مِن لَصَافٍ وثَبرَةٍ
يزُرْنَ إلالًا سَيْرُهُنَّ تَدافُعُ

ولم أدرك النبى ﷺ فتقوم الحجة على بخلافه » (١٦) ٠

وَيُسْأَلُ عَبِيدٌ فيقول : « إنِّى دخلت الْهَاوِيَة ، وكنتُ قلتُ فى أيام الحياة :

من يَسْألِ الناس يحرموهُ وسائلُ الله لا يخيبُ

وسار هذا البيت فى آفاق البلاد ، فلم يزل ينشد ويخف عنى العذاب ، حتى أطلقت من القيود والأصفاد ، ثم كرر الى أن شملتنى الرحمة ببركة ذلك البيت ، وان ربنا لغفور رحيم » (١٧) ٠

وكذلك يسأل الأعشى والحطيئة (١٨) ٠٠٠

---

(١٤) هريق : صب . الأنصاب : حجارة كانوا يذبحون عليها فى الجاهلية . جسد : دم . والغيل والسند : أجمتان بين مكة ومنى .

(١٥) امة : دين واستقامة . بمصطحبات : بنوق مصطحبات للحجاج بمتطونها . لصاف وثبرة : ماءان فى ديار ضبة بن أد ، الال : جبل بعرفات.

(١٦) رسالة الغفران ٢٠٢ .

(١٧) المرجع السابق ١٨٦ والهاوية : جهنم . والأصفاد : القيود .

(١٨) المرجع السابق ١٧٨ ، ٣٠٧ .

أما لبيد الذى شملته المغفرة باسلامه فقد صارت له أبيات ثلاثة فى الجنة لانظير لها فى البهاء والحسن ، بأبيات من الشعر قالها فى الدنيا ، أولها :

إنَّ تَقْوَى رَبِّنَا خَيْرُ نَفَل وَبِإذن الله رَيْثِى وعَجَلْ

وثانيها :

أَحمَدُ اللهَ فَلَا نِدَّ لَـهُ بِيَدَيْهِ الْخَيْرُ ماشاء فعلْ

وثالثها :

من هداهُ سُبُلَ الخيرِ اهتَدَى ناعمَ الْبَال وَمَنْ شَاء أَضَلّْ

فهو يَسْكُنُهَا أُخرىَ الأَبَد . ويَنْعَمُ نَعِيمَ الْمُخَلَّد . (١٩)

أليس فى ربط الغفران بهذا الشعر الدينى والتنويه بما أعد لأصحابه = اهابة بالشعراء أن يتجهوا وجهته ، وينهجوا سبيله ، مع الاعـــراض عما دونه من الأغراض ، كى يظفروا بتلك الغاية غاية الغفران عند مدبر الغايات . ؟

التكسـب :

ودون هـــذه الأغــراض النبيلة لـم يحمدهـــا المعرى ، على رأسها التكسب بالشعر والأدب من الملوك وممن دونهم ، ذلك التكســب الذى عرفه الشعر منذ وقت مبكر ، فكان النابغة وزهير والأعشى والمسيب ابن علس ، ثم حسان والحطيئة ـ رواده الأوائل فى الجاهلية ، بدافع الفقر أحيانا ، والطمع وضعف النخوة أحيانا أخرى ، ثم اتسع نطاقه فى الاسلام ، لا سيما العصرين الأموى والعباسى ، فلم يكن من الشعراء وحدهم ، بل كان الشعراء والرواة والأدباء والخطباء فرسانا فى هذه الحلبة ، لحـاجة ولغير حاجة : حتى بات قليلا جدا من تعفف عن هذه الغاية المهينة ، وسما بنفسه وأدبه عنها أو نعاها على أهلها .

ولا ريب أن أبا العلاء فى مقدمة هذا الصنف الأخير ، لأنه لم يعف

---

(١٩) المرجع السابق ٢٦٧ .

عن التكسب فحسب ، بل كان ــ مع عفته ــ شـــديد الحملة عليه وعلى أصحابه ، ولاغرابة فى هـــذا ممن عرفنـــا تكوينه النفسى والفلسـفى ، واحترامه الزائد للكلمة .

على أن تلك الحملة لم تكن مجرد ثورة عارضة فى وقت من الأوقات ، بل كانت موقفه من هذه الظاهرة طوال حياته ، فى عزلته وقبلها .

ففى (سقط الزند) قبل اعتزاله ، نجده ينهى عن التكسب فى قوله لبعض الشعراء :

هذا قريضٌ عن الأَمْلاك مُحْتجبٌ فلا تُذِلْهُ بإِكثارٍ على السُّوَقِ
فَاطْلُبْ مَفَاتيحَ باب الرزق من ملكٍ أَعْطاك مفتاحَ باب السُّؤْدَدِ الْغُلُق (٢٠)

وفى (الفصول والغايات) التى أملاها فى مطلع عزلته ، رأينا ازراءه بجعل المديح لذى المال من أجل التكسب ... (٢١)

كما رأينا فى (خطبة الفصيح) عده التكسب بالشعر ذاهبا بحسب الشاعر ومنزلته ... (٢٢)

وفى (اللزوميات) كان عنف الحملة على المتكسبين عامة ، وكان تنديده بهم ، ومقته لهم ، ولأدبهم ، ولغايتهم منه ، فى نحو تلك الأقوال الثائرة :

ومُغْرَمٌ بالْمَخازِى طالبٌ صلةً مُغْرًى بتَنْفيق أشْعارٍ له كُسُدِ (٢٣)

***

لا خيْرَ فى جَزْل الْعطاءِ أَتــى رجُلاً بأَنَّ كلامهُ جــــزْلُ
يَرْجُو فَيَمْدحُ غيْر مُرْتقــبٍ ربًّا وكُلُّ مقالِـــهِ إِزْلُ (٢٤)

***

(٢٠) شروح السقط ٢/٦٧٧ لا تذله : لا تهنه .
(٢١) انظر ص ٤٤٧ .
(٢٢) انظر ص ٤٤٤ .
(٢٣) لزوم مالا يلزم ١/٢٧١ بتنفيق : بترويج .
(٢٤) المرجع السابق ٢/١٩٢ ازل : كذب .

طلب الْخسائِسَ وارْتقى فى منْبرٍ يَصِفُ الْحساب لِأَمّةٍ لِيَهُولَهَا
ويكُونُ غيْرَ مُصدق بِقيامة أَضْحى يُمثّلُ فى النُّفُوس ذُهولها (٢٥)

أما (الغفران) التى كانت بعد (اللزوميات) ، فقد تضمنت عرضه الهادىء للظاهرة من وجوهها ، والحاحه الزائد على تاكيد موقفه منها :

تارة : **بالسخرية من أصحابها** ، كجعله ابن القارح يتكسب بأدبه فى موقف الحشر مثلما كان فى الدنيا ، وينظم القصائد تلو القصائد فى رضوان وزفر خازنى الجنة فلا يحظى بطائل ... (٢٦)

وتارة : بالموازنة بين ماكان يدره التكسب فى الدنيا ، وماصار اليه صاحبه من نعيم فى الجنة ، كقوله على لسان الشماخ الذى استنشد فلم يتذكر : « **انما كنت أسق هذه الأمور ، وأنا آمل أن أفقربها ناقة ، أو أعطى بها كيل عيالى سنة ... وأنا الآن فى تفضل الله ، أغترف فى مرافد العسجد من أنهار اللبن ...** » (٢٧)

وتارة : ببيان ما يتعرض له المتكسب من بلاء ، لقلة مايصيب ، ولجفوة الناس له وامتهانهم لأدبه ، وذلك فى قوله (٢٨) : « **لم يزل أهل الأدب يشكون الغير فى كل جيل ، ويخصون من العجائب بسجل سجيل** (٢٩) ، **وهو [يعنى ابن القارح] يعرف الحكاية أن مسلمة عبد**

---

(٢٥) المرجع السابق ٢٠٩/٢ .
(٢٦) رسالة الغفران ص ٢٤٩ - ٢٥١ وانظر أيضا ٢٢٩ ، ٣٠٩ .
(٢٧) المرجع السابق ص ٢٣٩ وأيضا ٢٦٧ ، ٢٩٣ .
أسق : أحمل وأجمع . أفقر - على البناء للمجهول - أعار . مرافد : أقداح .
(٢٨) المرجع السابق ٤١٠ - ٤١٢ .
(٢٩) الغير : أحداث الدهر . سجل سجيل : نصيب ضخم .

الملك أوصى لأهل الأدب بجزء من ماله ، وقال : انهم أهل صناعة مجفوة ، وأحسب أنهم والحرفة خلقا توأمين ، وانما ينجح بعضهم فى ذات الزمين (٣٠) ، ثم لا يلبث أن تزل قدمه ... واذا كان الأدب على عهد بنى أمية ، يقصد أهله بالجفوة ، فكيف يسلمون من باس ، عند مملكة بنى العباس ؟ ...

ومن بغى أن يتكسب بهذا الفن ، فقد أودع شرابه فى شَنٍّ ، غير ثقة على الوديعة ، بل هى منه فى صاحب خديعة ، وقد روى أن سيبويه لما اختبر شأنه وراز (٣١) ، رغب فى ولاية المظالم بشيراز ، وأن الكسائى تحوب مما صنع به ، فأعانه كى يشحط على مطلبه . فأما حبيب بن أوس فهلك وهو بالموصل على البريد ، وصاحب الأدب حليف التصريد » (٣٢) .

وتارة : بالاشارة الى مايؤدى اليه التكسب من اهدار لقيمة الصدق ، كذلك الذى كان من دعبل وابن الرومى وابن هانىء ، حيث تظاهروا بالتشيع لغرض التكسب ، ومعتقدهم خلافه . وكذلك الذى يكون من بعض الحكماء ، من استحسانهم لقبيح الأمور وتنكبهم الواجب ... من أجل التكسب أيضا (٣٣) .

فاذا تجاوزنا (الغفران) الى مابعدها من مؤلفاته ، وجدناه فى (اللامع) يتعرض لبعض مبالغات المتنبى المفرطة ، فلا يمنعه ايثاره لشعره من التنديد بهذا الافراط والغاية منه ، على حد قوله السابق عن بيته :

---

(٣٠) الزمين : تصغير الزمن ، وفى ذات الزمين : على التراخى .
(٣١) شن : قربة بالية . راز : خبر وقدر .
(٣٢) تحوب : تحزن ، تأثم . حبيب بن أوس : أبو تمام . التصريد : التقليل .
(٣٣) رسالة الغفران ٤٢٠ ، ٤٧٧ ، ٤٦١ ، ٤٦٤ .

هابك الليلُ والنّهارُ فَلَـــوْ   تنْها هُما لمْ تَجُزْبك الأيّامُ

« يرحم الله أبا الطيب ، لقد اجتهد فى قيل الباطل ، ورضى بعطاء زهيد ، ولو أن هـــذا البيت فى صـفة الله عز سلطانه ، جـاز أن ينال بـذلك رضوانه » (٣٤) .

فان قلت : لم كان ذمه التكسب وأصحابه هذا الذم ؟

قلت : لأن المتكسب ـ كما أبدى المعرى ـ قـد انصرف عن مصدر الأرزاق ـ وهو الله ـ الى من لايملك رزقه ، وهو المخلوق .

وأيضا لأنه قد أذل نفسه وامتهن أدبه حين تعرض للسؤال به ، وجعله سلعة تقاس بما يدفع فيها ، لابما تضمنه من مشاعر وتجارب ، على أن محصوله من ذلك فى الكثير الغالب قليل منكود .

وأشد من ذلك أنه من أجل الارتزاق قد تحلل من أمانة الكلمة وضرورة الصدق فيها ، فقال مالا يعتقد ، ومنح من الصفات مالا يجد ، يرجـــو فيمدح غير مرتقب ربا وكل مقاله كذب . وناهيك بما ينتهى اليه الأديب وأدبه من هوان على نفسه وعلى الناس فى تلك الحال .

ولا شك أن أبا العلاء لم يكن ليذم التكسب وأصحابه على هـــذا النحو = لولا أنه قد تحرر من خشية الأدباء وأولياء نعمتهم تحـــررا كاملا ، كما تحرر من تلك الذهنية البلاطية التى ربطت أسلافه من النقاد بعجلة هؤلاء السادة ، فيما يأتون وفيما يؤتى من أجلهم ...

واذا كان قد ندد بمحترفى الأدب وتجاره ، وسخر منهم ، وأهاب بهم أن يترفعوا عن هذا الدرك الدنىء = فانه أيضا قد ندد بأوليـــاء نعمتهم وممدوحيهم تنديدا أشد كما سنرى فيما يلى .

---

(٣٤) المآخـذ ١٧٠ أ .

الأغراض المنحرفة :

من الواضح بداهة أن أدب التكسب أولها لما بينا ، على أنه قد خص بعد أنواعه بالذم من وجه آخر غير التكسب ، كالمديح والخطابة .

فالمديـح :

أعنى الكاذب ــ ولو للمجاملة ــ مما اختصه بالذم ، وفضل الشتم عليه ، حيث يقول فى اللزوميات :

وصفْتُكَ فابتهجتَ وقلتَ خيراً لتجزيني فأدركني ابتهاجى

إذا كان التقارضُ مِن مُحَالٍ فأحسنُ من تمادحنا التَّهَاجى

إذا أَثْنى علىَّ المرءُ يوماً بخيرٍ ليس فِيَّ فذاك هاجى

* * *

وأحسن من مدحا رىء الصدق كاذباً بما ليس فيه رَمْيُهُ بالمشاتِم (٣٥)

أما المديح الصادق فليس مباحا فقط كما يفهم من هذه الأقوال ، بل هو لازم لزوم الزكاة ، لأنه منها ، كما يبدو من قوله : « **لاتمنعك خشونة المس من الثناء على البرم بالطيب ، فقول الحق زكاة اللسان** » (٣٦)

والخطابة الكاذبة :

كذلك لا يقبلها ولا يحمدها ، حتى فى دعوتها الى الخير ، كما ترى فى قوله :

وما قبلت نفسى من الخير لفظه وان طال مافاهت به الخطباء (٣٧)

أى انه لا يقبل التلفظ بمالا معنى له فى القلب ، لاسيما لفظ الخير الذى طالما ردده الخطباء ، دون أن يتحقق معناه فى قلوبهم وأعمالهم .

---

(٣٥) لزوم مالا يلزم ٢٠٨/١ ، ٣٠٦/٢ .

(٣٦) الفصول والغايات ٢٦٣/١ والبرم : ثمر ، وأطيبه ريحا بزم السلم .

(٣٧) لزوم مالا يلزم ٣٦/١ .

بل لقد فضل الأخرس على الخطيب ، لاحتمال كذب الثانى ، اذ روى فى (رسالة الأخرسين) عن أحد الصالحين (٣٨) :

« لأن يدعو لى رجل أخرس أحب الى من أن يدعو لى ألف خطيب على ألف منبر ، لأن ذلك يومىء الى الله ـ سبحانه ـ بلسان ما أفك ولا قال البهتان (٣٩) ، وأولئك جديرون أن يكونوا كما قال الله سبحانه : (يقولون بألسنتهم ماليس فى قلوبهم » (٤٠)

وكأنما كان يعنى الخطابة الكاذبة حين نهى عن توليها ، فى قوله :

أَنْهاكَ أَنْ تَلِىَ الحكومةِ أَوْ تُرَى ... خِلْفَ الْخطابة أَوْ إِمام الْمَسْجِدِ (٤١)

= لأنه انما ذم الكاذبة ، وقول الحق عنده ليس بمذموم ، بل مدعو اليه كما رأينا .

على أنه ـ فيما يبدو ـ لم يذم الخطباء والشعراء الكاذبين لمجرد الكذب ، بل لأنهم صاروا به قدوة سيئة لأقوامهم ، وآية ذلك قوله :

ومَا آدَبَ الأَقوامَ فى كل بَلْدَةٍ ... إلى الْمَيْنِ إلاَّ معْشرٌ أُدبـاء (٤٢)

لكن المديح والخطابة الكاذبين ليسا وحدهما المنحرفين عنده ، بل يشركهما أيضا فى الانحراف وصف الخمر ، والفخر ، والغزل ، والهجاء أو التهاجى .

أما وصف الخمر :

فحسبك من ذمه ونقده له أن يكون النظم المتضمن له ـ فى رأيه ـ أشد ضررا من سم الحيات ، بما يزينه من أثرها الضار ، وذلك قوله عنه :

---

(٣٨) رسالة الغفران ورسائل أخرى ٣/٥١٩ .
(٣٩) ما أفك : ما كذب . والبهتان : الباطل الذى يتحير من بطلانه .
(٤٠) سورة الفتح آية ١١ .
(٤١) لزوم مالا يلزم ١/٢٩٣ .
(٤٢) المرجع السابق ١/٣٥ وأدب : دعا . والمين : الكذب .

وما سُمُّ الْحُبَابِ لَدَىَّ إلاَّ كنظْمٍ قيلَ فى آل الْحَبَابِ (٤٣)

فانظر كيف عكس التشبيه لأجل المبالغة ، فجعل سم الحباب ــ بضم الحاء ، أى الحية ــ كالنظم المقول فى آل الحباب ــ بفتح الحاء ، أى الخمر أو أهلها ــ والأصل أن يشبه الثانى بالأول .

وان فكرة الجزاء لتلح عليه هنا ، فنجده فى (اللزوميات) يفرق بين هذا النظم ومقابله المقول فى الزهد ، حيث يقول :

فلا يُضِيع الله الْمَسَاعِىَ فى التقى فمن يَسْعَ فيها لا يخفْ غبَنَ الْقَمْرْ

أما قاله الكوفِىُّ فى الزهد مثلما تغنَّى به الْبَصْرى فى صفة الخمْرِ

أى انهما لا يستويان فى المنزلة والجزاء عند الله ، لأنه ــ سبحانه ــ لايضيع المساعى فى التقى ... فرواية البيت الثانى بالاستفهام الانكارى ــ وهى الرواية الصحيحة ــ ليتفق مع سابقه فى المعنى ، لا كما رواه بعض المعاصرين (٤٥) بدون الاستفهام هكذا :

وماقاله الكوفى فى الزهد مثلما

فلم يصب المراد حين فهم أن المعرى يسوى بين أشعار العتاهى والنواسى ، وأن ذلك مصداق لآراء بعض أدباء العصر ، ممن جعلوا شعر أبى نواس فى الخمر وشعره غيره فى الزهد صادرين من منبع واحد ، هو الخوف من الموت ، يجهل الأول عاقبته ، فيؤثر اللذة العاجلة ، ويخشى الثانى تلك العاقبة ، فيستعد بالزهد لخيرها = لأن هذا الفهم يبعد بالنظر الى البيت الأول وترتب الثانى عليه ، واتفاق الشاعرين فى الصدور عن الخوف قضية أخرى ، لا يبدو أن المعرى قصد اليها هنا .

---

(٤٣) المرجع السابق ١/١٣٠ . الحباب ــ بضم الياء : الحية ، والحباب ــ بالفتح ــ ماينتفخ من الماء ونحوه ويعلوه ، ويقال لما ينزو من الخمر اذا مزجت : الحباب . والآل : السراب ، والأهل ، وآل كل شىء : شخصه . اللسان : حبب ، أول ، وخزاهة البغدادى ٦/٣٤٢) .

(٤٤) المرجع السابق ١/٣٧٦ والقمر : الغلبة فى القمار . وغبنه : نقصه وبخسه .

(٤٥) زكى المحاسنى فى : أبو العلاء ناقد المجتمع ١١٨ — ١١٩ .

على أن ماذهب اليه فى الغفران ، يقدم لنا دليلا آخر على مافهمناه هنا من عدم التسوية ، حين جعل الشعر الدينى سببا للغفران كما رأينا ، والشعر فى صفة الخمر سببا لعدمه ، كما يبدو من قوله ــ على لسان ابن القارح ــ لطرفة ، وهو فى الجحيم :

« ياابن أخى ياطرفة خفف الله عنك ، أتذكر قولك :

كريمٌ يُرَوِّى نَفْسهُ فىْ حياته   ستعْلَمُ إنْ مُتْناغدًا أَيُّناالصَّدِى

وقولك :

مَتَى تأْتنى أُصْبحْك كأْسًا رويَّةً   وَإنْ كُنْتَ عَنها غانيًا فاغْنَ وازْدَدِ

فكيف صَبُوحُكَ الآن وَغَبُوقُكَ ؟ إنِّى لأَحْسَبُهُما حَميمًا لايفتأُ من شربهُما ذميمًا . »(٤٦)

= ثم قوله بعد ذلك للأخطل (٤٧) :

« مازالت صفتك للخمر ، حتى غادرتك أكلا للجمر ، كم طربت السادات على قولك :

أَناخُوا فجرُّوا شاصيات كأَنَّها   رجالٌ من السُّودان لمْ يَتَسَرْبلُوا (٤٨)

فقُلْتُ اصْبَحُونى لا أَبا لِأَبيكُمُ   وما وضعُوا الأَثْقالَ إلَّا ليَفْعَلُوا

فصبُّوا عُقارًا فِى الإِنَاءِ كَأَنَّهَا   إذَا لَمَحُوهَا جُذْوةٌ تَتَأَكَّلُ

....

فَلَذَّتْ لِمُرْتَاحٍ وَطَابتْ لِشاربٍ   ورَاجَعَنِى مِنْهَامِراحٌ وَأَخْيَلُ (٤٩)

---

(٤٦) رسالة الغفران ٣٣٤ أصبحك : من الصبوح ، وهو شراب الغدْاة . والغبوق : شراب العشى ، والحميم : الماء الحار .

(٤٧) المرجع السابق ٣٤٥ ــ ٣٥٠ .

(٤٨) شاصيات : زقاق خمر مملوء مرتفعة القوائم .

(٤٩) مراح : خفة ونشاط . وأخيل ، أى كبر وعجب .

... أانت القائل هذه الأبيات :

ولسْتُ بِصَائِمٍ رمضان طَوْعًا وَلَسْتُ بـآكِلٍ لَحْمَ الْأَضَاحِي
وَلَسْتُ بقائم كالْعَيْرِ أَدْعُـو قُبَيْلَ الصُّبْحِ : حَيَّ عَلَى الْفَلَاحِ
وَلَكِنِّى سَأَشْرَبُهَا شَمُـــولاً وَأَسْجُدُ عِنْدَ مُنْبَلَجِ الصَّبَاحِ

فيقول : أجل ، وانى لنادم سادم . » (٥٠)

وأما الفخر :

فهو مما عابه ابان اعتزاله تبعا لاتجاهه الفلسفى الذى قوى آنذاك ، ومن أمثلة هذا العيب قوله (٥١) .

وَأَعْجَبُ مِنْ جَهْلِ الَّذِينَ تَكَاثَـرُوا
بِمَجْدٍ لَهُـمْ مِنْ حَادِثٍ وَقَدِيـمِ
وَأَحْلِفُ مَا الدُّنْيَا بِدَارِ كَرَامَـةٍ
وَلَا عَمُرَتْ مِنْ أَهْلِهَا بِكَرِيـمِ

وقوله أيضا ينتقد الفرزدق ، فى فخره بسوق قومه لبيعة سليمان بن عبد الملك ، لما غضب عليهم :

وَقَـدْ هَتَمَ النُّعْمَى هُمَيْمُ بْنُ غَالِبٍ
لِمَا سَارَ مِنْ أَقْوَالِهِ فِى الْأَهَاتِـمِ
وَأَجْمَلُ مِنْ سَوْقِ الْمِئِينَ سُكُوتُــهُ
عَنِ الْفَخْرِ وَالْأَفْوَاهُ رَهْنُ الرَّوَاتِـمِ

(٥٠) الشمول : الخمر التى تشمل بريحها الناس . وسادم : حزين .
(٥١) لزوم مالا يلزم ٣٠٩/٢ .
(٥٢) المرجع السابق ٣٠٧/٢ وهتم : كسر ، وهميم : هو الفرزدق ، والأهاتم : بنو الأهتم بن سمى التميمى ، والرواتم : جمع راتمة ، من رتمت الشيء اذا كسرته . (شرح المختار من اللزوميات ٢٨٣) .

يعنى بذكر المئين قوله فى هذا الفخر :

ثَلاَثُ مِئِينَ لِلْمُلُوكِ وَفَى بِهَا
رِدَائِى وَجَلَّتْ عَنْ وُجُوهِ الْأَهَاتِمِ

وأما الغـزل :

فهو وان أطلق الحكم عليه فى قوله :

جَهِلْتُ أَقَاضِى الرَّىِّ أَكْثَرُ مَأْثَماً
بِمَا نَصَّهُ أَمْ شَاعِرٌ يَتَغَــزَّلُ (٥٣)

= قد دل فى مواضع أخرى على أنه يفرق بين عفيفه وفاحشة ، فلا ينكر العفيف بل يستحسنه ، من هذه المواضع قول السابق :(**الشعر اذا جعل مكسبا لم يترك للشاعر حسبا ، واذا كان لغير مكسب حسن فى الصفات والنسب مالم تسب المحصنة ...) (٥٤) ، ومنها أيضا دفاعه عن غزل حسان أمام النبى ﷺ :**

كَأَنَّ سَبِيئَةً مِنْ بَيْتِ رَاسٍ يكونُ مِزَاجَهَا عسلٌ وَمَاءُ
عَلَى أنيابها أَوْطَعْمَ غَـضٍّ مِنَ التُّفَّاحِ هَصَّرَهُ اجْتِنَاءُ
عَلَى فِيهَا إذا ماالليل قَلَّتْ كَوَاكِبُهُ وَمَالَ بِهَا الْغطــاءُ (٥٥)

حيث احتج له بأنه عليه السلام كان أسجح خلقا ... وبأن حسان لم يقل الا خيرا ، لم يذكر أنه شرب خمرا ، ولا ركب مما حظر أمرا ، وانما وصف ريق امرأة يجوز أن يكون حلاله (٥٦) .

---

(٥٣) المرجع السابق ٢/١٧٨ .
(٥٤) انظر ص ٤٤٤ .
(٥٥) سبيئة : خمر : بيت راس : قرية بحلب ، هصره : أماله .
(٥٦) رسالة الغفران ٢٣٤ — ٢٣٥ .

أماما أنكره فليس الا الفاحش والكاذب والمسىء ، على مانجد فى قوله ــ من الاغريض ــ « ان (قفانبك) على حسنها وقدم سنها ، لتقر بما يبطل شهادة العدل الرضا فكيف بالبغى الأنثى ، قاتلها الله عجوزا لو كانت بشرية ، كانت من أغوى البرية » (٥٧) .

= وقوله أيضا لبعض كتاب الديوان : « **لو نطقت الدواوين لأثنت على الشيخ ... فقولها فيه خلاف مايقول ديوان امرىء القيس ، لأنه لو أذن له فى الكلام ، لعقد به كل ملام ، فقالت (قفانبك) .. : انالكندى أقر فى أبياتى بعهار ، من سر يكتم ومن جهار ، وسمى فاطمة ولعله كاذب ... فأما الكلمة التى أولها ❋ ألا انعم صباحا ❋ فتذكر كلما ذكرت الكلمة الأولى ، وغير يدها بما قال الطولى ، لو كانت من ذوات الجدر لكانت ماخورا ، يكون فيها الرفث مذخورا . وأما التى أولها ❋ خليلى مرابى على أم جندب ❋ فلو كانت تصل الى قول بلسان ، لنفت ماصنع من غير الاحسان ، على أنها أقل من سواها فحشا ... وكذلك فى التى أولها ❋ سمالك شوق .. ذكر أم هاشم والبسباسة ، فأخنى فى المنطق أن عدم حباسة ، وابنة عفزر ، لم تلق من النسب المَوْزَر » (٥٨) .**

فغزل امرىء القيس ، بما فيه من فحش ، وفجور ، وكذب ، واساءة للمتغزل بها ولأهلها ، أو بانتهاكه حرمات العفة والحياء ، والصدق ، والعرض ، والكلمة = غــزل منحرف قبيــح فى رأى أبى العلاء . ولعله بسبب هذا الغزل المنحرف المسىء لــم يره أهــلا للمغفرة ، فحشره فى (رسالة الغفران) الى الجحيم ، وان لم يبين السبب هنالك .

---

(٥٧) رسائل أبى العلاء ١٨ .

(٥٨) خمس رسائل لأبى العلاء ١ ، ٢ .

العهار : الفجور . الماخور : بيت الريبة ، الرفث : الجماع ، الفحش من القول ، كلام النساء فى الجماع . حباسة ــ بضم الحاء وكسرها ــ شىء يحبس به الماء ، والمراد ما يحبس عن الكلام كثقل اللسان أو الحياء . والوزر : الملجأ .

ونحو من نقده لامرىء القيس هنا نقده للمرار الأسدى ، بأنه صاحب غزل وتبطل ، وتوفر على الخرد وتعطل ، وبأن احتمال الصدق والوفاء فى غزله ضعيف (٥٩) .

واما الهجاء أو التهاجى :

فيبدو ازراؤه به من نعيه السابق على الفرزدق وجرير ، أن شغلا بالتهاجى عن ذكر الله وتمجيده ... ثم من سخريته بالحطيئة الشاعر الهجاء ، حين جعله فى الآخرة ـ مع أنه غفر له ـ فى بيت صغير بأقصى الجنة ، وليس عليه نور سكانها ، ولا عند بيته الا شجرة قميئة ثمرها ليس بزاك . (٦٠) ، أليس ذلك لتسلطه على الناس بلسانه ، دون جريرة منهم ، الا طمعه فيهم وتحرشه بهم ...

الأساس في هذه الغايات :

والسؤال الآن : ماهو الأساس الذى نظر اليه المعرى فى حمده ماحمد من هذه الغايات وذمه ماذم منها ، أهو نفع الأديب وضرره فقط أم نفع المجتمع وضرره أيضا ؟

وبعبارة أخرى : أهو ذاتية الأدب التى تقف بغايته ورسالته عند صاحبه ، أم موضوعيته التى تعنى رعاية الأديب لمجتمعه ومسئولية مجتمعه عنه ؟

والجواب : أنه ـ فيما يبدو ـ قد نظر الى الأديب والى مجتمعه ، فاذا كان بعض الغايات كاللذة والاشتهار ، وتمجيد الله ، والغفران فى الآخرة = ذاتيا لايكاد يتجاوز أثره الأديب ، فان بعضها الآخر اجتماعى خالص ، كالتذكير والاعتبار . واذا كان فى عيبه للتكسب وغيره من الأغراض المنحرفة ، قد نظر أكثر مانظر فيما عرضنا الى أثرها على

---

(٥٩) رسالة الغفران ص ٣٩٦ ـ ٣٩٩ .
(٦٠) المرجع السابق ص ٣٠٧ .

الأديب وأدبه = فانه قد نظر أيضا الى أثرها على المجتمع ، ليس بمجرد الاشارة الى ضررها ، كما فى بعض أقواله السابقة عن الأدباء الكاذبين ، وعن وصف الخمر والغزل = بل بالتحذير الصريح من شرهـا ، والنهى عن مودة أصحابها والاقتداء بهم ، حيث يقول لمن غره كذب الوعاظ :

رُوَيْدَكَ قَدْ غُرِرْتَ وَأَنتَ حُرٌّ بصَاحِبِ حيلةٍ يَعِظُ النِّسَاءَ
يُحَرِّمُ فِيكُمُ الصَّهْبَاءَ صُبْحًا وَيَشْرَبُهَا عَلَى عَمْدٍ مَسَاءَ
يَقُولُ : لَقَدْ غَدَوْتُ بلاَ كِسَاءٍ وَفِي لَذَّاتِها رَهَنَ الْكِسَاءَ
إذَا فَعَلَ الْفَتَى مَاعَنْهُ يَنْهَى فَمِنْ جهتَيْنِ لاَ جهةٍ أَسَاءَ

= ولمن خشى عليه غى المفتخرين يقول :

فَجَانِبِ القوم إن زَكُّوا نفوسَهُمُ فليس حُلَّالُ دنيانا بزَاكِينَا
يَسْقُونَكَ الْغَيَّ صِرفًا إنْ أطعتهمُ وقد علمتَهُمُ لِلْمَيْنِ حَاكِينَا

ولمن غرهم الشعراء ، بما تلصصوا فيه من مدائح وسباب ، أو زينوه من باطل فى الغزل والخمر = يقول أيضا :

بَنِى الآدَابِ غَرَّتْكُمْ قَديمًا زَخَارِفُ مثلُ زَمْزَمَةِ الذُّبَابِ
وما شعراؤكم إلا ذئَابٌ تَلَصَّصُ فى المدائح والسِّبَابِ
أَضَرُّ لِمَنْ تَوَدُّ مِنَ الأَعَادِى وَأَسْرَقُ لِلْمَقَالِ مِنَ الزَّبَابِ
أَقَارِضُكُمْ ثَنَاءً غَيْرَ حَقٍّ كَأَنَّا مِنْهُ فى مَجْرَى سِبَابِ

---

(٦١) لزوم مالا يلزم ١/٥٠ والصهباء : الخمر .

(٦٢) المرجع السابق ٢/٢٥٥ زكوا ، مدحوا . بزاكين : بصالحين . والمين : الكذب .

أأذهِبُ فِيكُمُ أيامَ شَيْـــبى كَمَا أذهبتُ أيامَ الشَّبَاب

. . . .

وَمَا سُمُّ الحبَاب لَــدَىَّ إلَّا كَنَظْم قِيلَ فى آل الحبَاب (٦٣)

= بل لقد عد الشعراء شرار المفسدين ، بكاذب المديح الذى يفسد نفوس الأمراء ويطغيها ، فى قوله الآخر عن فرق الأمة :

فِرَقاً شَعَرْتُ بأنها لا تَقْتَنى خَيْرًا وأنَّ شِــرَارهَا شُعَرَاؤُهَا
أثَرَتْ أَحَادِيثَ الْكِرَام بزَعْمِهَا وأَجَادَ حَبْسَ أكُفِّهَا إِثْرَاؤُهَا
وإذا النفوسُ تَجَاوزَتْ أقْدَارَها حَذْوَ الْبَعُوض تَغَيَّرتْ سُجَرَاؤُهَا (٦٤)

لذا نهى عن مودتهم ومشايعتهم ،فقال : « مَنْ مَدَحَ فاقْتَدَحَ ، ونَسَبَ لِيَتَكَسَّبَ ، فَانْفُضْ يَدَكَ مِنْ مَوَدَّتِهِ » (٦٥) .

ولا يعنى ذلك كله الا أنه كان ينظر الى الأدب والشعر خاصة ، على أنه فن رفيع ، ذو رسالة سامية ، ينبغى أن يعيها أصحابه ، فلا يتنزلوا به الى مايهينهم ، ولا يأتوا فيه بما يكره ويسىء .

كما يعنى أيضا تقديره لذاتية الأديب من ناحية ، ولحق المجتمع عليه بل مسئوليته عنه من ناحية أخرى ، فليعبر عن نفســه بما يحقق ذاتــه فى صدق وأصالة ، تعبيرا يكون به قدوة صالحة لمجتمعه ، لا أداة فساد وتقويض ....

---

(٦٣) المرجع السابق ١٢٩/١ زخارف : جمع زخرف ، ويطلق على كل مموه ومزور . والزباب : جمع زبابة ، وهى فأرة عظيمة صماء يضرب بها المثل فى السرقة . والحباب ـ بضم الحاء ـ الحية ، وبفتحها : ما ينزو من الخمر اذا فرجت .

(٦٤) المرجع السابق ٤٤/١ أثرت : نقلت ورويت . والحذو : التقدير والقطع . سجراء : جمع سجير ، وهو الخليل الصفى .

(٦٥) الفصول والغايات ١٩٣/١ واقتدح : اغترف .

خصائص نقد أبى العلاء

بعد هذا العرض الشامل لنقد أبى العلاء واتجاهاته المختلفة ، ينبغى أن نتبين خصائصه المميزة وندل عليها ، تحديدا لمعالم شخصيته الناقدة من جهة ، ولموضع نقده بالنسبة الى النقد العام من جهة أخرى •

وبالنظرة الفاحصة لهذا النقد فى جملته وتفصيله تتجلى لنا هذه الخصائص على النحو التالى :

(١) نظرته الى مصدر الابداع الشعرى :

كما رأينا فى الاتجاه الأول (١) ليس الابداع الشعرى عنده الهاما من خارج النفس ، لا من الشياطين ولا من غيرها ، وانما هو **عمل ذاتى يصدر** فيه الشاعر عن استعداده وجهده • أو قل : هو **عمل ارادى** من أهم مصادره العقل ، والوعى فيه كامل لا يختلط ولا يغيب •

ومادام الوعى فيه كاملا كان لقوى الشاعر الأخرى ـ من خيال وفكر وذوق ومهارة ـ ولصفاء نفسه وميلها الى ما ينظم فيه = كان لذلك كله أثره ودوره فى عملية الابداع على النحو الذى فصلناه •

ولأن الابداع الشعرى عنده على هذا النحو ، نتاج قوى النفس والعقل خاصة ، كانت نظرته تلك قمة تطور النظر الى كيفية هذا الابداع ، فقد ظل الى عهده موضع خلط ومزايدة من النقاد وغيرهم ، فى أنه من الشعراء أو من وحى الشياطين ••• كما كان رأيه فيه أقرب الآراء الى مانراه الآن ان لم يكن هو هو •

(٢) مقاييسه العامة :

تلك التى اعتمد عليها فى قبوله ماقبل ورفضه مارفض هى :

---

(١) انظر ص : ١٤٤ — ١٦٣ •

أولا : **الصفات الفنية للفظ والمعنى ، دون نظر الى ذات القائل** وعصره ، وقد كانت أهم أسسه التى استند اليها ، فى نقده لجوانب النص وماتصل بها من موازنات ومذاهب ، فلم يرفع المتقدم لتقدمه ، ولم يضع المتأخر لتأخره ، على كثرة **ماتعرض لهما ، وقارن بينهما ، كما رأينا ،** وكما يبدو من قوله فى تفضيل أبى القاسم المغربى على صغره وتأخره : « **ليس النصر بقدم العصر ، ولا التجويد بذهاب أبد الأبيد** » (٢) ، ومن قوله فى فضل ابن أبى حصينة :

« **الدهر مديد طويل ، يجوز أن يحدث فى آخره كما حدث فى أوله ، لأن الله ـ سبحانه ـ قدير على الممتنعات ... ولا يمتنع أن ينشىء فى هذا العصر من الشعر من هو لاحق بالمتقدمين ، وشبيه من سلف من الفحول الأولين ، وكان مولاى الأمير أبو الفتح الحسن بن عبد الله بن أبى حصينة سألنى أن أسمع شعره ، فقرىء على ما أنشأه من القريض ، فوجدت لفظه غير مريض ، ومعانيه صحاحا مخترعة ، وأغراضه بعيدة مبتدعة ، وهو ـ وان كان متأخرا فى الزمان ـ فكأنه من فرط عهد النعمان** » (٣) .

ولا تظنن أن المجاملة فقط هى التى أملت هذا الكلام ، لأن معرفة معاصريه لهذا الأساس عنده وتنويههم به مانعة من هذا الظن ، خصوصا ماكان من تلميذ محايد كابن سنان ، وذلك قوله ـ بعد ما أزرى بالناظرين الى ذات القائل وعصره ممن فضلوا القدماء ـ :

« **وذهب غير هؤلاء من أهل العلم بالشعر فقال : ان الطرق فى نقد الشعر ماقدمناه ، من نعوت الألفاظ والمعانى ، فأما قائله وتقدم زمانه**

---

(٢) رسائل أبى العلاء ص ١٢ وأبد الأبيد : آخر الدهر الطويل .

(٣) ديوان ابن أبى حصينة ١/٣ والنعمان : يعنى به النعمان ابن المنذر ملك الحيرة فى الجاهلية . وفرط عهده : أوله والمتقدم منه .

أو تاخره ، فلا تاثير له فى ذلك ، لأن القديم كا نمحدثا ، والمحدثسيصير قديما ، والتاليف على حاله لا يتغير ••• والى هذا كان يذهب أبو عثمان الجاحظ ، وأبو العباس المبرد ، وأبو عبادة البحترى ، وأبو العلاء ابن سليمان آنفا ، وهو الصحيح الذى لا يعترض القائل فيه شك ولا شبهة » (٤) •

ثانيا : **الغريزة ، أى الحس الذوقى** ، اذ طالما احتكم اليها فى نقده ، ففى تعريف الشعر جعلها أساس تقبله (٥) ، وفى الحديث عن مصادره جعلها منأهم أدوات ابداعه واجادته ، وفى نقده للأوزان والقوافى كانت أساس الجانب الأكبر من أحكامه على مارأينا هناك ، من تمييزه بين زحافات المتنبى ، وعيبه بعض زحاف البحترى ، واعتراضه على زيادة القدماء ـ وكذا البحترى ـ فى بعض الأوزان (٦) •••

على أنه لم يحتكم الى الغريزة الفردية فحسب ، بل احتكم أيضا الى الغريزة العامة ـ أى مايمكن أن نسميه الذوق العام ، أو ذوق العصر ـ فى عيبه على من يقول الشعر بالعروض = نظمه على وزن قصيدة المرقش ⁕ هل بالديار ••• ⁕ مع أن غرائز الناس فى عصره أصبحت تنفر من ذلك (٧) •

وعلى الرغم من أن الاحتكام الى الحس الذوقى عام ، يبدو طريفا من أبى العلاء رمزه اليه بالغريزة دائما ، وكثرة احتكامه اليه عن ثقة قوية بحكمه ، وتأكيد متصل لضرورته •

ثالثا : **العرف اللغوى المشهور** ـ وهو ماترددت اشارته اليه : بين **الفصيح ، والأفصح ، والسماع ،والمعتاد ، والمعروف ،والأكثر ، والمستعمل ـ**

---

(٤) سر الفصاحة ص ٢٣٩ •
(٥) انظر ص ١٣٥ •
(٦) انظر ص ٣٧٣ ، ٣٨٤ ، ٣٨٧ •
(٧) رسائل أبى العلاء ص ٧٥ •

كان أساسه فى كثير من نقده **للألفاظ ، والتراكيب ، والمعانى ، والصنعة** ، اذ رأيناه فيما أسلفنا يؤثر من الألفاظ والتراكيب ماجرى على هذا العرف ، ويعيب منها ومن التشبيهات والاستعارات ما خالفه (٨) ، كما وجدناه يحتج به فى غير موضع على ما اختاره من الروايات والتأويلات (٩) .

وليس جنوحه الى القياس فى توجيه بعض التعبيرات أو استحسانها بناقض لهذا الأساس عنده ، لأن ذلك – كما أسلفنا – قليل من جهة ، وصائر فى بعض وجوهه الى ماهو الأصل من جهة أخرى .

رابعا : كثرة الاستعمال ، وقد كانت من أسسه فى نقده للأوزان والقوافى ، من نحو عده الطويل والبسيط والوافر والكامل أشرف الأوزان وأفضلها ، وتقسيمه الطريف للقوافى الى الذلل والنفر والحوش ، الى غير ذلك من أحكامه على بعض الزحافات والقوافى (١٠) .

خامسا : آراء غيره من النقاد ، تلك التى رفضها وتعقبها كثيرا ، كانت معتمده فى غير موضع من نقده ، فبرأى أبى تمام أخذ فى تجدد الشعر (١١) ، وبرأى دعبل استدل على ما آثره فى رواية بيت البحترى :

عَجِلَتْ إلَى فَضْل الْخِمار فَآثَرَتْ . . . .(١٢)

والى ذوق العامة جنح فى تأويل المثل « الحسن أحمر » ، وفى عيب بعض التشبيهات القديمة (١٣) ، وعلى نقد عمر – رضى الله عنه – لزهير اعتمد فى حديثه عن غلو النكتى فى مدحه (١٤) وبرأى بعض الفقهاء استأنس فى دفاعه عن السجع الذى عابه داعى الدعاة الفاطمى (١٥) .

---

(٨) انظر ص ٢٣٥ ، ٢٥٠ ، ٣٤٤ ، ٣٥١ .

(٩) انظر ص ١٩٤ ، ٢٩١ ، ٣٣٢ .

(١٠) انظر ص ٣٧٥ ، ٣٩١ .

(١١) انظر ص ١٤٢ .

(١٢) انظر ٢٠٣ .

(١٣) انظر ص ٢٩١ ، ٣٤٠ .

(١٤) حيث ذكر قول عمر لابن عباس – رضى الله عنهم – : أنشدنى لأشعر شعرائكم ، قال : ومن هو ؟ قال : الذى لا يعاظل بين البيتين ، ولا يتبع حوشى الكلام ، ولا يمدح الرجل الا بما فيه (الرسائل ٨٢) .

(١٥) انظر ص ٣٥٩ .

سادسا : موافقة العقل : تلك التى على أساسها رفض صدور الشعر عن الجن ، واجتماع طبعين على نظم . ورد خبر الجرادتين والصوت المنسوب اليهما ، ولم يقبل المبالغات والتشبيهات المفرطة ، والمعانى الكاذبة (١٦) .

وهذا بالطبع تابع لنزوعه الفلسفى عموما ، ومكانة العقل عنده خصوصا ، على أنه لقوة هذا النزوع فيه لم يرجع الى العقل فى نقد الكلام الفنى فقط ، بل فى نقد الكلام والاعتقاد أيضا ، كما يبدو فى (الغفران) و (اللزوميات) ، من نحو قوله فى الأولى :

« إذَا الْمُجْتَهِدُ نَكَبَ عن التَّقْلِيد فما يَظْفُر بغَيْر التَّبْلِيه ، وإذا الْمَعْقُولُ جُعِلَ هَادِيًا ، نَقَعَ بريِّهِ صَادِيًا ، ولكن أين مَنْ يَصْبِرُ على أحكام الْعَقْل ، ويَصْقُلُ فهمه أبْلَغَ صَقْلٍ ؟ هَيْهَاتَ ! عُدِمَ ذلك فى مَنْ تَطْلُعُ عَلَيْهِ الشمسُ ، ومَنْ ضَمِنَه فى الرِّمَم رَمْسٌ ، إلا أنْ يَشِذَّ رَجُلٌ فى الأُمَم ، يُخَصّ مِنْ بعَمَمٍ » (١٧) .

وقوله فى الثانية مما أسلفنا :

أَيُّهَا الْغِـرُّ إنْ خُصِصْتَ بعَقْلٍ   فَاسْأَلَنْهُ فَكُلُّ عَقْـلٍ نَـبِىٌّ

***

وَمَا تُرِيكَ مَرَائِى الْعَيْنِ صَادِقَـةً
فَاجْعَلْ لِنَفْسِكَ مِرْآةً مِـنَ الْفِكَـرِ (١٨)

سابعا : مذهب الشاعر الخاص ، فى التعبير ، والمعانى ، والموسيقى والصنعة ، مما احتكم اليه كثيرا بعد استخلاصه واستيضاحه ، على مايبدو

---

(١٦) فى ص ١٤٨ ، ١٥٢ ، ١٧٦ ، ٣٠٧ ، ٣٤٣ .
(١٧) رسالة الغفران ص ٤٦٤ ونكب : عدل . وعمم : كثير .
(١٨) انظر ص ٤٨ ، ٤٩ .

من نفيه نسبة بعض الأشعار الى امرىء القيس والنابغة والأعشى والجعدى (١٩) ، لأنها على قرى - أى وزن - لم يسلكوه ، ومن ترجيحه أو تصحيحه كثيرا من روايات شعر الطائى والبحترى والمتنبى تبعا لمذاهبهم فى التعبير والمعانى والصنعة (٢٠) .

ثامنا : مذهب الشعراء العام فى بعض التعبيرات والمعانى ، كاصطلاحهم على أنه يجوز فى القافية ما لا يجوز فى الحشو ، وهو مانظر اليه كثيرا فى توجيه بعض مخالفاتهم . **وكعادتهم فى الدعاء للديار بالسقيا** ، تلك التى نظر اليها فى نقد بعض الروايات . **وكمذهبهم فى ادعائهم مالا يفعلون** ، ذلك الذى اعتمد عليه فى توجيه كثير من الادعاءات أو الدفاع عنها (٢١) .

تاسعا : اللغة الخاصة ببعض القائلين أو بعصرهم ، فقد نظر اليها فى نفى مانسب الى آدم عليه السلام ، وفى اثبات ماشكوا فى نسبته الى تأبط شرا والى المهلهل من أشعار (٢٢) ...

عاشرا : أفصح الآثار وأبلغها من قرآن وحديث وشعر ومثل ، وتلك كانت أساسه - كما رأينا - تأصيل اللغة ، والمعانى ، والأوزان ووجوه الصنعة (٢٣) .. كما كانت مرجعه أيضا فى نقد الألفاظ والتراكيب ، وفى تأويلها أحيانا (٢٤) .

حادى عشر : النفع والضرر ، وهو ما نظر اليه فى حديثه عن غاية الشعر والأدب ، وقد كان النفع اما ذاتيا كلذة الأديب ، واشتهاره ،

---

(١٩) انظر ص ١٦٩ ، ١٧٣ — ١٧٦ ، ١٨٢ .
(٢٠) انظر ص ٢١٠ — ٢١٢ .
(٢١) انظر ص ١٩٤ ، ٢٧٠ ، ٣٣٩ .
(٢٢) انظر ص ١٧١ ، ١٧٨ .
(٢٣) انظر ص ٢٢٣ ، ٣٠١ ، ٣٣١ ، ٣٥٢ ، ٣٧٥ .
(٢٤) انظر ص ٢٢٦ ، ٢٦٢ ، ٢٧٨ .

وفوزه فى الآخرة • واما اجتماعيا كالعظة والاعتبار • كما كان الضرر كذلك ، اما ذاتيا كهوان الأديب بالتكسب والكذب والانحراف ، واما اجتماعيا ككساد الأدب بالتكسب ، وفساد النفوس بكاذب المديح وسيىء القدوة ، وهتك الأعراض بالغزل المنحرف (٢٥) •

واذا كان بعض هذه المقاييس عاما قد سبق النقاد الى النظر اليه ، والتطبيق عليه ، فان بعضها كالاحتكام الى العقل ، ومذهب الشاعر ولغته ، والنفع والضرر ، يعد من أسسه الخاصة التى قل أن نجد من النقاد من يشركه فيها •

(٣) قيمه الجمالية :

ولعلك تسأل : هل كان له مأرب فى الجمال ومتعة به ، بعد ماسوى بين السرور والحزن ، والغناء والبكاء ، فى نحو قوله من (السقط) :

غَيْرُ مُجْدٍ فِى مِلَّتِى وَاعْتِقَادى
نَوْحُ بَاكٍ وَلَا تَرَنُّمُ شَادِ

وَشَبِيهٌ صَوْتُ النَّعِيِّ إِذَا قِيـ ... ـسَ بِصَوْتِ الْبَشِيرِ فى كُلِّ نَادِ
أَبَكَتْ تِلْكُمُ الْحَمَامَةُ أَمْ غَنَّـ ... ـتْ عَلَى فَرْعِ غُصْنِهَا الْمَيَّادِ (٢٦)

ثم قوله من (اللزوميات) :

أَعِكْرِمَ إِنْ غَنَّيْتِ أُلْفِيتِ نَادِبًا ... فَلَا تَتَغَنَّىْ فى الْأَصَائِلِ عِكْرِمَا
بِنَظْمٍ شَجَا فِى الْجَاهِلِيَّةِ أَهْلَهَا ... وَرَاقَ مَعَ الْبَعْثِ الْحَنِيفِ الْمُخَضْرَمَا (٢٧)

---

(٢٥) انظر ص ٣٣١ •

(٢٦) شروح السقط ٩٧١/٣ •

(٢٧) لزوم مالا يلزم ٢٩٤/٢ عكرم : مرخم عكرمة ، وهى الحمامة .

نعم كانت له على الرغم من هذا ونحوه متعة بالجمال ورغبة فى الجميل ، كما كانت له نفرة من القبيح ورغبة عنه ، بل ان ماكان له من هذا وذاك لدليل على أن مثل تلك الأقوال لم تكن الا زفرات عارضة لاتلبث أن تزول ، وفى زوالها كان منه ما أنبأ عن اعجابه بجمال الأدب مما عرضناه .

فان قلت : أليس ما تعنيه بقيم الجمال التى أعجبته ، وحكم على أساس منها هو مقاييسه التى أسلفتها ؟

قلت : هى منها وليست كلها ، لأن من مقاييسه : مذهب الشاعر أو الشعراء ، واللغة الخاصة ، والغريزة ، وليست قيم جمال فى الحقيقة ، وان أسس عليها كثيرا من نقده .

انما الذى منها ـ ونعنيه هنا ـ هو صفات النص الفنية وغاياته النبيلة التى آثرها واستحسنها ، والتى اذا تأملناها تبينا من مزاياها :

أولا : أنه لم ينشدها ككثيرين فى **شكل التعبير** من ألفاظ وتراكيب وموسيقى وبناء فحسب ـ بل نشدها أيضا فى **المضمون وغايته** ....

ثانيا : أن مانشده منها ليس **المادى** الذى يدرك بالحواس فحسب ، كما هو الغالب فى النقد قبله (٢٨) بل لعل **المعنوى** فيها أن يكون أظهر وأغلب ، تبعا لطبيعته الفكرية من جهة ، والبصرية من جهة أخرى ، اذ كان **جمال المعانى عنده فى صدقها** ، **وعمقها** ، **وجدتها** ، **وتساميها** ، **ووحدتها** ، **وحسن التعليل لها** .

أما جمال الألفاظ والتراكيب والصنعة والبناء فقد ترددت سماته بين الحسيات والمعنويات :

لأنه مع ايثاره فى الألفاظ : خفة النطق ، والعذوبة فى السمع ،

---

(٢٨) الأسس الجمالية فى النقد العربى ص ١٦٩ .

واعتدال التأليف ، مما هو حسى ـ آثر أيضا دقة الدلالة ، ووضوحها ، وفوتها ..

ومع رفضه التكرار ، والحشو ، وخلل التقابل فى التراكيب ـ آثر الايجاز ، والوضوح ، وغيرهما من المعنويات .

ومع اعجابه بكثرة التشبيهات فى البيت ، وهى قيمة ترجع الى الكم ـ كان استحسانه لجدة التشبيه ، وتركبه ، وموافقته المعقول والمعتاد، بل كانت سخريته من المادية الغالبة فى التشبيهات الغزلية ..

ثالثا : أن قيم الجمال الحسية عنده ما يدركه السمع ، لغلبة اعتماده عليه فيما يبدو ، وأن أكثر قيم الجمال المعنوية عنده ترجع الى الحق والخير ، لا سيما مايتصل منها بغاية الشعر والأدب .

(٤) ذاتيته وموضوعيته :

لم يخل نقد أبى العلاء ـ كأى نقد ـ من الأحكام الذاتية التى اعتمد فيها على الذوق دون تعليل . وقد أشرنا فى مقياس الغريزة عنده الى مامر بنا من هذه الأحكام ، ونزيد هنا قوله ـ فيما روى عنه القاضى أبو يوسف القزوينى ـ : « ما سمعت فى أمر الحسين بن على ـ رضى الله عنهما ـ شيئا يجب أن يحفظ » (٢٩) .

كما نذكر اعجابه المطلق بوصف أبى القاسم المغربى للخيل والراح والخيمة دون شاهد واحد من هذا الوصف (٣٠) ، واعجابه المطلق أيضا فى غير موضع من (الغفران) بأبيات وقصائد بعض الشعراء ، كقوله لعمرو بن أحمر : « وقد يعجبنى قولك :

وَلَقَدْ غَدَوْتُ وَمَا يُفَزِّعُنِى خَوْفٌ أُحاذِرُهُ وَلَا ذُعْرُ » (٣١)

وكقوله لحميد بن ثور : « لقد أحسنت فى قولك :

---

(٢٩) تعريف القدماء ص ٧٨ .

(٣٠) رسائل أبى العلاء ص ١٧ .

(٣١) رسالة الغفران ص ٢٤١ .

أَرَى بَصَرِي قَدْ رَابَنِي بَعْدَ صِحَّةٍ   وَحَسْبُكَ دَاءً أَنْ تَصِحَّ وَتَسْلَمَا
وَلَنْ يَلْبَثَ الْعَصْرَانِ يَوْمٌ وَلَيْلَةٌ   إِذَا طَلَبَا أَنْ يُدْرِكَا مَاتَيَمَّمَا (٣٢)

لكن هذه الأحكام العامة أو الذاتية ـ مهما تكن ـ قليلة بجانب ما أصله وعلله ، أى ان ذاتيته لم تلغ موضوعيته ، كيف وهو العالم المحقق الفيلسوف الذى من شأنه التحليل والتعليل والبحث عن الأسباب . وهل كانت الخصائص الجمالية والمقاييس العامة التى أجملناها الا علل ما أعجبه ومالم يعجبه مما بسطناه من قبل ، ولا سبيل الى اعادته ، وانما الذى يعنينا ونشير اليه هنا أمران :

أحدهما : حرصه على التبرؤ من الكذب ، ومن مجرد المجاملة ، فى غير موضع من مواضع نقده الذاتى والموضوعى ، من نحو قوله فى (رسالة المنيح) ـ بعد ما أثنى على المغربى وفضله لأدبه لا لصداقته ـ :

« وَأُتْبِعُ قَوْلِي لِمَا مَضَى : وَأُشَيِّعُهُ إِذَا انْقَضَى . بِأَنْ أَقُولَ : إِنْ أَوْطَأْتُ نَفْسِي فِي تَفْضِيلِهِ عِشْوَةً . أَوْ بَغَيْتُ عَلَى إِظْهَارِ الحقِّ رِشْوَةً : فَمُنِيتُ بِالْحَاصِبِ . وَالْعَذَابِ الْوَاصِبِ . لَيْلُ الْخَرِصِ أَنْعَمُ مِنْ لَيْلِ الْمُتَخَرِّصِ . وَنَهَارُ الْكَاذِبِ أَبْأَسُ مِنْ نَهَارِ العاذب » (٣٣) .

ثم قوله ـ فى رسالته إلى التَّكَتِىِّ ـ « وَإِذَا تَوَخَّيْتُ قَوْلَ الحَقِّ لَمْ لَمْ يَكُنْ لِسَيِّدِي ـ جَمَّلَ الله به ـ كبيرُ فَضِيلَة فى اجتنابه هَذَيْن

---

(٣٢) رسالة الغفران ص ٣٦٣ . رابنى : شككنى فى سلامته ، ما تيمما : ما قصدا .

(٣٣) رسائل أبى العلاء ص ١٣ والعشوة ـ بضم العين وكسرها ـ ركوب الأمر على غير بيان ، وبالفتح : الظلمة . والحاصب : ريح تحمل التراب ، أو هو دقاق الثلج والبرد ، والسحاب الذى يرمى بهما . والواصب : الدائم الثابت ، والخرص : الجائع فى البرد ، والمتخرص : المفترى . والعاذب : من لم يأكل من شدة العطش .

النَّوْعَيْنِ من الزِّحَافِ – يعنى عَقْلَ الوافر وَنَقْصَهُ (٣٤) – كما لم يُحْمَدْ عَلَى تَرْكِهِمَا عَمْرُو بنُ كُلْثُومٍ فى قوله :

أَلَا هُبِّى بِصَحْنِك فَاصْبَحِينَا . . (٣٥)

ولا النابغة فى قوله :

أَتَارِكَةٌ تَدَلُّلَهَا قَطَامِ .

ولا ذو الرمة فى قوله :

أَحَادِرَةٌ دُمُوعَكَ دَارُمَىٍّ . . . .

ولا غيرهم من المتقدمين والمحدثين ، وانما قلت ذلك ليعلم أنى لم أناجه بخطاب صدر عن صدر مريض ، كما جرت العادة بذلك من العامة لقائلة القريض . وقد قال ﷺ : « ما أنا من دد ولا دد منى » ، (٣٦) وقال ابن أحمر :

ولا تقولنَّ : زَهْو ماتخبِّرنـا لم يَتْرُكِ الشيبُ لى زهْواً ولا العَوَرُ

الزهو ههنا : الكذب » (٣٧) .

وغير خفى أنه لايتبرأ من الكذب على هذا النحو الا من أخذ نفسه بتحرى الصدق والتحرر من الهوى ، فى نقده الذاتى فضلا عن نقـــده الموضوعى .

والآخر : أنه على الرغم من موضوعيته الغالبة ، وتبرئه كثيرا من الكذب ، قد اتهم بالتعصب للمتنبى ، والتعصب على ابن هانىء .

---

(٣٤) انظر تفسيرها ص ٣٧١ هـ ١٧ .
(٣٥) فاصبحينا : من الصبوح : وهو شراب الغداة .
(٣٦) الدد : اللهو واللعب .
(٣٧) رسائل أبى العلاء ص ٧٠ .

أما التعصب للمتنبى : فقد اتهم به فى حياته ، على مايبدو من وصف ابن سنان له بذلك فيما أسلفت (٣٨) . ثم اتهم به بعد مماته ، على مايبدو فيما ذكره ياقوت وابن الأثير :

فياقوت الذى أخذ عنه من بعده ، يقول فى سياق حديثه عن رحلة المعرى الى بغداد :

« وكان أبو العلاء يتعصب للمتنبى ، ويزعم أنه أشعر المحدثين .. وكان المرتضى يبغضه ويتعصب عليه ، فجرى يوما بحضرته ذكر المتنبى ، فتنقصه المرتضى ، وجعل يتتبع عيوبه ، فقال المعرى : لو لم يكن للمتنبى من الشعر الا قوله :

لك يامَنَازلُ فى القلوب مَنَازلُ

لكفاه فضلا ، فغضب المرتضى ، وأمر به فسحب برجله وأخرج من مجلسه ، وقال لمن بحضرته : أتدرون أى شىء أراد الأعمى بذكر هذه القصيدة ، فان للمتنبى ماهو أجود منها ولم يذكرها ؟ فقيل : النقيب السيد أعرف . فقال : أراد قوله :

وَإِذَا أَتَتْكَ مَذَمَّتِى مِنْ نَاقِصٍ فَهِىَ الشَّهَادَةُ لِى بِأَنِّى كَامِلُ »(٣٩)

وابن الأثير فى سياق عيبه لكلمة (حالل) ببيت المتنبى :

فلا يُبْرَمُ الأمرُ الذى هوحَالِلٌ ...

لفكه الادغام وكان يمكنه (ناقض) ـ يقول :

« وبلغنى عن أبى العلاء أنه كان يتعصب لأبى الطيب ، حتى انه كان يسميه الشاعر ، ويسمى غيره من الشعراء باسمه ، وكان يقول : ليس

---

(٣٨) انظر ص ٢٤١ .

(٣٩) تعريف القدماء ص ٧٦ .

فى شعره لفظة يمكن أن يقوم عنها ماهو فى معناها ، فيجىء حسنا مثلها ، فياليت شعرى ! أما وقف على هذا البيت المشار اليه ٠ لكن الهوى ـ كما يقال ـ أعمى ، وكان أبو العلاء أعمى العين خلقة وأعماها عصبية ، فاجتمع له العمى من جهتين » (٤٠) ٠

فاذا تأملنا موقف المعرى فى نقده من المتنبى ، لنرى هل كان متعصبا له كما قالوا أم لا ؟

وجدنا أنه أعجب بمعانيه الغرائب ، ولغته التى حرص على تفقدها ، وأن هذا الاعجاب كان منذ وقت مبكر ، لتأثره بمعانيه فى (سقط الزند) ، ذلك التأثر الذى أثبته البطليوسى ٠

ووجدنا أيضا أنه كان يفضله على أبى تمام وغيره من المحدثين ، وأنه على الرغم من اعجابه وتفضيله اياه قد أنكر عليه كثيرا من مبالغاته المفرطة ، وتكسبه بشعره ، ثم لم يغفل عدم دقته فى بعض تعبيراته ، بل اقترح ماهو أحسن منها ، كاقتراحه ـ فيما أسلفنا ـ بدلا من (**مولانا**) : (**سيدنا**) ، وبدلا من (**قولتى**) : (**قولنا**) ، وبدلا من (**رب نجيع**) : (**كم من نجيع**) (٤١) ٠

وهنا نقول :

كيف كان تعصبه اذن ؟

ان التعصب معناه الاعجاب المطلق بشعره ، أو التفضيل المطلق له ٠ أو تنزيهه عن كل عيب ، وأى من هذه الثلاثة لم يكن شىء منه ، فقد أعجب بجوانب خاصة من شعره ، وفضله ببعضها على ماذكرنا فى الموازنات ، وسجل عليه ـ بل استنكر ـ كثيرا من الأخطاء ٠

---

(٤٠) المرجع السابق ص ٣٩٤ ٠
(٤١) انظر ص ٢٣١ ، ٢٣٣ ٠٠

فاذا قالوا : انه كان يتعصب له لمجرد الاعجاب فقد تجاوزوا ، وموقفه من المرتضى ـ على فرض صحته ـ لا يعنى الا مجرد الدفاع عمن أعجب به ، وتلك أمانة الكلمة لا التعصب ٠

واذا قالوا : انه كان يسميه الشاعر ويسمى غيره باسمه ، قلنا أيضا : هذا ـ على فرض صحته ـ تعبير عن الاعجاب لا تعصب ٠

واذا أخذه ابن الأثير بقوله : « **ليس فى شعره لفظة يمكن أن يقوم عنها ماهو فى معناها ، فيجىء حسنا مثلها** » = وجدنا الصفدى يدفع هذا التحامل ، « **بأن المعرى ليس بدعا فى ترجيحه المتنبى على غيره من الشعراء ، فأكثر الناس على هذا المذهب ، وماكان هو ولا غيره ممن رجحه يعتقد أنه معصوم لا يقع فى الخطأ** » (٤٢) ٠

على أن فى العبارة التى نقلها ابن الأثير « **ليس فى شعره ٠٠** » = تجاوزا للأصل الذى وردت فيه ، اذ سياقها ـ فيما نعلم ـ ذلك الحوار الذى ذكر ابن فورجة أنه جرى بينه وبين المعرى ، حين سأله عن تبديل كلمة من شعر المتنبى بأخرى ٠ فقال له أبو العلاء : « **لا تظنن أنك تقدر على ابدال كلمة واحدة من شعره بما هو خير منها ، فجرب ان كنت مرتابا** » (٤٣) ٠

فعدم القدرة على الابدال ليس حكما عاما كما ذكر ابن الأثير ، بل هو حكم خاص بالمخاطب ، أعنى ابن فورجه ، وغاية مايعنيه هذا الحكم هو استكثار المعرى هذا الابدال على ابن فورجه خاصة ، وان لم يكن ممتنعا بالضرورة ، بدليل أنه كان منه بعد ذلك ٠٠ ولا يبعد أن يكون مراده بذلك أن للمتنبى لغته الخاصة ، شأن عظماء الأدباء ، تلك اللغة التى قرر شدة تفقده لها ، وبين وجه خصوصيتها كثيرا ٠

---

(٤٢) نصرة الثائر على المثل السائر مخطوط ص ٩٤ ، ٩٥ ٠

(٤٣) شرح الواحدى للمتنبى ٢٧٧/١ ٠

ثم متى كانت الأحكام الادبية جامعة مانعة ، حتى نأخذ المعرى بهذا الحكم ، وهى أحكام يزجيها الذوق لا المنطق فى الكثير الغالب ٠

وأما **تعصبه على ابن هانىء** فقد زعمه البديعى فى قوله عنه :

« وكان أبو العلاء منحرفا عنه ، متعصبا عليه ، طاعنا فيه ، يقول عن شعره : (**بعر مفضض**) ، واذا سمعه يقول : (**ما أشبهه الا برحى تطحن قرونا**) ، ولم أر سببا لهذا التعسف عن طريق الحق والتعصب المفرط الا مضاهاتهم المتنبى بابن هانىء (٤٤) »

ودعوى التعصب هنا زيادة ـ معها غيرها ـ على قول ابن خلكان، الذى نقله البديعى بتصرف ، والذى نصه : « **ويقال ان أبا العلاء كان اذا سمع شعر ابن هانىء يقول : ما أشبهه الا برحى تطحن قرونا ٠ ولعمرى ما أنصفه فى هذا المقال ٠ وما حمله على هذا الا فرط تعصبه للمتنبى** » (٤٥)

فكما زاد البديعى (**التعصب**) زاد قوله (**بعر مفضض**) ، وليست من لغة المعرى ، باسفافها ونزولها عما كان يتسامى اليه فى تعبيره دائما ٠

واذن فليس سوى هذا الحكم « **ما أشبهه ٠٠٠** » ، مما لا نستبعده من المعرى ، لاتفاقه مع ما أخذه عليه فى (الغفران) ، من غلو عده به من الزنادقة ، على الرغم من تقريره هنالك أنه كان من شعراء الأندلس المجيدين ، فكيف يدعى عليه التعصب مع ذلك ؟

٥ ـ تأثره واستقلاله :

واذا كان فى تكوين المعرى الذى فصلناه أول هذا البحث ذلك التراث النقدى المأثور لمن قبله ، فما مدى تأثره بذلك واستقلاله عنه فى نقده ؟

---

(٤٤) أوج التحرى ص ٣٠ ٠
والبعر ٠ رجيع ذوات الخف والظلف ٠ ومفضض : مطلى بالفضة .
(٤٥) وفيات الأعيان (بتحقيق الشيخ محمد محيى الدين) ٤/٥١ .

الجواب أننا لا تعدم فى هذا النقد أمثلة من احتذائه بآراء وأذواق السابقين ، مما أجملنا بعضه فى الحديث عن مقاييسه العامة ، ونشير هنا الى استئناسه بذوق بعض شراح المتنبى ، كابن جنى والمخزومى ، فى تحليل شعره وتأويله .. والى احتجاجه بذوق المولدين والمحدثين ، فى انكار ما اضطرب من أوزان امرىء القيس ، ـ وبذوق شعراء الاسلام ، فى انكار لاميته * عيناك دمعهما سجال * .

ثم نذكر تمثيله بذوق أبى عمرو بن العلاء فى شعر جرير حيث يقول :

وَالْمَنَايَا كَالأُسْدِ تَفْتَرِسُ الأَحْـ ... ـيَاءَ جَمْعًا وَلاَتعَافُ الْكَلِيبَا

مِثْلَمَا قِيلَ فِى جَرِيرٍ أَخِى الْقَـوْ ... لِ يَصِيدُ الْكُرْكِىَّ وَالْعَنْدَلِيبَا(٤٦)

الا أن صور هذا الاحتذاء التى يمكن تتبعها قليلة جدا ، بجانب ما استقل فيه معتمدا على ذوقه الخاص . وهو استقلال نجده فى جدة الرأى كما نجده فى حسن العرض . فقد يكون مسبوقا فى بعض المسائل بآراء متفرقة، حتى اذا تناولها استقصى جوانبها فى غير صورة من صور التعبير عنها، كذلك الذى كان وفصلته من حديثه : عن الهام الشياطين ، ومعقولية الابداع الشعرى ، والتاريخ الفنى لبعض الألفاظ والتراكيب ، ومذاهب بعض الشعراء فى التعبير ، والمعانى ، والصنعة ... (٤٧) ، هذا الى حديثه عن الأوزان والقوافى الخاصة ، وموقفه من انشاد الشعر ، وموازنته بين بعض موصوفات الشعراء ونظائرها فى الجنة ، ورأيه فى غاية الشعر والأدب (٤٨) .

---

(٤٦) اللزميات ١/١٠٧ . والكليب : جماعة الكلاب . والكركى : طائر يقرب من الوز أبتر الذنب . والعندليب : طائر صغير يصوت ألوانا .

(٤٧) انظر ص ١٤٤ ، ١٥٢ ، ٢١٩ ، ٤٢٠ .

(٤٨) انظر ص ٣٦٩ ، ٤٠٤ ، ٤٣٥ ، ٤٤٣ .

على أن من الجديد جانبا آخر هاما لايقل عن هـذه الجوانب فى مزيته ان لم يزد ، وهو الأسلوب التمثيلى ، الذى جنح اليه فى عـرض هذا النقد ، ونجده فى (رسالة الغفران) و (رسالته الى بعض كتـاب الديوان) على أنحاء :

منها : انطاقه بعض قصائد امرىء القيس بلوم صاحبها على ماشنعها به ، من افحاش فى الغـزل ، واضـطراب فى الوزن والقافية ، وخلل فى النحو (٤٩) .

ومنها : انطاقه ابن القـارح بطـل الرحلة الى العـالم الآخـر فى (الغفران) بالكثير من آرائه النقدية ، مما أشرنا الى أكثره خلال العرض ، ولا سبيل الى اعادته هنا (٥٠) .

ومنها : ـ وهو أطرف من سابقه ـ احتكامه الى الشعراء أنفسهم فى دفع ما عابهم به النقاد ، وتحقيق مانسبه اليهم الرواة (٥١) .

فقد احتكم الى النابغة وأنطقه بالرأى فيما عيبت به (الدالية) وماصحف فيها من جهة ، وفيما نسب اليه على سبيل الغلط من جهة أخرى ..

واحتكم الى الأعشى والجعدى وحاورهما فيما نسب اليهما ...

والى لبيد لاستيضاح مراده فى بعض شعره ...

والى حسان لدفع ماعيب من غزله ووصفه الخمر أمام النبى ﷺ .

والى الخيتعور ـ شيخ الجن ـ لتحقيق لغتهم ومانسب اليهم من الشعر ...

---

(٤٩) خمس رسائل لأبى العلاء ص ١ ، ٢ .

(٥٠) انظر ص ١٣٩ ، ١٤١ ، ١٧١ .

(٥١) انظر ص ١٦٨ ، ١٧٣ ، ١٧٩ ، ١٨٠ ، ٢٠٠ ، ٢٠٩ ، ٣٢٨ ، وانظر فى الغفران ص ٢٠٨ ، ٢١١ ، ٢١٦ ، ٢٣٤ .

والى امرىء القيس ليقول رأيه فيما صحفه الرواة أو زادوه ...

والى المرقش الأكبر لاثبات مانسب اليه وليس فى ديوانه .

ومنها : اجراؤه كثيرا من المنافرات والمحاورات النقدية ، بين الشعراء حينا ، كذلك الذى كان بين الأعشى والجعدى ، أو بينهم وبين العلماء حينا آخر ، كالذى كان من بعضهم مع أبى على الفارسى فى موقف الحشر ، أو بينهم وبين ابن القارح كثيرا ، كالذى كان بينه وبين عنترة عن **تجدد الشعر** ومذهب **أبى تمام** (٥٢) ....

فان قيل : ان ابن شهيد الأندلسى قد سبق الى شىء من ذلك ، حين أنطق بعض رؤساء الجن بالرأى ، فى فنه الشعرى والنثرى وفن غيره أيضا ، برسالته المشهورة (التوابع والزوابع) =

قلنا : على فرض سبق رسالته لـ (رسالة الغفران) ذاك فن ، وماهنا فنون ، أشرنا الى بعضها ولم نستقصها . هذا فضلا عن ضحالة نقد ابن شهيد وعموم أكثره فيما بقى من رسالته ، اذا قيس بنقد (الغفران) المتنوع الغزير ...

٦ ـ حيزه بالنسبة الى سابقيه ومعاصريه :

واذا نظرنا الى السابقين لأبى العلاء وما تعرضوا له بالنقد ، وجدناهم لا يكادون يتجاوزون النص الى المقصود منه الا قليلا . وفى نقد النص كان الغالب على أكثرهم ، اما النظر فى شعر شاعر معين ، كوساطة الجرجانى بين المتنبى وخصومه ، واما النظر فى شعر شاعرين ، كموازنة الآمدى بين الطائيين ، واما النظر فى شعر عصر معين ، كاللغويين بالنسبة الى القدماء ، أو قضية خاصة كالسرقات بالنسبة الى بعضهم . أو فن معين كالغزل بالنسبة الى ابن أبى عتيق ،

---

(٥٢) انظر ص ١٤١،١٤٢،٢٧٢ وانظر فى الغفران ٢٢٧ ، ٣٢٢،٣٥٤.

وسكينة بنت الحسين فى القرن الأول الهجرى ، والمديح والهجاء بالنسبة الى معظم نقاد الشام والعراق آنذاك .

أما أبو العلاء فلم يتعرض لجوانب النص ، من لغة ومعان وموسيقى وصنعة وبناء فحسب ـ بل تعرض أيضا لكيفية الابداع الشعرى ، ولمذاهب بعض الشعراء ، ولفنون القول المختلفة من الشعر والنثر بأنواعها ، لا يقتصر من ذلك كله على عصره أو عصر معين ، بل يتناوله فى شتى عصور الأدب قبله ، جاهليها واسلاميها حتى عهده ، يتناول ذلك كله فى شمول وعمق واضحين .

فاذا كان نقد (الغفران) قد انتظم موكب الفحول المشهورين تقريبا ، من لدن المهلهل حتى المتنبى ، فان كثيرين منهم ومن غيرهم كان لهم من نقده تناول خاص ، وبحسبك تناوله لدواوين امرىء القيس ، وأبى تمام ، والبحترى ، والمتنبى ، وابن ابى حصينة ، وديوانى (السقط) و (اللزوم) ، وأيضا تناوله لشعر النكتى البصرى ، وأبى القاسم المغربى .

على أنه لم يتناول جوانب اللفظ والمعنى فقط ككثيرين ، بل تناول أيضا **رسالة الشعر والأدب** ، بما لم يتعرض لأكثره أحد قبله كما أسلفنا .

وكما كان هذا حيزه بالنسبة الى سابقيه ، كان أيضا بالنسبة الى معاصريه ، اذ نجد المرزوقى فى مقدمة شرحه للحماسة ـ يختص **عمود** الشعر مع بعض القضايا بالحديث والوصف .. وعبد القاهر يتوفر على دراسة قضية النظم فى (دلائل الاعجاز) ، ومناحى البيان فى (أسرار البلاغة) . وابن سنان يعتمد صفات الفصاحة فى الألفاظ والتراكيب بالتحديد والبيان . وابن شهيد يجنح الى التنويه بأدبه عن طريق موازنته بأدب الآخرين . وابن رشيق يجمع ويصنف التراث النقدى الى عهده ..

بل ان طبيعة الاتجاه الخاص بكل منهم ، تدفعنا الى القول بأن أبا العلاء كان أظهرهم شخصية فى مجال النقد ، ذلك أنه على حين

غامت شخصية ابن رشيق ، وغلب الطابع النظرى على المرزوقى ، والبلاغى التقعيدى على ابن سنان وعبد القاهر ، والذاتى على ابن شهيد = نجد الطابع الغالب على أبى العلاء : هو طابع التذوق التطبيقى والموضوعى ، ولا ريب أنه أقرب الى طبيعة النقد من غيره .

الا أنه ـ وان كان أظهر شخصية بذلك ـ يبدو دون عبد القاهر فيما استخلص من أصول ، ورسم من معالم ، خصوصا مايتصل بنظرية النظم .

هذا بالنسبة الى حيزه العام ، أما بالنسبة الى موقفه الخاص من القضايا التى تناولها فثمة مفارقات كثيرة لا يتسع هذا المقام لاستقصائها :

ومنها : ايثاره لصدق الأديب على كذبه ، ذلك الايثار الذى صدر عنه فى رفضه للمبالغات بله الغلو والافراط ، والذى خالف به الاتجاه الغالب عند الشعراء من (أنهم يقولون مالا يفعلون) ، وعند النقاد من استحسانهم لذلك ، حتى كان من أقوالهم الشائعة : **(أعذب الشعر أكذبه)** ، بل كان من مزايا الشعر التى ذكرها ابن رشيق : **« أن الكذب الذى أجمعت النفوس على قبحه لم يحسن الا فيه » (٥٣)** .

ومنها : حملته الزائدة على التكسب وأصحابه ، لاسيما شعراء المديح ، فقد أوسعهم فى اللزوميات ، و (الفصول والغايات) و (الغفران) ذما وقدحا ، مما ذكرنا أكثره ، ولم يجنح اليه ـ كما بينا ـ الا تنزيها للأديب والأديب عما كان يلحقهما من هوان وكساد بسبب التكسب والكذب ، ولغايتهما عن أن تكون افساد الممدوح بكاذب الثناء ، لاسيما الملوك والأمراء ، الذين زادهم ذلك طغيانا وتسلطا على الرعية لجمع المال من جهة ، واستدرار هذا الثناء الزائف من جهة أخرى ...

واذ نجد ذلك منه نجد من سابقيه ومن أعلامهم خاصة ، من ذهب يلقن الشاعر طرق نيل الحظوة لدى الممدوح ، على نحو مافعل قدامة

---

(٥٣) العمدة ١/٢٢ .

وابن قتيبة ، الأول فى تفصيله للصفات التى يكون بها المدح والتى لا تحسن فيه ... والثانى فى رسمه لخطة قصيدة المديح التى ينبغى للشاعر اتباعها ، من البدء ببكاء الأطلال ، فوصف الرحلة الى الممدوح ، فالنسيب ، فالمديح ... دون نظر من أيهما الى الواقع ومدى تحققه أو عدم تحققه (٥٤) .

ثم نجد ابن رشيق ـ من معاصريه ـ يعرض ظاهرة التكسب بالشعر ، فلا يرى به بأسا عند الحاجة ، ولا عندما يكون الأخذ من الملوك ، أما الأخذ ممن دونهم كالسوقة وغيرهم فهو القبيح (٥٥) ..

٧ ـ مذهبه :

لو قلت ان أبا العلاء طبق غير مذهب مما نعرفه الآن فى نقده الأدبى لم تبعد عن الحقيقة ، فقد طبق المذهب الاتباعى فى تلك الآراء التى حاذى فيها السابقين ... والتأثرى فيما صدر فيه عن ذوقه ـ أو غريزته ـ دون تعليل ... **والموضوعى** فيما أسسه على ماأوضحنا من مقاييس وقيم جمالية ... **والتفسيرى** فيما رأينا من تحليله لجوانب النص دون الحكم عليه ... **والفنى** فى نظره الى القيم الجمالية البحتة مما آثره وبيناه فى جوانب النص على اختلافها .. **والواقعى** فى نظره الى النص من حيث أثره فى المجتمع وما يجب على المجتمع تجاهه .

ولا ريب أنه بهذا التطبيق كان أوسع النقاد القدامى دائرة ، وأجمعهم لخصائص تلك المذاهب فيما مارس من النقد .

لكنه وان أخذ من جميعها ، كان أكثر تطبيقا لبعضها ، ونهجا

---

(٥٤) انظر : نقد الشعر لقدامة ص ٦٩ ، ٢١٤ وانظر : الشعر والشعراء لابن قتيبة ١/٧٤ .
(٥٥) العمدة ١/٨٠ : ٨٦ .

عليه ، حتى ليمكن عده مذهبه الغالب ، نعنى **المنهج التطبيقى فى التفسير والتقويم** ، اذ قل ما خرج من نقده عن هذا المنهج ، ولا أظننا بحاجة الى الاستدلال على ذلك ، فجميع ماعرضنا من نقده فى الفصل الثالث متضمن لشواهده وأدلته ...

وغنى عن القول أن هذا المنهج هو أصح المناهج وأكثرها مسايرة لطبيعة النقد الأدبى ، باتخاذه النص أساسه وموضوعه ، واتساعه - مع ذلك - لتقبل واستغلال مزايا المناهج الأخرى .

* * *

الفصل الرابع

أصداء نقد أبى العلاء فى أدبه

١ ـ فى كيفية الابداع .

٢ ـ فى اللغــة .

٣ ـ فى المعانى .

٤ ـ فى الصنعة الفنية .

٥ ـ فى موسيقية التعبير .

٦ ـ فى البناء الفنى .

٧ ـ فى الغــاية .

* * *

واذ قد ثبت لنا أن أبا العلاء ناقد للأدب ذو ذوق خاص ، كما هو ثابت فعلا أنه شاعر وكاتب ذو طبع قوى وانتاج غزير .

= يبدو طبعيا أن نتبين مابين الناقد والأديب فيه من تواصل وتفاعل ، وقد أشرنا فى الفصل الأول الى أن ذوقه ونقده لم يخلوا من تأثر بأدبه ، ورأينا هنالك أن هذا التأثير لأدبه كان على وجهين :

تقوية ذوقه وشحذه وارهافه ، من حيث هو أحد عناصر الابداع الهامة فى الاختيار والتهذيب .

واصطباغ نقده الذى عرضه فى أدبه بطابع هذا الأدب ، من حيث قوة التأثير والنفاذ من جهة ، والغموض والاغراب من جهة أخرى .

فهل كان لآرائه النقدية التى فصلناها أصداؤها فى أدبه كذلك ، ومامدى هذه الأصداء ؟

والجواب : أن ذلك قد كان ، ولم ينتقض الا فى القليل ، غير أن استقصاءه على الوجه يطول ، فنكتفى منه بالأهم الدال فى اطار ما حددنا .

ففى كيفية الابداع الشعرى :

كان ـ كما قرر فى نقده ـ يعتمد على قواه الفطرية والكسبية عن ارادة ووعى ، لا كما قال فى مقدمة (اللزوميات) :

« كان من سوالف الأقضية أنى انشات أبنية أوراق ، توخيت فيها صدق الكلمة ، ونزهتها عن الكذب والميط » (١) .

---

(١) اللزوميات ١/١ . والميط : البعد عن القصد .

أى أنه ليس مختارا في هذا النظم ، بل هو مجبر جرى عليه به حكم القضاء • فهذا - ان صح من وجهة نظره الفلسفية - ليس صحيحا فيما يبدو لنا ، من أنه كان يريد مايقول ، ويعد نفسه له اعدادا دقيقا ، وآية ذلك عندنا فى أمرين :

أحدهما : ذلك التعقيد الذى أخذ به نفسه فى (اللزوميات) خاصة ، وفيما عداها من كتبه النثرية عامة ، حيث تكلف فى الأولى ماذكر هو من الكلف الثلاث التى أشرنا اليها غير مرة من قبل (٢) ، وفى الثانية : أن يصوغها على حروف المعجم فصولا وغايات ، أو غايات مردفة بالألف ، أو غير ذلك مما التزم ، ولم يكن قط الا من تصنعه وتعمده •

والآخر : أنه فى بعض المواقف التى هى مظنة سيطرة الالهام ، كرثائه لأمه ، ولأبيه من قبلها = يبدو فى أتم مايكون من الوعى والقصد ، وليس الا أن تقرأ نثره وشعره فى هذا الرثاء لترى من التصنع والتعمل مالا يأتيه ولا ييسر له الا واع بما يقول ، متنبه غاية التنبه لصناعته ، كى يحقق لها ماحقق من أسجاع وجناس ، ليس فى النثر فقط ، بل فى الشعر أيضا ، مع الوزن والقافية •

أليس هذا وماقبله دليلا على أنه كان ينظم بقواه كلها ، ويبلغ ما بلغه فى نظمه دون قسر من القضاء أو من غيره •

وفى اللغة :

نجده يجرى على سنن من ذوقه ، ويطبق كثيرا مما آثره ، **بما تحرى فى ألفاظه ، من الدقة ، والقوة ، والطرافة ، والفصاحة ، واعتدال التأليف ، وبما تحرى فى تراكيبه ، من الايجاز ، والاحكام ، وصحة التأليف ، وتناسب الألفاظ فيما بينها من جهة ، وفيما بينها وبين الأغراض من جهة أخرى •**

---

(٢) انظر ص ٨٢ ، ٣٩٥ •

واقرأ – إن شئت – قوله عند دخوله بغداد ، لأبي حامد الاسفرايينى، الفقيه الشافعى ، فى أمر سفينته التى أغار عليها عمال السلطان :

سَمْعُ أبَا حامدٍ فُتْيَا قَصَدْتَ بِهَا   مِنْ زَائرٍ لِجَمِيلِ الْوُدِّ مُبْتَاعِ

مُؤَدَّبِ النَّفْسِ أَكَّالٍ عَلَى سَغَبٍ   لمعصم النَّوَائِبِ شَرَّابٍ بِأَنْقَاعِ

أَرضِى وأُنصِفُ إلاّ أنّنى رُبَّمَا
أَرْبَيْتُ غيرَ مُجيزٍ خَرْقَ إجْمَاعِ

وَذَاكَ أنّى أُعطِى الرِّقَّ مُنْتَحِيًا
مِنَ الْمَوَدَّةِ مُعْطِى الْمُدِّ بالصَّاعِ

وَلاَ أُثَقِّلُ فِى جَادٍ ولا نَشَبٍ
وَلَوْ عُدِدْتُ أَخا عُدْمٍ وَإِدْقَاعِ

مَنْ قال صَادِقْ لِئَامَ الناس قلتُ لهُ
قولَ ابنِ الاَسْلَتِ : قد أبلغتَ أسْمَاعِى

كأَنَّ كُلَّ جَوابٍ أنتَ ذَاكِرُهُ
شَنْفٌ يُنَاطُ بأُذْنِ السَّامِعِ الْوَاعِى.

. . . .

مَطِيَّتِى فى مَكانٍ لَسْتُ آمَنُهُ
على المطايا وسِرْحَانٌ لَهَا رَاعِى

فارْفَعْ بكَفَّى فإنِّى طَائِشٌ قَدَمِى
وامْدُدْ بضَبْعِى فإنِّى ضَيِّقُ بَاعِى

وما يكُنْ فلكَ الحمدُ الجزيلُ بهِ
وإن أُضيعتْ فإنّي شاكرٌ داعِي (٣)

= أو اقرأ قوله عن زهده :

وقال الفارسُون : حليفُ زُهْدٍ
وأخطأت الظُّنُونُ بما فَرَسْنَهْ

ورُضْتُ صِعابَ آمالى فكانتْ
خيُولاً فِى مَرَاتعِها شَمَسْنَهْ

ولمْ أُعرِضْ عن اللَّذَّاتِ إلاَّ
لأَنَّ خِيارَها عنِّى خَنَسْنَهْ (٤)

أو قوله من الغفران – على لسان عدىّ بن زيد لابن القارح –:

« فَهَلْ لَكَ أنْ نَرْكَبَ فرَسَيْن من خَيْل الجنة ، فنبعثهُما على صِيرَانِهَا ، وخِيطان نعامِها ، وأسْرَاب ظبائِها ، وعَاناتِ حُمُرِها ، فإنَّ لِلْقنيص لذَّةً ، وقد تَنَغَّصْتُ لك بِهَا ؟ فيقول الشيخ : إنما أنا صاحبُ قَلَم وسَلَم ، ولم أكنْ صَاحِبَ خيْلٍ ... وما يُؤْمِنُنى إذا

---

(٣) شروح السقط ٧٥٣/٢ — ٧٦١ . سغب : جوع . وأنقاع : جمع نقع ، وهو ماء يجتمع فى موضع . وأكال على سغب شراب بأنقاع : أى مجرب . وأربيت : زدت . والوسق : الحمل ، قيل ستون صاعا . منتحيا : معتمدا نحـوه . والمد والصاع : مكيالان . وادقاع : افتقار . وابن الأسلت : شاعر جاهلى . أبلغت أسماعى : أى سمعت ما قلت فلا تعد على . والشنف : ما يعلق فى أعلى الأذن . مطيتى : سفينتى .

(٤) لزوم مالا يلزم ٣٦٢/٢ فرسن : تفرسن . وخنسن : تأخرن .

رَكِبْتُ طِرْفًا زَعِلاً . . . أن يَلْحَقَنِى مالحِق جَلَماً صاحِبَ الْمُتجرِّدة، لَمَّا حُمِلَ عَلَى الْيَحْمُوم ، والتَّعرُّضِ لِمَا لم تسْبِقْ به العَادَةُ مِنَ مِنَ الْمُوم (٥) »

اقرأ هذه الأقوال ــ ونظيرها كثير ــ لترى صدق تحريه لما ذكرنا ،عن معرفة واسعة ، وطبع أصيل ، وتمكن من الصنعة راسخ ٠

لكنه على الرغم من هذا التحرى قد خالف ذوقه هنا فى أمور :

منها : اكثاره من الغريب ، على الرغم من ايثاره السابق لوضوح الألفاظ والتراكيب ، حتى كان غموض أدبه بهذا الغريب أكثر من وضوحه ، ليس فى فترة دون أخرى ، ولا فى فن دون آخر ، بل فى معظم أدبه ، قبل عزلته وابانها ٠ على مايبدو فى النصوص الثلاثة السابقة ، وفى كثير من نصوص نقده التى مرت بنا ٠ واقرأ ــ ان شئت المزيد ــ شعر (الدرعيات) ، أو (الفصول والغايات) ، أو مقدمة (الغفران) ، أو ما أثر من (الصاهل والشاحج) و (جامع الأوزان) ٠٠

فاذا قيل : ان أبا العلاء شرح كثيرا من غريب أدبه ، فى أثنائه حينا ، وفى كتب خاصة حينا آخر ٠ قلنا : ان ضياع الكثير من هذه الشروح من جهة ، وعدم شمولها لجميع الغريب من جهة أخرى ، قد أفقد أدبه كثيرا من مزية الوضوح ، وأحوج من يقرؤه الى مراجعات واسعة لكتب اللغة والتاريخ ٠

أما لماذا آثر الغريب ولم يستجب لذوقه فيه ، فالظاهر أن كثرة محصوله منه ودراسته اياه ، مع حرصه الواضح على البديع ، وعلى اظهار

---

(٥) رسالة الغفران ١٩٥ ــ ١٩٦ صيرانها : قطعان بقرها . وخيطان: جماعات . وعانات : قطعان . تنغضت : نهضت . زعلا : نشيطا . جلم : هو جلم بن عمرو ٠ المتجردة : زوجة النعمان بن المنذر ٠ واليحموم : فرسه . الموم : الشر ٠

ثروته اللغوية ـ كان ذلك كله من وراء هذا الايثار ، ولا شك أنه جدير أن يجذبه اليه ، وأن يضعف من سلطان ذوقه عليه ، لكن ذوقه ـ وان لم يصرفه عن هذا الغريب ـ قد دفعه الى تفسيره حتى لم يكد يدع شيئا منه لذوق القارىء فيما يبدو .

ومنها : اتيانه فى شعره بما أخذه على المتنبى ، اذ يقول فى (السقط) :

إذا أَنْتَ أُعْطِيتَ السَّعادة لمْ تُبَلْ
وإنْ نظرتْ شَزْراً إليكَ الْقَبَائـلُ (٦)

فقد حذف الألف فى **(لم تبل)** ، والأصل **(لم تبال)** ، وهو ماأخذه على المتنبى فى (اللامع العزيزى) (٧) ، الا أن يقال : انه أتى بذلك قبل عزلته حين كان يقلد المتنبى ، ثم كان انكاره له فى عزلته ، بعد أن نضج ذوقه ، وتحرر جملة من ربقة التقليد .

ومنها : متابعته الشعراء السابقين فى نسبة الدروع الى سليمان عليه السلام ، حيث يقول فى (الدرعيات) :

سُلَيْمِيَّةٌ مِنْ كُلِّ قُتْرٍ يَحُوطُهـا
قُتَيِرٌ نَبَتْ عنهُ الْغوانِى الأَوانسُ (٨)

أى درع سليمية ... فقدوهم كما وهموا ، لأن الجدير بنسبه الدرع اليه هو داود لا سليمان عليهما السلام (٩) .

ومنها : جنوحه الى التكرار وعدم التأنق فى غير موضع من

---

(٦) شروح السقط ٥٤٨/٢ .
(٧) انظر : الموضح ١٨٣ ب .
(٨) شروح السقط ١٩٦٧/٥ قتر : جانب . وقتير : مسامير .
(٩) أوهام شعراء العرب فى المعانى ص ٨٤ .

(اللزوميات) ، على الرغم من عيبه لذلك فيما سبق (١٠) ، من نحو قوله :

وأعُدَّ قَصَّ الظُّفْر شِيمَةَ ناسِك
والْهِنْدُ بَعْدُ مُطِيلَةٌ أَظْفَارَهـــــا

ثم قوله :

نُقَلِّمُ لِلنُّسُـــكِ أَظْفَارَنَـــــا
وَطَــوَّلَتِ الْهِنْدُ أَظْفَارَهَــا (١١)

وهو ماعابه عليه ابن خلدون قديمـا (١٢) ، وبعض الدارسين حديثا (١٣) ، حتى عدوا (اللزوميات) به ركيكة النسج مهلهلة النظم .
ولا ريب أن أبا العلاء كان يحسن شيئا من ذلك حين قال عنها :
« ولا أزعمها كالسمط المتخذ ، وارجو أن لاتحسب من السميط » (١٤) .

وفى المعانى :

كان أكثر صدورا عن ذوقه ، وتطبيقا لما آثره فيها ، من **الصدق** ، **والتسامى ، والجــدة والعمق ، وحسن التعليل ، والكثرة ، والوحدة .**

أما الصدق : فالظاهر أنه لم يلتزمه التزامــا كامـلا قبل عزلته ، بدليـل ماجنح اليـــه من مبـالغات فى رســالتى المنيح والاغـريض ، و (سقط الزند) ، وهى المبالغات التى لفتنا اليهامن قبل(١٥) ،ورأينا انكاره منها لمبالغات (السقط) فى المقدمة التى قدم له بها بعد اعتزاله ،

---

(١٠) انظر ص ٢٤١ — ٢٤٤ .
(١١) لزوم مالا يلزم ٣٦٨/١ ، ٣٧٣ .
(١٢) تعريف القدماء ص ٤١١ .
(١٣) الفن ومذاهبه فى الشعر العربى ٣٩٤ ، وعلى المحك ٤٣—٤٤ .
(١٤) لزوم مالا يلزم ١/١ ، وانظر مراده بذلك فى ص ٣٩٦ .
(١٥) فى ص ٣٢٥ .

والتى وجه فيها هذه المبالغات الى الوجهات الثلاث التى أسلفناها ، بعد رفضه للشعر الذى يحمل على الكذب ، وفى تلك المقدمة نفسها يبدو اهتمامه بالصدق وحرصه على التزامه ، ذلك الحرص الذى لم يفتر بعد ذلك ، وكانت آيته فى أدب عزلته ثلاثة أمور :

الأول : احتكامه الى العقل فيما يتعرض له من الأخبار والأفكار ، فيقبل مايقبل ، ويرفض مايرفض ، على النحو الذى فصلناه فى اتجاهه الفلسفى بالفصل الأول ، وفى الحديث عن مقاييس نقده قبل قليل .

الثانى : اعتداده بالصدق ، ونهيه لنفسه ولغيره عن الكذب ، فى نحو قوله :

إنْ عَذُبَ المَيْنُ بأَفواهكم
فإنَّ صِدْقِى بفَمِى أعذبُ

* * *

تَوَرَّعُوا يابَنى حَوَّاء عَنْ كذبٍ
فما لكم عند رَبٍّ صَاغكُمْ خَطَرُ

* * *

ويابَنَانِىَ لاَ تَبْسَطْ لِعارفةٍ
ويالِسَانى بغير الصدق لا تَجُملِ (١٦)

الثالث : صدقه بالفعل فيما عبر به عن نفسه ، وجرأته فى هذا الصدق ، حتى كان به أظهر الأدباء شخصية ، وأوضحهم عاطفة ، كما كان به ـ لا بصنعته ـ موضع اعجاب واشادة الكثيرين من المعاصرين (١٧) ،

---

(١٦) لزوم مالا يلزم ١/٨٦ ، ٣١٢ ، ٢/٢٢٩ ولا تبسط لعارفة : أى لا تمتد لأخذ معروف .

(١٧) انظر : تجديد ذكرى أبى العلاء ٢٠٨ ، ٢١٨ ، وأبو العلاء المعرى ١٩٠ (سلسلة أعلام العرب) ، و « سر اعجاب المعاصرين بالمعرى» فى : بحوث ومحاضرات المجمع اللغوى دورة ٣٢ ص ٦٣ ، و « هل تنعكس شخصية الشاعر على شعره » فى المرجع السابق دورة ٣٤ ص ٤٤١ .

فقد وجدوا فيه الأديب الذى عاش أدبه وفكره كما لم يعشهما أديب ولا مفكر قبله ولا بعده . وجدوا ذلك فى جهره بما يعتقد ، وفى نقده الصريح للحياة والناس ، والعادات والتقاليد ...

وليس ينقص من هذه القيمة فى أدبه تصريحه بأنه لم يلتزمها ، ولم ير التزامها فى كل حال ، من نحو قوله :

لا تُقَيِّدْ عَلَيَّ لفظى فإنى
مثلُ غيرى تَكَلُّمِى بالمَجَازِ (١٨)

* * *

اصْدُقْ إلى أن تظُنَّ الصِّدْقَ مهْلَكَةً
وعند ذلك فاقعدْ كاذبا وقُمِ

فالْمَيْنُ مَيْتَةُ مُضْطَرٍّ أَلَمَّ بهَا
والحقُّ كالماء يُجْفَى خِيفَةَ السَّقمِ (١٩)

حيث أجاز لنفسه ولغيره الكذب عند الاضطرار الذى يخشى من الصدق فيه الهلكة ... نقول : ان هذا الكذب الاضطرارى لا يذهب بمزية صدقه ، لأن الله ـ سبحانه ـ قد أباح الكذب فى مواضع ليس هذا بعيدا عنها ، كالحرب واصلاح ذات البين .

وأما التسامى : عما لا يليق من الفحش والفجور وسوء الأدب ، الى مايليق من تمجيد الله والقيم الدينية والخلقية ـ فقد كان الطابع الغالب على أدبه فى عزلته وقبلها .

وأما الجدة والعمق : فمن مزايا معانيه التى أعجبت وذكر بها ، اذ كان فقد بصره ، وثقافته الفلسفية وفراغه المتصل فى سجنه الطويل ـ

---

(١٨) اللزوميات ٢/١٠ .
(١٩) المرجع السابق ٢/٣١٢ .

من دوافعه القوية الى التأمل العميق فى شئون الحياة والأحياء ، واذ كان هذا التأمل من ذكى مثله ، مرتاد لما لم يستطعه الأوائل ـ ميسرا اياه لكثير من التجديد فى شعره ونثره ..

ونظرة متأملة الى أدبه ترينا من مظاهر تعمقه وتجديده فيه :

أولا : وصفه الدرع فى ديوان أو شبه ديوان ، سماه (الدرعيات) وألحقه بـ (سقط الزند) . وهو احدى وثلاثون كلمة ، بين مقطوعة وقصيدة .

أما جدتها فظاهرة من قصرها على هذا الموضوع الذى لم يتوفر عليه أحد قبله ولا بعده .

وأما عمقها فعلى الرغم من غلبة الطابع الشكلى فيها بالصنعة والغريب ، قد تضمنت ألوان الصراع النفسى الذى عاناه عقب اعتزاله ـ وهو زمن نظمها فيما يبدو ـ كالصراع بين لزومه البيت وتشوفه الى الانطلاق (٢٠) ، وبين الأسف على مافاته وترك الأسف عليه (٢١) ، وبين الرغبة فى الزواج واليأس منه (٢٢) .

على أنه ـ فيما يبدو ـ قد رمز بالدرع الى حصنه المنيع الذى فرضه على نفسه وسجنها فيه ، كما رمز بوصف مزاياها الى فضيلة المدرع المجاهد على أى وجه كان الادراع والجهاد .

وثانيا : اخضاعه الفلسفة للشعر ، على هذا النحو الذى لم يترك فيه حقيقة من حقائق العلم والعقيدة والحياة الا تعرض لها ونقدها فى ديوانه (لزوم مالا يلزم) ، ولاخفاء بعمق هذا التناول ، من حيث هو قائم على التأمل والتفكير فى هذه الحقائق ، ولا بجدته ، من حيث شموله لذلك فى ديوان بلغ أحد عشر ألف بيت من جهة ، ومن حيت

---

(٢٠) شروح السقط ١٩٦٨/٥ وما يليها .
(٢١) المرجع السابق ١٧٧٠/٤ ، ١٨٤٠ .
(٢٢) المرجع السابق ٢٠٠٢/٥ .

تعرضه فيه لكثير مما لم يتعرض له أحد قبله من جهة أخرى . والشواهد على ذلك من هذا الديوان أشهر من أن نستعرضها ، وقد مر بنا بعضها .

وثالثا : **كثرة التوليد والابتكار فى المعانى الجزئية** ، بحيث لا يكاد يكرر سابقيه ، أو يقع دونهم فى هذا المجال ، وهو جانب استثار القدماء قبل المعاصرين ، حتى وجدنا ابن سعيد المغربى فى تناوله له يقول عن المعرى : « وهو جليل القدر فى الغوص وكثرة التخيل ، كقوله فى المرقص :

وَالْخِلُّ كَالْمَاءِ يُبْدِى لِى ضَمَائِرَهُ
مَعَ الصَّفَاءِ وَيُخْفِيهَا مَعَ الْكَدَرِ

وقوله :

وَإِصْبَاحٍ فَلَيْنَا اللَّيْلَ عَنْهُ
كَمَا يُفْلَى عَنِ النَّارِ الرَّمَادُ (٢٣)

وهو يعنى بالمرقص ـ كما حدد « **ماكان مخترعا ، أو مولدا يكاد يلحق بطبقة الاختراع ، لما يوجد فيه من السر الذى يمكن أزمة القلوب من يديه ، ويلقى منها محبة عليه ، وذلك راجع الى الذوق ...** » (٢٤)

لكن يبدو أن ذوق المحدثين كان أكثر اعجابا بهذا النوع ، لأنه اجتذب واحدا منهم الى تتبعه واحصائه ، ثم الحكم بتفوق المعرى فيه على أبى تمام والمتنبى ، لأن ماوجده له يزيد فى الكم وفى التنوع على ماوجده لكل منهما (٢٥) .

وأما **حسن التعليل** : فليس قليلا ماتجد منه فى (السقط)

---

(٢٣) فلينا الليل : أى طلبنا الصبح فيه كما يفلى الشعر وكما تطلب الشرارة فى الرماد . قال البطليوسى : وهذا من بديع التشبيه (شروح السقط ١/٣٠٨) .

(٢٤) عنوان المرقصات والمطربات ص ٤٦ .

(٢٥) الجامع فى أخبار أبى العلاء ٢/٩٣٧ ، ٩٣٨ .

و (اللزوميات) ، من نحو قوله فى الأول :

رَأَوْكَ بالعين فَاسْتَغْوَتْهُمْ ظِنَنٌ
وَلَمْ يَرَوْكَ بِفِكْرٍ صَادِقِ الْخَبَرِ
والنَّجْمُ تَسْتَصْغِرُ الأَبْصارُ رُؤْيَتَهُ
وَالذَّنْبُ لِلطَّرْفِ لَا لِلنَّجْمِ فِى الصِّغَرِ (٢٦)

وقوله أيضا فى الثانى :

يَدُلُّ عَلَى فَضْلِ الْمَمَاتِ وكَوْنِهِ
إِرَاحَةَ جِسْمٍ أَنَّ مَسْلَكَهُ صَعْبُ
أَلَمْ تَرَأَنَّ الْمَجْدَ تَلْقَاكَ دُونَهُ
شَدَائِدُ مِنْ أَمثالِهَا وَجَبَ الرُّعْبُ (٢٧)

وأما كثرة المعانى فى البيت الواحد : فلا غرابة أن يجنح اليها من كان التفكير طابع حياته ، وحسبنا من الشواهد عليها ـ عدا الكثير فى (اللزوميات) ـ هذه الأبيات من قصيدته فى رثاء الشريف الموسوى ببغداد ، اذ يقول فى صفته :

الطاهِرُ الآبَاءِ والأَبناءِ والْـ آدابِ والأَثْوَابِ والأُلَّافِ

واذ يقول عن ولديه الشريفين الرضى والمرتضى :

مُتَأَنِّقَيْنِ وَفِى الْمَكارِمِ أَرْتَعَا
مُتَأَلِّقَيْنِ بِسُؤْدَدٍ وَعَفَافِ

---

(٢٦) شروح السقط ١٦٢/١ استغوتهم : استجهلتهم . ظِنن : جمع ظنة وهى التهمة .

(٢٧) لزوم مالا يلزم ٦٩/١ .

قَدَرَيْنِ فِي الْإِرْدَاءِ بَلْ مَطَرَيْنِ فِي الْـ
إِجْدَاءِ بَلْ قَمَرَيْنِ فِي الْإِسْـدَافِ (٢٨)

وأما وحدتها : فالظاهر مما أسلفنا من شعره ومما لم نذكره أنه كان شديد الحرص عليها ، اذ لـم تتناقض معانيه ـ فيمـا تقصـيت ـ الا فى مواضع معدودة ، منها قوله فى (السقط) :

ولو أنِّى حُبِيتُ الْخُلْدَ فَـرْدًا
لَمَا أَحْبَبْتُ بِالْخُلْدِ انْفِـرَادَا

فَلَا هَطَلَتْ عَلَىَّ ولا بِأَرْضِى
سَحَائِبُ لَيْسَ تَنْتَظِمُ الْبِـلَادَا (٢٩)

فهذه الصورة الانسانية التى جنح اليها فى هذين البيتين لم يلبث أن نقضها فى القصيدة نفسها ، حيث يصور ضيقه بالناس ، وجده فى الرحيل عنهم غير مبال اذا نال مايقصد ، بما يحل بالبلاد التى رحل عنها ، فيقول :

وَقَدْ أَثْبَتُّ رِجْلِى فِى رِكَـابٍ
جَعَلْتُ مِنَ الزِّمَاعِ لَهُ بِدَادَا

إِذَا أَوْطَأْتُهَا قَدَمَىْ سُهَيْـلٍ
فَلَا سُقِيَتْ خُنَاصِرَةُ الْعِهَـادَا (٣٠)

---

(٢٨) شروح السقط ١٢٦٦/٣ — ١٢٩٩ متأنقين : من الأنق : وهو استحسان المكارم هاهنا والرغبة فيها . متألقين : مضيئين كاضاءة البرق . قدرين فى الارداء : أى من أقدار الله فى الاهلاك . الاجـداء : الاعطاء . الاسداف الاظلام .

(٢٩) المرجع السابق ٥٦٥/٢ .

(٣٠) المرجع السابق ٥٧٠/٢ والزماع : الهمة بالشىء ، والبداد : لبد السرج ، قدما سهيل : نجمان خلفه . وخناصرة : موضع بالشام .

ومما تناقض فيه أيضا قوله فى (اللزوميات) :

ضَحِكْنَا وكَانَ الضِّحْكُ مِنَّا سَفَاهَةً
وَحُقَّ لِسُكَّانِ البَرِيَّةِ أَنْ يَبْكُوا

تُحَطِّمُنَا الأيـامُ حَتَّى كأَنَّنَا
زُجَاجٌ وَلَكِنْ لا يُعَادُ لَهُ سَبْكُ

اذ هو ـ كما ذهب ابن منقذ (٣١) ـ نقيض قوله :

خَفْ ياكريمُ على عِرْضٍ تُعَرِّضُهُ
لِعَائِبٍ فَلَئِيمٌ لاَ يُقَاسُ بكَا

إنَّ الزجاجة لَمَّا حُطِّمَتْ سُبِكَتْ
وَكَمْ تَحَطَّمَ مِنْ دُرٍّ فَمَا سُبِكَا

لأنه جعل المشبه به ـ وهو الزجاج ـ فى البيتين الاولين ، اذا حطم لا يعاد له سبك ، ثم جعله فى الآخيرين يمكن سبكه .

وفى الصنعة الفنية :

لم يقتصر على ماتعرض لتذوقه ونقده ، من **تشبيه** ، **واستعارة** ، **ومجاز** ، **ومثل** ، **وسجع** ، **ومقابلة** ، **وجناس** ، **ومراعاة نظير** ، **وتورية** .

بل استعمل ـ مع ذلك ـ **الكناية** ، **والطباق** ، **والاستخدام** ، **والترصيع** ، **والاقتباس** ، **والاستطراد** ، وغير ذلك من فنون الصنعة التى تتبعها أحد

---

(٣١) فى كتابه : لباب الآداب ص ٤٦٢ .

المعاصرين (٣٢) فى أدبه ، وهى كثيرة كثرة لا أظنه معها قد فاته شىء من ألوان البديع التى أحصاها اللاحقون له الا استعمله .

واذا كان لا يسعنا أن نستقصيها ونمثل لكل منها هنا لكثرتها ، فاننا نكتفى بابداء مانراه فى استعماله لها من ملاحظات :

أولاها : بلوغه فى التصوير بالمرئيات مابلغه فى تذوقها من الدقة والاصابة ، على النحو الذى رأيناه من قبل ، فى موقفه من تشبيه الأثافى بالخدود ، وأيدى الابل الدامية بأيدى الجوارى الخاضبات ، واستعارة المسك للطل . وعلى النحو الذى نراه أيضا فى قوله :

أَحْسِنْ جِوارًا لِلْفَتَاةِ وَعُدَّهَا
أُخْتَ السِّمَاكِ عَلَى دُنُوِّ الدَّارِ

كَتَجَاوُرِ الْعَيْنَيْنِ لَنْ تَتَلَاقَيَا
وَحِجَازُ بينهما قَصِيرُ جِدَارِ (٣٣)

* * *

رَكِبْنَا عَلَى الأَعمار وَالدَّهْرُ لُجَّةٌ
فَمَا صَبَرَتْ لِلْمَوْتِ تلكَ السَّفَائِنُ (٣٤)

وثانيتها : تجاوزه العرف فى بعض صور الاستعارة ، على الرغم من عيبه هذا التجاوز فيما أسلفنا ، وذلك كاستعارته للبرد أنفا فى قوله :

---

(٣٢) محمد سليم الجندى فى الجامع ١٠١٧/٢ وما يليها ، ص١١٧٣ وما يليها .

(٣٣) اللزوميات ٤٢٤/١ . والسماك : نجم ، وهما سماكان . وحجاز : أى فاصل

(٣٤) المرجع السابق ٣٣٩/٢ . شبه الأعمار بالسفائن ، والدهر باللجة أى البحر الواسع العميق .

مَتَى ذَنَّ أنْفُ الْبَرْدِ سِرْتُمْ فَلَيْتَهُ
عَقِيبَ التَّنَائِى كَانَ عُوقِبَ بِالْجَدْعِ (٣٥)

وهذا ونحوه مما عابه عليه ابن سنان ، لأن العلماء بالشعر ينكرون مثله (٣٦) .

وثالثتها : اسرافه فى استعمال بعض صور البديع اسرافا أداه الى الغموض والتعقيد كثيرا ، وخاصة السجع ، والجناس ، واللغز ، والمصطلحات العلمية .

أما السجع : فمع حرصه الواضح عليه ، قد التزم فيه مالا يلزم ، وداخل بين السجعات ، وقدم ماحقه التأخير أحيانا ، كما يبدو فى قوله عن شعر أبى القاسم المغربى :

(وسيدنا - أطال الله بقاءه - القائل النظم - فى الذكاء - مثل الزهر ، و - فى البقاء - مثل الجوهر ، تحسب بادرته التاج - ارتفع عن الحجاج ، وغابرته الحجل ، فى الرجل ، يجمع بين اللفظ القليل ، والمعنى الجليل) (٣٧) .

فقد سجع بين (**الذكاء**) و (**البقاء**) وهما ضمن سجعتين أخريين ، كما قدمهما من تأخير للسجع فقط ، والتزم مع اللام فى (الحجل والرجل) و (القليل والجليل) حرفا لايلزم أو حرفين .

وأما الجناس : فمع استعماله لأنواعه المعروفة كلها تكلف المركب أيضا : **وهو ماكان الجناس فيه بين لفظين كلاهما أو أحدهما مركب .** مما عابه عليه ابن سنان ، وقرر أنه لم يعرفه لأحد قبله ، من نحو قوله :

---

(٣٥) شروح السقط ٣/١٣٤٠ وأنف البرد : أوله ، وذنينه : مطره .
(٣٦) سر الفصاحة ص ١٥٩ ، ١٦٠ .
(٣٧) رسائل أبى العلاء ص ١٦ والذكاء : الطيب ، والبادرة : السابقة ، الغابرة : الباقية ، الحجاج : عظم الحاجب ، الحجل: الخلخال.

مَطَايَا مَطَايَا وجْدَكُنَّ منازلٌ . . (٣٨)

فقد جانس بين الفعل (مطا) مع حرف النداء (يا) وبين كلمة (مطايا) .

على أنه لم يقف عند هذا الحد ، بل تكلف فى بعض اللزوميات المجانسة بين القوافى والصدر ، أو بينها وبين الحشو ، من نحو قوله فى باب الدال :

خَوَى دَنٌّ شَرْبٍ فاستَجَابُوا إلى التقَى
فَعِيسُهُم نَحْوَ الطَّوَاف خَوَادِى (٣٩)

وقوله فى باب الفاء :

عَوَى فِى سَوادِ الليلِ عافٍ لَعَلَّهُ
يُجابُ وأَنَّى والدِّيارُ عَـوافِ (٤٠)

وهذا شبيه بما تكلفه فى بعض (الفصول والغايات) ، من ترديد كلمات متقاربة التكوين للمجانسة ، كقوله :

« أبن بديار المتقين ، وابن دارك فى الآجلة ، وأبن فعلك من فعل المجرم ، وأبن نفسك وأنت حى ، فكلنا يلحق بالأمم المتقدمات » (٤١) .

فأبن بديار ـ بكسر الباء وتشديد النون ـ أى أقم ، **وأبن فعلك** ـ بكسر الباء وسكون النون ـ : ميز ، **وأبن** نفسك ـ بكسر الباء المشددة وسكون النون ـ : أعدها للذكر الحسن بعد الموت ...

---

(٣٨) سر الفصاحة ص ٣٣٢ . ومطا : مد وأطال .

(٣٩) لزوم مالا يلزم ٦٨/١ خوى : خلا . والدن : وعاء ضخم للخمر وغيرها . عيسهم : ابلهم . خوادى : مسرعات .

(٤٠) المرجع السابق ١٠٨/٢ وعاف : طالب فضل أو رزق . عواف: دوارس .

(٤١) الفصول والغايات ١٤٢/١ .

وأما اللغز : ـ وهو نحو من التورية لكنه أخفى ـ فعن استعماله نه يقول ابن سنان : « وكان شيخنا يستحسن هذا الفن ويستعمله فى شعره ، ومنه قوله :

إذا صَدَقَ الْجَدُّ افْتَرَى الْعَمُّ للفَتَى
مكارمَ لا تُكْرِى وإنْ كَذَبَ الْخَالُ

لأنه يريد بالجد : الحظ ، وبالعم : الجماعة من الناس ، وبالخال : المخيلة ، وقد ألغز عن العم والجد والخال من النسب ... وهذا وأمثاله ليس من الفصاحة فى شىء ، وانما هو مذهب مفرد وطريقة أخرى » (٤٢)

أما أنه كان يستحسنه فلم نجد فى تحليله للنصوص ما يؤكد ذلك .

وأما أنه كان يستعمله فصحيح ، وليس الا أن تقرأ (ضوء السقط) و (زجر النابح) لتراه فى الأول يميز كثيرا من الغاز (السقط) ويشرحها ، وفى الثانى يدافع عن بعض أبيات (اللزوميات) بأنها على هذا النحو ، بل لقد بلغ به الأمر أن ألف ـ فيما قالوا ـ ديوانا فى الألغاز هو (جامع الأوزان) ، وخص بعض كتبه بتعليقات مستقلة لشرح مافيها من ألغاز ، كـ (اقليد الغايات) لشرح الغاز (الفصول والغايات) ، و (منار القائف) لتفسير غريب (القائف) وألغازه .

لكنه على الرغم من شرحه وتفسيره لألغازه ، يبدو متناقضا باقباله عليها فى أدبه ، بعد ما أنكر الغموض عموما فى نقده .

وأما المصطلحات العلمية : فلم يكن حسبه منها مايتصل بعلوم اللغة ، بل تعاطاها من سائر العلوم الدينية والفلسفية والطبيعية فى شعره ونثره ، على سبيل التشبيه أو الاستعارة أو التمثيل . وهو مايعسر

---

(٤٢) سر الفصاحة ص ٢٢٦ . وتكرى : من أكرى الزاد اذا نقص ، والخال : المخيلة .

فهمه على المتخصصين فضلا عن غيرهم . ومن نحوه قوله لبعض مراسليه :

« فحرس الله سيدنا حتى تدغم (الطاء) فى (الهاء) ، فتلك حراسة بغير انتهاء ... وجعل الله رتبته التى هى كـ (الفاعل والمبتدأ) نظير (الفعل) فى أنها لاتنخفض أبدا ، فقد جعلنى ان حضرت عرف شانى ، وان غبت لم يجهل مكانى ، كـ (يا) فى (النداء) ، والمحذوف من الابتداء ، اذا قلت : زيد أقبل ، والابل الابل » (٤٣) .

ثم قوله أيضا عن نفسه :

سَمَا نَفَرٌ ضَرْبَ الْمِئِينَ وَلَمْ أَزَلْ

بِحَمْدِكَ مِثْلَ الْكَسْرِ يُضْرَبُ فِى الْكَسْرِ (٤٤)

* * *

بِتُّ كَالْوَاوِ بَيْنَ يَاءٍ وَكَسْرٍ

لاَ يُلاَمُ الرِّجَالُ إِنْ أَسْقَطُونِي (٤٥)

وفى موسيقية التعبير :

كانت دائرة تطبيقه أوسع كذلك ، فلم يقف عندما آثره من جوانبها فى نقده ، ولا عند أخص الفنون بها ، وهو الشعر ، بل تجاوز فى كليهما ، فكان مارأينا من حرصه على توفير أكبر قدر منها فى نثره بالسجع والجناس ... أما شعره فليس (السقط) كا (للزوم) ، بل ثمة اختلاف .

ففى (السقط) : كان تحقيقه لذوقه أكثر ، اذ نجده ـ من حيث الوزن ـ ينظم أكثر قصائده ومقطوعاته فى أشرف الأوزان ومتقدمها ـ **الطويل**

---

(٤٣) رسائل أبى العلاء ص ١٤ .

(٤٤) اللزوميات ١/٣٧٣ .

(٤٥) المرجع السابق ٢/٣٩٦ .

والبسيط والكامل والوافر ــ فقد نظم فى الأول ستا وثلاثين ، وفى الثانى اثنتى عشرة ، وفى **الثالث** تسع عشرة ، وفى الرابع سبع عشرة • أما ما بقى السريع احدى عشرة ، وفى **الخفيف تسع** ، وفى **المتقارب** أربع ، وفى **المنسرح** ثلاث ، وفى **مخلع البسيط** واحدة ، وفى الرجز كذلك •••

كما نجده ــ من حيث القوافى ــ لم يتجاوز **الذلل** الا فى القليل : حيث نظم على **الباء** سبع قصائد ، وعلى **الدال** ثلاث عشرة ، وعلى **الراء** أربع عشرة ، وعلى **العين** ثمانية ، وعلى **اللام** احدى وعشرين ، وعلى **الميم** خمس عشرة ، وعلى **النون** ثمانية •

ومع ذلك لم ينظم على **الثاء ولا الخاء ولا الذال ولا الشين** ، **ولا الصاد ، ولا الظاء ، ولا الغين ، ولا الهاء** •

= **وفى (اللزوم)** : كان معتمده تحقيق خطته التى رسمها لا ذوقه وما آثره ، اذ نجده فى القافية يتكلف **أولا** : التزام مالا يلزم ، ومع أنه عد ذلك من قوة الشاعر قرر أن من تركه لم يدخل عليه ضعف • **وثانيا** : أن ينتظم بالروى حروف المعجم ، فينظم على النفر والحوش كما ينظم على الذلل • **وثالثا** : أن يجىء الروى بالحركات الثلاث وبالسكون بعد ذلك •

واعترافه بأن هذه الثلاثة ضروب من التكلف آية مخالفته فيها لذوقه ، لأنه ــ كما أسلفت ــ قد عاب هذا التكلف على الرجاز •

كما نجده فى الأوزان ــ وان كان أكثرها من الطويلة ــ يجنح الى القصيرة أيضا •••

على أنه فى السقط ــ كما فى اللزوميات ــ قد توخى مزيدا من الموسيقى الداخلية ــ عدا الوزن والقافية ــ بالجناس كثيرا وبالسجع أحيانا ، حيث لم يدع ــ كما أسلفت ــ نوعا من أنواع الجناس الا استعمله فى الديوانين ، بل زاد باستعمال المركب من جهة ، وبالمجانسة بين القوافى والصدر ــ أو الحشو ــ من جهة أخرى •

وفى البناء الفنى :

لم يبعد عما آثره ذوقه ، مـ ن وحدة **الأسلوب والمعانى والوزن والقافية** ومن **طول النفس** الا فى مواضع ٠

أما الأسلوب : فلعله لم يقصر فى وحدته الا حين جنح الى الغريب والتكرار ، اذ مزق بالاول سياق الوضـوح ، وبالثانى سـياق الأصالة ، وبعدهما كانت وحدة أسلوبه فى جميع المزايا التى وفرها له محققة ٠ على أننا لانعدم فى شعره ونثره كثيرا من القصائد والرسائل والفصول التى خلت أو كادت تخلو منهمـا ، ودونك على سبيل المثـــال من رسائله : رسالته الى أهل المعرة عند انصرافه من بغداد ، ورسالته الى أبى نصرصدقة ابن يوسف الفلاحى ، ورسالته الى أبى الحسن بن سـنان فى أمر (كليلة ودمنة) ، ورسالته اليه فى أمر حجه (٤٦) ٠٠٠

ومن قصائده : (رائيته) الى أبى القاسم التنوخى ، و (لاميته) الى ابن فورجة (٤٧) ، وغيرها كثير فى اللزوميات خاصة ٠٠

وأما المعانى : ففيما عدا تناقضه السابق واستطراده أحيانا ، لا نكاد نعثر بخلل أو اضطراب فى وحدتها ، لسيطرة عقله على فكره وانشائه ٠ ونثره فى ذلك كشعره ، لاسيما رسائله ، واقرأ ـ ان شئت ـ رسالته الى أبى نصر صدقة بن يوسف الفلاحى لما استدناه الى حضرة عزيزالدولة (فاتك) صاحب حلب ٠٠ أو اقرأ تعليق ابن فضل الله العمرى عليها ـ وقد أثبتها بنصها فى كتابه (المسالك) ـ اذ يقول :

« وأثبتنا هذه الرسالة بجملتها ، لاتساقها واتفاقها ، وهى كبنيان لو اخذت منه لبنة لانقض ، وسلك لو انحل منه طاق لتداعى فيه النقض ، وعقد لو انفرطت درة منه لا ْرفَضَّ ،وكصف لو نقل منه واحد لتخلى عن البعض » (٤٨) ٠

---

(٤٦) انظر رسائل أبى العلاء ص ٣٤ ، ٥٩ ، ١١٩ ، ١٢٥ ٠
(٤٧) انظر شروح السقط ١٣٦٩/٣ ، ١٦٩٦/٤ ٠
(٤٨) تعريف القدماء ص ٢٥٦ وارفض : تفرق وتبدد ٠

وأما الوزن والقافية : فقد كانا أوفر حظا من الوحدة والاتساق ، اذ لم نكد نعثر بخلل أو اضطراب فى أوزانه وقوافيه • كيف وهو العالم ــ فضلا عن الشاعر ــ بأصولها ومزاياها •

على أنه لم يكتف بسلامة الأوزان والقوافى ، حتى ذهب يلـتزم مالا يلزم ، فى ديوان كامل ، ولا يخل بذلك فى بيت من الأبيات • فلم يضـاعف فقط من حظه الموسـيقى ، بـل ضـاعف أيضا من الثقة بهذه السلامة واطرادها •

وأما طول النفس : فطـابع الكثير من قصائده ورسـائله وكتبه : واستعرض ــ ان شئت ــ (سقط الزند) لترى الكثير من قصائده فوق الأربعين بيتا ، ومنها ما تجاوز الستين ، على الرغـم من أنـه ــ كمـا قالوا ــ قد حذف كثيرا من أبياته حذفا اخل بالسياق أحيانا •

= أو استعرض (اللزوميات) لتجد بعضها قد بلغ التسعين • وهل تجد ــ مهما بحثت ــ ك (الغفران) رسالة بلغت لطول نفسـه فيها أن تكون كتابا كبيرا ذا جوانب عدة • أو هل تجد ك (الأيك والغصون) كتابا بلغ ألفا ومائتا كراسة ــ أى أربعة آلاف وثمانمائة صفحة ، بمقياسهم الذى تزيد الصفحة فيه على صفحتين من صفحاتنا ــ وغير ذلك من شـواهد طول نفسه فى شعره ونثره كثير ••

ولا يفوتنا مع ذلك أن نذكر بما قرره شراح شعره ورسائله ودارسوهما عموما ، من تميزه بجودة المطالع ، وحسن التخلص والختام ، وهى مزايا غالبة فى أكثر ما أثر من أدبه ، لا تكاد تنتقض الا فى القليل النادر •

وفى الغاية من الأدب :

كان شعره ونثره بحق التطبيق المثالى لما آثره فيها ، اذ نجـده قبل اعتزاله لا ينظم ولا ينثر الا لغاية واحدة ، هى لذة التعبير عن نفسه فى أسلوب جميل ، مع بلوغ أقصى مايمكن من الذكر والاشتهار بهـذا

التعبير الجميل . ولقد صرح هو بهذه الغاية الذاتية فى مقدمة (السقط) التى أنشأها عند اعتزاله ، اذ يقول :

« وقد كنت فى ربان الحداثة وجن النشاط مائلا فى صغو القريض ، اعتده بعض مآثر الأديب ، وأشرف مراتب البليغ » (٤٩) .

لكنه قرر رفضه على الرغم من تلك المزية أو الغاية ، كما يبدو من قوله إثر هذا الكلام : « ثم رَفَضْتُهُ رَفْضَ السَّقْبِ غِرْسَهُ والرَّأْلِ تريكَتَهُ ، رَغْبَةً عَنْ أَدَبٍ مُعْظَمُ جَيِّده كَذِبٌ ، ورديئُه يَنْقُصُ وَيَجْدِبُ (٥٠) » .

فهو اذن لم يرفضه من أجل تلك الغاية ، بل لسبب آخر هـو الكذب ، على أنه لم يرفض تلك الغاية برفضه الشعر آنذاك ، لأنه لايزال يعالج النثر ، بل لم يرفض هذا الشعر الكاذب الا ليعود الى الصادق فى (اللزوميات) ، التى أخذ فى نظمها بعد هذا الرفض بقليل .

ولعل قوله السابق ـ على لسان ابن القارح فى (الغفران) ـ « انى **سألت ربى ألا يحرمنى فى الجنة أتلذذ بأدبى الذى كنت أتلذذ به فى الدنيا »**

مع قوله للشماخ : **« ان قصيدتيك أنفع لك من ابنتيك ، ذكرت بهما فى المواطن ، وشهرت عند راكب السفر والقاطن »** .

= لعل قوله ـ فى الموضعين ـ انما كان لمكان تلك الغاية واستمرارها فى نفسه .

---

(٤٩) شروح السقط ١/١٠ وربان الحداثة : أول الشباب ، وجن النشاط : هيجانه . والصغو : ـ بفتح الصاد وكسرها ـ الجهة .

(٥٠) المرجع السابق ١/١٠ . والسقب : ولد الناقة الذكر أول ما تضعه . والغرس : الجلدة الرقيقة التى تخرج على الولد اذا خرج من بطن أمه . والرأل : فرخ النعامة . وتريكته : البيضة التى تتفقأ عنه . ويجدب : يعيب .

فاذا نظرنا الى أدبه فى عزلته وجدنا له ـ مع ذلك ـ غايات جديدة لا يبدو أنها كانت قبل اعتزاله ، **كذكر الله وتمجيده ، وحمده واستغفاره ، وكتذكير الناسين ، وتنبيه الغافلين ، والحث على التقوى والزهد .**

فذكر الله وتمجيده : هو الغاية التى أراد أن يتفرغ لها باعتزاله ، كما يبدو من قوله فى مقدمة (الضوء) التى أملاها قبيل وفاته :

« قد علم الله ـ جلت كلمته ـ أن أحب الكلام الى ماذكر به الله ـ عز سلطانه ـ واثنى به عليه . واذا تكلمت بكلمة لغيرة عددتها من غبن وغبن ... ولزمت مسكنى منذ سنة أربعمائة معملا ألا أرسل فيما يتصل بكلام العرب بنت شفة » (٥١) .

ولقد صدق فيما قال ، لأنه أخذ أول ما أخذ بعد اعتزاله فى املاء (الفصول والغايات) ـ ١٠٠ كراسة ، و (الأيك والغصون) ـ ١٢٠٠ كراسة ـ أملاهما كما قالوا فى تمجيد الله والعظات ، ثم لم ينقطع عن هذه الغاية بعد ذلك ، حتى بلغ ما أملاه فيها على امتداد عزلته أكثر من نصف مؤلفاته :

فاللزوميات : ١٢٠ كراسة ـ **وديوان استغفرو استغفرى :** ١٢٠ كراسة ـ **وتاج الحرة :** ٤٠٠ كراسة ـ **وتضمين الآى :** ٤٠٠ كراسة ـ **وخطبة الفصيح :** ١٥ كراسة ـ **وخطب الخيل :** ١٠ كراسات ـ **ودعاء الأيام السبعة ... ودعاء ساعة .. وسجع الحمائم :** ٣٠ كراسة ـ ، **وعظات السور ... وملقى السبيل : ٤ كراسات ـ والمواعظ الست : ١٥ كراسة ووقفة الواعظ ... والقائف : ٦٠ كراسة (٥٢) ـ**

هذه المؤلفات ـ كما وصفوها ـ يتجه بعضها الى تمجيد الله وحمده واستغفاره ، وبعضها الآخر الى العظة والحث على التقوى والزهد .

---

(٥١) ضوء السقط ورقة ٢ أ ، والغبن ـ بسكون الباء ـ الخداع فى البيع والشراء ، والغبن ـ بفتح الباء ـ الضعف الرأى .

(٥٢) المرجع السابق ٥٢٧ : ٥٣٨ .

فاذا تأملنا مابقى منهـا ، وليس الا (اللزوميات) ، وجزءا من (الفصول والغايات) ، وشذورا قصيرة من غيرهما = وجدنا أن الطابع الغالب على (الفصول) هـو ذكر الله وتمجيده والثناء عليه ، وعلى اللزوميات هو العظة والتذكير .

أما ذكر الله وتمجيده فلم ينجيا أبا العلاء من الاتهام بانه قصد الى معارضة السورَ والآيات بـ (الفصول والغايات) ، ذلك الاتهام الذى رمى به فى حياته كما حكى ناصر خسرو، ولم يزل يتردد بعد وفاته . (٥٣)

والظاهر كما قال تلميذه ابن سنان أن « هذا الكتاب اذا تأمله العاقل علم أنه بعيد عن المعارضة ، وهو بمعزل عن التشبيه بنظم القرآن العزيز والمناقضة » (٥٤) .

إذْ كيفَ يقصد إلى المعارضة والمناقضة من يقول فيه مثلا :

« عَلِمَ ربُّنا ما عَلِمَ، أنى أَلَّفْتُ الْكَلِمَ ، آمُلُ رضاهُ الْمُسَلَّمَ ، وأَتَّقِى سُخْطَهُ الْمُؤْلِمَ ، فهبْ لى ما أَبْلُغُ به رضاك ، من الكَلم والمَعَانى الغِرَاب » .

« اللهمَّ اجعَلْ ذِكرَكَ عذْبًا عَلَى عَذَبَة لسانى ، وَمُخَلَّدًا طول حياتى فى خَلَدى ، ونَفَسًا عند الْكُرْبة لنَفْسى ، وَمُنْبِطًا للحكمة فى قَلِيب قَلْبى » .

« ما أَحسنتُ فأَطلبُ الجزاء ، ولكن أَسأْتُ فمُرَادى الغُفْران ، وَمَنْ لى بالوَقْفَة بالمنزلة بين المنزلتيْن لا أُكْرَمُ ولَا أُهَانُ » (٥٥) .

---

(٥٣) تعريف القدماء ص ٤٦٣ ، ٥٢٧ .
(٥٤) المرجع السابق ص ٤٢٦ .
(٥٥) الفصول والغايات ١/٦٢ ، ١٧٣ .
عذبة : طرف . خلدى : نفسى . منبطا : مظهرا . قليب : بئر .

تلك روح رجل مؤمن مبالغ فى الايمان ، معترف بضعفه وحاجته الى الغفران .

وأما العظة والتذكير فى (اللزوميات) فلم يقف بهما عند حد النصح والتوجيه ، بل تجاوز الى النظر والنقد لكافة شئون الحياة والأحياء ، من عقائد ومذاهب ، وعادات وتقاليد ، وعلوم وآداب ، وجماد وحيوان ، وحكام ومحكومين ... لا يصدر فى ذلك كله الا عن عقله وفكره ، ولا يستهدف به الا احقاق الحق ودحض الباطل ، والا توخى الخير وترك الشر ، على النحو الذى يبدو فى قوله :

يا كاذباً لايجوزُ زائِفُهُ   وما عَلَيهِ مِنْ فِضَّةٍ وَضَحُ

كَشَفْتَ عما تقولُ مجتهدًا   لعلَّ حَقًّا لطالبٍ يَضِحُ

فكلما هَذَّبْتَكَ تَجْرِبَةٌ   أنشأْتَ للباحثين تَفتَضِحُ

***

كُن صَاحِبَ الخيرتنويه وتفعَلُهُ   مَعَ الأَنَام عَلَى ألاَّ يَدينُوكَا

***

ولاتَكُ جازيًا بالخيرشَراً   وإن أنَا خُنتُ فى سَبَبٍ فَخُنِّى(٥٦)

وبهذا وغيره مما توخاه المعرى كان صاحب رسالة نبيلة ، لم يرد بها نفسه ، كماأراد بهاغيره ، علىنحو ان لميعجب معاصريه فهو من أخص ما يعجبنا اليوم فيه وفى أدبه ، أليس قد انصرف عن متاع الدنيا كله وعما تغياه الأدباء فى عصره بأدبهم ، الى هذه الرسالة النقدية التى أخلص لها نفسه ، وأتى فى مجالها بما لم يسبق ولم يلحق فيه ، مما يضيق المقام هنا عن استيفاء بسطه وتفصيله .

---

(٥٦) لزوم مالا يلزم ١/٢١٤ ، ٢/١٥٩ ، ٣٨٨ ووضح : أى كانوضح ، وهو البرص .

فلن قلت : فما بال الأغراض الشعرية الأخرى عنده : من مـديح ، وهجاء ، وفخر ، ووصف خمر ، وغزل ؟

قلت :

اما المدح : فقد طرقه فى (السقط) ، ثم قرر أن ذلك كان منه على معنى الرياضة وامتحان الطبع ، لا للتكسب وطلب الثواب ، كما أكد فى غير موضع تنزهه عن هـذه الغلية ، غاية التكسب بالمديح ، وذلك حيث يقول فى رسـالته الى خاله عند طلوعه من بغـداد : « وانصرفت وماء وجهى فى سقاء غير سرب ، ما أرقت منه قطـرة فى طلب أدب ولا مال » (٥٧)

وحيث يقول أيضاً فى (لاميتيه) اللتين ناجى بهما من بغداد أهله ووطنه :

أَإِخْوَانَنَا بَيْنَ الفُرَاتِ وجِلَّـقٍ
يَدَ اللهِ لا خَبَّرْتُكُمْ بِمُحَـالِ

أُنَبِّئُكُمْ أَنِّى عَلَى العهد سالمٌ
وَوَجْهِـىَ لَمَّا يُبْتَذَلْ بِسُـؤَالِ

وَأَنِّى تَيَمَّمْتُ الْعِراقَ لغيْرِ مَـا
تَيَمَّمَهُ غَيْلاَنُ عِنْـدَ بِـلالِ

فَأَصْبحتُ مَحْسُودًا بفضلِىَ وَحْدَهُ
عَلَى بُعْدِ أَنْصارِى وَقِلَّةِ مَالِـى(٥٨)

* * *

(٥٧) رسائل أبى العلاء ص ٣٢ وسقاء سرب : يسيل ماؤه من عيون خرزه ، يعنى أن ماء وجهه محفوظ .

(٥٨) شروح السقط ١٢٠٤/٣ وجلق : دمشق . ويد الله : قسم .

وكم ماجد فى سيف دجلة لم أشم
له بارقا والمرء كالمزن هطال

من الغر ترّاك الهواجر معرض
عن الجهل قذف الجواهر منضال

سيطلبنى رزقى الذى لو طلبته
لما زاد والدنيا حظوظ وإقبال (٥٩)

والحق أننا لم نجد ـ على طول البحث ـ ما ينقض ذلك أو يضعف الثقة به ، بل وجدناه فى عزلته يتوجه بمديحه الى الله ، ويختصه به ، فيهتف بنحو قوله فى (اللزوميات) :

إذا مدحوا آدميا مدحـ ... ـت مولى الموالى ورب النعم
وذاك الغنى عن المادحـ ... ـين ولكن لنفسى عقدت الذمم (٦٠)

وقوله فى (الأيك والغصون) :

« كلت الألسن عن صفتك . نؤمن بك ونثق بعزتك . ونسألك أن توسعنا برحمتك . كذب المدح سوى مادحك ، سبحانك رب المملكة مالها انقضاء (٦١) » .

واذا كان الشعراء من قبله وفى عصره يمدحون ويتكسبون ، باختلاق ومنح صفات مثالية ، لحكام ليس لهم منها نصيب ، ويبالغون مبالغات تنأى عن الصدق ، تزلفا وطلبا للمال = فانه هو الذى هاجم الحكام فى اللزوميات هجوما عنيفا ، وعدد مساوئهم فى صدق جرىء

---

(٦٠) لزوم مالا يلزم ٣٣٨/٢ .
(٥٩) المرجع السابق ١٢٥٩/٣ وسيف دجلة : شاطئها . لم أشم له بارقا : لم أطلب له نائلا . والهواجر : جمع هاجرة : أى الكلمة القبيحة .
(٦١) أوج التحرى ص ٦٨ .

وأما الهجاء : فلم يكن من أغراضه فى الجملة ، اذ لم يجنح اليه قبل عزلته الا فى أبيات . تناول بها أحد الشعراء من حساده ، حيث يقــول :

بأَىِّ لسانٍ ذَامَنى مُتَجاهِـــلٌ
عَلَىَّ وَخَفْقُ الريح فِىَّ ثَنَاءُ

تَكَلَّمَ بالقول الْمُضَلِّل حَاسِـدٌ
وكُلُّ كَلاَم الحاسدين هُـرَاءُ

وَمَنْ هُوَ حَتَّى يُحْمَلَ النطقُ عَنْ فَمى
إلَيْه وَتَمْشى بَيْنَنَا السُّـفَرَاءُ

وَإنِّى لَمُثْرِيًا ابنَ آخِرِ لَيْلَـــةٍ
وإنْ عَزَّمَالٌ فَالْقُنُوعُ ثَـــرَاءُ

وَمُذْ قالَ إنَّ ابْنَ اللَّئيمةِ شــاعرٌ
ذَوُو الجهْلِ مَاتَ الشِّعْرُ والشُّعَرَاءُ (٦٢)

كما لم يجنح اليه فى عـــزلته الا فى بيتين ، قالهما فى قارىء القرآن عرض بعماه ، وهما :

هــذا أبو القاسمِ أُعْجُوبَــةٌ ... لِكُلِّ مَنْ يَدْرِى وَلاَ يَــدْرِى
لاَ ينْظِمُ الشعرَ ولايحْفظُ الـــ ... ـقرآنَ وهُو الشَّاعِرُ الْمُقْرِى (٦٣)

---

(٦٢) شروح السقط ٣٩٣/١ .
ذام : عاب . ابن آخر ليلة : من حملت به أمه فى آخر ليلة من ليالى طهرها وهو مذموم .
(٦٣) تعريف القدماء ٩٧ .

وأما الفخر : فمن الأغراض التى أوغل فيها قبل اعتزاله ، ثم أعرض عنها بل ذمها فى أثنائه ، وكان من آثار هذا الاعراض أنه ـ كما حكى التبريزى ـ كان يكره أن يقرأ عليه شعره فى السقط ، ويقول معتذرا من تأبيه وامتناعه : **(مدحت فيه نفسى فأنا أكره سماعه)**(٦٤) كما كان اذا قرىء عليه أسقط كثيرا مما مدح به نفسه أو بالغ فيه على سبيل التحرج والتأثم .

وأما وصف الخمر : فلم يعرض له قبل اعتزاله وبعده الا على سبيل الذم لها والتنفير منها ، لذهابها بالعقول ، ولتحريم الاسلام لها ، كما يبدو من قوله :

البابِلِيَّةُ بابُ كلِّ بليَّةٍ فتوقَّيَنَّ هُجُوم هذا البابِ
جرَّتْ مُلاحاةَ الصديق وَهَجْرَهُ وأذى النَّديم وفُرْقة الأَحْبابِ
إذا تُؤُمِّلَتِ الحوادثُ أُلْفِيَتْ صُهْبُ الدِّنان أعادىَ الألبابِ (٦٥)

وقوله :

لو كانتُ الخمْرُ حِلاًّ ما سمحْتُ بها
لنفسىَ الدهرَ لا سرًّا ولا عَلَنَا
فلْيَغْفِرِ الله كمْ تَطْغَى مآرِبُنَا
وربُّنا قدْ أحلَّ الطَّيِّباتِ لنا (٦٦)

على أنه ألف فى ذمها خاصة كتابا لم يصل ـ هو (خماسية الراح) ـ على حروف المعجم ، ومعنى هذا الاسم : أن كل حرف من حروف المعجم

---

(٦٤) شروح السقط ٣/١ .
(٦٥) اللزوميات ١٣٦/١ والبابلية : الخمر .
(٦٦) المرجع السابق ٣٥٣/٢ .

ما خلا الألف ، يذكر فيه خمس سجعات مضمومة ، وخمس مفتوحة ، وخمس مكسورة ، وخمس موقوفة ، ومقداره عشر كراريس . (٦٧)

وأما الغزل : فقد جنح اليه أحيانا فى (السقط) ، لكن فى عفة ظاهرة ، وتسام لم يشب بفحش .

وعلى الرغم من أنه لم يمارس الحب ـ فيما عرف من آثاره ـ يبدو متأجج العاطفة فى غزله ، شديد التوله فى مناجاته ، وذلك قوله :

مِنكِ الصُّدُودُ وَمِنِّى بِالصُّدُودِ رِضَا
مَنْ ذَا عَلَىَّ بِهذَا فى هَوَاكِ قَضَى
بى مِنكِ مَالَوْ غَدَا بِالشَّمْسِ مَاطَلَعَت
مِنَ الكَآبَةِ أو بِالبَرْقِ مَا وَمَضَا (٦٨)

***

ما سِرْتُ إلا وَطَيْفٌ منكِ يَصحَبُنى
سُرًى أمامى وتَأْوِيبًا عَلَى أثَرى
لَوحَطَّ رَحلِىَ فوقَ النَّجم رافِعُهُ
أَلْفَيتُ ثَمَّ خَيَالًا مِنكِ مُنتَظِرى
يَوَدُّ أنَّ ظَلَامَ الليل دَامَ لَهُ
وَزِيدَ فِيهِ سَوَادُ الْقَلْبِ وَالْبَصَرِ
لو اختَصَرْتُمْ مِنَ الإِحسَانِ زُرْتُكُمُ
وَالْعَذْبُ يُهجَرُ لِلإفرَاطِ فِى الْخَصَرِ (٦٩)

---

(٦٧) تعريف القدماء ص ٥٣٠ .

(٦٨) شروح السقط ٢/٦٥٤ ووميض البرق : أضاء .

(٦٩) المرجع السابق ١/١١٦ . والسرى : سير الليل . والتأويب : سير النهار . والخصر : البرد .

الا أنه حين اعتزل رفض الغزل من غيره كما رأينا ، وتحاشاه فى أدبه ، متوسلا الى الله ـ سبحانه ـ بتركه ، على حد قوله :

يارَبِّ لا أدْعُو لَمِيسَ كمـــا دعـا
أوْسٌ ولَا دعْوَى زُهيْرٍ حمــارِ (٧٠)

* * *

فما أُمُّ الْحُوَيْرِثِ فِي كَلَامِــى
بِعارِضِةٍ ولَا أُمُّ الرَّبـــــابِ (٧١)

(٧٠) لزوم مالا يلزم ٤٢١/١ .
(٧١) المرجع السابق ١٣٠/١ .

الفصل الخامس

نقد أبى العلاء فى آثار الدارسين

(أ) القدمـــــاء ....

(ب) المعاصرين ....

أما القدمــاء :

فقد ظهر اهتمامهم بنقد أبى العلاء منذ كان ، **فى التناول التاريخى**، عندما ترجموا له ، **وفى التناول الأدبى** عندما تعرضوا لآرائه ٠

لكنه فى التناول الأدبى كان أقـوى وأظهر ، لأنهم فى الأول انما رددوا ما اشتهر عندهم من صفاته ، على وجــه السرد لا الدرس ، فى سياق خلا من (**الناقد**) وان لم يخل من بعض صفاته ، **كالمتعصب للمتنبى وعلى ابن هانىء** (١) ، **وكالعالم اللغوى ٠٠٠ غزير الأدب المتضلع من فنونه ٠٠٠ واسع النطاق فى العربية ، جامع الشعوب للطرق الأدبية ٠٠ له مصنفات كثيرة أكثرها فى الشعر ٠٠ وتصانيفه فى الشعر والأدب أكثر من مائتى مجلد** (٢) ٠ على حين نجدهم فى التناول الأدبى قد تجاوزوا ذلك ، فعرضوا كثير من آرائه النقدية ، وأصدروا حكمهم عليها وعلى صاحبها أحيانا ، بل وجدنا أديبا منهم فى القرن السابع الهجرى ـ وهو ابن معقل الأزدى ـ يختص بعض آثاره ، وهو (اللامع العزيزى) ـ بالدراسة والنقد ، فى كتابه (المآخذ على شراح ديوان المتنبى) ٠ ولعله أهم ما وصل الينا فى هذا المجال ٠

واذا كنا قد ظهرنا فى **الفصل الثانى** على ما عرضوا وحفظوا من نقد أبى العلاء ، فقد بقى أن نعرض آراءهم فيه بالاعجاب أو الانكـار ٠ وقد وجدت من هذه الآراء طائفة لا بأس بها ، **تناثرت بين شروح الشعر** وكتب الأدب والنقد على مدى سبعة قرون ، وبدا من تناثرها أن هذا النقد كان متصل الذكر والأثر فى الحياة الأدبية خلال هذه القرون ٠

فى القرن الخامس :

ففى حياة أبى العلاء وطوال القرن الخامس ، نجد لغير واحد من معاصريه حديثا عن نقده أو رأيا فيه ٠

---

(١) تعريف القدماء ص ٧٦ ، ٤٠٠ ٠

(٢) المرجع السابق ص ٥ ، ١٨٢ ، ٢١٨ ، ٣٠٤ ، ٣١٩ ٠

فابن فورجة : وهو ممن قرأ على أبى العلاء ببغداد واتصلت حياته الى سنة ٤٣٧ هـ كما قدمت (٣) ـ يقول :

« قرأت على أبى العلاء ، ومنزلته فى الشعر ما قد علمه من كان ذا أدب ، فقلت له يوما فى كلمة : ما ضر أبا الطيب لو قال : مكان هذه الكلمة كلمة أخرى أوردتها ، فأبان لى عوار الكلمة التى ظننتها ، ثم قال لى : لا تظنن أنك تقدر على ابدال كلمة واحدة من شعره بما هو خير منها ، فجرب ان كنت مرتابا ، وها أنا اجرب ذلك منذ العهد ، فلم أعثر بكلمة لو أبدلتها بأخرى كان أليق بمكانها ، وليجرب من لم يصدق يجد الأمر على ما أقول . (٤) »

لكنه على الرغم من هذا الاعجاب الذى ناقشنا مضمونه قبل قليل (٥) ، قد خالف أستاذه فى بعض تأويله لشعر المتنبى وان لم يزد عليه ... (٦)

وابن سنان : تلميذ المعرى ، المتوفى سنة ٤٦٦ هـ = يعد شيخه بين أهل العلم بالشعر ومعتدلى النقاد ، الذين راعوا مستوى الاجادة لا زمن القائل . ومن ثم كان استئناسه بآرائه وتنويهه بها كثيرا ، على الرغم من مخالفته له فى بعضها ... (٧)

والواحدى : المتوفى سنة ٤٦٨ هـ ، فى (شرحه لديوان المتنبى) = يعد المعرى ممن خفيت عليهم بعض معانيه (٨) ، مع أنه اقتبس بعض تأويلاته واستحسنها .. (٩)

---

(٣) ص ٧٤ .
(٤) شرح الواحدى للمتنبى ٢٧٧/١ .
(٥) انظر ص ٤٧٩ .
(٦) التبيان فى شرح الديوان ٥١/٢ .
(٧) سر الفصاحة ٣٢٩ ، ١٠٨ ، ٥٦ ، ٢٦٦ .
(٨) شرح الواحدى للمتنبى ٣/١ .
(٩) المرجع السابق ٩٣/١ ، ٦٠١/٢ .

وداعى الدعاة الفاطمى : المتوفى سنة ٤٧٠ هـ ، فى (مناظرته للمعرى) = يعترض على تركه اللحوم وغيرها من منافع الحيوان ، لكنه يسلم له بالفضل فى صنعة الشعر والأدب ، عن ظهور على مصنفاته فيها ... (١٠)

وابو عبيد البكرى الأندلسى ، المتوفى سنة ٤٨٧ هـ ، يستحسن رواية أبى العلاء لقول فاطمة بنت الأحجم :

وإذا دَعَتْ قُمْرِيَّةٌ شَجِبًا لَهَا يَومًا على فَنَنٍ دَعَوْتُ صَبَاحي

بالباء فى (**شجبا**) ، فيشيد بها ، ويفضلها على رواية أبى على القالى : (**شجنا**) بالنون ـ أى حزنا ـ وذلك قوله بعد أن ذكر انشاد أبى على للرواية الثانية : « **أخبرنى غير واحد عن أبى العلاء المعرى ، أنه كان يرد هذه الرواية ، ويقول : انها تصحيف ، وينشده :**

وإذا دَعَت قُمريَّةٌ شَجِبًا لَهَا

يعنى فرخها الهالك ، وهو الهديل ، والشجَب : الهلاك ، والشجِب الهالك ، وهذه رواية حسنة مقبولة ، والحق أحق أن يتبع » (١٢) :

والتبريزى : تلميذ المعرى ، المتوفى سنة ٥٠٢ هـ = يحدث تلميذه ابن الشجرى عن ذوق أبى العلاء فى التمييز بين جيد الشعر ورديئه حديث المجل المعجب ، كما رأينا فى (تعريف الشعر) (١٣) . ويدل على ثقته بهذا الذوق غير دليل فى شروحه ، من كثرة عرضه لآثاره واعتماده عليها ، ومن ترجيحه لها وندرة مناقشتها ، فهو لا يقدم

---

(١٠) تعريف القدماء ١٣٨ ، ١٣٩ .
(١١) قمرية : حمامة .
(١٢) سمط اللآلى ٢/٦٢٦ .
(١٣) ص ١٣٦ .

على روايته غيرها (٦٤) ، ويقدم تأويله للمعاني وتحقيقه لها وللغة كثيرا ، في (اللامع العزيزي) ، و (الرياشي المصطنعي) (١٥) ، لكنه عد تفسير (الضوء) لمعا لم يشف الغليل ، لتقصير المستملي .. (١٦) ، وشاركه في هذا الرأي البطليوسي المتوفى سنة ٥٢١ هـ (١٧) ، وصاحب (التنوير) المتوفى سنة ٥٤١ هـ (١٨) في مقدمة شرحيهما للسقط . ومن ثم رأينا ثلاثتهم يرجحون تفسيرهم على تفسير المعري أحيانا ، بالحق مرة وبالتطاول أخرى .. (١٩) .

في القرن الســـادس :

حتى اذا كنا في القرن السادس ، لم ينقطع ذكر هذا النقد ولا النظر فيه كذلك :

فابن الشجري في المشرق ، تلميذ تلميذ المعري ، المتوفى سنة ٥٤٢ هـ = يعرض تأويله واعرابه واستحسانه لأبيات من شعر المتنبي ، فيقر بعضها ، ويخالف الى الصواب في آخر ... (٢٠)

والكلاعي في الأندلس ، بعد البكري والبطليوسي = يبدي عظيم الاعجاب بأبي العلاء ، حيث يشيد بثقافته ويبينها ، وبفنه ويعارضه ، وبنقده ويؤيده ، خصوصا ذمه للتكسب بالشعر ، ودعوته الى التسامي

---

(١٤) انظر : شرحه للحماسة ٢٦٧/٤ ، وللسقط ــ ضمن الشروح ــ ٨٤/١ ، ١٠٥ ، ١١١ ، والموضح ٢٨/١ ب ، ٩٩/٣ ب .
(١٥) شرحه للحماسة ١٣٢/١ ، ١٤٤ ، ٣٢٥/٣ ، الموضح ٢/١ أ ، ٦٨ أ ب .
(١٦) شروح السقط ٤/١ .
(١٧) المرجع السابق ١٥/١ .
(١٨) شرح التنوير على السقط ٦/١ .
(١٩) انظر التبريزي في الشروح ١١٥/١ ، ٤٠٧ ، والبطليوسي في الشروح ٣٣/١ ، ١٤٩٣/٤ ، والخويي في التنوير ٢٣/١ ، ٦١ .
(٢٠) التبيان ٢٨/١ ، ٣١١ ، ٣٢٩/٢ ، ١٩/٤ .

فيه ، واحترام قائليه ، والوعى بفضيلته ، وعيبه للتكرار ، واتجاهه فى شروح شعره الى لغتها دون معانيها .. (٢١)

فى القرن السابع :

ومع انتقالنا الى القرن السابع نبلغ ذروة التناول لنقد أبى العلاء والحكم عليه فى القديم ، حيث نجد ابن الأثير ، وابن المستوفى ، وابن أبى الاصبع المصرى ، وابن معقل الأزدى ، من نقاد هذا العصر وأدبائه البارزين ، قد تعرضوا لهذا النقد ألوانا من التعرض ترددت بين الاعجاب به والانكار لـــه ..

فابن الأثير : نصر الله بن محمد ، المتوفى سنة ٦٣٧ هـ ، فى كتابه (المثل السائر) = ما كاد يعثر على لفظة نافرة للمتنبى ، حتى حمل على المعرى حملة شديدة ، لما بلغه من تعصبه له ، وقولة عنه : « **ليس فى شعره لفظة يمكن أن يقوم عنها ما هو فى معناها فيجئ حســنا مثلها** » . وقد ناقشنا حملته قبل ذلك ... (٢٢)

على حين نجده فى (الاستدراك على ابن الدهان) (٢٣) ، ما كاد ينبــه على ما غفل عنــه ، من نادر أبى تمام ، فى (**بائياته** ، **وداليانه** ، **وميمياته** ، **ولامياته**) = حتى نوه بما بلغه من اكبار المعرى مأتم (**البائيات والداليات**) عليه ، وعد قوله فى ذلك هو الصدق والحق .

فاذا علمنا أن عبارة المعــرى – فى نقل ابن الأثير – تلفيق من الأصل (٢٤) ، وأن المعرى أكبر مأتم (**الميميات واللاميات**) أيضا ،

---

(٢١) انظر : احكام صنعة الكلام ص ٢٦ ، ٣٠ ، ٣٨ ، ١٣٠ ، ٢٥٧ ، ٢٣١ .

(٢٢) المثل السائر ١/٤١١ . وانظر فيما سبق ص ٤٧٧ – ٤٧٨ .

(٢٣) الاستدراك على ابن الدهان ص ٥٧ .

(٢٤) والأصل فى الغفران ص ٤٨٦ ، ٤٨٧ .

رجحنا تأثر ابن الأثير فى هذا الاستدراك بذوق المعرى ، وان حاول اخفاء ذلك .

وابن المستوفى : المبارك بن أحمد الاربلى ، المتوفى سنة ٦٣٧هـ ، فى كتابه (النظام فى شرح شعر المتنبى وأبى تمام) = أورد كثيرا من شرح المعرى لشعر المتنبى وأبى تمام ، فأقر بعضه وعارض آخر ، أقر ما وافقه فيه ، فعرضه دون تعقيب ، أو عقب بتأييد روايته أو رأيه أو اعرابه .. (٢٥) ، وعارض ما خالفه فيه ، من وجوه التأويل ، والرواية ، والاشتقاق ، والاستعارة ، وصياغة الشرح ، فنقض ذلك أو رجح عليه ، مصيبا فى بعضه ، ومتكلفا فى آخر ... (٢٦)

وابن أبى الاصبع : زكى الدين عبد العظيم بن عبد الواحد ، الأديب الشاعر ، المتوفى سنة ٦٥٤ هـ = يبدو أكثر نظرا فى نقد أبى العلاء ، اذ كان مما وقف عليه وأحصاه فى علم البديع : شروح أبى العلاء (ذكرى حبيب ، وعبث الوليد ، ومعجز أحمد) ، ذكر ذلك فى مقدمة كتابه : (تحرير التحبير) ، ثم ذكر فيه (٢٧) وفى كتابه الآخر (بديع القرآن (٢٨) نوع البديع الذى استنبطه أبو العلاء من بيت المتنبى :

يَرُدُّ يداً عن ثوبها وهو قادرُ
ويَعصِى الهوى فى طيفها وهو راقدُ

عند نقده له فى (معجز أحمد) ، وسماه (**الطاعة والعصيان**) ، من حيث عصاه الطباق لو قال « **وهو مستيقظ** » ، وأطاعه الجناس فقال « **وهو قادر** » .

---

(٢٥) انظر : النظام ١/٣١ ، ١٣٥ ، ٢/٤٤٢ ، ٧٥٨ .
(٢٦) المرجع السابق ١/٢٥ ، ٢٩ ، ٣٣ ، ١١١ ، ٣٤٠ ، ٢/٤٣٨ ، ٤٦٥ ، ٥٢٤ ، ٧٥٥ .
(٢٧) انظر تحرير التحبير ص ٢٩٠ .
(٢٨) انظر بديع القرآن ص ١٠٩ .

لكنه ـ وان أقر بأن هذا النوع من البديع ، وأثبت تسميته لرشاقتها ـ رفض أن يصلح بيت المتنبى شاهدا عليه ، وتكلف له شاهدا آخر ، على ما بينا فى الحديث عن (الصنعة الفنية) (٢٩) ٠

أما أحمد بن على بن معقل الأزدى المهلبى ، الأديب المتشيع ، المتوفى سنة ٦٤٤ هـ = فيبدو فى كتابه : (المآخذ على شراح ديوان المتنبى) أجل هؤلاء ، بل أجل القدماء أثرا فى تناوله لنقد أبى العلاء ، بتوفره على كتاب (اللامع العزيزى) ضمن ماتوفر عليه من شروح المتنبى ، وتتبعه أثر المعرى فى التحقيق والتأويل والاعجاب والانكار ، مما لم نجده لسواه ، ولا يضطلع به ـ كما قال فى مقدمة كتابه ـ الا من أطال مغازلة المعانى والقوافى ٠

وما زال كتابه مخطوطا ، ونسخته الوحيدة عندنا مصورة على (فيلم) ليس ميسر القراءة ، لقلة أجهزتها والوقت المخصص لها ، حيث يوجد بمعهد المخطوطات العربية ٠ مما اقتضى أن أكبر منه ما أخذه على أبى العلاء والتبريزى ، ويقع فى مائة وخمس عشرة ورقة ، يخص أبا العلاء منها سبعون ٠٠

وبالنظر فى هذه المآخذ ، خصوصا ما كان على أبى العلاء ـ نرى أنها وحدات قصيرة من المناقشات الجزئية ، لاتكاد تختلف فى بنائها ونسقها ، فقد بنيت كلها على عناصر واحدة ـ من بيت المتنبى ، فكلام المعرى عنه ، فرأى المؤلف فيهما ـ ثم نسقت فى اطار الترتيب الخاص بقصائد الديوان ، الا قليلا خالف نسقه نسق الأبيات والقصائد ، وتنبه لبعضه فبين مكانه فى الهامش (٣٠) ٠٠

ومع أن القصد الأول فى هذه الوحدات هو المؤاخذة كما نص فى عنوان الكتاب ومقدمته ـ وجدت بالاستقراء أن بعضها تجرد من ذلك ،

---

(٢٩) انظر ص ٣٦٣ ٠

(٣٠) المآخذ على شراح ديوان المتنبى ورقة ١٠٧ أ ، ١٣٧ ب،١٤١ب.

حيث خلا من أى تعقيب على كلام المعرى (٣١) ، أو كان التعقيب عليه بالاستحسان أو الشرح أو التوجيه أو التفضيل له على غيره (٣٢) ·

على أن ماخلص منها للمؤاخذة كان أكثر وأشمل ، اذ بلغ عـددهـ أضعاف ماتجرد منها ، واستوعب من الشرح عناصره كلها أوكاد ، من الرواية ، والاعـراب ، والتصريف ، والشواهد ··· ومن التأويل للفـظ والمعنى ، والتوجيه لهما ، والمآخذ عليهما ، والتحليل لبعض الصـور الفنية ، وصياغة الشرح نفسها ·

غير أن التأويل كان أكثرها تعرضا لمناقشة المؤلف ومخالفته ، فقد ظهر من تصـنيف مآخـــذه التى بلغت مائتين وخمسـين تقريبـــا أن أكثر من نصفها يتجه الى التأويل ، والباقى الى العناصر الأخرى على تفاوت · كما ظهر من دراستها وتأملها أنه أصاب فى بعضها ، وتكلف فى آخر ، أصاب كثيرا فيما اعترض عليه من ترك التأويل والتعليل (٣٣) أو قصورهما (٣٤) ، = وترك المؤاخذة (٣٥) أو تكلفها ·· (٣٦) = وخلل الاستشهاد والصياغة ··· (٣٧) ·

وتكلف كثيرا فيما اعترض عليه من أوجه الاعراب والتصريف (٣٨)، والاستشهاد (٣٩) ، والتأويل الموجز (٤٠) ·

---

(٣١) المرجع السابق ١٢٦ ب ·

(٣٢) المرجع السابق ١٠٩ أ ، ١٢٥ أ ، ١٢٨ أ ، ١٥٠ أ ، ١٥٣ ب ، ١٥٤ ب ، ١٥٦ أ ، ١٦٤ أ ، ١٧٠ أ ·

(٣٣) المرجع السابق ١٩ أ ب ، ١١٠ أ ، ١٤٨ أ ·

(٣٤) المرجع السابق ١٤٨ أ ، ١٩٨ أ ب ، ١٧٢ أ ·

(٣٥) المرجع السابق ١٥٤ أ ، ١٥٩ أ ·

(٣٦) المرجع السابق ١١٨ أ ، ١٥٩ ب ·

(٣٧) المرجع السابق ١٢٦ أ ، ١٦٩ أ ، ١٧٨ أ ، ١٨٠ ب ·

(٣٨) المرجع السابق ١٠٧ أ ، ١٠٨ أ ، ١٣٣ ·

(٣٩) المرجع السابق ١٢١ ب ·

(٤٠) المرجع السابق ١٦١ أ ، ٦٨ ب ·

فمما أصاب فيه ـ فضلا عما أسلفنا فى تأويل المعانى ـ دفاعه عن بيت المتنبى :

وَلا فَضلَ فيهَا للشَّجَاعةِ والنَّدَى ... وصَبْرِ الفَتَى لولَا لِقَاءُ شَعُوبِ

حيث أورد اعتراض أبى العلاء : « ادعاء أبى الطيب أن الدنيا لا فضل فيها للشجاعة والندى وصبر الفتى لولا الموت غير صحيح ، لأن الناس لو كانوا مخلدين لم تنتقض فضيلة الجود وغيره من الأشياء المحمودة » .

ثم رد عليه بقوله : « لا لبس فى أن الشجاع لو تقدم فى الحرب وأقدم على الطعن والضرب ـ وهو على يقين من السلامة ـ لم يكن له فضل فى ذلك ، لأنه قد وثق بالحياة ، فلا يضره القاء نفسه فى المهالك ، فكان الناس يتساوون ، فلم يكن لأحدهم مزية على الآخر ، وكذلك يقال فى الجواد ، وأنه اذا تيقن البقاء ووثق بالسلامة لم يكن له فضل فى العطاء ، لأنه قادر على اخلافه بالاغارة على الأموال ولا يقتل ، ورده بالتجارة فى البر والبحر ولا يهلك ولا يغرق ، فهذا يبين لك أنه انما يحمد الاقدام ويحسن السماح عند تجويز الهلاك ، ولولا ذلك لم يكونا كذلك » (٤١) .

ومما تكلف فيه الاعتراض مأخذه على تأويل الثانى من بيتى المتنبى :

لَكِ يَامَنَازِلُ فِى القلوب مَنَازِلُ ... أَقفَرتِ أَنْتِ وَهُنَّ منكِ أَوَاهِلُ

يَعلَمنَ ذَاكَ وما علمتِ وإنما ... أولا كُمَا يُبكَى عليهِ العاقِلُ

---

(٤١) المرجع السابق ١١٢ أ ب .

فقد أورد قول أبى العلاء عنه : « يعلمن ذاك : أى منازلك التى فى الفؤاد يعلمن بحالك وحـالهن ، فهن أواهـل بذكـرك ، وأنت مقفرة من ذكر أهلك ، ولست تذكرين منازلك التى فى الفؤاد ، وأولا كما بأن يبكى عليه العاقل ، أى منازلك فى الفؤاد ... »

ثم كان تعقيبه : « ان قوله (يعلمن ذاك) اشارة الى قوله * أقفرت أنت وهن منك أواهل * أى المنازل التى فى الفؤاد تعلم أنها آهلة من منازل الأحباب المقفرة ، وهى لاتعلم ذلك ، فالأولى أن يبكى على المنزل العاقل لا الجاهل ، فهذا هو المعنى ، وأما ماذكره فمُخلّط ومخبّط » (٤٢) .

هكذا اتهم المعرى بالتخبيط والتخليط فى تفسيره الذى أعاده ، ولم يكد يزيد عليه ، واجترأ - وهو جرىء - على وصف كلامه بمثل هـذه الصفات .

والحق أن ابن معقل على الرغم من فضله فى السبق الى هـذه الدراسة ، والانفراد بها ، قـد بدر منـه - فى مآخذه على أبى العلاء - ما يتنزه عنه العلماء الفضلاء .

فمن ذلك : اسرافه الواضح فى التحامل على المعرى ، حيث وصف كلامه - وأشار اليه - بنحو قوله : « انظر الى هذا التشبيه الذى لم يقـل به بصير » (٤٣) ، وقوله : « هذا الذى ذكره فى تفسيره لا يليق أن يخاطب به العوام » (٤٤) وقوله : « هذا كلام من لم يشم رائحة المعنى الذى أراده أبو الطيب » (٤٥) ، وقوله : « هذا عيب لقول أبى الطيب ، وتخطئة له ، وهو كما قال :

---

(٤٢) المرجع السابق ١٥٣ أ .
(٤٣) المرجع السابق ١٤٧ ب .
(٤٤) المرجع السابق ١١٩ أ .
(٤٥) المرجع السابق ١٤٦ ب .

وكم من عـائب قـولا صحيحا وآفته من الفهم السقيم » (٤٦)

وقوله : « **هذا القول جهل ، بل كفر محض** » (٤٧) ، الى آخر ما أسف فيه واستقبح هو بعضه فشطبه (٤٨) ، وكان به مناقضا لما أظهر من ثقته بالمعرى ، حين اعترف فى مقدمة الكتاب بفضله وفضل من تعرض لهم من الشراح ، وحين استحسن بعض تأويلاته وفضلها على ماعداها ، وحين اعتذر عن تركه التأويل فى بعض المآخذ (٤٩) ، وعن اضطراب حده للقافية فى آخر (٥٠) .

ولا ريب أن مقالة السوء فى عقيدة المعرى ـ لا فساد ذوقه ـ كانت مصدر الكثير من هذا الأحكام كما يبدو من بعضها ، وهو الحكم عليـه بالكفر ..

ومنه أيضا : اعجابه الشديد بنفسه فى المؤاخذة والفهم ، حتى أكثر من اطراء تفسيره وتفضيله على ماعداه من تفاسير (٥١) ، وحتى ليبدو أنه استحى من ذلك فى بعض المآخذ فشطبه (٥٢) ، وقد ناقض بهـذا الاعجاب مانوه به فى المقدمة من تواضعه ، ومايبدو فى بعض تأويلاته من تأثر بمن سبقوه ... (٥٣)

ومنه : رغبته الواضحة فى المؤاخـذة والتنقص ، حتى تكلف ذلك دون موجـب كثيرا ، وحتى كـرر بعض المآخـذ عن قصـد واعجـاب أحيانا (٥٤) .

---

(٤٦) المرجع السابق ١٦٠ أ .
(٤٧) المرجع السابق ١٤٠ أ .
(٤٨) المرجع السابق ١٦٦ أ .
(٤٩) المرجع السابق ١٥٩ ب .
(٥٠) المرجع السابق ١٥٨ ب .
(٥١) المرجع السابق ١٢٦ أ ، ١٢٨ أ ، ١٣٦ ب ، ١٧٦ ب .
(٥٢) المرجع السابق ١٧٨ ب .
(٥٣) المرجع السابق ١٥٠ ب .
(٥٤) المرجع السابق ١٢٨ أ ، ٢١٣ ب .

فى القرن الثامن :

ولا نكاد نتجاوز القرن السابع ، حتى يقل مانجد لهم فى هذا المجال ، سنجد **الشهاب الحلبى** المتوفى سنة ٧٢٥ هـ فى كتابه (حسن التوسل الى صناعة الترسل) ، والنويرى المتوفى سنة ٧٣٣ هـ فى (**نهاية** الأرب) = يرددان باختصار كلام ابن أبى الأصبع فى (**باب الطاعة والعصيان**) دون مناقشة (٥٥) .

واذا كان من أثر يذكر فى القرن الثامن فهو **للصفدى** المتوفى سنة ٧٦٤ هـ فى كتابيه : (نصرة الثائر على المثل السائر) و (الغيث المسجم) .

ففى الأول تصدى لابن الأثير ، ودفع تحامله على المعرى ـ لأن فضل المتنبى ـ بأن أكثر الناس على تفضيله ، حتى ابن الأثير نفسه ، وبأن المعرى وغيره ممن رجحوه لم يكونوا يعتقدون له العصمة من الخطأ (٥٦) . لكنه عاد فاتهم المعرى بالتحامل على ابن هانىء فى تسميته ديوانه (رحى تطحن قرونا) (٥٧) .

وفى الثانى : نوه بتمكن أبى العلاء من الأدب واللغة ، لتغييره فى (الغفران) قافية بيتى النمر بن تولب على حروف المعجم كلها (٥٨) ..

فى القرن التاسع :

ونمضى الى القرن التاسع ، فلا نجد الا أصداء ضعيفة لنقد أبى العلاء ، **نجد ابن حجة الحموى** المتوفى سنة ٨٣٧ هـ ، فى كتابه (خزانة الأدب الكبرى) كالشهاب الحلبى والنويرى = يردد باختصار كلام ابن أبى الاصبع فى (باب الطاعة والعصيان) ويتبعه فى رأيه (٥٩) .

---

(٥٥) انظر : حسن التوسل ص ١٠٤ ، نهاية الأرب ١٤٦/٧ .
(٥٦) نصرة الثائر على المثل السائر ص ٩٤ ، ١٤٣ مخطوط .
(٥٧) المرجع السابق ص ١٠٧ .
(٥٨) تعريف القدماء ص ٤٠٥ .
(٥٩) خزانة الأدب ص ٥١٠ .

كما نجد **دولت شاه الفارسى فى** كتابه (تذكرة الشعراء) يزعم أن لأبى العلاء تصانيف فى **علمى المعانى والبيان** دون أن يوضح ماهى (٦٠) ٠

فى القرن الحادى عشر :

ويخلو المجال أو يكاد ـ من القرن التاسع الى الحادى عشر ـ حتى نلتقى **بيوسف البديعى** المتوفى سنة ١٠٧١ هـ ، فنجده يردد صورا من نقد أبى العلاء ، فى كتابيه (أوج التحرى) و (الصبح المنبى) ولا يعجبه نقد المعرى لشعر ابن هانىء فيعلل تعصبه عليه بمضاهاتهم له بالمتنبى (٦١) ٠

ولا أظنه أبدى رأيه فى غير هذا ، على أنه ـ فى الحقيقة ـ رأى ابن خلكان مع اختلاف الصياغة كما بينا من قبل (٦٢) ٠

هذا مانجده من رأى القدماء فى نقد أبى العلاء ٠

أما المعاصرون :

فقد وصلوا ما انقطع من ذكر هذا النقد خلال العصر التركى ، وأولوا بعض آثاره من النظر والدرس مافاقوا به القدماء ، وكان ذلك فى التناول الخاص أظهر وأكثر منه فى التناول العام ، حيث وجدناه فى الأول اما موضوعا لمقال أو فصلا فى كتاب ، ولم نجده فى الثانى الا عارضا سريعا مجملا ٠

ففى التناول العام :

ـ ونبدأ به ايثارا للانتقال من العام الى الخاص ـ كان أول التفاتهم لنقد أبى العلاء ، وتعريفهم به ، ولم يزل ذكرهم له الى عهد قريب يتردد بين التنويه به والغض منه ٠

---

(٦٠) تعريف القدماء ص ٤٦٦ ٠

(٦١) أوج التحرى ص ٣٠ ٠

(٦٢) انظر ص ٤٨٠ ٠

ورواد هذا التناول على الترتيب هم : جورجى زيدان ، وسيد بن على المرصفى ، والعقاد ، ومحمد كرد على ، ومصطفى صادق الرافعى ، و د . محمد مندور ، وأحمد أمين :

فزيدان : فى (تاريخ آداب اللغة العربية) يعد (رسالة الغفران)من قبيل نقد الشعر فى العصر العباسى الثالث ، ولها عنده شأن خاص ، من حيث موضوعها الفلسفى الخيالى ، اذ ضمنها صاحبها انتقاد شعراء الجاهلية والاسلام ، وأدبائهما ، والرواة والنحاة ، على أسلوب روائى خيالى لم يسبقه اليه أحد (٦٣) .

والمرصفى : فى (شرحه للحماسة) كان كما ذكر تلميذه طه حسين يسخر من شرح التبريزى والمعرى لها ، لكلفهما بالنحو والصرف والعروض ، حيث لا يكلف هو بغير اللغة والنقد (٦٤) . ولا يزال فى شرحه الذى وجدت منه الجزء الأول نقد للشراح السابقين دون تعيين ، حيث نجد ، فى المقدمة ـ قوله : « ولست فى تفسير معانيه ، وبيان مغازيه ، متبعا لقوم مدوا أيديهم على ذلك الديوان بالكتابة ، وظنوا أنهم فوقوا سهام الصواب وقد أخطئوا غرض الاصابة ، فكثيرا ما يخلطون ، فى أوضاع اللغة ولا ينبهون ، ويخطئون فى بيان الاعراب والبناء ، وتحقيق مانحاه ابن خروف أو انتحاه الفراء ، رحمهم الله تعالى » .

ثم نجده ـ فى أثناء الشرح ـ يخطئهم ، أو يدافع عما عابوه ، أو ينقض ما رأوه ، دون تسمية لأحد منهم (٦٥) ، ولعله عف عن هذه التسمية عند طبع شرحه .

والعقاد : فى مواضع من مقالاته ينوه بذوق المعرى ونقده :

---

(٦٣) تاريخ آداب اللغة العربية ٢/٢٤٦ ، ٢٦٥ .
(٦٤) تجديد ذكرى أبى العلاء ص ٦ .
(٦٥) اسرار الحماسة جا ص:ز من المقدمة،وص ٤٠،٤٤،٥٢،٥٠،٩،١ .

ففى مقاله : (**الخيال فى الغفران**) قـــرر أن (الغفران) نمـط وحدها فى آدابنا العربية ، وأسلوب شـائق ، ونسق طريف فى النقـــد والرواية (٦٦) ..

وفى مقاله : (**ولع المتنبى بالتصـغير**) صـــوب رأى المعرى : أن الرجل كان مولعا بالتصغير ، لا يقنع من ذلك بخلسة المغير ، ولا ملامة عليه ، انما هى عادة صارت كالطبع (٦٧) .

وفى مقاله : عن كتاب (**أبو العلاء فى سجنه**) صرح بموافقتـــه للمعرى فى الاعجاب بالمتنبى الذى لم يرض عنه طه حسين كل الرضـا فى هذا الكتاب ... (٦٨)

وفى مقاله (**أسلوب الدرعيات**) أكد ضرورة انتهاء القارىء لأبى العلاء أو عنه الى بحث من بحثين ، كلاهما أصيل فى تحصيل الثقافة الرفيعة هما البحث فى حقائق النفس الانسانية أو البحث فى حقائق اللغة ، اذ كان على فرط اشتغاله بالتنقيب عن حقائق الفكر والعقيدة ، يفرط مثـل هذا الافراط فى استطلاع أسرار اللغة ، وتقليب وجوه الألفاظ ومعانيها ، والمعارضة بين أقوال البلغاء فيها ، ويصحب ذلك بامتحان قدرته على الاتيان بمثل ما أتى به الأوائل من بلاغتها الممتنعة ... (٦٩)

ومحمد كرد على : فى مقاله (**الانشاء والمنشئون**) ، على الرغـم من أنه لم يعترف بالكاتب فى أبى العلاء ، قرر أن ماكتبه على ديـوان أبى تمام الطائى وسماه (ذكرى حبيب) ، وعلى ديـوان أبى عبـادة البحترى وسماه (عبث الوليد) ، وما كتبـه على ديـوان أبى الطيب المتنبى وسماه (معجز أحمد) = يدل على احاطة المعرى بأســـرار

---

(٦٦) مطالعات فى الكتب والحياة ص ٨٨ .

(٦٧) المرجع السابق ص ١٣٢ .

(٦٨) يسئلونك ص ١١ ، ١٢ .

(٦٩) أشتات مجتمعات ص ١٣٥ .

العربية ، وفهم كلام العرب ومراميهم ، وشدة ملكته فى النقد الأدبى ... (٧٠)

والرافعى : فى كتابه (اعجاز القرآن) ذكر المعرى ، فأشاد بنقده لكتب ابن الراوندى التى عارض بها القرآن ، ونقضه لها واحدا واحدا بالسجع الذى يلعن باللفظ قبل أن يلعن بالمعنى ، كما أشاد باثباته لاعجاز القرآن فى قوله السابق (٧١) : « وأجمع ملحد ومهتد ، وناكب عن المحجة ومقتد ، أن هذا الكتاب الذى جاء به محمد ﷺ كتاب بهر بالاعجاز . » (٧٢) ، واستبعد أن يكون الرجل قد أسر فى نفسه غير ما أبدى من هذا القول .

ومندور : تعرض لنقد المعرى فى موضعين (٧٣) من كتابه (النقد المنهجى عند العرب) : فى أولهما : نوه بنقده فى (الغفران) ، لسلامته ذوقا ومنهجا ـ وهو فى القرن الخامس ـ من أثر النظر الفلسفى الشكلى ، الذى لم تسلم منه البلاغة ، فانتهى بها الى التحجر ، وسلم النقد فظل عربيا خالصا .

وفى ثانيهما : احتج على الصاحب ابن عباد فى عيبه لبيت المتنبى :

بليت بلى الأطلال ان لم أقف بها   وقوف شحيح ضاع فى الترب خاتمه

برأى أبى العلاء فى البيت وعده المتنبى متفوقا به ، على ماأسلفت فى اتجاه الموازنة (٧٤) ..

أما أحمد أمين فيبدو متأثرا بمندور ، حين تكلم عن التيار الذى حول النقد الى بلاغة على يد قدامة ومن تأثروا به ، والتيار الذى عده

---

(٧٠) مجلة المجمع العلمى العربى بدمشق مجلد ٥ جزء ٢ ص ٨٥ سنه ١٩٢٥ .

(٧١) انظره فى ص ٢٥٨ .

(٧٢) اعجاز القرآن ١٨٧ ، ١٩٠ .

(٧٣) النقد المنهجى عند العرب ٢٧ ، ٢١٧ .

(٧٤) انظر ص ٤٤١ .

امتدادا لحركة النقد وراه عند أبى العلاء ، فقد كان فى (الغفران) نافدا وان كان نقده خياليا ٠ وله ـ مع ذلك ـ رسائل نقدية ، كرسالة نقد امرىء القيس والنابغة ، ونقده لأبى تمام فى رسالته (ذكرى حبيب) ، وللبحترى فى رسالته (عبث الوليد) ، وللمتنبى فى (معجز أحمد) ، ونحو ذلك ٠ فهو ناقد فلسفى دينى أدبى (٧٥) ٠ لكن الرسالة الأولى ليست ـ كما ذكر ـ فى نقد امرىء القيس والنابغة ، انما هى ـ كما أسلفت (٧٦) ـ فى نقد امرىء القيس خاصة ٠

وفى التناول الخاص :

نلتقى بأكثر من هؤلاء ، فى أكثر من دراسة علمية ، تخصصت اما فى أبى العلاء أو بعض آثاره ، واما فى موضوعات لها صلة بنقده ٠

وأول مانلتقى هنا بالدكتور **طه حسين** فى دراسته (ذكرى أبى العلاء) ، فقد نوه فيها بنقد المعرى فى موضعين ، ودافع به فى ثالث :

نوه به مرة فى كلامه عن نثره ، حيث عد من فنونه (النقد) ، وذكر أن له فيه ملكة قوية ، كونتها له دراسته للحياة ، وأخلاق الناس ، وتعمقه فى الدرس العلمى ، لا يعنى **النقد الأدبى** فقط ، بل يعنى **النقد الأدبى والعلمى** : وتمثله (رسالة المعرى الى أبى الحسين النكتى البصرى) ينقد فيها بعض شعره ٠ كما يعنى نقد **العادات والأخلاق وتقاليد** الناس ، وتمثله (رسالة الغفران) (٧٧) ٠

ثم نوه به مرة أخرى ، حيث عده من فنون علمه التى أتقنها ؛ استدل على ذلك بتلك المحاورات المسئمة التى أجراها بين ابن القارح والشعراء فى الجنة والنار ، وبما شاع فى عامة نثره من دقته فى النحو والصرف والاشتقاق (٧٨) ٠٠

---

(٧٥) النقد الأدبى ــ طبعة ثالثة ــ ص ٤٥٢ ٠
(٧٦) ص ٩٠ ــ ٩٢ ٠
(٧٧) تجديد ذكرى أبى العلاء ص ٢٢٠ ٠
(٧٨) المرجع السابق ٢٢٧ ، ٢٢٨ ٠

أما دفاعه به فحيث نجده فى اعتذاره عما عيبت به (اللزوميات) من تكلف مالا يلزم ، واصطناع الغريب ـ يجعل المعرى بكثرة حفظه وبصره بنقد الشعر جديرا أن يتجنب العيب والزلل ما استطاع (٧٩) ٠

وعلى الرغم من أن الدكتور طه حسين بهذه الدراسة قد لفت الكثيرين الى أبى العلاء ، فزاد من تناولهم له ولآثاره ، لم نجد لهم فى نقده غير تلك الاشارات العامة التى أسلفناها ٠

حتى اذا ظهر كتاب (عبث الوليد) سنة ١٩٣٦ رأينا الدكتور محمد حسين هيكل فى تقديمه له يعرف بالنقد فيه ، فيذكر أنه الكتاب الذى ألفه المعرى فى نقد شعر البحترى ، وأن العناية فى هذا النقد باللغة وعلومها بالغة حدا قد نحسبه اليوم مبالغا فيه ، وهو كثير فى نقد السابقين ، ثم يقرر أنه لم يقف على طريقة المعرى فى النقد الا مما اطلع عليه من هذا الكتاب ، لأن كتبه قد اشتملها النسيان ، وما اشتملت عليه رسالة الغفران من النقد لا يسهل عنده أن يتخذ مقياسا ، لأن غاية المعرى من تأليفها لا تجعل نقده للشعر وطريقة تناوله اياه واضحة (٨٠) ٠

وقريب من هذا التعريف ، بل تكرار له ــ فيما يبدو ــ ماذهب اليه الشيخ عبد العزيز البشرى ، بعد هيكل بقليل ، فى مقاله **(المعرى الناقد)** (٨١) ، من أنه لم يقع للمعرى على نقد مجتمع الشمل الا فى كتابه (عبث الوليد) فى نقد شعر البحترى ، ومن أنه رآه فى هذا النقد يصرف جل همه الى اللغة والعروض دون المعنى والأسلوب ، فلا يزيد على كلام هيكل الا بلحظه أن المعرى يترفق بالبحترى ، فيلتمس له المخرج مما يأخذه به ٠

---

(٧٩) المرجع السابق ٢٠٤ ٠

(٨٠) عبث الوليد ص ١١ ، ١٢ ٠

(٨١) مجلة الهلال يونيه ١٩٣٨ (عدد خاص بالمعرى) ص ٩٦٧ ٠

وبالنظر فى تعريف كليهما نلحظ بعدهما من وجوه :

أولها : أنهما يذكران (عبث الوليد) على أنه كتاب المعرى فى نقد شعر البحترى ، وانما هو – كما أسلفت – فى تصحيح نسخة منه ، وقع فيها المعرى على أخطاء ، بعضها من الناسخ ، وبعضها من البحترى، فنقدها ، ولو كان مؤلفا للنقد – كما فهما – مااقتصر على الأخطاء دون المحاسن ، كما فى شروحه الأخرى ...

وثانيها : أنهما – فيما يبدو – يأخذان على النقد فيه عنايته الزائدة باللغة وعلومها ، دون المعنى والأسلوب ، ولا مأخذ على المعرى فى هذا ، لأنه كما ذكرت لم يتجرد لنقد شعر البحترى ، فينظر اليه من جميع نواحيه ، كما فعل مع المتنبى وأبى تمام ، ومن ثم اقتصر على الدافع الأصلى ، وهو التصحيح ...

وعلى الرغم من أن الاتجاه اللغوى غالب فى الكتاب ، لانراه الطابع الوحيد فيه ، ففيه كثير من نقد المعنى ، وتفقد وجوه القبح والضعف فى مواقع الألفاظ ونظم الكلام . وفيه أيضا جديد لم يلحظاه ، من تحديد لعادات البحترى الخاصة فى التعبير ... (٨٢)

وقد أدرك بعض هذا – وخالف فيه هيكل – الدكتور محمد أسعد طلس فى تقديمه لشرح المعرى على ديوان ابن أبى حصينة (٨٣) .

وثالثها : أنهما – كما صرحا – لم يعرفا نقد المعرى الا من هذا الكتاب ، دون (الغفران) وسائر رسائل أبى العلاء ، على الرغم مما فيها من نقد أصيل .

فاذا مضينا بعد هيكل والبشرى ، وجدنا من التناول الخاص لنقد

---

(٨٢) انظر ص ٤٢٣ – ٤٢٦ .

(٨٣) ديوان ابن أبى حصينة – تحقيق د. محمد أسعد طلس – ١٢/١ ، ١٣ من المقدمه .

المعرى ماهو أرحب وأخصب ، حيث نلتقى فى العقد الخامس من هذا القرن ، وبعد المهرجان الألفى لأبى العلاء سنة ١٩٤٤ م ـ بالدكاترة : زكى المحاسنى ، وأمجد الطرابلسى ، وبنت الشاطىء فى دراسات خاصة عن أبى العلاء ٠٠ ثم نلتقى فى العقد السادس بمحمد سليم الجندى والدكتور عبد الرزاق حميدة ٠٠ وفى السابع بالدكتورين محمد شعيب ومحمود الربداوى ٠

أما الدكتور زكى المحاسنى :

ففى كتابه (أبو العلاء ناقد المجتمع) الذى صدر فى القاهرة سنة ١٩٤٧م عرض نقد المعرى الأدبى فى (الغفران) و (اللزوميات) من الوجهة الاجتماعية ، اذ عقد فصلين لذلك فى باب (**نقد المعرى لعلاقات الأقوال**) ٠

أولهما : (**صراط النقد**) : وقد تضمن رأيه فى نقد الغفران ، وأنواع هذا النقد من الوجهة الاجتماعية (٨٤) ٠

وثانيهما : :(نقد المعرى للأدباء والخطباء) (٨٥) ٠

أما رأيه فى نقد الغفران فهو شديد الاضطراب ، لأنه فى أول الفصل عده نقدا أدبيا رفيعا لأقوال الشعراء ومعانى الأدباء ومذاهب المفكرين ، بل عد ما أتيح لصاحبه من النقد الأدبى فاق حدود الوصف ، لقدراته التى ذكرها فى النحو واللغة والحفظ والتأليف والنظم الفلسفى (٨٦) ، ثم كان رأيه ـ بعد عرض هذا النقد ـ أن المعرى انساق فى نقداته هذه للشعراء والأدباءبنزوات متقطعات ، والسبب ـ عندهـفى اضطرابـطريقته الأدبية فى نقد الغفران آت من على بن منصور ، اذ قد شغله الأديب الحلبى ـ سامحه الله ـ بالكلام على أمور خارجة من نطاق الأدب ، داخلة فى حظائر الفلسفة وعلم الكلام(٨٧) ٠٠

---

(٨٤) أبو العلاء ناقد المجتمع ١٠٢ — ١١٠ ٠

(٨٥) المرجع السابق ص ١٢٠ ـ ١٢٣ ٠

(٨٦) المرجع السابق ص ١٠٢ ٠

(٨٧) المرجع السابق ص ١١٠ ٠

فكيف جاء هذا النقد رفيعا فاق حدود الوصف ، مع أنه مضطرب الطريقة ، أوحت به نزوات متقطعات ، على أن علة الاضطراب التى ذكرها ـ ان صحت فى النصف الثانى من الغفران ـ لا تصح فى النصف الأول .

وحين عرض هذا النقد المضطرب عرضه مجملا فى ثلاثة أقسام :

نقد الأدب الجاهلى من الوجهة الاجتماعية .

النقد الاجتماعى للأدب الاسلامى .

النقد الاجتماعى للأدب العباسى والأندلسى .

اذ أوجز فى القسم الأول مواقف الحوار النقدى مع النابغتين ولبيد والأعشى وامرىء القيس وعنترة وعلقمة .

ثم أوجز فى الثانى : مواقف الحوار مع حسان والحطيئة والخنساء والأخطل وبشار ..

ثم أوجز فى الثالث : آراءه حول أبى نواس وأبى تمام والمتنبى .

معلقا على بعض ذلك بالتفسير أو الاعجاب أو المؤاخذة . وكان ذوقه فى التفسير والاعجاب أدق منه فى المؤاخذة والمناقشة .

وأما (**نقد المعرى للأدباء والخطباء**) فقد أورد المؤلف منه نقده للأدباء عامة ، ثم للشعراء والخطباء خاصة ، لكنه اضطرب فى فهم بعض النصوص ، ذلك أنه حين أورد ذمه للأدباء بكذبهم ، ولصناعتهم بقلة ماتهب ، ولا سمهم بأنه من الأدب ، أى الدعوة الى الموت لا الى الطعام = عد قوله : « **ولم يزل أهل الأدب يشكون الغير فى كل جيل** ... » دمعة رثاء لهم (٨٨) .

---

(٨٨) المرجع السابق ص ١٢٠ ، ١٢١ .

فكيف يكون ذمه لهم مع رثائه لهم ؟

وحين قرر أن رأيه فى الشعراء ـ بعد الأدباء ـ كان أسوأ ، لأنه جعلهم فرقا لا تقتنى خيرا ، وسوى بين المتغزلين والقضاة الظالمين ، وشهد عليهم بقول الباطل وكذب المديح .

= حين قرر ذلك عده مترفقا بالشعراء ، لأنه منهم (٨٩) ، وهو فهم متناقض .

وحين عرض نقده للخطباء فهم من قول المعرى :

عَلَى الْوُلْدِ يَجنِى وَالِدٌ وَلوَأنَهُمْ   وُلاَةٌ عَلَى أمصارهم خُطَبَاءُ

أنه نقد للخطباء ـ أى ذم لهم (٩٠) ـ وانما هو نقد للتناسل ولو صار الولد خطيبا . ولعله فيه أقرب الى تعظيم الخطباء منه الى ذمهم .

وأما الدكتور أمجد الطرابلسى :

ففى كتابه (النقد واللغة فى الغفران) (٩١) أفرد الباب الثانى كله للنقد (٩٢) ، وكتابه ـ كما بين فى أوله ـ مجموعة دروس ألقاها على طلابه بكلية الآداب فى الجامعة السورية خلال العامين (٤٩/ ١٩٥٠م و ٥٠/١٩٥١م) راجيابها أنتلقى الضوء على شخصية المعرى العلمية ، التى قل حظها من عناية الباحثين كما تتجلى فى (الغفران) . وعنده أن المعرى فيها ناقد من الطراز الأول ، نشيط الفكر ذكى متمكن من أدوات النقد كل التمكن . ولكى يبين ذلك (فى الباب الثانى) تناول النقد فى (الغفران) على النحو التالى :

---

(٨٩) نفس المرجع ص ١٢١ .

(٩٠) نفس المرجع ص ١٢٢ .

(٩١) النقد واللغة فى الغفران ط مطبعة الجامعة السورية ١٣٧٠هـ ١٩٥١م .

(٩٢) والباب الثانى من ص ٣٧ الى ص ١٤٥ .

الفصل الأول : اراء نقدية عـامه ، فى تعريف الشعر ، وتجدد المعانى الشعرية ، والشعر للعرب دون سواهم •

الفصل الثانى : **المعرى والشعر الأسطورى** : يعنى آراءه فى الشعر المنسوب الى آدم عليه السلام ، والملائكة ، والبائدين من عـاد وثمود وغيرهم •

الفصل الثالث : **تحقيق الروايات** : يعنى روايات الشعر غير الأسطورى ، التى أنكرها المعرى ، والتى أثبتها ، والتى وجهها •

الفصل الرابع : **عين الرضـا** : يعنى اعجـاب المعرى ورضـــاه عن بعض الشعراء والقصائد •

الفصل الخامس : **عين السخط** : يعنى سخط المعرى على بعض الشعراء ، لقلة شأنهم أو شأن بعض قصائدهم •

الفصل السادس : **الأوزان الشعرية** : عرض فيه حيرة المعرى أمام الأوزان المضطربة للقدماء ، وموقفه من زحافاتهم المستثقلة خاصة •

الفصل السابع : **عيوب القافية** : ضمنه رأيه فى الاقواء خاصة ، ومثالا لعيبه السناد ••

الفصل الثامن : **النقد النحوى واللغوى** : يعنى موقفه من تأول النحويين واللغويين على الشعراء ، وتخريجهم بعض الأبيات على غير وجهها للاستشهاد بها ، كما يعنى موقفه من بعض التصرفات النحوية واللغوية المخالفة •

الفصل التاسع : **مكانة النقد الأدبى فى الغفران** : وفيه بين أن هذا النقد يتنوع الى عام وجزئى وتفصيلى ، وأن منه ماهو عـادى بالنسبة الينا والى عصره ، كانكار الشـعر الأسطورى ، ومنه ماهو طريف دقيق ، كتعريفه الشـعر ، وحديثـه عن الغريزة الشعرية ، وتعرضه لقضـية الأوزان المضطربة •

ومنه مايدل على حسن تفهمه للنصوص ، كتمحيص الروايات ، ومايدل على ذوق فنى تلم كحديثه عن شعر أبى تمام ، ثم هو بجملته يدل على اعتدال صاحبه ، واتساع ثقافته ، وبعده عن الشطط والاغراق .

لكنه – على سبقه واصابته فى كثير مما عرضه – لم يقدم دراسة علمية يعتد بها لأمرين :

أحدهما : تصريحه بأن الكشف عن قيمة هذا النقد لاتعنيه بمقدار ما يعنيه بيان كميته التى لو جمعت لبلغت ربع الرسالة تقريبا .

ثانيهما : غلبة الطابع المدرسى على عرضه ، واضطراب منهجه فى التقسيم ، وعدم استيعابه فى التناول .

أما الطابع المدرسى فواضح فى استكثاره من النصوص وايرادها برمتها ، ليبين كميتها كما ذكر ..

وأما اضطراب منهجه فى التقسيم فلأنه فى الفصل التاسع عد الفصول الخمسة الأولى كلها من النقد العام ، مع أنه خصص الأول منها بهذا العنوان (آراء نقدية عامة) ، على أنها ليست كلها من النقد العام ، لأن معظم ماذكره فى الفصل الرابع (عين الرضا) والخامس (عين السخط) = جزئى تفصيلى ، كاعجابه بمعانى أبى تمام وطريقته وبعض قوافيه ، وبصدق عاطفة المهلهل وتدفقها ، وكدفاعه عن تصغير المتنبى بعض معانيه ، وسخطه على أبى كبير الهذلى لتكرار المطلع ، وعلى الرجاز لاعتساف القوافى والافراط فى الغريب . ثم لا معنى لفصله (الشعر الأسطورى) عن (تحقيق الروايات) لأنه منها فى الصميم .

وأما عدم استيعابه جوانب النقد فى الغفران فلأنه لم يتناول من هذه الجوانب التى سبق اجمالها (٩٣) : مكانة الأدب ، وأثر الشعر وغايته عند

---

(٩٣) انظر صفة الغفران والنقد فيها فى الفصل الثانى ص ٧٠ .

المعرى ، ولأنه لم يحط بنقده للمعانى والصياغة والموسيقى الشعرية ولم يفصله كما ينبغى ، كما أنه لم يشر قط الى **الموازنات الواردة فى الغفران** على الرغم من **أهميتها** .

وأما الدكتورة بنت الشاطىء :

ففى دراستها لـ (رسالة الغفران) جعلت **القضايا النقدية والمسائل اللغوية** فيها ثالث معالمها الكبرى (٩٤) ـ بعد **الحياة الآخرة والزندقة** ـ بل هى عندها الموضوع الأول ، وان جاءت شتى متناثرة فى ثنايا الحديث عن الرحلة الى الآخرة ، أو الرد على ابن القارح (٩٥) .

لكن هذه القضايا النقدية ـ والمسائل اللغوية أيضا ـ لم تحظ منها بما حظى به المعلمان الآخران من الدرس والنقد المتأنيين ، حيث اكتفت بعرض نماذج لتلك القضايا والمسائل ، مبوبة فروعها أحيانا ، **كمسائل الشعر** (٩٦) ، **وقضايا النقد** (٩٧) ، ومبينة مذهبه فى بعضها اجمالا **كمذهبه فى نقد اللغة والنحو** (٩٨) ، **واسسه فى نقد السند والمتن** (٩٩) .

وقد عللت اقتصارها على هذا المنهج بأنها لم تتفرغ لهذه المسائل ، ولم تتخصص فيها ، وهى أحق بالدرس المفرد والتفرغ المختص (١٠٠) .

فاذا تناولت مسائل الشعر كان قصاراها عرض آراء المعرى تحت هذه العناوين الفرعية : **تعريف الشعر ، اختصاص العرب به ، أنـواع**

---

(٩٤) الغفران دراسة نقدية (ط٢ بدار المعارف ١٩٦٢) ١٩١ ـ ٢٦٤ .
(٩٥) المرجع السابق ١٩٢ .
(٩٦) المرجع السابق ٢٠١ ـ ٢١٣ .
(٩٧) المرجع السابق ٢٤٤ ـ ٢٦٤ .
(٩٨) المرجع السابق ٢١٩ .
(٩٩) المرجع السابق ٢٥٢ .
(١٠٠) المرجع السابق ١٩٤ ـ ١٩٦ .

البديه ، التلبية عند العرب ، درجات الشعر ومراتب الشعراء ، الشعر والرواة ، مسائل عروضية ، الموسيقى فى الغفران ٠

واذا تناولت قضايا النقد اكتفت ببيان قيمتها اجمالا وعرض أمثلتها تفصيلا حيث تقول : « لأبى العلاء هنا نظرات دقيقة فى فقه العربية ، ووزن الروايات ، وذوق الشعر ، ونقد المتن ، وهى تشهد بما كان له من دقة الملاحظة وسلامة الذوق الفنى وصفاء الحس اللغوى ٠٠ وقد تعرض أبو العلاء لكثير من القضايا الأدبية التى شغلت النقاد زمانا ، ومايزال منها مايشغلهم حتى اليوم ، **كمذهب أبى تمام ، والرواية ، والاستشهاد ، والانتحال ، وصناعة الأدب ، ولغة أهل الجنة ، كما** عرض لمسائل مفردة تتصل بالأدب وتاريخه ونقده مما نحاول أن نختار مثلا منها ٠٠٠ » (١٠١)

ولعل أجدر ملاحظات الدراسة بالذكر فى هذا المقام ، هو ملاحظاتها على مكان قضايا النقد فى الغفران ، وطريقة أدائها ، وصياغتها ٠

فقد لاحظت كما أسلفت أن هذه القضايا ــ والمسائل اللغوية ــ لم يات بها المعرى درسا متميزا أو موضوعا مفردا بحيث تلقاها مجتمعة فى مكان ، وانما ساقها شتى متناثرة فى ثنايا الحديث عن المرحلة الى الآخرة أو الرد على ابن القارح ٠٠ بل هى فضلا عن ذلك متداخلة ، فكثيرا مايتعرض أبو العلاء للمسألة الواحدة من ناحية اشتقاقها اللغوى ، واعرابها النحوى ، كما يتعرض لها ثانية من ناحية وزنها العروضى ، وثالثة من ناحية النقد الأدبى ٠٠٠ بحيث نضطر الى عرض المسألة مرة فى القضايا النقدية مثلا ، وأخرى فى الجانب النحوى (١٠٢) ٠

كما لاحظت ــ على طريقته فى الأداء ــ أنه لم يكن الناقد المباشر لما أبدى من النقد فى (الغفران) ، ولكنه أختار أديبا معاصرا له هو

---

(١٠١) المرجع السابق ص ٢٤٤ ٠

(١٠٢) المرجع السابق ص ١٩٢ ، ١٩٥ ٠

ابن القارح ليؤدى عنه آراءه النقدية ... كما اختار من بين الشعراء واللغويين أنفسهم من ينطق بلسانه ، ويناقش عنه ويجادل ويحاور ويحكم ، وتلك جديدة من أبى العلاء ... (١٠٣)

وعلى صياغة النقد التى غلب عليها الزخرف اللفظى لاحظت : « أن المعرى حين يتصدى للحكم فى قضايا أدبية متزن الرأى ناضج الفكرة سليم المنهج ... لكنه اذا انصرف الى صنعته اللفظية وعبثه بالجمل والكلمات شغله ذلك عن العناية بصحة المعنى والاكتراث بسلامة الفكرة ، وصدرت عنه مبالغات لا يسيغها الذوق ولا يقبلها المنطق ، كتعقيبه على ميمية النابغة الجعدى ، وحديثه عن شعر البشر على لسان الجنى الخيتعور ، ثم يمضى فى مبالغاته حتى يبعد » (١٠٤) .

وأما الأستاذ محمد سليم الجندى :

فقد تعرض لنقد أبى العلاء فى غير فصل من كتابه (الجامع فى أخبار أبى العلاء وآثاره) فنوه به فى مواضع ، وعرض بعضه فى أخرى .

نوه بتأثيره حين ذكر أن لأبى العلاء يدا طولى فى علم البديع والاشارة الى طرقه ، وأن لنقده أثرا كبيرا مهد السبيل للجرجانى والسكاكى ... (١٠٥)

ونوه بجدته حين عد من ابتكار المعرى فى الغفران : أقسام البديه ، وتعريف الشعر (١٠٦) ، وحين عد من مظاهر التجديد فى نثره (نقده) ، لأنه لا يعرف رسالة لأحد من المتقدمين تشتمل على مثل ما اشتملت عليه رسالتا الغفران والملائكة وجوابه الى النكتى ، من المباحث العلمية ،

---

(١٠٣) المرجع السابق ص ٧٦ .
(١٠٤) المرجع السابق ص ٦٢ .
(١٠٥) الجامع فى أخبار أبى العلاء ١/١٤٤ ، ١٦٦ .
(١٠٦) المرجع السابق ٢/٧٥٨ ، ٧٥٩ .

ونقد الألفاظ والمعاني ، والأوزان والقوافي ، ونسبة الأبيات والقصائد (١٠٧) .

ثم كان ماعرضه منه في الكلام عن (أغراض نثر المعري) ، و (أبو العلاء والشعر) .

ففي كلامه عن (أغراض نثره) عد منها النقد ، وأرجعه الى نوعين :

مايتعلق بمسائل العلم وآراء العلماء ، ومايتعلق بالأخلاق والعادات والمزاعم .

لكنه لم يصدر عن هذا التنوع فيما عرض ، انما صدر عن تنوع آخر ذكره خلال العرض ، وهو تنوع هذا النقد الى :

علمي : ما بني على قواعد علمية ... **وأدبي** : مابني على الذوق والغريزة ورعاية مقتضى الحال ...

فعرض في **العلمي** : نقد الألفاظ المفردة ، وزن اللفظ واشتقاقه ، نقد القراءات ، النقد النحوي والصرفي ، النقد في العروض والقوافي ، طريقته في اثبات الشعر ونفيه .

وعرض في **الأدبي** : آراءه في توجيه أبيات النابغة التي وصف بها المتجردة ، ومطلع حسان الخمري ، وتفسيره شعر ابن أحمر ، وانكاره صوت الجرادتين ، كما أشار الى تعريفه للشعر ، ورأيه في الرجز والرجاز (١٠٨) .

وفي كلامه عن (أبي العلاء والشعر) عرض تعريفه للشعر ، ورأيه في معاني الشعر ، ورأيه في الرجز والرجاز ، ورأيه في اختصاص العرب بالشعر ، ورأيه في شعر الملائكة والجن (١٠٩) ..

---

(١٠٧) المرجع السابق ٢/٨٩٥ .
(١٠٨) المرجع السابق ٢/٨٢٩ — ٨٩٢ .
(١٠٩) المرجع السابق ٢/٩٠٩ — ٩٣٠ .

وهو فى تناوله لهذا النقد كثيرا مايقدم أو يعقب بطريقة المعـــرى فيه ، وقد يحاول تأصيله وموازنته بغيره ، وقد يخلى برأيه ٠٠

لكن هذا التناول ـ على مايبدو من سعته وجهد المؤلف فيــه ـ ليس بالتناول العلمى المختص ، ولا الوافى فى التعريف بهذا الجانب الخصب ، لنقص استيعابه ، واضطراب منهجه ، وقلة تعمقه ٠

اما نقص استيعابه فلاقتصاره ـ من آثار المعرى النقدية التى أسلفناها ـ على (الغفران) و (الملائكة) و (اللزوميــات) و (رســـالته الى النكتى) ٠ ومع اقتصاره عليها لم يستوف موضوعات النقد فيها ، بـل لم يكد يتجاوز (الغفران) الا قليلا ٠ وبعض ماتركه من هذه الموضوعات ـ كرأيه فى غاية الأدب ، والتكسب به ، والصدق الفنى ، وإعجابه بالشعر الفلسفى والدينى ـ أدل على شخصية الناقد فى المعرى ، لأنها ممـــا اختص باثارته أو أفاض فيه كما أسلفنا ٠٠

وأما اضطراب منهجه فله مظاهر :

منها : أنه لم يخص النقد الأدبى الذى نعنيه بالتناول ، بل أخضعه لمنهج كتابه ، حيث أورد بعضه مع النقد العلمى فى الكلام عن (النقـد فى نثر أبى العلاء) ، وبعضه فى الكلام عن (أبى العلاء والشعر) ٠

ومنها : أن ما أورده فى الموضع الثانى مقحم ، لا صلة له بما قبله من رأى ابن خلدون فى شعر المعرى ، ولا بما بعده من رأيــه هــو فى الشعر ٠ وفصله عن الموضع الأول لا وجه له ، لأنه كله مما تناوله المعرى فى نثره ٠

ومنها : أنه في الموضع الأول لم يراع حدود التقسيم الى علـمى وأدبى ، فأورد فى العلمى صورا من الأدبى دون تبويب ، وقد اعترف هو بذلك (١١٠) ٠

---

(١١٠) المرجع السابق ٢/٨٧٨ ٠

ومنها : أنه ليس واضحا ولا مسلما بـه قصره النقد الأدبى على ما اهتدى اليه الذوق فقط دون ما استلهم فيه أصول العلم وقواعده ، وقد أصبحنا الآن لا نثق الا بالذوق المثقف العالم ، على أن اللغة وسلامتها ، والنحو ودلالته ، والموسيقى وايحاءها مما تجب رعايته واستغلاله فى العمل الأدبى ، فالنظر اليها فى التقويم من صميم النقد الأدبى مادامت من الأدب ومرعية فيه .

ومنها : أن تقسيمه النقد العلمى ليس دقيقا ، والا فما الفرق بين نقد الألفاظ المفردة ونقد وزن اللفظ واشتقاقه ؟ .

ومنها : أنه فى صدر الكتاب ذكر أن لنقد أبى العلاء أثرا فى تطور علم البديع سيأتى ثم لم يشر اليه بعد ذلك قط ، كما ذكر أنه مهد السبيل للجرجانى والسكاكى ولم يوضح كيف كان ذلك .

وأما قلة تعمقه فعامة فى كتابه ، شأن المؤلفات الموسـوعية التى يغلب فيها الامتداد الأفقى على الامتداد الرأسى ، حتى وجدناه يعتذر عن ذلك فى غير موضع ، ففى تناوله لنقد المعرى يعتذر عمـا يقتضيه التناول من التقسيم والتبيين وايراد النصوص بأن فى ذلك اطالة لا تسمح بها الرسالة (١١١) . ولعل من آثار ذلك فهمه أن المعرى يحد الرجز بما قلت حروفه وقصرت بيوته من تسميط عابه بذلك ، واقتصاره حين عرض لمقدمتى (السقط واللزوم) على احصاء خصائص المعرى النفسية فى الأولى ، والأمور التى ذكرها فى الثانية ، بما لا يكشف عن قيمة النقد فيهما ..

وأما الدكتور عبد الرزاق حميدة :

ففى كتابه (شياطين الشعراء) ـ وهو دراسة علمية طريفة لهذه الفكرة فى عصورها التاريخية : **الجاهلى ثم الدينى ثم العلمى** .

---

(١١١) المرجع السابق ٢/٨٣١ ، ٨٣٥ ، ٨٤٠ ، ٨٤٧ .

فى هذا الكتاب تناول الدارس رأى أبى العلاء فى (شـياطين الشعراء) من كلامه عنها فى (رسالتى : الشياطين و الغفران) وبعض شعره . فعد هذا الرأى قمة تطور الفكرة ، من ايمان بها فى الجاهلية - الى ضعفها والايمان بقوى النفس بدلها فى العصر العباسى (١١٢) .

لكنه على الرغم من عده هـذا الرأى قمة تطور الفكرة لم يكـد يستقيم حكمه عليـه حين عرضـه ، لأننـا نجده يعد المعـرى بما ورد فى (الغفران) (١١٣) منكـرا للفكـرة (١١٤) ، وبمـا فى شـعر (السـقط) (١١٥) من القـائلين بأن الشـعر طبـع وصـنعة لا وحى شياطين (١١٦) ، ثـم نجـده - حين عرض من (رسالة الشياطين) سـؤال المعـرى عن مصـدر شـعر النكتى : أجنى أم ملك - يعقب بان أبا العلاء لا يبدى رأيه بصراحة فى شياطين الشعراء ، وان كان يـراه أميل الى الانكار بقوله عمـا روى فيها : زعمـوا وادعوا ... (١١٧)

وكذلك حين عرض من (الغفران) مشهد الحوار بين ابن القـارح والجنى (الخيتعـور) فى شـعر الجن الذى جمعه المرزبـانى ووحيهم للانس = فهم أولا أن الغفران تكبر الجن وتعظم شأن أدبهم ، وتجعل ماجمعه المرزبانى هذيانا لا يعتمد عليه ، أما وحيهم الى شعراء الانس فلا يعد شيئا مذكورا ، ولا ينسب الى شاعر فحل من الجن . ثم قال بعد هذا الفهم : « وأرى أن أبا العلاء ينكر أشعار الجن التى جمعهـا المرزبانى ، ثم يسخر من فكرة شياطين الشعراء أيضا ، بسـبب قـلة

---

(١١٢) شياطين الشعراء ص ٢ .
(١١٣) انظر ص ١٤٥ فيما سبق .
(١١٤) شياطين الشعراء ص ٥٠ .
(١١٥) انظر ص ١٤٧ ، ١٤٨ فيما سبق .
(١١٦) شياطين الشعراء ص ٢١٩ .
(١١٧) المرجع السابق ٢٤٤ ، ٢٤٥ .

الأوزان التى يقال فيها شعر الانس ، وذلك لا يليق بهم ولا بما عندهم من آلاف أوزان ماسمع بها الانس » (١١٨) ٠٠

ثم أوجز تعقيبه على الرسالتين ، بأن المعرى فيهما يعرض الفكرة ويحاول أن ينقدها ، ويؤثر فى نقده أن يدور قليلا ولا يصرح بالانكار (١١٩) ٠

وأشد ما كان اضطراب حكمه عندما ذكر حديث المعرى ـ على لسان ابن القارح ـ لخازن الجنة ، ذلك الحديث الذى تضمن أن الشعر قرآن ابليس اللعين وأن بنى آدم تعلموه من الجان ، حيث عقب عليه بقوله : « وسياق هذا الحديث لايدل على الايمان بفكرة شياطين الشعراء ٠٠٠ وتلك حالة الشك التى تغلب على كثير من آرائه » (١٢٠) ٠

الا أنه عقب ذلك وازن بين أبى العلاء وسابقيه فى تناول الفكرة تناولا قصصيا ، فميزه عليهم ، اذ بينما رأى أبا زيد القرشى وبديع الزمان يعرضان الفكرة القديمة ، وابن شهيد ينتفع بها فى بيان فضله وافحام خصومه = رأى المعرى ذا آراء خاصة ، يتخذ من قصصه وأشعاره وسيلة لعرضها ، وعلى هذا كان رأيه نقديا ، فهو يسخر من الفكرة ويشك فيها ٠٠٠ (١٢١)

وأما الدكتور محمد شعيب :

فقد تعرض لنقد المعرى فى موضعين من دراسته (المتنبى بين ناقديه) :

أولهما : عند كلامه عن نقد القدماء للمتنبى ، لاستعماله عروض الطويل والرمل على الأصل غير مصرعين ، فقد أورد اعتذارا عن هذا

---

(١١٨) المرجع السابق ص ٢٤٦ ، ٢٤٧ ٠

(١١٩) المرجع السابق ص ٢٤٨ ٠

(١٢٠) المرجع السابق ص ٢٤٨ ٠

(١٢١) المرجع السابق ص ٤٨ ، ٤٩ ٠

الاستعمال من (معجز أحمد) المنسوب الى المعرى ، وحمل عليه بسببه حملة شديدة ، فاتهمه بتكلف الحجج والمعاذير عن المتنبى ، وبالغفلة عن معنى التصريع الاصطلاحى وهدفه الفنى ، ولم ترقه تلك الروح الدفاعية التى تجلت له فى أبى العلاء (١٢٢) .

ذلك كله دون أى نظر منه فى نسبة الكتاب ومدى الثقة بها . ولقد كان علينا أن نناقشه لو صح عندنا أن هذا الكتاب لأبى العلاء . لكن الصحيح كما أسلفت أنه لغيره (١٢٣) ، وأن المعرى فى كتابه الحقيقى ، وهو (اللامع العزيزى) قال عن استعمال المتنبى : « **ومثل ذلك مفقود فى شعر العرب ، والغريزة تنكره بعض الانكار** » (١٢٤) ، واذن فلا محل لحملة الدارس على أبى العلاء ، ولا لتجنيه عليه بما لم يقل ، ولا لمناقشة انهاماته التى بناها على غير أساس سليم ، وكان أليق به أن يتحرى صحة مصادره قبل التعرض لأصحابها .

وثانيهما : عند كلامه عن رأى القدماء فى (**ألفاظ المتنبى واساليبه**) ، حيث وجد اختلافهم فيهما واسع المدى ، ووجد أبا العلاء — من بينهم — ينزههما عن مظنة العيب ، ويرى أن ألفاظ المتنبى بلغت من الدقة وحسن الاختيار منزلة يستحيل عليك معها أن تغير كلمة من كلماته بسواها ، ثم تبقى للأسلوب طلاوته ورقته التى كانت له قبل هذا التغيير ، يقول الدارس :

« وهذا رأى أبى العلاء المعرى الذى أغمض عينيه عن كل مايشعر المتنبى من مآخذ (؟) ، **وروى الواحدى عنه تلك الرواية : « وقرأت على أبى العلاء المعرى ، ومنزلته فى الشعر ماقد علمه من كان ذا أدب ، فقلت له يوما فى كلمة : ماضر أبا الطيب لو قال مكان هذه الكلمة كلمة أخرى**

---

(١٢٢) المتنبى بين ناقديه ص ٧٨ ، ٧٩ ، ٢٦٥ .
(١٢٣) انظر ص ١١٩ — ١٢٣ .
(١٢٤) الموضح ٢/٨٤ .

أوردتها ، فأبان لى عوار هذه الكلمة التى ظننتها ، ثم قال : لا تظن أنك تقدر على ابدال كلمة واحدة من شعره بما هو خير منها ، فجرب ان كنت مرتابا . وها انذا اجرب ذلك منذ العهد ، فلم اعثر بكلمة لـو أبدلتها أخرى كان أليق بمكانها ، وليجرب من لم يصدق يجد الأمر على ما أقول » .

ثم يعقب على هذه الرواية التى أثبتناها ـ على سبقها (١٢٥) ـ من أجل المناقشة بقوله :

« ولا تخدعنا هذه العبارة ، لصدورها عن أديب عالم ذى وقـار ورأى ، فنحن نعلم مدى تعصب المعرى للمتنبى ... وكم أعمى الحب عن رؤية الحقيقة ، وحجب الفكر عن ادراك الواقع ، أو سول له الأمر وبرره ، وخلق له المعاذير والأسانيد » (١٢٦) .

وبالنظر فى هذا الكلام نرى أن الدارس لم يكن دقيقا فى تناوله ولا فى أحكامه ، ذلك أنه اذا كان فى الموضع السابق لم يستوثق من مصدره فتجنى على أبى العلاء بما لم يقل ـ فهو هنا لم يذكر الرواية على وجهها الصحيح ، اذ نقل من شرح الواحدى للمتنبى أنه **« روى عن أبى العلاء . وقرأ عليه »** ، وهذا مالم يقل به أحد ، لا فى هذا النص ولا فى غيـره فيما نعلم ، بل لم يذكر الواحدى ذلك فى ثبت شيوخه الذى كان مهتما بأيراده فى صدور كتبه (١٢٧) ، انما الذى روى ذلك وقرأه على أبى العلاء ـ كما ذكر الواحدى ـ هو ابن فورجة ، وحتى هذا لم يرو عنـه الواحدى مباشرة ، بل نقل فقط كما يبدو من سياق كلامه (١٢٨) .

---

(١٢٥) فى ص ٥٢٥ .

(١٢٦) المتنبى بين ناقديه ص ٨٤ ، ٨٥ .

(١٢٧) انظر معجم الأدباء ١٢/٢٥٧ ، ٢٧٠ .

(١٢٨) شرح الواحدى (ط برلين) ١/٢٧٧ .

و [illegible] ان تخرج الرواية [illegible] في اعتبار الاسباب العلمية أدعى الى الثقة بالدارس وبأحكامه .

وعلى أن هذه الملاحظة لا تنقض الرواية ، بل تدعمها وتصححها = لا نراها تصلح أساسا لهذا الحكم العام الذى أصدره الدارس على أبى العلاء ، من أنه ينزه المتنبى عن مظنة العيب فى ألفاظه وأساليبه ، وأنه الذى أغمض عينيه عن كل ما يشعر المتنبى من مآخذ ، فعاب المعرى بما يعاب هو أيضا به ، من تعميم لم يبنه – كما ينبغى – على استقراء تام .

أما سبب هذا الحكم من المعرى فلعله ثقته بأن للمتنبى لغته الخاصة ، أو بأن ابن فورجة دون ما أراد كما أسلفنا ، أو لعل السبب – كما ذهب الدارس وغيره – هو تعصب المتعصبين على المتنبى .

لكن لاتظن أنه كل ماقال المعرى فى (**الفاظ المتنبى وأساليبه**) كما ظن الدارس أو كما يفهم من كلامه ، بل هو – كما وجدت واستقرأت – واحد من عشرات الأحكام التى أصدرها المعرى عليها فى جملة كتبه ، لاسيما (اللامع العزيزى) الذى بقى أكثره (١٢٩) .

ولو قدر للدارس أن يرى مآخذ المعرى هنالك على (**ألفاظ المتنبى** وأساليبه) ماحكم عليه أنه الذى أغمض عينيه عن كل مايشعر المتنبى من مآخذ ، وأنه ممن أعماه الحب عن الحقيقة ، وحجب فكره عن ادراك الواقع ، ولعلم أن المعرى حين قال ما قال لابن فورجة ، قد كشف عن سر من أسرار اعجابه بهذا الشاعر العظيم ، وهو تلك اللغة الخاصة التى نوه بها وبين خصوصيتها فى غير موضع (١٣٠) .

---

(١٢٩) انظر : نقد المعرى للغة النصوص فى الفصل الثالث .

(١٣٠) انظر ص ٢٢٦ ، ٢٢٨ ، ٤٢٧ ، ٤٢٩ فيما سبق ، والرسائل ص ٦٨ وشرح التبريزى لأبى تمام ٢٦٧/٢ .

لكنه اعجاب البصير الذى لم يعمه الحب عن الحقيقة ، فقال فى الموضع المناسب كل مأخذه على تلك اللغة ، الى الحد الذى جعل بن معقل المهلبى صاحب (المآخذ على شراح ديوان المتنبى) يضيق بهذه الملاحظات ، ويعارض المعرى فى كثير منها (١٣١) .

والعجيب أن الدارس ذكر هذا الكتاب ـ كما ذكر (النظام) لابن المستوفى ـ بين مراجعه ، ولا يبدو أنه استفاد منهما شيئا ، أو اطلع فيهما على شىء من آراء المعرى فى ألفاظ المتنبى وغيرها ، مما عارضه وناقشه المهلبى .

وأما الدكتور محمود الربداوى :

ففى دراسته (الحركة النقدية حول مذهب أبى تمام) عرض نقد أبى العلاء لأبى تمام فى الباب الثالث (١٣٢) ، ثم تتبع أثره فى اللاحقين وموقفهم منه فى الباب الرابع (١٣٣) .

وماعرضه من هذا النقد يبين **منزلة الطائى ومذهبه وشعره** عند المعرى ، ولا يخرج فى جملته عما ورد عن هذه الجوانب فى **(الغفران)** ، و (ذكرى حبيب) وكتابى : (نصرة الثائر) للصفدى ، و (الصبح المنبى) للبديعى .

فقد فهم من رأيين للمعرى وردا فى الأخيرين أن الطائى يحتل الدرجة الثانية عنده بعد المتنبى ، وأنه مع ذلك يعجبه ويحظى بنقده لمذهبه فى أكثر من كتاب من مصنفاته ، تلك المصنفات التى نظر منها الباحث أولا الى (الغفران) ، حيث ذكر تلخيصه لمذهبه فيها ـ

---

(١٣١) انظر المآخذ ١٠٧ أ ١٠٨ أ ٠ ، ١٢٧ ب ، ١٣٦ أ ، ١٧٤ أ ب

(١٣٢) الحركة النقدية حول مذهب أبى تمام ٤٤١ — ٤٥٥ .

(١٣٣) المرجع السابق ٤٨٧ — ٤٨٩ ، ٥٤٥ ، ٥٤٦ ، ٥٦٥ .

« أنه كان صاحب طريقة مبتدعة ، ومعان كاللؤلؤ متتبعة ، يستخرجها من غامض بحار ، ويفض عنها المستغلق من المحار » ، مبينا أنه خير تلخيص لهذا المذهب بعبارات موجزة مركزة ، لايظن أن ناقدا لخصه بأوجز منها .

ثم ذكر مشهد الحوار الذى أداره المعرى بين ابن القارح وعنترة — فى الجحيم — حول تجدد المعانى ، ومذهب أبى تمام (١٣٤) ، وانتهى منه الى أن المعرى من أنصار تجدد المعانى كما فكر الطائى لانفادها كما فكر عنترة ، والى أنه يلخذ على أبى تمام كثرة الاستعارات ، وأنه ردد هذه الفكرة فى شعره فقال :

وجدت عوارى الحياة كثيرة   كأن بقاء المرء شعر حبيب

وهنا أشار الى أن المعرى كان يعنى باستخراج هذه الاستعارات من شعره ويدل عليها ، ويكثر من قوله « هذه استعارة » .

ثم نظر — بعد (الغفران) — الى (ذكرى حبيب) ، أعنى مابقى منه فى (شرح التبريزى لأبى تمام) ، و (النظام) لابن المستوفى =

فوجد أن المعرى يسلم للطائى بقوته فى اللغة ، بل يتجاوز فى ثقته الى تخطئة من خطأه من النقاد ... وأنه يجتهد فى تنقية ديوانه مما لحقه من تصحيف وتحريف ، بتقليب الألفاظ على وجوهها المختلفة من جهة ، والنقل عن ثقات الأدباء من جهة أخرى ، والنظر الى مذهبه الخاص من جهة ثالثة .. وأنه من كثرة مدارسته لشعره وضع يده على المبتكر من معانيه واستعاراته التى لم يسبق اليها .. وأنه قد أعجب بدقة أبى تمام وتفريقه بين المعانى .. وأنه يعد من مصطلحات النقد بعض ما أصبح من بعده من مصطلحات البلاغة كالتورية وجناس المقاربة ، وأنه كان رفيقا فيما تعرض له من هنات الطائى فى العروض والنحو والاستعارة .

---

(١٣٤) رسالة الغفران ص ٣١٥ .

وحين تتبع أثر هذا النقد فى اللاحقين لاحظ أولا أن التبريزى قد تأثر بشيخه أبى العلاء : فى تسليمه بقوة الطائى فى اللغة ، وبأن الاستعارة عادته ، وفى استناده فى التفسير الى مذهبه ، وفى عده بعض مصطلحات البلاغة من النقد ، وفى حملته على الصولى وتسخيفه لشرحه ، وتعقيبه الدائم على نقده • ثم لاحظ ثانيا أن ابن المستوفى فى (النظام) وافق المعرى فى بعض هذا النقد وعارضه فى آخر ••• وأن النقاد فى العصور المتأخرة رددوا بعضه أيضا دون نسبته الى المعرى ••

هكذا تناول الدارس (نقد أبى العلاء لأبى تمام) • وعندى أنه كان أكثر المتناولين لهذا النقد توفيقا فى فهمه وتفسيره ، كما كان المعرى أحظى من تناولهم فى دراسته ـ أو من أحظاهم ـ بثقته واعجابه ، ففضلا عن اشادته به وببعض نقده ـ كما رأينا ـ لم نجده قط يعترض عليه أو يخطئه ، كما فعل مع كثيرين غيره خلال دراسته ، لكننا على الرغم من ذلك نأخذ عليه :

أولا : أنه لم يستوف نقد المعرى لأبى تمام ، حين أغفل عمدا او سهوا رأيه الهام فى (عبث الوليد) ، عن أستاذية الطائى للبحترى فى اللغة التى تقرى أثره فيها ••• (١٣٥)

ثانيا : أنه بعد ـ كما أسلفت (١٣٦) ، فى فهمه أن المعرى يأخذ على الطائى كثرة الاستعارات ، ويردد فكرة هذا المأخذ فى قوله :

وَجَدتُ عَوَارِيَّ الحياة كثيرة ... كأن بَقاء المرْءِ شِعرُ حَبِيبِ

ثالثا : أنه بعد أيضا فى ظنه أن المرزوقى قد اقتبس كراهيته للصولى من شيخه المعرى (١٣٧) ، لأن المرزوقى أقدم من المعرى ، ولم يثبت أنه أخذ عنه أو قرأ عليه •

---

(١٣٥) انظر ص ٤٢٥ •

(١٣٦) انظر ص ٣٤٩ •

(١٣٧) الحركة النقدية حول مذهب أبى تمام ٤٨٩/١ •

هكذا كان تناول السابقين لنقد أبى العلاء على مدى عشرة قرون تقريبا .

كان تناولا جزئيا لم يقصد قط الى جملة هذا النقد ، انما اقتصر على بعض الآراء أو بعض المصادر ، فضلا عن اجمال بعضه فى المجال التاريخى قديما والدراسات العامة حديثا . الا أن ثمة اختلافا نلحظه فى أمرين :

احدهما : أن هذا التناول كان على سبيل التاثر عند أكثر القدماء ، لأننا اذا استثنينا ابن معقل بتوفره على نقد (اللامع العزيزى) وجدنا متوخاهم أن يقتبسوا بعض آراء المعرى أو يستشهدوا بها على ماتصدوا له من شروح للشعر أو مؤلفات فى الأدب ، على حين نجد أكثر المعاصرين لم يتعرضوا لما تعرضوا له فى المجالين العام والخاص الا للدلاله عليه والتعريف به .

والآخر : أن الشروح كانت أحظى به فى القديم ، والرسائل تبدو أحظى به فى الحديث .

وآية ذلك فى القديم أننا نجد : **(اللامع العزيزى)** : معتمد الكثيرين فى شرحهم للمتنبى أو دراستهم لشرحه ، لا سيما الواحدى ، والتبريزى ، وابن معقل ، وابن المستوفى . و **(معجزأحمد)** : موضع التنويه والاستفادة من بعضهم ، كابن خلكان وابن أبى الأصبع . و **(ذكرى حبيب)** : مع تنويه ابن خلكان به = كان مصدر التبريزى فى شرحه لأبى تمام ، وابن المستوفى فى كتابه (النظام) . و **(ضوء السقط)** : مع أنه كان مصدر التبريزى فى شرحه للسقط = تعرض له البطليوسى والخويى أيضا و **(الرياشى المصطنعى)** : كان المعتمد الأول للتبريزى فى شرحه لديوان الحماسة .

نجد ذلك كله بالنسبة الى هذه الشروح ، ولا نجد معه من تعرض للنقد فى رسائله أى تعرض .

فاذا صرنا الى العصر الحديث وجدنا (الغفرا ن) ثم (رسالته الى النكتى) على الرغم من خمولهما فى القديم ـ أخص ماتعرض لـه المعاصرون فى المجالين العام والخاص .

وقد نجد لغيرهما ـ لا سيما (عبث الوليد) و (معجز أحمد) و (ذكرى حبيب) و (اللزوميات) ـ حظا من هذا التعرض ، لكنه فى الحقيقة دون ماحظيت به هاتان الرسالتان .

على أن السابقين الى نقد أبى العلاء ـ وان أصابوا فى فهم وتقويم ماعرضوه كثيرا ـ كانت لهم أيضا زلات كثيرة ، أتينا على جملتها وبينـا وجه الحق كما نراه فيها .

خاتمة

وقبل أن نضع القلم ــ بعد سنوات من الجهد المضنى والتفكير المتصل فى البحث عن (الناقد الأدبى فى أبى العلاء) ــ ينبغى لنا أن نتوقف قليلا لنراجع حساب هذه السنوات ، وننظر ماذا أثمرت والام انتهت فنقول :

اننا بعد ألف سنة تقريبا من حياة أبى العلاء ، يمكننا لأول مرة أن نضيف الى المعروف من صفاته صفة (الناقد للأدب) . لا نضيفها اجمالا أو توهما أو تقليدا ، كما أضيفت وقيلت فى بعض الأحيان ، بل نضيفها بعد دراسة شاملة لجميع ما وصلت اليه اليد وأمكن منه البحث من آثاره وأقواله .

ولما كانت غاية هذه الدراسة أن تحقق الصحيح من أمر هذه الصفة ، أو بعبارة أخرى أن تجيب عن السؤال المتردد : هل كان أبو العلاء ناقدا للأدب وعلى أى وجه كان نقده ؟ كانت خطة منهجها على النحو الذى بيناه فى المقدمة ــ من الكشف عن **عوامل تكوين** الناقد فى أبى العلاء ، **فمصادر نقده ، فاتجاهاته وخصائصه ، فاصدائه فى أدبه** ، فحيزه فى **الدارسين** ..

ان هذا المنهج ــ كما ترى ــ يعنى فوق ماذكرنا فى المقدمة أننا لم نأخذ (الناقد الأدبى فى أبى العلاء) بالتسليم المطلق ، بل بالافتراض القائم على التساؤل ، حتى بدا كل فصل كانه اجابة عن هذا التساؤل

بوجه من الوجوه ، لكنها اجابة فى اطار محكم كان الكشف عن جـذور الاستعداد وعوامل التكوين بالطبع أولها ، حتى اذا وثقنا بذلك كـان التساؤل عن الآثار النقدية والكشف عما بقى وصحت نسبته منها ، حتى اذا وثقنا بكفاية هذه الآثار عمدنا الى جمعهـا من شـتات على مشقته ، وتصنيفها فى اتجاهات على صعوبته ، واستكناه خصائصها وما هو جديد منها .. ثم كان النظر ـ بعد ذلك ـ الى أدبه ، لأنه فى الواقع من آثار ذوقه ، والى آثار الدارسين لاستيضاح موقفهم من هذا الذوق .

عن هذا المنهج القائم على (الشك والاثبات) صدرت ، فأمنت كثيرا من فضول القول ، واضطراب التفكير ، وزخرف الأسلوب .

وبه التزمت ، فانتهت الى نتائج أرجو أن يكون لها أثرها فى الثقة بالناقد الأدبى فى أبى العلاء من جهة ، وفى توجيه الدراسات العلائية خاصة من جهة أخرى ... من هذه النتائج :

أولا : تحقيق الطبيعة الذوقية لأبى العلاء ، وقد كانت ـ كمـا أوضحت فى الفصل الأول ـ طبيعة مركبة من عناصر تكوينه المتعـددة ، واذا كان من مزايا هذا التحقيق ـ ومن مشاقه أيضا ـ أنه قادنا الى دراسة شخصية أبى العلاء من جميع جوانبها ، فانه بهذا قد جنبنا كثيرا من الأخطاء التى لم يسلم منها كثيرون فى الفهم والتفسير والتقويم .

ثانيا : التوصل الى أن أبا العلاء لم يكن كغيره من الشعراء والكتاب النقاد ذا لمحات نادرة ، وأحكام مبتسرة مجملة ، أو الفلاسفة النقـاد ، قد أفسد ذوقه المنطق ، ونحا به الى التقعيد والتقنين ، أو اللغويين النقاد قد استأثر باعجابه القديم ، وينقده الجانب اللغوى .

لم يكن كأى من هؤلاء ، بل كان على الرغم من أصالة الشـاعر والكاتب والفيلسوف واللغوى فيه ذا ذوق مرهف ، ونظرة عادلة الى القديم

والمحدث ، وتناول شامل لعناصر النص الأدبى من جهة ، ولغايته أو الدافع اليه من جهة أخرى ، ومنهج فى التذوق والنقد من أخص المناهج بالعملية النقدية ، هو المنهج التطبيقى فى التفسير والتقويم ، ذلك المنهج الذى يقوم على دراسة النص الأدبى للدلالة على مافيه والحكم عليه .

كما كان - مع ذلك - متميزا عن سابقيه فى كثير من مقاييسه وقيمه واتجاهاته على ماشرحناه وفصلناه فى الفصل الثالث .

ثالثا : على أن أصالة نقده لم تكن بما عرضناه فى هذا الفصل فحسب - وهو كثير كاف - بل كانت أيضا بتطبيقه لأكثر مبادئه فى أدبه ، لاسيما التسامى والصدق والالتزام بقضايا المجتمع ، تلك التى كان أدبه بها عاليا فى ذكره ومضمونه على ما تتبعنا وبينا فى الفصل الرابع .

رابعا : تحقيق القول فيما نسب اليه من تعصب للمتنبى وتعصب على ابن هانىء ، والخلوص من ذلك الى أنه مجرد اعجاب بالأول وعدم اعجاب بالثانى ، معتمدين فيما قررنا على ما تبينا من أسس ذوقه وما يؤثره وما لا يؤثره .

خامسا : تحقيق القول فيما نسب اليه من معارضة القرآن بـ (الفصول والغايات) تحقيقا مبنيا على مكانة القرآن من نقده عموما ، وعلى رأيه فى نظمه واعجازه خصوصا ، ومنتهيا الى نفى ذلك من الناحية الذوقية خاصة ، وهى ناحية لها دلالتها العميقة فى هذا المجال .

سادسا : الكشف عن وجه الصواب فيما أخطأ فيه السابقون سبيل الفهم أو التفسير أو التقويم لما تناولوه من نقد أبى العلاء ، وهو ما تضمن أكثره الفصل الخامس ، وانتثر بعضه فى الفصل الثالث .

سابعا : الكشف عما زيف عليه مما ليس له ، وعن بعض ما احتواه النسيان من مؤلفاته الحقيقية ، كشفا لم يفدنا فقط ، بل صحح الكثير من

أحكام الباحثين عنه ، وييسر لهم مادة جديدة لمزيد من التعرف عليه ودراسته على مابينا فى الفصل الثانى .

ثامنا : واذا كان لا يسعنا القول بأننا استقصينا جوانب المعرى أو مؤلفاته بالتعميق والدرس لالتزامنا بموضوع بحثنا = فانه يسعنا أن نوجه الدارسين ومحبى أبى العلاء خصوصا الى ما نأمل تفرغهم له وكشفهم عنه ، فيما هم بصدده من دراسات .

فللمهتمين بالدراسات اللغوية نقول :

انكم - مع أبى العلاء - أمام نحوى لا كالنحاة فى الوعى بالقواعد ، ومحاولة تطبيقها ، مما كان قصارى الكثير منهم ، بل أمام نحوى محيط بالنحو وبسيرة أصحابه ، وناقد لأكثر ذلك ومجدد فيه .

ثم أنتم - مع أبى العلاء - أمام لغوى من طراز آخر أيضا ، طراز من كان يحفظ مايمر بسمعه ، ولا يحفظ شيئا فينساه ، وأديب لم يدع شاردة ولا واردة مما حفظ الا صبها فى قوالب أدبه ، ثم ناقد متتبع للعيوب ومفتش عن الأسرار ، ومجدد فى كثير ، مما كانت لغويته به أظهر وأعمق مما ظهر به أصحاب المعاجم على اختلافهم .

وللمهتمين بالدراسات الأدبية والنقدية أقول :

انكم - مع أبى العلاء - أمام أديب ذى لغة خاصة ، هى بحاجة الى دراسة لا أظن واحدا بمفرده يستطيع أن يستقل بها .

ثم أنتم - مع بعض كتبه - أمام مجال للدراسة خصيب ، خصوصا كتاب (الفصول والغايت) ، الذى صد عنه الباحثون حتى الآن ، رهبة من أبى العلاء ، أوجهلا بقيمته ، وهو من الأهمية بمكان ، انه تمثيل

لنفس يائسة حزينة جائرة الى الله ، هى نفس أبى العلاء عند اعتزاله الدنيا الى سجنه العتيد ٠

وبعد ٠ فلعلى بما اتبعت من منهج ، وكشفت عنه من نتائج ، لم أتنكب الطريق ولم أخطىء الصواب ، حتى يكون ماقدمت مثالا طيبا للدراسة المنهجية الجادة والجديدة ٠ وماتوفيقى الا بالله عليه توكلت واليه أنيب) ٠

أهم المصادر والمراجع

(أ) مخطوطات ومصورات :

- ارتشاف الضرب : أبى حيان الأندلسى ـ مخطوط بدار الكتب المصرية ٨٢٨ نحو ٠

- بغية الطلب فى تاريخ حلب : (١ ـ ٦) لابن العديم ـ مصور بمعهد المخطوطات العربية ٩٠ تاريخ ٠

- تاريخ دمشق : لابن عســاكر ـ مخطوط بمكتبة الأزهر ١٠٦٧٠ تاريخ ٠

- التنبيهات على أغاليط الرواة : لعلى بن حمزة البصرى ـ مصـور بدار الكتب ٤٥٤٧ هـ٠

- تهذيب اصلاح المنطق : للتبريزى ـ مخطوط بدار الكتب ٥٧٠٧ هـ٠

- خمس رسائل : لأبى العلاء المعرى ـ مخطوط بدار الكتب ٢٨ أدب شنقيطى ٠

- الرسالة الاغريضية وتفسيرها : لأبى العلاء المعري ـ فى مصـور بمعهد المخطوطات ٧٨٧ أدب ٠

- رسالة الوزير المغربى الى أبى العلاء وأخيه ـ فى مصـور بمعهد المخطوطات ٧٨٧ أدب ٠

- ضؤ السقط : لأبى العلاء المعرى - مصور من المكتبة الأهلية بباريس .

- اللامع العزيزى المنسوب الى أبى العلاء - مخطوط بدار الكتب ٤٦١٩ أدب طلعت .

- المآخذ على شراح ديوان المتنبى : لأحمد بن على بن معقل الأزدى - مصور بمعهد المخطوطات ٧٠٣ أدب .

- مختصر اصلاح المنطق : لأبى القاسم المغربى - مصور بدار الكتب ٧٦٢٧ أدب .

- معجز أحمد : المنسوب الى أبى العلاء المعرى - مخطوط بدار الكتب - جزآن فى مجلد - ٢٥ أدب قولة .

- نسخة أخرى مصورة للجزء الثانى بدار الكتب ٤٢٤٠ أدب .

- نسخة ثالثة مصورة للجزء الثانى بدار الكتب ٤٢٤٦ أدب .

- نسخة رابعة مصورة بمعهد المخطوطات ٧٧٧ أدب .

- نسخة خامسة مصورة بمكتبة جامعة القاهرة ٢٢٩٧٧ أدب .

- الموضح شرح ديوان المتنبى : (١ - ٣) للتبريزى - مصور من المكتبة الأهلية بباريس .

- نصرة الثائر على المثل السائر : للصفدى - مخطوط بدار الكتب ٣٨٣ بلاغة تيمور .

- نضرة الاغريض فى نصرة القريض :للمظفر العلوى - مخطوط بدار الكتب ١٧٦١٠ ز .

ـ النظام فى شرح شعر المتنبى وأبى تمام : لابن المستوفى ـ الجزء الأول فى مجلدين بدار الكتب ١٠٦٤٠ ز .

(ب) مطبوعات للقدماء :

ـ أحكام صنعة الكلام : للكلاعى الأندلسى . تحقيق محمد رضوان الداية بيروت ١٩٦٦ .

ـ احياء علوم الدين : للغزالى . دار الشعب ١٩٦٩ .

ـ أخبار العلماء بأخبار الحكماء : للقفطى . طبعة الخانجى ١٣٢٦ .

ـ أساس البلاغة : للزمخشرى . دار الشعب ١٩٦٠ .

ـ الاستدراك على ابن الدهان : لضياء الدين ابن الأثير . تحقيق د. : حفنى شرف . الأنجلو ١٩٥٨ .

ـ أسرار البلاغة : لعبد القاهر الجرجانى ط ٦ . صبيح ١٩٥٩ .

ـ الاشتقاق : لابن دريد . مطبعة السنة المحمدية ١٩٥٨ .

ـ الأغانى : لأبى الفرج الأصفهانى (١ ـ ٢٤) طبعة دار الكتب ١٩٢٧ ـ ١٩٦٢ .

ـ الأمالى : لابن الشجرى . حيدر آباد الدكن ١٩٤٩ .

ـ انباه الرواة : للقفطى (١ ـ ٤) تحقيق الأستاذ محمد أبى الفضل ابراهيم . دار الكتب ١٩٥٠ ـ ١٩٧٣ .

ـ الانتصار ممن عدل عن الاستبصار : للبطليوسى . تحقيق د. حامد عبد المجيد . الأميرية ١٩٥٥ .

- أوج التحري : للبديعي . تحقيق الأستاذ ابراهيم الكيلاني . دمشق ١٩٤٤ .

- بديع القرآن : لابن أبى الاصبع . تحقيق د. حفنى شرف . نهضة مصر ١٩٥٧ .

- بين أبى العلاء وداعى الدعاة الفاطمى . المكتبة السلفية ١٩٣٩ .

- تاج العروس : للزبيدي (١ - ١٠) المطبعة الخيرية بمصر ١٣٠٧ .

- تاريخ الطبرى (١ - ١٠) : تحقيق الأستاذ محمد أبى الفضل ابراهيم . دار المعارف ١٩٦٠ .

- تأويل مشكل القرآن : لابن قتيبة . تحقيق الأستاذ السيد صقر . دار التراث ١٩٧٣ .

- التبيان فى شرح الديوان : المنسوب الى العكبرى . تحقيق السقا والابيارى وشلبى . مصطفى الحلبى ١٩٥٦ .

- تحرير التحبير : لابن أبى الاصبع . تحقيق د. حفنى شرف . ط. المجلس الأعلى للشئون الاسلامية ١٩٦٣ .

- تعريف القدماء بأبى العلاء : عمل لجنة احياء آثار أبى العلاء . دار الكتب ١٩٤٤ .

- التنبيه على حدوث التصحيف : لحمزة بن الحسن الأصفهانى . تحقيق د. محمد أسعد طلس . دمشق ١٩٦٨ .

- تهذيب تاريخ دمشق (جـ٤) : للشيخ عبد القادر بدران . دمشق ١٩٣١ .

- جذوة المقتبس فى ذكر ولاة الأندلس : للحميدى . الدار المصرية للتأليف ١٩٦٦ .

- الجمهرة لابن دريد . حيدر آباد الدكن ١٣٤٤ ـ ١٣٥١ هـ .
- حسن التوسل الى صناعة الترسل : للشهاب الحلبى . مطبعة هندية ١٩١٥ .
- الحيوان : للجاحظ (١ ـ ٧) تحقيق الأستاذ عبد السلام هارون . مصطفى الحلبى ١٩٦٥ .
- خزانة الأدب : للبغدادى (١ ـ ٣) تحقيق الأستاذ عبد السلام هارون . دار الكتاب العربى ١٩٦٧ .
- خزانة الأدب الكبرى : لابن حجة الحموى . المطبعة الأميرية ١٢٩١ هـ .
- الخصائص : لابن جنى (١ ـ ٣) تحقيق الشيخ محمد على النجار . دار الكتب ١٩٥٢ ـ ١٩٥٦ .
- دلائل الاعجاز : لعبد القاهر الجرجانى . الطبعة الخامسة بدار المنار ١٣٧٢ هـ .
- ديوان أبى تمام بشرح التبريزى : (١ ـ ٤) تحقيق الأستاذ محمد عبده عزام . دار المعارف ١٩٥١ ـ ١٩٦٥ .
- ديوان ابن أبى حصينة : سمعه وشرحه أبو العلاء . تحقيق وتقديم د. محمد أسعد طلس دمشق ١٩٥٦ .
- ديوان البحترى (جـ٣) : تحقيق الأستاذ حسن كامل الصيرفى . دار المعارف ١٩٦٤ .
- ديوان جرير : ط دار صادر ببيروت .
- ديوان علقمة الفحل بشرح الشنتمرى : تحقيق الأستاذين لطفى الصقال ودرية الخطيب . حلب ١٩٦٩ .

- ديوان المتنبى . تحقيق وتقديم د. عبد الوهاب عزام . لجنة التأليف ١٩٤٤ .

- ذيل تاريخ دمشق : لابن القلانسى . بيروت ١٩٠٨ .

- رسائل أبى العلاء . طبعة مرجليوث . أكسفورد ١٨٩٨ .

- الرسالة الحاتمية : للحاتمى ـ ضمن التحفة البهية ـ ط الجوائب ١٣٠٢ هـ.

- رسالة الغفران : لأبى العلاء . تحقيق د. بنت الشاطىء .

الطبعة الأولى بدار المعاف ١٩٥٠ .

الطبعة الثانية بدار المعارف ١٩٥٧ .

الطبعة الثالثة بدار المعارف ١٩٦٣ .

الطبعة الرابعة بدار المعارف ١٩٦٨ .

الطبعة الخامسة بدار المعارف ١٩٦٩ .

- رسالة الغفران ورسائل أخرى : لأبى العلاء . الطبعة الثالثة . فى أربعة أجزاء . شرح وتلخيص الأستاذ كامل كيلانى . دار المعارف ١٩٤٣ .

- رسالة الملائكة : لأبى العلاء . تحقيق الأستاذ محمد سليم الجندى . دمشق ١٩٤٤ .

- رسالة الهناء : لأبى العلاء . شرح الأستاذ كامل كيلانى . مطبعة الاعتماد بالقاهرة ١٩٤٤ .

- زبدة الحلب من تاريخ حلب : لابن العديم . تحقيق د. سامى الدهان . دمشق ١٩٥٠ .

- زجر النابح : لأبى العلاء . تحقيق د. أمجد الطرابلسى . دمشق ١٩٦٥ .

- سر الفصاحة : لابن سنان الخفاجى . تحقيق الشيخ عبد المتعال الصعيدى . صبيح ١٩٥٣ .

- سمط اللآلى : لأبى عبيد البكرى (١ – ٢) . تحقيق الأستاذ عبد العزيز الميمنى . لجنة التأليف ١٩٣٦ .

- شرح التبريزى لأبى تمام = انظر : ديوان أبى تمام بشرح التبريزى .

- شرح التنوير على سقط الزند : للخويى (١ – ٢) المعارف العلمية ١٣٤٣ هـ – ١٩٢٤ م.

- شرح ديوان ابن أبى حصينة = ديوان ابن أبى حصينة : سمعه وشرحه أبو العلاء .

- شرح ديوان الحماسة : للتبريزى (١ – ٤) نشرة الشيخ محمد محيى الدين عبد الحميد بمطبعة حجازى ١٩٤٠ .

- شرح ديوان الحماسة للمرزوقى (١ – ٤) نشرة الأستاذين أحمد أمين وعبد السلام هارون . لجنة التأليف ١٩٦٧ – ١٩٧٢ .

- شرح ديوان المتنبى : للواحدى . برلين ١٨٦١ م.

- شرح سقط الزند للبطليوسى – ضمن شروح السقط –

- شرح سقط الزند للتبريزى – ضمن شروح السقط –

- شروح السقط (١ - ٥) عمل لجنة احياء آثار أبى العلاء . دار الكتب ١٩٤٥ - ١٩٤٩ .

- شرح ما يقع فيه التصحيف : لأبى أحمد العسكرى . تحقيق الأستاذ عبد العزيز أحمد . مصطفى الحلبى ١٩٦٣ .

- شرح المختار من لزوم مالا يلزم : للبطليوسى ج ١ تحقيق د. حامد عبد المجيد . دار الكتب ١٩٧٠ .

- الشعر والشعراء : لابن قتيبة . الطبعة الثانية . تحقيق الشيخ أحمد شاكر . دار المعارف ١٩٦٦ .

- صبح الأعشى للقلقشندى (١ - ١٤) دار الكتب ١٣٣٨ هـ .

- الصبح المنبى عن حيثية المتنبى : للبديعى . تحقيق الأستاذ مصطفى السقا وآخرين . دار المعارف ١٩٦٣ .

- طبقات فحول الشعراء : لابن سلام الجمحى . تحقيق الأستاذ محمود شاكر . دار المعارف ١٩٥٢ .

- عبث الوليد : لأبى العلاء . دمشق ١٣٥٥هـ - ١٩٣٦م .

- العمدة لابن رشيق . نشرة الشيخ محمد محيى الدين عبد الحميد الثالثة - السعادة ١٣٨٣هـ .

- عنوان المرقصات والمطربات : لابن سعيد المغربى . جمعية المعارف ١٢٨٦هـ .

- عيار الشعر لابن طباطبا . تحقيق د. طه الحاجرى ومحمد زغلول سلام . التجارية ١٩٥٦ .

- الفصول والغايات لأبى العلاء (جـ١) • تصحيح محمود زناتى • مطبعة حجازى ١٣٥٦هـ •

- فهارس صبح الأعشى • للأستاذ محمد قنديل البقلى • عالم الكتب ١٣٩٢هـ •

- الفهرست لابن النديم • طبعة المكتبة التجارية بدون تاريخ •

- القاموس المحيط : للفيروز ابادى : ط ٢ • مصطفى الحلبى ١٣٧١هـ •

- الكتاب : لسيبويه : طبعة بولاق ١٣١٦ ـ ١٣١٨ هـ •

- كتاب أرسطو فى الشعر : تحقيق ، وترجمة ، ودراسة د• شكرى عياد • دار الكتاب العربى ١٣٨٧هـ •

- كتاب الصناعتين : لأبى هلال العسكرى • تحقيق البجاوى وأبى الفضل • عيسى الحلبى ١٩٧١ •

- الكشف عن مساوىء المتنبى : للصاحب بن عباد • تحقيق الشيخ محمد حسن آل ياسين • بغداد ١٩٦٥ •

- كليلة ودمنة : لبيدبا الهندى • ترجمة ابن المقفع • بيروت ١٩٠٢ •

- لباب الآداب : لأسامة بن منقذ • تحقيق الشيخ أحمد شاكر • الرحمانية ١٩٣٥ •

- لزوم مالا يلزم : لأبى العلاء • جزآن • تحقيق أمين عبد العزيز الخانجى ١٣٤٢هـ •

- لزوم مالا يلزم : لأبى العلاء جـ١ تحقيق وشرح الأستاذ ابراهيم الابيارى • التربية والتعليم ١٣٧٨هـ •

- لسان العرب لابن منظور • بولاق ١٣٠٨هـ - ١٨٩١م •
- المثل السائر لابن الأثير (١ - ٤) تحقيق الدكتورين أحمد الحوفى وبدوى طبانة • نهضة مصر ١٩٦٥ •
- مختار الصحاح : لمحمد بن أبى بكر الرازى • الأميرية ١٣٢٣هـ •
- مروج الذهب : للمسعودى • طبعة الشيخ محمد محيى الدين عبد الحميد • دار الشعب ١٩٦٦ •
- المزهر للسيوطى • عيسى الحلبى ١٣٦١هـ •
- المصباح المنير للفيومى • المطبعة العلمية ١٣١٥هـ •
- معجم الأدباء : لياقوت الحموى • دار المأمون ١٣٥٥هـ •
- المقدمة : لابن خلدون • المطبعة الخيرية ١٣٢٢هـ •
- المنتظم : لابن الجوزى • حيدر آباد الدكن ١٣٥٨هـ •
- الموازنة بين شعر أبى تمام والبحترى : للآمدى • تحقيق الأستاذ السيد صقر • دار المعارف ١٩٦١ - ١٩٦٥ •
- الموشح للمرزبانى • تحقيق الأستاذ على البجاوى • نهضة مصر ١٩٦٥ •
- النجوم الزاهرة : لابن تغرى بردى • دار الكتب ١٣٤٨ - ١٣٧٥هـ •
- نفح الطيب للمقرى • ليدن ١٨٥٨ - ١٨٦١م •
- نقد الشعر لقدامة بن جعفر • تحقيق الأستاذ كمال مصطفى - الخانجى ١٩٦٣ •

نهاية الارب للنويرى (١ - ١٨) دار الكتب ١٩٢٣ - ١٩٥٥ •

- الورقة لابن داود الجراح ط٢ بدار المعارف : تحقيق د. عبد الوهاب عزام وعبد الستار فراج .

- الوساطة : للقاضى الجرجانى . ط٤ تحقيق الأستاذ على البجاوى - عيسى الحلبى ١٩٦٦ .

- وفيات الأعيان : لابن خلكان (١ ـ ٤) طبعة الشيخ محمد محيى الدين . القاهرة ١٩٤٨ .

(جـ) مطبوعات للمحدثين :

- أباطيل وأسمار : للأستاذ محمود شاكر . مطبعة المدنى ١٩٦٥ .

- أثر كف البصر على الصورة عند أبى العلاء : للأستاذة رسمية السقطى بغداد ١٩٦٨ .

- أسرار الحماسة : للشيخ سيد المرصفى جـ١ مطبعة ابو الهول ١٩١٢ .

- الأسس الجمالية فى النقد العربى : للدكتور عز الدين اسماعيل . دار الفكر ١٩٥٥ .

- الأسس المبتكرة لدراسة الشعر الجاهلى : للأستاذ عبد العزيز الأزهرى . مطبعة العلوم ١٩٥٠ .

- أشتات مجتمعات فى اللغة والأدب : للعقاد ط٢ دار المعارف ١٩٦٣ .

- اعجاز القرآن : للرافعى . ط٢ . الرحمانية ١٩٢٦ .

- الإنشاء والمنشئون : لمحمد كرد على . بمجلة المجمع العلمى بدمشق م ٥ جـ٢ ص ٨٥ سنة ١٩٢٥ .

- أوهام شعراء العرب فى المعانى : لأحمد تيمور • دار الكتاب العربى ١٩٥٠ •

- تاريخ آداب اللغة العربية : لجرجى زيدان (١ ـ ٤) دار الهلال بدون تاريخ •

- تاريخ الأدب العربى : لبروكلمان (١ ـ ٣) ترجمة د• عبد الحليم النجار • دار المعارف ١٩٥٩ ـ ١٩٦٢ •

- تاريخ النقد الأدبى عند العرب : للأســـتاذ طه ابراهيم • لجنة التأليف ١٩٣٧ •

- تأبين الشيخ محمد الحبيب بن الخوجة للشـــيخ محمد الطاهر بن عاشور : فى الدورة السابعة والثلاثين للمجمع اللغوى ١٣٩٠هـ •

- تجديد ذكرى أبى العلاء • د• طه حسين • ط٦ • دار المارف ١٩٦٣ •

- الجامع فى أخبار أبى العلاء وآثاره : للأستاذ محمد سليم الجندى (١ ـ ٣) دمشق ١٩٦٢ •

- الحركة النقدية حول مذهب أبى تمام : للدكتور محمود الربداوى • بيروت ١٩٦٧ •

- حكيم المعرة : للدكتور عمر فروخ ـ بيروت ١٩٤٤ •

- الدرعيات : بحث للدكتور عبد الله الطيب ضمن « مجموعة البحوث والمحاضرات » للدورة ٢٨ بالمجمع اللغوى •.

- ديوان المتنبى فى العالم العربى وعند المستشرقين : لبلاشير ، ترجمة د• أحمد بدوى • نهضة مصر ١٩٥١ •

- ذكرى أبى الطيب بعد ألف عام : للدكتور عبد الوهاب عزام . بغداد ١٩٣٦ .

- رجعة أبى العلاء : للعقاد ط٢ القاهرة ١٩٤٣ .

- سر اعجاب المعاصرين بأبى العلاء : للدكتور محمد كامل حسين « البحوث والمحاضرات » للدورة ٣٢ بالمجمع اللغوى .

- الشخصية فى سوائها وانحرافها : للدكتور مصطفى فهمى . الدار المصرية للتأليف ١٩٦٦ .

- شياطين الشعراء : للدكتور عبد الرزاق حميدة . الأنجلو ١٩٥٦ .

- ظاهرة التكسب : للدكتور عبد الله درويش . نهضة مصر ١٩٧٠ .

- أبو العلاء المعرى : للدكتورة بنت الشاطىء . سلسلة أعلام العرب ١٣٨٤هـ - ١٩٦٥م .

- أبو العلاء بين شعراء العربية : لفخرى أبى السعود . مجلة الهلال يونية ١٩٣٨ عدد خاص .

- أبو العلاء ناقد المجتمع . لزكى المحاسنى . دار الفكر ١٣٦٦هـ - ١٩٤٧م .

- على المحك : لمارون عبود . بيروت ١٩٤٦ .

- على هامش الغفران . د. لويس عوض . دار الهلال ١٩٦٦ .

- الغربال : للأستاذ ميخائيل نعيمة ط٧ بيروت ١٩٦٤ .

- الغفران دراسة نقدية : للدكتورة بنت الشاطىء . ط٢ . دار المعارف ١٩٦٢ .

- فلسفة أبى العلاء مستقاة من شعره : للأســتاذ حامد عبد القادر . لجنة البيان العربى ١٩٥٠ .
- الفن ومذاهبه فى الشعر العربى : للدكتور شوقى ضيف . ط٥ . دار المعارف ١٩٦٥ .
- فى النقد الأدبى للدكتور شوقى ضيف . دار المعارف ١٩٦٢ .
- لزوم مالا يلزم : بحث للدكتور عبد الوهاب عزام بـــ « المهرجان الألفى لأبى العلاء » دمشق ١٣٦٤هـ .
- المتنبى بين ناقديه : للدكتور محمد شعيب . دار المعارف ١٩٦٤ .
- مجلة الثريا بتونس . عدد خاص بالمعرى ابريل ١٩٤٤ .
- المرشد الى فهم أشعار العرب : للدكتور عبد الله الطيب (١ ـ ٣) دار الفكر ١٩٧١ .
- مصادر الشعر الجاهلى : للدكتور ناصر الدين الأســـد ط٢ . دار المعارف ١٩٦٢ .
- مطالعات فى الكتب والحياة : للعقاد . المطبعة التجارية ١٣٤٣هـ ـ ١٩٢٤م .
- المعاجم فى ضوءعلم اللغة الحديث: د. محمد أبو الفرَج . دار نهضة العربية ١٩٦٦ .
- معالم النقد الأدبى . د. عبد الرحمن عثمان . مطبعة المدنى ١٩٦٨ .
- المعرى الناقد : للشيخ عبد العزيز البشرى . مجلة الهلال . يونية ١٩٣٨ .
- المعرى هل كان سابقا لعصره : لعبد الرحمن شكرى . مجلة الهلال يونية ١٩٣٨ .

- مقدمة عبث الوليد : للأمير شكيب أرسلان • دمشق ١٣٥٥هـ - ١٩٣٦م•
- مقدمة عبث الوليد : للدكتور محمد حسين هيكل • دمشق ١٣٥٥هـ - ١٩٣٦م •
- مناهج تجديد : للأستاذ أمين الخولى • دار المعرفة ١٩٦١ •
- الموسيقى عند أبى العلاء : لفخرى أبى السعود بـ « المهرجان الألفى لأبى العلاء » ١٣٦٤هـ •
- النقد الأدبى : لأحمد أمين ط٣ لجنة التأليف ١٩٦٣ •
- النقد الأدبى الحديث : د• محمد غنيمى هلال • دار الشعب ١٩٦٤ •
- نقد ديوان عبد الرحمن صدقى : للعقاد • مجلة المجمع اللغوى (ع٩) ١٩٥٣ •
- النقد المنهجى عند العرب : للدكتور محمد مندور • نهضة مصر ١٩٤٨ •
- النقد واللغة فى الغفران • للدكتور أمجد الطرابلسى • دمشق ١٣٧٠هـ - ١٩٥١م •
- هل تنعكس شخصية الشاعر على شعره ؟ للأستاذ ابراهيم اللبان : « البحوث والمحاضرات » للدورة ٣٤ بالمجمع اللغوى •
- يسئلونك : للعقاد • نهضة مصر ١٩٤٦ •
- يوميات : للعقاد • القاهرة ١٩٦٤ •

محتويات الكتاب

صفحة

المقـــدمة ٣

الفصل الأول : عوامل تكوين الناقد الأدبى فى أبى العلاء ١١

(أ) عوامل عامة : الوراثة ١٣ ـ الزمان والمكان ١٨

(ب) عوامل خاصـة : فقـده لبصره ٢٣ ـ اسـتعداده الذوقى ٢٩ ـ ذكاؤه ٣٢ ـ ثقافته ٣٤ ـ اتجاهه الفلسـفى ٤٦ ـ اعتقـاده ٥٠ ـ خلقـه ٥٦ ـ سخريته ٦١ ـ قدرته الابداعية ٦٣ ـ قدرتـه التعليمية ٦٦ ـ استشراف الشعراء لرأيه فيهم ٦٨ .

الفصل الثانى : مصادر نقده : ٧١

(أ) الرواية عنه ٧٣

(ب) تصانيفه ٧٧ :

١ ـ الشـعر ٧٨ = سـقط الزند ٧٨ ـ لـزوم مالا يلزم ٨١

٢ ـ الرسـائل ٨٣ = المنيح والاغـريض ٨٥ ـ رسالته الى النكتى البصرى ٨٧ ـ رسالته

صفحة

الى بعض كتاب الديـــوان ٩٠ ـ رسـالة الغفران ٩٢ـ رسالتاه الى داعى الدعاة ٩٤

٣ ـ الشروح ٩٥ = عبث الوليد ٩٦ ـ ضوء السقط ١٠٠ ـ زجر النابح ١٠٢ ـ شرح ديـوان ابن أبى حصينة ١٠٤ ـ الرياشى المصطنعى ١٠٧ـ ذكرى حبيب ١٠٩ـ اللامع العزيزى ومعجز أحمد ١١٢ .

٤ ـ كتب أخرى = الفصول والغايات ١٢٧ ـ خطبة الفصيح ١٢٨ .

الفصل الثالث : اتجاهات نقده وخصائصه : ١٣١

أساس تحديدها وترتيبها ١٣٣

الاتجاه الأول : تعريف وتبين

الشـعر ١٣٥ ـ اختصـاص العرب بـه ١٣٧ ـ أوليته ١٣٩ ـ بقاؤه وتجدده ١٤١ ـ مصـــدره عند قائله ١٤٤

الاتجاه الثانى : تحقيق النصوص : ١٦٤

(أ) النظر فى النسبة ١٦٦ = نفيها ١٦٨ ـ اثباتهـــا ١٧٨ ـ النفى والاثبـــات ١٨٢ ـ التوقف عن النفى والاثبات ١٨٤ .

(ب) النظر فى المتن ١٨٦ = أصالته فيه ١٨٧ ـ أسسه عنده ١٩٢ .

صفحة

الاتجاه الثالث أ تحليل وتقويم : ٢١٦
ماذا نعنى بالتحليل والتقويم ٢١٦

لغة النصوص ٢١٩ = التاريخ الفنى لبعض الألفاظ
والتراكيب ٢١٩ ـ تأصيل التعبير ٢٢٣ ـ وجه
الخصوصية فى بعض التعبيرات ٢٢٥ ـ مايؤثره
فى الكلمات ٢٢٨ ـ مايؤثره فى التراكيب ٢٤٠
دفاع عن بعض ماعيب ٢٥٨ ـ توجيه بعض
ماخولف فيه ٢٦٣ ٠

معانى النصوص = تأويلها ٢٧٣ ـ تأصيلها ٣٠٠ ـ
تعليلها ٣٠٢ ـ مايؤثره فيها ٣٠٣ ـ جديدها
ومسبوقها ٣٢٠ ـ توجيه بعضها ٣٢٥ ـ دفاع
عن بعض ماعيب منها ٣٢٨

الصنعة الفنية = التشبيه ٣٣٧ ـ الاستعارة ٣٤٨ ـ المثل
٣٥٦ ـ المجاز ٣٥٨ ـ السجع ٣٥٩ ـ الجناس
٣٦٠ ـ التورية ٣٦١ ـ المقابلة ٣٦١ ـ مراعاة
النظير ٣٦٣ ـ الطاعة والعصيان ٣٦٢

الأوزان والقوافى ٣٦٧ = الأوزان والقوافى الخاصة
٣٦٩ ـ الأوزان الشريفة والضعيفة ٣٧٤ ـ
الأوزان المضطربة والشاذة ٣٨٠ ـ القوافى
من حرف المعجم ٣٨٩ ـ أقسام القوافى ٣٩١ ـ
لزوم مالايلزم ٣٩٥ ـ القوافى المعيبة ٣٩٧ ـ
انشاد الشعر ٤٠٤ ٠

صفحة

البناء الفنى = من حيث الأسلوب ٤١١ ـ والموسيقى
٤١٤ ـ والمعانى ٤١٦ .
مذاهب الشعراء = العامة والخاصة ٤٢٠

الاتجاه الرابع : الموازنة : ٤٣٠

بين القرآن وغيره من فنون الأدب ـ بين
المأخوذ والمأخوذ منه ـ بين الأوزان الشريفة
والضعيفة ـ بين القصيد والرجز ٤٣٠ ـ بين
موصوفات بعض الشعراء ونظائرها فى الجنة
٤٣٥ ـ بين بعض القصائد ٤٣٧ ـ بين فنون
بعض الشعراء ٤٣٨ ـ بين بعض الشعراء ٤٣٩

الاتجاه الخامس : غاية الشعر والأدب . ٤٤٣

التذكير والاعتبار ٤٤٤ ـ اللذة والاشتهار ٤٤٦ ـ
تمجيد الله سبحانه ٤٤٧ ـ الغفران فى الآخرة
٤٤٩ ـ التكسب ٤٥١ ـ الأغراض المنحرفة ٤٥٦ ـ
الأساس فى هذه الغايات ٤٦٣ .

خصائص نقد أبى العلاء = ٤٦٦

نظرته الى مصدر الابداع الشعرى ٤٦٦ ـ
مقاييسه العامة ٤٦٦ ـ قيمه الجمالية ٤٧٢ ـ
ذاتيته وموضوعيته ٤٧٤ ـ تأثره واستقلاله
٤٨٠ ـ حيزه بالنسبة الى سابقيه ومعاصريه
٤٨٣ ـ مذهبه ٤٨٦ .

الفصل الرابع : أصداء نقده فى أدبه : ٤٨٩

فى كيفية الابداع الشعرى ٤٩٠ ــ وفى اللغــة ٤٩١ ــ وفى المعانى ٤٩٦ ــ وفى الصنعة الفنية ٥٠٣ ــ وفى موسيقية التعبير ٥٠٨ ــ وفى البناء الفنى ٥١٠ ــ وفى الغاية من الأدب ٥١١ ·

الفصل الخامس : نقده فى آثار الدارسين : ٥٤٣

(أ) القدماء = في القرن الخامس ٥٢٤ ــ وفى السادس ٥٢٧ ــ وفى السابع ٥٢٨ ــ وفى الثامن ٥٣٥ ــ وفى التاسع ٥٣٥ ــ وفى الحادى عشر ٥٣٦ ·

(ب) المعاصرين = ١ ــ فى التنــاول العــام لدى : جرجى زيــدان ٥٣٧ ــ الشــيخ سيد المرصفى ٥٣٧ ــ العقاد ٥٣٧ ــ محمد كرد على ٥٣٨ ــ الرافعى ٥٣٩ ــ د : محمد مندور ٥٣٩ ــ أحمد أمين ٥٣٩ ·

٢ ــ فى التناول الخاص د : طه حسين ٥٤٠ ــ محمد حسين هيكل ٥٤١ ــ الشيخ عبد العزيز البشرى ٥٤١ ــ د : زكى المحــاسنى ٥٤٣ ــ د : أمجــد الطرابلسى ٥٤٥ ــ د : بنت الشاطىء ٥٤٨ ــ محمــد ســليم الجنــدى ٥٥٠ ــ د : عبد الرزاق جميدة ٥٥٣ ــ د : محمد شعيب ٥٥٥ ــ د : مجمود الريداوى ٥٥٩

الخاتمـــة ٥٦٥

أهم المصادر والمراجع ٥٧١

رقم الايداع ٢٤٠٣ / ٨٧

ترقيم دولى ٠ ـ ١٩٨٠ ـ ٠٢ ـ ٩٧٧

دار التضامن للطباعة

٢٢ شارع سامى ـ ميدان لاظوغلى

تليفون : ٣٥٥٠٥٥٦ ـ القاهرة

استدراك

ص / س		
٣/١	آللفظ	اللفظ
١٠/٦	حـُقـّقـت	حـقـّقـْت
٢/١٧	شاعر	شاعـّرا
١٥/٢٣	بألعصفره	بالعصفر
١٢/٢٧	الدنـَيا ، وعندى	الدّنيا ، وعندىَ
١٨/٢٩	أنظر	انظر
١٣/٣٨	بـمجمـَع	بمجمع
٣/٤١	اضافية	ضافية
٢/٤٢	قرأ القرآن	قرأ فيها القرآن
٢٠/٤٨	فاتبعته	فاتبعنه
١/٤٩	صادقة	صادقةً
١١/	رين	رين
٨/٥٥	تأليفه	تآليفه
١١/٥٧	عندى	عندىَ
١٧/٦٦	يتجاز	يتجاوز
١٨/٦٧	كن	كان
٦/٦٨	تستثير	تستثير
١٦/٧٣	مباشرا	مباشرة
/٧٤	السطر الثانى هو الأول	
١١/٨٠	التوالى فى	التوالى فلها فى
١٥/٩٣	بقسيها	بقسميها
٨/١٠٨	ريش	رياش
٩/١٠٩	لنا نسألَ	لنا أن نسأل
٨/١١٣	سبيلها	سبيلهما
١٠/١١٦	تاطبقهما ، تاطبقا	تطابقهما ، تطابقا
١٦/	أرأ	أراه
١٨/١١٩	الثر	الثريا
١٢/١٢٢	شأنه	سأنه
٧/١٢٥	سلفنا	أسلفنا
١٦/	أبان	وأبان
١٩/١٢٩	رسالته	رسالتيه
٢٣/١٣٣	برونتير	برونتيير
٦/١٣٤	وبالكشف	وبالكشف
٢/١٤٠	ومن أنه	من أنه
١٢/١٤٣	مذهب	ما ذهب
١٨/	القلوب	القلب

ص / س		
١/١٤٤	مصدر	مصدر
٢٠/	علم	نقد علم
١٩/	لا يقره	لا يقرره
١/١٤٧	والعجب	والتعجب
٢٢/١٤٩	حسن	حس
١٩/١٥٥	ببن الأسد	بين يدى الأسد
١٣/١٥٦	أنشأ	أنشأه
١١/١٥٧	ذوى	ذو
٢٢/١٦٠	وشح	وشج
٤/٢٠١	منظورا	منظور
١٢/	يضم	بضم
٢٣٦/	السطر العاشر بعد الثالث عشر	
١٠/٢٤١	— فيما	— فيما يبدو —
١٢/٢٥٢	ـــل	فظل
٤/٢٥٥	غيره	وغيره
٦/	مآخذته	مؤاخذته
١٦/٢٦٤	بن	بأن
٨/٢٦٩	السطر الثامن سقط وهو : لكن اذا ذكرنا قوله فى ص ٤٥ : وما أظن أن العرب نطقت بكلمة رلـ، أعرفها — حرنا	
٣/٢٨٠	ان التطور	أى ان التطور
١١/	أو ريما	أو كريما
١٦/٢٩١	مذهبَ	مذهبُ
٨/٢٩٧	هو	وهو
٧/٣٠١	وصلـّيانا	وصلـّيانا
٧/٣٠٨	وسمى	« وسمّى
٤/٣٢٥	قعوداً	قعوداً
٨/	« أن	أن
١٢/٣٤٢	راد	أراد
٢١/	فـ أن	فكأن
١٥/٣٥٥	الجلاس »	الجلاس » (٤٦)
١٠/٣٦٧	طرائفه	طرائقه
١٧/٣٦٩	ونظراته	نظراته
/٣٧٨	السطر الرابع بعد الخامس	
٨/٣٨٨	يرى	يرمى

ص / س		
١/٣٩١	الحكم	الكلم
١٣/	(اضل)	لام (أضل)
٢٥/٣٩٦	حرزات	خرزات
٢٦/	الآخر	الآجر
١٠/٤٠٤	تيتك	أتيتك
٤/٤٠٥	نكاد من	نكاد نجد من
١/٤٢٣	ذلك غير	ذلك فى غير
١/٤٢٨	والاعراب	والاغراب
١٩/٤٣٢	مشطروا	مشطوراً
١/٤٣٣	من	أكثر من
١٥/٤٣٤	الجندك	الجندل
١٩/٤٤٥	وكان	وكأن
١٠/٤٤٨	سبحاسا	سبحانا
٣/٤٤٩	أثنى	وأثنى
١٥/٤٥١	لم	أغراض لم
٦/٤٥٤	شنّ	شنّ
٧/٤٥٦	وصفكَ	وصفتكَ
١٠/	رئ	امرىء
٢١/	برّم	برم
١٦/٤٥٨	وشمعره	وشمعر
٢٤/	وخزاهة	وخزانة
٢٤/	رَويدك	رُويدك
٢١/٤٦٥	فرجت	مزجت
١٠/٤٦٧	من الشعر	من الشعراء
١٥/٤٧١	تأصيل	فى تأصيل
١٩/٤٧٢	(٢٧)	(٢٧) ؟
٧/٤٧٧	يبعضه	يبغضه
١/٤٩٠	أصداء	أصداء
٣/٥٠٩	بقى السريع	بقى ففى السريع
٢٢/٥١٠	لارفضّ	لا رفضّ
١٤/٥١٣	اتلذذ بأدبى	تلذذا بأدبى
٢٤/٥١٤	الضعف الراى	ضعف الرأى
٤/٥١٧	قداف	تذاف
١٢/٥١٩	اذا	واذا
٢٠/٥٤٠	استدل	واستدل
١/٥٦٠	« أنه	بـ « أنه
١٦/٥٦٥	الدارسين	آثار الدارسين

١٢١٧٧١/٠١
Bibliotheca Alexandrina
04099982